المجلس الأعلى للثقافة

الروائع من الأدب العربي

الجزء الأول

العصر الجاهلي

طبعة ثانية



إشراف ومراجعة
د.يوسف خليف

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة الدراسات الأدبية

الروائع من الأدب العربي

الجزء الأول

العصر الجاهلي

الطبعة الثانية

إشراف ومراجعة
الدكتور يوسف خليف



٢٠٠١

اشترك فى إعداد هذه المجموعة من «الروائع» :

الأستاذ سعد درويش

الدكتور سيد حنفى حسنين

» طه وادى

» عبد الله التطاوى

» محمد حمدى إبراهيم

» محمد مصطفى هدارة

» نبيل راغب

» يوسف خليف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

* * *

مقدمة

هذه المجموعة من النصوص المختارة من الأدب الجاهلي هي المجموعة الأولى من سلسلة « الروائع من الأدب العربي » التي يَسُرُّ لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة أن تقدمها إلى المجتمع الأدبي في الوطن العربي الكبير ، إسهاما منها في إضاءة مِشْعَلٍ جديد إلى جانب المشاعل الكثيرة التي تضيء أرجاء هذا الوطن الخالد الذي تضرب جذوره الحضَاريّة في الأرض الطيبة التي نعتز جميعا بالانتماء إليها منذ آلاف السنين .

وسلسلة « الروائع » هي أول المشاعل التي تأمُلُ اللجنة أن تُضِيئها على طريق النور في مجتمعنا الأدبي . وهي سلسلة وضعت اللجنة في خطتها — منذ تشكيلها الجديد في أكتوبر سنة ١٩٨٠ — أن تصدر في عشرة أجزاء تغطي أدبنا العربي شعرا ونثرا على امتداد رحلته الطويلة التي امتدت أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان، منذ أن بدأ هذا الأدب نبتا صحراويا فوق رمال الجزيرة العربية في العصر الجاهلي إلى أن انتشرت حدائقه وجناته في كل أرجاء وطننا العربي في العصر الحديث .

ومع قافلة الأدب العربي التي خرجت من أعماق الجزيرة بعد أن أشرقت أرضها بنور ربها حاملة معها المَشَاعِلَ العربية إلى آفاق الأرض، ومضت تُوَاصِل

رحلتها على امتداد هذه القرون المتطاولة ، رأت اللجنــة أن تساير هذه القافلة على امتداد رحلتها التاريخية الطويلة ، فوضعت فى خُطّتها أن يكون الجزء الأول للعصر الجاهلى ، والثانى للعصر الإســلامى ، والثالث للعصر الأموى ، والرابع للأدب العربى فى الأندلس والمغرب وصقلية ، والخـامس والسادس للعصر العباسى ، والسابع للأدب العربى فى العصور الوسطى ، والثامن والتاســع للأدب فى العصر الحديث ، وأن يُخَصَّص الجزء العاشر لمجموعة الفهارس المختلفة لهــذه الموسوعة الضخمة التى تتوقع اللجنة أن تبلغ أكثر من خمسة آلاف صفحة .

ورسمت اللجنة خُطّة عملها على أساس أن تقدّم لكل مجموعة من هذه السلسلة بدراســة شاملة تغطى جوانب العصر الذى تقف عنده ، وترسم صورة دقيقة لحركة الأدب فيه ، شعره ونثره ، وترصد اتجاهاته ومذاهبه ومدارسه الفنية ، وأعلام الأدباء الذين حرّكوا حياته الأدبية ووجّهوها ، والعوامل المختلفة التى تقف وراء هذه الحركة ، ومظاهر التطور والتجديد فيها ، ثم تبدأ بعد ذلك مجموعات النصوص المختارة مشروحة ومُعَلَّقاً عليها ، مع تراجم لأصحابها تُعَرِّف بهم ، وعرض لكل نص من خلال التعريف به و بمناسبته التى قيل فيها . ورأت اللجنة ألّا تطيل فى هــذه التراجم أو فى التحليل الفنى للنصوص ، على أمل تمنى على الله أن تحققه فى إصــدار موسوعة أخرى لأعلام الأدب العــربى على امتــداد عصوره و بيئاته تقــدّم فيها دراسات موسّعة لهؤلاء الأعلام ودورهم فى الحياة الأدبية ، و إصدار سلسلة من الدراسات النقدية لنصــوص مختارة من الأدب العــربى تقف منهــا موقف التحليل والنقد والتقويم .

* * *

ونحن نعرف أن فكرة الاختيارات من الأدب العربى قديمة منذ عصر التدوين فى القــرن الثانى الهجرى ، عندما اختار حماد الراوية المعلقات ، واختار المفضّل المفضليات ، واختار الأصمعى الأصمعيات ، واختار أبو زيد القرشى الجمهرة . ثم

تواصلت الخطى على الطريق ، فظهرت الحماسات المتعددة لأبى تمام والبحترى والخالديين وابن الشجرى والبصرى وغيرهم . حتى إذا ما وصلنا إلى العصر الحديث اشتعلت من جديد حماسة جارفة فى اتجاهات أخرى من الاختيارات ، فظهرت فى مطالعه مختارات البارودى ، ثم تكاثرت الاختيارات فى كل وطن من الأرض العربية . وهى كلها — قديمها وحديثها — جهود نذكرها ونقدرها لأصحابها ، ونعتز بها تعبيرا عن ذلك الاعتزاز الذى يملأ نفس كل عربى بتراثه وحضارته .

كان هــذا كله أمامنا ونحن نفكر فى اختياراتنا الجــديدة . ولسنا نَدَّعى أنها جاءت جديدة فى كل جوانبها ، أو أننا أتينا « بمـا لم تستطعه الأوائل » ، فتلك دعوى تبـدو ظالمة لكل من شاركوا فى هــذه الجهود الرائعة على امتداد القرون الطويلة ، ولكننا أيضا لا نريد أن نظـلم أنفسنا ، فاختياراتنا جديدة فى بعض جوانبهـا . فإلى جانب الاختـلاف الذى لابد منـه بين النصوص التى اخترناها والنصوص التى اختاروها ، نتيجةً طبيعية لاختلاف الذوق الشخصى من ناحية ، وللنشاط الخصب الذى يشهده عصرنا الحديث فى تحقيق نصوص التراث وتوثيقها من ناحية أخرى ، مما أتاح لنـا فرصة الرجوع إلى أحدث ماتم تحقيقه وتوثيقه من مصادر هذا التراث ونصوصه ، تختلف اختياراتنا فى أمرين آخرين : الأول تلك المداخل التى نقدّم بها لكل مجموعة منها ، والتى نتتبع فيهـا حركة الأدب فى كل عصر ، لرصد اتجاهاته ومذاهبه ومدارســه ، والكشف عن عناصر الأصالة والتجديد فيه . والأمر الآخر ذلك التصنيف الجديد للتراث الأدبى فى كل عصر ، وهو تصنيف لا يربط بين حركة الأدب وحركة التـاريخ السياسى ، وإنمـا يقوم على أساس التطور الفنى له الذى نستطيع من ورائه أن نتمثـل حركة هــذا الأدب فى كل عصر ، ثم بعد ذلك حركته على امتداد عصوره المتعاقبة . وفى هذه المجموعة

الأولى نقدم محاولة جديدة فى تصنيف الشعر الجاهلى على أساس النظرية الجديدة التى نسجلها فى مدخل هذه المجموعة الأولى من « الروائع » .

* * *

هذه محاولة حاولناها تضافرت عليها جهود الزملاء من أعضاء لجنة الدراسات الأدبيـة بالمجلس الأعلى للثقافة ، عكفوا عليها جادّين مخلصين ممتثلين الهدف الذى وضعناه نُصْبَ أعيننا ونحن ندرس هذا المشروع ، ونحدّد خطوات العمل فيه ، وفى أعماق كل منهم جذوة تتوقد من نار حماسة لا تنطفئ لتحقيق الأمـل الكبير الذى عاشت اللجنة عليـه الليالىَ ذواتِ العـدد ، وما زالت تعيش عليـه لإنجـاز الأجزاء التسعة الباقية التى ستشكل حين تكتمل أكبر وأدق مجموعة من مجموعات الاختيارات عرفها تاريخنا الأدبى ، وفى غير مبالغة على امتداد عصوره أيضا .

ووراء جهود هؤلاء الزملاء ، يقف جهد زميلة كريمة لم تدخر وسعا فى تهيئة كل ظروف العمل للجنة ، ولم تضن بوقت ولا جهد فى سبيل إنجاح عملها ، وهى السيدة عائشة أحمد عبد الرحمن سكرتيرة اللجنة التى نعتز بها ، ونقدم لهـا الشكر صادقا على جهودها المخلصة الصادقة .

* * *

والله نسأل أن يمدنا بعونه لتحقيق هذا الأمل الكبير ، وأن يسدد خطانا على طريق هذا العمل الضخم ، حتى نستكمل إضاءة المشاعل الجديدة التى نتمنى إضاءتها فى جَنَبات مجتمعنا الثقافى ، وأن يجنّبنا الزلل ، ويباعد بيننا و بين فتنة القول وفتنة العمل ، وألاّ يجعلنا ممن ينطبق عليهم قول المتنبى العظيم :

وأَتْعَبُ خَلْقِ اللهِ مَنْ زاد هَمُّـه ... وقَصَّرَ عما تَشْتَهِى النفسُ وُجْدُهُ

* * *

يوسف خليف
مقرر اللجنـة

القـاهرة فى
٢١ من سبتمبر ١٩٨٢

مدخل إلى الروائع
الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

للدكتور يوسف خليف

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

ليس من اليسير أن نحدد بداية العصر الجاهلى الأدبى بصورة يقينية ، فليس بين أيدينا وثائق تاريخية أو أدبية تحدد هذه البداية الغامضة. وقد ذهب الجاحظ إلى تحديد هذه البداية بقرن ونصف قرن ، أو — على أبعد تقـدير — بقرنين قبل ظهور الإسلام : « أما الشعر فحديث الميـلاد ، صغير السنّ ، أول من نهج سبيله ، وسهّل الطريق إليه ، امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهـل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسـلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فـمائتى عام » . ولكن الجاحظ — فى الحقيقة — لم يحدد أولية الشعر العربى ، وإنمـا حدد أولية القصيدة العربية . وهو تحديد جعله يرجع بهذه الأولية إلى امرئ القيس والمهلهل اللذين يمثلان بداية ظهور القصيدة العربية ، ولكنهما لا يمثلان بداية ظهور الشعر العـربى . وذلك لأن النصوص التى وصلت إلينا من هذه المرحلة من تاريخ الشعر العـربى تمثل بنـاءً مكتملا للقصيدة العربية ، وصورة ناضجة من الناحيـة الفنية نضجا يلفت النظر إلى أنه ليس من اليسير أن تكون هذه البداية الناضجة المكتملة هى البـداية الأولى للشعر العربى ، وإنمـا لابد أن تكون قد سبقتها محاولات وتجارب قام بها رواد أوائل وطلائع مبكرة من شعراء ضلت فى الطريق إلينا أسماؤهم ، أو — على الأقل —

أسماء كثير منهم ، كما ضلت محاولاتهم وتجاربهم أو — على الأقل — كثير منها . أما ما يرويه الرواة عما قبل هذا التاريخ من نصوص وروايات فلا يعدو أن يكون مجموعة من الروايات والنصوص يحيط بها الشك والاتهام ، وإن كنا نستطيع من خلالها أن نتمثل صورة — وإن تكن غير واضحة تماما — لما نستطيع أن نطلق عليه « عصر ما قبل التاريخ الأدبي » .

والباحثون مختلفون حول طبيعة هـذه التجارب والمحاولات المبكرة اختلافا نستطيع أن نتبين من ورائه نظريتين أساسيتين تحاولان تصوُّر الخطوة الأولى التي بدأ بها الشعر حركته على طريقه الفني الطويل : نظرية قديمة ذهب إليها النقـاد العرب القدماء منذ عصر التدوين ، ونظرية حديثة يذهب إليها بعض المستشرقين ، ويتابعهم فيها بعض الباحثين المعاصرين من العرب .

أما النظرية القديمة فتذهب إلى أن الشـعر العربي بدأ رحلتـه في صورة مقطوعات قصيرة أو أبيات قليلة العدد ، يرتجلهـا الشاعر في مناسبات طارئة ليعبر بها عن انطباعات سريعة مؤقتة ، ثم أخذ الشعراء يطيلون في مقطوعاتهم ، ويزيدون من عدد أبياتها ، حتى تكاملت لهـم القصيدة في صورتها المعـروفة على يد المهلهل أيام حرب البسوس . وهي نظرية سجلها ابن سلام في مقـدمة كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وتابعه فيها ابن قتيبة في مقدمة « الشعر والشعراء » . وفي المصادر العربية القديمة إشارات إلى هذه المرحلة المبـكرة حين يتحدثون عن « قديم الشعر الصحيح » أو عن « أوائل الشعراء » .

وأما النظرية الحديثة فتذهب إلى أن الرجز كان الصورة الأولى التي بدأ بها الشعر العربي رحلته . ويؤيد ذلك أن هذا الوزن الشعري هو الصورة الموسيقية الشعبية التي كانت تتردد على ألسنة الشعب العربي القديم في كل مجالات الحياة

اليومية، وأن التراث الشعبي الذى لا حصر له يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ الأدبى المعروف ، عصر ظهور القصيدة . وهى نظرية يطمئن إليها بروكلمان اطمئنانا شديدا ، وفى رأيه أن الرجز ظهر متطورا من السجع الذى يؤكد أنه أقدم القوالب الفنية التى عرفها العرب منذ أقدم عصورهم . وربما كانت هذه النظرية — على الرغم من أن بعض الباحثين لا يطمئنون إليها ويرون أنها مجرد فرض — هى التى نستطيع أن نرى فيها أساسا صالحا لحل المشكلة ، ونتخذ منها قاعدة سليمة لتصور الموقف والاقتراب من الحقيقة الضائعة . وذلك لأن النظرية القديمة لا تقدم حلا للمشكلة ، وإنما تظل المشكلة معها قائمة ، ويظل السؤال واردا : كيف كانت البداية التى مهدت لهذه المرحلة ، وحققت لشعرائها هذا المستوى الفنى الذى يتمثل فى المقطوعة ؟ وكيف استقامت لهم هذه الصورة الدقيقة من اصطناع الوزن والقافية ؟ أو — بعبارة أخرى — كيف توصلوا إلى فكرة البيت ؟

بدأ الشعر العربى رجزا متطورا — فى أغلب الظن — من السجع ، وساعدت سهولة هذا البحر ، وقرب متناوله من الشعراء ، وطواعيته لتشكيلات موسيقية متعددة ، على اتساع مجالاته فى المجتمع الجاهلى القديم . ثم أخذت تتولد منه أوزان أخرى ، هى — فى أغلب الظن — أوزان البحور الصافية أحادية التفعيلة . وعلى هذه الأوزان أجرى الرواد تجاربهم الأولى التى انتهت بظهور فكرة « البيت » التى مهدت بدورها لظهور المقطوعة وظهور أوزان أخرى . ثم ظهرت بعد ذلك — خضوعا لسنة التطور الطبيعية — القصيدة الطويلة عند المهلهل ومعاصريه من شعراء حرب البسوس .

ومع ذلك فإننا لا نملك أن نقول : هذه هى الحقيقة التاريخية التى لا شك فيها، وإنما كل ما نملكه هو أن نقول : لعلها الحقيقة . وذلك لأن الحقيقة التاريخية لا تثبتها إلا نصوص يقينية أو وثائق ثابتة ، أما الفروض والاحتمالات فلا تكفى — بل لا تصلح — لإثباتها . وقديما قال عمر بن شبة تلميذ محمد بن سلام « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه » ، وحديثا قال بروكلمان « لا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرا صحيحا عن أولية الشعر » .

وعلى أساس هذا الفرض نستطيع أن نتصور أن الشعر العربى مر فى بداية رحلته بثلاث مراحل : مرحلة الرجز التى تمثل عصر ما قبل التاريخ الأدبى ، ثم مرحلة المقطوعة التى تمثل بداية عصر التاريخ الأدبى على الرغم من كثرة ما يحيط بنصوصها من شك واتهام ، ثم مرحلة القصيدة التى تمثل البداية الثابتة اليقينية لعصر التاريخ الأدبى الصحيح حيث تكاملت الصورة الأولى للشعر العربى ، واستقامت له موسيقاه العروضية ونظام القافية فيه، واستقرت له أصوله وتقاليده الفنية . وهى المرحلة التى ذهب الجاحظ إلى أنها هى البداية ، ورجع بها إلى قرن ونصف قرن أو — على أبعد تقدير — إلى قرنين قبل ظهور الإسلام . وهو تاريخ يعود بنا إلى حدث ضخم شهدته الجزيرة العربية فى هذه المرحلة من تاريخها القديم، وكان له أثره البعيد فى حياتها الاجتماعية والأدبية، وهو حرب البسوس التى دارت رحاها فى أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل السادس بين قبيلتى بكر وتغلب ، والتى استمرت — فيما يقول الرواة — أربعين سنة . فهذه الحرب هى التى أظهرت تلك الطليعة المبدعة من الشعراء المعاصرين لها الذين تطورت المقطوعة على أيديهم إلى قصيدة طويلة ، من أمثال المهلهل والحارث بن عُبَاد والفِنْد الزِّمَّانى وجليلة البكرية وغيرهم من الرواد الأوائل الذين يتردد ذكرهم فى أخبار

هذه الحروب ، والذين تلق عنهم شعراء الجيل التالى لهم : امرؤ القيس وعَبِيد وطرفة وأمثالهم النماذج الفنية التى خلفوها لهم فراحوا يطورونها حتى استوت لهم القصيدة العربية فى صورتها الناضجة المكتملة التقاليد التى نراها فى القرن الأخير الذى سبق ظهور الإسلام .

وساعد على اكتمال هذه الصورة ونضجها ظهورُ لغة أدبية توحدت فيها لهجات القبائل المحلية ، واختفت منها الفروق اللغوية التى تعددت بسببها هذه اللهجات ، وكانت بهذا صالحة لتكون لغة فنية للشعراء من شتى القبائل يصطنعونها فى شعرهم متسامين بها على لهجاتهم المحلية . وكان هذا بدوره إيذانا بظهور « الفصحى » ، وإرهاصا لغويا لنزول القرآن الكريم بها .

(٢)

ويختلف المستشرقون حول هذه اللغة الأدبية الموحدة اختلافا بعيد المدى . وفى محاولة للوصول إلى حقيقتها يطوف نولدكه وجويدى ونالينو وهارتمان وفولرز وبروكلمان وبلاشير خلف القبائل العربية من أقصى الجزيرة إلى أقصاها بحثا عن هذه اللغة : إلى أى قبيلة تنتمى أو إلى أى مجموعة من القبائل ؟ وهو تطواف انتهى بهم إلى تيه سحيق تشابهت فيه معالم الطريق فتاهت خطاهم فوقه ، وتاهت وراءهم خطى من تابعهم من الباحثين العرب .

وفى ظنى أن اللغويين العرب القدماء كانوا أقرب إلى الحقيقة من هؤلاء المستشرقين ، وكانوا أدق تمثلا لها ، فقد اتفق هؤلاء اللغويون على أن هذه اللغة هى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم ، وعللوا لذلك بأنها « أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها » .

ومع ذلك ففى ظنى أن هـذه النظرية العربيـة القديمة ـ على دقتها وقربها من الحقيقة ـ فى حاجة إلى شيء من التعديل حتى تكون أدق تعبيرا عن الواقع اللغوى الذى تمثـله نصوص الشعر الجاهلى فى هـذه المرحلة من تاريخ العربية، وأهم من ذلك الذى تمثله لغة القرآن الكريم . فليست هذه العربية الفصحى — فى رأيى ـ هى لغة قريش خالصةً من أى تأثير لهجى آخر، ولكنها لغة قريش بعد أن استوعبت بعض الظواهر اللغوية من لهجات القبائل الأخرى . وأخضعتها لعمليةٍ تنقيـةٍ لغوية ضخمة ذابت فيها الفروق اللهجية الموجودة فى لهجات هـذه القبائل، وخضعت جميعها لمقاييس الفصاحة القرشـية التى كانت المثل الأعلى للفصاحة العربية فى هذا العصر . وهو مايشير إليه حديث النبى صلى الله عليه وسلم حين يتحدث عن فصاحته ويفتخر بأنهـا ميراث من قريش « أنا أفصح العـرب بيدَ أنى من قريش » . وقد نجد تأييدا لهذا التعديل فى النظرية القديمة فيما يقرره العلماء من أن فى القرآن خمسين لغة من لغات القبائل العربية .

ولم تكن هذه العملية اللغوية الضخمة إلا نتيجة طبيعية لمجموعة من الظروف الدينيـة والسياسية والاقتصادية أتاحت لمكة الفرصة لتقـوم بدورها البطولى فى تاريخ الجزيرة العربية ممـا هيأ للغتها أن تصبح هى هذه اللغة الأدبية الموحّدة .

كانت مكة ـ منذ أن رفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ ـ المركز الدينى الأول فى الجـزيرة العربية، سـواء فى عصر الحنيفية التى دعا إليها النبيان الكريمان أو فى عصر الوثنية منذ أن حمل إليها عمرو بن لُحَىّ كاهن خزاعة الأصنام لينصبها فى الكعبة ومن حولها . وعلى امتداد هـذا التـاريخ الطويل ظلت مكة مهوى أفئدة العرب من شتى أرجاء الجـزيرة، وظلت مركز الإشعاع الدينى عند كل القبائل العربية الشمالية والجنوبية على السواء . وزاد من ارتفاع هذه المكانة

ما كان من عجز أبرهة قائد الجيش الحبشى عن دخولها فى عام الفيل فيما بين سنتى ٥٧٠ ، ٥٧١ فى أيام عبد المطلب ، وارتداده دونها مع فلول جيشه بعد أن تعرضت حملته لظروف قاسية بددت جيشه وجعلته — كما يقول القرآن الكريم — « كعصف مأكول » . ومنذ هذا التاريخ أثبت البيت الحرام أن له ربا يحميه ، فارتفع شأن مكة ، وزادت قداستها فى نفوس العرب الذين اتخذوا من هذه الغزوة معلما فى تاريخهم يؤرخون به ، وأصبحت هى المدينة الأولى فى جزيرتهم التى تتركز فى أيديها مقاليد الدين والسياسة ، والرمز الخالد لحرية الجزيرة واستقلالها وقدرتها على الوقوف فى وجه الغزاة الطامعين فيها .

ونتيجةً لوقوع مكة — جغرافيا — فى منتصف الطريق التجارى بين الشام واليمن ، وفى نهاية الطريق التجارى القادم من الحِيرة ، مما أتاح لها وضعا اقتصاديا متميزا تحولت معه إلى المدينة التجارية الأولى فى الجزيرة كلها ، ونتيجة لظهور طبقة من كبار التجار من أصحاب الملايين فيها يتحكمون فى اقتصاد الجزيرة كلها ، ويمسكون فى أيديهم بأزمة الحياة الاقتصادية فيها ، قامت حول مكة مجموعة من الأسواق تلتقى عندها القوافل التجارية ، ويتجمع فيها تجار الجزيرة من شتى القبائل ، وبخاصة فى مواسم الحج حيث تفد القبائل من شتى الأرجاء لأداء الشعائر الدينية لأصنامها المنصوبة فى الكعبة أو حولها . وفى هذه الأسواق كانت تتم عملية تبادل لغوى ضخمة ، وبخاصة فى سوق عكاظ التى كانت تتحول فى مواسم الحج إلى مهرجان أدبى كبير يشبه مهرجانات الإغريق فى أعياد آلهتهم ، يتبارى فيه شعراء القبائل وخطباؤها ، ويجلس فيه حكام من كبار الشعراء ليحكموا بين المتبارين ويقوموا إنتاجهم الأدبى ، مما أتاح الفرصة وهيأ الظروف للتقريب بين لهجات القبائل وظهور هذه اللغة الأدبية الموحدة .

وزاد من تعلق العرب بمكة ، وارتباطهم الروحى بها ، ما كانوا يرونه من تغلغل المسيحية واليهودية فى بعض المناطق من جزيرتهم . وهو تغلغل كانت القبائل العربية تنظر إليه فى شىء من الريبة لأنه يأتى من قِبَل عناصر أجنبية غريبة عنهم ، فارتبطت هاتان الديانتان فى أذهانهم بأفكار سياسية ، وكأنما استشعروا وراءهما محاولات للتغلغل السياسى ، ومدِّ النفوذِ الأجنبى الذى كان يحيط بهم من الشرق حيث النفوذ الفارسى فى الحيرة ، ومن الشمال حيث النفوذ البيزنطى فى الشام ، ومن الجنوب حيث النفوذ الحبشى فى اليمن . ومن هنا كان فزعهم إلى المنطقة الغربية التى ظلت بمنأى عن هذا النفوذ الأجنبى ، حيث مكة حامية الوثنية التى كانوا ينظرون إليها على أنها ديانتهم المحلية التى تفتحت عليها عيونهم كما تفتحت عليها من قبلُ عيون آبائهم وأجدادهم الأولين .

وهكذا أتيح لمكة منذ أواخر القرن الخامس أسباب متعددة أتاحت لها أن تحتل مكان الصدارة فى المجتمع الجاهلى ؛ وهيأت للغتها أن تصبح اللغة الأدبية الموحدة التى فرضت نفسها على المجتمع الأدبى فى الشمال ، ومدت نفوذها إلى مجتمع الجنوب ، فاتخذها الشعراء من شتى القبائل وفى مختلف أرجاء الجزيرة لغةً لشعرهم متسامين بها على لهجاتهم المحلية التى ظلوا يتكلمون بها فى حياتهم العامة فى قبائلهم ، وكأنما عرفت الجزيرة العربية فى هذه المرحلة من تاريخها ظاهرة « ازدواج لغوى » ، فالشعراء يتكلمون فى مجتمعاتهم القبلية بلهجاتهم المحلية ، ولكنهم يصطنعون فى المجتمع الأدبى لغة أخرى ، هى هذه اللغة الأدبية الموحدة ، أو هذه العربية الفصحى التى كان ظهورها إرهاصا لنزول القرآن الكريم بها . ولعل فى ذلك ما يجعل نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى التى بالغ فيها بعض الباحثين اعتمادا على أنه لا يمثِّل لهجات القبائل تتراجع إلى وضعها الصحيح .

فالشعر الجاهلى — وبخاصة عند الشعراء الكبار الذين استقطبوا من حولهم الحياة الأدبية — لم تظهر فيه لهجات القبائل لأنه نظم فى هذه اللغة الأدبية الموحدة التى اختفت منها هذه اللهجات .

(٣)

ظهر الشعر العربى أول ما ظهر فى صورته الناضجة المكتملة فى القرن الخامس الميلادى فى عصر البسوس عند تلك الطلائع المبدعة من شعراء هذه الحرب . ومضت القصيدة العربية بعد ذلك فى تطورها الفنى ، وشهد القرنان الخامس والسادس حركة تطور وازدهار ضخمة نهض بها كبار الشعراء الذين ظهروا فى فترة ما بين هذه الحرب وحرب داحس والغبراء من أمثال امرئ القيس وعلقمة وعبيد وطرفة والمرقشين الأكبر والأصغر الذين عملوا على إرساء البناء الفنى الثابت للقصيدة العربية ، وتأصيل قواعدها وتقاليدها ومقوماتها الفنية ، وأخذت هذه القصيدة على أيديهم صورتها التقليدية التى استقرت عليها على امتداد العصر الكلاسيكى فى تاريخ الشعر العربى ، فهم الذين أعطوها شكلها الفنى كما أعطوها مضمونها الموضوعى : فهى تبدأ عادة بمقدمة أكثر ما تكون طللية ، يصف فيها الشاعر الأطلال وصاحبة الأطلال ، ويستعيد ذكرياته فيها ، ويصور مشاعر الحب والوفاء التى يحملها لها فى قلبه ، ويسجل أحزانه ولوعته التى خلفتها له بعد رحيلها ، ويرسم صورا صادقة لوحشة هذه الأطلال بعد أن كانت عامرة بأهلها . ثم يخرج من ذلك إلى وصف رحلته أو رحلة صاحبته فى أعماق الصحراء لتسلية همومه أو لانتقال صاحبته إلى منطقة جديدة تتوافر فيها فرص الحياة ، متخذا من وصف الناقة جسرا يعبر عليه من شاطئ الحب إلى شاطئ الصحراء ، ثم يقف أمام

الصحراء الفسيحة المترامية إلى ما لانهاية يرسم صورا أخاذة لمناظرها الطبيعية ومياهها الآجنة وحيوانها الشارد فى آفاقها البعيدة وما يدور من صراع بينه وبين الصيادين الخارجين فى طلبه من أجل العيش والحياة وإطعام الصغار الجائعين الذين خلفهم وراءه مع أمهم ينتظرون عودته بما يرد عنهم جوعهم ، أو من أجل اللهو والمتعة والتسلية وإطعام الرفاق الخارجين لتزجية أوقات الفراغ فى الصيد والطرد . حتى إذا ما قضى حقوق الصحراء مضى إلى موضوع قصيدته الأساسى فوفاه حقه من القول ، وبه يختم قصيدته ، وفى بعض الأحيان يسترسل فى طائفة من الحكم يسجّل فيها خلاصة تجاربه فى الحياة ، ويختم بها قصيدته .

هذه هى الصورة العامة التى رسم خطوطها العريضة شعراء هذه المرحلة الكبار والتى استقرت عليها القصيدة العربية على امتداد فترة طويلة من حياتها ، وبخاصة القصائد الطوال التى يفرغ الشاعر لها ويوفر لها جهده الفنى حتى يحقق لها المقومات والتقاليد الأصيلة التى اصطلح عليها الشعراء فى هذا العصر . وبطبيعة الحال لم تكن هذه الصورة منهجا ملتزما عند كل الشعراء ، فقد اختلفت مواقفهم منها من حيث التزامها أو التحلل منها أو التغيير فيها تبعا لاختلاف شخصياتهم ومواهبهم وموضوعات قصائدهم . كما اختلفت أيضا صور المقدمات التى اصطلح هؤلاء الشعراء على أن تبدأ القصيدة العربيـة بها ، فإلى جانب مقدمات الأطلال ظهرت مقدمات غزلية يصف فيها الشاعر صاحبته ، ويتغنى بجمالها ، ويصور حبه لها وشوقه إليها وحنينه إلى الذكريات السعيدة التى عاشها معها . وظهرت مقدمات الظعن التى يصف الشاعر فيها رحلة صاحبته فى انتقالها مع أهلها إلى موطنهم الجديد ، وما تركته وراءها من أحزان وأشواق للعاشق الذى يرقب القافلة الراحلة من خلال دموعه وحسراته . وظهرت مقدمات تتحدث عن الشيب وتتحسر

على الشباب الضائع . وظهرت مقدمات تصف زيارة طيف الحبيبة لصاحبها فى أحلامه لتعيده إلى ماضيه البعيد ، وتجدد ذكرياته التى طوتها أيام الفراق . وظهرت مقدمات يتغنى فيها الشاعر بفروسيته ومروءته ومغامراته فى الحياة ليقدمها قرابين حب ووفاء لصاحبته التى يعيش لها ويعمل من أجل سعادتها . وظهرت أيضا مقدمات تصف الخمر ومجالسها وساقياتها الجميلات .

(٤)

نشأ الشعر الجاهلى ونما وازدهر فى ظل حياة قبلية قائمة على أساس « عَقْد اجتماعى » ينظم العلاقات بين أفراد القبيلة الذين كان عليهم أن يلتزموا به التزاما دقيقا . وقد عرف هذا العقد فى تاريخ المجتمع العربى القديم بالعصبية التى كان تعنى التضامن التام بين الفرد والجماعة فى الحقوق والواجبات ، انطلاقا من إيمان القبيلة بوحدة الدم التى تجمع بين أفرادها جميعا ، فلم تكن القبيلة التى كانت وحدة المجتمع الجاهلى سوى أسرة كبيرة تضم أجيالا متعاقبة تنتهى جميعها إلى أب واحد منه تفرعت بطونها وعشائرها ، ويجرى فى عروقها دم مشترك توارثته أجيالها عن هذا الأب الذى يرجع إليه أصل القبيلة . وفى ظل هذه العصبية تعارفت القبائل على مجموعة من التقاليد تشكل « دستوراً » عرفيا ينظم العلاقات بين أفرادها ، أساسه هذا « العقد الإجتماعى » الذى يفرض على كل فرد أن يكون مسئولا عن قبيلته ، كما يفرض على القبيلة أن تكون مسئولة عن كل فرد من أفرادها . فأبناء القبيلة جميعا متضامنون تضامنا اجتماعيا أمام كل مشكلة تعترض أحدهم ، يعصبونها برأس سيدهم ، ويتركون له حرية التصرف فيها فى نطاق هذا الدستور القبلى بما يحفظ وحدتها الاجتماعية . وهو تضامن عبر عنه المثل

العربى القديم « فى الجريرة تشترك العشيرة » ، كما عبّر عنه قولهم « انصر أخاك ظالمـا أو مظلوما » ، وصوّره فى صورة واضحـة محدّدة الشاعر دُرَيْد بن الصِّمّة فى بيتـه المشهور :

وهل أنا إلّا من غَزِيّةَ، إن غَوَتْ غَوَيْتُ ، وإن تَرْشُدْ غزيّةُ أرْشُدِ

ولم يكن الشعراء إلا أفرادا من هـذا المجتمع القبلى الذى يؤمن بهـذا العقد ، عليهم أن يلتزموا به ، وأن يمارسوا حياتهم وفقا لتقاليده وأعرافه ، شأنهم فى ذلك شأن سائر أفراد مجتمعهم ، ولكن عليهم — فوق ذلك — أن يقفوا عليه فنهم ، وأن يكونوا دائما « مجندين تحت السلاح » فى خدمته ، يؤدون « ضريبة الدفاع » عن القبيلة إشادة بأمجادها ، وإذاعة لمفاخرها ، ودفاعا عن كرامتها وشرفهـا ، وذودا عن حماها وحرماتها ، ثم حطا من شأن أعدائها ، وهجاء لهم ينشر مخازيهم فى المحافل وبين القبائل . وكان من نتيجة ذلك أن قام بين الشاعر وقبيلته « عقد فنى » يفرض عليـه ألا يتحدث عن نفسه فى شعره إلا بقـدر محدود وفى نطاق ضيق ، ليفرغ لقبيلته ، يتحدث باسمها ، ويجعل من شعره سجـلا لحياتها ، ومن لسانه لسانا لها ، يعبر عن آمالهـا وآلامها ، ويسجل الخطوط العامة لسياستها ، ويعلن على الملأ أهدافها وغاياتها . وفى مقابل ذلك تمنحه القبيلة لقب « شاعرها » فتتحمس لشعره ، وتتعصب له ، وتحـرص على حفظه وروايته وإذاعته فى كل مقام . ومن هنا كانت منزلة الشاعر فى قبيلته منزلة رفيعة لاتقل عن منزلة الفارس فيها ، فكلاهما « جندى عامل » فى جيشها ، يشارك فى الهجوم والدفاع فى ساحات القتال ، « ومجنّد تحت السلاح » فى أوقات السلام ، وقديمـا قال شاعرهم : « وجُرح اللسان كجرح اليد » . ولذلك كان من أرفـع ألقاب التمجيد ، وأسمى أوسمة الشرف ، التى تمنحها القبيلة لأحد أبنائها أن تخلع عليـه لقب « شـاعر

فارس » ، لأنه بهذا يكون قد جمع أهم مهمتين تحتاج إليهما القبيلة من أبنائها .

وكانت النتيجة الفنية لهـذا « العقـد الفنى » أن ظهرت تلك الطائفة من الشـعراء الذين أطلق عليهم « شعراء القبائل » ، والذين كانوا يشكلون الغالبية المطلقة من شعراء العصر الجاهلى . وقد طبع هؤلاء الشعراء شعر هذا العصر بطابع قبلى ميّزه من الشعر العربى فى سائر عصوره ومختلف بيئاته بعد ذلك ، اختفت منه النزعة الذاتيـة لتحل محلها النزعة الجماعيـة ، وذابت منه الشخصية الفردية لتظهر بدلاً منها الشخصية القبلية . وظهر ضمير الجماعة « نحن » مكان ضمير الفرد « أنا » ، وأصبحت الألوان التى يرسم بها الشاعر لوحاته الفنية مشتقة من حياة قبيلته لا من حياته الشخصية ، وصارت « صناديق أصباغه » مستعارة من قبيلته وليست صادرة عن نفسه ، وأصبحت « ريشته » التى يلون بها لوحاته ملكا للقبيلة كلها وليست ملكا له وحده . ولعل هذا هو الذى كان يجعل القبيلة — إذا نبغ فيها شاعر — تعيش عيدا من أعيادها أو عرسا من أعراسها ، فتمد الولائم ، وتقدم الأطعمة ، وتقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى ، وتجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، ويتبادل أفراد القبيلة التهنئة ، وتفد عليهم وفود القبائل تهنئهم وتشاركهم فرحتهم . وقديما قال النقاد العرب إن القبيلة لم تكن تعمها الفرحة إلا فى ثلاث مناسبات : إذا ولد فيها غلام ، أو نُتجت فيها فرس ، أو نبغ فيها شاعر . وذلك لأن الثـلاثة يمثلون « الثالوث المقدّس » الذى تقوم عليه حياتها : بطلها المنتظر ، وفارسها المنشود ، ووسيلة إعلامها .

عاش « شاعر القبيلة » فى ظلال قبيلته ، يدور فى فلكها ، ويسير فى ركابها ، ويشد فنه إلى عجلتها ، ويربطه بأحداثها : يدافع عنها ويحمسها للقتال إذا ما دعا داعى الحرب ، ويسجل انتصاراتها إذا انتصرت ، ويهوّن عليها الهزيمة ويهيئها

لمعركة الثأر إذا انهزمت ، ويرثى قتلاها ، ويمجد أبطالها ، ويهجو أعداءها ، ويعيرهم الهزيمة إذا هُزموا ، ويهددهم ويتوعدهم إذا انتصروا . وهو حين يفتخر يفتخر بها ، وحين يهجو يهجو أعداءها ، وحين يمدح يمدح سادتها أو سادة القبائل التي وقفت معها وانتصرت لها . وهو — في أثناء ذلك — ينسى نفسه ولا يفكر في أن يصدر عنها ، فكل همه أن تكون قبيلته أمامه دائماً يصدر عنها ، ويشتق معانيه منها ، حتى عندما تقتضيه مجالات القول أن يفرغ لنفسه في شعره ، فإنه يظل دائماً دائراً في فلك القبيلة ، لا يكاد يفرد قصيدة خالصة لتصوير عاطفة من عواطفه الشخصية ، أو نزعة من نزعاته الفردية ، ولكنه يذكر ذلك — إذا ذكره — في أثناء حديثه عن قبيلته ، فهو يتغزل في مستهل قصائده القبلية ، ويذكر لهوه بالمرأة وشربه الخمر ومقامرته في أثناء فخره بشجاعته وفروسيته ومروءته التي يضعها كلها في خدمة قبيلته . وهو يصف ناقته أو فرسه أو ما يراه في رحلاته من حيوان الصحراء أو من مشاهدها الطبيعية في أثناء الحديث عن قبيلته ، وهو إذا ذكر رأيا له في الحياة أو الموت ، أو سجل حكمة أو تجربة استخلصها من تجارب حياته ، ذكر ذلك عرضا أو في نهاية قصيدته بعد أن يفرغ من الوفاء بحقوق القبيلة عليه . ولعل هذا هو الذي جعل النقاد العرب يقولون بحق إن الشعر « ديوان العرب » ، لأنه — في الحقيقة — سجل تاريخهم السياسي والاجتماعي ، ولذلك يعد مصدرا تاريخيا كبير الأهمية اعتمد عليه المؤرخون العرب في جمع مادتهم التاريخية .

ولعل أشهر مثل لهذه النزعة القبلية معلقة عمرو بن كلثوم شاعر تغلب ، فهو يستهلها بمقدمة ذاتية يختلط فيها الغزل بحديث الخمر ، ولكنه سرعان ما يدير وجهه عن صاحبته وخمرها ليتحدث عن قومه حديثا ينسى فيه نفسه نسيانا تاما ، حتى ليختفي

من أبياتها التى تقترب من المائة ضمير المتكلم المفرد ، فلا يظهر إلا فى شطر واحد من أحد أبياتها ، ليسيطر عليها كلها ضمير الجماعة . وهو فى حديثه عن قبيلته يبالغ فى تمجيدها مبالغة شديدة تصل به أحيانا إلى حد الإحالة ، حين يجعل الدنيا ومن عليها ملكا لهم ، ويجعل الجبابرة العتاة يخرون سجدا لرضيعهم إذا بلغ الفطام ، ويجعل البر والبحر يضيقان برجالهم وسفنهم . ولعل ذلك هو الذى جعل قبيلته تفتن بها فتنة شديدة دفعت شاعرا من خصومها إلى السخرية منها :

أَلْهَى بنى تغلبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كُلثومِ

(٥)

ولكن هذا الصوت القبلى — على ارتفاعه وضجيجه ودويّه — لم يكن الصوت الوحيد الذى علا فى الساحة الفنية ، ولم يكن « العقد الفنى » ملزما — على إطلاقه — لكل الشعراء على طول الطريق الذى سلكوه فى حياتهم الفنية ، وإنما كان هناك « صوت ذاتى » يتردد من حين إلى حين فى زحمة هذه الالتزامات القبلية ، يعزفه حتى شعراء القبائل أحيانا على قيثارهم الخاصة بهم ، يعبرون به عن جوانب حياتهم الخاصة التى لا تشاركهم فيها قبائلهم ، ويتغنون فيه بمشاعرهم وعواطفهم الذاتية التى تنطوى عليها نفوسهم بعيدا عن دنيا القبيلة ، وما تفرضه عليهم من التزامات ، وما تلزمهم به من واجبات ، وما تقضى عليهم من أن يكونوا « وسائل إعلام » لها . وكأنما آمنت هذه الطائفة من « الشعراء الذاتيين » بأن « الفن للفن » لا لخدمة مجتمع القبيلة ، وأن شعرهم ملك لهم لا تشركهم فيه قبائلهم ، وأن ريشتهم التى يرسمون بها لوحاتهم خاصة بهم وحدهم ، وليست شركة بينهم وبين القبيلة ، وأن العقد الاجتماعى بينهم وبين قبائلهم يجب

ألا يتعدى حدوده الاجتماعية والسياسية، أما الدائرة الفنية فإنها حِمىً لهم، وليست حِمىً مستباحا للجميع، أو — على الأقل — من حق الشاعر — حتى لو كان شاعرا قبليا — أن يفرغ لنفسه من حين إلى حين ليعبر عن الجانب الذاتى فى حياته .

ولعل أشهر الأمثلة لهذا « الصوت الذاتى » معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة، فكلتا المعلقتين تعبير صادق عن الشخصية الفردية بعيدا عن ذلك « العقد الفنى » وما يفرضه من التزامات على شعراء القبائل .

وتمثل معلقة امرئ القيس شخصية شاب أرستقراطى مترف تنحصر متعه فى فى الحياة فى شيئين : الحب والصيد . والحب عنده يدفعه إلى المرأة العشيقة أكثر مما يدفعه إلى محبوبة يخلص لها، بل — فى الحقيقة — يدفعه إلى المرأة العاشقة التى تعشقه وتسعى إليه، فأكبر همه فى الحياة أن يكون معشوقا بل مدللا من المرأة تستجيب له ولا تستعصى عليه، وتهتف باسمه الذى يحلو لها أن تردده فى كل مناسبة تعبيرا عما يملأ نفسها من إعجاب وفتنة وشغف به . وأما الصيد فيدفعه إلى الإعجاب بجواده وسيلة هذه المتعة، وإلى الفتنة بالطبيعة التى يمارس هوايته هذه فى أحضانها . وهو فى معلقته مقبل على الحياة إقبال المحب لها المطمئن إليها، وهو يبدو من خلالها متفائلا شديد التفاؤل، فلا قلق ولا شكوك ولا تشاؤم ولا يأس من الحياة ولا هموم تنغص عليه إحساسه بها، وأقصى ما يشغله فيها ويدفعه إلى الشكوى منها أن تصد عنه إحدى صاحباته أو تزمع هجره، ولكن هذه الشكوى سرعان ما تختفى خلف حشد من الذكريات الممتعة السعيدة، فإن صدت واحدة أو أزمعت هجره أخرى فهناك كثيرات غيرهما فى « قائمة الانتظار » .

وأما معلقة طرفة فإنها تعكس شخصية أخرى مختلفة ، شخصية شاب قلق فى حياته ، متشائم منها ، شاك فيها وفى المصير الذى ينتظره بعدها ، يدفعه قلقه وتشاؤمه وشكه لا إلى رفض الحياة والزهد فيها ، ولكن إلى التمسك بها والإقبال عليها ، ليستمتع بكل ما يستطيع أن يستمتع به قبل أن يدركه المصير المحتوم الذى لا يعلم عما وراءه شيئا . إن الحياة تتراءى له فرصة لإثبات ذاته وتحقيق وجوده ، ولكنها فرصة قصيرة محدودة يقف الموت على أبوابها قدرا مقدورا لا يستطيع أحد دفعه ، وإذن فما الذى يجعله يترك هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، وهو لا يعلم شيئا يقينيا عما ينتظره بعدها ؟ إنه لا يرى إلا حقيقة واحدة ، الموت الذى يأتى على غير انتظار ، وعلى غير موعد ، خَبْطَ عشواء لا يفرق بين من يستمتع بحياته ومن لا يستمتع بها ، والكل فى النهاية سواء . وفى أعماق هذا القلق وهذا الإحساس بالضياع كان أشد ما يحرص عليه فى حياته ثلاث متع لا يبالى بعدها متى يدركه هذا المصير ، ولا إلى أين ينتهى به : الخمر والفتوة والمرأة . وهو — إلى جانب ذلك — معتد بفرديته إلى أبعد حد ، ضيق الصدر بقبيلته ، يشكو فقره وعجزه عن مساواتهم فى الغنى ، ولكنه — مع ذلك — يملك كنزا لا يفنى من الفتوة والنجدة والمروءة .

ولم يكن هذا الصوت الذاتى وقفا على هؤلاء الشعراء الذين آمنوا بفرديتهم فحسب ، وإنما كان يظهر أيضا عند شعراء القبائل . وأكثر ما يظهر عندهم فى مقدمات قصائدهم القبلية على اختلاف صور هذه المقدمات . ففى المقدمات المختلفة التى عرفها الشعر الجاهلى يتردد هذا الصوت الذاتى معلنا عن شخصية صاحبه ، معبرا عن عواطفه ومشاعره وانفعالاته الشخصية ، مسجِّلا جوانب حياته الخاصة وموقفه منها ، وكأنما كان الشاعر يجد فى هذه المقدمات فرصة

يستطيع أن يُفرِّغ فيها لنفسه متخففا من زحمة الالتزامات القبلية وتبعاتها الثقيلة. ولعل فى هذا ما يفسر حرص الشعراء الجاهليين على هذه المقدمات، حتى أصبحت تقليدا ثابتا فى القصيدة الجاهلية، ولحنا مميزا للقصيدة العربية القديمة على امتداد عصورها الكلاسيكية، فلم تكن هذه المقدمات — فى حقيقة أمرها — إلا الفرصة المتاحة للشاعر الجاهلى ليفرُغ فيها لذاته قبل أن تجرفه التزامات « العقد الفنى » فى تيارات القبلية الصاخبة.

ويظهر هذا الصوت الذاتى أيضا فى وصف الرحلة وما يتصل بها من وصف الناقة والصحراء والصيد. وهو قسم فى القصيدة الجاهلية يبدو شديد الارتباط بهذه المقدمات، وكأنه الامتداد الطبيعى لها. ففى هذه الرحلة يجد الشاعر نفسه بعيدا عن القبيلة والتزاماتها، فينطلق بعيدا عن عالمها الضيق المحدود ليعيش حياته الخاصة التى يمارس فيها هواياته ومتعه فى الصيد واللهو والفروسية التى كان فتيان العرب يشغلون بها أوقات فراغهم فى حياتهم المتشابهة الرتيبة فى الفترات القصيرة التى ترفرف فيها رايات السلام على قبائلهم من بين غبار الأيام الدامية الذى لم يكن ينقشع حتى يثور من جديد، أو ينطلق بعيدا فى أرجاء الصحراء المترامية لينفض فوق رمالها همومه وأحزانه، وينسى فى فضائها اللامتناهى مشكلات حياته بما يراه من مناظرها الطبيعية، وما يشهده من صراع حول الحياة بين حيوانها الوحشى الشارد فى أعماقها والصيادين الفقراء الذين احترفوا الصيد من أجل توفير حاجات الحياة ومطالب العيش لهم ولأولادهم الجياع الذين خلّفوهم وراءهم ينتظرون عودتهم.

ولكن الحقيقة أن هذا الصوت الذاتى لم يظهر فى الشعر الجاهلى فى أقوى صوره إلا عند طائفتين من الشعراء: الشعراء المتيمين والشعراء الصعاليك،

وعند الطائفة الثانية ارتفع هـذا الصوت إلى أعلى درجاته وأشدها قوة وإعلانا عن نفسه .

والمتيمون طائفة من الشعراء العشاق يمثلون اتجاها عفيفا فى حبهم يدور فى إطار يتشابه إلى حد بعيد بالإطار العام الذى دار فيه العذريون الأمويون . وقد أطلق الرواة عليهم هذا الوصف تمييزا لهـم من سائر الشعراء العشاق الذين يمثلون اتجاهات أخرى فى الشعر العربى ، وربطوا بين كل متيم منهم ومحبوبة له عرف بهـا ، وأخلص لهـا ، وعاش حياته راهبا فى محرابها ، موحدا بحبها لا يشرك به حبا آخر : المرقّش الأكبر وأسماء ، والمرقش الأصغر وفاطمة ، والمخبَّل وميلاء ، وعبد الله بن العَجْلان وهند ، ومالك بن الصَّمْصامَة وجَنُوب ، وقيس بن الحِدَادِيَّة ونُعْم ، وعبد الله بن علقمة وحُبَيْشَة ، وعمرو بن كعب وعُقَيلة ، ثم أبعدهم صيتا وأشهرهم ذكرا عنترة وعبلة .

والصورة العامة لهذا الحب توشـك أن تكون هى نفسها الصورة العامة للحب العذرى ، لا تكاد تختلف بين عاشقين وعاشقين إلا فى التفاصيل : شاب يحب فتاة ، أكثر ما تكون ابنة عم له ، وأحيـانا تكون من غير قبيلته ، ثم يطلب يدها من أهلهـا فتقف عقبـةٌ من العقبات فى طريقه ، وقد يتحقق أمله فيتزوجها ثم تجد عقبات تفرق بينهما ، فيعيش بقية حياته وقد سيطر عليـه خيال محبوبته سيطرة لا يملك معها خلاصا أو فكاكا ، واستبد به وهم لا يقف على أرض من الواقع ، وأملٌ لا أمل فى تحقيقه ، وحنينٌ جارف يملأ عليـه أرجاء قلبه ، وأحزان طاحنة تنوء بها نفسه . ووسط هذا الخضم المتلاطم من أمواج الأمل واليأس يحيا العاشق وكأنه ضائع فى هذه الحياة ، أو كأنه فى حلم عميق مسيطر على مشاعره لا يريد أن يصحو منه ، وفيا لحبه الضائع ، متشبثا بمحبوبته التى أبت الحيـاة أن تحقق أمله

فيها . ثم تكون النهاية مأساةً حزينة فى أكثر الأحيان ، نرى العاشق فيها مشردا فى الصحراء.وقد اضطربت أعصابه واختلط عقله ، أو معتّلا مُدْنَفاً أضناه الوجد وأسقمه الحنين . وفى بعض الأحيان تكون النهاية تجلدا من العاشق للصدمة التى تلقاها ، وتماسكا لنفسه بعد ضياع الأمل من بين يديه ، وذكريات بعيدة تعيش فى أعماقه حنينا وحزنا ولوعة ودموعا وحسرات ، وأيضا وفاء وإخلاصا للماضى الذى ولّى إلى غير عودة ، حتى يسدل الأجل المكتوب ستار الختام على المأساة الحزينة الباكية .

فى شعر هؤلاء المتيمين يرتفع الصوت الذاتى إلى درجة عالية . وعلى قلة ما وصل إلينا من شعرهم فإنه يعرض — فى صدق وأمانة — أبعاد المأساة التى عاشها أصحابه ، وما تنطوى عليه من صراع بين الواقع والمثال، أو بين الوهم والحقيقة، ذلك الصراع الحاد العنيف الذى يقف فيه كل عاشق منهم فى دوامة من الحيرة والضياع عاجزا أمام سهام الحب التى تنهال عليه من كل جانب وهو لا يملك لها دفعا ولا ردا إلا ما يتفجّر على لسانه من شكوى حزينة ،واستسلام يائس، وذكريات تعيش فى أعماقه نابضة بالحياة،وحنين إليها يملأ عليه أقطار نفسه بالحسرة والأسى، ويملأ جنبات صدره بالزفرات الحارة التى يتنفسها دموعا وعبرات . وقد استطاع هؤلاء المتيمون أن يسجّلوا فى شعرهم صورة معبرة عن كل ما تموج به نفوسهم من مشاعر وعواطف وانفعالات فى عالمهم الخاص بهم الذى صنعوه لأنفسهم بعيدا عن أرض الواقع التى تمارس عليها قبائلهم حياتها ، والتى كانت تشد إليها شعراءها بخيوط متينة أحكم فتلها ذلك العقد الفنى القائم بينها وبينهم . ومن هنا اختفى من شعرهم ذلك الصوت القبلى ، واختفت معه صورة القبيلة ، ليظهر فيه صوتهم الذاتى، وتظهر معه صورتهم الخاصة . ونتيجة لذلك اختفى من كثير من قصائدهم

ذلك التعدد الموضوعى الذى كان سمة مميزة للقصيدة الجاهلية، و بدت طائفة منها كأنما خلصت للحب ولا شيء غير الحب .

على أن أقوى درجة ارتفع إليها هذا الصوت الذاتى إنما ظهرت عند الشعراء الصعاليك . والصعاليك جماعات من فقراء القبائل الأشداء ضاقت بهم سبل العيش فى ظلال قبائلهم لاختلال الأوضاع الاقتصادية فيها ، فتمردوا عليها ، وكفروا بها، ورفضوا تنفيذ العقد الاجتماعى بينهم و بينها ، وانطلقوا إلى الصحراء يشقون طريقهم فى الحياة بقوتهم ، ينهبون ويسلبون ، و يقطعون الطرق على القوافل التجارية التى تسيل بها شعاب الصحراء ، و يغيرون على الأغنياء المترفين وخاصة البخلاء منهم ،ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم، ثم يوزعون ما يغنمونه بينهم وبين المستضعفين من الفقراء الذين يعجزون عن مشاركتهم حركتهم المتمردة، لا من أبناء قبائلهم وحدها ، ولكن من شتى القبائل ، خارجين بذلك على قانون « العصبية القبلية » الذى يفرض عليهم العمل من أجل قبائلهم وحدها .

وانضمت إلى هؤلاء الفقراء المتمردين جماعات من خلعاء القبائل وشذاذها الذين خلعتهم قبائلهم وطردتهم من حماها ، ورفعت عنهم حمايتها ، وسحبت منهم « الجنسية القبلية » ، وفسخت العقد الاجتماعى بينها و بينهم ، فأصبحت غير مسئولة عنهم ولا سائلة أيضا ، لا تعترف بانتمائهم إليها ، ولا تنتصر لهم ، ولا تتحمل تبعات تصرفاتهم الفردية ، لأنهم شذوا على إجماعها ، ومثّلوا انفصالية فردية فى مجتمعها المتضامن فى حقوقه وواجباته . ومع الفقراء المتمردين انطلقوا فى أرجاء الصحراء « خارجين على القانون » ، هاربين من وجه العدالة ، فى محاولة عنيفة لفرض أنفسهم وإثبات وجودهم فى مجتمع رفضهم وتخلّى عنهم وقطع ما بينه و بينهم .

وإلى هؤلاء وهؤلاء انضمت جماعات أخرى من العبيد السود ومن الهجناء الذين يرجعون إلى آباء من العرب وأمهات من الإماء، أو — كما كان مجتمعهم يطلق عليهم — « الأغربة » الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم . وهى جماعات كانت تمثل طبقة مضطهدة من طبقات المجتمع الجاهلى تعيش على هامشه حياة ذليلة مهينة سَلَبَتْها كلّ حقوقها ، وفرضت عليها أكثر مما تطيق من واجبات ، تعانى من عنصرية متعالية متعصبة للجنس الأبيض الذى يجرى الدم العربى فى عروقه خالصا من كلا طرفيه : الآباء والأمهات ، تعصبا أُهْدِرَت معه كل حقوق الإنسان وما تحرص عليه من قيم إنسانية وعدالة اجتماعية ، فانطلقوا إلى الصحراء فرارا بإنسانيتهم التى أهدرتها الأرستقراطية العربية ، ليجدوا فى آفاقها المترامية التى لا تحدها حدود ، ولا تقيدها قيود ، مجالا رحبا حرا يحررون فيه أنفسهم من العبودية التى فرضت عليهم ، ويحطّمون من فوق رقابهم ومن حول أيديهم وأرجلهم نِيرَ الرق وأغلاله وقيوده ، ويحاولون أن يحققوا وجودهم الضائع ، ويمارسوا حقهم فى حياة حرة كريمة ، وأيضا ليأخذوا بثأرهم من المجتمع الذى أنكر عليهم هذا الحق الطبيعى ، وكأنها حركة مبكرة لتحرير العبيد .

انطلقت هذه الجماعات المتمردة من الفقراء والخارجين على القانون و « الفهود السود » إلى الصحراء التى لا ترد لاجئا إليها ولا محتميا بها ، وقد جمع بينهم الفقر والتشرد والتمرد على النظام القبلى العنصرى ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تسيطر على مجتمعاتهم القبلية، ورأوا ما يلاقيه إخوان لهم مستضعفون فى الأرض من ذل وضيم وهوان ، فآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم — كما يثأرون لأنفسهم — من مجتمعهم الذى ظلمهم وتنكر لهم ولم يعترف بحقوقهم ، فانتشروا فى أرجاء الصحراء كما تنتشر الذئاب الجائعة ينشرون جوا من

الفزع بين القبائل ، ويبثون الرعب فى نفوس مترفيها ، فى محاولة لإيجاد لون من التوازن الاقتصادى ، وصورة من العدالة الاجتماعية ، فى مجتمع اختلت موازينه الاقتصادية ، واضطربت مفاهيمه الاجتماعية ، غير مبالين فى سبيل ذلك بوسائل تحقيقها : أكانت مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة . وهى محاولة تحولت عند طائفة منهم كالشَّنْفَرى وتأبط شرا إلى حركة فوضوية تتحكم فيها نزعة رافضة للمجتمع ، وتوجهها شهوة عارمة للثأر والانتقام ، كما تحولت عند طائفة أخرى على رأسهم عروة بن الورد أبو الصعاليك — كما كانوا يطلقون عليه — إلى فكرة اشتراكية — من ناحية — تشرك الفقراء فى مال الأغنياء ، وتجعل لهم فيه حقا مفروضا يغتصبونه إن لم يُؤَدَّ إليهم ، كما تحولت — من ناحية أخرى — إلى نزعة إنسانية تحاول تحرير العبيد من اضطهاد العنصرية القبلية التى سلبتهم كل حقوقهم ، وجردتهم من كل ما يحفظ عليهم إنسانيتهم .

من هؤلاء الصعاليك ظهر جماعة من الشعراء تحللوا من العقد الفنى الذى كان شعراء القبائل ملتزمين به ، فاختفى من شعرهم الإحساس بالشخصية القبلية ، فلم يعد تعبيرا عنها ، وإنما أصبح تعبيرا عن شخصياتهم الفردية المبالغة فى فرديتها ، المتطرفة فى الإحساس بها ، وصحيفة لسوابقهم ، وسجلا لحياتهم المتمردة ، وإعلانا لمبادئهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولسانا معبرا عن حياة مجتمعهم الفوضوى الذى صنعوه لأنفسهم بكل ما ينطوى عليه من خير وشر ، وما يدور فيه من صراع رهيب بين الطبقات ، وكفاح مرير فى سبيل الحياة ، وما يتردد فيه من دعوة للتخلص من العنصرية والطبقية ، وإعادة للتوازن والعدالة والإنسانية .

ولمع من بين هؤلاء الشعراء عروة بن الورد الداعية الأكبر لمذهبهم ، واللسان الناطق بآرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، والمعبر أروع تعبير عن نزعتهم الإنسانية ،

والشَّنْفَرَى شيطانهم الرجيم ، وأقوى من عبَّر عن حياتهم المتمردة العنيفة ، وأدق من صور معركة الثأر والانتقام المشتعلة بينهم وبين مجتمعهم ، وتأبط شرا الأسطورة الرهيبة التى عاشت فى أعماق الصحراء لغزا غامضا كغموضها ، وسرا مجهولا بين أسرارها ، رفيق الوحش الشارد فى آفاقها البعيدة ، وصاحب الجن والغيلان الهائمة فى دياجيها المظلمة ، المعربدة فى لياليها الموحشة . والسُّلَيك ابن السُّلَكة عدَّاؤهم المشهور ، صاحب الغارات البعيدة ، وواحد من فرسان أربعة معدودين كان أبطال الجاهلية وفرسانها وحماة ظعائنها يخشون لقاءهم . وحاجز الأزدى « ثعلب الصحراء » السريع العدو ، الكثير الفرار ، الواسع الحيلة ، المراوغ البعيد الدهاء . وغيرهم كثيرون كعمرو بن بَرَّاقة ، وقيس ابن الحِدَادِيَّة ، وأبى الطَّمَحَان القَيْنى ، ومُرَّة بن خُلَيْف ، وطائفة غير قليلة من شعراء هُذَيل التى أتاحت لها بيئتها الجبلية الوعرة ، وموقعها الجغرافى على مقربة من مكة قلب الاقتصاد الجاهلى النابض بالمال والثراء ، وعلى مشارف طريق القوافل الأساسى بين الشام واليمن حيث تسيل الشعاب بالقوافل التجارية النشطة فى رحلتى الشتاء والصيف ، فيسيل لها لعاب الفقراء الأشداء من أبناء جبالها الوعرة العاتية ، وفرةً من الصعاليك من أمثال الأعلم وصخر الغَيِّ وعمرو ذى الكلب وأبى خِراش ، وغيرهم كثير .

وشعر الصعاليك صورة طريفة وفريدة فى الشعر الجاهلى ، يختلف عنه اختلافا كبيرا مرجعه الأساسى إلى أنه صورة صادقة لحياة أصحابه ، وتعبير ذاتى عن شخصياتهم ، وانعكاس دقيق لفرديتهم المتطرفة . وهو — ببساطة — يقوم على أساس من عدم الاعتراف بالعقد الفنى القائم بين القبيلة وشعرائها ، فكما تحلل أصحابه فى حياتهم من التقاليد الاجتماعية التى كان يخضع لها مجتمعهم ، تحللوا

كذلك فى شعرهم من التقاليد الفنية التى كان الشعر الجاهلى يخضع لهـا ، تحللوا فيه من الشخصية القبلية ، وأحلوا محلها شخصياتهم الفردية ، وأصبح ضمير الفرد « أنا » أداة للتعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة « نحن » الذى كان أداة التعبير عند شعراء القبائل ، وإذا ظهر هذا الضمير عندهم فإنه لايعبر عن مجتمع القبيلة ، وإنما يعبر عن جماعتهم . وتخلصوا أيضا من اضطراب القصيدة بين موضوعات شتى ، وأقاموا قصائدهم على أساس وحدة موضوعية دقيقـة . كما تخلصوا من المقدمات الطلليـة ، واستبدلوا بها مقدمات فروسية محورها « حواء الخالدة » ، ولكنها ليست حواء المحبوبة المتدللة التى نعرفها عنـد سائر الشعراء ، وإنما هى حواء المحبـة الحريصة على فارسها ، التى تدعوه إلى الحرص على حياته إن لم يكن من أجل نفسه هو فمن أجلهـا هى . وظهر الأسلوب القصصى وسيلة أساسية للتعبير ، ومقوما أساسيا من مقومات البناء الفـنى لقصائدهم ، ولعلهم بهذا من أوائل الشعراء الذين أصّلوا للقصـة الشعرية فى الأدب العـربى ، ولفتوا أنظار الشعراء إليها .

(٦)

كانت القبيـلة وحدة الحيـاة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، وكانت القبائل تعيش فى هذا العصر حياة بدوية غير مستقرة ، أساسها الحـركة الدائبة المستمرة بحثا عن موارد المـاء ومنابت الكلأ ، أو — بعبـارة أخرى — بحثا عن فرص العيش والحياة . ومن هنا كانت الحركة هى القاعدة التى تقوم عليها حياة القبائل البدوية المنتشرة على امتـداد الجزيرة العربية المترامية الأطراف . وعلى أساس هذه القاعدة المتحركة أصبحت فكرة « المدينـة » أمرا خارجا عن نطاق العقلية

البدوية ، فاختفت هذه الفكرة من تصور البدوى ، وحلت محلها فكرة « الحِمى » الذى كان يمثل مانطلق عليه الآن « الحدود الدولية » التى تحدد لكل قبيلة أرضها ومنازلها ، أو « الوطن » الذى تنزل به ، وتعيش فيه وتتنقل على مدار السنة بين أرجائه ، وتتولى أمر حمايته والحفاظ عليه والدفاع عنه . وفيما عدا تلك القرى القليلة المتناثرة حول عيون الماء أو على امتداد السواحل التى تطوِّق أرض الجزيرة ، وهى قرى استقرت بها الحياة ، وعاشت فيها القبائل حياة على حظ غير قليل من الاستقرار ، سيطرت فكرة « الحِمىَ » على المجتمع البدوى كله ، وأصبح لكل قبيلة أو لكل تجمُّع قبلى حمى خاص بها تمارس حياتها داخل نطاقه متنقلة فى أرجائه الفسيحة المترامية الأطراف ، فى حركة مستمرة على مدار فصول السنة ، خاضعة فى ذلك للظروف الطبيعية المختلفة ، مرتبطة بها ارتباطا مباشرا ، فإذا أجدبت الأرض وحل الجفاف رحلت ، وإذا أخصبت الأرض ونزل المطر استقرت . ومن هنا انحصرت وسائل العيش فى مجتمع البادية فى الرعى والصيد والغزو ، وشىء يسير من التجارة ، والقيام ببعض ما تحتاج إليه القوافل التجارية من أعمال كالحراسة والدلالة وحماية الطريق ، واختفت منه وسائل العيش الأخرى التى لا تظهر إلا فى المجتمعات المستقرة كالزراعة والصناعة والتجارة فى شكلها الاقتصادى المنظم الدقيق .

وأشهر القرى العربية التى استقرت فيها الحياة مدن الحجاز الثلاث المشهورة : مكة ويثرب والطائف ، وأشهرها مكة التى أطلقوا عليها بحق « أم القرى » ، والتى استمدت شهرتها من وجود الكعبة بها ، ومن وقوعها فى منتصف الطريق التجارى الأساسى بين اليمن والشام ، وأيضا من ظهور بئر زمزم الدفاقة بالماء الصالح للشرب بها ، والتى لولاها لما دبت الحياة فى هذه المنطقة المقفرة المجدبة التى

تحيط بها جبال الحجاز الوعرة العسيرة من كل جانب، ولظلت — كما كانت قبلها — واديا غير ذى زرع ، كما وصفها أبو الأنبياء إبراهيم قبل أن تتفجر مياهها العذبة تحت أقدام هاجر وإسماعيل . وقد عمل هذا كله على أن تصبح مكة وطن العرب الروحى ، ومركز الوثنية التى كانت القبائل العربية تدين بها ، وأيضا مركز الحياة الاقتصادية الذى شهد أكبر نشاط تجارى عرفته الجزيرة العربية، وأكبر تجمع لأرباب المال ورؤوس الأموال عرفه العصر الجاهلى . وبهذا توافرت لمكة مقومات « المدينة » ، وقامت بها شبه حكومة نظامية تمثلت فى مجلس « الملأ » الذى كان ينعقد كلما دعت الحاجة فى « دار الندوة » القريبة من الكعبة ، والذى كان يمثل السلطة الحاكمة فيها التى تتولى إدارة شؤونها الدينية والاقتصادية والاجتماعية . وهو وضع متميز لم تشهده مدينة أخرى فى الجزيرة العربية ، جعل المستشرق « لامنس» يراها « جمهورية تجارية » تشبه فى نظامها السياسى وحياتها الاقتصادية مدينة « البندقية » القديمة فى إيطاليا . ومع ذلك عاش العرب فى هذه المدن الثلاث وفى القرى العربية الأخرى المتناثرة فى أرجاء الجزيرة وعلى امتداد سواحلها حياة قبلية لاتختلف عن حياة القبائل البدوية الضاربة فى أعماقها إلا فى استقرارها .

وإلى جانب هذه المدن والقرى قامت على أطراف الجزيرة العربية إمارتان تمثلان نظاما سياسيا متقدما ، وحياة اجتماعية على قدر كبير من الحضارة : إمارة المناذرة التى قامت على الحدود الشمالية الشرقية للجزيرة فى الحيرة خاضعة للنفوذ الفارسى ، وإمارة الغساسنة التى قامت على الحدود الشمالية الغربية فى الشام خاضعة للنفوذ البيزنطى . وغير هاتين الإمارتين قامت إمارة ثالثة فى شرقى نجد ، وهى إمارة كندة التى كان حُجْر أبو امرئ القيس الشاعر آخر ملوكها .

والطريف أن ملوك هذه الإمارات الثلاث كانوا من اليمنيين الذين هاجروا إلى الشمال فى أعقاب انهيار الحضارة اليمنيــة حاملين معهم أفكارا متقدمة عن « الدولة » و « الملكية » و « نظام الحكم » ممـا عاشوا فى ظلاله قـرونا طويلة عبر تاريخ اليمن القديم .

والظاهرة الفنية التى تلفت النظر أن الشعر العربى ظهر وازدهر بين القبائل البدوية ، وبخاصة تلك القبائل التى كانت تنزل فى إقليم نجـد ، فقد شهد هذا الإقليم أولية هذا الشعر كما شهد تطوره وازدهاره . أما القرى العربية التى استقرت فيهـا الحياة فلم تشهد إلا نشاطا فنيا محدودا مثلتـه قلة من الشعراء ظهروا فيها من أمثال أميــة بن أبى الصَّلْت شاعر الطائف الكبير ؛ وبعض شعراء من الأوس والخزرج واليهود فى يثرب ، بل إن مكة — وهى أشهر مدينة فى الجزيرة العربية كلها — لم تشهد طوال العصر الجاهلى نشاطا أدبيا يلفت النظر ، فقـد كانت مشغولة بسدانة الكعبة ورعاية وفود الحجيج الذين يفدون إليها فى مواسم الحج ، وحماية الوثنية الجاهلية التى كانت مركزها الأساسى فى العصر الجاهلى ، كما كانت غارقة إلى أذنيها فى النشاط التجارى الذى كانت تمثـل أهم مراكزه وأســواقه فى هــذا العصر . أما الإمارات فقد شهدت حقا حركات أدبية نشطة ، ولكنها كانت — فى أكثر جوانبها — حركات وافدة ، إذ أتاحت لها ظروفها السياسية والحضارية أن تصبح مراكز جذب نشطة لشعراء البادية ، على نحو ما نعـرف عن « البلاط الحيرى » الذى كان يموج بشعراء البادية الوافدين عليه من أمثال النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت ، لانستثنى من ذلك إلا إمارة كندة التى كانت بحكم موقعها الجغرافى فى إقلـيم نجـد مركزا من مراكز النشاط الشعرى فى هــذا العصر ، وفيها لمع امرؤ القيس أبو الشعر الجاهلى دون منازع ، ولمع معه عَبِيـد

ابن الأبرص شاعر بنى أسد ، وداعية الثورة ضد آخر ملوكها حُجْر، ولمع معهما شعراء آخرون . ومع ذلك لا نستطيع أن نغفل أولئك الشعراء الممتازين الذين ظهروا فى هذه الإمارات ، ووجهوا الحياة الفنية فيها وجهة تختلف فى بعض جوانبها اختلافا جوهريا عن الحياة الفنية فى البادية ، من أمثال عدىّ بن زيد العِبادى والمُنَخَّل اليشكرى .

ولعل هذا التوزيع الجغرافى لمراكز النشاط الأدبى فى العصر الجاهلى بين البادية والحاضرة هو الذى لفت نظر ابن سلام ليفرد فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » قسما مستقلا لشعراء القرى فى مقابل شعراء البادية الفحول الذين صنعوا الحياة الفنية فى هذا العصر ، وشكَّلوها وفق مقاييسهم وأصولهم الفنية ، ورسموا لشعراء عصرهم الآخرين النماذج الفنية التى راحوا يحتذونها ويصوغون شعرهم على مثالها .

ومعنى هذا أن الشعر الجاهلى شعر بدوىّ قبلى ، نشأ فى أحضان البادية فى حَمى القبائل الضاربة فيها نبتا صحراويا أصيلا غرسته هذه القبائل فى رمالها ، وعكفت عليه الطلائع المبدعة من أبنائها ترعاه ، وتمد له من أسباب الحياة ما أتاحت لها طاقاتها ومواهبها الفنية ، ثم تلقته أيدى القمم الشامخة من شعرائها تحقق له هذه النهضة الرائعة التى يلاحظها كل من يتتبع حركته الخصبة التى لم تتوقف على امتداد هذا العصر .

(٧)

اكتملت القصيدة العربية فى القرن الخامس فى عصر البسوس ، حيث عكف عليها جيل الرواد الأوائل الذين خرجوا بها من عصر ما قبل التاريخ الأدبى

إلى مرحلة البداية الثابتة اليقينية ، وانتقلوا بها من عصر المقطوعة إلى عصر القصيدة . ثم راحت بعد ذلك تأخذ طريقها نحو تطور طبيعى ، شأنها فى ذلك شأن أى فن من الفنون ، وظهر جيل من الشعراء فرض نفسه على المجتمع الأدبى فى الفترة التى تنحصر بين نهاية حرب البسوس وبداية حرب داحس والغبراء ، واستطاع أن يشكل الحياة الأدبية فى هذه الفترة وفق مقاييسه الفنية . وهو جيل نستطيع أن نطلق عليه « جيل ما بين الحربين » ويمثله امرؤ القيس وعَبِيد ابن الأبرص وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد والمرقشان الأكبر والأصغر وطائفة من المعاصرين لهم الذين يشكلون مدرسة فنية متميزة نستطيع أن نطلق عليها « مدرسة الطبع » . وهى مدرسة تمثل مذهبا فنيا يقوم على أساس من العفوية والتلقائية ، يمارس الشاعر من خلالهما عمله الفنى فى غير تكلف أو تصنع ، ويعبر عن نفسه تعبيرا مباشرا لا أثر فيه لمكابدة أو معاناة ، ويسجل انطباعاته كما شعر بها فى سهولة طبيعية كما يتدفق النبع بالماء . وهو تدفق وصفه القدماء — وهم يرصدون حركته الفنية — بالارتجال . ولكن المسألة — فى حقيقتها — ليست ارتجالا بقدر ما هى تلقائية وعفوية فى غير محاولة لمعاودة النظر فى العمل الفنى أو مراجعة له من أجل تنقيحه وتجويده وتهذيبه وإضفاء اللسات الفنية الأخيرة عليه .

ونتيجة لذلك ظهرت فى شعر هذه المدرسة رواسب من مرحلة الأولية المبكرة التى مر بها الشعر الجاهلى قبل أن يتم نضجه وتكتمل له صورته الثابتة ، ففى بعض نماذجها الفنية نرى صورا من الاضطراب فى إقامة الوزن العروضى وإحكام القافية ، بل إن بعض هذه النماذج تبدو كأنها خرجت تماما على موسيقاها العروضية ، وفقدت قيمها الموسيقية وضوابطها الصوتية ، وكأنما فقد الشاعر

سيطرته عليها وقدرته على التحكم فيها ، على نحو ما نرى فى قصيدة عبيد بن الأبرص التى يضعها بعض الرواة بين المعلقات العشر :

أَقْفَرَ من أهله مَلْحُوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ

وهى تتراءى — فى وضعها الدقيق — وثيقة تاريخية بالغة الأهمية تسجل ما كان عليه الشعر العربى فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه الفنى الطويل ، وكانت قطعة أثرية نادرة وصلت إلينا من أعماق التاريخ محتفظة بغبار الزمن الذى تطاول عليها .

وترجع أهمية هذه المدرسة — فى الحقيقة — إلى الدور البالغ الأهمية الذى قام به شعراؤها فى إعطاء القصيدة الكلاسيكية شكلها النهائى ، فقد استطاع هؤلاء الشعراء أن يؤصلوا لهذه القصيدة تقاليدها الفنية ، وأن يحددوا لمن جاء بعدهم الخط الثابت الذى يتحركون فيه ، وأن يعطوها بهذا صورتها التقليدية التى استقرت عليها زمنا طويلا من تاريخها على امتداد عصورها الكلاسيكية القديمة .

فى أثناء هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الشعر الجاهلى ، وفى الوقت الذى كانت مدرسة الطبع تواصل فيه دورها الفنى الرائد فى تأصيل تقاليد القصيدة ، بدأت بواكير مدرسة فنية جديدة تظهر على مسرح الحياة الأدبية ، وهى مدرسة نستطيع أن نطلق عليها « مدرسة الصنعة » ، وقديما كان الأصمعى يصف شعراءها بأنهم « عبيد الشعر » ، لما كانوا يتكلفونه من جهد وعناء ومكابدة فى صناعة شعرهم ، وما كانوا يشقون به من معاودة النظر فيه لتجويده وتحبيره وإخضاعه لمقاييس صنعتهم الدقيقة . والرأى الشائع بين الباحثين أنها بدأت بشاعر تميم الكبير أوس بن حَجَر ، وهو رأىٌ أولُ من قال به الدكتور طه حسين فى كتابه

« فى الشعر الجاهلى » ، ولكن الحقيقة التى تؤكدها الروايات العربية القديمة هى أنها بدأت من قبل ذلك بالطُّفَيْل الغَنَوِىّ شاعر قيس الكبير الذى كان أوس راوية له ، وكانوا يلقبونه « المُحَبِّر » لما لاحظوه على شعره من ضروب التنميق والتجويد والتحبير . ومن بعدهما ظهر راويتهما العبقرى زهير بن أبى سُلْمَى الذى يمثل بحق القمة الفنية التى وصلت إليها هذه المدرسة ، والتى يقف مع زهير فوقها النابغة الذبيانى وعنترة . ووراء هؤلاء شعراء آخرون مثّلوا هذا المذهب الفنى الجديد الذى بشرت به هذه المدرسة . والظاهرة التى تلفت النظر أن هذا المذهب بلغ ذروة نضجه الفنى فى أثناء الحرب الكبرى الثانية التى شهدتها الجزيرة العربية فى أواخر العصر الجاهلى ، حرب داحس والغبراء ، وكأنما أراد التاريخ الأدبى للجزيرة أن يشهد عصر البسوس ظهور مدرسة الطبع ، وأن يشهد عصر داحس والغبراء ازدهار مدرسة الصنعة ، حتى لنستطيع القول إن هاتين الحربين تمثلان نقطتى تحول ضخم فى تاريخ القصيدة الجاهلية ، أو علامتين مضيئتين على طريق الشعر العربى مع بداية تحركه فى العصر الجاهلى .

على أيدى شعراء هذه المدرسة تحول العمل الفنى إلى صنعة فنية يوفر لها الشاعر كل جهده وطاقته ، ويبذل فى سبيل تجويدها كثيرا من الجهد والعناء ، ويخضعها لمقاييس دقيقة حتى يحقق لها كل مقومات مذهبه ، ثم يعود إليها فيعيد النظر فيها ليهذبها ويقوّمها ويحذف ما لا يُرْضِى ذوقه ، وما لا يستقيم مع مذهبه ، غير مبال بما ينفقه من وقت فى هذه الصنعة الدقيقة التى يعكف عليها فى أناة شديدة وعناية بالغة . ولعل هذا هو الذى جعل زهيرا يسمى كبار قصائده « الحَوْلِيّات » . وهى تسمية خيلت لبعض الرواة أنه كان ينفق فى صناعة كل قصيدة منها حولا كاملا ، أو — كما يقول الجاحظ — « حَوْلاً كَرِيتًا » .

ولكن المسألة لم تكن مسألة فترة زمنية محددة ، وإنما هى مسألة تفرغ للعمل الفنى ومعاودة النظر فيه زمنا طويلا ، أو مسألة عمل جاد متصل فى صناعة القصيدة حتى تتحقق لها مقومات المذهب الجديد مهما طال الزمن بالشاعر فى هذا العمل .

ومع تقدم العصر الجاهلى نحو نهايته كانت تقاليد القصيدة الجاهلية التى أصّلها لها المبدعون من شعراء المدرستين قد استقرت واتضحت معالمها ، فظهر جيل من الشعراء استوعبوا تقاليد المذهبين عن وَعْيٍ دقيق وخبرة واسعة بالمقومات الفنية التى أقام شعراؤهما نماذجهم الفنية على أساسها ، واستطاعوا أن يقدموا صورة جديدة للقصيدة الجاهلية تقوم على المزج البارع بين المذهبين والقدرة الفائقة على تقليد نماذجهما الفنية ، مما أتاح لهما فرصة للتقارب الشديد الذى بَشّر بظهور مدرسة ثالثة نستطيع أن نطلق عليها « مدرسة التقليد » . وهى مدرسة يمثلها أقوى تمثيل الشعراء الكبار الذين ظهر عليهم الإسلام وهم فى قمة نضجهم الفنى ، سواء منهم من آمن به ومن لم يؤمن : الأعشى ولبيد وحسان والخنساء وعبدة بن الطبيب ومتّمم بن نُوَيْرَةَ وسُوَيْد بن أبى كاهل اليشكرى والمُخَبَّل السَّعْدى وأمثالهم من شوامخ هذه المرحلة الأخيرة من العصر الجاهلى ، وهى المرحلة التى نستطيع أن نطلق عليها « عصر ذى قار » ، فقد كانت هذه الحرب آخر الحروب التى شهدها العصر الجاهلى ، وفيها سجّل العرب — لأول مرة فى تاريخهم — أول نصر لهم على الفرس ، وبعدها طلعت شمس الإسلام ، وأشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

(٨)

الشعر الجاهلى شعر غنائى كله ، يغنى فيه الشاعر عواطفه ومشاعره وانفعالاته ، ولم يعرف العرب فى هذا العصر لا الشعر القصصى ولا الشعر المسرحى

ولا الشعر التعليمى مما عرفه الشعر اليونانى القديم . وقد وقفت أسباب كثيرة تتصل بطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية وراء ذلك ، فحددت مجال الشعر العربى القديم فى هذه الدائرة الغنائية ، فجاء كله فى قصائد غنائية تطول أو تقصر ، ولكنها لا تتجاوز مائة بيت إلا قليلا ، وهو أقصى عدد وصلت إليه القصيدة فى العصر الجاهلى . ومن هنا دار هـذا الشعر حول الموضوعات التى يصور فيها الشاعر ما يدور فى نفسه من عواطف ومشاعر وانفعالات ، ويسجل انطباعاته الشخصية أمام الأحداث التى تمر به فى حياته . وبهذا تحددت مجالات هـذا الشعر فى الغـزل والفخر والمـدح والهجاء والرثاء والوصف والحكم ، وهى موضوعات تعكس الموقف الشخصى للشاعر من الحياة والمجتمع، وتصدر صدورا مباشرا عن تجاربه الشخصية المحدودة ، دون محاولة منه للتحول بها نحو التجريد المطلق أو النظرية الفلسفية . ولم يخرج على هذا الاتجاه العام إلا الشعراء الصعاليك الذين اتخذوا من شعرهم مجالا لتسجيل آرائهم الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية، وهى آراء تحولت عند عروة بن الورد داعيتهم المذهبى إلى مايشبه أن يكون نظرية مجردة . وأيضا خرج على هـذا الاتجاه العام بعض الشعراء الدينيين الذين سجلوا فى شعرهم معتقداتهم الدينيـة وتأملاتهم فى أسرار الكون ومخلوقاته ، وخاصـة أمية بن أبى الصَّلْت شاعر الطائف الكبير الذى دار شعره كله فى هذا الجو الدينى الذى استمد معلوماته عنه مما قرأه فى الكتاب المقـدس ، وما استمع إليـه من الرهبان والأحبار .

ولعل أهم ما يلاحظ على هذا الشعر من الناحية المعنوية أنه يدور حول معانٍ وأفكار واضحة بسيطة لا تكلف فيها ولا مغالاة ، ولا إغراق فى الخيال ، أو مبالغة تخـرج بها عن الواقع الذى تعـبر عنه ، ولا تعمق فى أغوار النفس الإنسانية .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أصبحت الواقعية والحسية من أهم السمات التى تميز الشعر الجاهلى ، فالشاعر يستمد مادته المعنوية ومادته التصويرية على السواء من الواقع الحسى الذى يعيش فيه ، ومن العالم المادى الذى يتعامل معه .

وقد دفعتهم حياتهم التى تقوم على الحركة الدائبة فى أرجاء الصحراء ، والتنقل المستمر خلف مواقع الغيث ومنابت الكلأ ، إلى لون من الحركة الفنية ظهر فى قصائدهم فى صورة انتقال من موضوع إلى موضوع دون وقوف عند موضوع واحد وكأنما انعكست حياتهم الاجتماعية على حياتهم الفنية ، مما أفقد القصيدة الجاهلية الوحدة الموضوعية التى تترابط معها أجزاء القصيدة وتتماسك فى وحدة محكمة . وهى ظاهرة جعلت بعض المستشرقين يرى فى القصيدة العربية القديمة كومة من الموضوعات والأفكار ، يتجمع بعضها إلى جانب بعضها الآخر فى غير نظام أو ترابط .

وفى ظل هذه الحركة الفنية أيضا ظهرت فى الشعر الجاهلى نزعة قصصية ، يعرض الشاعر موضوعه عن طريقها من خلال سرد قصصى تتتابع فيه الأحداث ، وقد يتردد فيه حوار بين الشخصيات ، ولكن فى بساطة ويسر وفى غير تعقيد أو مبالغة . وأكثر ما كانت تظهر هذه النزعة فى قصص الصيد والمغامرات الغرامية ومغامرات الصعاليك . ولكن هذا كله لم يخرج بالشعر الجاهلى عن دائرته الغنائية ، ولم يمتد بالقصيدة الجاهلية المحدودة لتشكل ملحمة قصصية طويلة على نحو ما نرى فى الملاحم اليونانية القديمة .

ولغة الشعر الجاهلى هى تلك اللغة الأدبية الموحدة التى فرضت نفسها على المجتمع الأدبى فى هذا العصر ، وهى لهجة قريش بعد أن استوعبت لهجات القبائل

الأخرى ، وأذابت ما بينها من اختلافات لهجية ، وهى نفسها العربيــة الفصحى التى نزل بها القــرآن الكريم فى أواخر العصر الجاهلى . ولكنها تختلف عن لغــة القرآن بغرابة ألفاظهــا و بداوتها وخشونتها . وهى ظواهر تعكس طبيعة المجتمع البدوى الذى ظهر فيه هذا الشعر ، وتمثل خصائص لغته قبل أن يهذبها القــرآن و يصفيها و يخلصها منها فى أكبر عملية « تنقية لغوية » شهدتها اللغــة العربية على امتداد حياتها الطويلة عبر أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان .

ومن الطبيعى أن هذه اللغة التى نُظِم فيها الشعر الجاهلى ، والتى تبدو غريبة علينا اليوم لبُعْد ما بيننا و بينها زمنيا ، ولاختلاف ما بيننا و بينهــا من حيث البيئة الطبيعية والحيــاة الاجتماعية والمستوى الحضارى ، كانت مألوفــة لدى أصحابها الأصــلاء ، وأبنائها الذين كانوا يتكلمونها فطرةً وسليقةً . ولذلك كانت هــذه الظواهر فى لغة الشعر الجاهلى أشــد ظهورا عند شــعراء البادية ، فى حين خفت حدتها عند شعراء المدن والقرى العربية التى كانت على حظ غير قليل من الحضارة والاستقرار، بينما كادت تختفى عند شعراء الإمارتين العربيتين اللتين قامتا على حدود الدولتين الفارسية والرومانيــة : إمارة المناذرة و إمارة الغساسنة ، واللتين أخذتا بحظ كبير من التقدم الحضارى الأجنبى ، والاستقرار السياسى نتيجة لنظام الحكم الأجنبى الذى كان قائما فيها ، فامتازت لغتهم بالسهولة واللين والرقة التى تعكس طبيعة حياتهم المتحضرة المترفــة ، ودخلت فيها طائفة من الألفــاظ الفارسية والرومانية ، وطائفــة أخرى من الألفاظ المسيحية وبخاصة عنــد شعراء إمارة الغساسنة التى كانت المسيحية ديانتها الرسميــة . وهى ظواهر نستطيع أن نتبينها بوضوح إذا وازنّا بين شــاعر من شعراء البــادية كأوس بن حجــر أو زهــير بن أبى سلمى ، وشاعر كعدى بن زيد أو المنخل اليشكرى من المقيمين بإمارة الحيرة ،

بل شاعر من الوافدين عليها كالنابغة الذبيانى ، أو من الوافدين على إمارة الغساسنة كحسان بن ثابت .

وصندوق الأصباغ الجاهلى صندوق بسيط يستمد مواده الأولية من واقع البيئة الطبيعية ومظاهر الحياة فيها . وهو — من أجل ذلك — يختلف بين شعراء البادية وشعراء الحاضرة ، فعند شعراء البادية نرى الصحراء وجبالها وكثبانها ورمالها وسرابها وآبارها ومياهها الآجنة وحيوانها وطيرها وزواحفها ، وعند شعراء الحاضرة نرى البحار والأنهار والسفن والملاّحين والمزارعين والصنّاع ، وإن لم يمنع هذا من تداخل المواد الأولية بين البيئتين ، وتسرب بعضها من إحداهما إلى الأخرى ، نتيجةً طبيعية لما كان بينهما من صلات متبادلة بسبب الجوار ، وما يترتب عليه من علاقات حيوية ومصالح مشتركة .

والتشكيل الأساسى للصورة فى الشعر الجاهلى عند شعراء مدرسة الطبع هو التشكيل التشبيهى ، فقد اعتمد شعراء هذه المدرسة فى رسم صورهم على التشبيه اعتمادا أساسيا ، واتخذوا منه اللون البارز فى لوحاتهم الفنية ينشرونه فيها على مساحات واسعة ، حتى لتتراءى بعض قصائدهم صفوفا متلاحقة من التشبيهات ، على نحو ما نرى عند امرئ القيس الذى يعده النقاد القدماء أحسن شعراء الجاهلية تشبيها ، والذى استطاع أن يبرز قيمة هذا اللون الفنى فى رسم الصورة ، وأن يوجه الشعراء الذين جاءوا بعده إلى أهميته ، وأن يكون بهذا رائد التشبيه فى الشعر العربى .

ومع تطور العمل الفنى إلى عمل صناعى عند شعراء مدرسة الصنعة ، ظهر التشكيل الاستعارى ليصبح اللون الأساسى الذى يعتمدون عليه فى رسم صورهم . وكما احتل التشبيه فى لوحات مدرسة الطبع تلك المساحات الواسعة ،

احتلت الاستعارة مساحات مثلهـا فى لوحات مدرسة الصنعة ، على نحو ما نرى عند زهير الذى يمثل القمة الشامخة التى وصلت إليها هذه المدرسة ، ففى قصائده تتزاحـم الاستعارات تزاحمـا يدل على أنه كان يتعمدها تعمدا ، ويقصد إليهـا قصدًا ، لأنه حريص على أن يحقق لفنه كل مقومات المــذهب الذى اصطنعته مدرسته فى صنعتها الفنية ، وأن يجعل من قصائده معرضا لمـا بلغتـه هذه المدرسة من التزام بتقاليدها الفنية وأصولهـا . وبحق يعد زهير أهـم شاعر جاهلى عُنى بالصــورة الاستعارية ، وارتفع بصناعتها إلى أعلى قمـة عرفها الشعر الجاهلى ، وعُدّ بهذا رائدا عبقريا من روادها الأوائل .

ومع التشكيل الاستعارى يظهر أيضا عند شعراء هذه المدرسة التشكيل التمثيلى ، وعلى مساحات واسعة أيضا من لوحاتهم يتراءى هذا اللون الفنى اللون الأساسى فى رسمها ، والقاعدة الأولى التى تقوم عليها العملية الفنية فيها . وقد أتاح لهم هذا التشكيل — كما أتاح لهم التشكيل الاستعارى ، بل ربما أكثر مما أتاح — فرصة ذهبية لتحقيق مقوّمات مذهبهم الفنى فى شعرهم ، وبخاصة الحرص على التفاصيل ، والاهتمام بالجزئيات ، والعناية بوضع اللسات الأخيرة عليها ، على نحـو ما نرى عند النابغة الذبيانى فى لوحته الرائعة التى رسمها لفيضان الفرات من خلال مدحه للنعمان وتشبيه كرمه به ، وأيضا عند عنترة فى لوحته الخلابة التى رسمها لروضة عطرة من رياض الصحراء من خلال وصفه لصاحبته الجميلة المعطّرة .

ومع ظهور مدرسة التقليد فى أواخر العصر الجاهلى ، فى عصر ذى قار ، وتقدم الجيـل الثالث من شعراء هذا العصر إلى مسرح الحياة الأدبيـة ، تتداخل هذه التشكيلات الثلاثة الأساسية ، وتتداخل معها تشكيلات أخرى ثانوية ، وتمتزج مقوّمات المدارس الثلاث وتقاليدها الفنية ، وتمتزج أصباغ صناديقها المختلفة ،

فى عملية فنية بارعة يرتفع معها التقليد والمحاكاة إلى درجة عالية من البراعة والمهارة والحذق والإحكام ، على نحو ما نرى فى لوحات لبيد الرائعة التى رسمها فى معلقته لحيوان الصحراء الوحشى وما يدور بينه وبين الصيادين المتربصين به من صراع من أجل الحياة . وهى لوحات نستطيع أن نرجع بكثير من ألوانها وتشكيلاتها إلى شعراء سابقين من المدرستين اتخذ من شعرهم نماذج ومثلاً يحتذيها ويقلدها ويحاكيها فى براعة تامة ، وقدرة فائقة ، وخبرة دقيقة بمقومات الفن والصنعة عندهم .

وعلى امتداد الطريق الفنى الطويل بمراحله الثلاث كانت تتساقط على استحياء ألوان بسيطة من البديع تساقطا عفويا فى غير تعمد أو تكلف أو مبالغة ، وبخاصة الطباق والجناس . وهى ألوان لم تتحول إلى أن تكون تشكيلات أساسية فى الصورة الفنية ، أو أن تشكل ألوانا بارزة فى رسمها .

(٩)

وأشهر قصائد الشعر الجاهلى هى تلك المجموعة التى عُرِفت « بالمعلقات » . وهى أقدم مجموعة من مجموعات هذا الشعر وصلت إلينا من عصر التدوين فى القرن الثانى الهجرى ، قام باختيارها وجمعها راوية الكوفة المشهور حماد الراوية (ت ١٥٦ هـ أو ١٦٤) .

ويختلف العلماء حول تفسير هذه التسمية وتعليلها ، ولهم فى ذلك محاولات متعددة ، أشهرها محاولتان ، تذهب إحداهما إلى أن السبب فى هذه التسمية أنها كانت مكتوبة منذ العصر الجاهلى بماء الذهب فى صحف من الكتان المصرى كان يصنعها أقباط مصر أو — على حد عبارتهم — « فى قَبَاطِىّ مُدْرَجَة » ، وأنها

كانت معلقة بأستار الكعبة تقديرا لقيمتها الفنية واعتزازا من العرب بها . وتذهب الأخرى إلى أنها سميت بهذا الاسم لأنها كانت معلقة فى خزائن ملك من ملوك العرب لم تحدد الروايات اسمه ، ولعله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، اختارها من بين قصائد الشعر الجاهلى التى كانت تلقى فى سوق عكاظ ، وأمر بتعليقها فى خزائنه إعجابا بها وحرصا عليها من الضياع .

وفى أغلب الظن أن كلتا الروايتين غير صحيحة ، وأن هذه التسمية ليست جاهلية ، وإنما هى تسمية متأخرة لم تعرف إلا فى عصر التدوين ، وأن الذى أطلقها على هذه المجموعة المختارة هو الذى قام باختيارها وجمعها وتدوينها ، وهو حماد الراوية ، تشبيها لها بالقلائد والعقود التى تعلقها المرأة على جيدها للزينة ، ولذلك سماها أيضا « السُّمُوط » ، وهى مرادف لغوى لكلمة « المعلقات » ، وكأنما كان حماد يشير بهذين الاسمين إلى أنها أجود ما فى الشعر الجاهلى ، وأنها القلائد النفيسة والعقود الثمينة فى جيد هذا الشعر .

وعدد المعلقات فى المجموعة التى رواها حماد سبع معلقات :

(١) معلقة امرئ القيس (٨٢ بيتا) :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بِسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

(٢) ومعلقة طرفة بن العبد (١٠٦ بيت) :

لخولةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تلوح كباقى الوَشْمِ فى ظاهِرِ اليدِ

(٣) ومعلقة زهير بن أبى سلمى (٥٩ بيتا) :

أمِن أمِّ أوْفَى دمنةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بحومانة الدَّرَّاج فالمُتَثَلَّمِ

(٤) ومعلقة لبيد (٨٩ بيتا) :

عَفَت الديار محلُّها فمُقامُها   بمِنًى تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها

(٥) ومعلقة عنترة (٨٠ بيتا) :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ   أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّمِ

(٦) ومعلقة عمرو بن كلثوم (٩٦ بيتا) :

ألا هُبِّي بصحنِك فاصبحينا   ولا تُبْقِي خمورَ الأندرينا

(٧) ومعلقة الحارث بن حِلِّزة (٨٥ بيتا) :

آذنتنا ببينها أسماءُ   رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

ثم أضيفت إليها بعد ذلك عند بعض الرواة ثلاث قصائد أخرى ، فاكتملت بهذا عشرا ، وهى — على حسب رواية التبريزى لها فى شرحه عليها — :

(٨) معلقة الأعشى (٦٣ بيتا) :

ودِّعْ هريرةَ إن الركب مرتحلُ   وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

(٩) ومعلقة النابغة الذبيانى (٥٠ بيتا) :

يادار ميَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ   أقوتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ

(١٠) ومعلقة عَبِيد بن الأبرص (٤٨ بيتا) :

أقفرَ من أهله ملحوبُ   فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ

وبين الرواة اختلاف حول طائفة منها ، فهى فى رواية المفضل الضبى سبع معلقات ، ولكنه يُسقط منها معلقتى الحارث وعنترة ، ويثبت مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة السابقتين ، ولكن أبا زيد القرشى فى « جمهرة أشعار العرب » يضع بدلا منهما قصيدتين أخرتين لهما ، فيضع للأعشى لاميته :

ما بكاء الكبيرِ بالأطلالِ وسؤالى وما تَرُدّ سؤالى

ويضع للنابغة رائيته :

عوجوا لِحيوا لنُعم دِمنة الدارِ ماذا تحيون مِن نُؤيٍ وأحجارِ

وبعض الرواة يسقط معلقة عبيد ولا يعترف بها بين المعلقات ، على نحو ما فعل أبو زيد القرشي فى « الجمهرة » وأبو جعفر بن النحاس فى شرحه على المعلقات ، وهى تسع عنده . وهناك أيضا اختلاف آخر بين الرواة فى عدد أبياتها وترتيبها ، وفى رواية ألفاظها ، وهو اختلاف مألوف فى نصوص الشعر الجاهلى كلها ، وهو أيضا طبيعى نظرا لوصولها إلى عصر التدوين عن طريق الرواية الشفوية على ألسنة أكثر من راو . والعدد الذى أخذنا به هنا هو ما أخذ به التبريزى فى شرحه عليها .

والأمر الذى لا شك فيه أن هذه المعلقات من أجود نصوص الشعر الجاهلى ، ومن أطول قصائده . وهى — إلى جانب ذلك — لمجموعة من أكبر شعرائه من قبائل مختلفة ، ومن مراحل زمنية مختلفة ، وأيضا من مذاهب فنية مختلفة ، فهى بهذا تغطى مساحة واسعة من الجزيرة العربية ، وتستعرض مراحل العصر الجاهلى الأدبى من بدايته حتى نهايته ، من امرئ القيس وعبيد وهما من أقدم شعراء هذا العصر ، إلى الأعشى وهو من آخر شعرائه ، إلى لبيد الذى امتد به الأجل حتى أدرك الإسلام . وهى أيضا تمثل مدارس الشعر الجاهلى الثلاث : مدرسة الطبع التى يمثلها امرؤ القيس وعبيد وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث ابن حلزة ، ومدرسة الصنعة التى يمثلها زهير والنابغة وعنترة ، ومدرسة التقليد التى يمثلها الأعشى ولبيد ، فهى — من هذه الناحية — تعرض صورة واضحة دقيقة للتطور الفنى الذى مر به الشعر على امتداد العصر الجاهلى .

وإلى جانب « المعلقات » تقف مجموعة أخرى من مجموعات الشعر الجاهلى لا تقل عنها أهمية ، وهى « المفضليات » . وهى مجموعة من القصائد الطويلة والمقطوعات القصيرة اختارها راوية الكوفة المشهور المفضل الضبى (ت حوالى ١٧٠ هـ) . ويختلف عدد قصائدها ومقطوعاتها وترتيبها بين رواياتها المختلفة التى أخذها عن المفضل تلاميذُه ، وأخذها عنهم رواتها . ويذكر ابن النديم فى « الفهرست » أن أصح رواياتها رواية ابن الأعرابى تلميذ المفضل الأول ، وهى عنده مائة وثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة . وكانت البداية ثمانين قصيدة ومقطوعة اختارها المفضل بأمر من الخليفة العباسى المنصور لتكون موضوعا لدراسة ابنه المهدى ، ثم أضاف إليها بعد ذلك القصائد الثمانى والأربعين التى اكتمل بها عددها المعروف . وهى تضم مختارات من الشعر الجاهلى والشعر الإسلامى لسبعة وستين شاعرا ، منهم سبعة وأربعون جاهليا ، والعشرون الآخرون إسلاميون .

وتأتى أهمية المفضليات من أنها تروى القصائد والمقطوعات كاملة دون تصرف فيها أو انتخاب منها ، فهى — من هذه الناحية — تتيح للباحثين فرصة الاتصال بالنص الجاهلى كاملا . وهى — من ناحية أخرى — تقدم نصا جاهليا موثقا بعيدا عن شبهات الوضع واتهامات الانتحال ، يقدمه راوية ثقة غير متهم من رواة الشعر الجاهلى الكبار . ثم هى — بعد ذلك — تعرض علينا صورة دقيقة للحياة الجاهلية بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، من ناحية ، وصورة أخرى لحركة الشعر الجاهلى بين مجموعة كبيرة من شعراء القبائل والشعراء الذاتيين ، من ناحية ثانية ، كما تقدم لنا — من ناحية ثالثة — مادة لغوية طيبة تضع أيدينا على المعجم اللغوى للشعر الجاهلى ، ومن بينها مجموعة من الألفاظ اللغوية

على قدر كبير من الأهمية ، لأنها مما أهمله اللغويون ولم يثبتوه فى معاجمهم ، ولعله سقط من بين أيديهم سهوا ، أو لعله لم يصل إلى أيديهم وهم يقومون بعملهم الضخم فى جمع اللغة وحصر موادها ومفرداتها .

وإلى جانب هاتين المجموعتين تقف مجموعة ثالثة ، وهى « الأصمعيات » التى جمعها راوية البصرة الكبير الأصمعى (ت ٢١٥ ، أو ٢١٦ أو ٢١٧) . ويبلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين لواحد وسبعين شاعرا جاهليا وإسلاميا ، منهم نحو أربعين جاهليا ، والباقون إسلاميون . وهى تعد امتدادا للمفضليات ، ولكنها تختلف عنها اختلافا أساسيا ، فبعض قصائدها لم ترو كاملة ، وإنما اكتفى الأصمعى بمختارات منها . ومن هنا تبدو أقل أهميةً من المفضليات . وربما يرجع السبب إلى أن المفضل — بحكم ريادته — سبق إلى اختيار أجمل ما فى الشعر الجاهلى ، فلم يترك للأصمعى فرصة واسعة للاختيار .

ووراء هذه المجموعات مجموعات أخرى من الاختيارات ، كجمهرة أبى زيد القرشى والحماسات المختلفة التى تشكل قائمة كبيرة من مختارات الشعر العربى القديم ، ومجموعات أخرى من دواوين الشعراء ودواوين القبائل ، وأشهر ما وصل إلينا منها «ديوان هذيل» الذى قام بصنعته وشرحه الراوية البصرى أبو سعيد السكّرى وايةً من الأصمعى . ولكن مما يؤسف له أن كثيرا من هذه الدواوين — دواوين الشعراء ودواوين القبائل — ضاع مع رحلة القرون الطويلة تحت ظروف مختلفة فلم يصل إلينا ... خسارةٌ كبيرة يحاول الباحثون والمحققون المحدثون تعويضها بما يقومون به من نشر ما لا يزال مخطوطا فى خزائن دور الكتب ، وجمع ما تناثر من نصوصها فى المصادر الأدبية والتاريخية .

(١٠)

إلى جانب هـذا النشاط الشعرى المواج بالحياة الذى شهدته الجزيرة العربية فى هذا العصر، كان هناك نشاط نثرى أيضا لا يقل حيوية عن هـذا النشاط، ولكن النمـاذج الفنية التى وصلت إلينا منه أقل، نتيجةً أساسية لصعوبة احتفاظ الذاكرة بالنصوص النثرية بسبب افتقادها ضوابط الوزن والقافيـة التى تعين على الاحتفاظ بالنصوص الشعرية. وهذه هى المشكلة التى دفعت طائفة من الباحثين إلى إنكار ما وصل إلينا من النثر الجاهلى جملة وتفصيلا، وجعلت شبهات الوضع والانتحال تحيط به من كل ناحية. ولكن ليس معنى هذا أن المجتمع الجاهلى الأدبى لم يعرف النثر الفنى، وليس معناه أيضا أن يكون النثر الجاهلى كله قد طوته رمال الصحراء وأخفت معالمـه إلى الأبد. فقد اكتسبت الذاكرة العربية التى اعتمد عليها العرب اعتمادا أساسيا فى حفظ تراثهم الأدبى على امتداد عصر الرواية الشفوية قدرةً غير عادية على الاحتفاظ بمـا يستقر فيها من معلومات، ممـا أتاح للرواة أن يحتفظوا بنصوصٍ من هذا التراث، إن لم تكن صورةً طبق الأصل منه فإنها — بدون إثارةٍ مفتعلة لقضية الانتحال — صورة قريبة منه، نستطيع من خلالها أن نحدد اتجاهاته الموضوعية وخصائصه الفنية. ومن الحق أن فرصة الاحتفاظ بالتراث الشعرى أوسع، ولكن هذا لا يعنى — بأى حال من الأحوال — ضياع كل التراث النثرى جملة وتفصيلا، وإنمـا يعنى فقط ضياع أكثره، واحتفاظ القليل الذى وصل إلينا منه بمـا يتيح لنـا أن نرسم الخطوط العريضة له التى تحدد مجـالاته واتجاهاته وطبيعته الفنيـة. وإلا ففيم ألف الجاحظ كتابه الضـخم «البيان والتبيين» الذى يحاول أن يرصد فيه حركة النثر فى العصر الجاهلى، ويثبت أن العرب الجاهليين كما تفوقوا فى الشعر تفوقوا فى النثر أيضا؟

والحقيقة التي لا يختلف عليها الباحثون اليوم أن العرب الجاهليين كانوا يعرفون الكتابة ، وبخاصة في مجتمعات المدن التي كانت على حظ غير قليل من الحضارة والاستقرار ، لحاجتها إليها في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فبين أيدينا نصوص ووثائق وروايات ثابتة تؤكد هذه الحقيقة . ولكن الأمر الذي يتفق عليه أكثر الباحثين أن هذه المجتمعات لم تستخدم الكتابة في أي مجال أدبي ، ولم تعتمد عليها في تسجيل نشاطها الأدبي ، وإنما كانت تستخدمها في المجالات الحيوية التي أشرنا إليها ، تسجِّل بها العقود والديون والصفقات التجارية ، وتدوِّن بها العهود والمواثيق والأحلاف ، وتعتمد عليها في المكاتبات الاجتماعية بين طبقات المجتمع المختلفة ، وفي الرسائل التي كانت تتبادلها مع ملوك الإمارات والدول المجاورة لها في اتصالاتها السياسية والاقتصارية المتعددة ، ونحو ذلك من المجالات المختلفة التي تتصل بقاعدة الحياة العامة التي تقوم عليها هذه المجتمعات . وفي القرآن الكريم دعوة إلى الوفاء بالعقود ، وأمر صريح بكتابة الديون ، وحديث عن إيلاف قريش الذي عقدته بينها وبين القبائل التي تمر بها قوافلها التجارية في رحلتي الشتاء والصيف بين اليمن والشام . وفي الحديث النبوي تتردد الدعوة إلى توثيق المعاملات بين أفراد المجتمع بكتابتها وتسجيلها . وفي الشعر الجاهلي إشارات كثيرة إلى العهود والمواثيق التي كانت القبائل تعتمد على تسجيلها في صحف عرفت عندهم بالمَهَارق . وفي الروايات والأخبار أحاديث كثيرة عن المكاتبات التي كانت تتم بين طبقة السادة وطبقة العبيد ، وسيلةً من وسائل عتقهم وتحريرهم . ولكن لا توجد — حقيقةً — أي إشارة في أيٍّ من هذه المصادر إلى أن العرب الجاهليين استخدموا الكتابة في المجال الأدبي ، لا في مجال الخلق والإبداع ، ولا في مجال التدوين والتسجيل .

ومعنى هـذا أن النثر الجاهلى كان كله نثرا شـفويا ، ولا نستطيع أن ندّعى — بأى حال من الأحـوال — أن المجتمع الجاهلى عرف أى صورة من صور النثر الأدبى المكتوب . حتى الرسائل التى تتردد الإشارة إليها فى المصادر، وتُروَى نصوص منها على ألسنة الرواة ، كانت كلها رسائل سياسية أو اجتماعية ، تبادلها سادة القبائل فيما بينهم أو بينهـم وبين ملوك الإمارات التى تحيط بهم أو تجاورهم على مناطق الحدود .

* * *

فى ضوء النصوص التى وصلت إلينا ، والتى تحـدد المجالات الأساسية للنثر الجاهلى ، نستطيع أن نلاحظ أن أول هـذه المجالات وأهمها وأوسـعها انتشارا فى المجتمع الجاهلى الخطابة . فقد كان لكل قبيلة خطباؤها الرسميون المتحدثون باسمها فى المحافل والأندية أمام الملوك والأمراء وسادة القبائل فى وفادتها عليهـم ، وكان هؤلاء الخطباء يمثلون الألسنة الناطقة باسم قبائلهم إلى جانب الشعراء ، بل إن بعض الرواة القدماء لاحظوا أن الخطابة فى أواخر العصر الجاهلى تفوقت على الشعر، واحتلت مكانة أرفع من مكانته، وأصبح الخطباء أعظم قدرا فى مجتمعات قبائلهم من الشعراء . وهى ملاحظة نقلها الجاحظ فى « البيان والتبيين » عن راوية البصرة الكبير أبى عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجاتهم إلى الشعر الذى يقيِّد عليهم مآثرهم ، ويفخِّم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم، ويهيِّب من فرسانهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعرُ غيرهـم فيراقب شاعرهم . فلمـا كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مَكْسَبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض النـاس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » . وتحتفظ المصادر الأدبية والتاريخية بصور رائعـة لهذا

الدور الكبير الذى كان يقوم به خطباء القبائل فى مجالات الوفادة فيما ترويه من خطب أشراف القبائل فى وفودهم على كسرى وغيره من ملوك العرب وأمرائهم . وفى السيرة النبوية صورة معبرة عن هذا الدور فيما ترويه من خطبِ وفودِ القبائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة يعلنون إسلام قبائلهم . وفى كل وفدٍ خطيب أو خطباء يقومون بين يدى الرسول فيلقون خطبهم ، حتى إذا ما فرغوا منها وقف خطيب الرسول أو خطباؤه يردون عليهم .

ووراء خطباء القبائل أو هـؤلاء « المتحدثين الرسميين » باسم قبائلهم خطباء لا حصر لهم يخطبون فى المناسبات العـامة والخاصة : فى الدعوة إلى الحـرب أو فى الدعوة إلى السلام ، وفى حفلات الخطبة والزواج ، وفى مآتم العزاء ومجالات الرثاء ، وفى الأسـواق وبخاصة سوق عكاظ حيث كانت تتاح الفرصـة لكل خطيب أن يقول ما يشاء ، وأن يعلن رأيه فى أى أمر كما يشاء . وتحتفظ السيرة النبوية بخطبة أبى طالب فى خِطبته للسيدة خديجة للنبى عليه السلام ، كما تحتفظ المصادر الأدبية بخطبة قُسّ بن ساعدة المشهورَة التى ألقاها فى سوق عكاظ ، وسمعها النبي عليـه السلام وتحدث بها . وقد وقف الجاحظ طويلا فى « البيان والتبيين » أمام هؤلاء الخطباء ، ومضى يستعرضهم فى شتى القبائل ، ويروى كثـيرا من خطبهم ، ويسجل تقاليد الخطابة العربيـة وأصولها وطقوسها ، حتى ليخيل للمرء أن الجزيرة العربية فى العصر الجاهـلى كانت تموج فى كل مكان بنشاط خطابى لا حدود له ، وكأنمـا تحول كل عربى فيها إلى خطيب ، أو كأنمـا كان كل عربى فيهـا خطيبا . وفى كثير من نصوص الشعر الجاهلى مدحٌ لسادة القبائل بالبراعة فى الخطابة والقدرة على البيان فى مجالات القول المختلفة .

ومن بين هـؤلاء الخطباء الذين يصعب حصرهم تلمع أسماء طائفة تتفق المصادر الأدبية على أنهم من أخطب خطباء هـذا العصر ، من أمثال عمرو ابن كلثوم خطيب تغلب وشاعرها ، وهانىء بن قبيصة الشيبانى خطيب يوم ذى قار ، وقيس بن خارجة الغطفانى خطيب داحس والغبراء الذى ظل يخطب فيها يوما كاملا حتى أدركه الليل ، وحاجب بن زُرَارة خطيب تميم ، وعمرو ابن الأهتم المِنقرى الذى يذكر الجاحظ أنه لم يكن فى بادية العرب فى زمانه من هو أخطب منه ، والذى قال النبى عليه السلام تعليقا على خطبة له : « إن من البيان لسحرا » ، وقيس بن عاصم المنقرى الذى قال عنه النبى « هذا سيد أهل الوَبَر » ، والذى رأى عَبْدة بن الطبيب الشاعر فى وفاته « بنيـانَ قوم تهدَّما » ، وعتبة ابن ربيعة خطيب قريش يوم بدر ، وسهيل بن عمرو خطيب مكة الذى انتدبته قريش لمفاوضة النبى فى الحديبية .

* * *

وإلى جانب الخطابة تقف « المنافرات » . وهى صورة من صور الخطابة تشبه المناظرات ، حيث يقف سيدان يتفاخران ، كل منهما بفضائله ومآثره وأمجاده ، وبنسبه وحسبه ومنزلته فى قومه ، أمام حَكَم من أشراف العرب أو من كهانهم ، يحتكمان إليه ليفصل بينهما . وكانت هذه المنافرات أكثر ما تكون حين يتنازعان على رياسة القبيلة ، وكأنها صورة مبكرة لما نراه الآن من مناظرات بين المتنافسين على الرياسة فى النظام الجمهورى . وكانت القبائل تحتفل بهذه المنافرات احتفالا كبيرا ، تحدد له موعدا ، وتعلن عنه منذ وقت مبكر ، وتدعو إلى شهوده سادة القبائل الأخرى ، وتقيم من أجله الولائم وتنحر الذبائح ، وتقدّم الأطعمة ، وتخصص للحكم نصيبا من الإبل يتفق عليه المتنافران ، يدفعه إليه

المغلوب منهما ، ويرهنون من أجل الوفاء به رهنا من أبنائهم عند سيد منهم كانوا يسمونه « الضَّمين » . وأحيانا كان المتنافران هما اللذين يتوجهان إلى حكم يرتضيانه ليتنافرا أمامه فى حضور سادة القبائل وأشرافها ، وأحيانا كانا يترددان على أكثر من حَكَم إذا لم يقبلا حُكم واحدٍ منهم ، أو إذا رفض أحد الحكام الحكم بينهما تحرجا من حساسية الموقف ، أو حرصا على وحدة القبيلة من أن يفرق بينها الحُكم لواحدٍ منهما ، أو يوقع بين أحيائها فتنة أو شرا .

وتحتفظ المصادر الأدبية بطائفة من هذه المنافرات ، وما كان يحيط بها من ضروب الاستعداد لها ، وما كان يدور فيها من مراسم وتقاليد ، وما كان يصاحبها من تحرك وتخطيط لنصرة أحد المتنافرين على الآخر ، أو لتهدئة الموقف بينهما ، وامتصاص روح الفتنة منه بالتسوية بينهما ، أو بتأجيل المنافرة إلى موعد آخر يتيح الفرصة لتسوية الموقف ، على نحو ما نرى فى المنافرة المشهورة بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل حول رياسة بنى عامر ، بعد أن بلغ سيدها عامر بن مالك السنّ التى يعجز عندها عن سياسة القبيلة ، ويحسن به أن يتنازل فيها عن الرياسة . وهى منافرة شغلت الناس أياما طويلة ، وتردد المتنافران من أجلها على أكثر من حَكَم ، حتى انتهيا إلى سيد فزارة هرِم بن سِنان السيامى الحكيم الذى استطاع أن يضع حدا لحرب داحس والغبراء بعد أن فرقت بين عبس وذبيان دهرا طويلا ، واستطاع هرِم أن ينزع فتيل الفتنة بين أحياء عامر ، وأن يمتص روح التحدى من أعماق السيدين المتنافرين ، فسوّى بينهما ولم يفضل أحدهما على الآخر : « فيجلب بذلك عداوة ، ويُوقع بين الحيين شرا » — على حد عبارة الرواة القدماء الذين رووا هذه المنافرة .

* * *

وواضح أن هذا كله يدل على ازدهار الخطابة فى العصر الجاهلى ، وأنها سجلت نهضة قوية لايمكن أن نسقطها من حسابنا تحت ضغط شبهات الوضع والانتحال. وفى ظل هذا الازدهار وهذه النهضة استقرت للخطابة الجاهلية مجموعة من التقاليد تعارف عليها خطباء هذا العصر ، واستقرت لها مجموعة من الخصائص الفنية تمثل مذهبا فنيا كان الخطباء يحرصون عليه ويلتزمونه فى خطابتهم . فكان الخطباء يخطبون فى المحافل العامة على رواحلهم أو على مرتفع من الأرض، وكانوا يَلُوثون العمائم على رؤوسهم ، ويمسكون فى أثناء خطابتهم بالعصى والمخاصر والقضبان والقنا والقسىّ ، وهى مما أخذته الشعوبية على العرب مما اضطر الجاحظ إلى الدفاع عنه فى أول كتابه « البيان والتبيين » ، حيث عقد كتابا عن العصا ، وعد حملها فى أثناء الخطابة مزية خاصة بالعرب دون غيرهم من الأمم .

ويتفاوت أسلوب الخطابة الجاهلية بين الأسلوب المرسل والأسلوب المسجوع ، وإن يكن السجع السمة الغالبة عليها ، والطابع العام لها . ويلاحظ الجاحظ ملاحظة دقيقة بارعة حين يذكر أن أكثر ما كانوا يستخدمون السجع فى المنافرات ، وأما الأسلوب المرسل فأكثر ما كانوا يستخدمونه فى خطابة المحافل والمناسبات العامة ، كما يسجل أن عنايتهم بخطابتهم ، والحرص على تجويدها وتقويمها وتنقيحها وتصفيتها ، لم تكن أقل من عنايتهم بشعرهم ، وبخاصة فى طوال خطبهم كما كان الأمر فى طوال قصائدهم ، وأن هذه الخطب الطوال كانت تمر قبل ارتجالها بمرحلة تفكير فيها وإدارة لها فى الصدور . ولعل هذا هو الذى جعل شعراءهم يشبهون خطبهم بالوَشْى والديباج والثياب المنقوشة المصورة .

* * *

وإلى جانب الخطابة والمنافرات عرف المجتمع الجاهلى صورة أخرى من صور هذا النشاط النثرى الواسع النطاق، وهى «سجع الكهان». والكهان طائفة من المتنبئين بالغيب، كان أكثرهم من سَدَنة بيوت الأصنام والأوثان، عرفهم المجتمع الجاهلى كما عرف المجتمع الفرعونى فى مصر القديمة كهنة المعابد الدينية. وكان لكل منهم تابع من الجن أو «رَئِيّ» يصعد فى السماء، ويسترق السمع إلى ما تخطه أقلام الملائكة من مصائر البشر، ثم يعود إلى صاحبه فيوحى إليه بما تساقط إلى سمعه، وعلى أساس منه يبنى الكاهن نبوءاته عن الغيب المجهول الذى يسأل عنه من يقصده من البشر الباحثين عن حلول لما يعترض حياتهم من مشكلات غامضة لا تملك عقولهم وسيلة لحلها، أو لما يُقدِمون عليه من أعمال خطيرة لا يعرفون نتائجها. وفى سورة الجن حديث طويل عن رجال من الإنس كانوا يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقا، وأنهم كانوا يقعدون من السماء مقاعد للسمع ليسرقوا أخبارها من الملائكة، وأنهم بعد بعثة النبى حيل بينهم وبينها، إذ وجدوها ملئت حرسا شديدا وشهبا، فمن يستمع الآن منهم يجد له شهابا رَصَدا يحرقه قبل أن يصل إلى أبواب السماء. وهو حديث يتردّد أيضا فى سورة الصافات.

وكان هؤلاء الكهان يعيشون حياة كهنوتية غامضة، تكتنفها أسرار مجهولة تحولت فى أذهان الناس إلى أساطير خيالية، جعلت العرب يعتقدون فيهم قدرات خارقة يعجز عنها البشر، ويحيطونهم بهالات من التقديس يشوبه كثير من الرهبة والخوف والحذر. وتتردد فى المصادر الأدبية والتاريخية أسماء كثير منهم، من أمثال سَواد بن قارب والمأمور الحارثى وخُنَافِر الحميرى وعُزّى سَلَمَة. وربما كان أشهرَهم ذكرا، وأبعدهم صيتا، وأشدهم غموضا وأسطورية شِقٌّ الذى

يصفونه بأنه كان نصف إنسان ، له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وسطيح الذى يصفونه بأن جسمه لم تكن به عظمة واحدة إلا جمجمته ، وأن وجهه كان فى صدره ، ولم يكن له عنق . ومع هؤلاء الكهان كانت هناك كاهنات من أشهرهن الشعثاء والزرقاء والكاهنة السعدية وكاهنة ذى الخُلَصة والغَيْطَلة القرشية وزَبْراء كاهنة بنى رِئام .

كان العرب يلجئون إلى هؤلاء الكهنة والكاهنات يستشيرونهم فيما يعرض لهم من مشكلات لا يجدون لها حلا ، أو فيما يعتزمون القيام به مما لا يعرفون نتائجه ، لعلهم يجدون عندهم النصح أو التوجيه ، وكانوا يقدمون لهم نبوءاتهم فى أسلوب متميز خاص بهم، له خصائصه التى ينفرد بها من بين أساليب النثر والشعر التى عرفها المجتمع الجاهلى . وهو أسلوب يعد انعكاسا لحياتهم الكهنوتية الغامضة التى تغلفها أجواء أسطورية تموج بها أسرار مجهولة مبهمة كأنها وسوسات الشياطين الذين يوحون إليهم نبوءاتهم . أسلوب غريب يحيط به جو غامض مبهم تحوِّم حوله أسرار الغيب المجهول ، يعتمد أساسيا على الرمز الذى يحقق له هذا الغموض وهذه الكهنوتية ، ويتخذ من السجع القصير الفواصل وسيلة للتعبير عما يحوِّم حوله من أسرار ، ويصطنع لغة ممعنة فى الإغراب كأنها لغة الشياطين ، ليزيد من هذا الغموض ، ويجسم من هذه الأسرار ، ويبالغ من هذا الرمز ، وليترك الباب بعد ذلك مفتوحا لشتى الاحتمالات والتأويلات . ويستعين على تأكيد هذا كله بأقسام غريبة غير مألوفة عند العرب بمظاهر الطبيعة المختلفة : الأرض وما فيها من جبال وأشجار وبحار ومياه وحيوان ونبات وطير ، والسماء وما فيها من كواكب ونجوم وبروج وشمس وقمر ، وما يتحرك بين السماء والأرض

من رياح وأنواء ، وسحاب وأمطار ، ونور وظلام ، وليل وصباح ، وشروق وغروب . وهو أسلوب استقرت معالمه وسماته المميزة له فى نفوس العرب الجاهليين ، حتى خُيِّل لهم — وهم يستمعون إلى آيات القرآن الأولى التى نزلت فى بداية المرحلة المكية — أنها أقوال كاهن من كهانهم ، فاتهموا النبى — من بين ما اتهموه به — بأنه كاهن أو ساحر . وقد وصف النبى عليه السلام رجلا من هذيل اصطنع هذا الأسلوب فى خصومة بين امرأتين من قومه بأنه « من إخوان الكهان » ، وأنكر عليه أن يسجع كسجع الجاهلية . وهذا كله يزيد من تأكيد الصورة الأسلوبية التى وصل إلينا فيها سجع الكهان ، ويردّ على من يطلقون الحكم بوضعه وانتحاله إلى حد إنكاره كله .

* * *

ووراء هذه الألوان الثلاثة من النثر الجاهلى كانت هناك مجموعات من الوصايا والحكم ، وحشود لا حصر لها من الأمثال ، جرت على ألسنة طوائف من المعمّرين والحكماء الذين عرفهم هذا العصر ، واحتفظت بأسمائهم ونصوصهم مصادره المختلفة ، أمثال أكثم بن صيفىّ التيمى ، وعامر بن الظرب العَدْوانى ، وذى الإصبع العدوانى ، وطائفة أخرى من النساء من أمثال صُحَر بنت لقمان ، وهند بنت الخُسّ ، وجُمْعة بنت حابس ، وأمامة بنت الحارث .

وتدور هذه الوصايا والحكم والأمثال حول تجارب هؤلاء الحكماء والمعمرين فى الحياة ، وما انتهوا إليه من آراء فى مجال العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين الناس . وهى — من أجل ذلك — تمتاز بالتركيز البالغ والإيجاز الشديد اللذين يحققان لها ما تهدف إليه من تقديم خلاصة التجربة فى عبارة مختصرة ، تنفذ إلى سامعها من أقرب طريق ، فى غير عوج أو دوران ، لتستقر فى أعماقه واضحة

محددة خالصة من التفصيل والجزئيات، يجدها كلما طلبها كما استقرت فيها كأنما نُقشت فيها نقشا . ولعل هذا هو الذى أتاح لكثير منها أن يصل إلينا كما نطق به أصحابه دون تغيير أو تحريف، ولعلها بهذا تصبح أصح نصوص من النثر الجاهلى وصلت إلينا وأوثقها وأشدها قربا إلى أصولها الأولى .

ومن أجل ذلك نرى فى طائفة منها خروجا على النظام اللغوى، وشذوذا على القياس النحوى، كأنما كانت هذه آثارا لاحتفاظها برواسبَ من لهجات القبائل المحلية التى لم يحرص على تسجيلها علماء اللغة والنحو ، أو نتيجة لتحولها على ألسنة الشعب العربى فى شتى مجالات حياته إلى تراث شعبى لا يخضع لمقاييس التراث الرسمى الفصيح . ولعل فى ذلك ما يفسر أن أكثر هذه الحكم والأمثال تُنْسب إلى مجهولين لا نعرف عنهم شيئا ، بل حتى لا نعرف أسماءهم .

* * *

يوسف خليف

القسم الأول

كتاب الشعر

عصر البَسُوس

المُهَلْهِل

فى أواخر القرن الخامس الميلادى اشتعلت رمال الجزيرة العربية بنيران حرب عاتية استمرت — فيما يذكر الرواة — أربعين سنة ، وهى حرب البسوس التى دارت رحاها بين قبيلتى بكر وتغلب بعد مصرع كليب سيد ربيعة التغلبى على يد جَسَّاس البكرى الذى غضب لإهانة لحقت خالته البسوس حين رمى كليب ناقةً لها بسهم أصابها فقتلها ، فثارت ثائرة جساس وانطلق إليه فقتله . وخرج المهلهل أخوه يطالب بثأره ، وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت نيران هذه الحرب الضارية .

والمهلهل بطل هذه الحرب هو عَدِىّ بن ربيعة، يرجع نسبه إلى قبيلة تغلب، وأكثر الرواة على أنه لُقِّب بالمهلهل لأنه أول من هلهل القصيدة العربية ، أى أطالها وخرج بها من مرحلة المقطوعة ، وهى المرحلة التى سبقت حرب البسوس . نشأ المهلهل فى قبيلته كما ينشأ فتيان قومه وكان أبوه سيد ربيعة وقائدها فى معارك التحرير ضد القبائل اليمنية التى غزت أرضها واحتلتها . وكان أخوه كليب سيدها بعد أبيه ، وقائدها فى هذه المعارك حتى تم لها النصر فيها وطرد اليمنيين الغزاة . وشارك المهلهل فى معارك التحرير تحت قيادة أبيه وأخيه ، حتى إذا ما استقرت الأمور ، وتولى كليب زعامة مُضَر ، انصرف المهلهل إلى حياة لاهية فارغة ، واتجه إلى متعه وملذاته : الخمر والمرأة والميسر والصيد .

ثم كانت نقطة التحول الضخمة فى حياته حين بلغه مصرع أخيه ، فخلف وراءه دنيا اللهو التى كان غارقا فيها حتى أذنيه ، ونفض يديه منها ، وحمل على كتفيه تبعة الثأر لأخيه ، وأقسم ألا يقرب النساء ، ولا يشرب الخمر ، ولا يشم الطيب حتى يثأر له . وخاض المهلهل سلسلة من الوقائع الرهيبة ضد قبيلة بكر قتلة أخيه ومن تحالف معها من القبائل ، وتعددت انتصاراته . ثم بدأ ميزان الحرب يتحول حين دخل الحارث بن عُبَاد سيد قبائل بكر كلها الحرب بعد أن كان قد اعتزلها منذ بدايتها ، فقد توالت انتصارات بكر بقيادته ، وبدأت نُذُر الهزيمة تلوح لتغلب فى الأفق . وكأنما أدرك المهلهل أن أيام النصر قد ولت إلى غير رجعة ، فقرر أن يغادر ميدان الصراع ، ويرتحل بعيدا بأهله ، لعل ذلك يساعد على انطفاء نار الحروب وعودة الحياة إلى طبيعتها .

وتضطرب الحياة بعد ذلك بالمهلهل ، وتشهده صحراء نجد مرة مع قومه فى طريقهم إلى العراق فرارا من البكريين الذين ظلوا يتعقبونهم من مكان إلى مكان ، وتشهده مرة أخرى مع أهله وحدهم فارين إلى اليمن بعد أن خلف قبيلته فى طريقها نحو العراق ، ثم تشهده للمرة الأخيرة وهو يغادر اليمن بعد أن ضاقت به الحياة هناك ليعود إلى قومه بالعراق . ولكن القدر يأبى عليه أن تتم رحلته ، فيقع فى أسر البكريين ، ولكن أخوالا له يتدخلون ليأخذوه عندهم . ويسلمه البكريون لهم إجلالا لسنه واحتراما لشيخوخته ، ويقضى المهلهل ما بقى له من أيام حياته عند أخواله .

ثم تكون نهاية المأساة ، فيودّع البطل الحياة فى ظروف يختلف الرواة حولها : فمن قائل إنه مات ، ومن قائل إنه قتل ، ولكن النهاية — على الحالين — واحدة . إنه المصير المحتوم الذى لا مفرّ منه أدركه بعيدا عن قومه ،

غريبا عن ديارهم. ويختلف الباحثون فى محاولاتهم تحديد سنة وفاته بين سنوات ٥٠٠ ، ٥٣٠ للميــلاد . وهى محاولات لا نملك معها ترجيحا لأى سنة منهــا . وإنمــا كل ما نملكه أن نقول إنه توفى فى أوائل القرن السادس الميلادى .

والمهلهل أهم شاعر ظهــر فى حرب البسوس ، وألمــع شعراء عصره ، وهو الرائد الأول للشــعر العربى الذى كان ظهوره البــداية الحقيقية للشعر الجاهلى ، فهو — بإجماع الرواة — اول من أطال القصيدة العربيــة بعد أن كان الشــعر قبله أبياتا مفردة أو مقطوعات قصــيرة ، وعلى يديه انتقل هذا الشعر من عصر المقطوعة إلى عصر القصيدة .

ويدور شعره الذى وصل إلينا حول حرب البسوس ، ويعد — بحق — وثيقة تاريخية لهذه الحــرب ، وسجلا كاملا لأحداثها منذ أن لقى كليب مصرعه فأشعل نيرانها إلى أن انسحب هــو من ميدان الصراع فانطفأت هــذه النيران . ونستطيع أن نقسمه إلى مجموعتين أساسيتين : مجمــوعة تدور حول مصرع كليب ورثائه والتفجع عليه ، وتهديد قبيلة بكر التى لقى مصرعه على يد أحد أبنائها ، ومجموعة تدور حول تصوير الحــرب ، وتسجيل أحداثهــا ، وما أظهره هو فى ساحاتها من بطولات ، وما أحرزته قبيلته من انتصارات ، وما ألحقته بأعدائها من هزائم . وهو فى كلتا المجموعتين يجنــح إلى شىء غير قليــل من المبالغة والتهويل وتضخيم المواقف ، ممــا يعدّ انعكاسا نفسيا للغرور الذى كان يمــلأ نفسه ، والزهو الذى كان يداخلها ، كما يعد انعكاسا آخر لهول الفاجعة التى أودت بأخيه الذى ضرب به العرب المثل فى العزة ، وعمق إحساسه بهــا .

* * *

يوسف خليف

(١)

بُكائيَّــة

* * *

تدور هذه القصيدة حـول محور أساسي يدور حـوله أكثر شعر المهلهل ، وهو بكاء كليب الذى يتراءى أمام الشاعر بطلا أسطوريا ، فقدت الدنيا لمصرعه كل بهجتها ، بل كل قيمتها ، ومادت الأرض بمن عليها وما عليها حين بلغهـا نعيه . وإنه ليتمنى لو وقعت السماء على الأرض ، وانشقت الأرض فابتلعت كل حيّ فوقها ، تعبيرا عن لجيعته فيه ، وتخفيفا من نار الانتقام التى تتأجج فى أعماقه . وهو بكاء ينتهى بالشاعر إلى تعـداد مآثر البطل الذى جمع كل صفات البطولة ، وتحققت فيه صورة مثالية لهـا . وهو ـــ لذلك ـــ يرفض كل صلح بينه وبين قتلة أخيه ، ويتوعدهم بأن الحرب بينه وبينهم مستمرة لن تتوقف ما دام الفلك الدوار مستمرا فى حركته الأبدية التى لا تتوقف .

* * *

١ كليبُ ، لا خيرَ فى الدنيا ومن فيها إذ أنت خَلَّيْتهـا فيمن يخليهـا

٢ كليبُ ، أىُّ فـتى عِزٍّ ومكرمـةٍ تحت السقائِف إذ يعلوك سافِيها

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته بموضوعها مباشرة ، وهو بهذا يرسى التقليد الفنى الذى سار عليه الشعراء من بعده من أن قصائد الرثاء لا تبدأ بالمقدمات التقليدية التى تبدأ بها الموضوعات الأخرى .

(٢) السقائف : حجارة القبر . والسافى : التراب .

٣ نَعَى النعاة كليبًا لى فقلت لهم : مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
٤ أضحت منازلُ بالسُّلّانِ قد درست تبكي كليبا ولم تفزَعْ أقاصيها
٥ الحزم والعزم كانا من صنيعته ما كلُّ آلائه يا قوم أحصيها
٦ القائد الخيلَ تردى فى أعنتها زهوا إذا الخيل لجَّتْ فى تعاديها
٧ مِن خيلِ تغلبَ ما تُلْقى أسنتها إلا وقد خضَّبتها من أعاديها
٨ تكون أولها فى حين كرتها وأنت بالكرِّ يومَ الكر حاميها
٩ حتى تَكَسَّرَ شَزْرًا فى نحورِهمُ زُرْقَ الأسنةِ إذ تَرْوَى صواديها
١٠ أمست وقد أوحشتْ جُردا ببلقعةٍ للوحش منها مَقِيل فى مراعيها

(٣) الرواسى : الجبال .

(٤) السلان : موضع فى ديار تغلب . درست : عفت وتغيرت . وقوله « لم تفزع أقاصيها » يريد به أنها لم تخرج للثأر . يستحث تغلب على الخروج لمعركة الثأر .

(٥) الصنيعة : الإحسان . والآلاء : النعم .

(٦) تردى : ترجم الأرض بحوافرها ، كناية عن الشدة والعنف . والزهو : الكبر والتيه والفخر . ولجت : تمادت . والتعادى : التسابق فى العدو . يقول إنه قائد الخيل التى تجاذب أعنتها وهى ترجم الأرض بحوافرها فى تيه وخيلاء لتسبق الخيل التى تسابقها فى العدو .

(٧) « ما تلق أسنتها » كناية عن انتهاء القتال وعودة الفرسان من المعركة . يقول إن هذه الخيل من خيل تغلب المشهورة التى لا تضع أسلحتها بعد القتال إلا وقد خضبها فرسانها من دماء الأعداء .

(٨) الخطاب فى البيت لكليب . يقول إنه يكون دائما فى طليعة المهاجمين ، وإنه يتخذ من الهجوم خطة لحماية فرسانه .

(٩) تكسر أى تتكسر ، حذفت إحدى التاءين تخفيفا . والشزر هنا الطعن . وتروى : تشرب حتى تطفىء ظمأها ، والصوادى : العطاش . يقول إن هذه الأسنة الزرق المجلوة تتكسر فى نحور الأعداء وتروى ظمأها من دمائهم .

(١٠) البلقعة : الأرض الخالية من مظاهر الحياة ، يريد ساحة المعركة بعد انتهاء القتال . والمقيل : مكان القيلولة وهى فترة الراحة فى وقت الظهيرة . يصف ساحة القتال بعد انتهاء المعركة بأنها أمست موحشة مقفرة خالية إلا من الوحش التى اتخذت منها مقيلا لها .

١١ يَنْقُرن عن أمِّ هامات الرجال بها والحرب يفترس الأقرانَ صاليها

١٢ يهزهزون من الخطيّ مُدْمَجة كُمْتًا أنابيبها ، زُرْقًا عواليها

١٣ ترى الرماح بأيدينا ، فنوردها بيضًا ، ونُصدرها حُمْرًا أعاليها

١٤ ليت السماء على مَنْ تحتها وقعتْ وانشقّت الأرضَ فانجابت بمن فيها

١٥ لا أصلح الله منا مَنْ يصالحكم ما لاحت الشمسُ في أعلى مجاريها

* * *

(١١) الضمير في « ينقرن » يعود على الوحش . والهامة : الرأس ، وأم الهامة : وسطها . والأقران : الأبطال . وصاليها : من يصلى نارها . يصف ساحة القتال بعد انتهاء المعركة وقد تجمعت فيها الوحش تنقر رؤوس القتلى وتنهش أشلاءهم بعد أن افترس الأبطال بعضهم بعضا .

(١٢) يهزهزون : يهزون . والخطى : الرماح ، نسبة إلى مدينة الخط بإقليم البحرين ، وكانت مشهورة بصناعتها . والمدمجة : المحكمة الصنع . والكمت : الحمر . والأنابيب : أعواد الرماح . والعوالى : أسنتها . يصف أنابيب الرماح بالحمرة لكثرة استعمالها وتعرضها للشمس ، ويصف أسنتها بالزرقة كناية عن حدتها وصقلها ولمعانها .

(١٣) نوردها : أى نمضى بها للقتال ، من ورد الإبل وهو خروجها للماء . ونصدرها : أى نعود بها ، من الصدر وهو عودة الإبل من الماء . يريد أنهم يخرجون بها للقتال وهى بيض نقية ، ويرجعون بها بعده وقد خضبتها دماء الأعداء بلونها الأحمر .

(١٤) انجابت : انقطعت وانخرقت . يتمنى — فى غمرات حزنه وغيظه — أن تقع السماء على الأرض ، وأن تنشق الأرض فتبتلع من عليها ، فتكون نهاية الكون ونهاية كل شىء فيه .

(١٥) يعلنها صريحة لبنى بكر قتلة أخيه أنه لا صلح بينه وبينهم مدى الحياة ، وإنما هى الحرب ما دام الكون مستمرا فى حركته الأبدية .

* * *

يوسف خليف

(٢)

الدَّاهيـــة

* * *

تدور هذه القصيدة التى سمتها العرب « الداهية » حول ثلاثة محاور :

المحور الأول : التنديد بالجريمة المروعة التى ارتكبها جساس حين قتل رجلا لا كسائر الرجال ، بحنى على قومه جناية لا يعرف أحد مداها ، ولا يملك أحد تقدير عواقبها الوخيمة .

والمحور الثانى : تسجيل أهم عمل قام به كليب لقومه ، وهو انتزاعه النصر لهم من بين أنياب اليمنيين حين قاد جموعهم فى يوم خَزَاز ، فأجلى الغــزاة المحتلين عن أرضهم ، وطردهم من ديارهم التى اغتصبوها ، وهو نصر اعترف به قومه له ، وقدروا دوره فيه ، فنصّبوه ملكا عليهم .

والمحور الثالث : تهــديد بنى بكر قتلة كليب بمعركة ضارية يخوضها فتيان تغلب الأشــداء وفرسانها المغــاوير حــتى يدركوا ثأر ســيدهم ، وإلا فإنهــم لا يستحقون الحياة .

حول هذه المحاور الثلاثة تدور هذه القصيدة التى تبلغ أكثر من ثلاثين بيتا ، والتى تعكس تصميما صارما على معركة الثأر التى يتوعدهم بها الشاعر . وهو تصميم جعل صــوت البكاء والعــويل والانفعالات الصارخة المشبوبة التى رأينــاها فى « البكائية » السابقة يبدو خافتا إلى درجة كبيرة ، فاختفت منها آهات التفجع وولولات الأسى ، لتخلى مكانهــا لصرخات الثأر وصيحات الانتقام التى تعكس

أصداءها تفعيلاتُ البحر السريع « مستفعلن مستفعلن فاعلن » التي تتوالى عنيفة قوية كأنها دقات طبول الحرب تبعث العزم والتصميم في نفوس الخارجين إلى ساحاتها، كما تعكسها تلك القافية المقيدة التي يتوقف الصوت عندها فلا يترك مجالا لذلك المدّ المتراخي الذي تمثله القوافي المطلقة ، وهي قافية اختار الشاعر رَوِيًّا لها حرف القاف الشديد الجهر العميق المخرج ، وكأن كل وقفة عنده دويُّ دقة من دقات هذه الطبول .

* * *

١ جارت بنو بكرٍ ولم يَعْـدِلوا والمرء قد يعرف قَصْدَ الطريقْ

٢ حلّتْ بِرِكابُ البَغْي في وائلٍ في رهطِ جساسٍ ثِقالَ الوُسوقْ

٣ يا أيها الجاني على قومِـهِ جِنايةً ليس لها بالمطيقْ

٤ جنايةً لم يدرِ ما كُنْهُها جانٍ ، ولم يُصْبِح لها بالخليقْ

٥ كقاذِفٍ يوما بأجـرامِهِ في هُوَّة ليس لها مِن طريقْ

---

(١) قصد الطريق : الطريق المستقيمة التي تمضي في غير عوج أو انحراف . يقول إن بني بكر جاروا علينا ، ولم يسلكوا سبيل العدل معنا ، وقد كان في وسعهم أن يعرفوا طريق الصواب فيتجنبوا طريق الخطأ والضلال .

(٢) وائل : أصل قبيلتي بكر وتغلب الذي يجمع بينهما . والوسوق : الأحمال توضع على ظهور الإبل يقول إن مطايا البغي والظلم المحملة بأحمالها الثقيلة نزلت في قبيلة وائل في رهط جساس .

(٣) الخطاب في البيت لجساس . وقوله « ليس لها بالمطيق » أي أنه ليس قادرا على تحمل نتائجها .

(٤) قوله « ولم يصبح لها بالخليق » تكرار لمعنى البيت السابق ، يعني أنها جناية أكبر منه ، وهو أصغر من أن يتحملها . ومن هو إلى جانب كليب ؟ !

(٥) الأجرام : جمع جرم وهو الجسد . يقول إن جساسا بارتكابه هذه الجريمة كان كمن يرمي بنفسه في هوة سحيقة طريقها مسدود ، فلا سبيل للنجاة منها ، ولا مفر من هلاكه فيها .

٦ مَنْ شـاء وَلَّى النفس فى مَهْمهٍ ضَنْكٍ ، ولكنْ من له بالمضيقْ
٧ إن ركوب البحـرِ ما لم يكن ذا مصدرٍ من تَهْلُكاتِ الغريقْ
٨ ليس امرؤٌ لم يَعْـدُ فى بغيهِ صِدايةً تخـرِيقَ ريحٍ خَـرِيقْ
٩ كمَن تَعَـدَّى بغيُـهُ قومَهُ طار إلى ربِّ اللـواءِ الخَفُـوقْ
١٠ إلى رئيسِ النـاسِ ، والمرتجَى لعقـدةِ الشـدِّ ورَتْقِ الفُتُوقْ
١١ مَنْ عرفتْ يومَ خَـزَازٍ له عُلْيَـا مَعَدٍّ عنـد أخذِ الحقوقْ
١٢ إذ أقبلتْ حِمْـيَرُ فى جمعهـا ومَذْحِجٌ كالعـارضِ المستحيقْ

(٦) المهمه : الصحراء ، والضنك : الضيقة التى لا أمل فى النجاة منها . يقـول إن الإنسان يستطيع إن شاء أن يزج بنفسه فى المواقف الضيقة ، ولكن من له بالنجاة منها ؟

(٧) المصدر : الخروج . يقـول إن ركوب البحر يعـد خطرا على حياة راكبـه ، وسببا من أسباب غرقه ، مالم يعرف منذ البداية كيف يخرج منه .

(٨) لم يعد فى بغيه : أى لم يتجاوز بغيه . والريح الخريق : الباردة الشديدة الهبوب . وتخريقها هبوبهـا .

(٩) الخفوق : الخفاق . والشاعر فى البيتين يوازن بين من لم يتعد بغيه موضعه كعصفة الريح تهب ثم تتبدد فى الآفاق ، ومن يتسع نطاق بغيه كما فعل جساس حين قتل سيد العرب وقائدهم ورافع لوائهم فى عنان السماء .

(١٠) « المرتجى لعقدة الشد ورتق الفتوق » يعنى الذى يرتجيه الناس لإحكام الأمور وضبطها ولإصلاح الفساد والخلل ، وإزالة أسباب الخلاف والشقاق ، أو — على حد تعبيرنا الحديث — « للضبط والربط » .

(١١) يوم خزاز : يوم بين اليمن ومعد ، انتصرت فيه معد بقيادة كليب فبايعوه ملكا عليهم .

(١٢) حمير ومذحج : من القبائل اليمنيـة التى خاضت الحرب يوم خزاز . والعارض : السحاب يعترض فى الأفق لاتساعه وانتشاره . والمستحيق : المحيط بهم من كل جانب . يصف جموع اليمنيين بالكثرة والانتشار .

١٣ وجَمْعُ هَمْدانَ له جَنْبَةٌ ورايةٌ تهوِي هُوِيَّ الأَنوقْ
١٤ تلمع لمعَ الطير راياتُه على أواذِيِّ لجٍّ بحرٍ عميقْ
١٥ فاحتَلَّ أوزارَهُمُ أَزْرُهُ برأيِ محمودٍ عليهم شفيقْ
١٦ وقد علتهم لِلقا هَبْوةٌ ذاتُ هِياجٍ كلهيب الحريق
١٧ فانفرجتْ عن وجههِ مُسْفِرا منبلجا مثلَ انبلاجِ الشروق
١٨ فقلَّد الأمرَ بنو هاجرٍ منهم رئيسا كالحسامِ البريقْ
١٩ مضطلعا بالأمرِ يسمو له في يومِ لا ينساغ حَلْقٌ بريق
٢٠ فذاك لا يُوفِي به غيرُه وليس يُلْفَى مِثْلُه في فريق

* * *

(١٣) همدان : قبيلة يمنية أيضا . والجنبة : والجلبة . والأنوق : العقاب أو النسر . وتهوى : تنقض ، والهوى : مصدره .

(١٤) الأواذى : الأمواج ، جمع آذى . يشبه رايات الجيش وهى تخفق فوقه بخفق طيور البحر فوق أمواجه الكثيفة المظلمة . وهى من الصور النادرة فى الشعر الجاهلى .

(١٥) الأوزار : الأثقال . والأزر : القوة ، ومن معانيها الظهر ، وهو المراد هنا . يقول إنه احتمل أوزارهم على ظهره ، وحل مشكلاتهم برأى سيد محمود بينهم ، شديد العطف عليهم .

(١٦) اللقا : اللقاء وهو هنا الحرب . والهبوة : الغبار . يقول إن غبار المعركة كان يتصاعد ثائرا فوق المقاتلين كأنه لهيب النار .

(١٧) مسفرا : مضيئا مشرقا ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وكذلك انبلج . يقول إن المعركة انفرجت عن وجهه ، وإشراقة النصر تأتلق فوق وجهه كإشراقة الصباح بعد الليل .

(١٨) بنو هاجر : هم العرب أبناء اسماعيل من هاجر المصرية . والحسام البريق : السيف الذى يبرق لشدة لمعانه وصقله . يقول إن العرب نصبوا كليبا بعد هذا النصر رئيسا عليهم .

(١٩) قوله « فى يوم لا ينساغ حلق بريق » يريد به يوم الحروب حين تجف حلوق المقاتلين لشدة القتال وأهواله . وفى القرآن الكريم «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر» (الأحزاب ١٠) .

(٢٠) لا يوفى به غيره : أى لا يعدله غيره . والفريق : الطائفة الكبيرة من الناس . يريد أنه لا يوجد مثيل له فى أى قبيلة من قبائل العرب سواء اليمنية أو العدنانية .

٢١ قـــل لبني ذُهـــلٍ يَرُدُّونه أو يصـبِروا للصَّيْلم الخَنْفَقِيق

٢٢ فقـد تروّوا مِن دمٍ مُحْـــرِمٍ وانتهكوا حرمته مِن عقوق

٢٣ واستسعروا مِن حـربنا مأتمـا أثابهـم نيرانَ حربٍ عَقوق

٢٤ لا يرقأ الدهرَ لهـا عاتِـكٌ إلا على أنفـاسِ نجْـلاَ تَفُـوق

٢٥ إنَّ امرءا ضـــرَّجتمُ ثوبه بعاتِكٍ مِن دمِـهِ كالخَلوق

٢٦ ســـيِّدُ ســاداتٍ إذا ضمهـم مُعْظَـمُ أمرٍ يومَ بؤسٍ وضِيق

٢٧ لم يك كالســـيِّدِ فى قـومِـهِ بل مَـلِكٌ دِينَ له بالحقـــوق

(٢١) ذهل بن شيبان : قبيلة جساس قاتل كليب . والصيلم : الداهية ، الخنفقيق : السريعة جدا . يتوعدهم بحرب خاطفة إن لم يردوا كليبا للحياة .

(٢٢) الدم المحرم : الذى له حرمته . يقول إنهم ارتووا من دم له حرمته ، وانتهكوا هذه الحرمة بعقوقهم وتنكرهم لحقوق القرابة .

(٢٣) استسعروا : استوقدوا . وأثابهم : جازاهم ، والحرب العقـوق : التى تجحد حقوق القرابة وصلات الرحم . يقول إنهم بحربهم لنا كانوا كمن يقيمون مأتما لهم ، وليس هذا المأتم إلا جزاء وفاقا على ما أشعلوه من نيران هذه الحرب التى قطعت وشائج القربى بيننا و بينهم .

(٢٤) يرقأ : يجف . والعاتك : الخالص من الألوان ، يريد الدم . والنجلاء : الواسعة ، يريد الطعنة . وتفوق : يتجمع الدم فيها . يقول إن هذه الحرب لاتجف دماؤها مدى الدهر إلا بمقدار ما تجمع فى مواضع الطعنات .

(٢٥) الخلوق : الطيب . وتكملة المعنى فى البيت التالى .

(٢٦) معظم الأمر : أى أشده . يقول إن هذا القتيل الكريم الذى ضرجتم ثيابه بدمائه الطاهرة التى تفوح كالمسك ســيد سادات يلجأون إليه كلما ألم بهم أمر عظـيم فى الأيام الصعبة الضيقة ، أيام المحن والشدائد .

(٢٧) دين له بالحقوق : أى له عليكم حقوق تدينون له بها . يقول إن هذا الذى قتلتموه لم يكن مجرد سيد فى قومه ، ولكنه كان ملكا على العرب له عليهم حقوق الملك .

٢٨ تنفـرج الظلمـاء عن وجهـه كالليل ولّى عن صديع أنيق

٢٩ إن نحن لم نثأر به فاشحذوا شفاركم منا لحزّ الحلوق

٣٠ ذبحا كذبح الشاة لا تتّقى ذابحها إلا بشخب العروق

٣١ أصبح ما بين بنى وائل منقطع الحبل بعيد الصديق

٣٢ غداً نُساقى — فاعلموا — بيننا رماحنا من قانئ كالرحيق

٣٣ بكل مغوار الضحى فاتك شمردل من فوق طرف عتيق

---

(٢٨) الصديع : الصبح ، من الصدع وهو الشق ، كأنما انشقت السماء عن النور عند مطلعه .

(٢٩) الشفار: جمع شفرة وهى السكين . وشحذها : سنها وأحدها . والحز : القطع والذبح . يقول إن لم نثأر لكليب فإننا لا نستحق الحياة ، و إذن فلتعدوا شفاركم الحادة المسنونة لقطع حلوقنا . والبيت يعكس ثقة المهلهل المطلقة فى قدرته على الأخذ بثأر أخيه .

(٣٠) شخب العروق : تفجرها بالدم عند قطعها . يقول إن لم نثأر لكليب فتقدموا لذبحنا كما تذبح الشاة الضعيفة المغلوبة على أمرها التى لا تملك ما تتقى به ذابحها إلا بتفجر الدم من عروقها . والبيت استمرار فى تصوير هذه الثقة .

(٣١) بنو وائل هم بكر وتغلب اللذان اشتعلت بينهما الحرب . يقول إن ما بيننا و بينكم — ونحن أبناء قبيلة واحدة — قد تقطعت أسبابه ، وتباعدت الصداقة التى كانت تقرب بيننا .

(٣٢) نساقى : نتبادل الشراب ، فيسق كل منا الآخر . والقانئ : الشديد الحمرة ، يريد الدم . والرحيق : الخمر . يقول سوف نلتق فى معارك رهيبة نتبادل فيها أنخاب الدماء الحاوة القانية التى تصبغ رماحنا بلون الخمر .

(٣٣) الشمردل : الفتى الرائع الجميل . والطرف : الجواد الكريم . والعتيق : الأصيل . ونسب الفرسان للضحى لأنه وقت الغارات عند العرب . والشاعر هنا يتوعد أعداءه بفرسان قومه الأشداء فوق جيادهم الكريمة الأصيلة .

٣٤ ليس أخـوكم تاركا وِتْـرَه ... وليس عن تَطلابِكم بالمفيـقْ

* * *

(٣٤) الوتر : الثأر . والمفيق : الذى يطلب الراحة بين عملين ، من الإفاقة وهى الراحة تأخذها الناقة بين الحلبتين . يتوعد أعداءه بأنه لن يترك المطالبة بثأره ، ولن يهدأ عنه ، ولن يجنح إلى الراحة بين معركة ومعركة ، فإنما هى حرب متصلة لا تتوقف ، ولا تهدأ ، ولا يستريح المقاتلون فيها .

* * *

يوسف خليف

(٣)

صُــوَرٌ من التهــديد

* * *

تدور هذه المجموعة من النصوص المختارة من قصائد المهلهل ومقطوعاته حول تهديده لقبيلة بكر ، وهو فيها يعرض صورا مختلفة منــه وما ينتظرها على يديه من ألوان الانتقام التى يصل بعضها — كما هى طبيعة المهلهل فى شعره — إلى درجة كبيرة من المبالغة والتهويل . وهى صور نراها تتردد كثيرا فى شعره ، فهو لا يفتأ يرددها ، ولا يمل تكرارها والإلحاح عليها ، وكأنمـا سيطرت على تفكيره ، واستبدت بمشاعره ، واستقرت فى أعمــاقه ، تعبيرا عن إحساسه بوقع الفجيعة المروّعة التى هزته هزا عنيفا ، وانعكاسا لمـا تفيض به نفسه من مشاعر الحقــد والغيظ والرغبة المجنونة فى الانتقام .

* * *

الصــورة الأولى

١ لمّـا نعى الناعى كليبـا أظلمتْ شمس النهـارِ فمـا تريد طـلوعا

٢ قتـلوا كليبا ثم قالوا : أَرتِعُـوا كذبوا لقــد منعوا الجياد رُتوعا

٣ كَلّا ، وأنصابٍ لنـا عاديّةٍ معبــودةٍ قــد قُطِّعت تقطيعا

---

(٢) أرتعوا : أى اتركوا خيلكم ترتع فى مراعيها . يقول إنهم قتلوا كليبا وظنوا أن الحياة ستمضى كما كانت من قبل ، وهم بهذا يخادعون أنفسهم ، لأنهم هم السبب فيما أصاب الحياة من توقف .

(٣) الأنصاب : الأوثان . والعادية : القديمة ، يريد أنهـا معبودة من قديم الزمان . وقــوله « قطعت تقطيعا » يريد أنها شكلت تشكيلا لتكون صالحة للعبادة وتقديم القرابين إليها .

٤ حـتى أُبيـــد قبيـلةً وقبيـلة وقبيـــلة وقبيـلتين جميعـا

٥ وتذوقَ حتفًا آلُ بكرٍ كلهـا ونَهُـدَّ منهـا سَمْكَهـا المرفوعا

٦ حتى نرى أوصالهم وجماجمـاً منهم عليهـا الخـامعاتُ وقُـوعا

٧ ونرى سِـباع الطيرِ تَنْقُر أعينـا وتجـرُّ أعضاءً لهـم وضـلوعا

* * *

الصـــورة الثانيـــة

١ قتـلوا كليبا ثم قالوا : أَرْتِعـوا كذبوا وربِّ الحِـلِّ والإحرامِ

٢ حـتى نُبيـــد قبيـلة وقبيـلةً ويَعَضَّ كلُّ مثقَّفٍ بالهـامِ

٣ حتى يعضَّ الشيخ بعـد حميمه ممـا يرى نَـدَمًا على الإبهـامِ

---

(٥) الحتف : الموت . والسمك : البناء .

(٦) الأوصال : المفاصل ، لأنها تصـل أعضاء الجسم بعضها ببعض . والخامعات : الضباع ، تخمع فى سيرها ، أى تمشى كأن بها عرجا .

(٧) سباع الطير : جوارحه . يقول لن نهدأ حتى نبيـد جموعهم ، ونهدم بنيانهم ، وترى الضباع فوق جثث قتلاهم تنهش أوصالهم وجماجمهم ، وجوارح الطير تنقر أعينهم ، وتجر أعضاءهم وضلوعهم .

* * *

(٢) المثقف : الرمح . والهـام : جمع هامة وهى الرأس . يقول : لن نهدأ حتى نبيد قبائلهم ، ونضع رماحنا فى هاماتهم تهشمها هشما .

(٣) الحميم : القريب الذى تهـتم لأمره . يقول : لن نهدأ حتى نرى الشيوخ الكبار يتخلون عن رزانتهم ووقارهم ويعضون أصابعهم ندما على من لقوا مصارعهم من أقربائهم فى ساحات القتال .

٤ وتقومَ رباتُ الخدورِ حواسِرا يمسحن عُرْضَ ذوائبِ الأيتامِ

* * *

الصورة الثالثة

١ قتلوا ربَّهم كليبا سَفاهًا ثم قالوا : ما إنْ نخاف غويلا

٢ كذبوا والحرامِ والحِلِّ حتى نَسْلُبَ الخدرَ بَيْضَه المحجولا

٣ ويموتَ الجنين في عاطف الرِّحْـ ـمِ ، ونُروِي رِماحنا والخيولا

* * *

الصورة الرابعة

١ فلأُوردنَّ الخيلَ بطنَ أراكةٍ ولأقضينَّ بفعلِ ذاك ديونى

٢ ولأقتلنَّ جحاجحًا مِن بكرِكم ولأُبكينَّ بها جفونَ عيونِ

٣ حتى تظلَّ الحاملاتُ مخافةً مِن وقعِنا يقذفن كل جنينِ

* * *

(٤) حواسر : أى كاشفات الوجوه . وعرض الشيء : ناحيته من أى وجه جئته . يقول : لن نهدأ حتى نترك ربات الخدور المحجبات وقد كشفن عن وجوههن حزنا على أزواجهن الذين لقوا مصرعهم فى الحرب ، وأخذن يمسحن ذوائب صغارهن الذين قتلنا آباءهم وأذقناهم اليتم بعد أن أذقنا أمهاتهم الترمل .

* * *

(١) يقول إنهم قتلوا سيدهم ، وكانت جريمتهم سفها منهم لم يقدروا عواقبه ، وقالوا إننا لا نخشى من بكائكم عليه ظنا منهم أننا لن نفعل شيئا .

(٢) البيض هنا : النساء ، وتشبيه النساء بالبيض كثير فى الشعر الجاهلى ، وفى القرآن الكريم فى وصف حور الجنة « كأنهن بيض مكنون » (الصافات ٤٩) . والمحجول : المكنون فى الحجال .

(٣) الرحم (بالكسر) : لغة فى الرحم ، وعاطف الرحم : أى الرحم التى تعطف على جنينها . ونروى رماحنا والخيولا : أى نسقيها من دماء الأعداء .

* * *

(١) بطن أراكة : اسم واد دارت فيه بعض أيام هذه الحرب .

(٢) الجحاجح : السادة الكرام ، مفردها جحجاح .

(٣) الحاملات : يريد النساء الحوامل .

* * *

يوسف خليف

جَلِيـــلة البَـكرية

* * *

هي جليلة بنت مُرَّة بن ذُهْل بن شيبان البكرية ، زوجة كليب سيد ربيعة ، وأخت جسّاس قاتله . وكانت شاعرة فصيحة ، ولكن ما وصل إلينا من شعرها قليل . وهو أمر طبيعي ، فشعر النساء قليل في تاريخ الشعر العربي ، وأكثره كان يجري على ألسنتهن في مناسبات عارضة ، ولم يعرف تاريخ هـذا الشعر إلا عددا قليلا من الشاعرات المحترفات . هـذا إلى جانب أن جليلة من أقدم الشاعرات اللاتي عرفهن الشعر العـربي ، فهي من عصر البسوس الذي شهد البداية المبكرة للشعر الجاهلي ، وهي معاصرة للمهلهل الذي تنسب إليه أولية هذا الشعر . وأكثر شعرها يدور حول بكاء زوجها ، وتصوير مأساتها التي عاشتها بعد مصرعه .

عاشت جليلة زوجةً لكليب ، حتى إذا ما لقي مصرعه على يد أخيها ، لم تجد بدا — بعد فترة من التردد والتفكير — من أن ترحل إلى قومها . وقضت ما بقي لهـا من أيام عنـد أخيها جساس حتى قُتِل ، فمضت تتنقل مع قبيلتها شيبان على امتداد ساحات القتال ، واختلاف ميادينه ، حتى ماتت . وربمـا كان ذلك — على ما يظن بعض الباحثين — حوالي سنة ٥٤٠ للميلاد .

* * *

يوسف خليف

بين شِقّ الرَّحى

* * *

ترسم جليلة فى هـذه القصيدة صورة نفسية دقيقة لمأساتها بعد مصرع زوجها على يد أخيها . لقد قُتِل كليب بسهم جساس ، ورُوِّعت المنطقة كلها لمصرعه ، وأسرع المهلهـل من دنيـاه اللاهية ليحمل على عاتقه عبء معركة الثأر الضارية التى بدأت نُذُرها فى الأفـق القريب . واسـتعدت القبيلة للصراع الرهيب الذى ينتظرها . ووقعت جليـلة الحزينة بين شق الرحى تعانى صراعا نفسيا عنيفا . لقد قتَـل أخوها زوجها ، واستعد أخوه لقتال قومها ، فلم تدر ما تفعل ، ولم تستطع — فى غمرة الصدمة وهول الفاجعة — أن تحدد موقفها : أتبقى مع قوم زوجها وفاءً لذكراه وحفاظا على عهده ، أم تلحق بقومها نجاةً بنفسها من الموقف الصعب الذى وضعها أخوها فيـه ؟ وفى مأتم كليب اجتمعت نسـوة من الحى ، وطلبن إليها أن ترحل عنه ، وأغلظن لهـا القول ، وقلن لأخت كليب : رَحِّلى جليـلة عن مأتمك ، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب . وقضت جليلة فترة من الزمن تعانى صراعا نفسيا طاحنا بين البقاء والرحيل ، ثم حسمت أمرها وقررت أن ترحل إلى قومها حتى تنجو من العاصفة العاتية التى أوشكت أن تعصف بالقبيلة . ورحلت جليلة فى حالة نفسية سيئة ، وقالت لهـا أخت كليب : رحلةُ المعتدِى وفراق الشامت ، ويلٌ غدًا لآلِ مُرَّة ، من الكرة بعد الكَرَّة ! فقالت جليـلة : وكيف تشمت الحرة بهتـك سترها ، وترقُّب وِترها ؟ أسعد الله جَدَّ أختى ، أفلا قالت : نَفْرة الحياء ، وخوف الاعتداء ؟ .

وعلى مشارف الحى لقيها أبوها ، فقال لهـا : ما وراءك ياجليلة ؟ فقالت : ثُكْل العَدَد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل، وقتل أخٍ عن قليل، و بين ذَيْن غَرْسُ الأحقـاد ، وتفتُّت الأكباد . فقال لهـا : أَوَيَكُفُّ ذلك كرمُ الصفح وإغلاءُ الدِّيات ؟ فقالت : أمنيةُ مخـدوع وربِّ الكعبة ، أبالبُـدْنِ تَدَعُ لكَ تغلب دم ربها ؟ . ثم فزعت إلى شِعرها تصور فيه مأساتها الحزينة، ومشكلاتها التى لا تجـد لهـا حلا ، فكانت هذه الأبيات .

وهى أبيات تتراءى كأنها قطعة أثرية نادرة ، يرجع تاريخها إلى أقدم عصور الشعر العربى ؛ إلى المرحلة المبكرة التى شهدت أولية هذا الشعر وميلاد القصيدة العربية . وترجع أهميتها إلى أنها من أقـدم النصوص التى وصلت إلينا من الشعر الجاهلى ، ولعلها أقدم نص نسائى لشاعرة عربية وصل إلينا . وقـد استطاعت الشاعرة أن تعكس فيه طبيعتها الأنثوية فى صدق وإخلاص ، وأن ترسم صورة معبرة عن مشاعر زوجة فقدت زوجهـا فى ظروف بالغة الحساسية ، وأن تقدم جوانب المأساة الحزينـة التى تعيشها تتجاذبها انفعالات متضاربة ، ثم تلقى بهـا فى النهاية بين شِقى الرحى .

* * *

١ يا ابنـةَ الأقوامِ إن لُمْتِ فـلا تَعْجَلى باللـومِ حـتى تَسْـأَلِى

٢ فإذا أنتِ تبيَّنتِ الـذى يُوجِب اللومَ فـلُومِى واعذِلِى

٣ إن تكن أختُ امرئٍ لِيمَتْ على جَزَعٍ منهـا عليــه فافعــلى

(١) الخطاب فى البيت — فى ضوء ما ذكره الرواة عن مناسبة القصيدة — لأخت كليب .

(٣) تقول لها : إن كان جزع أخت على أخيهـا أمرا تلام عليه ، فلومينى على جزعى على أخى الذى ينتظره مصرعه فى معركة الثأر القادمة .

٤ جَلَّ عنــدى فِعــلُ جسَّاسٍ فيا ... حسرتى عما انجَـلَى أو ينجلـى
٥ فِعــلُ جساسٍ على وجدِى به ... قاطــعٌ ظهــرِى ومُدْنٍ أجلى
٦ لو بعــينٍ فُقِئَتْ عينِى ســوى ... أختِهــا فانفقأتْ لم أحفِــلِ
٧ تحمِــلُ العــينُ قــذَى العــينِ كما ... تحمــلُ الأمُّ أذَى ما تفْتَــلِى
٨ أَيْتَمَ المجــدَ كليبٌ وحدَهُ ... واستوى العالِى معــا بالأسفلِ
٩ مَنْ لحُكْمِ النــاسِ فى حيرتِهم ... وقِــرَى الأضيافِ يومَ البُزَّلِ
١٠ ولإصـــلاحٍ وإفسادٍ معــا ... فى صَدَى الرمحِ ورِىِّ المُنْصُلِ

* * *

(٤) جل : عظم . والضمير فى انجلى وينجلى يعود على فعل جساس . تتحسر على النتائج التى انجلت عنها جريمة جساس ، وعلى العواقب التى ينتظر أن تنجلى عنها .

(٥) على وجدى به : أى مع وجدى به ، وعلى هنا للصاحبة بمعنى مع ، وفى القرآن الكريم « وآتى المال على حبه » أى مع حبه ، وفيه أيضا « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » أى مع ظلمهم . والوجد : الحزن .

(٦) تقول : لو فقئت عينى بعين غريبة لم أبال ولم أهتم . تصور بهذا مأساتها التى وضعتها بين شقى الرحى ، فالذى قتل زوجها ليس غريبا عنها ، إنه أخوها ، ومن هنا تأتى مشكلتها .

(٧) قذى العين : ما يصيبها من أجسام غريبة تسقط فيها . وتفتلى : تربى . تقول إنها تحمل مأساتها مرغمة عليها ، وتتحملها مجبرة عليها ، لأنها وضعت فى أعماقها على غير إرادة منها .

(٨) تقول : لقد ترك كليب المجد يتيما ، وتهدم كل شىء بعده .

(٩) القرى : إكرام الضيف . والبزل : جمع بازل ، وهى الناقة التى بزل نابها أى ظهر ونبت ، ويكون ذلك عادة فى السنة التاسعة من عمرها . ويريد بقوله « يوم البزل » يوم نحرها للضيوف . تصف كليبا بالسيادة والكرم .

(١٠) الصدى : العطش . والرى : الارتواء . والمنصل : السيف . تقول إنه قائد خبير بفنون القتال ، يضع كل شىء فى موضعه ، ويعرف متى يضع الرمح الظامىء لدماء الأعداء ، ومتى يرفع السيف بعد أن يرتوى منها .

١١ يا قتيــلا قَــوَّض الدهرُ بهِ ... ســقفَ بيتىَّ جميعًــا مِن علِ
١٢ هَــدَم البيتَ الذى استحدثتُــهُ ... وانثنى فى هَــدْمِ بيــتى الأولِ
١٣ ورمانى قَتْــلُه مِن كَثَبٍ ... رميــةَ المُصْمِى به المستأصِــلِ

* * *

١٤ يا نِسائِى دُونَكُنَّ اليومَ قــد ... خصَّــنى الدهرُ برُزْءٍ مُعْضِــلِ
١٥ خصَّــنى قتــلُ كليبٍ بِلَظًى ... مِن ورائى ، ولظًى مستقبِــلِ
١٦ ليس مَنْ يبكى لِيومين كمَنْ ... إنمــا يبــكى ليــومٍ يَنْجَــلِى
١٧ يَشْتفِى المُــدْرِكُ بالثأر ، وفى ... دَرَكِى ثأرِىَ ثُكْلُ المُثْــكِلِ

---

(١١) قوض : هدم . وتريد بقولها « بيتى » بيت زوجها و بيت أخيها .

(١٢) البيت الذى استحدثته هو بيت الزوجية ، وبيتها الأول هو بيت أسرتها .

(١٣) من كثب : من قــرب . والمصمى : القاتل فــورا ، من أصمى الصيد إذا رماه فقتــله فى مكانه ، تقــول إن قتل كليب كان سهما قاتلا صوب إليها من قرب ، فقتلها فى الحال ، واستأصل كل شىء فى حياتها من جذوره .

(١٤) الرزء : المصاب . والمعضــل : المشكل الذى لاحل له . ودونكن : اسم فعــل يفيد الإغراء ، كأنها تدعوهن إلى الوقــوف معها فى مصابها الذى لا تجــد له حلا ، أو إلى مشاركتها فى الوصول إلى حل له .

(١٥) اللظى الذى خلفته وراءها هو ما أصابها من مقتل زوجها ، واللظى الذى يستقبلها هو ما تنتظره بعد قتل أخيها . وهذه هى بداية حديثها عن مشكلتها التى ستفصل القول فيها فى الأبيات التالية .

(١٦) اليومان اللذان تبكى منهما هما يوم مقتل زوجها الذى مضى وانكشف أمره ، و يوم مقتل أخيها الذى تنتظره فى قلق وخوف .

(١٧) هذه هى ذروة المأساة التى تعيشها . إن من يدرك ثأره تهــدأ نفسه و يشتفى من الأحزان التى تعتصرها ، أما هى ففى إدراكها ثأرها ثكل جديد لها ، لأن ثأرها هو أخوها .

١٨ ليتــه كان دمى فاحتَلَبوا بدلا منـه دمًا مِن أكحَلى

١٩ إنــنى قاتِــلةٌ مقتــولة ولعــلّ الله أنْ يرتاح لى

* * *

(١٨) الأكحل : عرق فى الذراع ، يصفه العرب بأنه عرق الحياة ، ولذلك يسمونه نهر البدن . تمنى — إنقاذا لنفسها من ذلك الصراع النفسى — أن يكون الدم الذى يطالبون به لثأرهم دمها ، و إذن لبذلته لهم فى غير تردد .

(١٩) فى هذا البيت — ختام القصيدة — تركز مشكلتها التى لا حل لها إلا عند الله ، فهو وحده القادر على حلها . إنها قاتلة ومقتولة ، إن تصرف أخيها الطائش وضعها فى هذا الموقف الذى لا تحسد عليــه ، إنها فى نظر الناس قاتلة ، ولكنها فى حقيقة الأمر مقتولة ، و إنها لتتمنى أن يريحها الله من هذا الصراع النفسى الرهيب .

* * *

يوسف خليف

امرؤ القيس

هو آخر أمراء أسرة كندة اليمنية التي كانت تحكم منطقة نجد منذ منتصف القرن الخامس الميلادى حتى حوالى منتصف القرن السادس . وأبوه حجر ابن الحارث آخر ملوك هذه الأسرة الذى أسدل مصرعه ستار الختام على حكمها لهذه المنطقة . وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب سيد قبائل ربيعة، المهلهل بطل حرب البسوس .

ولد فى بلاد بنى أسد بنجد فى أوائل القرن السادس ، ونشأ نشأة أرستقراطية فى ظل أبيه الملك . وليس بين أيدينا شىء كثير عن نشأته والمرحلة الأولى من حياته، فكل ما بين أيدينا عنها أنه قضى شبابا متهتكا يطارد النساء ، ويشرب الخمر ، ويخرج للصيد، ويأوى إلى بطانة سوء من فتيان وقيان ، وينشد فى ذلك شعرا يصور به حياته وما تنطوى عليه من خلاعة ومجون، حتى اضطر أبوه إلى خلعه وطرده ، فانطلق يتنقل بين أحياء العرب ومن حوله أخلاط من خلعاء القبائل وشذاذها يمارسون حياة خليعة ماجنة ، يشربون الخمر ، ويخرجون للصيد ، وتغنيهم القيان . وهى نفس الحياة التى كان يحياها من قبل مع اندفاع طائش خلفها ، زاد منه بُعْدُه عن أبيه ، وتخلصه من رقابته ، وإحساسه بالحرية المطلقة التى لا تحدها حدود ، ولا تقيدها قيود .

فى هذه المرحلة قتل أبوه فى ثورة أشعلها ضده بنو أسد . ويقال إنه كان فى ذلك الوقت فى بلاد اليمن ، وإن نعى أبيه بلغه وهو فى مجلس شراب ، فقال :

« ضيّعنى صغيرا، وحملنى دمه كبيرا . لا صحو اليوم ، ولا سُكْرَ غدا . اليوم خمر ، وغدا أمر » ، ثم أنشد :

خليلىَّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم آلى على نفسه ألا يهدأ ولا يعود إلى سابق سيرته حتى يأخذ بثأر أبيه . لكن هذا الخبر — فى رأى بعض الباحثين — غير صحيح ، ففى شعر عَبِيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، وداعية الثورة ، الذى كان معاصرا لأحداثها وشاهد عيان لها منذ بدايتها حتى نهايتها ، ما يدل على أنه كان موجودا مع أبيه عند مقتله ، وأنه شهد المعركة التى دارت بين كندة و بنى أسد ، وأنه فر منها بعد هزيمة كندة ، يقول عبيد :

وركْضُكَ لولاه لقيتَ الذى لَقُوا فـذاكَ الذى أنجاكَ ممَّـا هنالكا

وأيا ما كانت الحقيقة فقـد خرج امرؤ القيس مطالبا بثأر أبيه ، محاولا أن يسـترد الملك الذى ضاع من بين يديه . وتكثر الأخبار عن هـذه المرحلة من حياته ، فيذكر الرواة أنه استنصر بطائفة من القبائل لتعينه على الأخذ بثأره ، فمنهم من أعانه ومنهم من رفض . ويذكرون أنه استعان بصعاليك العـرب وشـذاذ القبائل فى هذه المحاولة ، وألف منهم جيشا من المرتزقة خرج به فى معركة الثأر ، ويذكرون أنه سجل بعض الانتصارات على بنى أسـد حتى اضطرهم إلى الفـرار أمامه ، ولكنه جدّ فى طلبهم طمعا فى القضاء عليهم ، فبدأت بعض القبائل التى نصرته تنفضّ من حوله . ويذكرون أن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة استغل هذه الظروف ، فجـد فى طلبه ، بسبب عداوة قديمة كانت بينه وبين الحارث بن عمـرو جدّه . وجدّ امرؤ القيس فى الهرب ، وأرسل المنذر الجيوش من خلفه ، ولجأ امرؤ القيس إلى بعض القبائل واستجار بهم ، ولم يكف المنذر عن مطاردته ،

حتى انتهى به المطاف إلى السموأل بتيماء فلجأ إليـه ، وطلب إليه أن يكتب إلى الحـارث بن جَبَلة ملك الغساسنة بالشام ليوصله إلى قيصر الروم « جستنيان » بالقسطنطينية . واستودع امرؤ القيس أهله وأمواله وسلاحه عند السموأل ، وشدّ رحاله إلى قيصر الذى أكرمه وأمده بجيش كثيف . وأخذ امرؤ القيس طريق العودة إلى وطنه ، ولكن رجلا من بنى أسـد ، اسمه الطمّاح ، وشى به عنـد قيصر ، واتهمه بأنه كان على علاقة بابنته ، فغضب قيصر وبعث إليه بحلة مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما لبسها أسرع فيه السم ، وتساقط جلده ، ومات . ومن هنا جاء لقبه « ذو القروح » . وفى سفح جبل بمدينة أنقرة يقال له عَسِيب كان مثواه الأخير .

ولكن يبـدو أن طائفة من هـذه التفاصيل فيهـا شىء من الكذب والتلفيق والانتحال ، فمصدرها الأساسى راوية متّهم مشكوك فيه هو ابن الكلبى . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون لهـا أصل ثابت ، فمن المؤكد أن امرأ القيس حاول الثأر لأبيه ، وأنه خرج فى سبيل هذا الثأر ، ولكنه لم يوفق فى ذلك . ثم لم يلبث أن مات . ويظن الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « العصر الجاهلى » أن قصة زيارته لقيصر وما أحاط بهـا من أخبار وتفصيلات غير صحيحة ، كما يظن الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الأدب الجـاهلى » — فى مبـالغة غير مقبولة — أن كل ما رواه الرواة من أخبـاره لا أساس له من الصحة . وفى ظـنى أن رحلة قيصر صحيحة ، ففى شعر امرئ القيس الثابت الصحيح الذى يرويه الأصمعى الراوية الثقة ما يؤكدها ، على نحو ما نرى فى قصيدته الرائية :

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرا وحلّت سُليمى بطن قَوٍّ فعَرْعَرا

ففيها حديث صريح عن هذه الرحلة . ولكن — فى أغلب الظن — أن امرأ القيس توفى وهو فى طريقه إلى قيصر، فليس فى القصيدة ما يشير إلى أنه وصل إليه . وعلى هذا فكل التفاصيل التى يذكرها الرواة بعد ذلك غير صحيحة . وليس فى أحاديث الرواة عنه ما يحدد تاريخ وفاته ، وإن يكن من المحتمل أنها كانت فيما بين سنتى ٥٣٠ ، ٥٤٠ للميلاد .

وامرؤ القيس — بدون منازع — أشهر شعراء العصر الجاهلى، وهو — عند الباحثين — أبو الشعر الجاهلى . ومن اليسير أن نلاحظ أن شعره ينقسم إلى قسمين : قسم نظمه قبل مقتل أبيه ، وقسم نظمه بعد مقتله . ومن اليسير أيضا أن نلاحظ أن القسم الأول يدور حول تصوير شبابه وما انطوى عليه من مغامرات غرامية، ومن خروج للصيد، ومن كل تلك المتع التى كان غارقا فيها إلى أذنيه . وليس من شك من أن معلقته المشهورة من نتاج هذه المرحلة . وأما القسم الثانى فيدور حول تصوير المرحلة المضطربة من حياته ، ووصف محاولاته اليائسة للأخذ بثأره ، وهو يفيض بالشكوى من الظروف التى أحاطت به ، والآمال التى يراها تتساقط من بين يديه ، والضياع الذى أخذ يحس أنه يعيش فيه . وفى هذا القسم مجموعة من المقطوعات القصيرة نظمها فى مدح سادة القبائل الذين استنجد بهم ونصروه . وفيه أيضا قصائد طويلة يتذكر فيها شبابه البعيد ، ويستعيد ذكريات ماضيه السعيد الذى ذهب إلى غير رجعة . ولا شك أن قصيدته المشهورة :

ألا عِم صباحا أيها الطلل البالى   وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى

من نتاج هذه المرحلة ، فمع أنها صورة توشك أن تكون طبق الأصل من المعلقة، فإن فيها ما يشير إلى أنها نظمت فى هذه المرحلة الثانية ، وأنها تصوير لذكريات شــبابه التى عادت تلح عليه وتحمــله على أجنحتها السحرية إلى عالم بعيد قضى فيه أجمل سنوات عمره .

* * *

يوسف خليف

(١)

من المعلَّقـــة

المقــدمة الطللية :

١ قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

٢ فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رسمُهـا لِمَا نَسَجَتْها من جَنُـوب وشمال

٣ ترى بَعَـرَ الآرام فى عَرَصاتهـا وقيعانهـا كأنه حَبُّ فُلْفُـل

٤ كأنى غداةَ البَـيْن يومَ تحمَّـلوا لدَى سَمُرات الحىِّ ناقِفُ حَنْظَلِ

٥ وقـوفًا بهـا صحبى علىَّ مطيَّهـم يقولون : لا تَهْـلِكْ أسًى وتجمَّـل

---

(١) سقط اللوى والدخول وحومل : أسماء مواضع يحدد بها مكان الطلل الذى يقف به و يطلب إلى صاحبيه الوقوف معه فيه .

(٢) توضح والمقراة : موضعان يستكمل بهما تحديد مكان الطلل . ولم يعف رسمها : لم تتغير آثارها . والجنوب والشمأل : ريحان تتبادلان الهبوب على الطلل .

(٣) الآرام : جمع رئم وهو الظبي الخالص البياض . والعرصات : الساحات . القيعان : جمع قاع وهو مستنقع الماء . يقول إن الطلل تحول إلى مسرح للظباء بعد أن كان آهلا بأحبابه . يصور حسرته .

(٤) البين : الفراق . وتحملوا : رحلوا . والسمرات : أشجار شوكية من أشجار البادية ، جمع سمرة . والحنظل : ثمرة صلبة تضم رحيقا حارا تدمع العينان منه . وناقف الحنظل : الذى يكسر ثمرته ليستخرج رحيقها . يتذكر موقفه يوم الوداع .

(٥) وقوفا : حال أو مفعول مطلق . وعلى : أى من أجلى . يقول إن أصحابه وقفوا مطاياهم بالطلل استجابة لرغبته التى أبداها . والتجمل : التمسك بالصبر . والأسى : الحزن .

٦ وإنَّ شِفائي عَـبْرَةٌ مُهَراقةٌ فهل عِند رسمٍ دارِسٍ مِن مُعَوَّلِ ؟
٧ كدأبِكَ مِن أم الحويرِث قبلها وجارتِهـا أمّ الربابِ بِمَأْسَلِ
٨ إذا قامتا تَضَوَّع المِسكُ مِنهما نسيمَ الصَّبا جاءت بِرَيَّا القَرَنْفُلِ
٩ ففاضتْ دموعُ العينِ مِنّي صبابةً على النحرِ حتى بَلَّ دمعِيَ مِحْمَلي

مغامرات غرامية :

١٠ ألا رب يـومٍ لك منهنَّ صالحٍ ولا سيمـا يومٌ بدارةِ جُلْجُلِ
١١ ويومَ عقـرتُ للعـذارَى مطيتي فيا عجبًـا من رحلهـا المتحمَّـلِ
١٢ فظل العذارى يَرْتَمِين بلحمهـا وشحـمٍ كهُدَّاب الدِّمقْسِ المفتَّلِ

* * *

(٦) العبرة : الدمعة . والمهراقة : المراقة ، لغة يمنية . والرسم : الأثر . والدارس : الذى ذهب بعضه و بقى بعضه . والمعول : اسم مكان بمعنى موضع العويل ، أو هو مصدر بمعنى العويل .

(٧) كدأبك : كعادتك . وأم الحويرث وأم الرباب : صاحبتان من صاحباته الكثيرات . ومأسل : اسم موضع .

(٨) تضوع : فاح وانتشر . والصبا : ريح طيبة تهب من الشرق من ناحية نجـد تغنى بها الشعراء العرب كثيرا فى شعرهم . وريا القرنفل : رائحته وعطره .

(٩) المحمل : السـير الذى يحمل به السيف . وهنا تنتهى مقدمة الأطـلال ليبدأ الشاعر بعدهـا أحاديث مغامراته الغرامية .

(١٠) دارة جلجل : اسم مكان كانت لامرئ القيس فيه مغامرة من مغامراته الغرامية الكثيرة ، وما يرويه الرواة القدماء من حديث هذا اليوم يقال إنه موضوع نسجه خيال الفرزدق الشاعر الأموى .

(١١) هذا يوم آخر من أيام امرئ القيس « الصالحة » — كما يسميها ، أو هى مغامرة أخرى من مغامراته اللاهية . والمتحمل : الذى وزعه على إبل صاحباته بعد أن نحر لهن ناقته .

(١٢) يرتمين بلحمها : أى يتقاذفن به . والهداب : أطراف الثوب التى تركت دون نسج ، مفردها هدابة . والدمقس : الحرير الأبيض . والمفتل : المفتول . والبيت يرسم صورة لجو المرح الذى كان يسيطر على امرئ القيس وصاحباته .

١٣ ويومَ دخلتُ الخِدرَ خدرَ عُنَيزة فقالت: لكَ الويلاتُ إنكَ مُرْجِلي
١٤ تقول وقد مال الغَبِيطُ بِنا معًا: عقرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزِلِ
١٥ فقلتُ لها: سِيري، وأرخي زمامه ولا تُبعِدِيني مِن جَناكِ المعلَّلِ
١٦ أفاطِمَ مَهلًا بعضَ هـذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجمِلي
١٧ وإن تكُ قد ساءتكِ مِني خَلِيقةٌ فسُلِّي ثيابي مِن ثِيابِكِ تَنْسُلِ
١٨ أغَرَّكِ مِني أنّ حبَّكِ قاتِلِي وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ؟
١٩ وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لِتضربِي بِسَهْميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

* * *

(١٣) الخدر: الهودج. وعنيزة: إحدى صاحباته. وقوله «إنك مرجلي» يريد إني أخاف أن تعقر بعيري فأضطر إلى الترجل. والبيت يعكس جو الدلال الذي كانت تصطنعه صاحباته.

(١٤) الغبيط: الهودج. والبيت يعكس جو العبث والخلاعة الذي كان يعيش فيه امرؤ القيس وصاحباته.

(١٥) الجنى: الثمر، ويريد به هنا ما كان يناله من صاحبته من قبلات. والمعلل (بالكسر): ما يتعلل به من قبلات صاحبته، وبالفتح: الذي علل بالطيب مرة بعد مرة، أي ضمخ به.

(١٦) أفاطم: نداء على الترخيم، وفاطمة صاحبة أخرى له. أزمعت: عزمت. صرمي: هجري. أجملي: أحسني، أي ليكن هجرك جميلا لا إساءة فيه إليّ.

(١٧) الخليقة: الخلق. سلي: اخلعي. تنسل: تسقط وتنفصل، والمراد هنا خلصي قلبي من حبك وأبعديه عن قلبك.

(١٩) ذرفت: دمعت. ويريد بالسهمين عينيها. والأعشار: المقسم عشرة أقسام جمع عشر. والصورة مأخوذة من تقاليد الميسر عند العرب عندما يقسمون الناقة التي يلعبون عليها عشرة أقسام، ثم يديرون عليها القداح وهي السهام ليربح كل منهم نصيبه الذي يخرج له.

٢٠ وبيضـةِ خدرٍ لا يُرَام خِباؤهـا ... تمتعتُ من لهوٍ بهـا غيرَ مُعْجَلِ

٢١ تجاوزتُ أحراسا إليها ومَعْشَرا ... عليَّ حِراصًـا لو يُسِرُّون مقتلِي

٢٢ إذا ما الثريَّا في السماءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أثنـاءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ

٢٣ فجئتُ وقد نَضَّتْ لِنومٍ ثِيـابها ... لدى السِّترِ إلا لِبسَةَ المُتَفَضِّـلِ

٢٤ فقالت : يمينُ اللهِ ، مالكَ حِيلةٌ ... وما إنْ أرى عنكَ الغَوَايةَ تنجلِي

٢٥ خرجتُ بها أمشي تجـرُّ وراءنا ... على أثَرَيْنـا ذيـلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

٢٦ فلمـا أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ

(٢٠) بيضـة خدر : يريد امرأة ممنعة محجبة . لا يرام خباؤها : لا يجـرؤ أحد على الاقتراب من خبائها لأنها عزيزة مكنونة . تمتعت من لهو بها : وصلت إلى خبائها وتمتعت باللهو بها . غير معجل : غير متعجل .

(٢١) تجاوزت : تخطيت وعبرت . أحراسا : جمع حرس . يسرون : يكتمون أو يظهـرون لأن الكلمة من الأضداد . والمعنى هنا أنهم يهمون بقتلي ولكنهم يكتمون ذلك خوفا من مكانتي في قومي .

(٢٢) الثريا : كواكب تظهر بعد انتصاف الليل ويعلن تعرضها عن اقتراب الفجر . وتعرضت : صارت مستعرضة قبل أفولها . الوشاح : « الشال » تطرحه المرأة على كتفيها . المفصل : الذي فصل بأنواع مختلفة من الجواهر . أثناء الوشاح : ثناياه ونواحيه .

(٢٣) نضت : خلعت وألقت عنها . المتفضل : الذي يبقى في ثوب واحد استعدادا للنوم .

(٢٤) يمين الله : بالنصب على نزع الخافض ، وبالرفع على الابتـداء ، وخبره محذوف تقديره قسمي . ما إن أرى : توكيد للنفي . الغواية : الغي . تنجلي : تنكشف .

(٢٥) المرط : إزار من الحرير . والمرحل : المنقوش بصور الرحال . هي تجر وراءهما ذيل إزارها الطويل لتعفي أثرهما فوق الرمال حتى لا يعرف موضعهما .

(٢٦) أجزنا : تجاوزنا . وانتحى : اتجه بنا ناحيته . والخبت : المنخفض الغامض من الأرض . والقفاف : المرتفعات الغليظة ، جمع قف . والعقنقل : المتداخل بعضه في بعض .

٢٧ هَصَرتُ بفَودَىْ رأسها فتمايلتْ ... علىَّ هضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ
٢٨ مُهفهفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضةٍ ... ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ
٢٩ تَصُدُّ وتُبْدِى عن أسيلٍ ، وتَتَّقى ... بناظرةٍ من وحشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
٣٠ وجيدٍ كجِيدِ الرِّئمِ ليس بفاحشٍ ... إذا هى نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ
٣١ وفرعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فاحم ... أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ
٣٢ غدائره مُسْتَشزِراتٌ إلى العُلا ... تَضِلُّ العِقاصُ فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ
٣٣ وكَشْحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأنبوبِ السَّقِىِّ المُذَلَّلِ

(٢٧) هصرت : جذبت . والفودان : جانبا الرأس . والكشح : الخصر . والهضيم : الضامر النحيل . وريا : ممتلئة ، مؤنث ريان . والمخلخل : موضع الخلخال ، يريد ساقها . يصف خصرها بالضمور وساقيها بالامتلاء .

(٢٨) مهفهفة : رشيقة . وغير مفاضة : غير مترهلة . والترائب : عظام الصدر ، والسجنجل : كلمة رومية ولذلك اختلف الشراح فى تفسيرها ، فقالوا إنها المرآة ، وقالوا إنها سبيكة الفضة .

(٢٩) أسيل : خفيف اللحم ، صفة لخدها . والوحش هنا يريد به البقرة الوحشية وهى مشهورة عند العرب بجمال عينيها . ومطفل : ذات أطفال . ووجرة : اسم مكان . يشبه عينيها بعينى بقرة وحشية تراعى صغارها فى حنو وحب ووداعة .

(٣٠) الرئم : الظبي الخالص البياض . والفاحش : المفرط الطول . ونصته : رفعته . والمعطل : الخالى من الحلى .

(٣١) الفرع : الشعر . والمتن : الظهر . والأثيث : الغزير . وقنو النخلة : عذقها الذى يحمل البلح . والمتعثكل : المتداخل بعضه فى بعض . يصف شعرها بالطول والسواد والغزارة .

(٣٢) الغدائر : الضفائر . ومستشزرات إلى العلا : أى مرفوعات إلى أعلى . والعقاص : خصل الشعر الملوية . والمثنى : الشعر الذى ثنى بعضه على بعض . والمرسل : الذى تركته مسرحا غير مضفور . يصف تصفيفة شعرها .

(٣٣) الكشح : الخصر . والجديل : الحزام المفتول . والمخصر : الرشيق الرقيق . والسقى المذلل : يريد نباتا مائيا ينمو فى ماء ذلل له فهو دائما غض ريان .

٣٤ وتُضحِى فَتِيتُ المِسكِ فوقَ فراشِها نَؤُومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ
٣٥ وتَعْطُو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه أساريعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ
٣٦ تضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنها مَنَارةُ مُمْسَى راهِبٍ متبتِّلِ
٣٧ إلى مِثلِها يرنو الحليمُ صبابةً إذا ما اسبكرَّتْ بين دِرْعٍ ومِجْوَلِ
٣٨ كبِكرِ المُقَاناةِ البياضَ بِصُفرةٍ غَذَاها نَميرُ الماءِ غيرُ المُحَلَّلِ

حديث مع الليل :

٣٩ وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَه عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
٤٠ فقلتُ له لما تَمَطَّى بِصُلبِه وأردفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ :

(٣٤) لم تنتطق عن تفضل : يريد أنها لا تعمل في بيتها فلا تلبس النطاق لتشد به ثيابها ، وإنما تلبس أرق ثيابها . والبيت تصوير لترف صاحبته وطبقتها الأرستقراطية .

(٣٥) تعطو : تمد يدها . والرخص : اللين ، صفة لأصابعها . والشثن : الغليظ الكز . والأساريع : ديدان تكون في الرمال بيضاء الظهور حمراء الأطراف . وظبي : اسم مكان . والإسحل : شجر له أغصان ناعمة تتخذ منها المساويك .

(٣٦) المنارة : السراج . ممسى راهب : مساء راهب . المتبتل : المنفرد المنقطع عن الناس لعبادة الله ؛ والراهب لا يطفىء سراجه لكونه طول الليل في عبادة .

(٣٧) يرنو : يديم النظر . اسبكرت : امتدت . الدرع : قميص المرأة الكبيرة . المجول : قميص المرأة الصغيرة ؛ والمراد هنا أنها ليست كبيرة ولا صغيرة .

(٣٨) البكر هنا : أول بيضة للنعامة . المقاناة : المخالطة . نمير الماء : الذي يروى عند ارتشافه لو حتى يكن عذبا . غير المحلل : أي الصافي الذي لم يكدره شيء .

(٣٩) كموج البحر : أي يشبه موج البحر في كثافته وظلمته . السدول : الستور . يبتلي : يختبر .

(٤٠) تمطى : تمدد . الصلب : الوسط . أردف أعجازا : رجع من جديد بظهره . ناء بكلكل : أي تهيأ لينهض ، والكلكل : الصدر . والصورة بدوية تستمد عناصرها من حركة الناقة عند نهوضها .

٤١ ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِي بصبحٍ، وما الإصباح منكَ بأمثلِ
٤٢ فيالكَ مِن ليلٍ كأنّ نجومه بكلِ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّت بيذْبلِ
٤٣ كأن الثُّريا عُلِّقتْ في مَصَامِها بأمراسِ كَتانٍ إلى صُمِّ جَنْدلِ

رحلة صيد :

٤٤ وقد أغتدِى والطيرُ فِي وُكُناتِها بمنجرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هيكلِ
٤٥ مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبِلٍ مدبِرٍ معا كجُلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ مِن علِ
٤٦ كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ متنِهِ كما زَلّت الصَّفْواءُ بالمتنزَّلِ

(٤١) يريد أن الصبح لا يفضل الليل فكلاهما له همومه .

(٤٢) مغار الفتل : محكم الفتل ، يعنى أنه قوى متين . يذبل : اسم جبل فى بلاد نجد . يصف طول الليل فكأن النجوم ثابتة لا تتحرك .

(٤٣) المصام : الأفلاك التى تدور فيها النجوم . الأمراس : الحبال . صم جندل : الصخر الأصم أو الحجارة الصلبة . والبيت استمرار فى وصف الليل بالطول والتوقف .

(٤٤) أغتدى : من الغدو أى الانطلاق فى البكور . الوكنات : أوكار الطير . المنجرد : قصير الشعر ، يصف فرسه . قيد الأوابد : يريد أنه يلحق بالأوابد فيصير لها بمنزلة القيد ، والأوابد : الوحوش البعيدة فى الصحراء . الهيكل : الضخم .

(٤٥) مكر : يصلح للكر . مفر : يصلح للفر . مقبل : حسن الإقبال . مدبر : حسن الإدبار . معا : أى يملك الصفتين معا . جلمود صخر : صخرة ضخمة عاتية . حطه السيل : أى دفعه السيل فانحدر بسرعة وعنف . من عل : من أعلى الجبل .

(٤٦) كميت : أحمر مائل للدكنة . اللبد : ما يوضع تحت السرج من صوف ونحوه . حال متنه : وسط ظهره ، والحال : موضع اللبد . الصفواء : الصخرة الملساء التى لا يثبت فوقها شىء . المتنزل : السيل أو المطر .

٤٧ على الذَّبلِ جيَّاشٍ كأن اهـتزامه ... إذا جاش فيه حَمْيُه غَلْيُ مِرجَلِ
٤٨ مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الوَنَى ... أثرن الغُبـار بالكديد المركَّلِ
٤٩ يزِلّ الغـلامُ الخِفُّ عن صَهَواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقَّلِ
٥٠ دريرٍ كخُذروفِ الوليـدِ أمرَّه ... تتـابعُ كفَّيـه بخيطٍ مُوصَّـلِ
٥١ له أيطلا ظـبيٍ وساقا نعـامةٍ ... وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ
٥٢ كأنَّ سَرَاتَه لدَى البيت قائمـا ... مَدَاكُ عروسٍ أو صَلايةُ حَنْظَلِ
٥٣ كأن دِماء الهـادياتِ بنَحْـرِه ... عُصارةُ حِنَّـاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

(٤٧) الذبل : الضمور . جياش : يجيش فى عدوه كما يجيش الماء فى القدر عند غليانه . الاهتزام : الصوت . حميه : غليه . وعلى الذبل أى على الرغم من ضموره .

(٤٨) مسح : يصب الجرى صبا . السابحات : الخيل الواتى عدوهن سباحة . الونى : الفتور . الكديد : الموضع الغليظ . المركل : الذى تركله أرجل الخيل .

(٤٩) يزل : يتزلق . الخف : الخفيف . يلوى بأثواب العنيف : أى يرمى بثيابه بعيـدا عنه . المثقل : الثقيل الثابت فوق ظهر جواده .

(٥٠) درير : مستدر فى عدوه كأنه يصب العدو صبا ، والمعـنى أنه سريع العدو . الخذروف : حصاة مثقوبة ثقبين يجعل الصبية فيهـا خيطا ثم يديرونها فتكون سريعـة الدوران . أمره : أحكم فتله . تتابع كفيه : متابعة الكفين للحصاة والخيط بقصد زيادة السرعة . ووصف الخيط بأنه موصل للدلالة على كثرة استعماله .

(٥١) الأيطل : الكشح وهو ما بين آخر الضلوع إلى الفخذ ، وأيطل الظبى ضامر . وساقا النعامة قصيرتان صلبتان . الإرخاء : عدو ليس بالشديد . السرحان : الذئب . التقريب : رفع اليدين معا ثم وضعهما معا عند الجرى . التتفل : ولد الثعلب .

(٥٢) السراة : الظهـر . والمداك : الحجـر الذى يسحق به الطيب . والصلاية : ما يسحق فيه الحنظل ونحوه . يصف ملاسة ظهر جواده .

(٥٣) الهاديات : المتقدمات ، وهى تعنى هنا أوائل الوحوش والفرائس . عصارة حناء : ما بقى من أثرها بعد الصبغة . مرجل : مسرح وممشط .

٥٤ فعنّ لنا سِربٌ كأن نِعاجه عذارى دَوَارٍ فى مُلاءٍ مُذَيَّلِ

٥٥ فأدبرن كالجَزْعِ المفصَّلِ بينه بِجِيدِ مُعِمٍّ فى العشيرةِ مُخْوِلِ

٥٦ فألحقه بالهادياتِ ودونه جَواحِرُها فى صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ

٥٧ فعادى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دِراكا ، ولم يَنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ

٥٨ فظل طُهاة اللحمِ مِنْ بينِ مُنْضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ أو قديرٍ مُعَجَّلِ

٥٩ ورحنا يكاد الطَّرْف يَقْصُر دونه متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسَهَّلِ

٦٠ فبات عليه سَرْجُه ولجامه وبات بعيني قائما غيرَ مُرْسَلِ

* * *

(٥٤) عن : اعترض . سرب : قطيع من البقر . دوار : صنم من طقوس عبادته أن يدوروا حوله . ملاء : جمع ملاءة . مذيل : له ذيل أو أهداب سود سابغة .

(٥٥) الجزع : خرز فيه سواد وبياض . معم مخول : صبى كريم الأعمام والأخوال .

(٥٦) جواحرها : التى تخلفت منها عن القطيع . ألحقه : أى أن الفرس جعل صاحبه يدرك الفرائس . الصرة : الشدة ، وفسرت أيضا بأنها الصيحة أو الغبار . لم تزيل : لم تتفرق .

(٥٧) عادى : والى الجرى بين اثنين . والنعجة هنا البقرة الوحشية . دراكا : مداركة وملاحقة . لم ينضح بماء : لم يعرق .

(٥٨) الصفيف : الشواء الذى صف على الجمر . والقدير : ما طبخ فى القدور .

(٥٩) الطرف : النظر أو العين . يقصر دونه : يعجز عن النظر إليه . متى ما ترق العين فيه تسهل : أى متى ما نظر إلى أعلاه نظر إلى أسفله ، وذلك كى يتم النظر إلى جميع جسمه إعجابا به .

(٦٠) بات بعينى : ظل بحيث أراه . غير مرسل : أى غير مهمل .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

(٢)

صورة مثالية لجواد الصيد

يصف امرؤ القيس فى هـذه القصيدة حصانه ورحلة صيد خلف البقـر الوحشى . وكل ما تصوره هـذه القصيدة قريب ممـا جاء فى المعلقـة ، بل إن هنـاك أبياتا تتكرر كاملة مع تغيير كلمـة واحدة ، كما أن هناك معـانى مشتركة كثـيرة فى مجالات الغزل والصـيد ووصف الحصان تجعلنا نتساءل عن سر هـذا التشابه : أسـببه أن امرأ القيس كان يكرر نفســه فى بعض قصائده أم أن هذه القصيدة نَحَلها الرواة على منوال المعلقـة ؟ أيا ما كان الأمر فالذى لا شك فيه أن القصـيدة تصور عالم امرئ القيس الإنسـانى والصحراوى الذى يطالعنا كثـيرا فى شعره . والصورة التى نخـرج بها دائمـا من شعر امرئ القيس هى أن شـعره يوحى بأنه يعانى قدرا من الاغتراب ، ولذلك نجده فى شعره يتعامل فقط مع المرأة أو مع عناصر الصحراء، فالبشر دائما مغيّبون عنه . ومن هنا أرى أن شعره يمثل حالة متقـدمة من الاغتراب ممـا ألجأه إلى حيـاة وجودية أقـرب إلى العبث واللامبالاة . فهل كان هذا سببا لخلع أبيه له أم نتيجة ؟

وأخيرا فإن النص سـواء أكان صحيحا أم منتحلا يصور عالم امرئ القيس قبل مقتل أبيه ، وهو يعبر فيه عن حياته اللاهية العابثة فى الحب والصيد، وعلاقته الحميمة بحصانه .

* * *

١ خليلىَّ مُرَّابى على أمِّ جُنْدُبٍ نُقَضِّ لُبانات الفؤادِ المعذَّبِ
٢ فإنكما إنْ تَنْظُرانىَ ساعةً من الدهر ينفعْنى لدى أمِّ جندبِ
٣ ألم ترياني كلما جئتُ طارقا وجدتُ بها طيبا وإنْ لم تَطَيَّبِ
٤ عَقِيلةُ أترابٍ لها ، لا دميمةٌ ولا ذاتُ خَلْقٍ إنْ تأملتَ جَأْنَبِ
٥ ألا ليت شعرى كيف حادثُ وَصْلِها وكيف تُراعى وُصْلةَ المتغيِّبِ ؟
٦ أدامتْ على ما بيننا من مودةٍ أميمةُ أم صارت لقولِ المُخَبِّبِ ؟
٧ فإنْ تَنْأَ عنها حِقبةً لا تُلاقِها فإنكَ مما أحدثتْ بالمجرِّبِ
٨ وقالت متى يُبْخَل عليكَ ويُعْتَلَلْ يَسُؤْكَ وإنْ يُكْشَفْ غرامُكَ تَدْرَبِ

* * *

٩ تبصَّرْ خليلي هل ترى من ظعائنٍ سَوالكَ نَقْباً بين حَزْمَىْ شَعَبْعَبِ

(١) أم جندب ، زوجة الشاعر . لبانات : جمع لبانة وهى الحاجة .

(٢) تنظرانى : تنتظرانى .

(٣) طارقا : آتيا بالليل . وجدت بها طيبا : أى وجدتها طيبة الرائحة فى الليل الذى تكره روائح الناس فيه .

(٤) عقيلة أتراب : يريد أنها أكرم وأفضل من مثيلاتها . ولا ذات خلق : أى أن خلقتها تستريح لها العين . جأنب : غليظة قصيرة .

(٥) حادث وصلها : حالة حبها أى أهو ثابت على العهد أم قد تغير ؟ والشطر الثانى معناه : هل حفظت عهد الحب فى غيابى أم ضيعته ؟ والوصلة : الوصل .

(٦) صارت لقول المخبب : أطاعت قول المفسد الماكر .

(٧) حقبة : فترة . تنأ : تبعد . أحدثت : فعلت . والمجرب : الذى مرت به تجربة معها .

(٨) يبخل عليك أى بالوصال واللقاء . يعتلل : يأتى بالأسباب والعلل . تدرب : تتعود .

(٩) الظعائن : النساء فى الهوادج . سوالك : سالكات . النقب : الطريق فى الجبل . الحزم : ما غلظ من الأرض . شعبعب : اسم ماء .

١٠ علونَ بأنطاكيّــةٍ فوق عِقْمــةٍ ... كجِرمةِ نخــلٍ أو كجنّــةِ يثرب

١١ فللّهِ عينَــا من رأى مِن تفــرُّقٍ ... أشتَّ وأنأى مِن فراقِ المحصَّب

١٢ فريقانِ منهم جازعٌ بطنَ نخــلةٍ ... وآخرُ منهم قاطعٌ نجــدَ كبكبِ

١٣ فعيناكَ غَرْبَا جدْولٍ في مُفاضــةٍ ... كمَــرِّ الخليجِ في صَفيحٍ مُصوَّبِ

١٤ وإنكَ لم يَفْخَــرْ عليــكَ كفاخرٍ ... ضعيفٍ، ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغلَّبِ

١٥ وإنكَ لم تَقْطع لُبــانةَ عاشــقٍ ... بمثــل غدوٍّ أو رَواحٍ مُؤوَّبِ

١٦ بأدماءَ حُرْجوجٍ كأن قُتُــودها ... على أبلقِ الكَشْحين ليس بمُغرِبِ

---

(١٠) علون بأنطاكية : أى ركبن الأبل بثياب صنعت فى أنطاكية من بلاد الشام . عقمة : ضرب من التطريز . الجرمة : البلح . الجنة : الحديقة .

(١١) أشت وأنأى : أكثر بعدا وفرقة . المحصب : موضع رمى الجمار بمنى ، أى أن فراق الحبيبة مثل فراق الحاج للأماكن المقدسة .

(١٢) جازع : نازل . قاطــع : طالع . كبكب : جبل . يقول تفرق الأحباب بين نازل إلى أسفل وطالع إلى أعلى .

(١٣) معنى الشطر الأول أن عينى الشاعر تسيلان بالدموع حزنا لفراق الأحباب كما تسيل دلوان خرجتا من جدول ماء فى مفاضة أى فى أرض واســعة . والشطر الثانى معناه أن الدموع تسيل مثل خليج ماء سريع الجريان بين صفيح مصوب أى حجارة منحدرة .

(١٤) المحبوبة مغلوبة وعاجزة ولكنها أعجزت وغلبت الحبيب القوى .

(١٥) مؤوب : عائد . والمعنى ليس هناك ما يقطع حالة الوصل مثل السفر الذى يرجع بالذهاب أو الإياب .

(١٦) أدماء : ناقة بيضاء . حرجوج : طويلة العنق . قتود : رحل . أبلق : حمار وحشى . المغرب : أبيض الوجه والأشفار ، وهو عيب فى الحمــر الوحشية . يشبه الناقة بحمار الوحش فى سرعته وقوته .

١٧ يغـرِّد بالأسحارِ فى كلِّ سُـدْفةٍ ... تغـرُّدَ ميَّاح النَّـدامَى المطرِّب

١٨ أقبُّ رَباعٌ مِنْ حَمِيرِ عَمايةٍ ... يَمُجُّ لُعاعَ البَقْل فى كلِّ مَشْرَبِ

١٩ بمَحْنِيَةٍ قـد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها ... مَجَـرِّ جيُوشٍ غانمين وخُيَّب

٢٠ وقـد أغتدِى والطيرُ فى وُكُناتها ... وماءُ النَّدى يجرِى على كلِّ مِذْنَب

٢١ بمـنجـردٍ قيـدِ الأوابد لاَحَهُ ... طِرادُ الهَوادى كلَّ شأوٍ مُغَرَّب

٢٢ على الأينِ جيَّـاشٍ كأن سَرَاتَه ... على الضُّمْرِ والتَّعداءِ سَرْحَةُ مَرْقَب

٢٣ يُبارِى الخنُوفَ المستقِلَّ زِماعُه ... تَرَى شَخْصَـه كأنه عُودُ مِشْجَب

(١٧) يغـرد : يغنى ، يصف صوت الحمار . السدفة : الغسق أو الظلمـة . مياح : يهتز نشاطا أو نشوة . هذا الحمار لنشاطه يصيح فى الليل كأنه شارب يغنى و يطرب الندماء .

(١٨) أقب : ضامر . عماية : اسم جبل فى نجد يقال إن حمره أشد عدوا من غيرها . يمج لعاع البقل : يريد أنه إذا شرب تساقط من فه ما أكله من العشب . يشير إلى أنه فى مكان شديد الخصب .

(١٩) محنيـة : المكان الذى ينحنى فيـه الوادى وهو أخصب مكان فيـه . آزر : بلـغ وساوى فى الطول . الضال : شجر . مجر جيوش : أى أن هـذه المحنية فى موضع تمر فيه الجيوش عائدة بالغنيمة أو الخيبة ، فلا ينزلها أحد خوفا منها ، ولذلك احتفظت بخصبها .

(٢٠) أغتدى : أبكر فى الخروج للصيد . وكناتها : أعشاشهـا . مذنب : مسيل المـاء . الندى : المطر . يبدأ الشاعر وصف الرحلة مبكرا وماء المطر ينزل من كل اتجاه .

(٢١) المنجرد : حصانه القصير الشعر . قيد الأوابد : سريع ، يقيد الوحوش لأنه أسرع منها . الهوادى : الوحوش المتقدمة .

(٢٢) الأين : التعب . جياش : سريع . سراته : ظهره . التعداء : كثرة العدو . السرحة : الشجرة الطويلة . المرقب : كل ما أشرف من الأرض . يشبه علو الفـرس وارتفاعه — على الرغم من ضموره وكثرة عدوه — بالشجرة العظيمة فى أعلى الأماكن .

(٢٣) الخنوف : صفة من صفات حمار الوحش حيث يرمى برجليه المتقدمتين فى السير . الزماع : الشعر فوق الظلف ، وجعلها مستقلة لأن ذلك أدعى إلى الإسراع . وتشبيهه بعـود المشجب للدلالة على صلابته وملاسته وضموره .

٢٤ له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وصَهوة عَيرٍ قائمٍ فوق مَرْقَبِ
٢٥ ويخطو على صُمٍّ صِلابٍ كأنها حجارةُ غَيْلٍ وارساتٌ بطُحْلُبِ
٢٦ له كَفَلٌ كالدِّعصِ لبَّده النَّدَى إلى حارِكٍ مثل الغَبِيطِ المُذَأَّبِ
٢٧ وعينٌ كمرآةِ الصَّناعِ تديرها لِمَحجِرِها من النَّصيفِ المنقَّبِ
٢٨ له أُذُنانِ تَعرِفُ العِتقَ فيهما كسامِعَتَيْ مذعورةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ
٢٩ ومُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كأن عِنانه ومَثْناتَه في رأسِ جِذعٍ مُشَذَّبِ
٣٠ وأسحمُ ريّانُ العَسيبِ كأنه عثاكيلُ قِنْوٍ من سُمَيْحةَ مُرْطِبِ

---

(٢٤) أيطلا الظبي : خاصرتاه . الصهوة : الظهر . العير : الحمار الوحشى . ويلاحظ أن بعض هذه الأوصاف وردت فى معلقته .

(٢٥) صم : صفة للحوافر . الغيل : الماء الجارى . وارسات : مصفرات ، والورس : صبغ أصفر . شبه حوافر الفرس بحجارة ماء علاها الطحلب فاصفرت وصلبت .

(٢٦) كفل : مؤخرة . الدعص : الكثيب الصغير من الرمل . الغبيط : قتب الهودج . المذأب : الموسع . وإلى فى البيت بمعنى مع .

(٢٧) الصناع : الحاذقة فى العمل . النصيف : الخمار . المنقب : الذى اتخذته نقابا لها . المحجر : العين . يقول إنها تنقبت بخمارها فأدارت مرآتها إليها لتنظرفيها .

(٢٨) العتق : عراقة الأصل . كسامعتى مذعورة : كأذنى بقرة خائفة . ربرب : قطيع .

(٢٩) مستفلك : مستدير مثل الفلكة . الذفرى : عظم ناتىء خلف الأذن . مثناته : الحبل المشدود فى رأسه من الناحيتين . المشذب : الذى نزع شوكه وسعفه ، يريد أنه قصير الشعر ... كأن لجام الفرس فى رأس جذع نخلة لطول عنقه .

(٣٠) أسحم : ذيل أسود . الريان : الناعم الممتلىء . العسيب : عظم الذنب . العثاكيل : الشماريخ وهى فروع النخلة . القنو : عذق النخلة وهو عرجون البلح . سميحة : اسم بئر . يقول إن ذيل الفرس مثل شماريخ نخل يرتوى بماء هذه البئر .

٣١ إذا ماجرى شأوين وابتلّ عطفُه	تقولُ هزيزُ الريح مرّت بأثأبِ
٣٢ يُدير قطاةً كالمحالةِ أشرفتْ	إلى سَنَدٍ مثلِ الغبيطِ المُذأَّبِ
٣٣ ويخضِدُ فى الآرىِّ حتى كأنما	به عُرّةٌ من طائفٍ غيرِ مُعقِبِ
٣٤ فيوما على سِربٍ نقىٍّ جلودُه	ويوما على بَيْدانةٍ أُمِّ تولَبِ

* * *

٣٥ فبينا نعاجٌ يرتعين خميلةً	كمشى العذارى فى المُلاءِ المهدَّبِ
٣٦ فكان تنادينا وعقدَ عِذارِه	وقال صحابى قد شأونكَ فاطلبِ
٣٧ فلأيًا بلأىٍ ما حملنا وليدَنا	على ظهرِ محبوكِ السَّراةِ مُحنَّبِ
٣٨ وولّى كشؤبوبِ العشىِّ بوابلٍ	ويخرجن من جَعْدٍ ثراه مُنصَّبِ

(٣١) شأوين : شوطين . هزيز : صوت . أثأب : شجر يشبه الأثل يشتد صوت الريح فيه .

(٣٢) القطاة : مقعد الرديف . كالمحالة : كالبكرة المستديرة . السند : سفح الجبل ، يريد كفل الفرس . المذأب : الموسع الأسفل .

(٣٣) يخضد : يجاذب . والآرى : قطعة حبل تعقد كالحلقة وتثبت فى الأرض أو فى حائط ، وتشد فيها الخيل . عرة : جنون . طائف غير معقب : شيطان يلازمه فهو لا يكف عن الجرى كأنه مجنون .

(٣٤) سرب : قطيع من بقر الوحش ، ونقى جلوده أى أبيض اللون . بيدانة : أتان ملازمة للبيداء فهى دائما مذعورة . والتولب : الجحش .

(٣٥) النعاج : إناث بقر الوحش . المهدب : الذى له أهداب .

(٣٦) تنادينا : تداؤنا بعضنا على بعض من أجل الصيد . عقد عذاره : أى عذار الفرس استعدادا للطاردة . يقول كان تنادينا مرتبطا بعقد عذار الفرس ، كناية عن السرعة . والعذار : اللجام . شأونك : سبقنك .

(٣٧) لأى : جهد . محبوك : مجدول قوى . السراة : الظهر . المحنب : الذى به انحناء فى الظهر وهو علامة قوة فى الخيل . ولأيا بلأى أى جهدا بعد جهد ، يصور عنف الجواد ونشاطه وامتناعه على الركوب . و « ما » هنا زائدة .

(٣٨) الشؤبوب : دفعة المطر . الجعد : شديد النداوة . المنصب : المرتفع المنتصب .

٣٩ فللسَّاقِ أُلهوبٌ وللسَّوطِ دِرَّةٌ ... وللزَّجرِ منه وَقْعُ أهوجَ مِنْعَبِ

٤٠ فأدركَ لم يَجْهَــدْ ولم يَثْنِ شَأْوَه ... يمرُّ كخُذروفِ الوليــدِ المثقَّبِ

٤١ ترى الفأرَ في مستنقَعِ القاعِ لاحِباً ... على جَدَدِ الصحراء من شدٍّ مُلْهِبِ

٤٢ خَفَاهُنَّ مِن أنفاقِهنَّ كأنما ... خــفاهنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

٤٣ فعــادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ ... وبين شَبُوبٍ كالقَضيمةِ قَرْهَبِ

٤٤ وظَــلَّ لثيرانِ الصَّريمِ غماغمٌ ... يُداعِسها بالسَّمهــريِّ المعلَّبِ

٤٥ فكابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ ... بمَــدْرِيَةٍ كأنهــا ذَلْقُ مِشْعَبِ

٤٦ وقلنــا لفتيانٍ كرامٍ ألا انزِلوا ... فَعالُوا علينا فَضْــلَ ثوبٍ مُطَنَّبِ

---

(٣٩) هــذا الحصان إذا حركه صاحبه بساقــه جرى كأنه ملتهب بنار ، وإذا ضربه بالسوط در بالجرى ، وحين يزجره يجرى كالمجنون المتعب أى الذى يستعين بعنقه فى الجرى وبعده .

(٤٠) أدرك صيده دون تعب . ولم يثن شــأوه أى أنه أدركها فى شوط واحد . الخذروف : لعبة من لعب صبيان العرب .

(٤١) حين يلهب الحصان ظهر الأرض بجــريه تظن الفئران أن المطــر قد نزل فيخرجن من قاع الأرض إلى ظهرها . واللاحب : الظاهر . والجدد : المستوى من الأرض . والشد : الجرى .

(٤٢) خفاهن : أظهرهن أو أخرجهن (الفئران) . ودق : مطر .

(٤٣) شبوب : ثــور مسن . قرهب : مسن . قضيمة : صفحة بيضاء . ويريد به هنا نصل القطيع .

(٤٤) الصريم : المنقطع من الرمل . غمــاغم : أصــوات غير مفهومة . يداعس : يطاعن . السمهرى : الرمح . والمعلب : الذى شد بعقدة فى أعلاه حتى لا ينثنى عند الطعن به .

(٤٥) الكابى : المطرق بوجهه . المدرية : القرن . ذلق : حد . مشعب : مخراز . بعد معركة الصيد صرع بعض الثيران ودافع بعضها الآخر عن نفسه بقرون حادة كحد المخراز .

(٤٦) فعالوا علينا فضــل ثوب مطنب : ردوا علينا وأظلونا بثوب مشدود يحمى من حر الشمس . والمطنب : المشدود بالأطناب وهى الحبال .

٤٧ وأوتادُه ماذِيَّةٌ وعِمَاده ... رُدَيْنِيَّةٌ فيها أَسِنَّةُ قَعْضَبِ
٤٨ وأطنابه أشطانُ خُوصٍ نجائبٍ ... وصَهوتُه مِنْ أَتحِميّ مُشَرْعَبِ
٤٩ فلما دخلناه أَضَفْنا ظهورَنا ... إلى كلِّ حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ
٥٠ كأن عيونَ الوحش حولَ خِبائنا ... وأرحلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ
٥١ نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ أكفَّنا ... إذا نحن قمنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ
٥٢ ورحنا كأنا من جُؤاثَى عشيَّةً ... نُعَالِي النعاجَ بين عِدْلٍ ومُحْقَبِ
٥٣ وراح كتَيْسِ الرَّبْلِ ينفُضُ رأسَه ... أذاةً به مِنْ صائكٍ مُتَحَلِّبِ
٥٤ كأن دماء الهاديات بنحره ... عُصارةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُخَضَّبِ
٥٥ وأنتَ إذا استدبرتَه سَدَّ فَرْجَه ... بضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليس بأصهبِ

* * *

(٤٧) الماذية : الدروع . الردينية : الرماح . قعضب : اسم رجل مشهور بصنع الرماح ... يذكر الشاعر أنهم بعد أن فرغوا من صيدهم أقاموا بيوتا من أسلحتهم .

(٤٨) أطنابه أشطان خوص : أركان البيت من حبال الإبل النجيبة . صهوته : أعلاه . الأتحمى : نوع من الثياب كانت تنتجه اليمن . مشرعب : متنوع الأصناف .

(٤٩) حارى : مصنوع فى الحيرة . والمشطب : المخطط .

(٥٠) الجزع : الخرز الأسود المجزع بالبياض . يشبه عيون البقر به .

(٥١) نمش : نمسح . مضهب : غير ناضج .

(٥٢) جؤاثى : اسم قرية بالبحرين مشهورة بالتمر الجيد . نعالى النعاج بين عدل ومحقب : بعد انتهاء الرحلة وضعوا ما تبقى من اللحم فى حقائب بين معتدلة وغير معتدلة .

(٥٣) الربل : نبات . التيس : ذكر الظباء . الصائك : العرق الثقيل ... الوصف هنا للحصان ، والعرق دلالة على القوة والنشاط .

(٥٤) الهاديات : المتقدمات فى سرب الصيد . مخضب : ملون بالحناء .

(٥٥) ضاف : طويل . أصهب : أحمر أو أشقر ، يصف ذيل جواده بأنه أسود .

* * *

طه وادى

(٣)

مُتَع ما بَعْدَ الصِّبا

تعكس هذه القصيدة مثاليات امرئ القيس — شابا — فى حب الحياة واللهو والمجون . وما يتمناه فى حياته هنا قريب مما صوره فى معلقته ، وما صوره طرفة فى معلقته أيضا ، مما يؤكد وحدة المزاج عند الشعراء الشبان فى العصر الجاهلى .

١ جَزِعتُ ولم أجزَعْ من البين مَجْزَعا ... وعَزَّيتُ قلبا بالكواعب مُولَعَا

٢ وأصبحتُ ودَّعتُ الصِّبا غيرَ أننى ... أُراقبُ خَلَّاتٍ من العيش أربعَا

٣ فمنهنَّ قولى للندامَى ترَفَّعوا ... يُداجُون نَشَّاجًا من الخمر مُتْرَعا

٤ ومنهنّ ركضُ الخيلِ تَرْجُم بالقَنا ... يُبادِرْنَ سِربا آمنًا أنْ يُفَزَّعا

٥ ومنهنّ نَصُّ العِيسِ والليلُ شاملٌ ... تَيَمَّمُ مجهولاً من الأرض بَلْقَعا

٦ خوارجَ من بَرِّيَّةٍ نحو قريةٍ ... يُجَدِّدْن وَصْلا أو يُقرِّبن مَطْمَعا

٧ ومنهن سَوْفِى الخَوْدَ قد بَلَّها النَّدَى ... تُراقِبُ منظومَ التمائم مُرْضَعا

---

(١) البين : الفراق . الكواعب : جمع كاعب وهى الفتاة الناهد .

(٢) خلات : صفات وخصال .

(٣) يداجون : يرفعون و يعالجون استعدادا لفتحه . النشاج : الزق . مترعا : مليئا .

(٤) ركض : جرى . وترجم : تضرب الأرض بحوافرها . والقنا : الرماح .

(٥) نص العيس : تسييرى للإبل . تيمم : تقصد . بلقع : خراب .

(٧) سوفى : شمى ، من ساف بمعنى شم . الخود : المرأة الحيية . منظوم التمائم : كناية عن الوليد الذى يعلق الأحجبة .

٨ يَعِزُّ عليها رِيبتى ويَسُوؤها ... بُكاهُ فتَثْنِى الجيدَ أن يَتَضَوَّعا

٩ بعثتُ إليها والنجومُ طوالعٌ ... حِذاراً عليها أنْ تقومَ فتُسْمَعا

١٠ فجاءت قَطُوفَ المشىِ هَيَّابةَ السُّرَى ... يُدافِع رُكناها كَواعبَ أربعا

١١ يُزَجِّينها مَشْىَ النَّزِيفِ وقد جَرَى ... صُبَابُ الكَرَى فى مُخِّه فتقطَّعا

١٢ تقول وقد جَرَّدْتُها مِنْ ثيابها ... كما رُعْتَ مكحولَ المدامِع أتلعا

١٣ أَجِدَّكَ لو شيءٌ أتانا رسولُهُ ... سواكَ ، ولكنْ لم نجد لك مَدْفَعا

١٤ فبتنا تَصُدُّ الوحشُ عنا كأننا ... قتيلانِ لم يعلمْ لنا الناسُ مَصْرَعا

١٥ تَجافَى عن المأثور بينى وبينَها ... وتُدْنِى عليها السَّابِرِىَّ المُضَلَّعا

١٦ إذا أخذتْها هِزَّةُ الرَّوْعِ أمسكتْ ... بمَنْكِبِ مِقدامٍ على الهولِ أَرْوَعا

---

(٨) يتضوع : يشتد بكاؤه بصوت مرتفع . وأن هنا بمعنى ألا .

(١٠) قطوف المشى : مقاربة الخطى . هيابة : فزعة خائفة . الكواعب : جمع كاعب وهى التى كعب نهدها .

(١١) النزيف : السكران . صباب الكرى : بقية النوم .

(١٢) مكحول المدامع : يريد به ولد الظبية . أتلع : طويل العنق .

(١٣) شىء هنا بمعنى أحد . يقول : لو أحد أتانا رسوله لما أجبناه ، ولكنا لم نملك ردك .

(١٤) تصد : أى تصرف أنفسها عنا .

(١٥) تجافى : تتباعد . والمأثور : السيف . والسابرى : نوع من الثياب .

(١٦) هزة : رعشة . الروع : الخوف . والأروع : الذى يروعك بجماله .

* * *

طه وادى

(٤)

ذكرياتٌ بعيدة

تدور هذه القصيدة التي رجحنا أنها من نتاج المرحلة الثانية من حياة امرئ القيس حول تصوير ذكريات شبابه التي خلّفها وراءه على أرض بني أسد منذ أن خرج مطالبا بثأر أبيه . وهي تبدأ بمقدمة طللية يخرج منها إلى حديث الذكريات التي مرت بين الحب والصيد ، ثم يختمها بالإشارة إلى الهدف الطّموح الذي خرج من أجله ، وهو استرداد عرش أسرته الضائع . وهي من رواية الأصمعي الثقة في أربعة وخمسين بيتا .

* * *

١ ألَا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالِي وهل يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُرِ الخالي ؟

٢ وهل يَعِمَنْ إلّا سعيدٌ مُخَلَّدٌ قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ ؟

٣ وهل يعِمَنْ مَنْ كان أحدثُ عهدِهِ ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوالِ ؟

---

(١) عم صباحا : أصلها انعم صباحا ، تحية الصباح عند العرب الجاهليين يوجهها إلى أطلال صاحبته . ويعمن : أصلها ينعم حذفت نونها ثم ألحقت بها نون التوكيد الخفيفة . ويريد بالشطر الثاني أنه يعيش في الماضي البعيد فكيف يشعر بالنعيم أو السعادة ؟

(٢) يريد بالسعيد المخلد الذي اكتملت سعادته ودامت له مدى الحياة . والأوجال : المخاوف .

(٣) الأحوال : الأعوام ، جمع حول . يريد كيف يشعر بالنعيم من بعد عهده به ؟

٤ ديارٌ لِسلمَى عافياتٌ بذى خالِ ... ألحّ عليها كلُّ أسْحَمَ هَطّالِ

٥ وتحسب سلمى لا تزال تُرَى طَلًا ... مِن الوحش أو بَيْضًا بمَيْثاءَ مِحلالِ

٦ وتحسَبُ سلمى لا تزال كعهدِنا ... بوادى الخُزَامَى أو على رَسّ أوعالِ

٧ ليالىَ سلمى إذ تريكَ مُنَصَّبا ... وجِيدًا كجِيدِ الرِّئم ليس بمِعْطَالِ

* * *

٨ ألا زعمتْ بَسْباسةُ اليومَ أننى ... كبِرْتُ وأنْ لا يُحسِنُ اللهوَ أمثالى

٩ كذبتِ، لقد أُصبِي على المرء عِرْسَه ... وأمنعُ عِرْسِى أنْ يُزَنَّ بها الخالى

١٠ ويارُبَّ يوم قد لهوتُ وليلةٍ ... بآنِسةٍ كأنها خَطُّ تِمثالِ

(٤) ذو خال : اسم مكان . وعافيات : باليات . الأسحم : الأسود ، يريد السحاب . والهطال : المنهمر ، يريد المطر .

(٥) الطلا : ولد الظبية أو البقرة الوحشية . والميثاء : الأرض اللينة الندية . والمحلال : التى ينزل بها الناس . والبيض هنا يريد به بيض النعام . ومعنى البيت أنه لا يزال يتخيل صاحبته — كما كانت أيام شبابه — جميلة وديعة كالظبية الصغيرة ، ممنعة بعيدة المنال كبيضة النعام .

(٦) وادى الخزامى ورس الأوعال : موضعان . والرس : البئر .

(٧) المنصب : الثغر المستوى المنسق الأسنان ، والرئم : الظبي الخالص البياض . والمعطال : الذى خلا من الحلى ، يريد أن جيدها تزينه الحلى .

(٨) بسباسة : اسم صاحبة له .

(٩) أصبى على المرء عرسه : يريد أنه يفتن على الرجل زوجته ويستميلها إليه . ويزن : يتهم . والخالى : الذى لا زوجة له . يريد أنه قادر على أن يفتن المرأة المتزوجة ، وقادر فى الوقت نفسه على أن يحمى زوجته من الفتنة .

(١٠) الآنسة : المرأة التى تؤنس صاحبها . وخط تمثال : يريد تمثالا اكتملت له خطوطه ، وتأنق صاحبه فى إبداعه وإتقانه .

١١ يضيء الفراشَ وجهُها لضجيعها كمصباح زيتٍ في قناديل ذُبّالِ
١٢ كأن على لَبّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ أصاب غَضَى جَزْلا وكُفَّ بأجْذالِ
١٣ وهبّتْ له ريحٌ بمختلِف الصُّوَى صَباً وشمالٌ في منازل قُفّالِ
١٤ ومثلُكِ بيضاءُ العوارضِ طَفْلةٌ لَعُوبٌ تُنَسّيني إذا قمتُ سِربالي
١٥ كحِقْفِ النَّقا يمشي الوليدانِ فوقَه بما احتَسَبا من لِينِ مَسٍّ وتَسْهالِ
١٦ لطيفةُ طَيِّ الكَشْحِ غيرُ مُفاضةٍ إذا انفتلتْ مرتجّــةٌ غيرِ متفالِ

(١١) القناديل : جمع قنديل ، وهو زجاجة المصباح . والذبال : الذين يصنعون فتائل المصابيح . يشبه وجه صاحبته الذي يضيء الفراش بمصباح في زجاجة ركب صانع الفتائل ذبالة جديدة له ، وسكب عليها الزيت ، فاشتد توهجه وتألقه .

(١٢) اللبات : عظام الصدر حيث تعلق القلائد . والمصطلى : الذي يستدفىء بالنار ، فهو لا يزال يقلب جمرها حتى لا تخمد . والغضى : نبات شوكي جاف ، يفضله العرب لنارهم لأنه أشد احتفاظا بها . والجزل : الكثير . والأجذال ، أصول الشجر . وكف بأجذال يريد أن هذا المصطلى أحاط جمره بأصول الشجر حتى تظل تمده بمزيد من الغضى كلما نفد جمره وتحول إلى رماد .

(١٣) الصوى : المرتفعات الصغيرة . والقفال : العائدون من السفر ، ويكونون عادة أشد احتياجا إلى النار عند نزولهم . يصف هذا الجمر بأنه أوقد فوق مرتفع من الأرض حتى يكون أشد تعرضا لاختلاف الرياح عليه ، فتشتد ناره ، وأن الذين أوقدوه جماعة من المسافرين عادوا من سفرهم فنزلوا يصطلون التماسا للراحة والدفء بعد سفر مرهق في ليالي الصحراء الباردة .

(١٤) العوارض : جمع عارضة وهي صفحة الخد . والطفلة : الناعمة اللينة اليدين . والسربال : القميص .

(١٥) حقف النقا : كثيب الرمل المستدير . واحتسبا : اكتفيا . يشبه جسد صاحبته الممتلىء اللين بكثيب من الرمال الناعمة أغرت نعومتها صبيين صغيرين على اللعب فوقه .

(١٦) الكشح : الخصر . والمفاضة : المترهلة البطن . انفتلت : تحركت . والمتفال : الكريهة الرائحة التي تهمل عطرها ، يريد أنها رشيقة الخصر ، ممتلئة الأرداف ، حريصة على عطرها ، طيبة الرائحة .

١٧ إذا ما الضجيعُ ابتزّها من ثيابها … تميـلُ عليه هَوْنَةً غيرَ مِجبالِ
١٨ تنوّرتُها من أذرعاتٍ ، وأهلُها … بيثربَ ، أدنى دارها نظرٌ عالى
١٩ نظرتُ إليها ، والنجومُ كأنها … مصابيحُ رهبانٍ تُشَبُّ لقُفّال
٢٠ سَمَوْتُ إليها بعد ما نام أهلُها … سُمُوَّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ
٢١ فقالت : سباكَ الله إنكَ فاضحِى … ألستَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوالى ؟
٢٢ فقلتُ : يمينُ اللهِ أبرحُ قاعدا … ولو قطّعوا رأسى لديك وأوصالى !
٢٣ حلفتُ لها بالله حِلفةَ فاجرٍ … لَنَاموا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالِى
٢٤ فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتْ … هَصَرْتُ بغصنٍ ذى شماريخَ ميّالِ

(١٧) الهونة : السهلة اللطيفة . والمجبال : الثقيلة الجافية . يقول إنها تميل على صاحبها فى لين واطف رقيقة خفيفة لا جافية ولا ثقيلة .

(١٨) تنورتها أى تخيلت نارها . وأذرعات : بلد بالشام . ويريد بقوله « أدنى دارها نظر عال » أنها بعيدة .

(١٩) الضمير فى « إليها » يعود على صاحبته ، لا على النار كما توهم الشراح القدماء . ويريد بنظرت إليها أنه انتظر موعدا مناسبا لزيارتها .

(٢٠) حباب الماء : ما يعلو سطحه من فقاعات الهواء . ويريد بقوله « حالا على حال » أى شيئا بعد شىء ، يصور حركته الحذرة نحوها .

(٢١) سباك الله : صيغة دعاء لا تؤدى معناها الحقيقى ، وإنما هى تعبير عن دلال المرأة ومعابثتها لصاحبها .

(٢٢) أبرح قاعدا : أى لا أبرح قاعدا ، يقسم لها إنه لن يبرح مكانه ولو قطعوا رأسه وأوصاله .

(٢٣) لناموا : يريد أن السمار والناس من حولها قد ناموا فلم يعد هناك ما تخشى منه . والصالى : الذى يصطلى بالنار . ويريد بحلفة فاجر أنه أقسم لها كاذبا .

(٢٤) تنازعنا الحديث أى تجاذبنا أطرافه . وأسمحت : انقادت ولانت بعد امتناعها . هصرت : جذبت . والشماريخ : فروع النخلة ، يشبه بها شعرها الغزير الذى تداخلت خصله وضفائره بعضها فى بعض .

٢٥ وصرنا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلالِ
٢٦ فأصبحتُ معشوقا، وأصبح بعلُها عليــه القَتَامُ سيئَ الظنِّ والبــالِ
٢٧ يغِطُّ غطيطَ البَــكْر شُــدَّ خِناقُهُ ليقتلني ، والمــرءُ ليس بقتّــالِ
٢٨ أيقتــلنى والمشرفىُّ مُضاجِعِي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ ؟
٢٩ وليس بذى رمح فيطعَنَنِى به وليس بذى سيفٍ وليس بنبَّالِ ؟
٣٠ أيقتلنى وقــد شَــغَفْتُ فؤادها كما شَغَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطَّالِى ؟
٣١ وقد علِمتْ سلمى، وإنْ كان بعلُها بأنّ الفتى يَهْذِى وليس بفعّــال

(٢٥) يريد بقــوله « رضت فذلت صعبة أى إذلال » أنه استطاع ترويض امتناعها فلاقت له وأطاعته . « وأى إذلال » أى أنها استجابت له استجابة كاملة .

(٢٦) القتام : الغبار . يهزأ بزوجها الذى ينام إلى جوارها ، وهو لا يشــعر بما يدور حوله بين زوجته ومعشوقها .

(٢٧) البكر : البعير الصغير ، يكون صعبا فى أول أمره ، فيشدون حبــلا فى خناقه لترويضه ، فيسمع له غطيط .

(٢٨) المشرفى : السيف ، نسبة إلى قرى بالشام يقال لها المشارف . والمسنونة . يريد بها السهام الحادة ، ويريد من وصفها بالزرقة أنها صافية لامعة ، وشبهها بأنياب الغيلان لتزيد من بشاعتها .

(٢٩) النبال : الذى يستخدم النبال فى الرمى .

(٣٠) شغفت فؤادها : بلغ حبها شغاف قلبــه أى أعماقه . والمهنوءة : الناقة تطلى بالقطــران لعلاجها ، ويذكر البدو أنها تحس لذة له حين ينفذ من مسام جلدها . يقول ان حبها نفــذ إلى شغاف قلبه كما نفذ القطران إلى أعماق الناقة . . صورة بدوية خالصة البداوة !

(٣١) مرة أخرى يهزأ بزوجها ويسخر منه ، ويعلن — فى ثقة بنفسه — أنها تعرف زوجها على حقيقته ، فهى لهذا ! — وهو أيضا — لا يعبآن بوعيده وتهــديده ، فإنما هو كلام مجرد كلام ولا شىء وراءه .

٣٢ وماذا عليه أنْ ذكَرْت أوانسًا كغزلانِ رَمْلٍ فى محاريبِ أقيالِ

* * *

٣٣ وبيتِ عذارَى يومَ دَجْنٍ ولجتُه يَطُفْن بجمَّاءِ المرافِقِ مِكسالِ

٣٤ سِباطِ البنانِ والعَرانِينِ والقَنَا لِطافِ الخصورِ فى تمامٍ وإكمالِ

٣٥ نواعِمَ يُتْبِعن الهوى سُبُلَ الرَّدَى يَقُلن لأهلِ الحِلْمِ : ضُلًّا بتَضْلالِ !

٣٦ صَرَفتُ الهوى عنهن مِن خَشيةِ الردى ولستُ بمقليِّ الخِلالِ ولا قالِي

٣٧ كأنىَ لم أركبْ جوادًا لِلذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعبا ذات خَلْخالِ

٣٨ ولم أَسْبأِ الزِّقَّ الروِىَّ ، ولم أقل لخيلىَ : كُرِّى كَرَّةً بعد إجفالِ

---

(٣٢) يرى العرب أن غزلان الرمل هى أجمل أنواع الغزلان لأنها تكون خالصة البياض . والمحاريب هنا : المقاصير . والأقيال : ملوك اليمن ، وكانوا يربون الغزلان فى قصورهم . يصف صاحباته بأنهن جميلات مترفات يعشن فى نعمة وترف .

(٣٣) يوم دجن : يريد يوما من أيام الشتاء تغطى الغيوم سماءه . وجماء المرافق : ممتلئة الذراعين . وبيوت العذارى اصطلاح أطلقه الجاهليون على بيوت اللهو المحرم .

(٣٤) سباط البنان : ناعمات الأصابع . والعرانين : جمع عرنين وهو الأنف . والقنا : يريد بها القامات . ويريد بقوله « فى تمام وإكمال » أن هؤلاء العذارى تم حسنهن واكتمل جمالهن .

(٣٥) « يتبعن الهوى سبل الردى » أى أنهن سبب فى هلاك من يقع فى حبهن . وقوله « ضلا بتضلال » يريد أنهن سبب من أسباب الضلال الشديد لمن يقع فى غرامهن .

(٣٦) القلى : الكره . يقول إنه صرف حبه عنهن لا عن كره منه أو منهن ، وإنما خوفا من حبهن وعواقبه على نفسه .

(٣٧) يتذكر فى هذا البيت والبيتين التاليين متع شبابه التى عاش لها : الصيد والحب والخمر والفروسية . وهو فى هذا البيت يفتخر بخروجه للصيد ، ولهوه بالمرأة فى أيام شبابه الذى مضى .

(٣٨) الزق : قربة الخمر . والروى : الممتلىء . وسبأه : اشتراه . والإجفال : الإسراع فرارا . يفتخر فى هذا البيت بشربه الخمر وفروسيته .

٣٩ ولم أشهدِ الخيلَ المغيرة بالضحى — على هيكلٍ نَهْـدِ الجُزارة جـوّالِ

٤٠ سليمِ الشَّظَى عَبْلِ الشَّوَى شَنِجِ النَّسَا — له حَجَبات مُشرِفاتٌ على الفـالِ

٤١ وصُمٌّ صِلابٌ ما يقِين من الوَجَى — كأنّ مكانَ الرِّدْفِ منه على رَألِ

* * *

٤٢ وقـد أغتدى والطيرُ فى وُكُناتها — لغيثٍ من الوَسْمِىِّ رائدُه خالِ

٤٣ تَحاماه أطـرافُ الرِّماحِ تحامِيًـا — وجاد عليـه كلُّ أسحَمَ هطّـالِ

٤٤ بعجلزةٍ قد أتْرَزَ الجرىُ لحمَهَـا — كُميتٍ كأنهـا هِراوةُ مِنـوالِ

---

(٣٩) الهيكل : الضخم ، صفة للفرس الذى يصفه فى الأبيات التالية . نهد الجزارة : ضخم القوائم والجوّال : النشيط السريع . يتذكر هنا فروسيته وشجاعته أيام شبابه الماضية .

(٤٠) الشظى : عظم صغير فى يد الفرس . والشوى : القوائم . والنسا : عرق يمتد فى الظهر . وشنج النسا : يصفه بالصلابة . والحجبات : رؤوس الأوراك . والفال : هو الفائل ، وهو عرق يمتد على يمين عظم الذيل ويساره . يريد أنه مشرف الكفل ، حجباته مشرفة لاتصالها بالكفل .

(٤١) يريد بالصم الصلاب حوافره . وقوله « ما يقين من الوجى » أى لا يخفن المشى خشية الحفى لصلابتهن . والرال : هو الرأل ، وهو ولد النعامة ، وهو مشرف الكفل ، شبه فرسه به .

(٤٢) الوسمى : أول المطر . ويريد بالغيث النبات الذى ينبته المطر . وقوله « رائده خال » أى أن هذه المنطقة الخصبة خالية من الناس إلا من هذا الرائد الذى يرتادها ، فهى لذلك محتفظة بخصبها .

(٤٣) « تحاماه أطراف الرماح » أى تتحاماه يريد أنها منطقة منيعة لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، ولكنه مع ذلك دخلها للصيد . والأسحم : الأسود يريد به السحاب المحمل بالمطر . وجاد عليه أى تتابع عليه مطر غزير .

(٤٤) العجلزة : الصلبـة اللحم ، يريد فرسا . أترز : أيبس ، يريد أنها ضامرة شـديدة . والهراوة : العصا . والمنوال : الذى يغزل الصوف على النول . والهراوة لا تتخذ إلا من أصلب العود وأشده .

٤٥ ذَعرتُ بها سِربا نقيًّا جلودُهُ وأكرُعُهُ وَشْىُ البرودِ من الخالِ
٤٦ كأنّ الصُّوار إذ تجهّدَ عَدْوَه على جَمَزَى خيلٌ تجولُ بأَجْلالِ
٤٧ فجالَ الصُّوارُ واتّقَين بِقَرْهبٍ طويلِ القَرَا والرَّوْقِ أخنسَ ذَيّالِ
٤٨ فعادى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ وكان عِداءُ الوحشِ مِنى على بالِ
٤٩ كأنى بفَتْخاءِ الجناحين لِقْوَةٍ صَيودٍ من العِقبانِ طأطأتُ شِملالِ
٥٠ تَخَطَّفُ خِزّانَ الشَّرَبَّةِ بالضحى وقد حَجَرَتْ منها ثعالبُ أَوْرالِ

(٤٥) نقيا جلوده : أى أبيض الجلد خالص البياض . والأكرع : القوائم . والوشى : النقش . والخال : ضرب من البرود اليمنية . يصف قوائم هذا السرب من البقر الوحشى بأن فيها سوادا و بياضا ، كنقوش هذه الثياب اليمنية .

(٤٦) الصوار : قطيع البقر الوحشى . وتجهد عدوه : أجهده العدو . وجمزى : اسم موضع . والأجلال : جمع جل وهو ما يوضع على ظهر الفرس تحت السرج . يشبه قطيع البقر الوحشى وقد أجهده العدو بخيل تجول ، عليها هذه الأجلال البيض .

(٤٧) القرهب : الثور المسن . والقرا : الظهر . والروق : القرن . والأخنس : القصير الأنف . والذيال : السابغ الذيل . يقول إن هذا السرب من البقرات الإناث راح يحتمى بهذا الثور الفحل لعله يدفع عنه هجمات الصيادين ومطاردتهم .

(٤٨) العداء هو العدو . « وعادى عداء بين ثور ونعجة » أى انطلق الفرس يواصل العدو بينهما حتى صادهما الواحد بعد الآخر . والنعجة : البقرة . وقوله « على بال » أى على اهتمام منى ، يريد أنه كان مشغولا بهذه المطاردة .

(٤٩) الفتخاء : اللينة الجناحين . واللقوة : العقاب السريعة . والشملال : الخفيفة المنطلقة . وطأطأت : أسرعت . يصف إسراعه بفرسه بهذه العقاب المدربة على الصيد . وفى رواية أخرى « طأطأت شملالى » أى طأطأت شمالى وأنا مندفع فى المطاردة .

(٥٠) الخزان : ذكور الأرانب ، مفردها خزز . والشربة : موضع . وتخطف أى تتخطف ، والضمير يعود على العقاب . وحجرت : اختفت . وأورال : موضع . يقول إن ثعالب هذا الموضع اختفت خوفا من هذه العقاب .

٥١ كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطبًا و يابسا لدى وكرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

* * *

٥٢ فلو أنَّ ما أَسْعَى لأدنَى معيشةٍ كفانِى ـ ولم أطلبْ ـ قليلٌ من المال

٥٣ ولكنما أسعى لمجـــدٍ مؤثَّلٍ وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

٥٤ وما المرءُ مادامت حُشاشةُ نفسِه بمدرِكِ أطرافِ الخطوبِ ولا آلِى

* * *

(٥١) وكرها : يريد وكر العقاب . والحشف : التمر الجاف القديم . يشبه قلوب الطير التى صادتها العقاب وقد تناثرت فى وكرها ، فالجديد منها يشبه العناب فى نضارته ولونه الأحمر ، والقـــديم منها يشبه التمر البالى فى جفافه وذبوله .

(٥٢) يصور فى هذا البيت طموح الهدف الذى يسعى إليه فى هذه المرحلة الثانية من حياته . إنه لا يسعى نحو هدف قريب سهل المنال ، إنه لا يطلب مجرد العيش وإلا فإن قليلا من المـــال يكفيه دون طلب منه أو سعى وراءه .

(٥٣) المؤثل : الأصيل العريق الثابت الذى له أصل قديم . يحدد هنا الهدف البعيد الذى يسعى إليه ، إنه استرداد عرش أسرته الضائع .

(٥٤) الحشاشة : البقية . والخطوب : الأمور المهمة الخطيرة . وأطرافها : نهايتها وغايتها التى تنتهى إليها . وآل : مقصر . يصور هنا الأمل الذى يعيش له بقية حياته ، وموقف القدر منـــه . إنه يعيش على هذا الأمل ، و يعمل له غير مقصر فى سبيل تحقيقه ، ولكن القدر الذى يعترض طريقه يحطم هذا الأمل على صخرة الواقع ، ولكنه مع ذلك لا يكف عن السعى ، ولا يصل إلى حافة اليأس . إنه صراع الحياة بين أمل يعيش له ويسعى لتحقيقه ، وقدر يقف فى طريقه ليسد عليه مسالك الوصول إلى هدفه الذى لا يكف عن السعى إليه . إنه صراع الإنسان مع القدر فى حياة لا يعرف ما الذى تخبئه له فيها . صراع غير متكافئ ، ولكنه مع ذلك لا يتراجع ولا يتوقف ، وكأنه يقول : لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحيـــاة .

* * *

يوسف خليف

(٥)

الرحلة إلى قيصر

يصور امرؤ القيس في هـذه القصيدة رحلته إلى قيصر في محاولتـه الأخيرة لاسترداد عرش أسرته الضائع. وهو يبدؤها بمقدمة من مقدمات الظعن، يصف فيهـا رحلة صاحبته في طريقها إلى منازل القبيلة الجديدة في ديار الغساسنة ببلاد الشام. ثم ينتقل إلى الحديث عن رحلته هـو إلى المنطقة نفسها لينطلق منها إلى بلاد الروم، ويصف ناقتـه التي حملته، ويصوّر مشاعر رفيقه في هذه الرحلة، ويتحدث عن آماله التي يعلقها عليها، ويصف فرسه الذى يحـلم بأنه سيحمله مع جيش الخلاص في رحلة العودة. ثم يسجل بعض نظراته في الحيـاة والأحياء، ويختمها بفخر سريع بفروسيته وشربه الخمر. والقصيدة من شعره الثابت الصحيح من رواية الأصمعي الثقة، وهي في أربعة وخمسين بيتا اخترنا منها هذه الأبيات:

* * *

١ سَمَا لَكَ شوقٌ بعد ما كان أَقصرَا وحَلَّتْ سُليمى بطنَ قَوٍّ فعَرْعَرَا

٢ كِنانيَّةٌ بانتْ وفي الصــدرِ وُدُّها مُجَــاوِرةَ غسَّانَ والحيَّ يَعْمُــرَا

(١) سما لك شوق: أى اشـتد بك وارتفع إلى درجة عالية، يخاطب نفسه على أسلوب التجريد. بعد ما كان أقصرا: أى بعد أن كان قد هدأ وتراجع. وقو وعرعر: موضعان.

(٢) كنانية: أى أنها من بنى كنانة، يريد صاحبته التي رحلت. وبانت: رحلت وبعدت. مجاورة غسان: لعله يريد أنها رحلت إلى أرض الغساسنة في بلاد الشام، وكأنه يريد أن يربط بين رحلتها ورحلته. وبعض الشراح يذهبون إلى أن غسان اسم ماء. ويعمر: فرع من كنانة، ولعله يريد أنهـا رحلت مع قومها كنانة في رحلة من رحلات القبائل التي لا تهدأ على مدار فصول السنة. وفي الصدر ودها: يقول إنه لا يزال على حبه لهـا محتفظا به في قلبه على الرغم من بعدها عنه.

٣ بِعَيْنَيَّ ظُعْنُ الحيِّ لمّا تحمَّلوا ... لدى جانبِ الأفلاجِ مِن جَنْبِ تَيْمَرا

٤ فشبَّهتُهم في الآلِ لمّا تكمَّشوا ... حدائقَ دَوْمٍ أو سَفِينا مُقَيَّرا

٥ أو المُكْرَعاتِ مِن نخيلِ ابنِ يامِنٍ ... دُوَيْنَ الصَّفا اللائى يَلِينَ المُشَقَّرا

٦ سَوامِقَ جَبّارٍ أثيثٍ فُروعُه ... وعالَيْنَ قِنوانًا من البُسْرِ أحمَرا

٧ حَمَتْه بنو الرَّبداءِ مِن آلِ يامِنٍ ... بأسيافهمْ حتى أقَرَّ وأوقَرا

٨ وأرضَى بنى الربداءِ واعتمَّ زَهْوُه ... وأكمامُهُ حتى إذا ما تَهَصَّرا

(٣) الظعن : المسافرون على الإبل . وقوله « بعينىّ » يريد أنه تتبعهم بنظراته يودّعهم وهم خارجون فى رحلتهم البعيدة . وتحملوا : شدوا الأحمال على إبلهم ورحلوا . والأفلاج : جمع فلج وهو الماء الجارى من العين ، أو هى جداول الماء . وتيمر : موضع .

(٤) الآل : السراب . وتكمشوا : أسرعوا فى السير . والدوم : الشجر المعروف ، وهو يشبه النخل فى طوله . والمقير : الذى طلى بالقار . يشبه قافلة الظعائن المندفعة فى أعماق الصحراء — والسراب يرفعها ويخفضها فى حركته الخداعة — بحدائق الدوم المرتفعة فى السماء ، ويشبهها مرة أخرى بالسفن التى تم إمدادها للبحر ، فاندفعت فيه تحملها أمواجه تارة وتخفضها تارة أخرى .

(٥) المكرعات : النخل التى غرست فى الماء ، فهو يسقيها دائما ، وهى لهذا تنمو وتطول . وآل يامن : قوم من هجر على ساحل الخليج ، وهجر أكثر مناطق الجزيرة العربية نخلا ، وفى المثل العربى « كحامل التمر إلى هجر » . والصفا والمشقر : قصران باليمامة . يشبه القافلة مرة أخرى بنخل هجر .

(٦) السوامق : المرتفعة ، صفة للنخل . والجبار : الطويل الذى فات الأيدى . والأثيث : الملتف . والقنوان : عذوق النخل . والبسر : ما احمرّ من البلح . وقوله « عالين قنوانا » يريد أن هذه النخيل السامقة تعلوها عذوق احمرّ فيها البلح . يستمر الشاعر فى تشبيهه فيشبه الهوادج التى توشيها قطع الصوف الملونة بهذه النخيل العالية المثمرة .

(٧) بنو الربداء : هم الذين يقومون على حراسة هذا النخل ، ويقول الرواة إنهم من الحبشة ، ويقولون أيضا إنهم من البحرين . وقوله « حتى أقر وأوقرا » أى حتى استقر على حاله من النضج واكتمل له ما يحمله من بلح . والبيت استمرار فى وصف هذا النخل الذى يشبه به هوادج الظعائن .

(٨) اعتم : تم واكتمل . والزهو : البسر الأحمر والأصفر . والأكمام : أغلفة البسر عند خروجه من قلب النخلة . وتهصر : تدنى وتدلى لكثرته . والبيت استمرار لصورة النخل الذى يشبه به القافلة .

٩ أطافتْ به جَيْلانُ عندَ قِطاعِهِ ... تَرَدَّدُ فيه العينُ حتى تَحَيَّرا

١٠ كأنّ دُمَى سَقْفٍ على ظهرِ مَرْمَرٍ ... كَسا مُزْبِدَ السَّاجُومِ وَشْياً مُصَوَّرا

١١ غرائرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمةٍ ... يُحَلَّيْن ياقوتا وشَذْرا مُفَقَّرا

١٢ وريحَ سَناً فى حُقَّةٍ حِمْيَرِيّةٍ ... تُخَصُّ بمَفْروكٍ من المسك أذفرا

١٣ وبانًا وأُلْوِيًّا من الهندِ ذاكيًا ... ورَنْدًا ولُبْنَى والكِباءَ المُقَتَّرا

(٩) جيلان : قوم كان كسرى يرسلهم عمالا له على هذه المنطقة ليتولوا جنى هذا النخل ، وربما جباية مفروضة على القبائل النازلة فيها ، وربما كان هذا النخل ملكا لكسرى كما يذكر بعض الرواة . والقطاع : جنى النخل . ومعنى الشطر الثانى أن هذا النخل يشد الناظر إليه إعجابا به فيظل بصره يتردد فيه حتى يتحير لكثرة ما يراه من ألوان الجمال فيه . والبيت جواب الشرط المذكور فى البيت السابق .

(١٠) يعود الشاعر فى هذا البيت إلى وصف الظعائن المسافرات . سقف : دير بالشام . والساجوم : اسم نهر . والمزبد : الذى يعلو الزبد أمواجه المتلاطمة . يشبه صاحباته المسافرات بتماثيل هذا الدير ، ويشبه السراب الذى يخترقن بحاره الوهمية بهذا الزبد الذى يتراءى له مرمرا ينتشر فوق أمواج النهر المتلاطمة نقوشا مصورة متعددة الأشكال .

(١١) الغرائر : جمع غريرة ، وهى الصغيرة التى لم تكتسب تجربة الحياة . والكن : الحفظ . والشذر : قطع الذهب . والمفقر : الذى صيغ على هيئة فقرات الظهر . يصف صاحباته بأنهن أرستقراطيات مصونات منعمات ، يتحلين بعقود من الذهب والياقوت .

(١٢) السنا : نوع من الطيب . وحقة حميرية : يريد علبة من علب الطيب الخاصة بملوك اليمن . والمفروك : المسك الذى سحق فانتشرت رائحته . والأذفر : القوى الرائحة النفاذ العطر . يصف صاحباته بأنهن معطرات بأطيب أنواع العطور وأغلاها .

(١٣) البان والرند : أشجار طيبة الرائحة يستخدمها العرب فى بخورهم . والألوى : العود الهندى الذى يستخدم فى البخور أيضا . واللبنى : نوع من الطيب يستخدم فيه أيضا . والكباء : البخور . والمقتر : الذى انتشر دخانه عند مباشرة النار له . والبيت استمرار فى وصف ماينتشر من صاحباته من عطر نفاذ كأنه رائحة بخور يضم هذه الأعواد المختلفة الطيبة الرائحة .

١٤ غَلِقنَ برهنٍ من حبيبٍ به ادَّعتْ سليمى فأمسى حبلُهـا قـد تَبَتَّرا
١٥ وكان لها فى سالف الدهرِ خُلَّةٌ يُسارق بالطَّـرف الخبـاء المستَّرا
١٦ إذا نال منهـا نظـرةً رِيعَ قلبُه كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبوحِ المخمَّرا
١٧ نَزِيفٌ إذا قامت لِوجهٍ تمـايلتْ تُراشِي الفـؤادَ الرَّخْصَ ألا تَخَتَّرا
١٨ أأسمـاءُ أمسى ودُّها قـد تغـيَّرا سـنُبْدِل إنْ أَبدلتِ بالودِّ آخَرا
١٩ تذكَّرتُ أهلَ الصالحين وقد أتت على خَمَلَى خُوصُ الركاب وأَوجَرا

(١٤) غلقن برهن من حبيب : أى استولين على قلبه ، كأنما كان قلبـه رهنا عندهن فعجزعن فكاكه . وقوله « به ادعت سليمى » يريد أنها كانت تدعى فى أيامها الماضية أنها صاحبته ، ولكنها خانت العهد وتقطعت حبال المودة بينها و بينه .

(١٥) الخلة : الخليل . يؤكد المعنى الذى أشار إليه فى البيت السابق . يقول : كنت صديقا لهـا فى أيامنا المـاضية ، وكنت أسارق النظـر إلى خبائها الذى أرخى عليـه الستر ليحجبها عن عيون المتطلعين إليها .

(١٦) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . والمخمر : الذى أسكرته الخمر . يصف تأثيرها فى قلبه فيقول إن جمالها كان يروعه كلما نال نظرة منها كما تؤثر الخمر فى شاربها .

(١٧) النزيف : النشوان الذى ذهبت الخمر بعقله . وقوله « اذا قامت لوجه » يعنى اذا قامت متوجهة لأمر من الأمور . وتراشى الفؤاد : أى تداريه ، مأخوذ من الرشوة ، كأنها ترشو قلبها حتى لا يفضحها ويكشف أمرها . والرخص : اللين الرقيق . وألا تخـترا : أى ألا تفتر وتكسل . يقول إنها إذا قامت لحاجة لها تمايلت وتثنت كأنها سكرى ، فتحاول أن تتحامل على نفسها وتتكلف القوة حتى لا تفتر وتضعف فى مشيتها . يريد أنها بطيئة الحركة ، وهى سمة من سمات الأنوثة عند العرب .

(١٨) يقول إن كان ود أسماء قد تغـير ، وتنكرت للحب القديم الذى كان يجمع بيننا ، فسوف أستبدل بحبها حبا آخر ، وأبدأ بعدها عهدا جديدا .

(١٩) خملى وأوجر : موضعان ببـلاد الشام وصلت إليهما رحلتـه وهو فى طريقــه إلى قيصر . والخوص : الإبل التى غارت عيونها لشدة مالقيت من إجهاد الرحلة .

٢٠ فلما بدت حَوْرانُ فى الآلِ دونَها ... نظرتَ فلم تَنْظُرْ بعينيكَ منظرا

٢١ تَقَطَّعَ أسبابُ اللُّبانةِ والهوى ... عشيةَ جاوزنا حَماةَ وشَيْزَرا

٢٢ بسَيْرٍ يَضِجُّ العَوْدُ منه يَمُنُّهُ ... أخو الجَهدِ لا يُلوِى على منْ تعذَّرا

٢٣ ولم يُنسِني ما قد لقيتُ ظعائنا ... وخَمْلًا لها كالقَرِّ يوما مُخَدَّرا

٢٤ كأثْلٍ منَ الأعراضِ مِنْ دونِ بِيشةٍ ... ودون الغُمَيْرِ عامداتٍ لغَضْوَرا

* * *

٢٥ فَدَعْ ذا ، وعَدِّ الهمَّ عنكَ بجَسْرةٍ ... ذَمُولٍ إذا صام النهارُ وهَجَّرا

---

(٢٠) حوران : مدينة بالشام . والضمير فى « دونها » يعود على أسماء . ومعنى الشطر الثانى أنه نظر فلم ير منظرا يسره أو يعجبه . يصف شعوره وهو يستقبل رحلته نحو المجهول وقد باعدت البلاد بينه وبين أحبابه وأهله ، فتوارت عن عينيه كل مباهج الحياة التى خلفها وراءه فى وطنه البعيد .

(٢١) حماة وشيزر : مدينتان بالشام . واللبانة : الحاجة يتمنى الإنسان تحقيقها . يقول لم نكد نتجاوز هاتين المدينتين حتى أحسست أن كل أحلامى وأمانى قد تقطع ما بينى وبينها من أسباب .

(٢٢) العود : المسن من الإبل . ويمنه : يجهده ويرهقه ويضعفه . أخو الجهد : أى الذى يكلف راحلته فوق طاقتها . وقوله « لا يلوى على من تعذرا » يريد إنه ماض فى طريقه لا ينتظر من تخلف من رفاقه لأى عذر من الأعذار .

(٢٣) الخمل : مفرد الأخمال وهى أهداب الثياب . والقر : الهودج . ومخدر : أى جعل على هيئة الخدر ، صفة للخمل أو حال من القر . ويوما : متعلق بقوله « لم ينسنى » . يقول إن أهوال الرحلة ومشقات السفر لم تنسنى فى أى يوم من الأيام صاحباتى المسافرات وهوادجهن المزينة بقطع من الثياب الفاخرة تتهدل أهدابها من حولها .

(٢٤) الأثل : شجر طويل مرتفع . والأعراض : الوديان . وبيشة والغمير : موضعان بالجزيرة العربية يكثر فيهما الماء والشجر . وغضور : اسم الموضع الذى تقصده القافلة . وعامدات : قاصدات يشبه القافلة وهى تمضى فى رحلتها نحو غضور بأشجار الأثل العالية التى تنمو فى وديان بيشة والغمير .

(٢٥) الجسرة : الناقة النشطة الجريئة على الأهوال . والذمول : السريعة . وصام النهار : استقر وقت الظهيرة . وهجر : انتصف ، يشير إلى اشتداد الحر فى وقت الهاجرة . يبدأ الشاعر من هذا البيت وصف ناقته التى تحمله فى رحلته إلى قيصر ، وبعده خمسة أبيات رأينا أن نسقطها .

٢٦ عليها فتًى لم تحمــلِ الأرضُ مثلَه أبرَّ بميثـاقٍ وأوفى وأصــبرا
٢٧ هو المُنْزِلُ الآلافَ من جوِّ ناعطٍ بنى أسدٍ حَزْنًا من الأرض أوعَرا
٢٨ ولوشاء كان الغزوُ من أرضِ حِمْيَرٍ ولكنه عَمْـــدًا إلى الروم أنْفَـرا
٢٩ بكى صاحبي لمـا رأى الدَّرْبَ دونَه وأيقن أنّا لاحقانِ بقيصرَا
٣٠ فقلتُ له : لا تبكِ عينُـكَ ، إنما نحاول مُلْكًا أو نمـوتَ فنُعْـذَرا
٣١ وإنى زعــيمٌ إنْ رَجَعتُ مملَّكا بسَـيْرٍ ترى منـه الفُرانِقَ أَزْوَرَا
٣٢ على لاحِبٍ لا يُهْتَـــدَى بمنـارِهِ إذا سافَه العَـوْدُ النُّباطِىُّ جَرْجَرا

(٢٦) يتحدث هنا عن نفسه . ومن هذا البيت يبدأ حديث الرحلة .

(٢٧) جـو : أرض باليمامة . وناعط : جبل فى أرض همدان باليمن . والحـزن : الأرض الغليظة الوعرة . يفتخر بأنه أنزل بنى أسد من هـذا الجبل الحصين إلى منطقة وعرة خشنة فرارا أمامه وهربا منه .

(٢٨) أنفر : أى أنفر أصحابه للغزو . يقول : لو شئت لغزوتهم من أرض اليمن ، فأنا قادر على ذلك ، ولكنى تعمدت أن أتجه إلى قيصر الروم مبالغة فى الثأر منهم ، أو إعلانا عن مكانتى عنده .

(٢٩) يذكر الرواة أن صاحبه الذى صحبه فى هذه الرحلة هو عمرو بن قيئة الشاعر . والدرب هنا يريد به الممر الموصل إلى بلاد الروم .

(٣٠) أو هنا بمعنى حتى أو بمعنى إلا أن . يحاول هنا أن يرفع من روح صاحبه المعنوية ، ويشد من عزيمته ، ويضمه معه فى أعماق التجربة التى خرج من أجلها .

(٣١) زعيم : كفيل وضامن . والفرانق : الدليل ، وهى كلمة دخيلة ولعلها رومية . والأزور الذى يميل إلى أحد جانبيه من شدة السير . يقول : أنا كفيل إن رجعت من هـذه الرحلة ملكا على قومى ، واستعدت عرش أسرتى الضائع ، أن أسير فى طريق عودتى سـيرا شديدا يجعل الدليل يميل إلى أحد جانبيه من شدته . يبعث الأمل فى نفس صاحبه بأن عودتهما منتصرين إلى أرض الوطن ستكون سريعة ، وأنهما سيقطعان الطريق فى غير مبالاة بأى جهد أو مشقة .

(٣٢) اللاحب : الطريق . والمنار : ما يوضع على الطريق من علامة تهـدى المسافرين فيه . يريد أنه طريق غير مسلوك . مبالغة فى تصويرجرأته على اقتحام الصحراء . والعود : المسن من الإبل . وسافه : شمه . وجرجر : رغا وضج بصوته . والنباطى : الضخم ، منسوب إلى النبط ، ويذكر الرواة أن الإبل النبطية أشد الإبل وأصبرها على السير .

٣٣ على كلِّ مقصوصِ الذُّنابَى مُعاوِدٍ ... بَرِيدَ السُّرى بالليل مِن خيلِ بَرْبَرَا

٣٤ لقد أنكرتْنِي بَعْلَبَكُّ وأهلُها ... وَلَابنُ جُرَيجٍ فى قُرَى حِمصَ أنكرَا

٣٥ نَشِيمُ بروقَ المُزنِ أينَ مَصَابُهُ ... ولاشىءَ يَشْفِى منكِ يَابْنَةَ عَفْزَرَا

٣٦ مِن القاصراتِ الطَّرفِ لودَبَّ مُحْوِلٌ ... مِن الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ منها لَأَثَّرَا

٣٧ له الويلُ إنْ أمسَى ولا أُمُّ هاشمٍ ... قريبٌ، ولا البَسْبَاسةُ ابنةُ يَشْكُرَا

* * *

(٣٣) الذنابى : الذنب ، ومقصوص الذنابى : صفة الفرس ، ويذكر الرواة أن خيل البريد تكون مقصوصة الأذناب . ومعاود بريد السرى : يريد أنه قد استعمل فى سير البريد مرة بعد مرة . وبربر : قبيلة ، ويذكر الرواة أن خيلها كانت أصلب الخيل وأصبرها عند العرب ، ولذلك استخدموها فى البريد . من هنا يبدأ وصفه للفرس ، وبعده ثلاثة أبيات رأينا أن نسقطها .

(٣٤) بعلبك : هى المدينة المعروفة بالشام ، وكذلك حمص . وابن جريج : رمز لسكان الشام من الروم ، وجريج تعريب للاسم الأجنبى « جورج » . يصف غربته فى بلاد الشام التى وصل إليها فى طريقه إلى بلاد الروم .

(٣٥) شام البرق : نظر إليه ليعلم أين يقع مطره . والمزن : السحب . ومصاب المزن : مواقع سقوط مطره . وابنة عفزر : إحدى صاحباته . يصور حنينه إلى حبه القديم ، ويخلع هذا الحنين على الطبيعة ، فيتمنى لو سقط المطر فى ديار حبيبته ، رمزا لما يتمناه لها من خير ، وما يحمله فى قلبه من حب لها .

(٣٦) القاصرات الطرف : المخلصات لأصحابهن اللاتى يقصرن نظرهن عليهم ، ولا تطمح أعينهن إلى غيرهم . والمحول : الذى بلغ سنة من عمره . والذر : النمل . والإتب : قميص رقيق لا أكمام له تلبسه المرأة . يصف رقة بشرتها ونعومة جلدها . وقد أنكر عليه بعض الشراح وصفه الذر بأنه محول ، وقالوا الأحسن أن يكون الصغير منه ، ولكن امرأ القيس من مدرسة الطبع التى تمتاز بالواقعية والبعد عن التكلف والمبالغة .

(٣٧) له الويل : يريد نفسه ، على أسلوب الالتفات . وأم هاشم وبسباسة صاحبتان له . يصور أحزانه لبعدهما عنه .

٣٨ أرى أمَّ عمرٍو دمعُها قد تحدَّرا ... بكاءً على عمرٍو وما كان أصْبَرَا

٣٩ إذا نحن سرنا خمسَ عَشْرةَ ليلةً ... وراء الحِسَاءِ مِنْ مَدَافِـعِ قيصرا

٤٠ إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رَضِيتُه ... وقَرَّتْ به العينانِ بُدِّلْتُ آخَرا

٤١ كذلك جَدِّى ، ما أصاحِبُ صاحباً ... مِن النـاسِ إلا خانني وتَغَيَّرا

* * *

(٣٨) أم عمرو هى أم عمرو بن قميئة رفيقه فى رحلته . يتخيل حزنها على بعد ابنها عنها ، و يذكر لم يكن أشد صبرا منها ولا أكثر تماسكا . يشير الى بكائه « لما رأى الدرب دونه » .

(٣٩) الحساء : جمع حسى وهو الماء يفور تحت الرمل الى أرض صلبة قريبة من الأرض فيستقر فوقها . ومدافع قيصر : مناطق الحدود التى يدافع عنها .

(٤٠) يصف تقلب الدهر به ، وتغير الزمن عليه ، و يشكو قلة وفاء الأصدقاء له ، فكلما ارتضى صديقا له ، واطمأنت نفسه إليه ، وقرت عينه به ، تنكر له وتبدل ، وخان العهد ، وأدار ظهره للصداقة التى كانت تربطه به .

(٤١) الجد : الحظ . إنه حظه فى الحياة ، وقدره فى الدنيا ، خيانة الأصدقاء ، وتغير القلوب ، وجحود الود والحب والإخلاص . إنها شكوى تعكس مرارة هذه المرحلة التى يمر بها الشاعر فى حياته ، وما يلقاه فيها من أصدقائه فى وقت كان أحوج ما يكون فيه حاجة إليهم ، ووقوفا منهم إلى جانبه فى أيام محنته .

* * *

يوسف خليف

(٦)

نهـاية المَطَاف

هـذه القصيدة من شعر امرئ القيس الثـابت الصحيح ، فهى من رواية الأصمعى . وهى من نتاج المرحلة الثـانية من حياة الشاعر ، ولعلها من أواخر نتاج هذه المرحلة ، فحـديث الموت والمصير الذى يسيطر عليها يعكس ما كان يملأ نفس الشاعر فى أواخر هذه المرحلة من اليأس المظلم ، والتشاؤم القاتم ، والتفكير الحزين فى مصير الإنسان فى الحيـاة ، والنهاية التى تصل إليها رحلته فيها ، والتى لا يعرف عنها شيئا إلا أن الموت يقف على بابهـا ، يستقبل من تصل به رحلته إليها ، لتدفع به بعـد ذلك إلى غيب مجهول . ومع ذلك فرحلة الحياة متواصـلة الخطى لا تتوقف ، وكأنما تَسْحَرنا الحياة بحاجاتها ومطالبهـا التى لا تنتهى ، وتلقى على أعيننا ستارا صفيقا يحجب عنا رؤية المصير المحتـوم الذى ينتظر الجميع . والقصيدة قصيرة تقع فى ثلاثة عشر بيتا .

* * *

١ أَرانا مُوضِعِين لأمرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشرابِ

٢ عصافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ ... وأَجْرَأُ مِنْ مُجَلِّحةِ الذئابِ

---

(١) موضعين : أى مسرعين . ونسحر بالطعام وبالشراب : أى نخدع ونغفـل ، كأنما سحرت أعيننا فلم تعد ترى الأمور على حقيقتها . يقول إننا فى هـذه الحياة مدفوعون دفعا سريعا الى غيب مجهول لا نعرفه ، ولكنه محتوم علينا لا مفر منه ، ومع ذلك فإننا نمضى فيها إلى حيث تمضى بنا ، غافلين عن هذا المصير المحتوم ، كأنما سحرتنا حاجاتنا الحيوية عن أن نراها على حقيقتها .

(٢) الذبان : الذباب . والمجلحة : المصممة التى لا ترجع عما تريد . يصور تناقص السلوك الإنسانى فى الحياة ، فنحن ضعاف فيها أقوياء عليها ، ضعاف فيها كهذه المخلوقات الضعيفة التى يذكرها فى صدر بيته ، ولكننا أقوياء عليها كتلك الذئاب الجريئة المندفعة التى يذكرها فى شطره الثانى .

٣ وكلُّ مكارمِ الأخلاقِ صارت إليـه هِمتِي وبه اكتِسابِى
٤ فبعضَ اللومِ ، عاذلتى ، فإنى ستكفِينِى التجاربُ وانتسابِى
٥ إلى عِرقِ الثرَى وَشَجتْ عروقى وهــذا الموتُ يَسْلُبُنى شبابِى
٦ ونفسِى ســوف يَسْلُبُهــا وجِرْمِى فيُلْحِقنى وَشِيكـا بالتراب
٧ ألم أُنْضِ المطِىَّ بكلِّ خَرْقٍ أَمَقِّ الطولِ لَمَّاعِ السَّراب
٨ وأركبُ فى اللُّهامِ المجْـرِ حتى أنالَ مآكِلَ القُحَـمِ الرِّغاب

(٣) يقول انه عاش حياته متمسكا بمبادئ لم يفقد إيمانه بها . لقد عاش حياته يسعى نحو اكتسابه كل ما يحرص على اكتسابه من مكارم الأخلاق .

(٤) « وانتسابى » يريد انتسابه الى آباء وأجداد كلهم الآن رهن التراب ، أدركهم المصير المحتوم الذى رآهم انتهوا إليه ، أما ما بعده فغيب مجهول لا يعرف عنه شيئا .

(٥) وشجت عروقى : اشتبكت واتصلت . يقول ان عروقه متصلة بعروق التراب الذى جاء منه ويعود إليه ، والموت فى انتظاره ليسلبه حياته وهو لا يزال فى مرحلة شبابه . فتشاؤم أثارته فى نفسه ظروفه التى يعيش فيها فى هذه المرحلة من حياته .

(٦) الجرم : الجسد . ووشيكا : سريعا . البيت استمرار لحديث التشاؤم الذى بدأه فى البيت السابق إنه يحس أن نهايته قريبة ، وأن الموت الذى يتربص بشبابه يتربص أيضا بنفسه وجسده ، وسينتهى به فى وقت قريب الى التراب .

(٧) أنضى المطية : أهزلها وأضناها لعنفه بها فى رحلاته المتصلة وأسفاره البعيدة فى أعماق الصحراء . والخرق : الفلاة تتراءى كأن لا نهاية لها . والأمق : الطويل ، وأمق الطول : مبالغة فى وصف طولها وامتدادها اللانهائى . يتحسر على أيامه الماضية ، أيام فتوته وجرأته على اختراق الصحراء ، حسرة أثارتها فى نفسه صورة الموت الماثلة أمامه .

(٨) اللهام : الجيش الكثيف الذى يخفى كل شىء وراءه كأنه قد التهمه . والمجر : الكثير العدد . والمآكل : الغنائم . والقحم : المواقف الصعبة الشديدة ، جمع قحمة ، يريد الحروب والغارات . والرغاب : البعيدة الغايات . استمرار فى تحسره على أيامه الماضية ، أيام الغارات والغنائم والانتصارات .

٩ وقد طَوَّفتُ بالآفاقِ حتى ... رضيتُ مِن الغنيمة بالإيابِ

١٠ أبعدَ الحارثِ الملِكِ ابنِ عمرٍو ... وبعد الخيرِ حُجْرٍ ذى القِبابِ

١١ أُرَجّى منْ صُروفِ الدهرِ لِينا ... ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضابِ ؟

١٢ وأعلمُ أنني عمّا قليلٍ ... سأَنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ ونابِ

١٣ كما لاقَى أبى حُجْرٌ وجَدّى ... ولا أنسَى قتيلاً بالكُلابِ

* * *

(٩) هذه هى نهاية المطاف . لقد قضى أيامه فى تطواف لا ينتهى فى آفاق الأرض الواسعة ، ثم كانت الغنيمة التى عاد بها لا شىء إلا العودة إلى حيث بدأ ، وإنه لا يملك إلا أن يرضى بها ، فما الذى يستطيع أن يفعله بعد كل ما فعل ؟ إنها رحلة الضياع ، وعودة الإخفاق واليأس .

(١٠) الحارث بن عمرو : جده . وحجر بن الحارث أبوه . والقباب لم تكن ترفع فى العصر الجاهلى إلا للملوك ، وكانت عادة من الجلد تمييزا لها من خيام الشعب التى تكون من الوبر .

(١١) صروف الدهر : أحواله المتقلبة . الصم : الصلبة التى تبدو كأنما صبت صبا . والهضاب : الصخور الراسية الضخمة . والبيت متصل بالبيت السابق ، وبينهما ما يسمى عند العروضيين بالتضمين ، وهو تعلق البيتين أحدهما بالآخر . يقول : أبعد هؤلاء الملوك ذوى القباب الفاخرة الذين بادوا وانقرضوا أنتظر عيشا يطيب لى أو حياة لينة مطمئنة ، والدهر متقلب لا يستقر على حال ، والفناء يتربص بكل ما فى الحياة حتى تلك الجبال الصم الصلبة الراسية ؟

(١٢) سأنشب : أى سأتعلق . والشبا : الحد . يقول : كيف أطمئن الى الحياة وأنا أعلم علم اليقين أن الموت سوف ينشب فىّ فى وقت قريب أظفاره الحادة وأنيابه القاطعة التى لا أستطيع الفكاك منها ولا الخلاص من قبضتها ؟

(١٣) قتيل الكلاب هو عمه شرحبيل بن عمرو قتل فى يوم الكلاب . إنه المصير المحتوم الذى سيدركه فى يوم من الأيام كما أدرك أباه وعمه وجده من قبل .

* * *

يوسف خليف

عَمْـــرو بن قَمِيئَـــة

شاعر جاهلى قديم ، كان معاصرا لحُجْر أبى امرئ القيس ، فلما خرج امرؤ القيس إلى قيصر بعـد مقتل أبيه صحبه عمرو فى رحلتـه ، وهو الذى يتحدث عنه فى رائيته التى نظمها فى هذه الرحلة « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا » . ينتهى نسبه إلى قيس بن ثَعْلبـة أحد بطون بكر بن وائل ، وكانت منازلهم باليمـامة فى الجنوب الشرقى من نجد .

وليس بين أيدينا إلا أخبار قليلة عنه لا تكاد ترسم صورة واضحة عن حياته . وتحدثنا الروايات أنه كان فى شبابه شابا جميلا حسن الوجه مديد القامة ، ولعـل ذلك هو الذى جعله من أهم الشعراء الذين بكوا شبابهم فى شـعرهم ، بل يذكر بعض الرواة أنه أول من بكى الشباب فى الشعر الجاهلى ، وإن كنا لا نطمئن إلى أمثال هذه الأوليات فى الأعمال الفنية . وتحدثنا الروايات أيضا أن أباه مات وخلّفه صغيرا فكفله عمه مَرْثد بن سـعد ، ثم حدثت جفوة بينه وبين عمـه يَرُدّ الرواة سببها إلى زوجة عمه ، ففارقه واتجه إلى الحـيرة ، واتصل بملوكها ، ثم عاد إلى أرض بنى أسد ، واتصل بحُجْر أبى امرئ القيس ، حتى إذا ما قُتِل حجر ، وخرج ابنه للثأر له ، وشدّ رحاله إلى قيصر، خرج معه . وتذكر الروايات أنه مات فى هـذه الرحلة ، فسمّاه قومه « عَمْراً الضائع » «لموته فى غُربةٍ فى غير أَرَب ولا مَطْلَب » — على حد عبارة الأغانى .

وعمرو أحد المعمَّرين، عُمِّر تسعين سنة فى بعض الروايات، وأَرْبَى على المائة فى روايات أخرى . وليس من اليسير تحديد تاريخ مولده أو وفاته ، وقد حاول بعض الباحثين المحدثين ذلك، فقدّر جرونباوم فى كتابه « دراسات فى الأدب العربى » أن تكون ولادته فى حوالى سنة ٤٨٠ للميلاد ، وقدرها لويس شيخو فى « شعراء النصرانية » بسنة ٤٦٩ ، وجعلتها الموسوعة العربية الميسَّرة سنة ٤٤٨ وقدّرت وفاته بسنة ٥٤٠، وهى التى قدّرها الزركلى فى « الأعلام » . وهى كلها محاولات لا يصل شىء منها إلى درجة اليقين ، ولكننا نستطيع أن نقول — ونحن مطمئنون — إنه ولد حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وتوفى حوالى منتصف السادس .

ويعده الأصمعى فى كتابه « فحولة الشعراء » من الفحول ، ويضعه ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » على رأس الطبقة الثامنة منهم . وشعره الذى وصل إلينا قليل . وقد وصلت إلينا نسخة مخطوطة من ديوانه قام بتحقيقها وطبعها الأستاذ حسن كامل الصيرفى بالقاهرة ، والأستاذ خليل إبراهيم العطية ببغداد ، وكان قد نشرها من قبل الأستاذ لايل فى لندن سنة ١٩١٩ .

* * *

يوسف خليف

(١)

يومُ الرحيل
ورحلة الوَداع

يبدأ الشاعر هذه القصيدة التى تتألف من ثمانية وعشرين بيتا بمقدمة يتحدث فيها عن طيف محبوبته الذى زاره فى نومه ، ثم يتذكر يوم رحيلها ، وما ذَرَفَه من دموع خلفها ، ويصف قافلة الظعائن المنطلقة فى أعماق الصحراء نحو منازل القبيلة الجديدة . ويقف طويلا أمام محبوبته يصف جمالها ، ويتغنى بحسنها ومفاتنها ، ثم ينتقل إلى الفخر بنفسه ، فيفتخر بالمجد والشجاعة والإباء والخطابة والجرأة على اقتحام الصحراء فى أيام القيظ المتلهبة وفى ليالى الظلام الموحشة الرهيبة .

* * *

١ نَأَتْكَ أمامةُ إلّا سُؤالاَ　　وإلاّ خيالاً يُوافِى خيالاَ

٢ يوافِى مع الليل ميعادَها　　ويأبَى مع الصبح إلا زِيَالا

٣ وقد رِيعَ قلبِى إذْ أعلَنُوا　　وقيل : أجَدَّ الخليطُ احتمالا

---

(١) نأتك : بعدت عنك . والخيال الأول هو طيف صاحبته . والخيال الثانى هو الشاعر الذى حوله الحب إلى خيال .

(٢) الزيال : الفراق . كأنه يأسف على مفارقة طيفها له عندما يشرق الصباح ، وكأنه يتمنى لو ظل الدهر ليلا متصلا لاصباح له .

(٣) الخليط : جماعة القبيلة التى أجمعت أمرها على الرحيل . والاحتمال : الرحيل . وأجد : اعتزم . يقول إن قلبه روع حين أعلنوا أنهم قرروا الرحيل .

٤ وحَثَّ بها الحاديانِ النَّجاءَ ... مع الصبح لما استثاروا الجِمالا
٥ بَوازِلَ تُحْدَى بأحداجِها ... ويُحْذَيْن بعد نِعالٍ نِعالا
٦ فلما نَأَوا سَبَقَتْ عَبرَتِى ... وأَذْرَتْ لها بعد سَجْلٍ سِجالا
٧ تراها إذا احتَثَّها الحاديا ... نِ بالخَبْتِ يُرقِلن سيرا عِجالا
٨ فبالظِّلِّ بُدِّلن بعد الهجيرِ ... وبعد الجِحالِ أَلِفْنَ الرِّحالا
٩ وفيهنَّ خَولَةُ زَيْنُ النسا ... ءِ زادت على الناسِ طُرًّا جَمالا
١٠ لها عينُ حوراءَ فى روضةٍ ... وتقرُو مع النَّهْتِ أَرْطَى طُوالا

---

(٤) النجاء : الإسراع . يصف بداية الرحلة . لقد أثاروا جمالهم من مباركها ، وبدأ الحاديان يحثانها على الإسراع مع إشراقة الصباح قبل أن ترتفع الشمس ، ويشتد الحر ، وتلتهب الرمال .

(٥) بوازل : جمع بازل ، وهى الناقة إذا استكملت سنتها الثامنة وظهرت أنيابها . والأحداج : جمع حدج وهو الهودج الخاص بالنساء . وقوله « ويحذين بعد نعال نعالا » يريد به أن هذه الابل لبست فى أخفافها رمال الصحراء بعد أن شدت عليها أحذيتها قبل الرحلة .

(٦) السجل : دلو الماء . يصف انهمار دموعه الغزيرة عندما تحركت بهم القافلة ومضت بعيدا فى رحلتها .

(٧) الخبت : الأرض المطمئنة الواسعة . ويرقلن : يسرعن .

(٨) الهجير : شدة الحر فى وقت الهاجرة عند انتصاف النهار . والحجال : الأماكن المخصصة للنساء داخل الخيام . يقول إن هؤلاء المسافرات استبدلن بالظل الذى كن ينعمن فيه هجير الصحراء ، وبالحجال الناعمة المريحة رحال القافلة القلقة الخشنة .

(٩) خولة : صاحبته ، وهى نفسها أمامة التى تحدث عنها فى مطلع القصيدة . وظاهرة تعدد الأسماء للمحبوبة الواحدة ظاهرة مألوفة فى الشعر القديم . وطرا : أى جميعا .

(١٠) الحوراء : صفة للظبية أو للبقرة الوحشية التى يشبه بها عيون صاحبته ، والحور : شدة بياض العين مع شدة سوادها ، وقد تغنى به الشعراء العرب كثيرا فى شعرهم . وتقرو : تقصد وتتبع . والأرطى : شجر من أشجار الصحراء يتردد ذكره كثيرا فى الشعر القديم . والطوال : الطويل المفرط الطول . يشبه عينى صاحبته بعينى ظبية أو مهاة تتتبع أشجار الأرطى ترعى أوراقها الخضر .

١١ وتُجرِى السِّـــواكَ على باردٍ   يُخَـال السَّيَال وليس السَّـيالا
١٢ كأن المُـدَام بُعَيْـدَ المَنَـامِ   عليهـا ، وتَسْقِيكَ عَذْبا زُلالا
١٣ كأنّ الذوائب في فرعِهـا   حِبـال تُوَصَّـلُ فيهـا حِبـالا
١٤ ووجهٌ يُحَـار له النـاظرون   يَخَالونهـمْ قـد أَهَـلُّوا هِـلالا
١٥ إلى كَـفَلٍ مثـل دِعْصِ النَّقَـا   وكفٌّ تُقَلِّبُ بيضًـا طِفَـالا
١٦ فبـانتْ ومانِلتُ مِن وُدّهـا   قِبَـالًا ولا ما يُسَاوِى قِبَـالا
١٧ وكيف تُبُتِّين حبـلَ الصفـا   ءِ مِن ماجدٍ لا يريدُ اعـتزالا
١٨ أراد النَّـوالَ فمنيَّتِـهِ   وأضحى الذى قلت فيـه ضَـلالا
١٩ فـتًى يبتَنِى المجـدَ مِثـل الحسا   مِ أخلصه القَـيْنُ يوما صِقـالا

---

(١١) السيال : شجر من فصيلة الصفصاف ناعم الأغصان يظهر عليـه شوك أبيض صغير إذا نزع خرج منه مثل اللبن ، يشـبه به العرب الأسنان فى صغرها و بياضها ، يقولون « ثغر كشوك السيال » .

(١٢) المدام : الخمر . يشبه رضاب ثغرها حتى بعد نومها بالخمر ، و يذكر أنها تسقى صاحبها منـه عذبا زلالا لذيذ الطعم .

(١٣) الذوائب : الضفائر . والفرع : الشعر .

(١٤) أهلوا هلالا : أى استقبلوا الهلال . يصف وجهها بأن من ينظر إليه يحار فى جماله و يخيل اليه أنه يرى فيه الهلال .

(١٥) الكفل : الأرداف . والدعص : الكثيب . والنقا : الرمـل . والطفال : الأصابع الرخصة الناعمة ، جمع طفل وطفلة .

(١٦) بانت : رحلت . والقبال : الشىء القليل اليسير ، وأصـله من قبال النعل وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتى تليها . يقول إنها رحلت ولم ينل من حبها شيئا .

(١٧) بت الحبل : قطعه ، كناية عن هجرها له . والمـاجد هنا يريد به نفسه .

(١٨) معنى الشطر الثانى أن ما منته به صاحبته من نوال تحول كله إلى ضلال لا يعرف وجه الهداية معه فى تيه الهجر والقطيعة .

(١٩) القين : الحدّاد . يفتخر بأنه قاطع مثل الحسام الذى أتقن القين صقله .

٢٠ يقود الكُماة ليلقَى الكماةَ ينازِل ما إنْ أرادوا النزالا

٢١ ويأبَى لىَ الضيمَ ما قد مضى وعند الخصام فنعلُو جدالا

٢٢ بقولٍ يَذِلُّ له الرائضونَ ويَفْضُلهمْ إنْ أرادوا فِضالا

٢٣ وهاجرةٍ كأُوارِ الجحيم قَطعْتُ إذا الجُنْدُبُ الجَوْن قالا

٢٤ وليلٍ تَعسَّفتُ ديجُورَه يَخاف به المُدْلجون الخَبالا

* * *

(٢٠) الكماة : الأبطال . يفتخر بشجاعته فى ساحات القتال وقيادته لأبطال قومه ينازل بهم أبطال أعدائهم .

(٢١) يفتخر بإبائه الضيم ورفضه الهوان ، وبارتفاع الصوت والاستعلاء على خصومه فى مواقف الخصام والجدال . يريد أنه يفوق الخطباء بفصاحته .

(٢٢) البيت استمرار لفخره بفصاحته وتفوقه على من يقف منه موقف المنافسة ممن ألفوا مواقف الخطابة وروضوا أنفسهم عليها .

(٢٣) الهاجرة : الصحراء فى وقت الهجير . والأوار : اللهيب . والجندب : ذكر الجراد . والجون هنا : الأسود . وقال : من القيلولة ، وهى نومة منتصف النهار عندما يشتد الحر . يفتخر بصبره على اختراق الصحراء فى ساعات الحر الملتهبة .

(٢٤) تعسفت : سرت على غير هداية . والديجور : الظلام الحالك . والمدلجون : الذين يواصلون السير طول الليل . والخبال : الهلاك . يفتخر بجرأته على اختراق الصحراء فى الليالى الموحشة الحالكة الظلام .

* * *

يوسف خليف

(٢)

يائيّـــة نادرة

مجلسُ شرابٍ ، ورحلةُ صيدٍ

تدور هـذه القصيدة التى تبلغ اثنين وثلاثين بيتا حول محورين أساسيين : وصف لمجلس شراب ، ووصف لمنظر صيد . وهى تبدأ بمقدمة طللية قصيرة ، يخرج منها الشاعر إلى وصف مجلس الشراب ، ثم ينتقـل منه على ظهر ناقته التى يشبهها بحمارٍ وحشىّ إلى وصف منظر الصيد الذى يدور بين صياد فقير وقطيع من الأتن الوحشية يسوقها هـذا الحمار ، وينتهى بنجاة القطيع وعودة الصـياد مخفقا إلى زوجته وأولاده الجياع المنتظرين عودته بطعامهـم . وقافيـة القصيدة التى تتخذ من حرف الياء المشددة الممدودة رويًّا لها من القوافى النادرة فى الشعر الجاهلى .

* * *

١ غَشِيتُ منازِلا مِن آلِ هنـدٍ قِفـارا بُـدِّلَتْ بعـدِى عُفِيَّا

٢ تُبِـينُ رمادَها ومَخَـطَّ نُؤْيٍ وأشعثَ ماثِـلا فيهـا ثَوِيًّا

---

(١) عفيا : أى عافية دارسة . وبدلت بعدى : تغيرت عن سابق عهدى بها .

(٢) تبـين : أى تستبين ، والفاعل « أنت » يريد الشاعر نفسه . ومخط نؤى : أى مخطوط النؤى الباقية على الرمال ، والنؤى : خندق يحفر حول الخيمـة ليحميها من الماء أن يتسرب إليها ومن هوام الصحراء أن تزحف إلى داخلها . والأشعث : الوتد الذى تشد إليه حبال الخيمـة . وماثلا : قائما . وثويا : ثابتا فى موضعه . يصف أطلال صاحبته ومابقى من آثارها : الرماد والنؤى والأوتاد .

٣ فكادت مِن معارفِها دموعى … تُهِمُّ الشأنَ ثم ذكرْتُ حيّاً
٤ وكان الجهلُ لو أبكاكَ رسمٌ … ولستُ أُحب أنْ أُدعَى سَفِيّاً

* * *

٥ ونَدْمانٍ كريم الجَدّ سَمْحٍ … صَبَحْتُ بسُحْرةٍ كأساً سَبِيّاً
٦ يحاذِر أن تُباكِرَ عاذلاتٌ … فيُنْبَأ أنه أضحى غَوِيّاً
٧ فقال لنا : ألاَ هل مِن شِواء ؟ … بتعريضٍ ، وما يَكْنِيه عِيّاً
٨ فأرسلتُ الغلام ولم أُلبِّثْ … إلى خيرِ البوائِك توهَرِيّاً
٩ فناءتْ للقِيام لِغيرِ سَوْقٍ … وأَتبعَها جُرازا مَشْرفِيّاً

(٣) الشأن : مجرى الدموع إلى العين . وتهم الشأن : أى تدفع الدموع إلى الانهمار . وقوله « ثم ذكرت حيا » يريد أنه رجع إلى نفسه وتماسك من أن ينهار .

(٤) السفى : الطائش الخفيف ، من السفا وهو الخفة والطيش . يقول إنه رجع عن بكائه وتماسك بعد أن أوشك على الانهيار حتى لا يتهم بالجهل والطيش والنزق ، وهى صفات لا يرضاها لنفسه .

(٥) صبحت : سقيته خمر الصباح . والسحرة : وقت السحر . والسبى : صفة للخمر ، وهى التى حملت من بلدة أخرى فكأنها قد سبيت . يصف نديمه على الشراب بأنه كريم الأصل سمح الخلق ، ويذكر أنه سقاه فى وقت السحر خمرا طيبة مستوردة .

(٦) يذكر أنه اختار وقت السحر قبل أن تصحو العاذلات فيلمنه على غوايته .

(٧) وما يكنيه : أى لم يكتمه فى نفسه . يريد أنه عرض بطلب شواء يستمتعان به على الشراب ، ولم يصرح به ، لا عن عى منه ولكن بسبب فعل الخمر به وعقدها لسانه .

(٨) الغلام هنا : الخادم . ولم ألبث : لم أؤخره . والبوائك : جمع بائك وهى الناقة الفتية الصغيرة السن ، والتوهرى : السنام الطويل .

(٩) ناءت للقيام : يريد أنها ناقة سمينة تنوء بسمنها عند القيام . وقوله « لغير سوق » يريد أنها لم تقم ليسوقها الغلام وإنما لينحرها . والجراز : السيف القاطع . والمشرفى : الجيد الصنع ، نسبة إلى المشارف ، وهى قرى بالشام كانت مشهورة بصناعة السيوف فى العصر الجاهلى .

١٠ فظـلّ بنعمـةٍ يُسْـعَى عليـه ... وراح بهـا كريمـا أَجْفَليّا

* * *

١١ وكنتُ إذا الهمـوم تَضَيَّفتني ... قَـرَيْتُ الهـمَّ أهـوجَ دَوْسَرِيّاً

١٢ بُوَيزِلَ عامِـهِ مِرْدَى قِـذافٍ ... على التأويب لا يشـكو الوُنِيّـا

١٣ يُشـيحُ على الفَـلاةِ فيعتليهـا ... وأَذرَعُ ما صَـدَعْتُ به المطيا

١٤ كأنى حين أزجُـرُه بصوتى ... زَجرتُ به مُـدِلاًّ أَخْدَرِيا

١٥ تَمَهَّـلَ عانةً قـد ذَبَّ عنهـا ... يكون مَصامُهُ منهـا قَصـيّاً

(١٠) يصف قيام الغــلام على طعام نديمه و إكرامه والعناية به ، ويذكر أن نديمه كريم أيضا . والأجفلى : الكريم الواسع الكرم ، نسبة إلى الجفلى والإجفلة وهى الجماعة ، ومنه قول طرفة :

نحن فى المشـتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقـر

يريد أن الدعوة عامة للناس جميعا لا يستثنون منهم أحدا .

(١١) تضيفتنى : نزلت ضيوفا على . وقريت الهم : قدمت له القرى وهو طعام الضيافة . والأهوج : المندفع فى جراءة لا يبالى شيئا ، صـفة للجمل الذى يرحل عليـه . والدوسرى : الضخم الشديد . يقول إن الهموم إذا نزلت ضيوفا عليه قدم لها حقوق ضيافتها رحلة على هـذا الجمل القوى الجسوى ، ينطلق فيها إلى أعماق الصحراء .

(١٢) البويزل : تصغير البازل وهو الجمل المسن الذى ظهرت أنيابه . المردى : الحجر يرمى به . والقذاف : القذف . ومردى قذاف : كناية عن صبره على مشقات السفر وأهوال الرحلة . يصف جمله . والتأويب : مواصلة السير طول النهار . والونى : التعب .

(١٣) يشيح على الفلاة : يجد عليها . وأذرع : أسبق . وصدعت به : يريد قطعت به الصحراء . والمعنى أنه يسبق الإبل الأخرى التى ترافقه فى الرحلة .

(١٤) المدل : الواثق من نفسه . والأخدرى : الحمار الوحشى ، يشبه جمـله به . وتشبيه الناقة أو الجمل بالحمار الوحشى كثير فى الشعر الجاهلى ، ووجه الشبه القوة والصبر والتحمل .

(١٥) تمهل : ساقها أمامه متمهـلا . والعانة : قطيع الأتن الوحشية . ذب عنها : دافع عنها . والمصام : المقام . والقصى : البعيد . يصف قطيع الأتن الوحشية بأن ذكرها يسوقها متمهلا ، ويدافع عنها ، ويتخذ موقفه بعيدا عنها ، ليراقبها ويراقب الفضاء من حولها ، حتى لا يفاجئها خطر من أى ناحية .

١٦ أطالَ الشَّدَّ والتقريبَ حتى ذَكَرْتُ به مُمَرًّا أَنْدَرِيَّا
١٧ بها فى روضةٍ شهرَىْ ربيع فساف لها أديما أدلصيّا
١٨ مُشيحا هل يَرَى شبحا قريبا ويوفى دونها العَلَمَ العليّا
١٩ إذا لاقى بظاهرةٍ دَحِيقا أَمَرَّ عليهما يوما قَسِيّا
٢٠ فلما قَلَّصتْ عنه البقايا وأعوزَ من مراتعه اللَّوِيَّا
٢١ أرنَّ فصكَّها صخبٌ دَؤُولٌ يَعُبُّ على مناكبها الصَّبِيَّا

(١٦) الشدّ : العدو . والتقريب : الإسراع برفع اليدين معا ووضعهما معا . والممر : الحبل الشديد الفتل ، من أمر الحبل إذا أحكم فتله . والأندرى : المنسوب إلى أندرين وهى قرية من قرى الشام ، وهى التى تحدث عنها عمرو بن كلثوم فى مطلع معلقته ، يشبه به الحمار الوحشى فى ضموره و إحكام خلقه وتوثيق بنيانه .

(١٧) ساف : شم . والأديم : الجلد ، يريد به ظهر الأرض . والأدلصى : الذى ظهر نباته الجديد ، وأصله صفة للحمار إذا نبت له شعر جديد . والضمير فى «بها» يعود على قطيع الأتن الوحشية . يقول إن هذا الحمار أسرع بإناثه إلى روضة خصبة أخذ يتشمم أرضها التى أخذ نباتها ينمو ، ليطمئن إلى جودة مرعاها .

(١٨) مشيحا : أى أنه يدير بصره فى الفضاء المحيط به . والشبح : الشخص . والعلم : المكان المرتفع . والعلى : العالى . و يوفى دونها : أى يصل قبلها ، والضمير فيها يعود على الأتن .

(١٩) الظاهرة : ما ارتفع وظهر على الأرض . والدحيق : الحمار المطرود المبعد عن الأتن . والقسى : الشديد القاسى . يريد أن يوما شديدا من الصراع قد بدأ بين الذكرين للظفر بهذه الإناث .

(٢٠) البقايا : يريد بها بقايا الماء . وقلصت عنه يريد أن بقايا الماء أخذت فى الجفاف . واللوى : النبات أخذ فى الجفاف و إن بقيت فيه بقية من الماء . وأعوزه اللوى : أى احتاج إليه ، والضمير فيه يعود على الحمار الوحشى . يصف بداية جفاف المرعى الذى نزل به هذا القطيع تمهيدا لرحلته عنه بحثا عن مرعى جديد .

(٢١) أرن : صاح ومد صوته . وصكها : ضربها ضربا شديدا . والدؤول : الشديد النشاط . والصبى هنا : طرف اللحيين وهما منابت الشعر على الخدين والذقن . و يعب على مناكبها الصبيا : أى يجعل أطراف لحييه على ظهورها . يقول إن هذا الحمار أخذ يسوق إناثه سوقا عنيفا ، فد صوته صائحا بها ، وراح يضربها ضربا شديدا ، و يغمزها فى مناكبها بأطراف لحييه .

٢٢ فأوردها على طمْــلٍ يمانٍ يُهَــلِّ إذا رأى لحماً طريّاً

٢٣ له شِريانةٌ شَــغَلَتْ يديه وكان على تَقَــلُّدِها قويّا

٢٤ وزُرقٌ قــد تنخّلها لِقُضْبٍ يُشَــدُّ على مَنَاصِبِها النَّضِيا

٢٥ تَرَدّى بُرْأَةً لمــا بنــاها تَبَــوّأ مقعــداً منهــا خَفِيا

٢٦ فلمــا لم يَرَيْنَ كثيرَ ذُعْرٍ وردنَ صواديًا وِرْدًا كَمِيّا

٢٧ فأرســل والمَقَــاتلُ مَعْــوراتٌ لِمــا لاقتْ ذُعافــا يَثْرِبِيّــا

٢٨ فخَــرَّ النصلُ مُنْقَعِصا رثيا وطار القِدْح أشــتاتا شَــظِيا

٢٩ وعضَّ على أنامــله لَهِيفــا ولاقى يومــه أسَــفا وغَيّا

---

(٢٢) الطمل : الفقير ، ويهل : يهلل فرحا . يصور الصياد المتربص بها ، ويقول إنه صياد فقير من أهل اليمن ، ينتظر فى لهفة صيدا سمينا ، وتمتلىء نفسه بالفرحة كلما رآه .

(٢٣) الشريانة : القوس تتخذ من الشريان وهو شجر تصنع منه القسى .

(٢٤) الزرق : النصال المجلوة المصقولة . وتنخلها : تخيرها . والقضب : القــداح التى تركب فيها النصال . ومناصبها : أعاليها . والنضى : السهم . يصف فى البيتين هذا الصياد وما أعده من قوس وسهام خرج بها ليضمن ظفره بالصيد الذى خرج وراءه .

(٢٥) البرأة : الحفرة التى يعدها الصياد ليختبىء فيها . وترداها : دخل فيها واختبأ فى داخلها .

(٢٦) صواديا : عطاشا . وكميا : خفيا . يقول إن هذه الأتن حين اطمأنت ولم تجد ما يخيفهــا مضت إلى ماء بعيد خفى فى جوف الصحراء لتطفىء ظمأها .

(٢٧) فأرسل : يريد أن الصياد أرسل سهما نحو القطيع . ومعورات : مكشوفات . والذعاف : السم القاتل ، يريد السهم . واليثربى : نسبة إلى يثرب ، ولعــله يريد أنها من صناعه يهــود يثرب ، وكانوا فى العصر الجاهلى يحترفون صناعة الأسلحة . وذعافا مفعول به لأرسل ، والجملة بينهما اعتراضية .

(٢٨) منقعصا : ملتويا . ورثيا : مخضبا بالدماء . وشظيا : متكسرا .

(٢٩) وعض على أنامله : كناية عن الندم . يريد أن الصياد أخفق فى إصابة القطيع .

٣٠ وراح بحِرَّةٍ لهفاً مُصابا ... يُنَبِّئُ عِرسَه أمرا جَليا
٣١ ولو لُطِمَتْ هناك بذاتِ خَمْسٍ ... لكانا عندها خِتنَينِ سِيّاً
٣٢ وكانوا وانقَين إذا أتاهمْ ... بلحم إنْ صباحاً أو مُسيّاً

* * *

---

(٣٠) الحرة : شدة العطش ، يريد بها الغيظ الذى ملأ نفسه حين رأى سهامه تطيش . وعرسه : زوجته . يصور عودة الصياد خائبا إلى زوجته .

(٣١) الختنان : المثلان . وسيا : أى سواء . وذات الخمس هى الكف . والضمير فى « كانا » يعود على اللطمة وعلى خيبة زوجها . يقول إن عودته خائبا إلى زوجته كانت بمثابة لطمة على وجهها .

(٣٢) الضمير فى « كانوا » يعود على أولاده . يصور ضياع أملهم فى عودة أبيهم بلحم الصيد الذى خرج من أجله ، والذى كانوا على ثقة من عودته به فى أى وقت من الليل أو النهار .

* * *

يوسف خليف

(٣)

طعنةٌ غير طائشةٍ

من بواكير قصائد المدح فى الشعر الجاهلى هـذه اللامية لعمرو بن قميئة ، وهو يستهلهـا بعرض موقف غزلى طريف يتعلق فى جانب منه بتجـربة الشيب وآلامها ، وفى جانب آخر بمشهد الظعينـة وما تتركه فى نفسـه من آلام الهوى وحسرة الفراق معًا .

وعلى عادة شـعراء العصر راح عمرو يدعو لصاحبته ويدعو لديارها ، مسجلا من خلال ذلك الدعاء المزدوج حنينه إليها وحبه لها وإخلاصه فى تجربته .

ويطيل الشاعر فى عرض هـذا المشهد الذاتى الذى وزّعه بين حديث الغزل والشيب والظعن ، وبعـدها يؤثر الإيجاز فى حديث المـدح ، فيركز عدسـته على الملامح الكبرى التى رآها مميزة لممدوحه دون سواه ، فرآه فريدا فى شجاعته لا يكاد يُبارَى فيها أو يُنَازَع ، وشـغله من تلك الشجاعة فى الدلالة عليهـا ضربته النافذة التى لا تخطىء عدوه والتى كانت دافعًا لإعجاب الشاعر حيث راح يتغنى بهـا فى هذه اللامية .

* * *

١ هـل لا يهيِّـج شـوقَك الطلـلُ   أم لا يفـرِّط شـيخَك الغَـزَلُ

٢ أم ذا قطـينٌ صاب مقتـلَه   منـه وخانوه إذ احتمَلُوا

---

(٢) القطين : أهل الدار . و يقطن المكان يقيم فيه ، والقطين : الحشم والإماء والأتباع .

٣ ورأيتُ ظعنهمُ مقفّيةً … تعلو المخارمَ سيرُها رَمَلُ
٤ قَنَأُ العُهُونِ على حواملها … وعلى الرِّهاويات والكِلَلُ
٥ وكأنّ غِزلانَ الصَّريم بها … تحت الخدور يُظلُّها الظُّلَلُ
٦ تامت فؤادَك يوم بَيْنهمُ … عند التفرُّق ظبيةٌ عُطُلُ
٧ شَنِفَتْ إلى رَشَأ تُربِّبُهُ … ولها بذات الحاذ مُعْتَزَلُ
٨ ظِلٌّ إذا ضَحِيَتْ ومرتَقَبٌ … كيلا يكون لليلها دَغَلُ
٩ فسقى منازلها وحِلَّتَها … قَرِدُ الرَّباب لصوته زَجَلُ
١٠ أبدى محاسنه لناظره … ذاتَ العِشاء مُهَلَّبٌ خَضِلُ
١١ متحلِّب تَهوِى الجَنُوب به … فتكاد تعدِلُه وتجفِلُ
١٢ وضعت لَدَى الأصناع ضاحيةً … فهى السُّيوبَ وحُطَّت العجَلُ

(٣) المخرم : منقطع أنف الجبل . الرمل : ضرب من سير الإبل وهو السير السريع .

(٤) القنأ : الحمرة الشديدة . العهن : الصوف الأحمر القانى الداكن . الرهاويات : أكسية منسوبة الى الرها لشهرتها بها .

(٥) الصريم : رمال تنقطع من معظم الرمل .

(٦) تامت : ضللت . العطل : الخالية من الحلى ، دلالة على شدة جمالها دون حاجة إلى الحلى .

(٧) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو هى نظرة تشى بالاعتراض . تربيه : تربيه وتحرص عليه . الحاذ : نبات ، وسمى به موضع بنجد .

(٨) ضحيت : برزت .

(٩) الحلة : مجتمع القوم ، أو مكان معيشتهم . الرباب : نوع من السحب يطلق خاصة على السحاب الأبيض . القرد من السحاب : المتلبد بعضه على بعض .

(١٠) ذات العشاء : وقت العشاء . مهلب : كأن له هلبا من هيدبه ، والهيدب : الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة . الخضل : الرطب . واخضأل الشجر كثرت أغصانه وأوراقه .

(١١) متحلب : يتحلب بالمطر . ينجفل : ينقلع . وجفل الطين جرفه وجفل الشىء قشره .

(١٢) الأصناع : اسم موضع . ضاحية : ظاهرة بارزة . السيوب : مجارى المياه فى الأودية . العجل : جمع عجلة وهى المزادة . والعجلة بالكسر أيضا السقاء والدولاب .

١٣ فسقى امرأ القيس بن عَمْـرَة إنّ (م) الأكرمين لذكرهـمْ نَبَـلُ
١٤ كم طعنــةٍ لك غير طـائشـة ما إنْ يكونُ بجُـرحها خَالُ
١٥ فطعنتُهـا وضــربتَ ثانيــةً أخرى وتنزل إنْ هـمُ نزلوا
١٦ يهبُ المخَـاضَ على، غواربهـا زَبَدُ الفحول مَعانُهـا بَقِــلُ
١٧ وعِشَارها بعد المخـاض وقـد صافت وعـمَّ رِباعَهـا النَّفَـلُ
١٨ وإذا المجـزِّئ حانَ مشربه عنـد المصيف وسرَّهِ النَّهَــلُ
١٩ رشفُ الذّناب على جماجمهـا ما إن يكون لحوضهـا سَمَـلُ

---

(١٦) زبد الفحول على غواربها : أى يقرعها فيبق زبده على غواربها . معانها : الموضع الذى ترى به . بقل : فيه بقل .

(١٧) صاف القوم بمكان كذا : أقاموا فيه فى فصل الصيف . الرباع : جمع ربع . وهو الموضع يرتبعون فيه الربيع . النفل : الغنيمة والهبة .

(١٨) المجزىء : الذى كان يجزأ إبله بالرطب إذا اشتد عليها الحر .

(١٩) الذناب : جمع الذنوب وهى الدلو العظيمة . السملة : بقية الماء فى الحوض . وهو الماء القليل عامة .

* * *

عبد الله التطاوى

(٤)

المصيرُ المحتُوم

تدور هذه القصيدة حول فكرة المصير المحتوم الذى ينتهى إليه كل كائن حى فى هذه الحياة : الإنسان مهما يَطُلْ به الأجل ، والحيوان فى البر والبحر : التماسيح المتخفية فى لجج الأنهار ، والوعول المعتصمة فى قمم الجبال ، والثيران الوحشية المتأبدة فى أعماق الصحراء .

وهى تبدأ بمقدمة غزلية يصف فيها رحلة صاحبته مع قومها إلى أرضهم الجديدة ، ثم يتحدث عن كبره الذى أنكرته صاحبته عليه ، ويخرج من هذا الحديث إلى حديث المصير الذى تدور حوله القصيدة . والقصيدة قصيرة تقع فى ثلاثة عشر بيتا .

* * *

١ إنّ قلبى عن تَكْتُم غيرُ سالى تيَّمتنى وما أرادتْ وصالِى

٢ هل ترى عِيرَها تُجيز سِراعًا كالعَدَوْلِىِّ رائحًا من أُوالِ

(١) تكتم : اسم صاحبته ، وهو من الأسماء النادرة فى الشعر العربى . والبيت يوحى بما يعتزم الشاعر إثارته فى قصيدته من حديث الشيب والمصير . لقد تيمته صاحبته ولكنها لا تريد وصاله . إنه حب من طرف واحد .

(٢) العدولى : سفن منسوبة إلى قرية بالبحرين اسمها عدولى . وكانت البحرين فى العصر الجاهلى مركزا لصناعة السفن ، بحكم موقعها على الخليج واحتراف أهلها للملاحة . وأوال : جزيرة من جزر البحرين . يشبه ظعائن صاحبته وهى تخترق الصحراء بهذه السفن البحرانية وهى تشق أمواج الخليج خارجة من هذه الجزيرة .

٣ نَزلوا مِن سُوَيقةِ المـاءِ ظهرا ثم راحــوا للنَّعفِ نَعفِ مِطـالِ
٤ ثم أضحَــوْا على الدَّثينَـة لا يَا لُونَ أنْ يَرفعـوا صدورَ الجِمـالِ
٥ ثم كان الحِسَاء منهـم مَصِيفًا ضاربـاتِ الخُـدور تحت الهِدالِ
٦ فَزِعَتْ تَكْتُمُ وقالت : عجيبًا أنْ رأتنى تَغَـيَّرَ اليــومَ حالى
٧ يا ابنةَ الخـير إنمـا نحن رَهْنٌ لِصُروفِ الأيام بعــدَ الليـالى
٨ جَلَّحَ الدهرُ وانتحَى لى، وقِدْمًا كان يُنْحِى القُـوَى على أمثـالى
٩ أقصَدَتْنى سهـامُه إذ رَمَتْنى وتولَّت عنه ، سُـلَيْمى ، نبـالى

(٣) سويقة المـاء : موضع باليمامة . ونعف مطال : ماء ، والنعف : المكان المرتفع . يصف رحلة الظعائن ، ويتتبع مراحل سيرهن ، ويذكر المواضع التى يجتزنها ، وسيواصل تتبعه لهن فى البيتين التاليين .

(٤) الدثينة : موضع . وقوله « لا يألون أن يرفعوا صدور الجمال » يريد أنهم لا يقصرون فى حث إبلهم على مواصلة السير . ورفع صدور الجمال كناية عن اندفاعها فى السير .

(٥) الحساء : موضع فى ديار بنى أسد يكثر فيه الماء . الخـدور : جمع خدر وهو جانب الخباء المخصص للنساء يفصل بينه وبين سائر الخباء بستر . والهـدال : ماتهـدل من أغصان الشجر . يتحدث عن نهاية الرحلة ، لقد وصلت القافلة إلى هـذه المنطقة لتقضى فيها الصيف ، وضربت خيامها فيها فى ظلال الشجر الوريفة تحت أغصانها المتهدلة .

(٦) يصف موقف صاحبته منه بعد أن رأت تقدم السن به ، وتغير حاله بعـد أن بدأ زحف السنين عليه .

(٧) يرد على تعجبها وإنكارها لتغـير حاله بأن الإنسان فى الحياة رهن لتقلب الأيام والليالى به .

(٨) جلح الدهر : يريد أن الدهر رعى شـبابه ونزع عنه نضارته ، وأصله من جلحت الإبل الشجر إذا رعت أعاليه وقشرته ، ومن هنا يحتمل التعبير أيضا معـنى انحسار الشعر عن جانبى الرأس . وقوله « وانتحى لى » يريد أن الدهر اتجه إليه وقصده بعد أن كان فى ماضى أيامه يتجه إليه بالقوة والشباب .

(٩) أقصدتنى سهامه : أى رمتنى فلم تخطئ . وتولت عنه نبالى : أى أخطأته وابتعـدت عنه . وسليمى : نداء لصاحبته ، وهى نفسها تكتم التى ذكرها من قبل ، والتى يدور الحوار بينها وبينه ، يقول إن سهام الدهر أصابتنى ولم تخطئ ، وأما نبالى التى أوجهها إليه فقد أخطأته ولم تصبه .

١٠ لا عجيبٌ فيما رأيتِ ، ولكنْ عَجَبٌ مِنْ تَفَــرُّطِ الآجالِ
١١ تُدرِكُ التَّمْسَحَ المُوَلَّعَ فى اللُّجْــةِ ، والعُصْمَ فى رؤوسِ الجبالِ
١٢ والفريدَ المُسَفَّعَ الوجهِ ذا الجُدَّةِ يختـار آمنـاتِ الرمـالِ
١٣ وتَصَدَّى لِتصرعَ البطـلَ الأروعَ بين العَلْهـاءِ والسِّربالِ

* * *

(١٠) تفرط الآجال : تأخرها . يقول لصاحبته : ليس عجيبا أن يتقدم العمر بالإنسان و يقترب من نهايته ، فهذه سنة الحياة ، ولكن العجيب أن يتأخر الأجل عما يفترض أنه موعده .

(١١) الضمير فى « تدرك » يعود على الآجال . والتمسح لغة فى التمساح ، ولعلها أول مرة أو المرة الوحيدة التى ترد فيها فى الشعر الجاهلى . والمولع : الذى به نقط تخالف سائر لونه . والعصم : الوعول ، مفردها أعصم ، لأنها تعتصم فى قمم الجبال .

(١٢) الفريد : يريد به الثور الوحشى ، وأكثر ما يظهر فى الصحراء منفردا وحده ، وهذه هى صورته التى تتردد دائما فى الشعر القديم . والمسفع : الذى فى وجهه سفعة وهى السواد والشحوب كلون الرماد .

(١٣) تصدى : أى تتصدى ، حذفت إحدى تاءيه تخفيفا . والأروع : الشجاع الذى يروعك بشجاعته . والعلهاء : ثوبان ينذف فيهما وبر الإبل يلبسهما المقاتل تحت الدرع . والسربال : القميص ، يريد به هنا الدرع ، وفى القرآن الكريم أطلقت السرابيل على الدروع : « وسرابيل تقيكم بأسكم » (النحل ٨١) .

* * *

يوسف خليف

عَبيـــد بن الأبْرَص

* * *

يرجع نسبه إلى قبيلة سعد بن ثَعْلَبة إحدى قبائل بنى أسد التى كانت تنزل فى شمالى نجد، والتى تحكمها أسرة كِنْدةَ اليمنية التى ينتمى إليها امرؤ القيس الشاعر . وكان عبيد معاصرا لحُجْر أبى امرئ القيس وآخر ملوك هذه الأسرة، وكان من بين الذين اشتركوا فى ثورة قبيلته عليه وقتله والقضاء على حكم أسرته لبلادهم . وقد تحول مع الأحداث التى شهدتها المنطقة فى هذه المرحلة من تاريخها إلى « شاعر الثورة » الذى يسجّل أحداثها ، ويتغنى بدور قبيلته فيها . ويهاجم الأسرة اليمنية الحاكمة، ويسخر من آخر أمرائها امرئ القيس فى محاولاته الضائعة للثأر لأبيه ، واسترداد عرش أسرته . وفى شعره ما يدل على أنه شارك فى المعركة الأخيرة التى قُتِل فيها حُجْر ، وفرّ منها امرؤ القيس هاربا بعد مصرع أبيه وهزيمة جيشه .

وليست بين أيدينا أخبار كثيرة عن حياة عبيد ، فالروايات العربية القديمة لا تذكر شيئا له قيمته التاريخية عن حياته ، وكثير مما تذكره يبدو عليه طابع الأساطير والأقاصيص الشعبية التى تتناقلها الشعوب دون تأكد من صحتها أو توثيق لها . وربما كانت أصح هذه الأخبار مشاركته فى ثورة قبيلته على أسرة كندة التى انتهت بمصرع آخر ملوكها ، ففى الروايات التاريخية التى تحدّث بها الإخباريون ما يؤكدها ، وكذلك فى قصائده ومقطوعاته التى وثّقها الباحثون .

وقد لقى عبيد مصرعه على يد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى « يوم بؤسه» الذى تحدثنا عنه هذه الروايات . فقد كان لهذا الملك الطاغية الذى كان وراء

إخفاق امرئ القيس فى محاولاته استرداد عرش أسرته الضائع يومان فى السنة معروفان بيوم البؤس ويوم النعيم ، وكان قَدَرُ أول مايصادفه فى يوم بؤسه أن يقتله ، وحظُّ أول من يلقاه فى يوم نعيمه أن يحسن إليه ويجزل له العطاء . وشاء قَدَرُ عبيد أن يخرج إليه فى أحد أيام بؤسه ، فكانت نهايته الحزينة وهو ينشد ناعيا نفسه :

أَقْفَرَ مِنْ أهله عَبِيدُ فاليومَ لا يُبْدِى ولا يُعِيدُ

وكما هو الشأن مع كل الشعراء الجاهليين ليس من اليسير تحديد سنة وفاته بالضبط ، ولكن إذا وضعنا فى تقديرنا هذه الرواية التى تتحدث عن مصرعه على يد المنذر ، فإننا نستطيع أن نقترب من الحقيقة . فقد قُتِل المنذر فى بعض حروبه مع الحارث الغسّانى ملك الغساسنة — كما يحدثنا المؤرخون البيزنطيون — فى سنة ٥٥٤ للميلاد . ومعنى هذا أن عبيدا لابد أن يكون قد قُتِل قبل هذا التاريخ ، وإن يكن من الصعب بعد ذلك أن نحدِّد السنة التى قتل فيها .

وعبيد أحد الشعراء الكبار الذين عرفهم الشعر الجاهلى فى المرحلة الأولى الثابتة من تاريخه ، مرحلة عصر البسوس . وقد وضعه محمد بن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول العصر الجاهلى مع طَرَفَة بن العبد وعلْقَمة بن عَبَدَة وعدىّ بن زيد وذكر أنهم أربعة فحول « موضعهم مع الأوائل وإنما أَخلَّ بهم قِلَّةُ شعرهم بأيدى الرواة » . ويضعه بعض الرواة بين شعراء المعلقات ، ويجعلون قصيدته « أقفر من أهله ملحوب » إحدى المعلقات العشر ، وإن يكن ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » يجعلها من المعلقات السبع .

ويدور شعر عبيد الذى وصل إلينا حول موضوعات قبلية أكثرها فخر بها ، وبصفة خاصة فى الصراع الذى دار بينها وبين بنى أسد ، والذى انتهى بمصرع

الملك . ويتردد فى حديث هذا الصراع تهديد لامرئ القيس يشوبه غير قليل من السخرية منه ومن قدرته على اســترداد عرش أسرته الذى ضـاع إلى الأبد . كما تتردد فى شعره أحاديث كثيرة عن مرحلة شبابه الذى ولّى ، وماشهدته من بطولات ، وما مرّ به فيها من تجارب ومغامرات . وأيضا يتردد فيـه وصف للطبيعة الصحراوية ، وبصفة خاصة المطـر . من حين إلى حين تتردد أبيات متناثرة من الحكم يسجّل فيها خلاصة تجربته فى حياته الطويلة .

وقد لاحظ المستشرق الإنجليزى ليال « Lyall » فى مقـدمته الدقيقة التى صدّر بها ديوانه الذى حققه ونشره فى ســنة ١٩١٣ أن معظم قصائده يبدو عليها أنه نظمها وهو متقدم فى السن ، حيث يتراءى فيها شيخا كبيرا ينظر إلى شباب يعده أجمل مراحل حياته ، كما لاحظ أن لغة قصائده تكشف عن شخصية ذاتية بارزة ، وأنه فى كثير من قصائده يلتزم منهجا ثابتا يتناول من خلاله موضوعات واحدة ، وأن هناك تشابها موضوعيا واضحا بينه وبين معاصره امرئ القيس ، وأن الشاعرين يستمدان من ذخيرة شـعرية واحدة فى العبارات والموضوعات ، أو يعالجان موضوعاتهما معالجة واحدة . وانتهى من ذلك إلى توثيق أكثر شعره واستبعاد فكرة انتحاله .

* * *

يوسف خليف

(١)

من المعلَّقـــة

تجـارِبُ الحيـاةِ

عبيد بن الأبرص من أقـدم الشعراء الجاهليين وقد عاصر حُجْرا أمير كندة ووالد امرئ القيس الشاعر الجاهلى المعروف . و ينتمى عبيد إلى سعد بن ثعلبة من قبيلة أسد الذين كانوا يسكنون فى شمالى الجزيرة العربية .

وأخبار عبيد قليلة فى المصادر المختلفـة وكذلك أشـعاره وإن وضعه معظم العلماء فى مرتبة الشعراء الفحول المقدمين . وأبرز ما فى شـعره الوصف وخاصة وصف الرياح والأمطار ، وكذلك الحكمة التى يودع فيها تجـارب حياته ، والأحداث التى تعرضت لهـا قبيلته فى عهده . ومنها مقتل حجر ونزاع القبيلة مع إمارة الغساسنة وملكها الحارث الأعرج .

وهذه الأبيات التى اخترناها من قصيدة له يعُـدّها بعض العلماء الأقدمين من المعلقات تعبر عن تجربة ذاتية عميقة فى الحياة الإنسانية . و يبدؤها الشاعر بلوم نفسه على العشق والسعى وراء اللذة بعد أن شاب وعلت سـنه ، وكان فى أبيات سابقة من القصيدة قد صور عشقه وسعيه وراء النساء ، وقد ازداد شوقا بعد أن رحلت المحبـوبة عن دارها ، ولهـذا يصوغ هـذا الرحيل فى حكمة خالدة حين

يقول فى البيت الثانى : إن كانت الحبيبة قد رحلت مع أهلهـا ، فهم ليسوا أول من يرحلون ، وليس هنا غرابة ولا عجب فى هـذا الرحيل ، وإذا كانوا قد تركوا أرضهم خلاء منهم وخلاء من مظاهر الحياة فانتابها الجدب والقحط ، فهكذا حال الدنيا ، كُلُّ مَنْ بيده نعمة سوف يفقدها ، وكُلُّ مَنْ أَمَّلَ فى شىء سيأتيه يوم لا يتحقق فيــه هذا الأمل ، وكل إنسان فى يده ثروة أو استحدثها عن طريق السلب والغنيمة، سيأتى يوم يضطره للتخلى عن ذلك لغيره حين تنتهى أيام الحياة المعدودة ويَحْضُر الموت . وكل مغترب عن داره وأهــله إن كانت ساعته لم تحن بعــد سيعود ، ولكن من لا يعود أبدا هــو الذى استأثر به الموت . وعلى العاقل أن يفرق بين الغث والسمين فــلا يعدل بين المرأة العــاقر والولود أو بين المنتصر فى ساحة القتال والمنهــزم ، وإن كان حــظ الإنسان ليس خاضعا لمراهبه فقد ينجــح العاجز فى حياته وقد يفشل الذكى الأريب ، والدهر وحده هو الذى يكسب النــاس التجربة الصادقة التى تنفعهم ، أما أن يعظهم النــاس ، فهذا ما لا ينفعهــم لأن الإنسان بطبيعته يستكبر على الوعظ ، والعقــل على أية حال لا يُكتَسَب اكتسابا وإنمــا هو طبيعة مركوزة فى الإنسان .

وعواطف الإنسان متغيرة، فمن تبغضه اليوم قد تحبه غدا ، ومن تحبه اليوم قد تبغضه غدا ، وإذا كنت مقيما فى أرض غير أرضك فلا بد أن تعين أهلها على أمورهم، وتشاركهم فى حياتهم ولا تنعزل عنهم بدعوى أنك غريب . وقد يكون الغريب عنــك نسبا ودارا صديقا مخلصا لك مواصلا لمودتك ، بينما ينقطع عنك الغريب فى النسب والموطن . وعلى العاقل ألا يتعرض لسؤال النــاس فهم كثيرا ما يحرمونه ولا ينيــلونه ما يشتهى ، ولكن الله وحده يعطى من يشــاء ، وهو بلا شريك يعلم ما تخفى النفوس ، ويظل المرء فى حياته نهب القلق لا يتأكد من

شيء لتلون الحياة واضطرابها ، فلماذا يؤمِّل الإنسان طول العمر وفي هذا الطول تعذيب دائم له ؟

* * *

١ تَصْبُو وأَنَّى لكَ التَّصابي ؟ أَنَّى وقد راعكَ المشيبُ ؟
٢ إنْ يَكُ حُوِّلَ منها أهلُها فلا بَدِيٌّ ولا عجيبُ
٣ أو يَكُ أقفَرَ منها جَوُّها وعادها المَحْلُ والجُدُوبُ
٤ فكلُّ ذي نِعمةٍ مَخْلوسُها وكلُّ ذي أَمَلٍ مَكْذُوبُ
٥ وكلُّ ذي إبِلٍ مَوْرُوثُها وكلُّ ذي سَلَبٍ مَسْلُوبُ
٦ وكلُّ ذي غَيْبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ
٧ أعاقِرٌ مِثلُ ذاتِ رَحْمٍ أو غانِمٌ مِثلُ من يَخِيبُ
٨ أَفلِحْ بما شِئتَ فقد يُدْرَكُ بالـ ـضعفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

---

(١) تصبو : تميل وتعشق ، أنى : كيف لك بهذا ، راعك : فاجأك وآذنك .

(٢) حول منها أهلها : رحلوا عنها ، البدىء : الأول ، أى ليست أول أرض تركها أهلها فلا غرابة .

(٣) جوها : وسطها ، عادها : أصابها ، المحل والجدوب : القحط .

(٤) مخلوسها : أى سوف تفقدها ، مكذوب : لن يتحقق .

(٥) موروثها : أى سيرثها غيره ، وكل من سلب شيئا سوف يسلب منه ، فالموت يأتى على كل شيء .

(٦) يؤوب : يرجع .

(٧) العاقر : التى لا تلد ، ذات الرحم : والولود ، غانم : يغير فيغنم .

(٨) أفلح : عش ، الأريب : العاقل الذكى .

٩ لا يَعِظُ النّاسُ من لا يعظ يعظُ الـ ـدهْرُ ولا يَنْفَـــعُ التَّلْبيبُ

١٠ لا ينْفَــعُ اللُّبُّ عن تَعَـلُّمٍ إلا السَّجيــاتُ والقُـــلوبُ

١١ فَقَـدْ يَعُودَنْ حبِيبًـا شانِىءٌ ويَرْجِعَنْ شانِئًا حبيبُ

١٢ ساعِدْ بِأرضٍ إذا كُنتَ بهـا ولا تَقُــلْ إنَّنى غَرِيبُ

١٣ قد يُوصَـلُ النّازِحُ النّأْىِ وقـدْ يُقْطَـعُ ذو السُّهمَةِ القَـرِيبُ

١٤ مَنْ يَسأَل النّـاسَ يَحْرِمُوهُ وسـائِلُ اللهَ لا يَخيبُ

١٥ باللهِ يُـدْرَكُ كُلُّ خَـيْرٍ والقـولُ فى بعضـه تَلْغيبُ

١٦ واللهُ ليس لـه شـريكٌ عَـلّامُ ما أخفتِ القـلوبُ

١٧ والمـرءُ ماعاش فى تكذيبٍ طـولُ الحيـاةِ له تعـذيبُ

---

(٩) التلبيب : تكلف اللب .

(١٠) السجيات : الطبائع .

(١١) الشانىء : المبغض .

(١٢) إذا كنت فى أرض فأعن أهلها على أمورهم .

(١٣) النازح : البعيد النسب والدار ، السهمة : القرابة .

(١٥) تلغيب : ضعف .

* * *

محمد مصطفى هدارة

(٢)

إنذارٌ إلى امرئ القَيْس

* * *

تدور هـذه القصيدة فى جو الصراع الذى اشتعلت نيرانه بين أسـد وكندة بعد مصرع حُجْر الملك وخروج ابنه امرئ القيس لمعـركة الثأر . وفيهـا يسخر الشاعر من تهديد امرئ القيس لقومه ، وينكر عليه ما يدّعيه من أنه سجّل نصرا عليهم ، ويفتخر بقومه وشجاعتهم وثباتهم فى الحروب وحرصهم على كرامتهم والذود عنها ، ويذكّره بأيام دارت بينهم وانتصروا فيها عليهم . ثم يعود فى النهاية فيسجل منزلة قومه بين القبائل العربيـة عامة ، وما بلغوه من مجـد وشرف وبطـولة . والقصيدة تدور كلها حول هذا المحور فى وحدة موضوعية متماسكة ، فلا مقدمة ، ولا تعـدّدَ فى الموضوعات ، ولا خروجَ من موضوع إلى موضوع ، وإنمـا ترابط وتلاحم وتسلسل بين الأبيات حتى آخر بيت منها .

* * *

١ يا ذا المُخَـوِّفَنـا بقتـْ ـلِ أبيه إذلالاً وحَيْنَا

٢ أزَعَمْتَ أنك قـد قتلـْ ـتَ سَرَاتنا كذِبًا ومَيْنا ؟

٣ لَوْمَا على حُجْر ابنِ أمِّ (م) قَطَـامِ تبكي لا علينـا

---

(١) يخاطب امرأ القيس الذى يهددهم بمعركة الثأر لأبيه . والحين : الهلاك .

(٢) السراة : جمع سرى ، وهو السيد الشريف . والمين : الكذب .

(٣) لوما : بمعنى هـلا ، من أدوات التحضيض ، وبهـا روى البيت فى رواية أخرى . وحجـر ابن أم قطام هو حجر أبو امرئ القيس ، ينسبه إلى أمه استهزاء به ، وتهوينا لشأنه .

٤ إنّا إذا عضّ الثِّقا ... فُ برأس صَعْدَتنا لَوَيْنَا

٥ نحمى حقيقتنا ، وبَعْـ ... ـضُ القوم يسقطُ بينَ بَيْنا

٦ هـلّا سألت جُموعَ كِنْـ ... ـدةَ إذ تَوَلَّوْا : أينَ أينا ؟

٧ أيامَ نَضْرِبُ هامَهُـم ... ببواترٍ حتى انحنينا

٨ وجموعَ غسّانَ الملو ... كَ أتَيْنَهم وقد انطَوَيْنَا

٩ لُحُقًا أياطِلُهُنَّ قد ... عالجنَ أسفاراً وأَيْنَا

١٠ ولقد صلقن هوازناً ... بنَواهِلٍ حتى ارتَوَيْنا

١١ نُعْلِيهِمُ تحت الضَّبا ... بِ المَشْرَفِيَّ إذا اعتَزَيْنَا

(٤) الثقاف : آلة يستخدمها العرب فى تثقيف رماحهم أى تسويتها . والصعدة : قناة الرمح . ولوينا : معناها هنا أبينا ورفضنا . والبيت تصوير لعزتهم ومنعتهم ، وإبائهم الضيم ، ورفضهم الذل .

(٥) الحقيقة هنا معناها ما يجب على الرجل أن يحميه ويدافع عنه . ويسقط بين بين أى يسقط وسطا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، يريد أنه لا قيمة له .

(٦) أين أين : أى أين تولوا فرارا من المعركة التى هزموا فيها ، كرر الاستفهام للتوكيد .

(٧) الهام : جمع هامة وهى الرأس . والبواتر : السيوف الحادة . والضمير فى « انحنين » يعود عليها .

(٨) غسان الملوك عـم الغساسنة ، يفتخر بانتصارات قومه عليهم . والضمير فى « أتين » يعود على الخيل المفهومة من السياق ، وكذلك فى « انطوين » ؛ ويريد بها أنها ضمرت .

(٩) الأياطل : جمع أيطل وهو خصر الجواد . والأين : التعب والإعياء . وقوله « لحقا أياطلهن » تصوير لضمور الخيل ، يريد أن خصورها لحقت بعظام ظهورها .

(١٠) الصلق : الصوت الشديد العالى ، يصور شدة صهيل الخيل فى المعركة . والنواهل : يريد بها الرماح التى تنهل من دماء الأعداء حتى ترتوى .

(١١) فعليهم : أى نضع فوق رؤوسهم . والضباب : يريد به هنا غبار المعركة . والمشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهى قرى بها كانت مشهورة بصناعة السيوف . واعتزينا : أى انتسبنا إلى آبائنا فى أثناء القتال اعتزازا بأصولنا العريقة .

١٢ نحن الأُلَى فاجمعْ جُموعَكَ ثم وَجِّهْهم إلينا

١٣ واعلمْ بأنَّ جِيَادنا آلَيْنَ لا يقضِين دَيْنا

١٤ ولقد أبحنا ما حَمَيْـتَ، ولا مُبيحَ لما حَمَيْنا

١٥ هـذا ولو قَدَرَتْ عليـكَ رماحُ قومِى ما انتهينا

١٦ حتى تَنُوشكَ نَوْشَةً عاداتِهِنَّ إذا انتوينا

١٧ نُغْلِى السِّبَاء بكلِّ عاتِقَةٍ شَمُول ما صَحَوْنا

١٨ ونُهِينُ فى لذَّاتِها عُظْمَ التِّلادِ اذا انْتَشَيْنا

١٩ لا يَبْلُغُ الباني ـــ ولو رَفَعَ الدعائمَ ـــ ما بَنَيْنا

٢٠ كم مِنْ رئيسٍ قد قتلـناه، وضَيمٍ قد أَبَيْنا

---

(١٢) الأُلى : اسم موصول بمعنى « الذين » لم تذكر صلته ليكون مجال الفخر متسعا لكل الاحتمالات ، يعنى نحن الذين يعرف الجميع من نكون . والبيت تصوير لمدى ثقتهم بأنفسهم وبأنهم قادرون على انتزاع النصر من أعدائهم مهما تكن جموعهم التى يجمعونها لهم و يوجهونها إليهم .

(١٣) آلين : أقسمن . وقوله « لا يقضين دينا » يريد به لا يترك لأحد فرصة لقضاء ديونه وأخذ ثاراته منهم .

(١٥) ما انتهينا متعلقة بالبيت الثانى والضمير فيها يعود على الرماح . وفى البيت تضمين وهو تعلق نهايته بصدر البيت الذى يليه .

(١٦) تنوشك : تتناولك بالطعن . وقوله « عاداتهن » أى كعاداتهن .

(١٧) السباء : شراء الخمر . ونغلى السباء : أى ندفع فى شرائها ثمنا غاليا . والعاتقة : الخمر المعتقة أو العذراء التى لم يفض ختامها أحد . والشمول : الخمر الباردة أو القوية الرائحة . يفتخر كعادة الجاهليين بشرب الخمر مظهرا من مظاهر الفتوة والكرم عندهم .

(١٨) التلاد : المال الموروث . وعظم التلاد : معظمه . وانتشينا : سكرنا من نشوة الشراب .

(١٩) البانى : يريد به هنا بانى المجد والشرف . يفتخر بأن أحدا من العرب لا يبلغ مبلغهم من المجد والشرف .

٢١ وَلَرُبَّ صَـــيِّدِ مَعْشَرٍ ضَخْمِ الدَّسِـيعةِ قد رَمَيْنـا

٢٢ عِقْبـانُهُ بِظِـــلالِ عِقْـبانٍ تُيَمِّـمُ مَنْ نَوَيْنـا

٢٣ حتى تركنـا شِـــلْوَهُ جَزَرَ السِّباع وقـد مَضَيْنا

٢٤ وأوانِسٍ مِثْـــلِ الدُّمَى حُورِ العيونِ قـد استَبَيْنا

٢٥ إنَّا لَعَمْـــرُكَ لايُضـا مُ حَلِيفُنـا أبداً لَدَيْنـا

* * *

(٢١) الدسيعة : الجفنة الضخمة والمـائدة الكريمة ، وضخم الدسيعة كناية عن " « رمينا » متعلق بصدر البيت التالى . وفى البيت يظهر التضمين مرة أخرى .

(٢٢) العقبان : جمع عقاب ، وهو الجارح المعروف . وعقبان الأولى يريد بها رايات الجيش ، جيش الأعداء . وعقبان الثانية يريد بها هذه الطيور الجارحة . وتيمم : تقصد . يشير إلى ظهور جوارح الطير فى سماء المعركة لتتغذى على أشلاء القتلى . وهى صورة تتردد كثيرا فى الشعر العربى القديم .

(٢٣) الشلو : مفرد الأشلاء . وجزر السباع : أى فريسة الوحوش تنهش أشلاءه بعـد أن لقى مصرعه ومضينا عن ساحة المعركة منتصرين .

(٢٤) الأوانس : جمع آنسة وهى التى تؤنسك بحديثها العذب . والدمى : التماثيل . وحور العيون : جميـلات العيون ، من الحور وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها ، وقـد تغنى العرب به كثيرا . واستبينا : سبينا وأسرنا .

* * *

يوسف خليف

(٣)

إنذارٌ إلى زَوْجتـه

* * *

المحور الأساسى الذى تدور حوله هـذه القصيدة الطويلة التى تبلغ فى بعض رواياتهـا تسعة وثلاثين بيتا هو خلاف بين الشاعر وزوجته التى تريد فراقه لكبر سـنه وقلة ماله ، وهو ينكر عليها هـذا التصرف الذى لا يليق بهـا ، ويردّه ليبرئها منه إلى أقاويلَ وسوس بها إليهـا مَنْ يكرهون استقرار حياتهما الزوجية . ثم ينطلق من هذا الموقف الثقيل على نفسه إلى ذكريات شبابه يستعيدها ويتغنى بها ، وكأنه يذكِّرها بهـا لعلها تراجع نفسها وترجع عن موقفها . والقصـيدة — خضوعا للتقليد الفنى القـديم — تبـدأ بمقدمة طللية يصف فيها أطلال صاحبته التى تحوّلت بعد رحيلها إلى مسارحَ للنعام والظباء ، ثم ينتقل منها انتقالا مفاجئا إلى هـذا الموضوع الطريف الذى اتخذ منـه المحور الأساسى الذى تدور حوله القصيدة ، والذى تحققت معه لهـا وحدة موضوعية دقيقة . وهى وحدة لا نراها فقط فى هذه القصيدة، وإنمـا نراها فى كثير من قصائد هذا الشاعر . ثم يكون ختام القصيدة أبياتا من الحكمة تتصل بموضوعها وكأنه يلخص فيها تجربته .

* * *

١ ليس رسمٌ على الدَّفينِ ببالى فلِوَى ذِرْوةٍ فجَنْبَىْ أُثالِ

٢ فالمَرْوراةِ فالصَّفيحةِ ، قَفْرٌ كلُّ وادٍ وروضــةٍ محْـلالِ

٣ دارُ حَىٍّ أصابهمْ سالفُ الدهـ ـرِ فأَضْحَتْ ديارُهُمْ كالخِلالِ

٤ مُقْفِراتٍ إلّا رَمـاداً عَفِيّـا وبقــايَا مِنْ دِمنــةِ الأطلالِ

٥ وأَوارِىَّ قــد عفَــوْن ونُؤْيا ورُسوما عُرِّين مُــذْ أحوالِ

٦ بُدِّلَتْ منهــمُ الديارُ نَعاماً خاضِباتٍ يُزْجِين خَيْطَ الرِّئالِ

٧ وظِبـاءً كأنهنَّ أَبَارِيـ ـقُ لُجَـيْنٍ تَحْنُو على الأطفالِ

* * *

(١) الرسم : ما بقى من آثار الديار الدارسة . البالى : القـديم المتغير . والدفين : اسم موضع ، وكذلك سائر الأسماء فى البيت .

(٢) المروراة والصفيحة : موضعان أيضا يستكمل بهما — كالتقليـد الفنى فى الشعر الجاهلى — التحديد الجغرافى للأطلال التى يقف بها . والمحـلال : الآهلة بأصحابها الذين يحلون بها . يقول إن كل وديان هذه المواضع ورياضها التى كانت آهلة بأصحابها تحولت قفرا موحشا .

(٣) الخـلال : جمع خلة (بالكسر) ، وهى البطانة التى تبطن جفن السيف ، وهى تتآكل مع القدم وكثرة استخدام السيف . يشبه بها الأطلال .

(٤) عفيا : دارسا باليا متغيرا ، من عفا الأثر إذا درس وبلى وتغير .

(٥) الأوارى : مرابط الدواب ، جمع آرى . والنؤى : خندق يحفرونه حول الخيام ليمنع عنها السيل . والأحوال : السنين ، جمع حول .

(٦) الخاضبات : التى اخضرت سيقانها لرعيها النبات الأخضر فى الربيـع . والرئال : أفراخ النعام ، جمع رأل . والخيط هنا : القطيع .

(٧) اللجـين : الفضة . يشبه الظباء بأباريق الفضة ، وهى من الصور الطريفة النادرة فى الشعر الجاهلى التى تعكس حياة اجتماعية على حظ غير قليل من الحضارة . وبهذا البيت تنتهى المقدمة الطللية ليبدأ الشاعر بعدها موضوع قصيدته الأساسى ، وهو هذا الخلاف بينه وبين زوجته .

٨ تلكِ عِرْسِي غَضْبَى تريد زِيَالِي | أَ لِبَيْنٍ تريدُ أم لِدَلالِ ؟
٩ إنْ يكن طِبُّكِ الفراقَ فلا أحْـ | ـفِلُ أن تَعطِفي صدورَ الجِمالِ
١٠ أو يكنْ طِبُّكِ الدَّلالَ فلو في | سالفِ الدهرِ و لليالي الخَوالي
١١ ذاكِ إذ أنتِ كالمَهاةِ ، وإذ آ | تِيكِ نَشْوانَ مُرْخِياً أذيالي
١٢ فَدَعِي مَطَّ حاجِبَيْكِ ، وعِيشي | معنا بالرَّجاءِ والتَّأْمالِ
١٣ زَعَمَتْ أنني كَبِرْتُ ، وأنِّي | قَلَّ مالي ، وضَنَّ عنِّي المَوالي
١٤ وصَحا باطلي ، وأصبحتُ شيخاً | لا يُوَاتي أمثالَها أمثالي

(٨) العرس : الزوجة . والزيال : الفراق . يبدأ الشاعر موضوع قصيدته الأساسي ، وهو هذا الخلاف بينه وبين زوجته . وقد حرص على التصريع في أول أبياته كأنه يبدأ قصيدة جديدة ، مما جعل بعض العلماء يذهبون إلى أن هذا البيت هو أول القصيدة (السيوطي في شرح شواهد المغني) .

(٩) الطب هنا : الرغبة والإرادة . وقوله « أن تعطفي صدور الجمال » يريد به إن تميلي بصدور ...دا عن بيت الزوجية ، وتتجهي بها إلى حيث تريدين . يقول لها إن كانت رغبتك هي الفراق ...ـ الحياة معي فأنا لا أبالي بك ولا أهتم بفراقك .

(١٠) الليالي الخوالي : الليالي التي مضت . وفعل الشرط وجوابه في جملة « لو » هنا محذوفان يدل عليهما سياق الأبيات ، وتقديرهما لو كان ذلك في سالف الدهر والليالي الخوالي لكان مقبولا منك . والبيت من شواهد النحاة على حذف فعل الشرط وجوابه .

(١١) المهاة : البقرة الوحشية ، و يتردد كثيرا في الشعر الجاهلي تشبيه المرأة الجميلة بها في بياضها وصفاء عينيها . والنشوان : السكران ، ولكن ليس من الضروري أن يكون المراد هنا نشوة الخمر ، وإنما المراد — في ظني — نشوة الشباب وخيلاؤه وزهوه ، و يؤكد ذلك قوله « مرخيا أذيالي » فهو كناية عن الخيلاء والزهو والإعجاب بالنفس .

(١٢) مط الحاجبين : كناية عن التعجب والإنكار . وهي من الصور النادرة البالغة الطرافة والحيوية في الشعر القديم . والتأمال : الأمل .

(١٣) الموالي هنا : الأصدقاء أو الأقارب ، وهذه الكلمة من الكلمات التي تحتمل دلالات كثيرة مختلفة .

(١٤) لا يواتي : أي لا يوافق ولا يلائم .

١٥ أنْ رأتنى تغيّر اللـونُ منى ... وعـلا الشَّيبُ مفْـرِقى وقَـذَالى
١٦ فارْفضِى العـاذلين ، واقْنَىْ حياءً ... لا يكونوا عليـكِ خـطَّ مِثالِى
١٧ وبِحَظٍّ ممـا نعيشُ ، فـلا تذ ... هبْ بِكِ التُّرَّهَاتُ فى الأهوالِ

* * *

١٨ دَرَّ دَرُّ الشباب والشَّعَرِ الأسـ ... ـودِ والرَّاتِكاتِ تحت الرِّحالِ
١٩ والعَنَاجيجِ كالقِدَاحِ مِنَ الشَّوْ ... حطِ يحْمِلن شِـكَّةَ الأبطـالِ
٢٠ ولقد أذْعَرُ السُّروبَ بِطِرْفٍ ... مثـلِ شـاةِ الإرانِ غيرِ مُذَالِ
٢١ غيرِ أقْنَى ولا أصكَّ ، ولكنْ ... مِرْجَـمٌ ذو كريهـةٍ ونِقَـالِ

---

(١٥) المفـرق : وسـط الرأس حيث يفرق الشعر . والقـذال : الشعر فى مؤخر الرأس ما بين الأذنين .

(١٦) اقنى حياء : أى توارى خجلا . « ولا يكونوا عليك حظ مثالى » أى لا يكونوا عليك سوء حظ لشخص مثلى .

(١٧) « وبحظ مـا نعيش » أى اقنعى بمـا قسم لنا من حظ فى حياتنا . والترهات : الأباطيل ، وأصل معناها الطرق الصغيرة الفرعية المتشعبة من الطريق الأساسى . يقول لها : لا تذهب بك أوهامك الباطـلة فى طريق محفوف بالأخطار والأهـوال ، يريد طريق الجشع والطمع وعدم القناعة بحظها فى الحياة .

(١٨) من هنا يبدأ حديث الشاعر عن ذكريات شبابه يذكرها زوجته المتمردة على شيخوخته وفقره لعلها ترجع عن الاندفاع فى طريق الأخطار والأهوال . در در الشباب : دعاء للشباب بالخير ، والدر فى أصـل معناه اللغوى اللبن . والراتكات : المسرعات ، صـفة للإبل ، من رتكت فى سيرهـا إذا أسرعت .

(١٩) العناجيج : الخيل الطوال الأعناق . والقداح : السهام ، يشبه الخيل بهـا فى ضمورهـا . والشوحط : شجر من أشجار البادية تتخذ منه القسى والسهام . والشكة : السلاح وعدة الحرب .

(٢٠) السروب : جمـع سرب ، يريد أسراب الحيوان الوحشى الذى يخرج لصيده . والطرف : الجواد الأصيل الذى يجمع الأصالة من كلا طرفيهـا : الأب والأم . والشاة هنـا : الثور الوحشى . والإران : موضـع فى الجزيرة العربية مشهور ببقره الوحشى . والمذال : المهـان ، من أذاله بمعنى أهانه . وغير مذال نعت لطرف ، يصف جواده بأنه يكرمه ولا يهينه .

(٢١) الأقنى : المقوس الأنف ، وهـو من عيوب الخيـل . والأصـك : المضطرب الركبتين والعرقوبين ، وهو أيضا من عيوب الخيـل . والمرجم : القوى الذى يرجـم الأرض بحوافـره . وذو كريهة : يريد أنه صبور شديد التحمل . وذو نقال : سريع فى نقل قوائمه فى أثناء السير والعدو .

٢٢ يَسْبِقُ الأَلْفَ بالمدَجَّجِ ذى القَوْ　　نَسِ حتى يئوبَ كالتِّمْثالِ
٢٣ فهو كالمِنْزَعِ المَرِيشِ من الشَّو　　حطِ مالت به يمينُ المُغالِي
٢٤ يَعْفِرُ الظبيَ والظَّليمَ ، ويُلْوِى　　بِلَبُونِ المِعْزابةِ المِعْزالِ
٢٥ ولقد أَدْخُلُ الخِباءَ على مَهْـ　　ـضومةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كالغزالِ
٢٦ فتعاطَيْتُ جِيدَها ثم مالتْ　　مَيَلانَ الكَثِيبِ بين الرمالِ
٢٧ ثم قالت : فِدًى لنفسكَ نفسى　　وفداءٌ لمالِ أهلِكَ مالى
٢٨ ولقد أَقْدُمُ الخَمِيسَ على الجر　　داءِ ذاتِ الجِراءِ والتَّنْقالِ
٢٩ فتَقِينى بنَحْرِها ، وأَقِيها　　بقَضِيبٍ من القَنا غيرِ بالى

(٢٢) المدجج : المسلح ، صفة للفارس . والقونس : الخوذة يضعها الفارس على رأسه فى أثناء القتال . حتى يئوب كالتمثال : أى فى كامل حسنه لم تغيره شدة القتال . يصف جواده فى أثناء القتال وهو يندفع بفارسه المدجج بسلاحه فيسبق خيل العدو الكثيرة العدد ، ثم يخرج من المعركة كما دخلها لم تغيره شدتها .

(٢٣) المنزع : السهم ، وكذلك المريش ، يريد السهم الذى أعد للانطلاق . والمغالى : الذى يرفع يديه بالسهم إلى أقصاهما ليقذف به . وفى رواية أخرى « شمال المغالى » ، والمعنى على الروايتين واحد ، وهو وصف سرعة الجواد وشدة اندفاعه .

(٢٤) يعفر الظبى والظليم : أى يلق بهما فى التراب خوفا منه وذعرا وفزارا أمامه . واللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن . والمعزابة والمعزال بمعنى واحد وهو الراعى الذى يبتعد بإبله أو غنمه إلى مكان منعزل لينجو بها من خطر يتهددها . ويلوى بها : أى ينفرها . والبيت استمرار فى وصف جواده بالسرعة والاندفاع ، ووصف نفسه بالفروسية .

(٢٥) المهضومة الكشح : الضامرة الخصر الرشيقة . والطفلة : الناعمة اللينة . ينتقل هنا إلى الحديث عن مغامراته الغرامية التى استمتع بها فى شبابه .

(٢٦) تعاطيت : تناولت . يصف لهوه معها على طريقة معاصره امرئ القيس .

(٢٧) البيت استمرار فى تقليد أسلوب امرئ القيس فى حكاية مغامراته الغرامية .

(٢٨) أقدم : أتقدم وأتصدر . والخميس : الجيش . والجرداء : القصيرة الشعر ، صفة للفرس . والجراء : الجرى . والتنقال : سرعة نقل القوائم عند السير والعدو .

(٢٩) القنا : الرماح : جمع قناة . وغير بالى : يريد أنه لم يبل لتقادم العهد به ، صفة للقضيب . وهو الرمح .

٣٠ ولقـد أَقْطَعُ السباسبَ والشُّهْـ ـبَ على الصَّيعَرِيَّةِ الشِّمْلال
٣١ عَنْتَرِيسٍ كأنهـا ذو وُشُـوم أَحْرَجَتْه بالجـوِّ إحدى الليـالى
٣٣ ثم أَبرِى نِحَاضَهـا فـتراها ضامراً بعـدَ بُدْنِهـا كالهـلالِ
٣٣ ذاك عيشٌ رَضيـــتُه وتَوَلَّى كلُّ عيشٍ مصـــيره لزوالِ
٣٤ صَـبرٌ النفسَ عنـد كُلِّ مُـلِمٍّ إنَّ فى الصبرِحيـلةَ المحتـال
٣٥ لا تَضِيقَنَّ فى الأمور فقـد تُكْـ ـشَفُ غَمَّاؤها بغـيرِ احتيـالِ
٣٦ رُبَّمـا تجْـزَعُ النفوسُ مِن الأمْـ ـرِ له فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَـالِ

(٣٠) السباسب : جمع سبسب وهى الصحراء المستوية البعيدة . والشهب : جمع شهباء وهى الأرض البيضاء الجرداء لانبات فيها ولا ماء . والصيعرية : الناقة النجيبة الموسومة فى عنقها . والشملال : السريعة

(٣١) العنتريس : الناقة الصلبة . والوشوم : نقط بيض وسود ، وذو الوشوم هو الثور الوحشى . وأحرجته : ألجأته إلى الحرج وهو المكان الكثير الشجر . والجو : الأرض الفضاء . و يريد بإحدى الليالى إحدى الليالى الباردة . وفى وصف الصيد فى الشعر القديم يتراءى الثور الوحشى دائما فى جو بارد ممطر وقد التجأ إلى شجرة يحتمى بها .

(٣٢) النحاض : اللحم . وأبرى نحاضها أى أهزله وأنضيه لكثرة السفر وطول الرحلة . والبدن : السمن . وتتردد صورة الناقة فى الشعر القديم بعد الرحلة وقد أهزلتها الرحلة كأنما أفنت لحمها وشحمها ولم تبق منها إلا الجلد والعظم . وتشبيهها بالهلال فى ضمورها ونحولها ، وفى القرآن الكريم تشبيه القمر فى الليالى الأخيرة من الشهر بالعرجون القديم فى نحوله وانحنائه « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (يس ٣٩) .

(٣٣) فى رواية أخرى « لهبال » بدلا من « لزوال » ، والهبال : الهلاك ، ومنه « هبلته أمه » و « لأم المخطىء الهبل » .

(٣٤) الملم : ما ينزل بالإنسان من حوادث ونوازل . ومن هنا تبدأ الحكم التى يختم بها الشاعر قصيدته .

(٣٥) الغماء : الأمر الشديد . بغير احتيال : أى بدون أن يحتال لها صاحبها أو يقصد إلى حلها

(٣٦) له فرجة : أى له منفذ ومخرج من ضيقه وشدته . والعقال : الحبل يعقد لتعقل فيه الدابة وتشد به .

* * *

يوسف خليف

عَلْقَمَةُ بن عَبَدَة

هو علقمة بن عَبَدة — بفتح الباء — بن النعمان بن ناشرة بن قيس بن ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مَناة بن تميم . شاعر جاهلي مجيد ، يعد من صدور الجاهلية وفحولها . قال ابن سلام : له ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر . ويقصد القصيدة المختارة ، والقصيدة التي أولها :

ذَهَبْتَ منَ الهجران فى كلِّ مَذْهَبِ   ولم يكُ حقًّا كلُّ هـذا التجنُّبِ

والثالثة أولها :

طَحابك قلبٌ فى الحسانِ طَرُوبُ   بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

ولذلك أطلق عليه « علقمة الفَحْل » أو لأنه — كما تقول الروايات — نازع امرأ القيس الشعر — وكان صديقا له — ورضيا حكم أمِّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس ، فحكمت لعلقمة ، فغضب منها امرؤ القيس وطلقها فخلف عليها علقمة .

وقد تحدث فى القصيدة المختارة عن نأى الحبيبة ، وبكى لفراقها ، ووصف الظعن ، ونعت صاحبته ، ثم وصف دمعه وشبهه بما يفيض من الدلو العظيمة ، ونعت الناقة فى استطراد جيد ، ثم عاد إلى وصف الحبيبة ، وتمنى أن تلحقه بها ناقة جعل لها وصفا مسهبا . ويفتخر بحضوره مجالس الشراب ويصف الخمر والإبريق ، ويفخر بغلبته الأقران ، واشتراكه فى الميسر، واختراقه المفاوز ، وصبره على ردىء الطعام والشراب ، وبسيره فى الهواجر ، وبأنه يقود فرسه أمام الحى ، ثم يصف هذه الفرس والإبل التى تسق الجياد من ألبانها .

الميميّة المُختارة

١ هل ما علمتَ وما استُودِعتَ مكتومُ ... أم حَبلُها إذ نأتكَ اليومَ مصرومُ
٢ أم هل كبيرٌ بكى لم يقضِ عَبرتَه ... إثرَ الأحِبّةِ يومَ البَينِ مشكومُ
٣ لم أدرِ بالبَينِ حتى أزمَعوا ظَعَنًا ... كُلُّ الجِمالِ قُبَيلَ الصُّبحِ مزمومُ
٤ رَدَّ الإماءُ جِمالَ الحَيِّ فاحتَمَلوا ... فكُلُّها بالتَّزيديّاتِ معكومُ
٥ عَقلًا ورَقمًا تَظَلُّ الطَّيرُ تَخطِفُهُ ... كأنّهُ من دمِ الأجوافِ مَدمومُ
٦ يَحمِلنَ أُترُجّةً نَضحُ العَبيرِ بها ... كأنّ تَطيابَها في الأنفِ مَشمومُ
٧ كأنّ فارةَ مِسكٍ في مَفارِقِها ... للباسِطِ المُتَعاطي وهوَ مَزكومُ

(١) حبلها : وصلها . مصروم : مقطوع .

(٢) لم يقض عبرته : لم يشتف من البكاء . مشكوم : مثاب ، مكافأ .

(٣) أزمعوا : عزموا . الظعن : الارتحال . مزموم : شد بالزمام .

(٤) رددن الجمال من الرعى والارتحال ، وخص الجمال دون النوق ، لأن الظعائن يحملن على الذكور لأنها أشد وأذل نفسا . التزيديات : ثياب منسوبة إلى تزيد بن حيدان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة . المعكوم ، المشدود بثوب .

(٥) العقل والرقم : ضربان من الوشى فيهما حمرة جللوا بهما هوادجهم ، فالطير تضربها تحسبها من حمرتها لحما . مدموم : مطلى .

(٦) الأترجة : فاكهة طيبة الرائحة ، شبه بها المرأة . النضح : ما كان رشا . العبير : أخلاط الطيب تجمع بالزعفران . التطياب : تفعال من الطيب . المشموم : المسك ، أى كأن ريحها لا يفارق الأنف فهو أبدا مشموم .

(٧) فأرة المسك : دابة صغيرة أشبه بالخشف يؤخذ منها المسك . الباسط : الذى يبسط يده إليها وكذلك معنى لفظ « المتعاطى » .

٨ فالعينُ منّى كأنَّ غَرْبٌ تَحُطُّ بهِ ... دَهْمَاءُ حاركها بالقتبِ مَحْزُومُ

٩ قد عُرِّيَتْ زَمَنًا حتى استطفَّ لها ... كِتْرٌ كَحَافَةِ كِيرِ القَيْنِ مَلْمُومُ

١٠ قد أدبَرَ العُرُّ عنها وهي شَامِلُهَا ... من ناصِعِ القَطِرَانِ الصِّرْفِ تَدْسِيمُ

١١ تَسْقِي مَذَانِبَ قد زالتْ عَصِيفَتُهَا ... حَدُورُهَا من أتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ

١٢ من ذِكرِ سَلْمَى وما ذِكرِي الأوانَ بها ... إلا السَّفَاهُ، وظَنُّ الغَيْبِ تَرْجِيمُ

١٣ صِفْرُ الوِشَاحَيْنِ مِلءُ الدِّرْعِ خَرْعَبَةٌ ... كأنها رَشَأٌ في البيتِ مَلْزُومُ

١٤ هل تُلْحِقَنِّي بأُخْرَى الحيِّ إذ شَحَطُوا ... جُلْذِيَّةٌ كأتَانِ الضَّحْلِ عُلْكُومُ

---

(٨) الغرب : جلد ثور يتخذ دلوا . تحط به : تعتمد فى جذبها إياه على أحد شقيها . دهماء : ناقة ، وإنما جعلها دهماء لأن الدهم أقوى الابل . الحارك : ملتقى الكتفين . القتب : الخشبة توضع على سنام البعير . يقول : كأن عينى من كثرة دموعهما لسيلانها غرب هذه حاله .

(٩) عريت : أى من رحلها فلم تركب فترة من الزمن فهو أقوى لها . استطف : ارتفع . الكتر : بفتح الكاف وكسرها : السنام . كير القين : موقد نار الحداد ، الملموم : المجتمع .

(١٠) العر : الجرب . الناصع : الخالص من كل شيء . التدسيم : الأثر . يقول : ذهب عنها الجرب وبقى أثر طلائه يشملها .

(١١) تسقى : يعنى هذه الناقة . المذانب : مدافع الماء إلى الرياض . العصيفة : ورق الزرع زوال عصيفتها ، تفرقها وانفتاحها من الرى . حدورها : ما انحدر منها واطمأن . الآتى : السيل . مطموم : مملوء .

(١٢) الأوان : الآن . بها : أراد لها . السفاه : الطيش والخفة فى العقل . يقول : ذكرى إياها الان وقد فارقت سفه منى ، وظنى بها أنها تدوم على العهد أمر لا أحقه .

(١٣) صفر الوشاحين : موضع وشاحيها خميص لايملأ درعها لضمور بطنها . ملء الدرع : تملأ قميصها لعظم عجيزتها وأوراكها . الخرعبة : الناعمة . الرشأ : الظبي الصغير . ملزوم : مربى فى البيوت وهو أحسن له .

(١٤) أخرى الحى : الفرقة التى هى آخرهم ، شحطوا : بعدوا . الجلذية : الشديدة القوية الصلبة . الضحل : الماء القليل . أتان الضحل : الصخرة يجرفها السيل فتبقى فى الماء . شبه الناقة بها لصلابتها لأن الصخرة إذا كانت فى الماء املاست وصلبت . العلكوم : الغليظة .

١٥ كأنَّ غِسْلَةَ خِطْمِيٍّ بِمِشْفَرِها ... فى الخَدِّ منهـا وفى اللَّحْيَيْن تَلْغِيمُ

١٦ بِمِثْلِهـا تُقْطَعُ المُوماةُ عن عُرُضٍ ... إذا تَبَغَّـمَ فى ظَلمـائِه البُـومُ

١٧ تُلاحِظُ السَّوْطَ شَزْرًا وهى ضامِزَةٌ ... كما تَوَجَّسَ طاوى الكَشْحِ مَوْشُومُ

١٨ كأنهـا خاضِبٌ زُعْرٌ قَوادِمُـهُ ... أَجْنَى له باللِّوَى شَرْىٌ وتَنُّـومُ

١٩ يَظَلُّ فى الحَنْظَلِ الخُطْبانِ يَنْقُفُهُ ... وما استَطَفَّ من التَّنُّومِ مَخْـذُومُ

٢٠ فُـوهُ كَشَقِّ العَصَـا لَأْيًا تُبَيِّنُهُ ... أَسَكُّ ما يَسْمَعُ الأَصْواتَ مَصْلُومُ

٢١ حتى تَذَكَّرَ بَيْضـاتٍ وهَيَّجَهُ ... يومُ رَذاذٍ عليـه الريحُ مَغْيُـومُ

(١٥) الغسلة : ما غسل به الرأس . الخطمى : نبات يغسل به . التلغيم : تفعيل من اللغام وهو زبد تخالطه خضرة مما رعت .

(١٦) الموماة : الفـلاة . عن عرض : أى يعترضها ، أى يعتسفها ويسير فيهـا على غير قصد . تبغم : صوت صوتا يختلسه .

(١٧) الشزر : النظر بمؤخر العين من حدتها . الضامزة : التى لا ترغو من ضجره . توجس : تسمع . طاوى الكشح : ضامر الخاصرتين . موشوم : فى قوائمه نقط سود . يقول : تقلب آذانها إلى السوط والزجر كما يتوجس هذا الثور .

(١٨) الخاضب : الظليم قد احمر جلده وساقاه . الظليم : ذكر النعام ، وشـبه الناقة به لسرعته فإن الخيل لا تطالبه . القوادم : ريشات فى مقـدم الجناح . أجنى النبـات : أدرك أن يجتنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشرى : شجـر الحنظل والظليم يأكله . التنوم : شجر ورقه يشبه ورق الآس ينحت ورقه فى القيظ ويرب فى الشتاء .

(١٩) الخطبان : الحنظل فيه خطوط تضرب إلى السواد وهو أشـد ما يكون مرارة . ينقفه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع . مخذوم : مقطوع .

(٢٠) لأيا : بطيئا . تبينه : تتبينه . أى فوه لاصـق ليس بمفتوح ، لاتستبينه إلا بعـد بطء . أسك : أصم ، أو صغير الأذن لاصق بالرأس . المصلوم : المقطوع الأذنين .

(٢١) يقول : هذا الظليم يرعى الخطبان والتنوم ، ثم تذكر بيضه وقد هيجه المطر الخفيف فراح إلى بيضه قبل أوان الرواح . مغيوم : فيه غيم .

٢٢ فلا تَزَيُّدُهُ فى مَشْيِهِ نَفِقٌ ولا الزَّفِيفُ دُوَيْنَ الشَّدِّ مَسْؤُومُ

٢٣ يكاد مَنْسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ كأنّهُ حاذِرٌ للنَّخْسِ مَشْهُومُ

٢٤ وضّاعةٌ كعِصِيِّ الشِّرْعِ جُؤْجُؤُهُ كأنّهُ بِتَنَاهِى الرَّوْضِ عُلْجُومُ

٢٥ يأوى إلى حِسْكِلٍ زُعْرٍ حَوَاصِلُهُ كأنّهُنّ إذا بَرَكْنَ جُرْثُومُ

٢٦ فطاف طَوْفَيْنِ بالأُدْحِىِّ يَقْفُرُهُ كأنّهُ حاذِرٌ للنَّخْسِ مَشْهُومُ

٢٧ حتى تلافى وقَرْنُ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ أُدْحِىَّ عِرْسَيْنِ فيه البَيْضُ مَرْكُومُ

٢٨ يُوحِى إليها بأنْقاضٍ ونَقْنَقَةٍ كما تَرَاطَنُ فى أَفْدانِها الرُّومُ

٢٩ صَعْلٌ كأنّ جناحَيْهِ وجُؤْجُؤَهُ بيتٌ أَطافتْ به خَرْقاءُ مَهْجُومُ

(٢٢) التزيد : السير السريع . النفق بكسر الفاء : السريع الذهاب . الزفيف : دون الشد قليلا . مسؤوم : من السأم ، يعنى أنه لا يسأم الزفيف .

(٢٣) منسمه : ظفره . يقول : يزج برجليه زجا شديدا و يخفض عنقه فيكاد منسمه يشك عينه : المشهوم : الفزع المروع . والشطر الثانى هو نفسه المكرر فى البيت ٢٦ حسب رواية المفضليات .

(٢٤) الوضع : عدو سريع من عدو الابل . والتاء فى « فى وضاعة » للمبالغة كعلامة ونسابة ، وصف به الظليم ، الجؤجؤ : الصدر . الشرع : الأوتار ، واحدها شرعة . وعصيها : البربط أى عود الغناء . شبه صدر الظليم بالبربط فى تقوسه . التناهى : جمع تنهية : وهى الأماكن المطمئنة ينتهى إليها الماء . العلجوم : البعير الطويل المطلى بالقطران .

(٢٥) الحسكل : الفراخ . جرثوم : جمع جرثومة وهى أصول الشجر .

(٢٦) الأدحى : مبيض النعام . يقفره : ينظر إليه هل يرى به أثرا .

(٢٧) تلافى : تدارك . عرسين : أى هو ونعامته .

(٢٨) يوحى إليها : يصور لها فتفهم عنه . الإنقاض التصويت . النقنقة : صوت الظليم . الأفدان : القصور جمع فدن .

(٢٩) الصعل : الخفيف الرأس والعنق . يقول : يرفع جناحيه فى عدوه ويحطهما فكأنه بيت شعر أو صوف ترفعه امرأة خرقاء غير صناع فتى ترفعه يسقط . مهجوم : ساقط مهدوم ، صفة للبيت .

٣٠ تَحُفُّهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَاضِعَةٌ ... تُجِيبُهُ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمُ
٣١ بل كُلُّ قَوْمٍ وإن عزُّوا وإن كَثُرُوا ... عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ مَرْجُومُ
٣٢ والحمدُ لا يُشْتَرَى إلّا لَهُ ثَمَنٌ ... مِمّا يَضِنُّ به الأقوامُ مَعْلُومُ
٣٣ والجودُ نافِيَةٌ للمالِ مَهْلَكَةٌ ... والبُخْلُ باقٍ لأَهْلِيهِ وَمَذْمُومُ
٣٤ والمالُ صوفُ قَرَارٍ يلعبونَ به ... على نِقَادَتِهِ وَافٍ ومَجْلُومُ
٣٥ ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ ... أنَّى تَوَجَّهَ ، والمحرومُ مَحْرُومُ
٣٦ والجهلُ ذو عَرَضٍ لا يُسْتَرادُ لَهُ ... والحِلْمُ آونةً في الناسِ مَعْدُومُ
٣٧ ومن تَعَرَّضَ للغِرْبانِ يَزْجُرُها ... على سلامته لا بُدَّ مَشْؤُومُ
٣٨ وكُلُّ حِصْنٍ وإن طالتْ سلامتُهُ ... على دَعَائِمِهِ لا بُدَّ مَهْدُومُ
٣٩ قد أشهدُ الشَّرْبَ فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ ... والقومُ تَصْرَعُهُمْ صَهْبَاءُ خُرْطُومُ

(٣٠) تحفه : تحف الظليم ، الهقلة : النعامة ، السطعاء : الطويلة العنق ، الخاضعة : التي تميل رأسها للرعي . الزمار : صوت أنثى النعام ، والعرار صوت الذكر .

(٣١) عريفهم : رئيسهم . الأثافي : الحجارة التي تنصب عليها القدر ، جعلها مثلا للرزء ، يقول : كل قوم وإن كانت لهم منعة تصيبهم نوائب الدهر .

(٣٤) القرار : غنم صغار الأجسام لطاف الآذان ، الواحدة قرارة . يلعبون به : يتداولونه ويعبثون فيه . على نقادته : على صغر أجسامه . الوافي : التام الكثير . المجلوم : المجزوز . يعني أن الناس مختلفون ، منهم الغني المكثر ومنهم الفقير الذي لا مال عنده ، كالقرار على صغر أجسامه ، منه ما هو وافي الصوف ومنه ما لا صوف عليه .

(٣٥) يقول : الذي جعل الغنم له طعمة فسيطعمه في يوم الغنم أينما توجه ، ومن حرمه فليس يناله .

(٣٦) لا يستراد له : لا يراد ولا يطلب . أي يعرض لك وأنت لا تريده .

(٣٧) يقول : من يزجر الطير وإن سلم فلا بد أن يصيبه شؤم .

(٣٩) الشرب : جمع شارب . المزهر : العود . رنم : مترنم . الصهباء : خمر من عصير عنب أبيض . الخرطوم : أول من ينزل منها صافية .

٤٠ كأسُ عزيزٍ من الأعنابِ عتّقها — لبعض أحيانها حانيّةٌ حُومُ
٤١ تشفى الصُّداعَ ولا يؤذيك صالبُها — ولا يُخالطُها فى الرأسِ تدويمُ
٤٢ عانيّةٌ قرقفٌ لم تطّلعْ سنةً — يجنُّها مُدمجٌ بالطّين مختومُ
٤٣ ظلّتْ ترقرقُ فى النّاجود يصفقُها — وليدُ أعجمَ بالكتّانِ مفدومُ
٤٤ كأنّ إبريقهم ظبىٌ على شرفٍ — مفدَّمٌ بسبا الكتّان مرثومُ
٤٥ أبيضُ أبرزه للضحِّ راقبُه — مقلَّدٌ قضبَ الريحانِ مفغومُ
٤٦ وقد غدوتُ على قرنى يشيّعنى — ماضٍ أخو ثقةٍ بالخيرِ موسومُ
٤٧ وقد يسرتُ إذا ما الجوعُ كلّفه — معقّبٌ من قداحِ النبعِ مقرومُ

(٤٠) العزيز : الملك . لبعض أحيانها : يقول أعدها لفصح أو عيد . حانية : قوم خمارون نسبوا إلى الحانة ، الواحد حانى . الحوم بضم الحاء : الكثير .

(٤١) الصالب : وجع فى الرأس يدور منه . التدويم : الدوار .

(٤٢) عانية : منسوبة إلى عانة ، قرية من قرى الجزيرة . القرقف : التى تأخذ شاربها منها رعدة . لم تطلع سنة : مكثت سنة فى دنها لم ينظر إليها . يجنها : يسترها . مدمج : يعنى الدن أدمج بالطين . مختوم : معلم عليه .

(٤٣) ترقرق : تذهب وتجىء . الناجود الباطية العظيمة أو الراووق . يصفقها : يمزجها . وليد أعجم : يريد خادم سيد أعجمى . مفدوم : من الفدام ، وهو الخرقة يشدها الغلام على فيه إذا أراد أن يسق القوم ، وهذا من زى الفرس وذلك لكى لا يخرج من فيه شىء فيصل إلى القدح .

(٤٤) شبه انتصاب الإبريق و بياضه بظبى على مكان مرتفع . مفدم : وصف للإبريق . بسبا الكتان : أراد « بسبائب الكتان » فحذف باقى الكلمة . والسبائب : جمع سبيبة وهى الشقة . المرثوم : الذى قد رثم أنفه أى كسر .

(٤٥) أبرزه : أخرجه لتصيبه الريح . الضح : الشمس . راقبه : حافظه وحارسه . مفغوم : كأنه مسدود بكثرة ريح الطيب . يقال فغمتنى ريح طيبة إذا دخلت فى أنفك فسدت خياشيمك .

(٤٦) يشيعنى : يجعلنى جريئا . الماضى : القاطع ، أراد سيفه .

(٤٧) معقب : يعنى قدحا قد شد بالعقب علامة له . والعقب العصب . النبع : شجر تتخذ منه القسى والقداح . مقروم : معضوض ليكون علامة له . يقول : قد أخذت فى الميسر فى الوقت الذى يكلف دفع الجوع فيه القداح ، ليس معول على لبن أو طعام غير الضرب بها .

٤٨ لو يَيْسِرُون بِخَيْلٍ قد يَسَرْتُ بها ... وكُلُّ ما يَسَرَ الأقْـوامُ مَغْـرُومُ

٤٩ وقـد أُصاحبُ فِتْيـانًا طعامُهُم ... خُضْرُ المـزادِ ولحـمٌ فيـه تَنْشِيمُ

٥٠ وقد علوتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنى ... يومٌ تَجيءُ به الجـوزاءُ مَسْمومُ

٥١ حام كأنَّ أُوَارَ النَّـارِ شامِـلُهُ ... دون الثِّياب ورأسُ المرءِ مَعْمومُ

٥٢ وقد أقودُ أمامَ الحيِّ سَلْهَبَةً ... يَهْدِى بها نَسَبٌ فى الحىِّ مَعْلوم

٥٣ لا فى شظَاها ولا أرْسَاغِها عَتَبٌ ... ولا السَّنابِكُ أَفْنـاهنَّ تقلـيمُ

٥٤ سُـلَّاءةٌ كعصا النَّهْدِىِّ غُلَّ لَهـا ... ذُو فَيْئَةٍ مِن نَوَى قُـرَّانَ مَعْجوم

(٤٨) يقول : إنما يكون الميسر بالإبل وإنما يأخذ فى الميسر كبارهم ، فلو صاروا إلى أن ييسروا بالخيل ليسرت بها . مغروم : إذا خرج عليه شىء غرمه .

(٤٩) يقول : طال سفرهم فاخضر مزادهم وصار عليه شبيه بالطحلب . التنشيم : بدء تغير اللحم ، وأراد بالطعام الطعام والشراب فاكتفى بأحدهما .

(٥٠) قتود الرحل : عيدانه . يسفعنى : يصيبنى حره . الجوزاء : من بروج السماء . مسموم : هبّت فيه ريح السموم .

(٥١) أوار النـار : لهبها . دون الثيـاب : أى يصل الحـر من شـدته دون الثياب والعمامة ، أى يتجاوز ذلك إلى البدن .

(٥٢) السلهبة : الطويلة من الخيل ، يهدى بهـا : يقدمها . أى يقودها نسب لا ينقطع لأنها ذات عرق كريم .

(٥٣) الشظا : عظم لاصق بالركبة . العتب : العيب . السنابك : مقاديم الحوافر . يقول : هى واقية السنبك لم تأكله الأرض .

(٥٤) السلاءة : شوكة النخل . شبه فرسه بها لإرهاف صدرها وتمام عجزها . النهدى : أراد شيخا من نهد قد كبر وطال عمره واملاست عصاه . غل : أدخل . ذوفيئة : ذو رجوع . يريد أن النوى علفته الخيل ثم بعرته فهو أصلب . قران : قرية باليمـامة لبنى حنيفة كثيرة النخل نوى تمرها صلب . معجوم : معضوض ، يريد أنه أدخل بجوف فرسه هذا النوى حتى اشتد لحمها ، أو أنها خلقت لهـا فى بطن حوافرها نسور صلاب كأنها النوى ذو الفيئة .

٥٥ يَتْبَعُ جُونًا إذا ما هُيِّجَتْ زَجِلَتْ ... كَأَنَّ دُفًّا على العلياءِ مَهْــزُومُ

٥٦ إذا تَزَغَّم من حافاتِها رُبَعٌ ... حَنَّتْ شغاميمُ فى حافاتِهـا كُومُ

٥٧ يَهْدِى بها أَكْلَفُ الخدَّينِ مُخْتَبِرٌ ... من الجِمالِ كثيرُ اللَّحْمِ عَيْثُومُ

* * *

(٥٥) الجون : الإبل السود . أى تتبع هــذه الفرس الإبل لتسق من ألبانها . الزجل : ارتفاع الصــوت . مهزوم : مشقوق فهو أبح للصوت . يعنى إذا هيجت الإبل للورد سمعت لهـا صوتا عاليا لكثرتها كأنه صوت دف مشقوق على مكان مرتفع .

(٥٦) تزغم : حن حنينا خفيا ، أى تزغم لأمه لترضعه . حافاتها : نواحيها . الربع : ما نتج فى الربيع . الشغاميم : جمع شغموم وهى الناقة الطويلة . كوم : عظام الأسنمة .

(٥٧) يهدى بها : يتقدمها . أكلف الخدين : يعنى فحلها . والكلفة : حمرة فيها سواد . المختبر بكسر الباء : المجرب ، وبفتحها : المشهور بالنجابة . العيثوم : الضخم .

* * *

سـيد حنفى

السَّمَوْءَل بن عادِيَاء

مَوَاطِنُ الفخــــر

السموءل بن عُرَيْض بن عادياء شاعر جاهلي مجيد من بنى هَدَل وهم ليسوا من بنى قُرَيظة ولا النَّضير ، وهــذا الاسم عبرانى أصله شمويل فأعربته العرب وهو الذى يعــرف الآن باسم صموئيل أو صموئيل . ويضرب المثل بالسموءل فى الوفاء عند العرب ، فيقال (أوفى من السموءل) ويرجع سببها إلى أن امرأ القيس أودعه ماله وأدراعه فى سفره إلى قيصر ، فجاء الحارث بن ظالم المــرى وأسر ابنه وكان خارج الحصن الذى يمتلكه ويشتهر به واسمه الأبلق الفرد ، وكان على رابية مشرفا على تيمــاء ، وهى بلد بين الشام والحجاز ، فخيره بين قتل ابنه وخيانة أمانته بتسليمه أموال امرئ القيس وأدراعه ، فاختار الوفاء وأسلم ابنه للقتل . وفى ذلك يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : خالف السموءل غدر أهل دينه ، ووفى بعربيته .

وهو فى هذه الأبيات التى اخترناها له يفخر بالقيم العربيــة الأصيلة فيقول إن الإنسان يعظم بابتعاده عن اللؤم ، واللــؤم اسم جامع لصفات الخسة ودناءة النفس . وكذلك يشرف المرء ويكتسب حمد الناس حين يستخدم حلمه و يكظم غيظه ويصبر على المشقات ويعذب النفس فى سبيل الحق والمجــد . والأمجاد لا تقاس بعدد أفراد كل قبيلة ، بل بعــدد من فيها من الكرام وهم قلة ، فليس من سبيل إذن لتعيير الشاعر بقــلة عددهم ، فهــم رجال يتسابقون إلى المحامد والمفاخر شبانهم وكهولهــم ، وكيف يكون هؤلاء قليلى العــدد وهم قادرون على

حماية من يجيرونه وإبقائه عزيزا مكرما ، بينما تجد قبائل أخرى كثيرة العدد غير قادرة على حماية جيرانها فيلحق بهم الذل والعار .

ويفخر الشاعر بمجد قومه الراسخ رسوخ الجبل المنيع الشامخ الذى لا تستطيع الأبصار أن تدركه لسموقه وارتفاعه كأنه النجم فى السماء . ومن مفاخر قومه أنهم لا يرون فى قتلهم فى أرض المعركة عارا يلحق بهم كما يظن أعداؤهم من قبيلتى عامر وسلول ، بل يجدون فيه سببا للفخر حتى إنهم يتمنونه ، فتقصر أعمارهم بسبب حبهم للموت فى المعارك ، بينما تطول أعمار أعدائهم لعدم استبسالهم وجبنهم وزارهم وكرههم للموت . ولا تجد بطلا من أبطالهم يموت موتا هينا على فراشه ، لأن موت الأبطال يكون فى ساحة الحرب والنضال ، وهم فى الوقت ذاته لايسكتون على ثأرهم ، فلا يذهب دم قتلاهم هدرا وهم يختارون لأنفسهم أشرف الموت وهو القتل بالسيف فى أثناء الصراع والمجالدة فى الحرب وليس القتل بالعصى والحجارة شأن العبيد ، أو شأن الجبناء الذين ينالهم أعداؤهم من بعيد لنكوصهم من أرض المعركة .

ويفخر الشاعر بطيب أصولهم من حيث الآباء والأمهات ، فهم من سلالة عريقة شريفة لم تختلط بدنس فى النسب ، بل هى صافية من كل شائبة تنزل بقَدْرهم ، صفاءَ ماءِ السحاب ، فمن أين يأتيهم إذن اللؤم بما فيه من جبن وبخل وضعف ، وهى صفات أبعد ماتكون من العربى الأصيل الشريف ؟

وقد بلغ من قوتهم واعتدادهم بأنفسهم ومعرفة الناس قدرهم أنهم أصبحوا سادة رؤساء يغيرون ما يشاءون ويثبتون ما يشاءون ، لا معقب على فعلهم ، ولا راد لقولهم ، وهم سلالة كريمة شريفة بعضها من بعض ، فإذا قضى بطل منهم نحبه مقاتلا كدأبهم خَلَفَه بطل آخر يصدّق فعلُه قولَه فلا يتلون ولا يتغير .

وهم قوم كرماء يوقدون النار ليقبل عليهم الضيوف فينالوا من برهم وكرمهم ما يلهج ألسنتهم بالشكر ، ولم يحـدث قط أن عابهم ضيف لأنهم حريصون على القِرى يقدمون لضيوفهم كل مايرضيهم من طعام ومأوى .

و يعود الشاعر للفخر بحروب قومه واستبسالهم فى القتال حتى صارت وقائعهم معـالم بارزة معروفة مأثورة تشهد على شجاعتهم وقوتهم واقتدارهم على أعدائهم . وقد ظهرت آثار المعارك المتصلة فى سيوفهم إذ تثلمت من كثرة ما قارعوا بهـا الأبطال فى حروبهم . وهى قـد عُوِّدت إذا سُلَّت ألا تغمد حتى تؤدى مهمتها وتنتصر على أعدائها . وهذه المفاخر جميعا لا ينكرها غير الجاهل الذى فى قلبه مرض . ويعلن الشاعر فى ختام أبياته أن قومه هم السادة الذين يُلجأ إليهم فى المهمات ويستشارون فى الملمات .

* * *

١ إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤم عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميـلُ

٢ وإنْ هو لم يَحمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها فليس إلى حُسْنِ الثَّناءِ سبيلُ

٣ تُعَيِّرنا أنَّا قليـلٌ عديدُنا فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليـلُ

٤ وما قلَّ من كانت بقاياه مِثْلَنا شَبَابٌ تسامى للعُلا وكُهُـولُ

٥ وماضَرَّنا أنَّا قليـلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليـلُ

(١) العرض : كل ما يدافع عنه الإنسان ، واللؤم كلمة جامعة لخصال السوء .

(٢) الضيم : الظلم والهوان ، والمقصود إهانة النفس طلبا للحق واكتسابا للمجد .

(٣) العديد : العدد ، وعير : عد عارا .

(٤) شباب مصدر فى الأصل وصف به ، تسامى : أصلها تتسامى فحذف احدى التاءين للتخفيف والكهول : جمع كهل وهو الذى وخطه الشيب .

(٥) ماضرنا : يجوز أن يكون ما حرف نفى والمعنى لم يضرنا ، ويجوز أن تكون اسما مستفهما به على طريق التقرير ، والمعنى أى شىء يضرنا ؟

٦ لنا جبلٌ يحتلُّه من نُجيرُه ... منيعٌ يَردُّ الطرفَ وهو كليلُ
٧ وسما أصلُه تحت الثرى وسما به ... إلى النَّجم فرعٌ لا يُنال طويلُ
٨ وإنَّا لَقومٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسَلولُ
٩ يقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ
١٠ وما مات منَّا سَيِّدٌ حتفَ أنفِه ... ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
١١ تَسيل على حَدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليست على غير الظُّباتِ تسيل
١٢ صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأخلَصَ سِرَّنا ... إناثٌ أطابت حملَنا وفُحولُ
١٣ عَلَوْنا إلى خيرِ الظُّهورِ وحطَّنا ... لِوَقْتٍ إلى خيرِ البُطونِ نُزولُ
١٤ فنحن كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا ... كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ
١٥ ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا على النَّاسِ قولَهُمْ ... ولا ينكرونَ القَوْلَ حين نقولُ
١٦ اذا سَيِّدٌ منَّا خَلَا قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لما قال الكرامُ فَعُولُ

---

(٦) جبل : عز ومجد ، يحتله : يدخل فيه ، الطرف : النظر ، كليل : عاجز ضعيف .

(٧) أصله : يعني أساس الجبل وهو العز والمجد ، وفرعه يعني أعلاه .

(٨) السبة : ما يسب به الإنسان ، وعامر هم بنو عامر بن صعصعة ، وسلول هم بنو مرة بن صعصعة .

(١٠) مات حتف أنفه : أي على فراشه ، وأصله حتفه بأنفه ، أي بالأنفاس التي خرجت من أنفه عند خروج الروح ، وليس دفعة واحدة كما يحدث عند القتل . وطل دمه : أي ذهب هدرا دون أن يثأر له .

(١١) الظبات جمع ظبة وهي حد السيف .

(١٢) السر : النكاح ، والمقصود بالإناث الأمهات ، والفحول الآباء .

(١٣) يعني بالظهور الآباء ، وبالبطون الأمهات ، والوقت الذي يشير إليه وقت الأطهار .

(١٤) المزن : السحاب ، والكهام : الكليل الحد الضعيف .

(١٦) خلا : أي مضى وانقضى أمره ، قؤول : صيغة مبالغة من قائل ، وفعول : صيغة مبالغة من فاعل .

١٧ وما أخمدَتْ نارٌ لنــا دونَ طارقٍ ولا ذمَّنا فى النــّازلين نَزيــلُ
١٨ وأيامُنــا مَشْهورةٌ فى عـدُوِّنا لهــا غُررٌ معــلومةٌ وحُجُــولُ
١٩ وأسيافُنا فى كل غَرْبٍ ومَشْرقٍ بهــا من قِـراعِ الدّارعينَ فُلُولُ
٢٠ مُعـوَّدةٌ ألّا تُسَلَّ نِصالُهــا فتُغْمَدَ حـتى يُستَباحَ قَبِيــلُ
٢١ سَلى إنْ جَهِلْتِ النّاسَ عنّا وعنكمُ وليس سَــواءً عالِمٌ وجَهُــولُ
٢٢ فإن بنى الدّيّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِـمْ تَدورُ رحاهم حولَهُـمْ وتَجُــولُ

---

(١٧) النار التى يعنيها نار الضيافة : والطارق : زائر الليل ، والنزيل : الرفيق والجليس .

(١٨) الأيام : الوقائع والحروب ، الغرر : جمع غرة وهو البياض الذى يكون فى جبهة الفرس ، والحجول : بياض فى مواضع الحجل من الفرس وهو القيد والخلخال .

(١٩) قراع : نزال وحرب ، الدارعين : الذين يلبسون الدروع خوفا من الطعنات ، والفلول : ما يكون فى السيف من تثليم بسبب كثرة الاستخدام وشدة الضرب .

(٢٠) تغمد : ترد فى أغمادها ، قبيل : قبائل .

(٢٢) القطب : الحديدة فى الطبق الأسفل من الرحى يدور عليها الطبق الأعلى ، ومنه جاء القطب بمعنى السيد والزعيم .

* * *

محمد مصطفى هدارة

أبو دُؤَاد الإيادىّ

رحـــلةُ صـــيدٍ

أبو دؤاد الإيادى اسمه جارية بن الحجاج بن خدامة وقيل حنظلة بن الشرقى، من أشهر وصافى الخيل فى الجاهلية، وكان فى عصر كعب بن مامة الإيادى الذى آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمرى فمات عطشا فضرب به المثل فى الجود. وهو فى هذه الأبيات التى اخترناها له يصف منزلا من منازل البادية، قد أهل بالوحش وقد اعتزم الصيد وأعد فرسه لذلك فانتطاه غلام له فى أول النهار وانطلق به فأصاب صيدا كثيرا، وأفاض الشاعر فى وصف فرسه.

* * *

١ ودارٍ يقول لها الرّائدو ... نَ ويلَ امِّ دار الحُذَاقىِّ دارا

٢ فلما وضَعنا بها بيتَنا ... نُتِجْنَا حُوارا وصِدنا حِمارا

٣ وبات الظَّليمُ مكان المِجَنِّ (م) تَسْمَعُ بالليل منه عِرارا

٤ وراح علينا رِعاءٌ لنا ... فقالوا: رأينا بهَجْلٍ صِوارا

٥ فبِتْنا عُراةً لدى مُهْرنا ... نُنَزِّعُ من شَفَتيه الصُّفَارا

---

(١) الحذاق: يعنى نفسه نسبة إلى قبيلته حذاقة وهى فرع من اياد، والرائدون: الذين يردون المكان لاستكشافه.

(٢) نتجنا: ولدنا، الحوار: ولد الناقة.

(٣) الظليم: ذكر النعام، المجن: الترس، العرار: صوت ذكر النعام.

(٤) الهجل: المكان المطمئن بين الجبال، الصوار: القطيع من البقر.

(٥) عراة: يعنى مقيمين، الصفار: نبت له شوك.

٦ وبتنا نُغَــرِّثُه بالجـام نريــد به قَنَصاً أو غِـوارا
٧ فلمـا أضاءت لنـا سُـدْفةٌ ولاح من الصُّبح خَيْـطٌ أنارا
٨ غَـدَوْنا بـه كَسِوَارِ الهَـلُو كِ مُضْطَمِرًا حالبـاه اضْطِمَارا
٩ مَرُوحًا يُجاذبنـا فى القِيـادِ تخالُ من القَوْدِ فيـه اقوِرَارا
١٠ ضَرُوحَ الحماتين سامى التَّليـلِ وثُوبًا إذا ما انْتَحَاهُ الخَبـارا
١١ فلمَّـا عـلا مَتْنَتَيـهِ الغُـلامُ وسكَّنَ من آلهِ أن يُطـارا
١٢ ومُسْرِحٍ كالأَجْدَلِ الفَـارِسيِّ (م) فى إثر سِرْبٍ أجَدَّ النِّفـارا
١٣ فَصَـادَ لنـا أَكْحَـلَ المُقلتيـ ـن فحْـلًا وأخرى مَهـاةً نَوارا
١٤ وعادى ثلاثا فَخَـرَّ السِّـنا نُ إمَّا نُصـولا وإما انكسَـارَا
١٥ أكُلَّ امرئٍ تحسبين امرءًا ونارٍ تَوَقَّـدُ بالَّليْـلِ نارا؟

(٦) نغرثه : نجوعه ، القنص : الصيد ، الغوار : الغارة .

(٧) سدفة : ضوء ، وهى من الأضداد .

(٨) الهلوك : المرأة الفاجرة المتهالكة على الرجال ، مضطمرا : ضامرا ، الحالبان : عرقان من السرة إلى البطن .

(٩) مروحا : شديد المرح أى الخفة والنشاط ، القياد : الحبل الذى يقاد به ، القود : مصدر قاد ، الاقورار : تشنج الجلد .

(١٠) الضروح : الفرس الذى يضرب برجله ، الحماتان : لحمتان فى عرض الساق ، سامى التليل : مرتفع العنق ، انتحاه : قصده ، الخبار : اللين من الأرض .

(١١) المتنتان : متنا الظهر عن يمين وشمال ، آله : شخصه .

(١٢) الأجدل : الصقر ، والنفار : الهرب .

(١٤) عادى ثلاثا : والى بينها قتلا ، النصول : خروج النصل من الرمح .

* * *

محمد مصطفى هـدارة

لَقِيط بن يَعْمُر الإياديّ

هو لقيط بن يَعْمُر بن خارجة بن عَوْثَبَان الإيادى ، شاعر جاهلى قديم ، أخباره قليلة ، يشير بعضها إلى أنه كان كاتب كسرى وترجمانه سريا من سادات قومه ، فاطلع على أسرار دولة الفرس التى عاش فى بلاط ملكها ، ويقال إنه حبس فى سجن كسرى فأطلقه وأمره أن يكتب إلى قومه ليجتمعوا فيغير عليهم فيقتلهم ، وإن كان أبو هلال العسكرى عارض هذا حين ذكر أنه كان « رهينة عند إياد لئلا يعيثوا » . ومهما كان الأمر فإن لقيطا قد حذّر قومه يوم أحس رغبة كسرى فى قتال إياد ، ولما لم يأبهوا بإنذاره السريع أرسل إليهم قصيدته العينية التى حضهم فيها على قتال الفرس ، ودعاهم للتهيؤ لملاقاة جيشهم اللجب ، فلما وقع كتابه بين يدى كسرى قطع لسانه وقتله ، فذهب شهيد وفائه لقومه وحرصه عليهم .

وعدت قصيدته العينية عند بعض القدماء من القصائد المفردات الجاهليات التى لا يعرف فى مثل معناها وجودتها وجزالة ألفاظها . وموضوعها تحريض قومه ضد أعدائهم ، وعلى الرغم من أن كثيرا من القصائد قد قيلت فى هذا الموضوع إلا أنّ النقاد سجلوا إعجابا خاصا بهذه القصيدة فذهب ابن الأثير إلى أنها من أجود ما قيل فى صفة الحرب . وقد كانت إياد — قبيلة الشاعر — تنزل سنداد وهو نهر فيما بين الحيرة والأبلّة ، وكان عليه قصر تحج إليه العرب ، وكانت إياد أكثر نزار عددا ، وكانت ترفض دفع الإتاوة لأحد من الملوك . وبلغ من جرأتهم أنهم توجهوا إلى امرأة كسرى أنو شروان فأخذوها وأخذوا معها أموالها ،

فجهز إليهم كسرى جندا من عنـده مرتين وكانت إياد تنتصر عليهم . ثم ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفـا فى سلاحهم ، وكان لقيط بن يعمر الإيادى ينزل الحيرة فبلغه الخبر فكتب إلى إياد وهم بالجزيرة :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيطٍ ... إلى من بالجـزيرة من إيادِ

بأن الليثَ كسرى قد أتاكم ... فلا يَشْغَلَنكم سَوْقُ النِّقَادِ

أتاكم منهمُ ستون ألفـا ... يُزَجُّون الكتائبَ كالجـراد

على حنـق أتينَـكمُ فهـذا ... أوانُ هلاكِكم كهلاكِ عادِ

فلما وردت الخيل كتب لقيط إلى إياد هذه القصيدة التى اخترناها يحذرهم ويحرضهم على الاستعداد للحرب ويصف لهم الخيل .

ويبدو أن القصيدة قد أدت وظيفتها كما أرادها لها صاحبها ، فقـد رُوِى أن إيادا حين بلغها كتاب لقيط هذا استعدوا لمحاربة الجنود التى بعث بها كسرى فالتقوا ، واقتتلوا قتالا شديدا حتى رجعت الخيـل من الفريقين جميعا . ثم إنهم اختلفوا فيما بينهم وتفرقت جماعتهم فلحقت طائفة بالشام وأقام الباقون بالجزيرة .

* * *

(تراجع ترجمة الشاعر وأخباره فى مقـدمة الديوان الذى حققـه وعلق عليه وقدّم له خليل إبراهيم العطية ضمن سلسلة كتب التراث سنة ١٩٧٠ العراق) .

* * *

عبد الله التطاوى

إنـــذارٌ ونُصْـــحٌ

١ يادارَ عمرةَ من مُحتلِّها الجَرَعا ... هاجت لى الهمَّ والأحزانَ والوجَعا

٢ تامتْ فؤادى بذات الجِزْعِ خَرْعَبةٌ ... مرت تريدُ بذاتِ العَذبة البِيَعا

٣ جرت لما بيننا حبلَ الشَّموسِ فلا ... يأساً مُبيناً نرى منها ولا طمَعا

٤ فما أزالُ على شَحْطٍ يؤرِّقُنى ... طيفٌ تعمَّدَ رحلى حيثُ ما وضَعا

٥ أنَّى بعينَىَّ ما أمَّتْ حُمولُهمُ ... بطنَ السَّلَوْطَحِ لا ينظُرْنَ من تبِعا

٦ طوراً أراهُمْ وطوراً لا أُبِينُهمُ ... إذا تواضعَ خِدْرٌ ساعةً لمَعا

٧ بل أيها الراكبُ المُزْجِى على عَجَلٍ ... نحو الجزيرة مرتاداً ومُنْتَجِعا

---

(١) أجرع وجرعاء : ما استوى من الرمل ، والجرعة الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها .

(٢) البيع : كنائس النصارى مفردها بيعة (بكسر الباء) . تامت فؤادى : ضللته وذهبت به ، والمتيم الذى ضلل فؤاده من شدة الهوى . الجزع : منثنى الوادى . الخرعبة : المرأة صغيرة السن .

(٣) الشموس : الدابة الممتنعة التى لا تمكن الفارس من إسراجها أو إلجامها . يريد بها صاحبته .

(٤) الشحط : البعد ، وأشحطه أبعده .

(٥) أمت : قصدت واتجهت . لا ينظرن : لا يرقبن أو يحددن النظر . السلوطح : موضع بالجزيرة .

(٦) يبينهم : يستبينهم ويستوضحهم . تواضع : تباعد وتراخى . لمعان الآل : بريق السراب .

(٧) المزجى : السائق . المرتاد : الذى يرتاد أرضا جديدة لأول مرة . ينتجع الأرض : يطلب الكلأ فيها ويرعى نباتها .

٨ أبلـغْ إياداً وخلّل فى سراتهـمُ ... إنى أرى الرأْىَ إن لم أُعْصَ قد نَصعا
٩ يالهفَ نَفْسِىَ إن كانت أمورُكُمُ ... شتّى وأُحْكِمَ أمرُ الناس فاجتمَعا
١٠ ألاَ تخافون قوماً لا أبا لـكم ... أمسَوْا إليكم كأمثال الدَّبا سُرُعا
١١ أبنـاءُ قـومٍ تأوّوكم على حَنَـقٍ ... لايشـعرون أضرَّ اللهُ أم نَفَعـا
١٢ أحرارُ فارسَ أبناء المُـلوك لهـم ... من الجموع جموعٌ تزدَهى القلعا
١٣ فهم سراعٌ إليكم بين مُلْتقَـطٍ ... شَوْكًا وآخر يجنى الصابَ والسّلعا
١٤ لو أن جمعهـــمُ راموا بهــدّته ... شُمَّ الشّماريخ من ثَهلانَ لانصَدَعا
١٥ فى كل يوم يسنُّون الحرابَ لـكم ... لا يهجعون إذا ما غَافِلٌ هَجَعـا
١٦ خُزْراً عيونُهـُمُ كأنَّ لحظَهُـمُ ... حريقُ نار ترى منه السَّنا قِطَعا
١٧ لا الحرثُ يَشْغلهم بل لايرون لهم ... من دون بيضتكم رِيًّا ولا شِـبَعا
١٨ وأنتمُ تحرثون الأرضَ عن سَـفَهٍ ... فى كل مُعْتَمـل تبغون مُزْدَرَعا

(٨) يخلل : يخص ، وتخللهم دخل بينهم ، والشيء نفذه ، والمطر خص ولم يكن عاما .

(١٠) الدبا : صغار الجراد .

(١١) تأووكم : أووا إليكم . لا يشعرون : لا يعلمون .

(١٢) تزدهى : تستخف . القلع : الصخور العظام .

(١٣) الشوك : يقصد به السلاح الجديد . الصاب : لبن العشر وهو سم . السلع : نبت بالحجاز خبيث الطعم لا ترعاه الحيوانات . يجنى الصاب : يعد لكم الشر ليقضى عليكم .

(١٤) راموا : حاولوا . ثهلان : جبل . الشماريخ : رؤوس تنتأ من الجبال .

(١٥) يسنون : يحددون . لايهجعون : لاينامون إذا نام الغافل .

(١٦) الأخزر : الذى ينظر بمؤخر عينه . السنا : الضوء .

(١٧) الحرث : الزرع ، وهو أيضا الكسب وجمع المال . البيضة هنا الأصل .

(١٨) عن سفه : أى عن غفلة منكم عن أمرهم .

١٩ وتلقحون حيالَ الشَّوْلِ آونةً — وتُنْتِجون بدار القلعة الرُّبَعا
٢٠ وتلبسون ثياب الأمنِ ضاحيةً — لا تجمعون وهذا الليثُ قد جَمَعا
٢١ أنتم فريقان : هذا لا يقومُ له — هَصْرُ اللُّيوث وهذا هالكٌ صُقِعا
٢٢ وقد أظلَّكُمُ من شطر ثغركمُ — هولٌ له ظُلَمٌ تغشاكُمُ قِطَعا
٢٣ مالى أراكُمْ نياماً فى بُلَهْنِيَةٍ — وقد ترَوْنَ شهابَ الحرْب قد سَطَعا
٢٤ فاشفوا غليلى برأيٍ منكمُ حَسَنٍ — يَضْحَى فؤادى له رَيَّانَ قد نقعا
٢٥ ولا تكونوا كمَنْ قد بات مكتنِعاً — إذا يقال له : افرجْ غمةً كَنَعا
٢٦ صونوا جيادكُمُ واجلُوا سيوفَكمُ — وجدِّدوا للقسىِّ النَّبْلَ والشِّرعا
٢٧ اشرَوْا تلادكُمُ فى حِرْزِ أنفسكم — وحِرْزِ نسوتكم لا تهلكوا هَلَعا
٢٨ ولا يدع بعضُكم بعضاً لنائبةٍ — كما تركتم بأعلى بِيشَةَ النَّخَعا
٢٩ اذكُروا العيونَ وراءَ السَّرْحِ واحترسوا — حتى ترى الخيلَ من تعدائها رُجُعا

(١٩) الشول : إناث الإبل التى شالت ألبانها أى جفت . حيالها : ما حال منها فلم تحمل .
(٢٠) الليث هنا يقصد به كسرى .
(٢١) هصر الليوث : كسرها وشدة بطشها . الصقع : الفزع وذهاب العقل من شدة الخوف .
(٢٢) أظلكم : كأنه واقع بكم . شطر : نحو . الثغر : الناحية من الأرض .
(٢٣) البلهنية : الرخاء والرفاهية والغفلة فى العيش والانشغال بالترف .
(٢٤) الغليل : حرارة الجوف يجدها الإنسان مع شدة حزنه وهمه .
(٢٥) المكتنع : الذليل الخاضع . والغمة : الغم . كنع : خشع وانقبض .
(٢٦) الشرع : الأوتار الدقاق .
(٢٧) اشروا : بيعوا أو طيبوا عنها أنفسا وتحولوا عنها .
(٢٨) لا يدع : لا يسلم بعضكم بعضا لنائبة ، والنائبة المصيبة . أعلى بيشة : موضع باليمن .
(٢٩) رجعا : جمع رجيع وهو الضامر الذى ضعف فقيل له رجيع سفر . السرح : إبل القوم ، والسرح المال السائم .

٣٠ فإن غُلِبْتُم على ضِنٍّ بدارِكم ... فقد لقيتم بأمرٍ حازمٍ فزعا
٣١ لا تلهكم إبِلٌ ليست لكم إبِلٌ ... إن العدوَّ بِعَظْمٍ منكم قَرَعا
٣٢ هيهات لا مالَ من زرعٍ ولا إبِلٍ ... يُرْجَى لغابِرِكم إن أنفُكم جُدِعا
٣٣ لا تُثْمِرُوا المالَ للأعداءِ إنَّهُمُ ... إن يظفروا يحتووكم والتِّلادَ معا
٣٤ والله ما انفكّت الأموالُ مُذْ أبدٍ ... لأهلها إن أُصيبوا مرةً تَبَعا
٣٥ ياقوم إنَّ لكم من عِزِّ أولكم ... إرثًا قد اشفقْتُ أن يُودِي فينقطعا
٣٦ وما يردُّ عليكُم عِزُّ أولكم ... إن ضاع آخرُه أو ذلَّ فاتَّضعا
٣٧ فلا تغرَّنَّكُم دُنْيا ولا طَمَعٌ ... لَنْ تنعشوا بزماعٍ ذلكَ الطَّمعا
٣٨ يا قوم بَيْضَتكم لا تُفْجَعُنَّ بها ... إنِّى أخافُ عليها الأزْلَمَ الجَذَعا
٣٩ يا قوم لا تأمنُوا إن كنتمُ غُيُرًا ... على نِسائكُمُ كِسْرَى وما جَمَعا
٤٠ هو الجَلاءُ الذى يجتثُّ أصلَكُم ... فمَنْ رأى مثلَ ذا رأيًا ومن سَمِعا
٤١ قوموا قيامًا على أمْشاطِ أرجُلِكم ... ثم افْزَعُوا قد ينالُ الأمنَ من فَزِعا
٤٢ فقلِّدُوا أمرَكم لله دَرُّكُم ... رَحْبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضْطَلِعا
٤٣ لا مُترفًا إنْ رخاءُ العيشِ ساعَده ... ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به خشعا

(٣٣) لا تثمروا : لاتكثروا . التلاد : القديمة . والطريف المستحدث .
(٣٤) ما انفكت : ما زالت .
(٣٥) يودى : يهلك .
(٣٧) تنعشوا : تجبروا وتحيوا نعشه وأنعشه جبره . الزماع : التهيؤ للحرب .
(٣٨) بيضتكم : أى أصلكم . الأزلم الجذع : الدهر لأنه لا يهرم أبدا .
(٤٠) الجلاء : الحشر والطرد . يجتث : يقطع .
(٤٢) مضطلعا : محتملا . لله دركم : أى خيركم « صيغة دعائية » . رحب الذراع : واسعها ، دلالة على مكانته بين قومه .

٤٤ مُسَهَّد النــوم تَعْنيــهِ ثُغورُكم يَرُومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلَعــا
٤٥ ما انفكَّ يحلب درَّ الدَّهر أشطره يكونُ مُتَّبَعًــا طَــوْرًا ومتَّبِعَا
٤٦ وليس يشــغلُه مــالٌ يثمِّــرهُ عنــكم ولا وَلَدٌ يبغى له الرِّفعــا
٤٧ حــتى استمرت على شَزْرٍ مَريرتُه مستحكَمَ السنِ لا قَحْمًا ولا ضَرِعا
٤٨ كمالك بن قنان أو كصاحبــهِ زيدِ القَنَا يوم لاقى الحارِثَين مَعا
٤٩ إذ عابَهُ عائبٌ يومًا فقال له : دمِّث لجنبِكَ قبلَ الليل مُضْطجعا
٥٠ فساوَرُوه فألفَــوْهُ أخا عِلَــلٍ فى الحرب يَحتبلُ الرِّئبَالَ والسَّبُعا
٥١ عبــلَ الذِّراع أبيًّــا ذا مزابنةٍ فى الحرب لا عاجِزًا نِكسًا ولا وَرِعا
٥٢ مستنجدًا يتحدى النّاسَ كلَّهــم لو قارعَ النّاسَ عن أحْسابهم قَرعا
٥٣ هذا كتابى إليكم والنَّــذيرُ لكم لِمَنْ رَأى رأيَهُ منكم ومَنْ سَمِعــا
٥٤ لَقَدْ بَذَلْتُ لكم نُصْحِى بلا دَخَلٍ فاستيقظُوا إنَّ خَيْرَ العِــلْمِ ما نَفَعَا

---

(٤٧) الشزر : الذى لا يقتــل على وجهه ، أى يفتل مقلوبا . استمرت مريرته : أى فتل فتلا شــديدا .

(٤٩) دمث لجنبك قبل الليل مضطربا : أى تهيأ للأمر قبل وقوعه واستعد له .

(٥٠) أخا علل فى الحرب : أى يلق الحرب مرة بعد أخرى . يحتبل : يصيد . الرئبال : الأسد .

(٥١) عبل الذراع : غليظ الذراع . ذا مزابنة : ذا مدافعة . النكس : الضعيف من الرجال . الورع : الجبان .

(٥٢) يتحدى الناس : يبارزهم ويدعوهم للنازلة .

* * *

عبد الله التطاوى

المُرَقِّش الأكبر

هو عوف بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثَعْلبة . . . والمرقِّش لقب لُقِّب به ، وهو واحد من متيَّمى العرب وفرسانهم ، عرفت شجاعته حين اشترك فى حروب بكر بن وائل مع بنى تغلب . وكان عوف وعمرو ابنا مالك بن ضبيعة عمّا المرقش الأكبر من فرسان بكر ، وعمرو بن مالك هو الذى أسر مهلهلا فى بعض الغارات بين بكر وتغلب .

كان المرقش يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف بن على بن مالك بن ضبيعة ، وكان له ولابن أخيه المرقِّش الأصغر موقع فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ، كما كان لهما بأس وشجاعة برزا فى تقدمهما فى العدو وحسن أثرهما فى معاركه .

من أهم أخباره التى أوردها صاحب الأغانى والمفضل الضبى عشقه ابنة عمه أسماء ، وقد خطبها إلى أبيها ، ولكنّ أباها زوجها فى بنى مراد فى غيبته ، ثم أخبره أهله بموت أسماء ، وأتوا به فى موضع قبر مزعوم لها ، فنظر إليه وراح بعد ذلك يعتاده ويزوره . ثم ساعدته الظروف على معرفة خبر زواج أسماء من المرادى فركب مطيته ورحل فى طلبه . ومرض فى الطريق وتركه الغُفَلى رفيقه فى رحلته ، وعاد الغُفَلى وزوجته فزعما أنه مات ، ولكن حرملة تنبه أنه مازال حيا من خلال قراءة ما كتبه المرقش على الرحل ، فدعا الغُفَلى وزوجته وخوّفهما بأن يصدقاه ففعلا فقتلهما ، وقد كانا وصفا له الموضع ، فركب فى طلب المرقش حتى أتى المكان ، فسأل عن خبره ، فعرف أن مرقشا كان فى الكهف ولم

يزل فيـه . وتنتهى الرواية إلى خروجه بعد ذلك لقتـل أسماء فردّه أخواه وعذلاه وقال شعرا، و يقال أنه مات عند أسماء ودفن فى أرض مراد .

وفى قصـيدته السينية التى اخترناها له يقف على أطلال صاحبته « أسمـاء » ينعى الطلل وصاحبته ، وتثير أشجانه وحشة المكان ، ثم يصور رحلته فى الصحراء الموحشة ، وقد قطعها على ناقته التى أضناها السُّرَى ، وتتعدد المشاهد بدلالاتها المخيفة على رهبـة الليل ، فيظهر مشهد الإبل فى الظُّلمـة ، وموقد النـار الذى خلفه حيث نزل للراحة ، وأصوات البوم التى كثر تردُّدها فكانت أشبه ما تكون بصوت النواقيس، ثم يستعرض صورة من كرمه فى مشهد قدر الطعام التى وضعها على النـار والتف الضيوف من حولها ، وهو يقف ضاحك الوجه يؤنسهم بحديثه حتى ينضج ما بها من طعام ، ثم يصور ذئبا بائسا أقبل مهتديا بضوء ناره يلتمس القِرَى ، فأكرمه كما يكرم ضيفه تمـاما ، حتى إذا شبع عاد مسرورا كأنه مقاتل ظفر بغنيمة أعدائه . ومن هذا المشهد يعود الشاعر إلى الصحراء فيصور مشاهد الجبال وقد غطاها السراب ، فرآها كأنها غارقة فى بحر ممتد فوق رمالها ، وتكاد الصحراء تذكره بناقتـه ، فيعود إلى وصفها ، و يمضى فيـه حتى يتداخل مشهد الصحراء مع صورة الناقة فى ختام القصيدة .

وتتميز القصيدة بانتشار بعض ظواهر حياة البادية الجاهلية فيها خاصة ظاهرة التطـيُّر التى ترددت فى أكثر من صورة ، وكذلك ظاهرة الاستطراد فى حديث الناقة بمـا لهـذا الاستطراد من دلالات فنيـة ونفسية على طبيعـة حياة الشاعر وعلاقته بالناقـة ، وقد يلفت النظر فى القصـيدة أيضا انشغال صاحبها ببعض

(تراجع ترجمته وأخباره فى الجزء السادس من الأغانى ص ١٢٧ وما بعدها).

الألوان البديعية التى حرص على الإفادة منها فى الصورة الشعرية فظهر حسن التقسيم والتضمين والجناس وغيرها . وقد سيطر التشبيه بأطرافه الحسية المعروفة على معظم صور القصيدة شأنه فى ذلك شأن شعراء عصره وأبناء بيئته .

(تراجع القصيدة فى ديوان المفضليات بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد شاكر) .

* * *

عبد الله التطاوى

صُورَةٌ مِنَ الصَّحراء

* * *

١ أَمِنْ آلِ أسماءَ الطلولُ الدوارسُ يُخطِّطُ فيها الطيرُ قفرٌ بسابسُ
٢ ذَكَرْتُ بها أسماءَ لو أنَّ وَلْيَهَا قريبٌ ولكنْ حَبَّسَتْنِي الحوابس
٣ ومنزلِ ضَنْكٍ لا أُريدُ مبيتَهُ كأنِّي به من شدةِ الرَّوْعِ آنِسُ
٤ لِتُبْصِرَ عيني إن رأتني مكانَها وفي النفس إنْ خُلِّيَ الطريقُ الكوادسُ
٥ وجيفٌ وإبْسَاسٌ ونَقْرٌ وهِزَّةٌ إلى أنْ تَكِلَّ العيسُ والمرءُ حادسُ
٦ ودَوِّيَّةٍ غبراءَ قد طالَ عَهْدُهَا تَهالَكُ فيها الوِرْدُ والمَرْءُ نَاعِسُ
٧ قطعتُ إلى مَعْرُوفِها مُنْكَراتِها بِعَيْهَامَةٍ تَنْسَلُّ والليلُ دامِسُ
٨ تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلا وموقدَ نارٍ لم تَرُمْهُ القوابِس

(١) الأطلال أو الطلول ما بقى من آثار الديار . الرسوم : ما كان منها منخفضا .
يخطط فيها الطير : يطير فيها . البسابس : القفر المجدبة . حيث لا حياة فيها .

(٢) وليها : حيث تولت وذهبت واتجهت .

(٣) الضنك : الشدة والضيق ، و يريد بالمنزل الضنك منطقة موحشة وعرة نزل بها فى الصحراء .

(٤) الكوادس : ما يثير التطير مثل الفأل والعطاس وهى عادة جاهلية .

(٥) الوجيف : ضرب من السير السريع . الإبساس : نوع من السير دون الوجيف .
النقر والهزة : ضروب من السير فوق الوجيف . حادس : يسير على غير هدى و يكتفى بمجرد الظن .

(٦) الدوية : الصحراء المقفرة . تهالك : تسرع السير . الورد : الإبل .

(٧) العيهامة : الناقة القوية الصلبة التى تتحمل مشقات الطريق .
الدامس : شديد الظلمة والسواد .

(٨) لم ترمه القوابس : لم يكن فيه أحد يقتبس نارا لأنه كان وحده .
والقابس : الذى يطلب النار ، و يبحث عنها .

٩ وتسمع تزقاءً من البُوم حَوْلَنا كما ضُرِبَتْ بعد الهُدوء النَّواقس
١٠ فيصبح مُلْقَى رَحْلِها حيث عَرَّسَتْ من الأرضِ قَدْ دبَّتْ عليه الرَّوامِسُ
١١ وتصبحُ كالدَّوْدَاةِ ناطَ زمامُها إلى شُعَب فيها الجوارى العوانسُ
١٢ وقدرٍ ترى شُمطَ الرجال عيالها لها قَيِّمٌ سَهْلُ الخليقَـةِ آنِسُ
١٣ ضحوكٌ إذا ما الصَّحْبُ لم يجتووا له ولا هو مِضْـبابٌ على الزاد عابِسُ
١٤ ولما أضأْنا النارَ عند شِوائنا عَرَانا عليها أطلسُ اللَّـوْن بائسُ
١٥ نبَـذْتُ إليـه حُزَّةً من شوائنا حياءً ، وما فُحْشِى على من أُجالِسُ
١٦ فآضَ بها جَذْلانَ ينفضُ رأسَه كما آبَ بالنَّهب الكَمِىُّ المُحالِسُ
١٧ وأعرضَ أعلامٌ كأنَّ رؤوسَها رؤوسُ جِبالٍ فى خليـجٍ تغامَسُ

(٩) النواقس أو النواقيس جمع ناقوس .

(١٠) ملق الرحل : مكان إلقائه . تزقاء البوم : صياحه . الروامس : الرياح التى تغطى الآثار وتزيل معالمها .

(١١) الدوداة : الأرجوحة . ناط زمامها : علق زمامها .
العوانس : الجوارى اللاتى لم يتزوجن .

(١٢) شمط الرجال : كبار السن منهم إذا ما خالط رأسهم الشيب .
القيم : القائم على شؤونها . الآنسة : الطيبة النفس .

(١٣) الاجتواء : الكره . المضباب : الذى يمنع أصحابه الزاد من شدة بخله .

(١٤) عرانا : أتانا طالبا معروفنا وقرانا .
أطلس اللون : يقصد الذئب ويصوره أغبر أقرب إلى السواد .

(١٥) الحزة : القطعة .

(١٦) آض : بمعنى عاد أو رجع . جذلان : فرح نشيط . النهب : الغنيمة .
الكمى : الشجاع . الذى يحتفظ بشجاعته ثم يظهرها فى وقت القتال .
المحالس : القوى الذى لا يتخلى عن مكانه فى الحرب .

(١٧) أعرض : ظهر وبدا . الأعلام : يقصد الجبال . فهى أعلام فى الصحراء .
الخليج هنا السراب ، شبهه بالماء . تتغامس : تنغمس . الآل : السراب .

١٨ إذا عَـلَمٌ خَلَّفْتُـهُ يهتـدى به — بدا عَـلَمٌ فى الآلَ أغبرُ طَامسُ
١٩ تعالَلْتُهَـا وليس طِبِّى بدَرِّهـا — وكيف التماسُ الدَّرِّ والضَّرْعُ يابِسُ
٢٠ بأسمـر عارٍ صـدرُه من جِلازِه — وسائره من العِـلاَقَةِ نائِسُ

(١٨) طامس : دارس . قد جاء عليه الامحاء .

(١٩) تعاللتها : مررت بها مرة بعد مرة ، يريد أنه يرفق بناقته تارة وتارة يجهدها .
الطب : الطلب . الدر : اللبن .

(٢٠) الأسمر : يريد السوط . العلاقة : السير الذى يعلق به السوط .
نائس : متدل . الجلاز : الفتل .

* * *

عبد الله التطاوى

المرقِّش الأصغر

لُقِّبَ بالمرقش واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة ، تربطه صلة النسب بالمرقش الأكبر فهو ابن أخيه على أرجح الروايات ، وهو أصغر منه ولكنه كان أشعر وأطول عمرا . صار واحدا من عشاق العرب المشهورين وفرسانهم، عرف بعشقه فاطمة بنت المنذر، وكانت لها وليدة يقال لها هند بنت عَجْلان ، وكان لها قصر « بكاظمة » وعليه حرس، وكان الحرس يجرون الثياب حوله كل ليلة فلا يطؤه أحد إلا بنت عجلان . وكان مرقش راعيا لايفارق إبله ، فأقام بالماء وترك إبله ظمأى ، وكان من أجمل الناس وجها وأحسنهم شعرا ، وكان فاطمة بنت المنذر تقعد فوق القصر فتنظر إلى الناس فجاء المرقش وبات عند ابنة عجلان ، فعلمت ذلك فاطمة وتعلقت به ، فاحتالت على جاريتها حتى أوصلته إليها ، ونظم فيها بعضا من شعره .

وهو يصور فى هذه القصيدة وفاءه لصاحبته ويبيِّن ما أصاب قلبه يوم الفراق ليستكمل المشهد بعد ذلك بصورة غزلية يقف فيها عند معالم جمالها المختلفة ، ثم يصف ماعاوده من ذكرياتها ، ويستعيد مشهد الرحيل لينطلق منه إلى وصف الظعائن ورحلتهن ، ويتغنى بجمالهن وزينتهن ، ليعود من ذلك كله مرة ثانية إلى صاحبته مصورا جمالها ومبينا مدى حبه لها ووفائه لعهدها ، ثم ليقدم بعد ذلك مجموعة من الحكم يديرها حول فكرة الصداقة ، وبعدها حديث حول حِلْف عمرو ابن جَنَاب تتأكد من خلاله فكرة الصداقة التى استعرضها من خلال رغبته فى ركوب

الأهوال وما يراوده دائمـا من أحلام اليقظة التى راحت تسيطر على ذهنـه وتشغله فيبدو من خلالها حالمـا دائمـا .

(تراجع القصيدة فى المفضليات بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد شاكر ، وتراجع ترجمة الشاعر وأخباره من الجزء السادس من الأغانى ص ١٣٦ وما بعدها) .

عبد الله التطاوى

إلى فاطمة

* *

١ ألا يا اسْلَمى لا صُرْمَ لى اليومَ فاطما — ولا أبدًا ما دام وصلُكِ دائما

٢ رمَتْكَ ابنةُ البكرىّ عن فَرْعِ ضَالةٍ — وهُنَّ بنا خُوصٌ يُخَلْنَ نَعائما

٣ تراءَتْ لنا يومَ الرحيلِ بواردٍ — وعذبِ الثّنايا لم يكُنْ مُتَراكِما

٤ سقاهُ حَبِىُّ المُزْنِ فى مُتَهَلَّلٍ — من الشمس روّاه ربابًا سواجِما

٥ أرَتْكَ بذاتِ الضّالِ منها معاصما — وخدًّا أسيلًا كالوَذيلةِ ناعما

٦ صحَا قلبُه عنها على أن ذِكْرَةً — إذا خطرَتْ دارَتْ به الأرضُ قائما

٧ تبَصَّرْ خليلى هل ترى من ظعائنٍ — خرَجْنَ سِراعًا واقْتَعَدْنَ المَفائما

٨ تحمَّلْنَ من جوِّ الوريعةِ بعدما — تعالى النهارُ واجتَزَعْنَ الصَّرائما

---

(١) الصرم : القطع والهجر . لا أبدا : صيغة ينفى بها الصرم نهائيا .

(٢) الضال من السدر : ما لم يشرب الماء . وفرع الضالة : القوس كأنها رمته عنه . الخوص : الإبل المرهقة وقد غارت عيونها من شدة متاعب الرحلة ومشقاتها . النعائم : النعام .

(٣) الوارد من الشعر : الطويل منه . الفم المتراكم : المتراكب الذى ركب بعض أسنانه بعضا .

(٤) حبى المزن : السحاب القريب . يقصد بالمتهلل الروض . الرباب : السحاب . السواجم التى تسكب الماء .

(٥) الوذيلة : سبيكة الفضة .

(٧) اقتعدن : ركبن . المفائم : الابل العظام أو المراكب الواسعة .

(٨) تحملن : رحلن . الوريعة : مكان . اجتزعن : قطعن . الصرائم : قطع الرمل (ومفردها صريمة) .

٩ تحلَّيْنَ ياقوتا وشَـذْرًا وصِيغَةً … وجَزْعًا ظَفَـارِيًّا ودُرًّا تَوائِمَـا
١٠ سلَكْنَ القُرَى والجِزْعَ تَحْدِى جِمالَهُم … وورَّكْنَ قَوًّا واجْتَزَعْنَ المَخَارِمَا
١١ ألا حبَّـذَا وجهٌ تريْنـا بَيَاضَهُ … ومنسدلاتٍ كالمثانى فَوَاحِمـا
١٢ وإنى لأَسْتَحْيِي فُطَيْمَةَ جائِعـاً … خَمِيصًا وأستَحْيِي فطيمَةَ طَاعِمـاَ
١٣ وإنِّى لأسْتَحيِيك والخَـرْقُ بيْنَنَا … مخافـةَ أن تَلْقَى أخًا لِيَ صَارِما
١٤ وإنِّى وإن كلَّتْ قَلُوصِى لَرَاجِمٌ … بها وبنفسِى، يا فُطَيْمُ، المراجِمـا
١٥ أفاطِمَ إنَّ الحبَّ يُعْفِى عنِ القِلَى … ويُجْشِمُ ذا العِرْضِ الكريمِ المَجاشِمَا
١٦ ألا يا اسلمى بالكوكب الطَّلْقِ فاطِما … وإن لم يكن صَرْفُ النَّوَى مُتَلائِمَا
١٧ ألا يا اسْلَمِى ثم اعلمى أنّ حاجَتِى … إليـــك فَرُدِّى من نَوالِك فاطِمَا
١٨ أفاطِـم لو أنَّ النساءَ ببَلْدَةٍ … وأنتِ بأخْرَى لاتَّبَعْتُكِ هائِمَـا
١٩ متى ما يشأْ ذو الودِّ يَصْرِمْ خَليلَه … ويَعْبَدْ عليــه لا مَحَالَةَ ظالِمـا

(٩) تحلين : لبسن الحلى . الشذر : اللؤلؤ الصغير . الجزع : الخرز . ظفار : بلد باليمن ينسب إليها الجـزع .

(١٠) الجزع : منعطف الوادى . قو : موضع . ووركنه : عدلن عنه وتركنه المخارم : طرق فى الجبال أو رمل مستطيل .

(١١) المنسدلات : الذوائب المسترخية من الشعر . المثانى : الحبال شبه بها الشعر الطويل . الفواحم : الشديدة السواد .

(١٢) الخميص : الذى اشتد ضموره من الجوع .

(١٣) الخرق : ما اتسع من الأرض .

(١٤) الرجم : الرمى .

(١٥) القلى : البغض والكره . يجشمه : يحمله على أن يركب الصعب أو المكروه .

(١٦) الطلق : الذى لا حر فيه ولا برد يمكن أن يسبب الأذى . متلائم : متلاحم موصول .

(١٩) يعبد : يغضب .

٢٠ وآلى جنابٌ حلفةً فأطعته ... فنفسك ولِّ اللومَ إنْ كنتَ لائما

٢١ كأن عليه تاجَ آلِ محرِّقٍ ... بأنْ ضَرَّ مولاه وأصبحَ سالما

٢٢ فمن يَلْقَ خيراً يحمدُ الناسُ أمره ... ومن يَغْوِ لايَعْدِمْ على الغيِّ لائما

٢٣ ألم ترَ أنَّ المرءَ يَجْذِمُ كفَّهُ ... ويَجْشَمُ من لَوْمِ الصَّديقِ المجاشما

٢٤ أمِنْ حُلُمٍ أصبحتَ تنكتُ واجماً ... وقد تعترِي الأحلامُ من كانَ واجما

(٢٠) آلى : حلف وأقسم .

جناب : يقصد عمرو بن جناب وقد سماه باسم أبيه .

(٢٣) يجذم : يقطع . يجشم : يتحمل .

(٢٤) ينكت فى الأرض ، يخطط فيها بعود وهو إشارة إلى ما يفعله المهموم حين يشتد به الفكر .

الواجم : الحزين المهموم . تعترية : تأتيه .

* * *

عبد الله التطاوى

ثَعْلَبَة بن صُعَيْرٍ

شاعر جاهلى قديم يرجع نسبه إلى قبيلة تميم ، قال عنه الأصمعى « ثعلبة أكبر من جَدِّ لبيد » .

كان ثعلبة فارسا من فرسان قومه المعدودين ، ميالا للهو ومعاقرة الخمر . وفى شعره نجد إيجازا للمفاخر التى يعتز بها العربى فى الجاهلية من فروسية ونجدة وكرم . وجاءت هذه المفاخر فى صياغة بارعة وصور رائعة ، حتى قيل إن ثعلبة بن صعير سبق غيره من الشعراء إلى ابتكار المعانى وإجادة التصوير .

ويبدو أنه كان شاعرا مقلا ، ولعل ذلك هو الذى دفع الأصمعى إلى أن يقول « لو كان قال مثل قصيدته الرائية خمسا لكان فحلا » .

وفى هذه القصيدة يتحدث عن صاحبته « عَمْرَةَ » ، ويشكو من أنها خانت عهده وأخلفته مواعيدها ، فراح يتسلى عن همه برحلة على ناقة راح يصفها فى براعة وإجادة ، ثم انتقل إلى حديث الخمر ، فوصف مجلس شرابه مع فتية من رفاقه تغنيهم القيان ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الفخر بشجاعته وقوة بأسه .

* * *

(١)

الرَّائيَّـــة

* * *

١ هَلْ عند عَمرةَ من بَتَاتِ مُسافرٍ ذى حَاجةٍ مُتروِّحٍ أَو بَاكِرِ

٢ سَئِمَ الإقامةَ بعـد طُول ثَوائه وَقَضَى لُبَـانَتَهُ فليس بِنَاظِـرِ

٣ لِعِـدَاتِ ذى إِرْبٍ ولا لِمواعِدٍ خُلْفٍ ولو حَلَفتْ بِأَسْحَـمَ مَائِرِ

٤ وَعَدَتْكَ ثُمَّتَ أَخْلَفَتْ مَوْعودَها ولعـلَّ ما مَنَعَتْكَ لَيْسَ بِضَائِرِ

٥ وأَرى الغَوانى لايدومُ وصالُهـا أبداً على عُسْـرٍ ولا لِمُيَاسِرِ

٦ وإذا خَلِيـلُك لم يَدُمْ لك وَصْلُهُ فاقْطَـعْ لُبَـانَتَهُ بِحَـرْفٍ ضَامِرِ

٧ وَجناءَ مُجْفَـرَةِ الضُّلوعِ رَجيلةٍ وَلِقَى الهَـواجِرِ ذاتِ خَلْقٍ حادِرِ

٨ تُضْحِى إذا دَقَّ المَطِىُّ كأنَّهـا فَدَنُ ابنِ حَيَّـةَ شَـادَه بالآجُرِ

---

(١) البتات : المتـاع .

(٢) الثواء : البقاء . اللبانة : الحاجة . الناظر : المنتظر .

(٣) الإرب : القصد والدهاء والبصر بالأمور . والإرب : البخل أيضا . خلف : لايفى بالوعد
اسحم : أسود . مائر : ينصب صريعا .

(٥) المياسر : الغنى .

(٦) الحرف : الناقة الماضية . الضامر : يعنى النجابة لا للهزال .

(٧) الوجناء : الصلبة المجفرة : العظيمة الوسط وهو مستحب من خلقها .
الرجيلة : القوية على السير خاصة . الَلق : السريعة .
قال ولق الهواجر لأن سير الهاجرة أشد السير . الحادر : الممتلىء والبطىء .

(٨) دق المطى : ضمر لطول السفر . تضحى : تسير ليلتها فلم يتعبها السير . الفدن : القصر .

٩ وكأَنّ عَيْبَتَها وفَضْلَ فِتانِها فَننَانِ مِن كَنَفَىْ ظَلِيمٍ نافِرِ
١٠ يَبْرِى لِرائحةٍ يُساقِطُ رِيشَها مَرَّ النجاءِ سِقاطَ لِيفِ الآبِرِ
١١ فتَذَكَّرتْ ثَقَلاً رَثِيدًا بعدما أَلقتْ ذُكاءُ يمينَها فى كافِرِ
١٢ طَرِفتْ مَراوِدُها وغرَّد سَقْبُها بالآءِ والحَدَجِ الرِّواءِ الحادِرِ
١٣ فتروّحا أُصلاً بِشَدٍّ مُهْذِبٍ ثُرٍّ كشُؤْبوبِ العَشِىِّ الماطِرِ
١٤ فَبَنَتْ عليه مع الظَّلامِ خِباءَها كالأَحْمَسِيَّةِ فى النَّصِيفِ الحاسِرِ

* * *

١٥ أَسُمىَّ ما يُدْرِيكِ أَنْ رُبَّ فِتْيةٍ بِيضِ الوُجُوهِ ذوى نَدًى ومآثِرِ
١٦ حَسَنِى الفُكاهَةِ لا تُذَمُّ لِحامُهُمْ سَبِطِى الأَكُفِّ وفى الحُرُوبِ مَساعِرِ

(٩) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع . الفتان : : غشاء للرحل من جلد . فننان : غصنان ، وكنفا الظليم : جناحاه . الظليم : ذكر النعام .

(١٠) يبرى : يعارض وإذا عارضها الظليم كان أشد لعدوها . الرائحة : النعامة تروح إلى بيضها . النجاء : السرعة . الآبر : صلح النخلة للتلقيح فإذا صعدها رمى بالليف عنها فشبه الريش إذا سقط من النعامة بهذا الليف .

(١١) الثقل : أراد به البيض . الرثيد : المنضود . ذكاء : اسم الشمس . الكافر : الليل فهى قد تهيأت للغيب .

(١٢) المراود : المواضع التى تَرود فيها . طرفت : تباعدت . السقب : ولد الناقة وأراد ولد النعامة . الآء : شجر له ثمر يأكله النعام . الحدج : الحنظل . الحادر : الغليظ .

(١٣) الأُصُل : العشى مفردها الأصيل . شد مهذب : جرى سريع . ثر : شديد . الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(١٤) عليه : على البيض وقد جثت عليه فشبه جناحيها بالخباء . الأحمسية : المرأة من الحمس وهم قريش خزاعة وبنو عامر وكنانة . النصيف : القناع . الحاسر : التى تكشف رأسها ووجهها إدلالا بحسنها .

(١٥) المآثر : مكارم الأخلاق . الندى : السخاء .

(١٦) اللحام : جمع لحم ، لا تذم لسخائهم . المساعر : جمع مسعر وهو الذى يوقد الحرب .

١٧ باكرتهم بسباء جـون ذارع — قبـل الصباح وقبل لغـو الطائر
١٨ فقصرت يومهـم برنة شارف — وسماع مدجنـة وجدوى جازر
١٩ حـتى تولى يومهـم وتروحـوا — لا ينثنون الى مقال الزاجر
٢٠ ومغـيرة سوم الجـراد وزعتها — قبـل الصباح بشيئان ضـامر
٢١ تئق بجـلمود القـذاف ونثرة — ثقف وعراص المهـزة عاتر
٢٢ ولرب واضحـة الجبين غريرة — مثـل المهاة تروق عين النـاظر
٢٣ قد بت ألعبـها وأقصرهمها — حـتى بدا وضح الصباح الجـاشر
٢٤ ولرب خصم جاهـدين ذوى شذا — تقـذى صدورهم بهتر هاتر
٢٥ لـد ظأرتهـم على ما ساءهـم — وخسأت باطلهـم بحـق ظاهر
٢٦ بمقالة مـن حازم ذى مرة — يدأ العـدو زئـيره للــزائر

(١٧) السباء : شراء الخمر . الجون : الأسود يريد الزق . الذارع : الكثير العظيم من الماء ونحوه لغو الطائر : صوته فى الغلس .

(١٨) رنة شارف : صوت الناقة المسنة عنـد النحر وقد شبه صوت العود برنة شارف . سماع مدجنة : سماع قينة تغنى فى يوم الدجن وهو تكاثف الغيم . الجدوى ، العطية وأراد بجدوى الجازر ما يتحفهم به من الطعام . (١٩) تولى يومهم : انقضى نهارهم فتروحوا وهم ثمالى .

(٢٠) المغـيرة : القوم يغيرون ، سوم الجراد : سير الجراد وكثافته . وزعتها : كففتها . الشيئان : الشديد النظر ، أراد به الفرس .

(٢١) التئق : الممتلىء من النشاط . جلمود القذاف : الصخرة تطيق حملها بيدك وتقذفها . النثرة : الدرع . ثقف : لاتعلق بها السهام . العراص : الكثير الاضطراب يعنى رمحا . العاتر : الصلب الشديد .

(٢٢) الغريرة : القليلة الفطنة . المهاة : البقرة الوحشية . (٢٣) الجاشر : تباشير الصباح .

(٢٤) تقذى : تقذف . الهتر : الكلام القبيح . الشذا : الأذى .

(٢٥) لد : شديدو الخصومة . ظأرتهم : عطفتهم . خسأت : زجرت ودفعت .

(٢٦) المرة : القوة . يدأ العدو : يدعه وهو لغة تميم .

* * *

سـيد حنفى

(٢)

عَتَادُ الحَـرْب

* * *

يدير ثعلبة قصيدته الفائية حول محور واحد أساسه الفخـر الفردى بذاته ، وهو فخر تقليدى يطرح فيـه صورا مختلفة من شجاعته وإن كان قد بلورها حـول عرض أدوات القتال التى يعتمد عليها فى مواقفه الحربية وهى الأدوات التى يثق فيها ويعتمد عليها فى انتصاراته .

وتوزع القصيدة فنيا بين مستويين : أولهما تلك المقـدمة النمطية التى افتتح بها حواره من خلال مشهد الطلل ، وكيف جارت عليه عوادى الزمن ، فانتهت به إلى صورته المرئية التى انتشرت فيها كآبة العفاء والامّحـاء ، وهو مشهد لايكاد يكتمل إلا من خلال حركة الرحيل التى ينتقـل فيها الشاعر من جمود المقـدمة ليقترب درجة من موضوعه ، لتكون واسـطة الانتقال عنده ناقتُه السريعة التى عُرفت بقدرتها على اجتياز الصحراء وقطع طرقهـا المفـزعة خاصة فى مواقف الإغاثة وإنقاذ الصريخ . ويكاد حديث الناقة يكوّن مقـدمة أخرى ، ولكنها مقدمة أكثر ماتكون تفاعلا مع موضوع الفخر ، أو هى — بمعنى أدق — تمهيد له ، فهى تمثل الملمح الأول من ملامح شجاعته وبطولته ، فهى أداته فى رحيله ، يتخذها مدخلا لعرض أدواته القتالية التى يعـتز بها فيصف منها السيوف والرماح كأسلحة هجومية يتقدم بها فى صفوف خصومه ، أو الدروع يرتديها سلاحا واقيا يتلقى بواسطته الضربات والطعنات فيتقيها .

ومن المعتاد يتخذ الشاعر مقدمة ثالثة يصل من خلالها إلى النتيجة التى أرادها من قصيدته ، حيث انتهى إلى عرض لوحة شجاعته فى الحـرب العوان على حد تصويره ، وإصراره على مواجهة الموت لإيمـانه المطلق بحتميته .

* * *

١ لِمَنْ دِمَنٌ كأنَّهنَّ صحائفُ   قِفارٌ خلاَ منها الكثيبُ فَواحفُ
٢ فما أحدثَتْ منها العُهودُ كأنَّما   تَلَعَّبُ فيها بالسَّماءِ الزخارفُ
٣ أكَبَّ عليها كاتبٌ بدَوَاتِه   يَغُـمُ يديه تارة ويخالِفُ
٤ وَجَا صنعه ما كان منه مسَاجِيًا   ويرفع عينيه عن الصُّنْع طَارِفُ
٥ وشَوْهَاء لم تُوشَمْ يداها ولم تُذَل   فقاظَتْ وفيها بالوليد تقَاذُفُ
٦ وتمطيك قبل السَّوط ملْءَ عنانها   وإحْضار ظبْيٍ أخطأَتْه المجادفُ
٧ بلأْتُ بها يومَ الصُّرَاخ وبعضُهم   يخُبُّ به فى الحى أورَق شَارِفُ

(١) الدمن : الآثار . الصحائف : الكتب . الكثيب : قرية بالبحرين لبنى محارب بن عبد القيس . واحف : موضع أيضا .

(٢) العهود : الأمطار . الزخارف : الأصباغ .

(٤) مساجيا : ساكنا . الطارف : من طرف بعينه إذا حرك جفنيها .

(٥) الشوهاء : الحسنة الخلق أو المرتفعة وهى فرس ثعلبة . لم توشم يداها : يصف نقاءها وخلوها من العيوب . قاظت : أتى عليها القيظ . التقاذف : التدافع . الوليد : العبد .

(٦) ملء عنانها : تعطيك عدوا كثيرا وسريعا دون سوط يهددها ويدفعها إلى السير . الإحضار : العدو . المجادف ، ما يجدف به الإنسان من رمى وغيره .

(٧) بلأت بها : ملكتها . الصراخ : الاستغاثة . الأورق : البعير لونه كلون الرماد . شارف : هرم كبير .

٨ بيضاءَ مثل النِّهى رِيحَ وقدُه شآبيب غيث يحفش الأُكْمَ صائف
٩ ومطَّرد يُرضيكَ عند ذَوَاقِه ويَمْضِى ولا ينــأدُ فيما يُصَادِفُ
١٠ وصفراء من نبع سلاح أُعدّها وأبيض قصَّال القَريبة جائف
١١ عتاد امرئٍ في الحرب لا واهنَ القُوَى ولا هُوَ عما يقدرُ الله صَارِفُ
١٢ به أشهدُ الحربَ العوانَ إذا بدَتْ نواجذُها واحمرَّ منها الطَّوائفُ
١٣ قتال امرىءٍ قد أيقنَ الدهرَ أنه من الموت لا يَنجُو ولا الموتُ جائفُ
١٤ ولو كنتُ في غُمْدانَ يحرسُ بابَهُ أراجيلُ أُحْبُوشٍ وأَسْوَدُ آلِفُ
١٥ إذاً لأتتْنِى حيث كنتُ منيّتى يَخُبُّ بها هادٍ لإثرىَ قائفُ
١٦ أمِنْ حَذَرٍ آتِى المهالكَ سادراً وأيةُ أرضٍ ليس فيها متالِفُ ؟

(٨) البيضاء : الدرع . النهى : الغدير . ريح : أصابته الريح فالغدير أصفى وأنق . الأكم : المرتفعات .

(٩) يرضيك عنه ذواقه : يعجبك وأنت تقلبه . ينأد : يرجع وينعطف . والمطرد : الرمح .

(١٠) الصفراء : القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام . الأبيض : السيف . قصال : قطاع . جائف : يبلغ الجوف .

(١١) العتاد : عدة المحارب أو أسلحته .

(١٢) العوان : القوية . الطوائف : النواحى .

(١٣) جائف : مائل .

(١٤) غمدان : حصن منيع فى اليمن . الأراجيل جمع أرجال وهى جمع راجل . الأحبوش : الحبش . الأسود : الحية السوداء . الآلف : الأنس بالمكان .

(١٥) يخب : يسرع . قائف : يقوف الآثار ويتبعها .

(١٦) السادر : اللاهى الذى لا يأبه بشىء . متالف : مهالك .

* * *

عبد الله التطاوى

المسيَّب بن عَلَس

* * *

هو زهير بن عَلَس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن زيد بن ثعلبة ... ... شاعر جاهلى قديم لم يدرك الإسلام ، يُعَدّ واحدا من أشهر المقلِّين فى الجاهلية ، وهم ثلاثة : المتلمِّس والمسيَّب بن عَلَس وحُصَيْن بن الحُمَام المُرِّى .

كان الأعشى راويته وأخذ منه بعض أشعاره وأفاد منها فى بعض قصائده .

والقصيدة فى المدح ، وتعد واحدة من أقدم القصائد العربية فى هذا الموضوع ، أنشدها المسيب فى مدح القَعْقاع بن زُرَارة ، وكان سيدا مشهورا فى قومه ، ويبدو أن شهرته بالكرم قد غلبت على بقية الصفات عنده حتى قيل له « تيار الفرات » إشارة إلى شدة إسرافه فى الكرم .

وتبدأ القصيدة بحوار نسيبى يصور فيه الشاعر يأسه لفراق صاحبته، ويسرد — كعادة الشعراء — تجربة غزلية فاشلة يخوض من خلالها فى مجموعة من الذكريات الغزلية الحسية السريعة التى سرعان ما يتجاوزها إلى تصوير ناقته متخذا منها وسيلة للانتقال إلى موضوعه ، حيث يمهد له بمدخل طريف يفتخر فيه بالقصيدة، ويشير إلى إعجابه بها من خلال تصويره مكانتها بين القصائد الأخرى، حتى إذا وقع على بيت القصيد راح يصور ممدوحه بما فيه من ملامح بارزة فى دائرة الفضيلة العربية الأصيلة ، وهى فضيلة قوامها الشجاعة والجود والوفاء والعنف فى محاربة الأعداء وقتالهم ، وكأن الشاعر بهذا كان يضع القواعد والأصول الثوابت لقصيدة المدح العربية فى شكلها ومحتواها ، حتى اتخذت من بعده نمطا

ثابتا ، قد يشوبه التحول فى بعض الأحيان ولكنه — غالبا — ما يكون تحولا محدودا تحكمه القدرات الخاصة لكل شاعر خاص فى هذا الفن .

ولعل فلسفة اختيار هذه القصيدة تستند — إلى جانب كونها واحدة مشهورة من روائع شعر المدح العربى — إلى رؤيتها من منظور القِدَم ، والإغراق فى عرض مجموعة صفات أصبحت تمثل معجما شعريا يستمد منه الشعراء كثيرا من الصور بعد المسيَّب .

ومن أهم الملامح الفنية التى تسجلها القصيدة ما لجأ إليه صاحبها من اعتماد واضح على الصيغ التقريرية المباشرة وقلة التصوير ، بل بساطة الصورة حين يأتى بها على قلة ؛ الأمر الذى يمكن رده إلى محدودية خيال شعراء البيئة عموما ، وهو ما يكتمل تصوره إذا أضفنا إليه تلك الرؤى الفكرية التى يغلب عليها طابع البساطة والسهولة والسرعة فى عرض الصفات على ما فيها من إطلاق وتعميم تسنده المقارنة بين هذا الممدوح و بين غيره من البشر . كما تزداد حاجة الشاعر إلى هذا الوضوح حين يعود فى ختام القصيدة ليُجْمِل فى البيت الأخير ماسبق أنْ فَصَّلَهُ فى أبيات المدح ، بل يزداد حرصه حين يلجأ إلى تعليل ما هو بصدده من عرض تلك الصفات .

فشكل القصيدة نمطى أصبح بدايةً وأصلاً للتقليدية فى هذا الفن ، وقد ظل محتواها — كما هو واضح — نموذجا يُحْتَــذَى ، ولكنه أكثر قابليــة للتجديد والإضافة والابتكار بعيدا عن تلك البساطة التى تطلبت من الشاعر قلة التصوير وضرورة الاستعانة بالشرط فى عرض كل صفة على حدة ، أو حتى كثرة عَقْد المقارنات بين ممدوحه و بين غيره من الممدوحين حتى تسهل له مهمة الاستمرار فى النظـــم .

عبد الله التطاوى

تَيّار الفُرَات

* * *

١ أرحَلْتَ من سلمى بغير متاعِ قبل العُطَاس ورُعْتَها بوداعِ

٢ من غير مَقْليَةٍ وإنَّ حبالَها ليست بأرمامٍ ولا أقْطَاعِ

٣ إذ تستبيك بأصْلَتِيٍّ ناعمٍ قامَتْ لتفتِنَهُ بغيرِ قِنَاعِ

٤ ومهًا يرفُّ كأنّه إذْ ذُقْتَه عانيّةٌ شُجَّتْ بماءِ يَرَاعِ

٥ أو صَوْبُ غاديةٍ أدرَّتْهُ الصَّبا بِبَزِيلِ أزهرَ مُدْمَجٍ بِسَيَاعِ

٦ فرأيتُ أن الحكم مجتنبُ الصِّبا وصَحَوْتُ بعد تَشَوُّقٍ ورُوَاعِ

* * *

٧ فتسلَّ حاجَتها إذا هى أعرَضَتْ بخميصةٍ سُرُحِ اليَدَيْنِ وَسَاعِ

٨ صكّاءَ ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتَها حَرَجٍ إذا استقبلتَها هِلْوَاعِ

---

(١) المتاع : ما يحمله المسافر من زاد . العطاس : الصبح .

(٢) المقلية : البغض . الحبل الأقطاع : يشير به إلى الهجر والقطيعة .

(٣) تستبيك : تأسرك وتوقعك فى حبها . الأصلتى : الخد الناعم .

(٤) المها : البلور بما فيه من صفاء ونقاء . يرف : يتلألأ ويلمع . عانيـة : يقصد بها الخمر نسبة إلى عانة بالعراق . الشج : المزج . اليراع : القصب .

(٥) صوب غادية : ماء سحابة . أدرته : استخرجت ماءه . السياع : الطين . الأزهر : الإبريق .

(٦) الحكم : الحكمة . الصبا : الصبوة .

(٧) تسل حاجتها : يطالب نفسه بالسلو عنها والانصراف عن ذكرها إذا هى أعرضت عنه أو هجرته أو نوت قطعه . الخميصة : الضامرة إشارة إلى شدة هزالها وضمور بطنها . سرح اليدين : إشارة إلى سرعتها فى السير . وساع : واسعة فى سيرها .

(٨) ذعلبة : سريعة . حرج : ضخمة يمتد طولها على وجه الأرض . صكاء : تقاربت ركبتاها حتى يصل بعضها بعضا ، وهى من صفات النعامة استعارها للناقة . هلواع : مستخفة تكاد تفزع من شدة نشاطها ، والهلع : الخفة والسرعة فى الجرى .

٩ وكأنّ قنطرةً بموضع كُورها ... ملساءَ بين غوامض الأنساعِ

١٠ وإذا تعاورت الحصى أخفافُها ... دوّى نواديه بظهر القاعِ

١١ وكأن غاربَها رباوةُ مَخْرِمٍ ... وتمدُّ ثِنْىَ جديلها بشراعِ

١٢ وإذا أَطَفْتَ بها أطفت بكلكلٍ ... نبضِ الفرائص مُجْفَرِ الأضلاعِ

١٣ مَرِحَتْ يداها للنجاء كأنّما ... تَكْرُو بكفّى لاعبٍ فى صاعِ

١٤ فِعْلَ السّريعة بادرت جُدّادَها ... قبلَ المساء تَهُمُّ بالإسراعِ

١٥ فلأُهْدِيَنَّ مع الرّياح قصيدةً ... منى مُغَلْغَلَةً إلى القعقاعِ

١٦ تَرِدُ المياهَ فما تزالُ غريبةً ... فى القوم بينَ تمثُّلٍ وسَماعِ

١٧ وإذا المُلوكُ تدافعتْ أركانُها ... أفضلْتَ فوقَ أكفِّهم بذراعِ

(٩) الكور : كور الرحل خشبه وأداته . الأنساع : سيور جلدية يشد بها الرحل . غموضه : دخوله فى جلدها . يصور ناقته ملساء الظهر .

(١٠) تعاورت : تبادلت . دوى : صوت . نوادى الحصى : ماتقدم منه . القاع : ما استوى من الأرض . الغارب : مابين العنق والسنام .

(١١) الرباوة : ما يسترق من الأرض الغليظة . المخرم : منقطع فى الجبل . الجديل : الزمام . ثنى الجديل : ما انثنى منه باليد . الكلكل : الصدر .

(١٢) الفرائص : اللحم فى مرجع الكتف . نبضها : شدة حركتها . مجفر الأضلاع : واسع الأضلاع .

(١٣) النجاء : السرعة . تكرو : تلعب بالكرة إشارة إلى سرعتها . الصاع : منخفض من الأرض .

(١٤) الجداد : مابقى من خيوط الثوب . استعار للناقة صورة المرأة التى تحوك ثوبا وتريد إتمامه بسرعة إشارة إلى سرعة يديها .

(١٥) مغلغلة : يستعين بها الناس فيسلكون بها ماهو غامض .

(١٦) غريبة : يشير إلى سعة انتشارها وغرابتها على كل قوم تصل إليهم ويعجزون عن نظم مثلها .

(١٧) تدافعت أركانها : اشتد تزاحمها عند المفاخرة . أفضلت : زدت عليهم ، وارتفعت عنهم .

١٨ وإذا تَهيج الريحُ من صُرّادِها ... ثلجا يُنيــخ النِّيب بالجَعْجاع
١٩ أحللتَ بيتَــك بالجميع وبعضُهم ... مُتَفَـرِّقٌ ليحُــلَّ بالأَوْزَاع
٢٠ ولأَنْتَ أَجْوَدُ من خَليجٍ مُفْعَـمٍ ... متراكِمِ الآذِيِّ ذِى دُفّاعِ
٢١ وكَأَنّ بُلْقَ الخيل فى حافاتِهِ ... يَرْمِى بِهِنَّ دَوَالِىَ الزُّرّاع
٢٢ ولأنتَ أَشْجَعُ فى الأعَادِى كلِّهـا ... من مُخْـدِرٍ ليثٍ مُعيــدِ وِقاع
٢٣ يأتى على القَوْمِ الكثيرِ سلاحُهم ... فيبيتُ منــه القومُ فى وَعْوَاع
٢٤ أنتَ الوفِىُّ فمـا تُذَمُّ وبَعضُهـم ... تُورِى بِذِمّتــه عُقـابُ مُـلَاع
٢٥ وإذا رماه الكاشِحُونَ رماهُمُ ... بمعـابِلٍ مــذروبةٍ وقِطـاع
٢٦ ولذاكُمُ زعمتْ تميمٌ أنّه ... أهـلُ السماحةِ والنّـدى والبَاع

* * *

(١٨) الصراد: رياح باردة ممطرة . النيب : إناث الإبل المسنة . الجعجاع : موضع بروك البعير، يصور الإبل وقد عجزت مسانها عن مغادرة مباركها لشـدة البرد وقسوته .

(١٩) الأوزاع : المتفرقون .

(٢٠) الآذى : الموج أو السيل . ذى دفاع : يدفع الماء بعضه بعضا لكثرته .

(٢١) الدوالى : ج دالية آلة للسقى . يصور الخليج وهو يرى بموجة دوالى الزراع .

(٢٢) المخدر : الأسد اتخذ الأجمة خدرا له . المعيد : الذى يعيد فعل الشىء . الوقاع : ج وقعة ، كوقعة الحرب إشارة إلى كثرة افتراسه .

(٢٣) الوعواع : الجلبة والصياح .

(٢٤) ملاع : اسم مكان ينسب إليه العقبان . يصور وفاءه بعهده وذمته وعفته عن الطمع فى جاره كما يفعل غيره ممن يهدرون حق الجوار .

(٢٥) الكاشح : المبغض . المعابل : النصال . المذروبة : المحدودة . القطاع : نصال عريضة قصيرة .

(٢٦) الباع : يشير بها إلى شدة إسرافه فى الندى أو الكرم .

« تراجـع القصيدة فى ديوان المفضليـات بتحقيق الأستاذين أحمـد شاكر وعبد السلام هارون » .

* * *

عبد الله التطاوى

طَـرَفَة بن العَبْـد

* * *

ينتهى نسبه إلى قبيلة قَيْس بن ثَعْلبة إحدى فروع قبائل بكر بن وائل الضخمة التى كانت تنزل فى إقليم البحرين بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على سواحل الخليج ، وهى المنطقـة التى هاجرتْ إليهـا مع أختها تَغْلب فى أعقـاب حرب البَسُـوس .

ولد طرفة فى البحرين فى أسرة كريمة الأصل وافرة الثراء ، وتوفى أبوه وخلّفه صغيرا فى رعاية أمه « وَرْدَة » ، وعَانَى فى صِغَره من ظلم أعمامه له ولها ، فقد غلبوهما على حقهما فى المـيراث وأكلوه ظلما . وهو ظلم تردد أصـداؤه فى شعره ، تارةً فى شكوى صريحة منهم ، وتارة فى شكوى عامة من « ظلم ذوى القُرْبى » .

والأخبار التى بين أيدينا عن حياة طرفة قليلة ، وربما ساعدَ على قِلّتها قِصَرُ عمره ، فقد قُتِل وهو ابن عشرين سنة ، أو — على أبعد تقدير — وهو ابن ست وعشرين ، وهو ما تذكره أخته « الخِرْنق » فى بعض شعرها :

عَـدَدْنا له ستًّا وعشرين حِجَّـةً فلمـا توفَّاها استوى سيِّدا ضَخْمَا
فُجِعْنَـا به لمـا رَجَـونا إيابه على خـيرِ حالٍ لا وليدًا ولا قَحْمَا

وكان مقتل طرفة فى مأساة تتردد أمثالهـا فى الروايات العربية القديمـة التى تتحدث عن العلاقة بين الشعراء الجاهليين وملوك البلاط الحيرى ، فقد كان طرفة وخاله المُتَلَمِّس الشاعر نديمين للملك عمرو بن هند وأخيه قَابُوس الذى كان يرشحه للمُلك من بعده . ولأسبابٍ تختلف الروايات حولها تطاول طرفة عليهما فهجاهما فى

بعض شعره ، فكتب عمرو بن هند إلى عامله على البحرين كتابين يأمره فيهما بقتل الشاعرين ، وسلمهما لهما بعد أن أوهمهما أنه يأمره فيهما بجائزتين لهما . وشك المتلمس فى كتاب الملك ، فدفع به إلى من قرأه له ، فلما عرف ما فيه قَذَف به فى نهر الحِيرَة وفرّ ناجيا بحياته إلى ملك الغاسنة بالشام . وأما طرفة فقد رفض نصيحة خاله بفضّ كتابه لمعرفة ما فيه ، ومضى فى طريقه إلى عامل البحرين الذى نفّذ فيه أمر الملك فقتله .

وليس من اليسير — كما هو الشأن مع كل الشعراء الجاهليين — أن نحدِّد تاريخ مقتله ، ولكنْ إذا كان حكم الملك عمرو بن هند قد انتهى فى سنة ٥٦٨ أو ٥٦٩ للميلاد ، فإن مقتل طرفة لابد أن يكون قبل هذا التاريخ ، ولكن يظل من العسير بعد ذلك أن نحدد السنة التى قُتِل فيها تحديدا قاطعا ، وإن يكن بعض الباحثين المحدثين يرجّحون سنة ٥٦٤ تاريخا لمقتله . فإذا أخذنا بما ذكرته أخته من أنه عاش ستا وعشرين سنة فإن مولده يكون حوالى سنة ٥٣٨ .

وشعر طرفة كأخباره قليل أيضا ، فالصحيح الثابت منه قليل . وأشهر قصائده من هذا الثابت الصحيح معلقته « لِخَولةَ أطلالٌ بِبرْقَةِ ثَهْمَدِ » ثم رائيته « أَصَحَوْتَ اليومَ أم شَاقَتْكَ هِرّ » .

وطرفة — على قِصَر حياته وقلة شعره — من كبار شعراء العصر الجاهلى ، ويضعه ابن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول هذا العصر مع علْقَمة بن عَبَدة وعَبِيد ابن الأبرص وعدىّ بن زيد ، ويقول إن موضعهم مع الأوائل لولا قلة شعرهم بأيدى الرواة .

ويتراءى طرفة فى شعره شابا ثائرا متمردا على الحياة ، شديد الإحساس بالمصير المحتوم الذى حدّده القدر للإنسان فيها ، وكأنه يرفض الاستسلام لها وله ، فلا يجد

أمامه إلا الاستمتاع بها إلى آخر قطرة فيها قبل أن يدركه هذا المصير . وفى غير قليل من شعره يتراءى كأنّ بينه وبينها سِبَاقا يريد أن يصل إلى غايته قبل أن يحُول المصير بينه وبينها .

وأسلوب طرفة أسلوب بدوى فى لغته وصوره . وفى بعض قصائده ترتفع هذه البداوة إلى أقصى درجاتها ، وكأنما لم تؤثر فيه حياتُه فى المنطقة الشرقية القريبة من مراكز الحضارة المتقدمة فى عصره ، وإن كنا — مع ذلك — لا نفتقد بعض الصور الحضارية فى شعره التى تسرَّبت إليه من اتصاله بهذه المراكز الحضارية وما يراه فيها من مظاهر حياةٍ لا يراها فى مجتمعه البدوى . ولكن الحقيقة التى تكشف عنها هذه الصور تؤكد أن اتصال طرفة بهذه المراكز كان اتصال الشاب البدوى الذى لم تنفذ هذه الحضارة إلى أعماقه ، فظل — على الرغم من كل شىء — بدويا فى لغته وصوره وأسلوبه .

* * *

يوسف خليف

(١)

من المعلَّقــة

* * *

تُعَدّ معلقة طرفة أطول المعلقــات العشر ، فهى تبلغ — فى رواية التّبريزىّ لهــا — مائة وخمسة من الأبيات . وهى تبــدأ بمقدمة طَلَلِية يقف فيها الشاعر بأطلال صاحبته « خَوْلَة » ، و يطلب إلى أصحابه — كما طلب امرؤ القيس من قبل — أن يقفوا مطيّهم بها . ثم ينتقل إلى الحديث عن رحلة الظعائن، فيصف القافلة المسافرة ، و يصف جمــال صاحبته ، ثم يمضى إلى وصف ناقته ، فيطيل فيه إطالة ملحوظة تشغل من المعلقة ثلاثة وثلاثين بيتا ، وكأنمــا شغلته ناقته عن كل شىء ، و يقف أمامها وِقْفَة المثّال البارع يسوّى لها تمثالا رائع الجمال ، بالغ الدِّقة ، غنيًّا بالتفاصيل الدقيقة والجزئيات الصغيرة ، يَحْرِص فيه على أن يُوَفِّى كل جزء منه حقّه ، وكأنه يريد أن يقدم تمثــالا نابضا بالحياة « للناقة المِثَال » التى تستحق أن يقف أمامها وِقْفَــةَ العاشق المفتون ، يتغنى بها هذا الغناء الطويل ، و يعزف لها هذه المعزوفة الضخمة المتنوعة الأنغام والألحــان . ثم يمضى الشاعر بعد ذلك فى حديث ذاتىّ يتغنى فيه بفتوّته وجرأته وكرمه ولهوه وخمره ونسائه ، وإنفاقه كلّ شىء فى سبيل لذته ، حتى انتهى به الأمر إلى تخلّى قبيلته عنه وخلعها له . ثم ينتقــل إلى تسجيل فلسفته فى الحياة والموت ، فالحيــاة فانية ، والمصير محتوم ، والموت قَدَر مقــدور ، والنهــاية للجميع واحدة . وإذن ففيم إضــاعة

الإنسان لحياته دون اغتنام كلِّ فرصةٍ لإثبات وجوده فيها ؟ وفيمَ تبديد أيام عمره المعدودة دون اقتناص كلِّ لحظة فيها للاستمتاع بكل ما تتيحه له مِنْ مُتَع مِنْ قبلِ أن يضع الغيب المجهول نهايتها المحتومة التى لايعرف ما وراءها ؟ ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى من ظلم أقاربه له ، ويشكو من موقف ابن عم له قطع ما بينهما من حبال القربى وأواصرها . ثم يعود مرة أخرى — قبل أن يصل إلى نهاية القصيدة — إلى الفخر بنفسه ، والتغنّى بشجاعته وجرأته وكرمه ونجدته ومروءته. ثم تأتى النهاية طائفةً قليلةً من الحكم تدور حول المحور الأساسى الذى دارت حوله القصيدة : الحياة والموت والمصير والغيب المجهول .

وتأتى أهمية معلقة طرفة من أنها قصيدة ذاتية خالصة ، فَرَّغَ فيها لنفسه دون أن تَزْحَمَه حقوق القبيلة عليه ، واستطاع أن يرسم فيها صورة معبِّرة عن نفسيته وشخصيته ، صادقةً كل الصدق فى نقل مشاعره ، صريحة كل الصراحة فى رصد ما يدور فى أعماقه من قلق وشك وحيرة . ولا تكاد تعدلها فى هذا الموقف من بين المعلقات الأخرى إلا معلقة امرئ القيس ، ولكن إذا كانت معلقة امرئ القيس تعكس شخصية الشاب السعيد المتفائل المحظوظ المدلّل الذى لا يشغله فى حياته سوى صاحباته وأصحابه : صاحبات حبه ولهوه ، وأصحاب صيده وقنصه ، فإن معلقة طرفة تعكس شخصية أخرى مختلفة تماما عن هذه الشخصية . إنها تعكس شخصية شاب قلق فى حياته ، متشائم منها ، شاكٍّ فيها ، يدفعه قلقه وتشاؤمه وشكه إلى الإقبال على الحياة ليستمتع بها من قبل أن يدركه مصيره المحتوم الذى لا يدرى ما وراءه إلا أنه غيب مجهول محجّب ، وربما لم يكن وراءه شىء ، وربما كان الموت هو النهاية التى يتساوى عندها الجميع : مَنْ أسرفوا على أنفسهم فى الحياة ،

ومَنْ ضَنُّوا بها عليها ، فكلا الفريقين فى حفرتين متشابهتين « عليهما صفائحُ صُمٌّ من صَفيحٍ مُنَضَّدِ » .

* * *

١ لِخَوْلَةَ أطـلالٌ بُبرقَةِ ثَهْمَـدِ تَلُوح كباقى الوَشْمِ فى ظاهِرِ اليدِ
٢ وقوفًا بهـا صَحْبى علىَّ مطِيَّهـم يقولون : لا تَهْلِك أسًى وتَجَلَّدِ
٣ كأنَّ حُدُوجَ المـالكيَّةِ غُدْوَةً خَلايَا سفينٍ بالنَّواصِفِ مِنْ دَدِ
٤ عَدَوْلِيَّةٌ أو مِنْ سَفِينِ ابنِ يامِنٍ يَجُورُ بهـا الملَّاحُ طورا ويهتدى

(١) خولة : اسم صاحبته التى يقف بأطلالها . وبرقة ثهمد : اسم مكان ، والبرقة كل رابية يختلط فيها رمل وطين أو حجارة وطين . يشبه الأطلال بآثار الوشم التى مازالت باقيـة فى ظاهر اليد ، واختار ظاهر اليد للدلالة على أن هذه الآثار ظاهرة للعين يراها كل من يمر بالأطلال .

(٢) التجلد : التماسك والصبر عند الشدائد . والبيت تكرار لبيت امرئ القيس فى مقدمة معلقته لم يغير فيه سوى القافية :

وقوفا بهـا صحبى على مطيهـم يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

(٣) الحدوج : جمع حدج (بكسر الحاء) وهو الهودج . والمالكية : هى صاحبته خولة . والخلايا : السفن الكبيرة ، جمع خلية . والنواصف : المناطق الرحبة الواسعة فى الوديان . ودد : اسم مكان . يشبه هوادج الظعائن وهى تمضى فى رحاب هذه المنطقة بالسفن الضخمة وهى تمضى فى أرجاء البحر الفسيحة .

(٤) عدولية : منسوبة إلى عدولى ، وهى مدينة على سواحل البحرين مشهورة بصناعة السفن . وابن يامن : ملاح من أهل هجر ، وهى مدينـة على سواحل البحرين أيضا ، ويبدو أنه كان ملاحا مشهورا فى هذه المنطقة . يجور : يميل بها وينحرف عن الطريق الصحيح . والبيت وصف للسفن التى أشار إليها فى البيت السابق ، والتى يشبه بها قافلة الظعائن . والبيتان يعكسان تأثر الشاعر ببيئة البحر التى كانت قبيلته تنزل بها .

٥ يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُها بِهَا كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ باليَدِ
٦ وفي الحيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ
٧ خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلةٍ تَنَاوَلُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِي
٨ وتَبْسِمُ عن أَلْمَى كأنَّ مُنَوَّرًا تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ له نَدِي

(٥) حباب الماء : أمواجه أو الزبد الذي يعلو سطحه . والحيزوم : الصدر ، يريد به مقدمة السفينة . والضمير في « بها » يعود على السفن . والمفايل : الذي يشترك في لعبة الفيال أو المفايلة ، وهي لعبة لصبيان العرب يكومون ترابا أو رملا ، ثم يخبئون فيه شيئا ، ثم يشق المفايل هذه الكومة بيده فيقسمها قسمين ، ثم يقول للاعبين : في أي الجانبين خبأت ؟ فمن أصاب ظفر ، ومن أخطأ خسر . والتسمية مأخوذة من قولهم للخاسر : فال رأيك ، أي خاب وأخطأ وانحرف عن الصواب . والبيت يعكس امتزاج صور البحر والصحراء في أعماق الشاعر .

(٦) الأحوى : الظبي له خطتان من سواد وبياض ، يشبه به صاحبته . والمرد : ثمر الأراك الناضج . وينفضه : أي يهزه بقرنيه فيتساقط عليه . والشادن : الظبي الصغير الذي اقترب من الاستغناء عن امه . والمظاهر هنا : الذي يلبس عقدين أحدهما فوق الآخر . والسمط : العقد من الجواهر الكريمة . يشير بهذا إلى أن صاحبته مترفة غنية حريصة على زينتها وحليها .

(٧) الخذول : الظبية التي خذلت القطيع وانفردت عنه لتراعى صغيرها ، يشبه بها صاحبته بعد تشبيهه لها بالظبي الصغير في البيت السابق . والربرب هنا هو قطيع الظباء . وتراعيه : تنظر إليه وتراقبه وتمد جيدها نحوه فيبدو طوله وجماله واعتداله . والخميلة : الأرض السهلة اللينة الخصبة التي يكثر فيها الشجر . والبرير : ثمر الأراك الذي لم ينضج . وتناول أي تتناول حذف إحدى التاءين تخفيفا . وترتدي : يريد أن أغصان الأراك تتهدل عليها حين تمد عنقها إليها لتتناول ثمرها فتكسوها . والصورة مرسومة بدقة بارعة ، وهي من أجمل ما رسم شاعر جاهلي من صور الظباء .

(٨) الألمى : الأسمر اللثات ، يريد ثغرها ، وسمرة اللثة من علامات الجمال عند العرب . والمنور : يريد به الأقحوان الذي ظهر نوره ، والعرب يشبهون الأسنان به . وتخلل حر الرمل : أي نبت في وسطه ، وحر الرمل : أكرمه وأصفاه وأحسنه ألوانا . والدعص : الكثيب من الرمل . والضمير في « له » يعود على المنور . والندى : الذي أحاط به الماء ، فهو لذلك أكثر نضارة .

٩ سَقَتْهُ إياةُ الشمس إلا لِثَاتِهِ أُسِفَّ، ولم تَكْدِمْ عليه، بإثْمِدِ

١٠ ووجهٌ كأنّ الشمس أَلْقَت رِداءها عليه نَقِيُّ اللونِ لم يَتَخَدَّدِ

* * *

١١ وإنّي لأَمْضِي الهمَّ عند احتضاره بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي

١٢ أَمُونٍ كألواحِ الإرَانِ نَسَأْتُها على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ

١٣ تُبَارِي عِتاقًا ناجياتٍ، وأَتْبَعَتْ وَظِيفًا وَظِيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

(٩) إياة الشمس : ضوءها وشعاعها . والهاء فى « سقته » تعود على الثغر . ومعنى سقته : أكسبته بياضا وأشربته حسنا . يريد أن ثغرها أبيض ولثاتها سمر . وأسف بإثمد : أى ذر عليه الإثمد وهو الكحل ، والتعبير على التشبيه ، يقول كأن ثغرها ذرّ عليه كحل فصبغه بصبغة سمراء ، وسمرة الشفاه من علامات الجمال عند العرب . ولم تكدم عليه : أى لم تعضض عليه شيئا صلبا فيؤثر فى استواء أسنانها .

(١٠) كأن الشمس ألقت رداءها عليه : تصوير لجماله وصفائه وإشراقه ، يؤكده وصفه له بأنه « نقى اللون » . ولم يتخدد : لم يضطرب جلده ولم يترهل لحمه ، أى لم تصبه غضون أو تجاعيد يصفه بالشباب والحيوية والنضارة . والصور فى هذه الأبيات من أجمل ما عرفه الشعر الجاهلى . وإلى هنا تنتهى المقدمة الطللية .

(١١) من هنا يبدأ الشاعر وصف ناقته التى ينطلق فوقها إلى الصحراء لينسى مشكلاته فى فضائها اللانهائى ، ولينفض همومه فوق رمالها المترامية إلى ما لا نهاية . العوجاء : الناقة الضامرة . والمرقال : السريعة . وقوله « تروح وتغتدى » يريد به أنها تصل الرواح بالغدو ، أى تصل آخر النهار بأوله فى سيرها دون توقف ، ومن هنا كان وصفها بالعوجاء والمرقال .

(١٢) الأمون : التى يؤمن عثارها لقوة بنيانها وتماسكه . والإران : تابوت يحملون فيه الموتى من سادتهم وكبرائهم دون غيرهم . ونسأتها : ضربتها بالمنسأة وهى العصا ، ويروى « نصأتها » ، وهما بمعنى واحد . واللاحب : الطريق الواضح الذى تظهر فيه آثار المشى . والبرجد : كساء مخطط من أكسية الأعراب ؛ شبه آثار المشى التى فى الطريق بخطوطه .

(١٣) العتاق : الكريمة الأصل . والناجيات : السريعة ، يريد أنها تسبق غيرها من النوق الأصيلة السريعة . والوظيف : عظم الساق ، وقوله « وأتبعت وظيفا وظيفا » يريد به أنها تضع وظيف رجلها موضع وظيف يدها ، وهو مما يستحب فى سير الإبل ، ولذلك يمتدحون الناقة بأنها « خرقاء اليد صناع الرجل » يريدون أنها تندفع بيدها بدون تقدير لموضعها ، ولكنها تقدر موضع رجلها حيث وضعت يدها . والمور : الطريق . والمعبد : المذلل الذى مهد بالسير فيه ، وظهرت فيه آثار المشى .

١٤ تَرَبَّعت القُفَّين فى الشَّوْل تَرْتعِى	حدائقَ مَوْلِىِّ الأَسِرَّة أَغْيَدِ
١٥ كقَنْطرةِ الرُّومىِّ أقسمَ رَبُّها	لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشاد بقَرْمَدِ
١٦ على مِثْلها أَمضى إذا قال صاحبى :	ألا ليتنى أَفْديكَ منها وأفتدِى
١٧ وجاشتْ إليه النفسُ خوفًا ، وخالَهُ	مُصابا ولو أمسى على غيرِ مَرْصَدِ
١٨ إذا القومُ قالوا : مَنْ فتًى ؟ خِلْتُ أننى	عُنِيتُ فلم أكسَلْ ولم أَتَبَلَّدِ

(١٤) القف : ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا ، والقفان هنا موضع معين . وتربعته : أى رعت الربيع فيه . والشول : جمع شائلة ، وهى الناقة التى مضى عليها بعد وضعها سبعة أشهر ، خف لبنها وشال ضرعها . و « فى » هنا بمعنى « مع » . والمولى : الذى أصابه الولى ، وهو المطر الثانى من أمطار السنة ، أما المطر الأول فيسمى « الوسمى » . والأسرة : بطون الأودية ، وفيها يتجمع ماء المطر أكثر من المرتفعات . والأغيد : الناعم اللين من النعمة ، صفة « لمولى الأسرة » . يصف ناقته فى مرعاها ، ويتخير لها فصل الربيع لخصبه ووفرة نباته ، ويجعلها مع صواحبها من النوق الشوائل ليكون أدعى لرعيها ، وأشد إغراء لها عليه .

(١٥) ربها : صاحبها ، والضمير يعود على القنطرة . وتكتنف : تحاط من أكنافها أى نواحيها ، والنون فيه نون التوكيد الخفيفة ، واللام لام القسم . وتشاد : ترفع . والقرمد : الآجر وهو الطوب الذى يبنى به ، وهى كلمة فارسية معربة . يشبه ناقته فى ضخامتها وشدة بنيانها بقنطرة تبنى لرجل رومى أقسم ألا يتفرق البناؤون عنها حتى يحكموا بناءها من كل جانب ، ويرفعوه بالآجر الصلب الشديد .

(١٦) الضمير فى « مثلها » يعود على الناقة ، وفى « منها » يعود على الصحراء المفهومة من السياق . والحديث هنا يدور بين الشاعر وصاحبه وهما منطلقان فى رحلة فى أعماق الصحراء البعيدة الرهيبة ، وصاحبه يعلن خوفه من الهلاك فيها ، ويتمنى لصاحبه ولنفسه النجاة منها ، وكأن طرفة يفتخر بجرأته على اختراقها ، وصبره على مشقاتها .

(١٧) الضمير فى « إليه » يعود على صاحبه . وخاله : أى خال نفسه . ومصابا : أى هالكا . ولو أمسى على غير مرصد : أى ولو أمسى فى موضع لا يرصده فيه عدو . والبيت استمرار فى وصف رهبة الصحراء التى يفتخر الشاعر بجرأته وصبره على اختراقها ومشقاتها .

(١٨) من فتى ؟ : أى من فتى لهذه الصحراء ؟ هكذا يقول الشراح القدماء فى تفسير البيت ، ويربطون بينه وبين البيتين التاليين . وفى رأيى أن موضعه يجب أن يكون بعدهما ، ولا صلة له بهما ، وأن حديث طرفة عن فتوته ليس وقفا على اختراق الصحراء ، ولكنه حديث عام يبدأ به قطعة الفخر فى معلقته ، فهو أشد ارتباطا بحديث الفخر منه بحديث الناقة .

١٩ أحلتُ عليهـا بالقطيع فأجذمتْ وقـد خبَّ آلُ الأمعزِ المتوقِّـد
٢٠ وذالتْ كما ذالت وليدةُ مجلسٍ تُرِى ربَّهـا أذيالَ سحْـلٍ مُمـدَّدِ

* * *

٢١ ولستُ بحـلَّالِ التِّـلاع مخـافةً ولكنْ متى يَسْترفِدِ القومُ أرْفِدِ
٢٢ فإنْ تبغِني في حلقـة القوم تلقَني وإنْ تقتنِصْني في الحوانيتِ تَصْطَدِ
٢٣ متى تأتني أُصْبحكَ كأساً رَوِيَّةً وإنْ كنتَ عنها غانياً فاغْنَ وازدَدِ

(١٩) القطيع : السوط ، وأحال عليها به أى أقبل عليها ضربا فى إثر ضرب . وأجذمت : أسرعت والآل : السراب . وخب : جرى واضطرب . والأمعز : الموضع الغليظ الكثير الحصى . والمتوقد : الذى يتوقد بالحر .

(٢٠) ذالت : ماست وتبخترت فى مشيتها ، وأصله من جر الذيل اختيالا . والوليدة هنا : الجارية وربها : سـيدها . والسحل : الثوب الأبيض . والممـدد : الذى أرسلته فى الأرض وراحت تجروه وراءها . يشبه ناقته فى سيرها بهذه الجارية التى تختال فى ثيابها السابغة لتعرض مفاتنها على سيدها . وإلى هنا ينتهى الشاعر من وصف ناقته الذى اخترنا من أبياته الثلاثة والثلاثين هـذه الأبيات العشرة ، ليبدأ بعد ذلك حديثه عن نفسه وشخصيته وآرائه فى الموت والحياة .

(٢١) التلاع : مجارى المـاء التى تصب من المرتفعات إلى الوديان المنخفضة . وقوله « مخافة » يريد مخافة أن يراه ضيف فيقصده ، يفتخر بالكرم . والرفد : العطاء والمعونة . يقول إنى لا أتوارى فى الأماكن العاليـة عمن يطلب عطائى ومعونتى ، وإنمـا أنزل فى الأرض الفضاء المكشوفة لأعطى من يقصدنى وأعين من يحتاج إلى .

(٢٢) حلقة القـوم يريد بهـا مجالس سادتهم التى يجتمعون فيها لإدارة الرأى فى أمورهم . والحوانيت : بيوت الخمارين ، وهى ترادف كلمة « الحـانات » . يفتخر بمشاركته فى جانبى الحياة الجاد واللاهى ، فهو إذا جد الجـد شارك سادة قبيلته فى إدارة أمورها وتحمل تبعاتها ، وهو فى ساعات اللهو يشارك أمثاله من فتيانها مجالس شرابهم ولهوهم .

(٢٣) أصبحك : من الصبوح وهو شرب أول النهار . والكأس الروية : المملئة بالخمر . وغانيـا : أى مستغنيا . يقول إن طلبت منادمتى وجدت عندى ما تطلبه من خمر ، وإن كنت مستغنيا عنها فأنت وشأنك تفعل ما تشاء .

٢٤ وإنْ يلتقِ الحَىُّ الجميعُ تُلاقِنى ... إلى ذِروةِ البيتِ الرفيعِ المُصَمَّدِ

٢٥ نَدَامایَ بِيضٌ كالنجوم ، وقَيْنَةٌ ... تروحُ علينا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ

٢٦ رَحِيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ منها ، رفيقةٌ ... بجَسِّ النَّدامى ، بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

٢٧ إذا نحن قلنا : أَسْمِعِينا ، انبرتْ لنا ... على رِسْلِها مطروفةً لم تَشَدَّدِ

٢٨ ومازالَ تَشْرابى الخمورَ ولَذَّتى ... وبيعى وإنفاقى طَرِيفى ومُتْلَدِى

---

(٢٤) الجميع : المجتمعون للقاهرة . والمصمد : الذى يقصده الناس فى الأمور الجليلة ، من الصمد وهو القصد . يفتخر بمنزلته فى قومه وشرفه بينهم .

(٢٥) يشبه نداماه على الشراب بالنجوم فى الحسن والوضاءة . والقينة : الجارية ، وهى هنا المغنية بدلالة جو الأبيات بعد ذلك . والبرد : الثوب الموشى المنقوش . والمجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران . يصف مجلس شراب حيث الخمر واللهو والغناء : ندامى صباح الوجوه ، وقينة تجيد فنون الإغراء ، وخمر تدور كؤوسها بينهم وبينها ، ثم لهو وخلاعة سيؤكدهما الشاعر فى البيت التالى .

(٢٦) الجيب : الفتحة فى أعلى الثوب التى يلبس منها ، وقطابه : مجتمعه حيث قطب أى جمع . والرحيب : الواسع . « وقطاب » فاعل الصفة المشبهة « رحيب » . ويروى بالإضافة إلى رحيب . « ومنها » متعلق بقطاب الجيب . يصف قينة الحانة بأنها توسع قطاب جيبها لتكشف عن صدرها ، وسيلة من وسائل الإغراء . « ورفيقة بجس الندامى » يريد أنها لا ترد أيديهم عندما يجسونها بها . وكانت القيان فى العصر الجاهلى يفتقن فى أكمامهن فتقا إلى أعلى الذراع حتى الإبط حتى يمنحن لرواد الحانات فرصة مد أيديهم للجس . والبضة : البيضاء الناعمة الرخصة اللينة . والمتجرد : جسدها المتجرد من ثيابها .

(٢٧) على رسلها : أى على مهل ورفق . والمطروفة : الفاترة الطرف . ولم تشدد : أى لم تتشدد ، فحذف إحدى التاءين تخففا ، يصفها بأنها تغنى فى غير جهد أو عناء غناء سهلا لينا منطلقا فى غير تكلف له أو تصنع فيه .

(٢٨) التشراب : الشرب الكثير . والطريف : الحديث . والمتلد : القديم . يريد ماله المكتسب وماله الموروث .

٢٩ إلى أنْ تَحَامتنى العشِـيرةُ كلُّهـا وأفردتُ إفرادَ البعـيرِ المُعَبَّـدِ
٣٠ رأيتُ بنى غَـبْراءَ لا يُنْـكِرُوننى ولا أَهْـلَ هذاكَ الطِّرافِ المُمَدَّدِ
٣١ ألا أيُّهـذا اللائِمِى أَحضُرَ الوغَى وأنْ أشهدَ اللَّذاتِ هل أنتَ مُخْلِدِى ؟
٣٢ فإنْ كنتَ لا تَسطِيعُ دفعَ منيَّتِى فَدَعْنى أُبادِرْها بمـا مَلَكَتْ يَدِى
٣٣ ولولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ عِيشَةِ الفتى وجَدِّكَ لم أَحفِلْ متى قامَ عُوَّدِى

(٢٩) تحامتنى : تجنبتنى وتباعدت عنى . والبعير المعبد : هو البعير الذى أصابه الجرب فطلى بالقطران لعلاجه ، وأبعد عن الإبل السليمة حتى لا يعديها .

(٣٠) بنو غـبراء هم الفقراء ، والغبراء : الأرض ، كأنهم لا يملكون إلا ترابها ، أو كأنهـم لاصقون بها . والطراف : القبة تتخـذ من الجلد تمييزا لهـا من سائر الخيام ، ولا تكون إلا للأغنياء . والممدد : الفسيح الرحب الذى مـد بالأطناب . يريد أنه شخصية معروفة فى مجتمعه ، يعرفـه الفقراء المحتاجون لأنهـم يعطيهم ، و يعرفه الأغنياء المعروفون فى مجتمعهم لأنه واحد منهم . وكأنه بهـذا يرد اعتباره أمام عشيرته التى تحامته وتنكرت له . وهو ما صرح به فى البيت السابق .

(٣١) فى رواية أخرى « الزاجرى » بدلا من « اللائمى » . و « أحضر » تروى بالنصب على إضمار « أن » ، وتروى بالرفع على إسقاطها . والوغى : الحـرب . يصرح هنا بجانب من رأيه فى الحياة وموقفـه منها ، أو — إذا استعرنا عبارات المحـدثين — « فلسفته الوجودية » : إذا كانت الحياة فانية لا خلود لهـا ، و إذا كان الموت هو المصير المحتوم ، فلم لا نثبت وجودنا أمام هذا الفناء المقدر علينا ؟

(٣٢) تسطيع : أى تستطيع ، حذفت تاؤه تخفيفا . البيت استمرار فى هذه الفلسفة الوجودية : إن كنت — يا من تلومنى على مذهبى فى الحياة — لا تملك أن ترد عنى الموت أو أن تضمن لى الخلود ، فلا تقف فى طريق ، ودعنى أستمتع بحياتى بكل ما أملك من قوة ، بل دعنى أبادر بالاستمتاع بها من قبل أن يدركنى المصير المحتوم الذى لا مفر منه .

(٣٣) « هن من عيشة الفتى » يريد أنهن مما يستحق الإنسان أن يحرص على حياته من أجله . وجدك : أى وحياتك ، قسم يتردد كثيرا فى الشعر العربى القديم . العود : جمع عائد وهو من يزوره فى مرضه . وقيام العود كناية عن الموت . يقول : لولا ثلاث متع فى الحياة تستحق أن يعيش الإنسان من أجلها لم أكن أبالى متى يأتى يومى الذى أفارق فيه هذه الحياة . وهى المتع الثلاث التى سيفصل الحديث عنها فى الأبيات التالية .

٣٤ فمنهنّ سَبْقُ العاذلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تَزْبِدِ

٣٥ وكَرِّى إذا نادَى المُضافُ مُجنَّبًا كسِيدِ الغَضَى نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ

٣٦ وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ

٣٧ كأنَّ البُرِينَ والدَّماليجَ عُلِّقَتْ على عُشَرٍ أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّدِ

٣٨ فذَرْنى أُرَوِّى هامَتِى فى حياتِها مخافةَ شُرْبٍ فى الحياةِ مُصَرَّدِ

---

(٣٤) الكميت : الخمر الحمراء القانية . وتزبد : يريد أن الزبد يعلوها عندما تمزج بالماء الذى يصب فوقها . هذه أولى المتع التى يحرص على الحياة من أجلها .. الخمر .

(٣٥) المضاف : الذى وقع فى مأزق ضيق ، أو الذى أحيط به فلا يعرف له مخرجا . والمجنب (بالجيم) ، ويروى المحنب (بالحاء) ، وهما الفرس فى يديه أو رجليه انحناء ، وهو مما تمدح به الخيل لأنه علامة على شدتها . والسيد : الذئب . والغضى : شجر من أشجار البادية ، وذئاب الغضى عند العرب أخبث الذئاب ، لأنها تستخفى فيه وتهاجم الإنسان على غرة منه وغفلة . والمتورد : الذى يطلب ورد الماء ، أى الذى يتجه نحوه ليرده ، صفة للذئب . ونبهته هيجته ، فى محل نصب حال من الذئب . يشبه فرسه فى عنفه وشدته بذئب الغضى الذى هيجته وأثرته وهو يسعى نحو الماء وقد استبد به العطش ، فيكون شديد الضراوة . وهذه هى المتعة الثانية .. الفروسية .

(٣٦) الدجن : الغيم الذى يغطى السماء فيحجبها ، أو هو المطر الغزير . ومعجب أى يعجب من رآه . وتقصير يوم الدجن رمز للهو والسرور . والبهكنة : المرأة المليحة الحلوة التى اكتمل جمالها . والخباء المعمد : الذى ارتفعت عمده . وهذه هى المتعة الثالثة .. المرأة .

(٣٧) البرين : الخلاخيل ، واحدتها برة . والدماليج : الأساور ، واحدتها دملج ودملوج . والعشر : شجر من أشجار البادية أملس ناعم لين العود . والخروع : كل نبات ناعم . ولم يخضد : لم يثن ، من خضد العود إذا ثناه ليكسره . يشبه الشاعر ذراعى صاحبته وساقيها بالعشر والخروع فى نعومتها ولينها وملاستها .

(٣٨) الهامة : طائر فى أساطير الجاهليين يخرج من جسد الميت بعد موته و يظل يحوم حول قبره فترة ثم يختفى ، ولعله تمثل أسطورى للروح . والمصرد : القليل الذى يقطع عن الظمآن قبل ريه . يطلب إلى من يلومه أن يتركه يطفئ ظمأ روحه إلى الشراب من قبل أن يدركه الموت ولم ينل منه فى حياته إلا القليل الذى يحال بينه و بينه قبل أن يرتوى منه .

٣٩ كريمٌ يُرَوِّى نفســه فى حيـاته ستعلمُ إنْ متْنا غدا أيُّنـا الصَّدِى
٤٠ أرَى قــبرَ نَحَّـام بخيـلٍ بمـاله كقـبرِ غَـوِىٍّ فى البَطَالة مُفْسِد
٤١ ترى جُثْوَتين مِنْ ترابٍ ، عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّـد
٤٢ أرَى الموتَ يعتامُ الكرامَ، ويَصْطَفِى عَقِيـلةَ مالِ الفـاحِشِ المتشدِّد
٤٣ أرَى الدهرَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ وما تَنْقُصِ الأيامُ والدهرُ يَنْفَد
٤٤ لَعَمْرُكَ إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليـد

* * *

(٣٩) الصدى : الظامىء العطشان . وفى رواية أخرى « إن متنا صدى » (على المفعولية) أى إن متنا عطشا ، وفى رواية غيرهما « إن متنا صــدى أينا » (على الإضافة) والصــدى هنا هو ذلك الطائر الأسطورى . يطلب الى من يلومــه على إسرافه فى الشراب أن يتركه يطفىء ظمأ روحه إلى الشراب فى حياته ، لأنه ليس على يقين بما بعد الموت ، وكأنه يتحدى لائمه الذى حرم نفسه من متع الحياة بأنه لن يجد بعد الحياة شيئا من هذه المتع .

(٤٠) النحام : البخيل الذى يتنحنح ويزحر إذا سئل ، وكأنه يماطل ويســوف فى الإجابة . والغوى : الذى يتبع هواه وينساق وراء لذاته ، من الغى والغواية بمعنى الضلال . يقول إن الموت يسوى بين البخيل الذى عاش حياته حريصا على ماله بخيلا به ، وبين الكريم المسرف الذى يفسد كل ماله فى لذاته وغواياته .

(٤١) الجثوة : الكومة من التراب ، يريد بها هنا القبر . والصفائح : جمع صفيحة وهى الحجارة العريضة التى يغطى بهـا القبر . والصم : الصلبة . والمنضد : الذى نضد فوق القــبر أى وضع بعضه فوق بعض . هذه هى النهاية التى ينتهى إليها البخيل والكريم : كومتان من تراب عليهما صفائح من حجارة .

(٤٢) يعتام : يختار وينتقى ، وكذلك معنى يصطفى . والعقيــلة : الشىء النفيس الذى يقع عليــه الاختيار . والفاحش : السيء الخــلق . والمتشدد : الحريص على ماله ، البخيل به . والبيت تكرار وتأكيد لمعنى البيتين السابقين .

(٤٣) فى رواية أخرى « أرى العيش » ، وفى رواية غيرهمـا « أرى العمر » . والبيت — على جميع رواياته — استمرار لحــديث طرفة عن قضية الموت والحياة التى وقف عند كثير من جوانبهـا فى الأبيات السابقة .

(٤٤) « ما » فى قوله « ما أخطأ الفتى » مصدرية على تقدير « فى إخطائه الفتى » . والطول : الحبل تربط به الدابة فيطال لها فى المرعى إذا شاء صاحبها ، ويقصر لها إذا شاء . وثنياه : طرفاه لأنهما يثنيان على اليد . والبيت استمرار لحديث الموت والحيــاة . يقول إن الإنسان فى يد القــدر يتصرف فيه كيف يشاء ، إن شاء أمهله وإن شاء تعجل به ، ولكنه — على الحالين — لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فهو كالدابة شدها صاحبها فى حبل طرفاه فى يده ، فهو يرخى لها الحبل إذا أرخاه ، ولكنه لا يتركها تفلت منه ، حتى إذا شاء جذبها دون أن يكون لها رأى أو إرادة .

٤٥ فمالي أراني وابنَ عمِّيَ مالكا متى أدْنُ منه ينأَ عنّي ويبعُدِ
٤٦ يلومُ ، وما أدرِي علامَ يلومني ، كما لامني في الحيِّ قُرْطُ بنُ أعْبَد
٤٧ وأيأسَني مِنْ كلِّ خيرٍ طلبتُه كأنّا وضعناه على رَمْسِ مُلْحَدِ
٤٨ على غيرِ ذنبٍ قُلتُه غيرَ أنني نَشَدْتُ فلم أُغْفِلْ حَمُولةَ مَعْبَدِ
٤٩ وقرّبتُ بالقُربى ، وجَدِّكَ إنني متى يَكُ أمرٌ للنَّكيثةِ أشْهَدِ
٥٠ وإنْ أُدْعَ للجُلَّى أكُنْ من حُماتها وإنْ يأتِكَ الأعداءُ بالجَهْدِ أجْهَدِ
٥١ وإنْ يقذفوا بالقذْعِ عِرْضَكَ أسْقِهِمْ بكأسِ حياضِ الموتِ قبلَ التهدُّدِ

(٤٥) من هنا ينتقل طرفة إلى الشكوى من أقاربه الذين يمثلون جانبا آخر من مشكلات حياته ، بعد أن فرغ من الحديث عن مشكلته الكبرى فيها .

(٤٦) إن طرفة حائر مع أقاربه وموقفهم منه حيرته مع حياته وموقفها منه . إن الموقفين غامضان أمامه ، لا يعرف حقيقتهما ، ولا يدرك سرهما .

(٤٧) الرمس : القبر . والملحد : الميت الذى دفن فيه . و « على » هنا بمعنى « فى » . يقول إنه يئس من كل خير عنده كأنه قدمات وهيل عليه التراب .

(٤٨) نشدت : طلبت . والحمولة : الإبل المحملة بالأحمال أو هى الأحمال نفسها . ومعبد : أخو طرفة ، وكانت لهما إبل اغتصبها قوم منهما ، فاستعانا ابن عمهما مالكا على ردها ، فتخلى عنهما ، وهو ما يشكو منه فى الأبيات السابقة .

(٤٩) قربت بالقربى : أى أدللت عليه بالقرابة ، يريد ابن عمه مالكا . النكيثة : أقصى المجهود . يعتب على ابن عمه تخليه عنه ، وتنكره لصلة القرابة بينهما التى تقرب إليه بها ، مع أنه لو وقع فى شدة تحتاج إلى بذل أقصى جهده لما تخلى عنه ، ولأسرع إلى الوقوف معه فيها .

(٥٠) الجلى : الأمر الجليل العظيم ، مؤنث الأجل ، كالعظمى والأعظم . والجهد : المشقة والشدة : والبيت فخر بنفسه ، واستمرار فى عتاب ابن عمه .

(٥١) القذع : اللفظ القبيح يشتم به . والحياض : جمع حوض . وقوله « قبل التهدد » يريد به أنه لا ينتظر حتى يهددهم وينذرهم ، وإنما يسارع إلى قتلهم فورا . والبيت استمرار فى عتاب ابن عمه .

٥٢ فلو كان مولاىَ امرءاً هو غيرُهُ   لَفَرَّجَ كَرْبِى أولأَنْظَـرَنى غَدِى
٥٣ ولكنَّ مـولاىَ امرؤ هو خانِقِى   علي الشكروالتسآلِ أوأنا مُفْتَدِى
٥٤ وظلمُ ذوى القُرْبَى أشدُّ مضاضةً   على المرء مِنْ وَقْع الحُسَام المهنَّدِ

* * *

٥٥ أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذى تَعْرِفونه   خَشَاشٌ كرَأْسِ الحيَّـةِ المُتَوَقِّدِ
٥٦ فآليتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحِى بِطانَةً   لِعَضْبٍ رقيـقِ الشَّفرتينِ مُهَنَّـدِ
٥٧ حُسَـامٍ إذا ما قمتُ منتصرًا به   كَفَى العَوْدَ منه البَدْءُ ليس بِمِعْضَدِ

(٥٢) المولى هنا وفى البيت التالى بمعنى ابن العـم . وقوله « أنظرنى غدى » أى تأنى على وأمهلنى ولم يتعجل باتخاذ موقف منى . يقول : لو كان ابن عمى شخصا آخر غير مالك لوقف إلى جانبى يفـرج كربى ، ويتأنى فى اتخاذ موقف منى .

(٥٣) قوله « هو خانق على الشكر والتسآل » يريد به أن ابن عمه يفرض عليه أن يتعرض لسؤال الناس وطلب معروفهم وشكرهم عليه ، وكأنه يخنقه بذلك ، أو — كما يقال — يضيق عليه الخناق ، وقد كان فى استطاعته أن يعفيه من ذلك ويحفظ عليه كرامته . وقوله « أو أنا مفتدى » يريد به أنه يفرض على ذلك أو يتركنى وحدى لأحل مشكلتى بنفسى .

(٥٤) المضاضة : وجع المصيبة . والبيت تركيز لموقف طرفة من موقف ابن عمه منه ، وارتفاع به من موقف فردى خاص إلى موقف إنسانى عام .

(٥٥) من هنا تبـدأ قطعة الفخر فى المعلقة . الضرب : الخفيف . والخشاش : النافذ فى الأمور ذكاء ومضاء وتصميما . والمتوقد : الكثير الحركة .

(٥٦) آليت : أقسمت . والكشح : الخاصرة . والعضب : السيف . يقول إنه أقسم ألا يفارق السيف جنبـه . يفتخر بشجاعته وبأنه دائمـا على استعداد لقتال من يفكر فى ظلمـه ، وأيضا لنجدة من يستنجد به .

(٥٧) البيت استمرار فى وصف سـيفه . والحسام : القاطع . وقوله « منتصرا به » أى منتصرا من أى ظلم ينزل به . والمعضد : الردىء من السيوف الذى يستخدم فى قطع الشجر . وقوله « كفى العود منه البدء » يريد أن الضربة الأولى به تكفى عن إعادة الضرب به مرة ثانية .

٥٨ أخي ثِقَةٍ لا يَنْثَني عن ضَرِيبةٍ ... إذا قِيلَ مهلاً قال حاجزُه قَدِ

٥٩ إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وَجَدْتَني ... منيعاً إذا بَلَّتْ بقائمه يَدِي

٦٠ وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مخافتي ... نَوَادِيَها أمشي بعضبٍ مُجَرَّدِ

٦١ فمرَّتْ كَهَاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلَالةٌ ... عَقِيلةُ شيخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ

٦٢ يقول وقد تَرَّ الوظيفُ وسَاقُها : ... ألستَ ترى أنْ قد أتيتَ بمُؤْيِدِ ؟

(٥٨) البيت أيضا استمرار في وصف السيف . « أخي ثقة » يريد أنه سيف يوثق به و يطمأن إلى مضائه وقطعه . والضريبة : المضروبة . وقوله « لا ينثني عن ضريبة » أي لا يرجع عنها ولا يرتد حتى يجهز عليها . وحاجزه : حده . وقوله « قد » أي قد فرغت وانتهيت من مهمتي . يفتخر بأن سيفه سريع القطع ، إذا قيل له مهلا قال لقد انتهيت من أداء مهمتي .

(٥٩) « إذا ابتدر القوم السلاح » : أي اذا أسرعوا إليه عند الفزع أو النجدة أو اذا نزل بهم أمر مفاجئ . وقوله « بلت بقائمه يدي » أي ظفرت به وتمكنت منه ، وقائمه : مقبضه ، والضمير يعود على السلاح . والسلاح يذكر ويؤنث .

(٦٠) من هنا ينتقل الشاعر من الفخر بالشجاعة إلى الفخر بالكرم . البرك : الجماعة من الإبل الراقدة في مباركها . والهجود : النيام . وقوله « مخافتي » أي خوفها مني . والنوادي : ماند منها خوفا مني ، ويروى « هواديها » أي أوائلها المتقدمة . والمجرد : الذي أخرج من غمده . يصف فزع الإبل حين دخل عليها بسيفه المسلول لينتق من بينها ناقة ينحرها لضيفه أو لرفاقه .

(٦١) الكهاة : الضخمة المسنة . والخيف : جلد الضرع ، يريد أنها ناقة ممتلئة الضرع لأنها مرضع . والجلالة : الضخمة . وقوله « عقيلة شيخ » يريد أنها خير ماله وأكرمه ، ولعله يريد بالشيخ هنا أحد أعمامه الذين تولوا تربيته بعد موت أبيه . والوبيل : العصا الثقيلة الشديدة ، يشبه هذا الشيخ بها . واليلندد : الشديد الخصومة ، صفة الشيخ .

(٦٢) تر الوظيف : انقطع ، والوظيف : عظم الساق والذراع . يريد أنه نحر هذه الناقة إكراما لضيفه . والمؤيد : الأمر العظيم ، من « الأيد » وهي القوة والشدة . يقول إن عمه ينكر عليه نحر هذه الناقة الغالية .

٦٣ وقال : ألا ماذا تَرَوْنَ بشاربٍ شـديدٍ علينـا بَغْيُـهُ مُتَعمِّدِ ؟
٦٤ وقال : ذَرُوه إنمـا نفعُها له وإلاَّ تردُّوا قاصىَ البَرْكِ يَزْدَدِ
٦٥ فظـلَّ الإمَاءُ يَمْتَلِلْنَ حُوَارَها ويُسْعَى علينا بالسَّدِيفِ المُسَرْهَدِ
٦٦ فإنْ مُتُّ فانْعَيْنِي بمـا أنا أهـلُه وشُقِّى علىَّ الجيبَ يا ابنـةَ مَعْبَدِ
٦٧ ولا تجعليني كامرئٍ ليس هَمُّـه كهمِّى ولا يُغْنِي غَنَائى ومَشْهَدِى
٦٨ بطىءٍ عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنَا ذليـلٍ بأَجْمَـاعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ

(٦٣) الضمير فى « قال » يعود على الشيخ ، وحديثه عن طرفة ، والخطاب موجه — فى أغلب الظن — إلى أهله ، وكأنه ينكر عليه سلوكه الاجتماعى وتصرفاته الطائشة ، فهو فتى عنيف شديد الظلم لأهله ، صاحب شراب يبدد فيه مالهم ، وكأنه مستعص على نصحه الذى وجهه إليه فى البيت السابق . و « بغيه » فاعل لقوله « شديد » و « متعمد » صفة لشديد .

(٦٤) الضمير فى « قال » يعود على الشيخ أيضا ، والخطاب فيه موجه لأهله ، يقول إن عمه يئس من نصحه ، ولم يجد أمامه إلا أن يترك له هذه المرة ، فهو يطلب إلى أهله أن يتركوا له هذه الناقة ، وأن يدركوا بقية الإبل النافرة قبل أن يقضى عليها باندفاعه وتهوره وسفهه .

(٦٥) الإماء : الجوارى . ويمتللن : يشوين على الجمر ، من « الملة » وهى الرماد الحار . والحوار : ولد الناقة ساعة تضعه أو قبـل أن تفطمه . والسديف : شرائح السنام . والمسرهد : الناعم اللذيذ الطعم . لقد نحر طرفة الناقة وصغيرها ، ومضى الإماء يشوين لحمهما وشحمهما ، ويدرن على الرفاق أو على الضيوف بما لذ وطاب منهما .

(٦٦) ابنة معبد هى بنت عمه الذى أشار إليه فى أكثر من موضع من هذه القصيدة . والبيت تأكيد لإحساسه بذاته ، وحسرته على موقف قومه منه .

(٦٧) الهم هنـا بمعنى الهمة والطموح ، أو بمعنى مايهم به من الأمور الجليلة . وقـوله « لا يغنى غنائى ومشهدى » أى لا يستطيع أن يكون مثلى فى نفع القبيلة أو أن يقوم مقامى فى مجالسها .

(٦٨) الجلى : الأمر الجليل ، مؤنث أجل . والخنا : الفحش فى القول ، والأجماع : جمع جمع (بضم الجـيم) وهو أن يقبض الرجل أصابع كفه ويشدها ليلكز بها خصمه ويلكمه . والملهد : الذى أصابته اللكمة أو اللكزة .

٦٩ فلو كنتُ وَغْلاً في الرجال لَضَرَّني ... عداوةُ ذِي الأصحابِ والمُتَوحِّدِ

٧٠ ولكنْ نَفَى عنّي الأعادِيَ جُرأتي ... عليهِمْ وإقدامي وصِدْقي ومَحْتِدِي

٧١ لَعَمْرُكَ ما أمرِي عليَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَاري، ولا لَيْلي عليَّ بِسَرْمَدِ

٧٢ ويومٍ حَبَسْتُ النفسَ عند عِراكِه ... حِفاظاً على عَوْراتِه والتَّهَدُّدِ

٧٣ على موطنٍ يخشَى الفتى عنده الرَّدَى ... متى تَعْتَرِكْ فيه الفرائصُ تُرْعَدِ

* * *

(٦٩) الوغل : الضعيف الخامل الذكر . والمتوحد : المنفرد الذى ليس معه أحد . والبيت يعكس ثقته بنفسه وإحساسه بذاته . إنه مطمئن إلى قوته ، فهو لهذا لا يخشى أحدا ، ولا يبالى بعداوة أحد ، سواء أكان منفردا وحده أم مؤيدا بجماعة تقف معه وتنتصر له .

(٧٠) المحتد : الأصل . والبيت استمرار فى التعبير عن ثقته بنفسه وإحساسه بذاته ، وفيه أيضا إشارة إلى اعتزازه بكرم أصله وعراقة نسبه .

(٧١) الغمة : الأمر الغامض الذى لا يهتدى إلى وجه الحق فيه . والسرمد : الدائم الطويل الذى لا نهاية له . يفتخر بأنه حاسم فى تصرفاته ، لا يقف حائرا أمام أى مشكلة تعترضه ، ولا يقضى ليله مؤرقا مفكرا فيها ، وإنما يحسمها ويقطع بالرأى فيها دون تردد .

(٧٢) حبست النفس أى صبرتها . والعراك : ازدحام القوم عند القتال . والعورات : الأفعال التى تسىء إلى سمعة الإنسان . والتهدد : يريد به تهديد الأعداء له . يفتخر هنا بشجاعته ، وبلائه فى القتال ، وصبره فى الحرب ، وحفاظه على حسن السمعة وطيب الأحدوثة .

(٧٣) « على موطن » متعلق بالفعل « حبست » فى البيت السابق . والموطن هنا يريد به ساحة القتال وميدان المعركة . وتعترك : تشتبك فى القتال . والفرائص : جمع فريصة وهى العضلة التى يلتقى عندها الصدر بالكتف ، وهى أول ما يرتعش من الإنسان والحيوان عند الخوف والفزع . يؤكد هنا شجاعته ، فيفتخر بقوة قلبه وثبات أعصابه فى مواطن الخوف والفزع فى ساحات القتال .

٧٤ أرى الموتَ أعدادَ النفوس ولا أرى بعيدًا غدا ، ما أقربَ اليومَ من غدِ !

٧٥ ستُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تُزَوِّدِ

٧٦ ويأتيكَ بالأنباءِ مَنْ لم تَبِعْ له بَتاتًا ، ولم تَضرِبْ له وقتَ مَوْعِدِ

* * *

(٧٤) الأعداد : جمع عدّ (بالكسر) وهو الماء الجارى الذى لا ينقطع . من هنا يبدأ الشاعر مجموعة من الحكم تعكس إحساسه بالحياة يختم بها قصيدته . إن الموت مورد لابد أن ترده كل نفس ، وهو مورد لا ينقطع وورود الأحياء له ، فمن لم يرده اليوم فسوف يرده غدا ، وما أقرب اليوم من غد !

(٧٥) « من لم تزود » : أى من لم تبعث به فى طلبها .

(٧٦) البتات : الزاد . وباع هنا بمعنى اشترى .

* * *

يوسف خليف

(٢)

رَائيَّــةُ « هِــرّ »

العَــوْدَة

* * *

تعد هذه القصيدة الطويلة التي تبلغ أربعة وسبعين بيتا رائعةَ طرفةَ الثانية بعد المعلقة ، وهي من شعره الموثّق الذي صحّحه الرواة ، فلا يحيط بها شك في صحة نسبتها إليه .

والقصيدة — كما يبدو من نهايتها — نُظِمَتْ بعد أن صفا الجوُّ بين طرفة وقومه ، وزالت الجفوة التي كانت بينهما ، وانتهت القطيعة التي أفسدت علاقة القربى بينهما ، وانقشعت الغشاوة التي يعترف طرفة بأنها كانت تُغَشِّي عينيه ، فتحجب الرؤية الصحيحة عنه ، وتردُّ بصره عن إدراكها على حقيقتها . لقد كان طرفة متمردا على قومه ، غاضبا منهم ، مُقاطِعاً لهم ، ربما بسبب موقف أعمامه منه ومن أمه بسبب طمعهم في ميراث أبيه . وهو في ختام هذه القصيدة يُعْلِن تصحيحَ الموقف بينه وبينهم ، ويصرِّح بأن الأمور قد عادت إلى نصابها ، أو — على حد تعبيره الذي أصبح مَثَلا — « قد صَابَتْ بِقُرٍّ » .

ومن اليسير أن نقسم القصيدة إلى موضوعين أساسيين :

الموضوع الأول غزل طويل بصاحبة له اسمها « هِرّ » ، يقف في بدايته بأطلال ديارها التي رحلت عنها مع قومها ، ويصف زيارة طيفها له في أحلامه

وهو يَشُقّ طريقـه فى رحلة طويلة شاقة فى أعماق الصحراء ، ثم يتغنّى بجمالهـا وحسنها ، ويرسم لوحةً رائعـة لهـا . وهو موضوع يَشْغَل من القصيدة ثمـانية وعشرين بيتا ، مما يدفعنا إلى رفض أن يكون هذا القسم منها مقدمة تقليدية لهـا ، فهو — فى الحقيقة — موضوع أساسى فيها .

والموضوع الثـانى فخر عريض بقومه ، يتغنى فيـه بأمجادهم ومفاخرهم ، ويسجِّل شجاعتهم فى ساحات الحـرب ، وحكمتهـم فى أوقات السلم . ويقف طويلا — فى أثناء هذا الفخر — أمام خيلهم ، فيصفها وصفا على قَدْرٍ كبير من الغرابة اللغوية والحرص على التفاصيل يُذَكّرنا بوصفه المشهور لنـاقته فى معلقته . حتى إذا ما انتهى من هذا الفخر العريض أخذ يمهد لنهاية قصيدته بحديث يلخّص فيه الموقف بينه وبين قومه : كيف كان ؟ وكيف أصبح ؟ وينتهى منـه وقد اعترف بمـا وقع منه فى حقهم ، مسجّلا فرحته وارتياحه لعودة العلاقات بينهما كما كانت ، وعودة المياه التى كدّرتها القطيعة إلى مجاريها الصافية العذبة .

والقصيدة تعدّ من أجمل قصائد الشعر الجاهلى فى تعبيرها عن تجربة إنسانية فريدة مَرَّ بها طـرفة فى حياته القصـيرة التى مرت كسحابة من سحب الصيف العابرة ، وأيضا فى تعبيرها عن تلك العلاقة الجاهلية التى تربط بين الفرد والقبيلة ، وما كانت تثيره فى بعض الأحيان من مشكلات اجتماعية .

وأهم ما يمـيّزها هـذا الأسلوبُ الصافى الذى ينساب فى سهولة ويسر على امتداد أبياتها ، وهذه الموسيقا العذبة الرقيقة التى تترقرق من خلالها ، وهى موسيقا أتاحها بحر « الرَّمَـل » الذى اختاره لهـا . وهو بحـر يمتاز بموسيقاه الانسيابية الهـادئة التى تعكس الإحساسَ بغـدير رقراق ينساب فى رقة ووداعة بين ضفائر شجيرات من الصَّفْصَاف متهدِّلة فوق مياهه الصافية .

وتمتاز القصيدة أيضا بهـذا الحرص الواضح على رسم صُوَرها الفنية ، وهـذه العناية البالغة باستكمال ألوانها وخطوطها و زنياتها الصغيرة ، ووضع اللسات الفنية الأخيرة عليها .

وهى — إلى جانب هذا كله — تعكس مشاعر شابٍّ مراهق حاد الإحساس بالمرأة والطبيعـة والحياة ، تتراءى من خلالهـا اندفاعاته الجريئة ، وحِسِّيته التى تكشف عن نفسهـا من حين إلى حين ، و إيمـانُه بذاته وشخصيته ووجـوده . ولكنهـا — مع ذلك — تعكس من طَرْفٍ خفىّ إحساسه بالضياع والحـيرة والقلق فى مجتمع الحقُّ فيه للقوة ، « ومَنْ عَزَّ فيه بَزَّ » — كما كانوا يقولون . وما الذى يملكه طرفة — وهو الشاب الصغير الذى لم تَصْهَرْه تجربةُ الحيـاة — أمام قومه الذين ينكرون عليه حقه فى الحياة إلا هـذه الحيرة التى تدفعـه مرة إلى رفضهم والبعد عنهم ، ومرة أخرى إلى الاعتراف بهم والعـودة إليهم ؟ إنه فى النهاية لا يملك إلا « العـودة » إليهم بعـد أن قرروا هم « العودة » إليـه ... وعفا الله عما سلف !

* * *

١ أصحوتَ اليومَ أم شاقتكَ هِرّْ ؟ ومنَ الحُبِّ جنونٌ مُستَعِرْ

٢ لا يكُنْ حُبُّـكِ داءً قاتلا ليس هـذا منكِ ، مَاوِيَّ ، بِحُرّْ

(١) يبدأ الشاعر قصـيدته بمقدمة تتداخل فيها صورتان من صور المقدمات التقليدية : المقدمة الغزلية ومقدمة الطيف . و يريد بالصحوة هنا الرجوع عن نوازع الحب والصبا . وهر : اسم صاحبته . والمستعر : الملتهب المشتعل .

(٢) ماوى : منادى مرخم لماوية وهو اسم صاحبتـه ، وهى نفسها هر التى ذكرها فى البيت السابق . وظاهرة تعـدد أسماء المحبوبة فى القصيدة الواحدة ظاهرة مألوفة فى الشعر الجاهلى . وقوله « ليس هذا منك ماوى بحر » يريد أنه ليس تصرفا كريما منها .

٣ كيف أرجو حُبَّهـا مِنْ بعد ما عَلِـقَ القلبُ بِنُصْبٍ مُسْتَسِرّ ؟
٤ أَرَّقَ العــينَ خيـالٌ لم يَقِــرّ طافَ والرَّكبُ بصحـراءِ يُسُرْ
٥ جازتِ البيــدَ إلى أرحُلِنـا آخرَ الليــلِ بيَعْفُــورٍ خَدِرْ
٦ ثم زارتني ، وصَحْبي هُجَّعٌ ، في خَلِيــطٍ بين بُرْدٍ ونَمِــرْ
٧ تَخْلِسُ الطَّـرْفَ بعيـنَىْ بُرْغُزٍ وبخَــدَّىْ رَشَــأ ، آدَمَ غِرّ
٨ وعلى المَتنَيْنِ منهـا واردٌ حَسَنُ النَّبْتِ أثيثٌ مُسْبَكِرّ

(٣) النصب (بضم النون) : العناء والتعب مثـل النصب (بفتحتين) ، وفى القرآن الكريم « بنصب وعذاب » (ص ٤١) . وعلق القلب به أى تعلق به . والمستسر : الكامن فى أعماق القلب . وقوله « كيف أرجو حبها » يريد به — كما يقول الشراح القدماء — كيف أرجو نسيان حبها .

(٤) من هنا تتداخل مقدمة الطيف مع المقــدمة الغزلية . الخيال : الطيف وقوله « لم يقر » : أى لم يستقر ، يريد أنه لم يمكث طويلا . وصحراء يسر : اسم صحراء بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية . يصف زيارة طيف صاحبته له فى أحلامه ، والقافلة منطلقة فى أعماق هذه الصحراء .

(٥) الضمــير فى « جازت » يعود على صاحبته التى زاره خيالها واجتاز إليه الصحارى الشاحمة حتى وصل إليه . ويحــدد زيارة الطيف له بآخر الليل لأنه وقت نزول القوافل للراحة . واليعفور : الظبى الذى أشرب لونه بالحمرة . والخدر : البطىء الحركة الفاتر الخطوات ، يشبه صاحبته به .

(٦) هجع : نيام ، جمع هاجع . وقوله « فى خليط » متعلق بزارتنى ، أى خصتنى بزيارتها وأنا بين أفراد القافلة المسافرين معى من قبائل مختلفة . وبرد ونمر : قبيلتان . وبعض الشراح القدماء يفسرهما على أنهما ضربان من الثياب : البرد ثوب من وشى ، والنمرة شملة من صوف ، كأنه يقول إنها زارته فى أحلامه وهو ملتف فى هذين الثوبين من برد الصحراء فى الليل .

(٧) تخلس الطرف : تسـارق النظر . والبرغز : ولد البقرة الوحشية ، يشبه عينيها الجميلتين الصافيتين بعينيه . والرشأ : ولد الظبية . والآدم : الأبيض البطن ، الأسمر الظاهر . والغر : الغرير الغافل لصغره وحداثة سنه ، يشبه خديها الأسيلين الناعمين بخديه .

(٨) المتنان : جانبا الظهر . والوارد : الشعر الطويل المنسدل الذى يصل إلى أردافها كأنه يردها . والأثيث : الغزير الملتف . والمسبكر : الطويل الممتد .

٩ ولها كَشْحا مهاةٍ مُطْفِلٍ تقْتَرِى بالرَّمل أفنانَ الزَّهَرْ
١٠ جَأبَةُ المِدْرَى خَذُول مُغْزِلٌ تَنْفُضُ الضَّالَ وأفنانَ السَّمُرْ
١١ بين أكناف خُفَافٍ فاللِّوَى مُخْرِفٌ تحنو لرَخْصِ الظِّلْفِ حُرْ
١٢ تَحْسَبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدةً يا لَقَومى لِلشَّبابِ المُسْبَكِرّ !
١٣ حيثما قاظوا بنجدٍ وشتَوْا حول ذات الحاذِ من ثِنْيَي وُقُرْ
١٤ فَلَهُ منها على أحيانها صَفوةُ الرَّاحِ بملذوذٍ خَصِرْ

(٩) الكشح : الخصر . والمهاة : البقرة الوحشية . والمطفل : التى أنجبت صغيرها فهى تحنو عليه وتمنحه كل مشاعر الأمومة . وتقترى : تتتبع . والأفنان : الأغصان ، جمع فنن . يرسم للمهاة الأم هذه اللوحة الجميلة المعبرة .

(١٠) المدرى : القرن . وجابة المدرى (بتسهيل الهمزة وبإثباتها) : الذى بدأ قرنها فى الظهور ، يريد أنها صغيرة السن . والخذول : التى انفردت وحدها عن القطيع وتخلفت عنه . والمغزل : التى تراعى صغيرها . والضال : أشجار السدر البرى . وتنفضه : أى تنفضه بقرنها ليتساقط ثمره لترعاه . والسمر : شجر من أشجار البادية . والبيت استمرار فى رسم لوحة البقرة الوحشية ، وإضافة ألوان وخطوط جديدة إليها .

(١١) الأكناف : النواحى . وخفاف واللوى : موضعان . والمخرف : التى دخلت فى فصل الخريف . والرخص : اللين ، يصف أظلافها بأنها رخصة لأنها ما زالت صغيرة السن . والحر : الكريم . والبيت استمرار فى وضع خطوط وألوان جديدة على اللوحة التى يرسمها الشاعر لهذه البقرة .

(١٢) النجدة هنا بمعنى الشدة ، والمعنى أنها — لشدة حيائها أو لفرط رقتها — تحسب رفعها طرفها للنظر أمرا شديدا عليها . والشباب المسبكر : الشباب المكتمل التام .

(١٣) ذات الحاذ ووقر : موضعان . والثنيان : الجانبان . وقاظوا : دخلوا فى قيظ الصيف ، وشتوا : دخلوا فى فصل الشتاء ، والضمير فيهما يعود على قومها .

(١٤) على أحيانها : أى فى كل وقت ، فى كل الأحيان . والراح : الخمر . والملذوذ : اللذيذ . والخصر : البارد . يصف استمتاعه بها فى كل مكان وفى كل زمان ، ويشبه رضاب ثغرها بخمر صافية مزجت بماء بارد لذيذ . والبيت متعلق بالبيت السابق .

١٥ إنْ تَنَــوَّلْه فقــد تَمْنَعُــه ... وتُرِيهِ النَّجْــمَ يجْــرى بالظُّهُرْ
١٦ ظَــلَّ فى عَسْكَرَةٍ من حُبِّهــا ... ونأتْ .. شَحْطَ مَزَارِ المُدَّكِرْ !
١٧ بادِنٌ تجــلو إذا ما ابتسمتْ ... عن شَتِيتٍ كأقاحِ الرَّملِ غُرّ
١٨ بَدَّلَتْه الشمسُ مِنْ مَنْبِتِه ... بَرَداً أبيــضَ مصقولَ الأُشُرْ
١٩ وإذا تَضحكُ تُبْــدِى حَبَبــاً ... كرُضابِ المسكِ بالماءِ الخَصِرْ

(١٥) قوله « إن تنوله فقد تمنعه » يريد به أنها ليست سهلة المنال ، فإذا أعطته مرة ما يطلبه منعته مرة أخرى . وهو يؤكد ذلك بالصورة التى يرسمها فى الشطر الثانى : إنها لامتناعها عليه تحمله مشقة وعناء كأنها تريه النجوم فى وقت الظهر ، كأنما يظلم نهاره ويتحول ليلا تظهر فيه النجوم .. صورة من الصور الطريفة فى الشعر القديم ما زالت تتردد فى أمثالنا الشعبية حتى اليوم .

(١٦) العسكرة : الحيرة والشدة ، وهى كلمة فارسية ، والعساكر (جمعها) هى الأهوال التى يركب بعضها بعضا . وقوله « شحط مزار المدكر » تعجب ، يريد به « ياشحط مزار المدكر » أى ما أبعده! والشحط : البعد . والمدكر : المتذكر . يقول إنها حيرته وبعدت عنه ، وما أبعد المسافة بينهما !

(١٧) بادن : ممتلئة الجسد . والشتيت : المتفرق ، صفة للثغر . والأقاحى والأقاح : جمع أقحوان ، وهو شجر عطرى زهره أبيض ناصع ، يتردد فى الشعر العربى القديم تشبيه الأسنان به . والغر : البيض ، جمع أغر وغراء ، يريد أسنانها .

(١٨) الضمير فى « بدلتـه » يعود على الثغـر . والبرد : قطع الثلج . والأشر : تحزيز يكون فى أطراف الأسنان ، وهو من سمات الجمال عند العرب ، ولذلك كانوا أحيانا يصطنعونه . والشطر الأول يشير إلى عادة شعبية كان العـرب فى الجاهلية يفعلونها ، وما زلنا حتى اليوم نفعل مثلها ، فكانوا إذا سقطت سن أحدهم قذفها نحو عين الشمس وهو يقول : ياشمس أعطيك سنا من عظم ، فأعطينى سنا من فضة .

(١٩) الحبب كالحباب (بفتح الحـاء) : الفقاقيع التى تطفو فوق المـاء ، يشبه بهـا أسنانهـا . ورضاب المسك : قطعه المفتتة ، وفى معلقة امرئ القيس « فتيت المسك » ، ومعنى الكلمتين واحد . يشبه رضاب ثغرها بقطع المسك الممزوجة بالمـاء البارد عطرا وطعما .

٢٠ صَادَفَتْهُ حَرْجَفٌ فى تَلْعَةٍ ... فَسَجَا وَسْطَ بَلاطٍ مُسْبَطِرْ

٢١ وإذا قامتْ تَداعَى قاصِفٌ ... مَالَ مِنْ أعلى كَثِيبٍ مُنْقَعِرْ

٢٢ تَطْرُدُ القُرَّ بحَرٍّ صادقٍ ... وعَكِيكَ القيظِ إنْ جاءَ بِقُرّ

٢٣ لا تَلُمْنِى ، إنها مِنْ نسوةٍ ... رُقُدِ الصيفِ مَقَالِيتَ نُزُرْ

٢٤ فجَعُونِى يومَ زَمُّوا عِيرَهم ... بِرَخِيمِ الصوتِ مَلْثُومٍ عَطِرْ

* * *

(٢٠) الضمير فى « صادفته » يعود على الماء الخصر فى البيت السابق . والحرجف : الريح الباردة . والتلعة : مسيل الماء إلى الوادى ، أى الربوة المرتفعة التى يسيل منها الماء إلى الوادى . وسجا : سكن واستقر . والبلاط : الحجارة المستوية الملساء . والمسبطر : السهل الممتد . والبيت لوحة جميلة يرسمها الشاعر — كعادته فى التصوير — لهذا الماء الذى يشبه به رضاب ثغر صاحبته : هذا الماء البارد ينساب من ربوة مرتفعة إلى واد شكلت قاعه حجارة مستو ملساء فاستقر عليها ، وأخذت ريح الشمال الباردة تهب عليه فتزيد من برودته .

(٢١) تداعى : تساقط وانهال . والقاصف : الرمل المتداعى . والمنقعر : الذى انهار من أساسه . يصف امتلاء جسدها وليونته وعدم تماسكه ، ويشبهه برمال ناعمة تنهال من أعلى كثيب ينهار من أساسه فلا يقوى على التماسك .

(٢٢) القر : البرد . وعكيك القيظ : الحر الشديد الذى تسكن معه الريح ويأخذ بالأنفاس حتى تكاد تختنق . يقول إنها تمتع صاحبها فى حر الصيف بطراوتها ، كما تمتعه فى برد الشتاء بدفئها .

(٢٣) قوله «رقد الصيف» كناية عن الحياة الناعمة الرخية التى يقوم على خدمتهن فيها من يكفيهن العمل ، ويتيح لهن هجعة الظهيرة المسترخية فى أيام الصيف . والمقاليت : جمع مقلات وهى التى لا يعيش لها ولد . والنزر : جمع نزور وهى القليلة الأولاد . يريد أنهن ما زلن محتفظات برشاقتهن لم يذهب بها حمل ولا وضع ولا رضاعة ، وما زلن معنيات بأنفسهن لم تشغلهن شواغل الأولاد ومسئولياتهم . صورة من الصور الغريبة النادرة فى الشعر العربى .

(٢٤) العير : إبل القافلة . وزموها : شدوها استعدادا للرحيل . يصف يوم الرحيل ، يوم رحلت صاحبته وقومها . والرخيم : الصوت الرقيق الناعم اللين . والملثوم : الذى يحلو لثمه وتقبيله ، يريد صاحبته . ومعاملة هذه الصفات معاملة المذكر على تقدير أن الموصوف كلمة « حبيب » . وإلى هنا تنتهى هذه المقدمة الغزلية الطويلة (٢٨ بيتا) التى اخترنا منها هذه الأبيات .

٢٥ وبـــلادٍ زَعِـــلٍ ظِلْمانُهـا — كالمَخاضِ الجُرْبِ في اليومِ الخَدِرْ
٢٦ قـد تَبطَّنْتُ وتحـتي جَسْرَةٌ — تتّقي الأرضَ بمَلْثُـومٍ مَعِـرْ
٢٧ فترى المَـــروَ إذا ما هَجَّرَتْ — عن يديها كالفَـراشِ المُشْفَتِرْ
٢٨ ذاك عَصْرٌ ، وعَدَانِي أنني — نابَنِي العـامَ خطوبٌ غيرُ سِرّ
٢٩ مِنْ أمـــورٍ حَدَثَتْ أمثالُها — تَبْتَرِي عُودَ القَـــوِيِّ المستَمِرّ
٣٠ وتَشَكَّى النفسُ ما صابَ بهـا — فاصْبِرِي ، إنك مِنْ قومٍ صُبُرْ

(٢٥) الظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام . والزعل : النشيط . والمخاض : النوق الحوامل ، يشبه بها النعام ، وقد وصفها بأنها « جرب » ليكسوها لون القطران الأسود الذى تعالج به . واليوم الخــدر : الذى يشتد فيه البرد أو المطر فتختبىء فيــه هذه النوق فى خدورها ، يشبه بها قطعان النعام فى اجتماعها وكثرتها . ومن هنا تبدأ قطعة الفخر فى القصيدة .

(٢٦) تبطنت : دخلت فى أعماقهــا . والجسرة : الناقة النشيطة الجريئة على أهوال الصحراء . والملثوم هنا يريد به خف الناقة الذى احتكت به الحجارة فأدمته ، كأنها تلثمه وتقبله . والمعر : الذى ذهب ما حوله من الشعر ، كناية عن كثرة الأسفار .

(٢٧) المرو : الحجارة البيض . وهجرت : سارت فى الهاجرة وهى وقت الظهــيرة . والمشفتر : المتفرق . يصف شدة ناقته فى سيرها ، واندفاعها فى حر الهاجرة ، فتتراءى له حجارة الصحراء وهى تتطاير بين يديها كالفراش المتفرق فى كل ناحية .

(٢٨) ذاك عصر : أى ذلك عصر قد مضى وتولى . وعدانى : أى صرفنى اليوم عن مثل ذلك . وخطوب غير سر : أى أمور عظيمة ظاهرة وليست خافية على أحد .

(٢٩) حدثت أمثالها : أى تكررت وتتابعت . تبترى : تبرى بشدة وعنف . المستمر : القوى الشديد ، من المرة (بكسر الميم) وهى الشــدة والقوة ، وفى القــرآن الكريم « ذو مرة فاستوى » (النجم ٦) . ويرى العود هنا تصويراً لقسوة هذه الخطوب وشدة وقعها عليه وتأثيرها فيه .

(٣٠) تشكى : أى تشكو مرة بعد مرة ، وأصلهــا « تتشكى » حذفت إحدى تاءيها تخفيفا . ما صاب بها : مانزل بها وأصابها ، وصاب وأصاب بمعنى واحد . وصبر : جمع صبور . يفتخر بنفسه وبقومه ، يفتخر بالصبر عند الشدة .

٣١ إنْ نُصادِفْ مُنْفِسًا لا تُلْفِنا فُرُحَ الخيرِ ، ولا نَكْبُو لِضُرّ
٣٢ أُسُدُ غابٍ ، فإذا ما فَزِعوا غيرُ أنكاسٍ ولا هُوجٍ هُذُرْ
٣٣ وَلِيَ الأصلُ الذى فى مِثْلِه يُصْلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المُؤْتَبِرْ
٣٤ طَيِّبُو البَاءَةِ سهلٌ ، ولهم سُبُلٌ إن شئتَ فى وَحْشٍ وَعِرْ
٣٥ وَهُمُ ماهُمْ إذا ما لَبِسوا نَسْجَ دَاوُدَ لِبأسٍ مُحْتَضَرْ

(٣١) المنفس : الشىء النفيس الذى يتنافس الناس فيه . وفرح (بضمتين) جمع فروح بمعنى فرح (بكسر الراء) . ونكبو : نعثر ونسقط . والضر : الشدة . والبيت استمرار فى الفخر ، يفتخر بأنهم أقوى من أن تتلاعب بهم الأيام فى تقلبها بين الخير والشر ، فلا الفرح يطغيهم ، ولا الضر يذلهم .

(٣٢) الغاب : جمع غابة . وفزعوا : أى للحرب ، يريد إذا خرجوا لها . والأنكاس : جمع نكس (بكسر النون) وهو الضعيف الهمة . والهوج : جمع أهوج وهو الأحمق . والهذر : جمع هذور وهو الكثير الكلام فى غير فائدة . يفتخر بشجاعة قومه وجرأتهم وقوتهم وثباتهم فى الحرب .

(٣٣) الآبر : الذى يصلح النخل والزرع . والمؤتبر : الذى يستدعيه لإصلاح نخله أو زرعه . والبيت تمثيل لعراقة أصله وكرم منبته ، وأن المعروف لا يضيع بينهم ، وفعل الخير لا يذهب عندهم سدى .

(٣٤) الباءة : الساحة والفناء . والوحش : المتوحش . والوعر (بكسر العين) كالوعر (بسكونها) : ضد السهل . يقول إن ساحتهم سهلة طيبة لمن يطلب معروفهم ، ولكنها وعرة خشنة لمن يريدهم بسوء .

(٣٥) قوله « وهم ماهم » تعبير يؤدى معنى التعظيم والتفخيم والإعجاب . ونسج داود هى الدروع التى علم الله نبيه داود صنعها ، وكان العرب فى الجاهلية يعرفون ذلك ، ولعلهم عرفوه عن طريق اليهود الذين كانوا يحترفون صناعة السلاح ويبيعه للعرب ، وفى القرآن الكريم فى سورة الأنبياء (الآية ٨٠) « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » وفى سورة سبأ (الآية ١١) « وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » . والبأس : شدة الحرب . والمحتضر : الحاضر .

٣٦ وتَساقَى القــومُ كأساً مُرّةً وعَلا الخيلَ دمــاءٌ كالشَّقِرْ

٣٧ ثم زادوا أنّهــمْ فى قومِهــمْ غُفُــرٌ ذَنبَهــمُ غيرُ فُخُــرْ

٣٨ لا تعزُّ الخمرُ إنْ طافوا بهــا بسِباءِ الشَّوْلِ والكُومِ البُكُرْ

٣٩ فإذا ما شَربُوهــا وانْتَشَوْا وَهَبوا كلَّ أمُونٍ وطِمِرْ

٤٠ ثم راحــوا عَبَقُ المِسْكِ بهــمْ يُلحِفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ

٤١ وَرِثوا السُّؤدَدَ عن آبائهــمْ ثم ســادوا سُــؤْدُداً غيرَ زَمِرْ

---

(٣٦) تساقى : أى سقى بعضهم بعضا . والشطر الأول تمثيل لاشتداد الحرب ، واحتدام القتال ، وتساقط القتلى والجرحى من الفريقين . والشقر : شقائق النعمان ، وهو زهر أحمر يشبه الشاعر بلونه دماء المتقاتلين التى غطت أجساد الخيل .

(٣٧) غفر : جمع غفور ، ومثله فخر . يقول إن قومه يزيدون على كل هذه المفاخر والأمجاد أنهم يغفرون ذنب من يخطىء من قومهم فيهم ، ولا يأخذهم الزهو بما يفعلون . وكأنه يقول إنهم يقدرون للقربى حقها .

(٣٨) لا تعز الخمر : أى لا تعز عليهم لغلاء ثمنها . والسباء : شراء الخمر . والشول : جمع شائلة وهى الناقة التى مضى عليها من ولادتها ستة أشهر أو سبعة فشالت ضروعها أى جفت . والكوم : جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام . والبكر : جمع بكور وهى التى بكرت بنتاجها . يقول إنهم لا يضنون على الخمر بأغلى إبلهم ، ولا تعز عليهم مهما غلا ثمنها . والبيت استمرار فى الفخر .

(٣٩) الأمون : الناقة القوية التى يؤمن عثارها . والطمر : الفرس الطويل النشيط . يقــول إنهم إذا شربوا وانتشوا وهبوا كرام إبلهم وخيلهم .

(٤٠) عبق المسك : عطره . ويلحفون الأرض : أى يغطونها . والأزر : جمــع إزار وهو الثوب . يفتخر بأنهم قوم مترفون منعمون ، لا تفارقهم رائحة المسك الذى يتعطرون به ، وإذا مشوا جروا أهداب ثيابهم السابغة خيلاء وتيها .

(٤١) السؤدد : المجــد والشرف والسيادة . والزمر : القليل . يفتخر بأنهم سادة أمجاد أشراف وراثة واكتسابا ، سؤددهم تليد وطريف .

٤٢ نحن فى المَشْتَاةِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

٤٣ حينَ قال الناسُ فى مجلسهمْ : أَقُتَارٌ ذاكَ أم رِيحُ قُطُرْ ؟

٤٤ بجفانٍ تَعْتَرِى نادِيَنَا مِنْ سَدِيفٍ حين هاج الصِّنَّبِرْ

٤٥ كالجَوَابى لا تَنِى مُتْرَعة لِقِرَى الأضيافِ أو للمُحْتَضِرْ

٤٦ ثم لا يَخْزَنُ فينا لحمُهَا إنما يَخْزُنُ لحمُ المُدَّخِرْ

(٤٢) المشتاة : زمن الشتاء والبرد ، وفيه يصبح الكرم عند البدوى له معناه ودلالته وقيمته ، ويتردد كثيرا فى الشعر الجاهلى افتخار البدو بالكرم فى هذا الفصل الشديد القسوة على البادية . والجفلى : الدعوة العامة إلى الطعام لايخص أحدا بعينه . وينتقر : يدعو النقرى ، وهى الدعوة الخاصة إليه . والآدب : الذى يدعو الناس إلى مأدبته ، والمأدبة : الوليمة . يفتخر بأنهم كرماء ، ولأنهم عامة للجميع ، لايخصون بها أحدا دون أحد .

(٤٣) القتار : رائحة اللحم المشوى . والقطر : خشب العود الذى يستخدم فى البخور . البيت استمرار فى حديث الكرم ، وطرفة فيه — على أسلوبه فى التصوير — يضيف إلى لوحته خطوطا وألوانا جديدة . إن الناس حين تصل إلى أنوفهم رائحة الشواء الذى يعده قومه لضيوفهم تختلط عليهم برائحة البخور لطيبها ونفاذها ، ولشدة اشتهائهم اللحم لما هم فيه من جهد وشدة بسبب قسوة الشتاء عليهم .

(٤٤) الجفان : جمع جفنة وهى قصعة الطعام . والنادى : مجلس القوم للسمر والحديث . والسديف : شرائح السنام . والصنبر : أشد البرد . يستمر طرفة فى إضافة خطوط وألوان جديدة إلى لوحته التى يرسمها لكرم قومه .

(٤٥) الجوابى : جمع جابية وهى الحوض الضخم يجمعون فيه الماء ، من جبى الماء فى الحوض أى جمعه فيه . لا تنى : أى لا تزال . والمترعة : الممتلئة حتى آخرها . والقرى : إكرام الضيف . والمحتضر : النازل على الماء ، من الحاضر وهى المياه ، مفردها محضر . والبيت استمرار فى رسم لوحة الكرم . إن جفانهم ضخمة كأنها الجوابى ، وهى معدة دائما لضيوفهم وجيرانهم النازلين على مياههم .

(٤٦) يخزن : يتغير طعمه ورائحته ، من خزن اللحم (من باب فرح ونصر) إذا خزنه صاحبه حتى فسد . والمدخر هنا : الذى يدخر لحم اليوم إلى غده . يقول إنهم ينحرون كل يوم ، ولا يقدمون لضيوفهم إلا اللحم الطازج .

٤٧ ولقــد تعـلم بكر أننـا آفة الجـزر مساميح يسر
٤٨ ولقــد تعـلم بكر أننـا فاضلو الرأي ، وفى الروع وقر
٤٩ يكشفون الضر عن ذى ضرهم ويبرون على الآبى المبر
٥٠ فضـل أحلامهم عن جارهـم رحب الأذرع ، بالخير أمر
٥١ دلـق فى غارة مسفوحة ولدى البـأس حماة ما تفـر
٥٢ نمسك الخيـل على مكروهها حين لا يمسكها إلا الصبر

(٤٧) بكر هى قبيلته الكبرى . والجزر : جمع جزور ، وهو البعير الصغير ينحر عادة لطيب لحمه . والمساميح : أصحاب الخلق السمح السهل . واليسر : جمع يسير و يسور ، وهو الذى يشارك فى الميسر ، وكان الميسر فى الجاهلية على الإبل ينحرونها و يقسمونها و يضربون عليها القداح .

(٤٨) فاضلو الرأى : أى أن رأيهم يفضل آراء غيرهم . والروع : الخوف والفزع ، يريد الحرب . والوقر : جمع وقور . يفتخر برجاحة رأيهم فى السلم ، و برزانتهم وثباتهم فى الحرب .

(٤٩) يبرون : يغلبون و يظهرون . والآبى : الأبى الذى يمتنع على غيره فلا يقهر . والمبر : الغالب المنتصر . والبيت استمرار فى حديث الفخر .

(٥٠) فضل أحلامهم : أى أن حلمهم واسع يزيد على حاجة جيرانهم إليه . يريد أنهم يعرفون لجارهم حقه ، ولا يقابلون جهله بجهل منهم ، و إنما يقابلونه بالحلم والعفو والصفح . ورحب : جمع رحيب ، ورحب الأذرع كناية عن سعة الصدر والتسامح . وأمر : جمع أمور ، وهو الكثير الأمر ، صيغة مبالغة . يفتخر بأنهم حلماء متسامحون آمارون بالخير .

(٥١) الدلق : المسرعون المتقدمون المندفعون ، جمع دلوق . والمسفوحة : المصبوبة ، يريد غارة شديدة كأنها تصب على العدو صبا . يفتخر بالجرأة والشجاعة ، فهم يسرعون إذا ما دعاهم داعى الحرب ، وإذا ما اشتدت نيرانها وحمى وطيسها ثبتوا وصبروا يدفعون عن حماهم ، ويحمون حوماتهم ، ولم يفكروا فى الفرار .

(٥٢) نمسك الخيـل على مكروهها : أى نثبت على ظهورها فى ساحات الحـرب ، ونصبر عليها ونمسك بها حين يشتد القتال و ينال منها الجهد حتى لا تفر .

٥٣ حِينَ نادى الحَىُّ لما فَزِعوا ودعا الدّاعِى وقد لَجَّ الذُّعُرْ :
٥٤ أيُّها الفتيانُ فى مَجْلسنا جَرِّدوا منها وِرَادًا وشُقُرْ
٥٥ أَعْوَجِيَّاتٍ طِوَالا شُزَّبًا دُوخِلَ الصَّنعةُ فيها والضُّمُرْ
٥٦ مِنْ يَعَابِيبَ ذُكورٍ وُقُحٍ وهِضَبَّاتٍ إذا ابتلَّ العُذُرْ
٥٧ جافلاتٍ فوق عُوجٍ عُجُلٍ رُكِّبَتْ فيها مَلَاطِيسُ سُمُرْ
٥٨ وأنَافَتْ بِهَوَادٍ تُلُعٍ كجُذُوعٍ شُذِّبَتْ عنها القُشُرْ

(٥٣) الفزع هنا يريد به الخروج للحرب . والداعى هنا هو داعى الحرب . ولج الذعر : اشتد الخوف واستمر . والبيت متصل المعنى بالبيت السابق وبالبيت التالى أيضا .

(٥٤) الوراد : جمع ورد ، والشقر : جمع أشقر ، والورد من الخيل : ما كان لونه بين الكميت والأشقر، والكميت : الأحمر القانى ، والأشقر : ما تعلو بياضه حمرة . وجردوا منها : أى أعدوها للقتال، وذلك بأن يلقوا عنها ما يغطى ظهورها فى أوقات راحتها من أكسية ، ويضعوا بدلا منها سروج الحرب وعدة القتال .

(٥٥) أعوجيات : أصيلات النسب ، نسبة إلى أعوج وهو فحل مشهور من فحول الخيل . والشزب : جمع شازب وهو الضامر . والصنعة هنا هى العناية بها والقيام عليها . والضمر : متابعتها بالجرى حتى تتدرب عليه وتضمر . ودوخل الصنعة فيها والضمر : أى أن أصحابها اهتموا بكلا الأمرين .

(٥٦) اليعابيب : جمع يعبوب وهو الشديد العدو . والوقح : جمع وقاح وهو الصلب الحافر . والهضبات : الضخام الشداد كأنها الهضاب . والعذر : جمع عذار وهو اللجام ، وابتلت العذر : أى من العرق ، كناية عن السرعة والنشاط .

(٥٧) جافلات : مسرعات . والعوج : جمع أعوج ، ويريد بها قوائمها ، وقوائم الخيل تمد بما فيها من انحناء . والعجل : جمع عجول وهو السريع . والملاطيس : المعاول تكسر بها الصخور ملطاس ، يشبه بها حوافرها ، ووصفها بالسمرة للدلالة على شدتها وصلابتها .

(٥٨) أنافت : أشرفت . والهوادى : جمع هاد ، والهادى : العنق . والتلع : الطويلة ، ج أتلع . وشذبت : سويت وهذبت . والقشر : القشور . يشبه أعناق الخيل الطويلة المشرفة بجذوع نخ شذبت قشورها فظهرت أكثر طولا .

٥٩ فهى تَردِى ، فإذا ما أُلْهِبَتْ طـارَ مِنْ إحْمَائِهـا شَدُّ الأُزُرْ
٦٠ كاثِراتٍ ، وتراهـا تَنْتَحِى مُسْلَحِبَّاتٍ إذا جَدَّ الحُضُرْ
٦١ دُلُقُ الغـارةِ فى إفزاعِهِـم كرِعَالِ الطـيرِ أسرابًا تَمُـرْ
٦٢ تَذَرُ الأبطـالَ صرعَى بينهـا ما يَنِى منهـمْ كَمِىٌّ مُنْعَفِـرْ

* * *

٦٣ ففِـداءٌ لِبَـنِى قيسٍ على ما أصابَ النّاسَ مِنْ سُرٍّ وضُرْ
٦٤ لا يُلِحُّونَ على غارِمِهِـمْ وعلى الأيْسَـارِ تيسـيرُ العَسِرْ

(٥٩) تردى : تضرب الأرض بحوافرها فى أثناء العدو . وألهبت (بالبناء للمجهول) : دفعت إلى الإسراع ، وحثها أصحابها عليه ، و (بالبناء للعلوم) : أسرعت كلهيب النار . والإحماء : مصدر أحمى بمعنى أشعل وأوقد . والأزر : جمع إزار . يقول إنها تسرع فترجم الأرض بحوافرها ، فإذا ما ألهبها فرسانها تطايرت ثيابهم مما اشتعل فيها من نشاط وحماسة .

(٦٠) كاثرات : أى رافعات أذنابهن من شدة العدو . وتنتحى : تعض على شكائم لجمها من شدة النشاط والحيوية . وجد الحضر : اشتد العدو .

(٦١) دلق الغارة : مسرعات إليهـا متقدمات نحـوها . ورعال الطير : قطعها وجماعاتها . يشبه الخيل فى انطلاقها للحرب بأسراب الطير تمر قطعا قطعا .

(٦٢) ما ينى : ما يزال . والكمى : البطل الشجاع . والمنعفر : الذى سقط فوق التراب بعد أن لقى مصرعه ، من « العفر » وهو التراب . وإلى هنـا تنتهى قطعة الفخر الطويلة التى شغلت معظم أبيات القصيدة ، والتى كانت موضوعها الأساسى ، ليصل طرفه بعد ذلك إلى ختام قصيدته الذى سيركز فيه موقفه النهائى من قومه .

(٦٣) بنو قيس : هـم قومه ، بنو قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل . والسر والضر (بالضم) : السراء والضراء . يقول : نفسى فداء لهـم فى السراء والضراء ، فى الخير والشر ، على كل حال تتقلب الحياة بالناس عليها .

(٦٤) الغارم : المدين الذى يعجز عن سداد دينه . والأيسار : الأغنياء الموسرون . يصف قومه بأنهم متعاونون فى السراء والضراء ، متكافلون اجتماعيا ، يتولى أغنياؤهم تدبير أمر فقـرائهم وتيسير عسرهم ، ويمهلون الغارمين منهم ، وينظرونهم إلى ميسرة .

٦٥ ولقد كنتُ عليكمْ عاتباً فعقبتمْ بذَنوبٍ غيرِ مُرّ

٦٦ كنتُ فيكم كالمُغطَّى رأسَهُ فانجلَى اليومَ قناعى وَخُمُرْ

٦٧ سادِراً أَحْسَبُ غَيِّي رَشَداً فتناهيتُ وقد صابَتْ بِقُرّ

* * *

(٦٥) عقبتم : رجعتم وعطفتم . والذنوب : الدلو الممتلئة ماء، ضربها مثلا لرجوع قومه إليه بعد جفوة، وعطفهم عليه بعد قطيعة . لقد أعادوا المياه بينهما كما كانت دون منّ منهم أو أذى . لقد قدموا إليه دلاء تفيض بالود الصافى العذب الذى لا تشوبه مرارة .

(٦٦) انجلى : انكشف . والخمر : جمع خمار وهو غطاء الرأس، أما القناع فهو غطاء الوجه . يرسم صورة معبرة للموقف كما كان بينه وبينهم، وكما أصبح بعد زوال الجفوة وانتهاء القطيعة . لقد كان كمن غطى رأسه بغطاء كثيف يحجب عنه الرؤية، ويرد البصر، ثم انكشف عنه الغطاء فأصبح يبصر الأمور على حقيقتها . وفى القرآن الكريم « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (ق ٢٢) .

(٦٧) السادر : المتمادى فى الضلال، الذى غشت بصره غشاوة فلم يعد يبصر وجه الحق والهداية . وتناهيت : أقصرت عما كنت فيه ورجعت عنه . والقر : القرار . وقوله « صابت بقر » مثل يضربه العرب للأمر إذا وقع موقعه، واستقر فى قراره، أو — كما يقال — عاد إلى نصابه . والواو فيه للحال . يقول : لقد كنت تائها فى ضلالى، تشابهت علىَّ الأمور، واختلط على الهدى والضلال، ثم انتهى كل ذلك، واستقرت الأمور فى نصابها . والبيت تأكيد للفكرة التى عرضها الشاعر فى البيت السابق، يختم به قصيدته .

* * *

يوسف خليف

المُتَلَمِّس

هو جرير بن عبد المسيح ، وفى رواية جرير بن يزيد بن عبد المسيح من بنى ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار ، وأخواله بنو يَشْكُر ، كان مع ابن اخيه طرفة بن العبد من ندماء عمرو بن هند ملك الحيرة ، وله معهما قصة مشهورة تقول إنهما غضبا منه مرة فهجواه فكره قتلهما بنفسه ، فكتب لهما كتابين إلى عامله فى البحرين يأمره بقتلهما ، فلما كانا ببعض الطريق عرفا ما فى كتابيهما من بعض من يعرفون القراءة . أما طرفة فلم يعبأ بذلك ومضى إلى عامل البحرين فقتله ، وأما المتلمس فقذف صحيفته فى نهر الحيرة وهرب إلى بنى جفنة ملوك الشام .

وقد سمى المتلمس لقوله فى قصيدة :

فهذا أوانُ العِرضِ جُنَّ ذُبابُهُ　　　زَنَابِيرُهُ والأزرقُ المتلمِّسُ

وقد رويت الأبيات المختارة فى ديوانه ، وهى تصور نظرة الجاهلى إلى الموت والدعاء للميت بأن يسقى الغيث قبره .

ويعد شعر المتلمس من أقدم النصوص الجاهلية لأنه من شعراء النصف الأول من القرن السادس الهجرى (١) . ويقول البكرى عن وفاته أنه " هلك ببُصْرى فى الجاهلية ، وكان له ابن شاعر يسمى عبد المنان ، أدرك الإسلام (٢) " .

---

(١) يرى بروكلمان أنه ولد عام ٥٠٠ — ٥٠٥ م ويرى محقق الديوان الأستاذ حسن كامل الصيرفى أن ولادته كانت عام ٥٢٥ م على وجه التقريب .

(٢) سمط اللآلى ص ٣٠٢ . ويذكر محقق الديوان أن المتلمس توفى عام ٥٨٠ م وإن كانت هناك مصادر أخرى تذكر أنه توفى قبل هذا التاريخ بعشرة أعوام (انظر مقدمة الديوان ص ٢٦) .

ويصور ما وصل إلينا من شعر المتلمس جانبا من حياة المناذرة وعلاقتهم بالقبائل العربية وصراعاتها وتدخلهم فى شئونها ، وتأثير ذلك على الشعر القبلى وشعرائه . والأبيات المختارة مروية فى ديوانه (*) .

* * *

١ خَلِيلَيَّ ! إمّا مِتُّ يومًا وزُحْزِحَتْ ... مَنَايَا كُمَا فيما يُزَحْزِحُهُ الدَّهْرُ

٢ فَمُرَّا على قبرى ، فقُوما فَسَلِّمَا ... وقُولا : سقاكَ الغيثُ والقَطْرُ ياقَبْرُ

٣ كأنَّ الذى غَيَّبْتَ لم يَلْهُ ساعةً ... من الدَّهْرِ ، والدُّنيا لها ورقٌ نَضْرُ

٤ ولم تَسْقِه منها بِعَذْبٍ مُمَتَّعٍ ... بَرُودٍ ، حَمَتْهُ القومَ رَجْرَاجَةٌ بِكْرُ

٥ ولم يَصْطَبِحْ فى يومِ حَرٍّ وقِرَّةٍ ... حُمَيَّا ، فَدَبَّتْ فى مَفَاصِلِهِ الخَمْرُ

٦ ولم يَرُعِ العِيسَ الكوانِسَ بالضُّحى ... بأسرارِ مَوْلِيٍّ ، ألِدَّتُهُ صُفْرُ

(*) انظر ديوان المتلمس الضبعى تحقيق حسن كامل الصيرفى ص ٢٥٦ .

(١) زحزحت منايا كما : تأخرت وفاتكما .

(٢) القطر : المطر .

(٣) كأن الذى غيبت : يقصد نفسه ، كأن الذى واريت التراب .

(٤) برود : بارد ويقصد ثغر المرأة . والرجراجة : المرأة التى يترجرج كفلها ، والمعنى : ولم تسقه رجراجة بكر بعذب ممتع برود حمته القوم .

(٥) القرة : البرد . الحميا : بلوغ الخمر من شاربها أو شدة السكر .

(٦) الكوانس : جمع كانسة وهى الظباء والبقر التى تدخل الكناس وهو المسكن الذى تستكن فيه من الحر . والعيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة ، الواحد : أعيس ، والواحدة عيساء . والمولى : الذى قد أصابه مطر بعد مطر . ألدته : جمع لديد وهى نواحيه وجوانبه . واللديدان : جانبا الوادى .

٧ لَسَسْن بقُولَ الصَّيف حتى كأنما ... بأَلْسُنِها — من لَسِّ حُلَّبِها — الصَّقْرُ

٨ ولم يَمْدَح القَرْمَ الهُمامَ بِكَفِّه ... لَطَائِمُ يُسْقَى مِن فواضلها القَفْرُ

٩ رَمَى نَحْوَهُ في النَّاس، والناسُ حولَه ... وذو يَسْرَةٍ عِلْبٌ مَنَاكِبُهُ سُعْرُ

١٠ ومأطورةٍ شَدَّ العَسِيفان أَطْرَها ... إِسَارًا وأَطْرًا فاستَوى الأَطْرُ والأَمْرُ

١١ تُرامِقُهُ المِقْلادُ حتى تَمَكَّنَتْ ... إليه طَوالَ البابِ مَرَّدَه الجَدْرُ

١٢ نخافَ، وقد حَلَّتْ له من فُؤادِه ... مَحَلَّ جليلِ الشَّأنِ قَدَّمَهُ الأَمْرُ

---

(٧) اللس : أخذ الراعية الكلأ بأطراف لسانها . واللس على الإطلاق : الأكل . الحلب : نبات ينبت فى القيظ بالقيعان وشطآن الأودية ولا تأكله الإبل وإنما تأكله الشاء والظباء . الصقر : الدبس السائل أو ما تحلب من العنب والزبيب والتمر من غير أن يعصر . والصقر أيضا : اللبن الشديد الحموضة .

(٨) القرم : السيد المعظم . والهمام : صفة لصاحب الهمة وكذلك اسم للملك الذى تعظم همته ، وقد أطلق هذا اللقب على عمرو بن هند كما جاء فى بيت النابغة الذبيانى مادحا له حين غزا الشام :

فداء ما تقـل النعـل منى ... إلى أعلى الذؤابة للهمام

واللطائم : جمع اللطيمة وهى العير التى تحمل الطيب وبز التجار . والفواضل : النعم العظيمة ، الواحدة : فاضلة .

(٩) العلب : الجافى الغليظ ويقصد به عمرو بن هند . مناكبه : نواحيه . السعر : الحر أو حر النار ، والسعر أيضا الشهوة مع الجوع . ولعله يصف نواحى الملك عمرو بن هند بأنها حارة أو أنها معيبة .

(١٠) المأطورة : القوس المستوية . العسيفان : الأجيران . الأطر : عطف الشىء ، تقبض على أحد طرفيه فتعوجه ، وكل شىء عطفته على شىء فقد أطرته تأطره أطرا . الأمر : الرباط يقال أسر فلان إسارا وأسر بالإسار أى بالرباط .

(١١) الرامق : الذى يغلق الباب بالمغلاق ، تقول : هو يرمقه أى يغلقه . المقلاد : المفتاح . مرده : جعله أملس . الجدر : أى الجدار .

* * *

سيد حنفى

الحـارثُ بن حلِّزة اليشكرى

هو الحارث بن حلِّزة بن مكروه بن بُدَيد بن عبد الله بن مالك بن عبد سعد ابن جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر ، من قبيلة بكر بن وائل . شاعر قديم مشهور ، ومن المقلِّين، وهو صاحب المعلقة المشهورة : « آذنتنا ببينها أسماء » . يقال إنه ارتجلها بين يدى عمرو بن هند — ملك الحيرة — ارتجالا ، فى شىء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح الذى تمّ بينهما بعد حروب كثيرة ، وزعم الأصمعى أنه قالها وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة .

* * *

نظم الحارث بن حلزة قصيدته « المعلقة » فى خلاف بين قومه من بنى بكر ، وبين قوم عمرو بن كلثوم من بنى تغلب ، حاول فيه ملك الحيرة عمرو بن هند أن يوفق بينهما فأخفق . وكان عمرو بن هند يميل إلى تغلب .

ويبدأ الحارث قصيدة بوقفة قصيرة على الأطلال يمتزج فيها النسيب بتذكر الأماكن التى كانت تنزل بها قبيلة حبيبته ، وذلك على عادة شعراء الجاهلية ، وينتقل من ذلك إلى وصف ناقته فى أبيات قليلة . وهى الناقة التى يمتطيها ليصل إلى ملك الحيرة ولا تزيد هذه المقدمة عن خمسة عشر بيتا ينتقل بعدها إلى موضوع القصيدة الرئيسى وهو المفاخرة أمام بنى تغلب بزعامة عمرو بن كلثوم ، وفيها مديح لعمرو بن هند وإن كان يأتى عارضا .

والقصيدة نموذج جيد للشعر القبلى :

* * *

مِنَ المعلَّقــــة

* * *

١ آذَنَتنا بِبَينِها أسماءُ　　　رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

٢ بعد عَهدٍ لها بِبُرقةِ شمّا　　　ءَ فأدنى ديارِها الخَلصاءُ

٣ فالمُحَيّاةُ فالصِّفاحُ فأعلى　　　ذي فِتاقٍ فعاذبٌ فالوَفاءُ

٤ فَرِياضُ القَطا فأَودِيةُ الشُّر　　　بُبِ فالشُّعبتانِ فالأَبلاءُ

٥ لا أرى مَن عَهِدتُ فيها فأبكي الـ　　　يَومَ دَلْهًا وما يَرُدُّ البُكاءُ

٦ وبعينيكَ أوقدتْ هندُ النا　　　رَ أخيرا تُلوي بها العلياءُ

٧ أوقدتْها بين العَقيقِ فشَخصَيـ　　　ـنِ بعُودٍ كما يلوحُ الضِّياءُ

٨ فتنوَّرتُ نارَها مِن بعيدٍ　　　بخَزازٍ هيهاتَ منكَ الصِّلاءُ

---

(١) آذنتنا : أعلمتنا . البين : الفراق . رب ثاو يمل منه الثواء : رب مقيم تمل منه إقامته .

(٢) برقة شماء : هضبة . الخلصاء : اسم مكان بالدهناء .

(٣) محياة : أرض . الصفاح : أسماء هضاب مجتمعة . فتاق : جبل . عاذب : واد . الوفاء : أرض .

(٤) رياض القطا : رياض بعينها يكثر فيها هذا الطائر . الشربب : جبل . الشعبتان : جبل من الرمل . الابلاء : اسم بئر .

(٥) دلها : مدله العقل ، أي ذاهب العقل .

(٦) يقول إنه رأى هندا فى آخر عهده بها توقد نارها وترفعها لتضىء له .

(٧) العقيق : اسم مكان . شخصان : أكمة لها شعبتان . العود : الذى يتبخر به .

(٨) خزاز : جبل بين العقيق وشخصين كما وصف . الصلاء : النار . أى ما أبعد تلك النار منك .

٩ غير أني قد أستعين على الهـ ـمّ إذا خفّ بالثّويّ النّجاء
١٠ بزفوفٍ كأنها هقلةٌ أ مُّ رئال دوّيّةٌ سقفاءُ
١١ آنستْ نبأةً وأفزعها القنّـ ـاصُ عصرا وقد دنا الإمساءُ
١٢ فترى خلفها منَ الرّجْع والوقْـ ـع منينًا كأنه إهباء
١٣ وطِراقا من خلفهنّ طِراق ساقطاتٌ تُلْوِى بها الصحراءُ
١٤ أتلهّى بها الهواجرَ إذ كُـ ـلُّ ابنِ همٍّ بليّةٌ عمياءُ

* * *

١٥ وأتانا عن الأراقم أنبا ءٌ وخَطْبٌ نُعْنَى به ونُسَاء
١٦ أنّ إخواننا الأراقمَ يغْلو ن علينا في قولهم إحفاء

---

(٩) الثوى : المقيم . النجاء : الانطلاق .

(١٠) زفوف : ناقة مسرعة خفيفة ، والزفيف : عدو النعام إذا أسرع . الهقلة : النعامة . الرئال : فراخ النعام واحدها رأل . دوية : منسوبة إلى الدو وهي الأرض الواسعة . سقفاء : طويلة العنق مرتفعة .

(١١) يقول : آنست هذه النعامة نبأة وهي الصوت الخفي . والقناص : الصياد .

(١٢) يقول : ترى خلف الناقة من الرجع أى رجع قوائمها منينا وهو الغبار الدقيق الذى تثيره قوائمها . الإهباء : الغبار .

(١٣) الطراق هنا : الغبار ، أى يتساقط الغبار من خلفها فتلوى به الصحراء .

(١٤) أتلهى بها : يقصد ركبها في وقت الهاجرة وقت شدة الحر . كل ابن هم : كل من نزل به هم . البلية : ناقة الرجل إذا مات عقلت عند رأسه ، وعكس رأسها بذنبها ، لا تأكل ولا تشرب حتى تموت ، فهي عمياء لا تتجه .

(١٥) الأراقم : أحياء من بنى تغلب وهم عجل وحنيفة وذهل بن شيبان .

(١٦) يغلون علينا : يرتفعون علينا في القول ويظلموننا ويحملوننا ذنب غيرنا . وقوله : في قولهم إحفاء : أي أنهم حملوا علينا وألحوا في مساءتنا وألصقوا بنا ما نكره .

١٧ يَخْلِطون البريء منا بذي الذّنـ ـب ولا ينفع الخليّ الخلاء

١٨ زعموا أن كل مَنْ ضَرَب العَيْـ ـر مَـوالٍ لنـا وأنّا الـوَلاء

١٩ أجمَعُوا أمرهم بليـلٍ فلما أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاء

٢٠ مِنْ مُنادٍ ومن مجيب ومن تَصْـ ـهالِ خيلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاء

* * *

٢١ أيهـا النـاطق المرقِّش عنـا عند عمرو وهـل لذاكَ بقـاء

٢٢ لا تَخَلْنـا على غَرَاتـكَ إنّا قَبْلُ ما قد وشَى بنـا الأعداءُ

٢٣ فبقينـا على الشَّـنَاءة تَنمِيـ ـنـا حصونٌ وعزة قعسـاء

٢٤ قبلَ ما اليومِ بَيَّضَتْ بعيونِ الـ ـنـاسِ فيهـا تَعَيُّـطٌ وإباء

(١٧) لا ينفع الخلي الخلاء : لا ينفع البريء من الذنب براءته منه .

(١٨) يقول : إن إخواننا الأراقم يلوموننا ويصفوننا بالباطل ، ويضيفون إلينا ذنب غيرنا ، ويطالبوننا بجناية كل من جنى عليهم ممن نزل صحراء أو ضرب عيرا ، ويجعلونهم موالي لنا وأبناء عمومة لنا .

(١٩) أجمعوا أمرهم : أحكموا أمرهم .

(٢٠) الرغاء : أصوات الإبل .

(٢١) المرقش هنا : يعني عمرو بن كلثوم ، والمرقش : المزين للشيء . وعمرو : يقصد الملك عمرو بن هند .

(٢٢) يقول : لا تحسب أننا جازعون لإغرائك الملك بنا .

(٢٣) الشناءة : البغض والكراهيـة . يقـول : الحصون تحول بيننا وبين شناءة الناس إيانا . القعساء : الثابتة المصمتة القوية .

(٢٤) يقول : قبل اليوم عظم شأنها على الناس حتى أعمتهم وعظمت على أبصارهم . التعيط : الارتفاع والامتناع .

٢٥ وكأن المنونَ تَرْدِى بنا أر عن جَوْناً ينجاب عنه العَمَاء

٢٦ مكفهِراً على الحوادث لا تَرْ تُوهُ للدهرِ مُؤْيِدٌ صَمَّاء

* * *

(٢٥) المنون : المنية والموت . الأرعن : الجبل . الجون : الأسود ، وهو من الأضداد ، وأراد به هنا النهار . ينجاب عنه : ينشق عنه . العماء : الغيم الرقيق .

(٢٦) مكفهرا : يقصد الجبل . لا ترتوه : من الرتو وهو القصر من الشيء والنقصان له . المؤيد : القوى الشديد ، يريد الداهية . يقول إن الشدائد لا تؤثر في هذا الجبل الذي يشبه به قومه .

* * *

سيد حنفى

عَمـــرو بن كُلثُـــوم

* * *

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ينتهي نسبه إلى قبيلة تغلب التي ذاع صيتها في حرب البســوس التي دارت رحاها بينهـا وبين بكر، وأرهقتهما زمنـا طويلا .

وهو واحد من شعراء الجاهلية المشهورين، عاصر عمرو بن هند ملك الحيرة، وكانت قصته معه دافعا لنظم معلقته المشهورة .

ترجم له ابن ســلام وصنّفه بين طبقات الشعراء فأدرجه ضمن شعراء الطبقة السادسة من الجاهليين، وعرف بمكانته القبلية المرموقة بين شعراء العصر جميعا .

وشعره المتبقي بين أيدينا قليـل، وأشهره ذيوعاً تلك المعلقــة المشهورة التي تحوّلت إلى صورة قبلية رائعة راح فيها يتغنى بانتصارات قومه، ويعلم الناس بدورهم من خلال تسجيل مفاخرهم وتأكيد شجاعتهم في صور تخيف القبـائل الأخرى وتفزعها وترصد لتغلب مكانة لا تعادلها مكانة .

ومعروف عن هذه المعلقة أنهـا انتشرت بين أبناء قبيلته وتوارثتها الأجيـال المختلفة حتى صارت بمثابة « النشيد القومي » فيها، حتى « ألهتهم عن كل مَكرُمَةٍ » على حد تعبير بعض شعراء بكر حين آخذوهم على كثرة تغنيهم بها وترديدهم إياها .

وتختلف المعلقة في بعض جزئياتها عن الصورة التقليدية عند شعراء المعلقات حيث بدأها عمرو بافتتاحية خمرية، وتجنب فيهـا حديث الطلل، متأثرا بالطابع الحماسي والانفعالي الذي سيطر عليه من جرّاء الواقعة التي دفعته إلى نظمها .

ومعروف أيضا عن دافع النظم إليها ما كان من شأن ليلى أم عمرو بن كلثوم حين نادت بأعلى صوتها واذُلّاه لتغلب إثر مَطْلبٍ طلبته منها هند أم عمرو بن هند — ملك الحيرة — بأن تناولها شيئا ما على المائدة ، فكانت الواقعة بمثابة تعيير أو إهانة مثّلت دافعا حارا ، انطلق منه عمرو لينتقم من خلاله لكرامة المرأة العربية ممثلة فى شخص أمه ، فى هذا الموقف ، وهو ما سنراه ونلتمسه تصويرا وتقريرًا فيما اخترناه من أبياتها أو — بمعنى أدقّ — من وحداتها الفنية المتكاملة .

* * *

عبد الله التطاوى

مِنَ المعلَّقة

« صوتٌ قومىٌّ »

(ا) مع الصَّبوح

١ ألا هُبِّي بصَحْنِكِ فاصبَحِينا ... ولا تُبْقِي خُمورَ الأنْدَرِينا
٢ مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها ... إذَا ما الماءُ خالطَهَا سَخِينَا
٣ تجورُ بذى اللُّبَانةِ عن هَواهُ ... إذَا ماذَاقَها حتَّى يَلِينا
٤ ترى اللَّحِزَ الشحيحَ إذا أُمِرَّتْ ... عليهِ لمالِهِ فيها مُهِينا
٥ وإنَّا سوف تدرِكُنا المنَايا ... مقدَّرَةً لنا ومُقَدَّرِينا

(ب) مع الظعينة

٦ قِفِى قَبلَ التفرُّق يا ظَعِينا ... نُخَبِّرْكِ اليقينَ وتُخْبِرِينَا
٧ قفى نَسألْك هل أحدَثتِ صَرْمًا ... لِوَشْكِ البَيْنِ أمْ خُنْتِ الأمِينَا

(١) الصحن : كأس الخمر أو القدح . والصبوح : خمر الغداة وعكسها الغبوق وهى خمر المساء . الأندرين : قرية بالشام اشتهرت بجودة خمورها ولذلك نسبت إليها الخمر رفعا لشأنها دون سواها من أنواع الخمور .

(٢) الخمر المشعشة : التى رقّت من المزج بالماء . الحص : الورس أو الزعفران وهو معروف بصفرته اتخذ منه مشهدا لونيا للخمر . سخينا يشير بها إلى ما كان يحدث من تسخين الماء قبل المزج فى الشتاء . وربما قصد بها السخاء فى انفاق المال وإهانته فى سبيل شربها فهم لا يبخلون عليها بأموالهم .

(٣) تجور : تعدل وتميل . ذو اللبانة : صاحب الحاجة . عن هواه : عن حاجته . يلين عن هواه : يسكر حتى الثمالة . أُمِرَّتْ : أديرت فى مجلس الخمر على الندماء . يهين المال : ينفقه مسرفا فى إنفاقه بلا حساب ولا اعتزاز به إذ يتحول إلى مجرد وسيلة لا غاية .

(٥) المنايا : الأقدار أو الموت . مقدّرة لنا ومقدّرينا : أى أننا خلقنا للمنية ورصدت لها نهاية حياتنا رصدا حتميا مقدرا لا نستطيع منه فرارا .

(٦) الظعينا : ترخيم الظعينة وهى المرأة الراحلة فى هودجها مع قومها أو جمعها ظُعُن أو ظعائن .

(٧) الصرم : القطيعة . وشك البين : سرعة الفراق . الأمين هنا هو الشاعر لأنه حفظ سرها .

٨ تُرِيكَ إذا دخلتَ على خَلاءٍ ... وقد أمِنَتْ عيونَ الكاشحينا
٩ ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أدْمَاءَ بِكْرٍ ... تَرَبَّعَتِ الأجارِعَ والمُتُونا
١٠ تذكَّرْتُ الصِّبا واشتقتُ لمَّا ... رأيتُ حُمُولَها أُصُلاً حُدِينا
١١ وأعرضتِ اليمامةُ واشمخرَّتْ ... كأسيافٍ بأيدي مُصْلِتينا
١٢ فما وَجَدَتْ كَوَجْدِي أمُّ سَقْبٍ ... أضَلَّتْهُ فرجَّعتِ الحنينا
١٣ ولا شَمطاءُ لم يَتْرُكْ شقاها ... لها من تِسعةٍ إلا جَنِينا
١٤ وإنَّ غداً وإنَّ اليومَ رَهْنٌ ... وبعدَ غدٍ بما لا تعلمينا

(ج) إلى ابن هند (فخر)

١٥ أبا هندٍ فلا تَعْجَلْ علينا ... وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
١٦ بأنَّا نُورِدُ الراياتِ بِيضاً ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رَوِينا

(٨) الكاشح : العدو أو الرقيب . دخل على خلاء : بعيدا عن الرقباء والوشاة .

(٩) عيطل : طويلة العنق . الأدماء : بيضاء . البكر : التي لم تلد من قبل .

تربعت : رعت نبات الربيع . الأجارع : كثبان الرمال . المتون . ما غلُظ من الأرض .

(١٠) الحمول : الإبل تحمل عليها الأثقال . أُصُلا : في وقت الأصيل قبيل الغروب . حُدينا : ساقها الحادي أو دليل الرحلة ، فهي تحدوه أو هو يحدوها لأنه دليلها .

(١١) اشمخرت : طالت وامتدت . المصلت : الشاهر سيفه . أو أخرجه من غمده استعدادا للنزال والقتال . أعرضت : ظهرت وبانت على امتداد النظر .

(١٢) أم سقب : الناقة (السقب : ولدها) أضلته : افتقدته وأكثرت من البحث عنه . وجّعت الحنين : رددته حزنا على فقد وليدها وفشلها في الحصول عليه .

(١٣) الشمطاء : العجوز التي اشتد حزنها على فقد أبنائها . شقاها : تعبها في تربية ابنائها وربما يتمهم .

(١٥) أبو هند : عمرو بن المنذر . انظرنا : انتظرنا أو أخرنا لتنظر ما يكون من أمرنا معك في قتالنا العنيف (وهو يهدده ويتوعده هنا) . اليقين هنا الحقيقة القتالية التي لا مراء فيها .

(١٦) الرايات : الأعلام . الورود والصدر : قدوم الإبل إلى الماء ورجوعها عنه بعد الإرتواء منه وإشباع ظمئها .

١٧ وأيامٍ لنا غُــرٍّ طِـوَالٍ　　　عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينَا
١٨ وسـيِّدِ مَعْشَرٍ قَــدْ تَوَّجُوهُ　　　بتَـاجِ المُلْكِ يَحْمِى المُحْجَرِينا
١٩ تركْنَـا الخيـلَ عاكِفَةً عليــه　　　مُقَــلَّدَةً أعنَّتَهـا صُـفُونَا
٢٠ وقد هرَّتْ كِلَابُ الحىِّ منَّـا　　　وشَــذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يلِينَـا
٢١ مـتَى نَنْقُـلْ إلى قَـوْمٍ رَحَانَا　　　يكُونُوا فى اللِّقَـاءِ لَهَـا طحِينا
٢٢ يكونُ ثِفالُهَـا شَرْقِىَّ نَجْــدٍ　　　ولُهْوَتُهَـا قُضَـاعَةَ أجْمَعينـا
٢٣ وثَـنَا المَجْدَ قَـدْ عَلِمَتْ مَعَـدٌّ　　　نُطَاعِنُ دُونَهُ حَـتَّى يَبِينَا
٢٤ ونحنُ إذَا عِمَـادُ الحَىِّ خَرَّتْ　　　على الأَحْفَاضِ نَمْنَـعُ مَنْ يلِينَا
٢٥ ندافـعُ عنهـمُ الأعْدَاءَ قِـدْمًا　　　ونَحْمِــلُ عَنْهُـمُ ما حَمَّـلُونَا
٢٦ نطاعنُ ما تَرَاخَى النَّـاسُ عنَّـا　　　ونَضْرِبُ بالسُّيوف إذا غُشِـينَا

(١٧) غر طوال : بيض مشهورة . أن ندين : أن نخضع أو نذل أو نطيع له أمرا خوفا منه .
(١٨) يحمى : يمنع . المحجرين : الذين ألجئوا إلى المضيق و بانت حاجتهم إلى الآخرين .
(١٩) عاكفة : مقيمة . الصافن : الفرس القائم الذى رفع إحدى قوائمه بعد نهاية القتال .
(٢٠) شذّبنا : فرّقنا جمعهم وشتّتنا شملهم . القتادة : شجرة لها شوك والتشذيب : قطع الأغصان . من يلينا : يلى حربنا و يعادينا أو يتمرد علينا .
(٢٢) الثِّفال : قطعة من الجلد توضع تحت الرحى يسقط عليها الطحين وهى لا توضع إلا فى وقت الطحن . اللهوة : قبضة من الطحين تلق فى الرحا لتدور عليها فتطحنها .
(٢٣) يبين : يظهر و يتكشف . نطاعن دونه : أى نحميه وندافع عنه . المجد : الشرف وعلو المكانة .
(٢٤) الأحفاض : الأمتعة . من يلينا : من يجاورنا و يقع علينا حق حمايته والدفاع عنه .
(٢٥) قدما : قديما ، وقدما تقدما . ماحملونا : ماجنوا علينا وحملو إنا ياه من ديات أو مساعدات .
(٢٦) تراخى : تباعد . غشينا : اقترب بعضنا من بعض خاصة فى مراحل العناق فى القتال .

٢٧ بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الخَطِّىِّ لُدْنٍ ذوابِلَ أَوْ بِبِيضٍ يَعْتَلِينَا
٢٨ نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ القَوْمِ شَقًّا ونُخْلِيهَا الرِّقَابَ فَيَخْتَلِينَا
٢٩ تَخَالُ جَمَاجِمَ الأَبْطَالِ فِيهَا وُسُوقًا بِالأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا
٣٠ نَجُذُّ رُؤُوسَهُمْ فى غَيْرِ بِرٍّ فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا
٣١ كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وفِيهِمْ مَخَارِيقٌ بِأَيْدِى لَاعِبِينَا
٣٢ كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا ومِنْهُمْ خُضِبْنَ بِأَرْجُوَانٍ أَوْ طُلِينَا

* * *

(د) إلى ابن هند (تَهْدِيدٌ ووعيدٌ)

٣٣ بِأَىِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَوَ بنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بِنَا الوُشَاةَ وتَزْدَرِينَا
٣٤ بِأَىِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَوَ بنَ هِنْدٍ نَكُونُ لِخَلْفِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
٣٥ تَهَدَّدْنَا وأَوْعِدْنَا رُوَيْدًا مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مَقْتَوِينَا
٣٦ فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَبْطَالِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
٣٧ وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ المَجْدِ دِينَا

---

(٢٧) السمر من الرماح: أجودها . لُدن : لينة . ذوابل : فيها بعض اليبس . يعتلين : تعلو رؤوسهم فى وقت اشتداد القتال .

(٢٨) نخليها الرقاب : أى نجعل الرقاب لها كالحشيش (الخلاء) ونجذها كما نجذ الحشيش .

(٢٩) الأمعز : الأرض الصلبة كثيرة الحصى جمعها أماعز . تخال : ترى .

الوسوق : ج وسق وهو الحمل أو هى جمع ساق و يقصد بها سيقان الأبطال عطفا على جماجمهم .

(٣٠) فى غير بر : فى غير شفقة عليهم أو رأفة بهم أو خوف عليهم . يتقون : يدفعون عن أنفسهم .

(٣١) المخاريق : يشير بها إلى سيوف أصحابه وسيوف أعدائه وهو يستمد الصورة من لعبة عرفت بين شباب الجاهلية يستعيرها لتصوير الضرب المتبادل بينهم و بين أعدائهم .

(٣٤) القطين : المتجاورون (قطن المكان سكنه وأقام به) .

(٣٥) القتو : خدمة الملوك بصفة خاصة رويدا : أى تمهل (صيغة تهديد) .

(٣٦) القناة : الأصل . أعيت : أعجزت . تلين : تذل وتخضع .

٣٨ وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً والخـيرَ منـهُ زُهَـيْرًا نعم ذُخْرُ الذّاخِرينَـا
٣٩ وعتّـاباً وكُلْثُـوماً جَميعـاً بِهِـمْ نِلْنـا تُراثَ الأكرَمِينا
٤٠ وذَا البُرَةِ الذى حُدِّثْتَ عنـهُ بِــهِ نُحْمَى ونَحْمِى المُلْجَئينَا
٤١ ومنّـا قبلَهُ السّاعى كُلَيْبٌ فأىُّ المجـدِ إلاّ قـدْ ولِينَـا
٤٢ مـتَى نَعْقِـدْ قَرِينَتَنا بِحَبْـلٍ نَجُذُّ الوصْلَ أو نَقِصُ القَرِينَا
٤٣ ونوجَدُ نحن أمنعَهُـمْ ذمارًا وأوفاهُمْ إذا عقَـدُوا يمينـا
٤٤ ونحن الحـاكِمُون إذَا أُطِعْنَا ونحنُ العازِمُونَ إذَا عُصِينَـا
٤٥ ونحن التّارِكُونَ لِمَـا سَخِطْنَا ونحنُ الآخِذُونَ لِمَـا رَضِينَا
٤٦ وكنّـا الأَيمنِـينَ إذَا التقَيْنَا وكان الأيْسَرِينَ بنُـو أبِينـا
٤٧ فصالُوا صَـوْلَةً فيمَنْ يليهِـمْ وصُلْنَـا صَـوْلَةً فيمَنْ يَلِينـا
٤٨ فآبُوا بالنِّهـاب وبالسَّـبَايَا وأُبْنَـا بالمُـلُوكِ مُصَفَّدِينَـا

(هـ) الى بنى بكر (فخر مطلق)

٤٩ إليكُمْ يـابَنِى بَكْرٍ إليْـكُمْ ألمّـا تعرِفُـوا منّـا اليَقِينَـا
٥٠ ألمّـا تعلمُـوا منّـا ومنـكم كتـائبَ يطّعِنّ ويرْتَمِينا

(٣٨) مهلهل : كان صاحب حرب وائل أربعين سنة وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمـه . زهير : جده من قبل أبيه . نعم ذخر الذاخرينا : أى خير من يصبح أهلا للفخر .

(٤٠) ذو البرة : قيل هو كعب بن زهير لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة وهى الحلقة فى أنف البعير . الملجئينا : الذين يقعون فى حمايتنا ويجب علينا الدفاع عنهم .

(٤١) ولينا : من الولاية أى صار إلينا فصرنا ولاة عليه .

(٤٢) القرينة : التى تقرن الى غيرها ، متى تقرن الى غيرنا : أى متى نسابق غيرنا . نجذ : نقطع . القرينة : الناقة والجمل تكون فيهما خشونة .

(٤٤) الحاكمون : المانعون وأصحاب الحكم والسيادة . العازمون : الأشداء فى القتال .

(٤٦) الأيمنون : أصحاب الميمنة وهم المتقدمون فى صفوف الجيوش . أصحاب الميسرة : المتأخرون فيها .

(٤٨) آبوا : رجعوا . المصفد : المقيد أو المغلل بالأصفاد أو الأغلال . النهاب والسبايا : الغنائم .

٥١ علينا البيضُ واليَلَبُ اليماني ... وأسيافٌ يقمن وينحنينا
٥٢ علينا كُلُّ سابغةٍ دِلاصٍ ... تَرى فوقَ النِّجادِ لها غُضُونَا
٥٣ إذا وُضِعَتْ عن الأبطالِ يومًا ... رأيتَ لها جلودَ القومِ جُونَا
٥٤ وتحمِلُنا غداةَ الرَّوعِ جُرْدٌ ... عُرِفْنَ لنا نَقائِذَ وافتُلِينَا
٥٥ ورثناهنَّ عن آباءِ صِدْقٍ ... ونُورِثُها إذا متنا بَنِينَا

(و) إلى كل القبائل

٥٦ وقد علم القبائلُ من مَعَدٍّ ... إذا قُبَبٌ بأبطحها بُنِينَا
٥٧ بأنَّا العاصِمُون بكلِّ كَحْلٍ ... وأنَّا الباذِلُونَ لِمُجتدِينَا
٥٨ وأنَّا المانِعُونَ لما يَلِينَا ... إذا ما البيضُ زايلتِ الجُفُونَا
٥٩ وأنَّا المُنعِمُونَ إذا قَدَرْنَا ... وأنَّا المُهلِكُونَ إذا أُتِينَا
٦٠ وأنَّا الشارِبُونَ الماءَ صفوًا ... ويشربُ غيرُنا كَدَرًا وطِينَا
٦١ ألا أبلغْ بني الطَّمَّاحِ عنَّا ... ودُعْمِيًّا فكيفَ وجدْتُمُونَا

---

(٥١) البيض : الحديد . اليلب : الدرع . اليماني المنسوب إلى اليمن في جودة صنعه .

(٥٢) السابغة : الدرع التامة . الدلاص : التي تزل عنها السيوف . النجاد : حمائل السيف . الغضون : التكسر .

(٥٣) الجون : السود أي لسود جلودهم من صدأ الحديد لأنهم يلبسون دروعهم باستمرار .

(٥٤) الأجرد من الخيل القصير الشعر أو الكريم منها . النقائذ : المختارة أو ما استنقذت من قوم آخرين . افتلينا : أي نشأت وتربت في قومنا مما يؤكد أصالتها .

(٥٦) الأبطح والبطحاء : بطن الوادي بما فيه من رمل وحصى . والبطحاء : البقعة من الأرض .

(٥٧) العاصمون : المانعون . الكحل : السنة الشديدة التي اشتد جدبها وقلت خيراتها .

(٦١) الطماح ودعمي : حيان من إياد . كيف وجدتمونا : ماذا عرفتم من أمرنا وما أذيع من قدرتنا في الحروب . وكثرة انتصاراتنا فيها .

٦٢ نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأضيافِ منَّا فعجَّلنا القِرى أنْ تَشتمونا
٦٣ قَرَيْنَاكُمْ فعجَّلنا قِراكُمْ قُبَيْلَ الصُّبحِ مِرْدَاةً طَحُونا
٦٤ عَلَى آثارِنا بِيضٌ كِرَامٌ نُحَاذِرُ أنْ تُفارِقَ أوْ تَهُونا
٦٥ أخَذْنَ عَلَى بُعولَتِهِنَّ عَهْداً إذَا لاقَوْا فَوارِسَ مُعْلَمِينا
٦٦ لَيَسْتَلِبُنَّ أبْدَاناً وبِيضاً وأَسْرى فى الحَدِيدِ مُقَرَّنِينا
٦٧ إذَا مارُحْنَ يَمْشِينَ الهُوَيْنَا كما اضطرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينا
٦٨ يَقُتْنَ جِيادَنَا ويَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إذَا لَمْ تَمْنَعُونا
٦٩ إذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلا بَقِينَا لشيءٍ بَعْدَهُنَّ ولا حَيِينَا
٧٠ لَنَا الدُّنْيَا ومَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا ونَبطِشُ حِينَ نَبطِشُ قَادِرِينا
٧١ إذا ما المَلْكُ سامَ النَّاسَ خَسْفاً أبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِينَا
٧٢ نُسَمَّى ظَالِمِينَ وما ظَلَمْنَا ولكنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينا
٧٣ إذَا بلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ له الجَبابِرُ سَاجِدِينا
٧٤ مَلأْنا البَرَّ حتَّى ضَاقَ عنَّا وظَهْرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا
٧٥ ألا لاَ يَجْهَلَنْ أحَدٌ عَلَيْنَا فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا

(٦٢) أن تشتمونا : أى عملنا الحرب مخافة أن تشتمونا أو يقع منكم سباب ضدنا .

(٦٣) القرى : ما يقدم للضيف إكراما لوفادته . المرداة : صخرة صلبة شبه بها الكتيبة .

(٦٤) البيض : بيض الحـديد أو السيوف ، يقصد فى البيت سلب الأعداء وقد يقصد بالبيض نساء تغلب وهن يخرجن خلف كتائب الجيش التغلبى . تهون : تذل أو يصيبها أذى .

(٦٧) يمشين الهوينا : لا يتعجلين فى مشيهن دلالة على ترفهن ونعمتهن ومكانتهن فى نفوس بعولهن من التغلبيين . متون الشاربين : أى يتمايلن فى مشيهن مثل السكارى فى التباطؤ والتثاقل .

(٧١) الخسف : الظلم والجور . نقر الخسف : نتقبله أو نعترف به . أبينا : رفضنا بشدة .

* * *

عبـد الله التطاوى

ذُو الإِصْبَع العَدْوَانى

هو حرثان بن محرث بن شـباث بن زهير بن معـاوية ... سمى ذا الإصبع لأن أفعى نهشت إبهام رجله فقطعها فسمى ذا الإصبع .

وهو شاعر جاهلى قديم ، عمر دهرا حتى زعم السجستانى — على ما فى زعمه من مبالغة — أنه عاش ثلاثمائة سـنة . وهو فارس مذكور وحكيم كانت تحتكم إليـه العرب . وكنيته أبو عدوان ، وله غارات مشهورة ووقائع كثيرة سجلتها له بعض روايات العصر الجاهلى .

وفى قصيدته النونية التى اخترناها يبـدأ الشاعر بذلك الحديث الغزلى الموجز الذى افتتحها به ، ووزعه بين قلبه وصاحبته والوشاة ليدخل إلى تصوير موقفه مع ابن عمه ومنه يبدأ الفخر بنفسه وقومه ، جاعلا مفتاح شخصيته وشخصية قومه جميعا مرتبطا بتلك القدرة المطلقة التى استوقفته فيهم على أن يكونوا جبّارين فى الأرض لولا بقية حرص على أواصر القربى تجعلهم يكبحون جماح غيظهم ويكبتون قوتهم حتى لا يقوّضوا من حولهم من الأقوام . ويسحب الشاعر على نفسه رداء القوة والعنف بنفس الدرجة ويضيف إلى فروسيته اللسانيـة التى تحكمها العفـة وعدم الانصراف إلى الشتائم أو السباب أو الفحش فى أىٍّ من صوره ، وهو يضفى على حديثه طابع الصدق من خلال مجموعة الحكم التى يطرحها متناثرة بين الأبيات لتجمع شتاتها ولتكون روابط فنية تشد ما يسبقها من المعانى إلى ما يورده منها بعدها .

وهو يمزج بين الفخر والتحدى أو ينتقل إليـه فى اللوحة الأخيرة التى يعلن فيها سخطه على أعدائه بشكل مباشر ، وإن كان هذا السخط يرد مصحوبا أيضا

يحرص متكرر على تصوير مثاليته الخُلُقيـة فى علاقاته الاجتماعيـة ليرسم من كل جزئياتها مسلكا إنسانيا يقتنع به فى حياته، ويطبقه فى تعامله مع أعدائه وأصدقائه جميعـا .

وعلى هذا راح الشاعر يعتمد على هذا التداخل بين الصورة والتقرير فى صياغة القصيدة، ما ارتبط منهـا بحديث الذات فى تضخيمها وتعظيمها وسيطرتهـا على الأبيات ؛ أو ماتعلّق منها بحديث الغير كطرف آخر تحكمه رؤيته لمـا ينبغى أن يسود فى العلاقات الاجتماعية بوجه عام .

* * *

عبد الله التطاوى

بين الفخر والتحدّى

١ يا مَنْ لِقَلْبٍ طويلِ الهَمِّ مَحْزُونِ   أَمْسَى تَذَكَّرَ رِيًّا أُمَّ هَارُونِ ؟
٢ أَمْسَى تَذَكَّرُها من بعدِ ما شَحَطَتْ   والدَّهرُ ذُو غِلْظَةٍ حِيناً وذُو لِينِ
٣ فإنْ يَكُنْ حُبُّها أَضْحَى لنا شَجَنًا   وأَصْبَحَ الوَأْيُ مِنْها لا يُوَاتِينِي
٤ فقد غَنِينَا وشَمْلُ الدَّارِ يَجْمَعُنَا   أُطِيعُ رَيًّا ورَيًّا لا تُعَاصِينِي
٥ نَرْمِي الوشاةَ فلا نُخْطِي مقاتِلَهُم   بصادقٍ من صَفَاءِ الوُدِّ مَكْنُونِ
٦ لِيَ ابنُ عَمٍّ على ما كانَ من خُلُقٍ   مُختلِفانِ فأَقْلِيهِ ويَقْلِينِي
٧ أَزْرَى بِنَا أَنَّنَا شَالَتْ نَعَامَتُنَا   فخالَنِي دونَهُ بلْ خِلْتُهُ دُونِي
٨ يا عمرو إلّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي   أَضْرِبْكَ حيثُ تقولُ الهَامَةُ اسْقُونِي
٩ لاهِ ابنَ عَمِّكَ لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ   عَنِّي ولا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

(١) يامن لقلب : صيغة تعجب تصور دهشته من أمره ، فهو يتساءل عمن يستطيع معاونته على قلبه بهذه الصفة وقد يسيطر عليه الحزن وطول الهم وتذكر ريا .

(٢) يصور الدهر الذى لايدوم على حال . وهو يتحكم فى البشر بلينه وغلظته حسب إرادته .

(٣) الشجن : الحزن والهم . الوأى : الوعد . يواتينى : يتم إنجازه أو يتحقق لى و يصلنى .

يصور كيف بعدت عنه تلك المرأة فلم يعد وصلها يطاوعه وقد بقيا زمانا على أحسن ما يكون عليه متحابان من وصل .

(٦) يقليه : يبغضه ، و يكن فى نفسه له غدرا و كرها .

(٧) أزرى به : إذا قصر به . شالت نعامتهم : إذا تفرقوا ، وتشتت شملهم .

(٨) الهامة : الرأس وقد أخذت بعدا خاصا فى مسألة القتل والثأر إذ عرف أن المقتول إذا لم يدرك ثأره يخرج من رأسه هامة تصوت على قبره : اسقونى اسقونى . فإذا قتل قاتله أمسك .

(٩) لاه ابن عمك : لله ابن عمك فأضمر اللام . لا أفضلت : أى لم تفضل . تخـزونى : تقهرنى ويسومنى .

٣ سَـلكوا مَنْهَجَ المنـايا فبـادُوا وأرانا قـد حانَ منّا وُرُودُ

٤ بينما هـــمْ على الأَسِرَّة والأنـ ـماطِ أفضتْ إلى التراب الخدودُ

٥ ثم لم يَنْقَضِ الحديثُ ، ولكنْ بعـــدَ ذا الوعدُ كلُّه والوَعِيـدُ

٦ والأطبّـاءُ بَعْـــدَهم لَحِقوهـمْ ضَلَّ عنهـمْ سَعُوطُهمْ واللَّـدُودُ

٧ وصحيـحٌ أضحَى يعـودُ مريضًـا وهو أدنَى للمـوتِ ممَّنْ يعودُ

* * *

(٣) المنهج : الطريق . و بادوا : هلكوا .

(٤) الأنمـاط : البسط ، جمع نمط . وأفضت : انتهت .

(٥) الوعد : الثواب . والوعيـد : العقـاب . والبيت يعكس إيمان الشاعر المسيحى بالبعث والحساب والثواب والعقاب .

(٦) السعوط : الدواء يصب فى الأنف . واللدود : الدواء يصب فى الفم ة

(٧) يعود مريضا : أى يزوره . وواضح أن معانى الأبيات هى نفسها المعانى التى ترددت كثيرا فى شعر أبى العتاهية بعد ذلك .

* * *

يوسف خليف

المُنَخَّـــل اليَشْـكُرِىّ

* * *

هو المنخل بن مسعود (أو ابن عُبَيد) بن عامر بن ربيعة بن عمرو اليشكرى. وهو شاعر جاهلى قديم. كان يشبّب بهند أخت الملك عمرو بن هند، وكان يتهم كذلك فى زوجته، وكان نديما للنعمان بن المنذر، وكان النعمان دميما أبرش قبيحا، وكان المنخل من أجمل العرب، وقد اتهم كذلك فى «المتجرِّدة» زوجة النعمان، ويتحدث العرب أن ابنى النعمان منها كانا من المنخل، فقتله النعمان، وقيل حبسه ثم غمض خبره فلم تعلم له حقيقة، ويقال إنه دفنه حيا أو أغرقه. والعرب تضرب به المثل ممن هلك ولم يعلم له خبر.

والقصيدة المختارة يوجه فيها الشاعر خطابه إلى العاذلة، يريدها أن تفارقه إلى العراق، وأن لا تنظر إلا إلى حسبه وكرمه، ويصف لها جُودَه فى زمان الجدب، وينعت لها فوارس قومه الذين يُقِرُّ عينه بهم وبالكواعب اللائى يعابثهن، ويجرى معهن فى الهوى والغزل. ويصف لها كيف بادل إحداهن الحب حتى لقد كان بين بعيره وناقتها من ذلك ما يكون بين البشر. ثم يصف حالى صحوه وسكره.

* * *

٣٣ ماذَا علىَّ إذا تـدعُونَنِي تَرِعًا   ألَّا أُجيبَــكُم إذْ لَمْ تُجِيبُــونِي
٣٤ يا رُبَّ حَيٍّ شَدِيدِ الشَّغْبِ ذِي لَجَبٍ   دَعَوتُهُــمْ رَاهِنٌ مِنْهُــمْ ومَرْهُونِ
٣٥ رَدَدْتُ باطِلَهُــمْ فِي رَأْسِ قَائِلِهِمْ   حتَّى يَظَـلُّوا خُصُومًا ذَا أَفَانِينِ
٣٦ يا عَمْرُو لَوْ لِنْتَ لِي أَلْفَيْتَنِي يَسَرًا   سَمْحًا كَرِيمًا أُجَازِي مَنْ يُجَازِينِي

(٣٣) تدعوننى : تسموننى . الترع : السريع إلى الشر الراغب فيه .

(٣٤) الراهن والمرهون : الرئيس والمرؤوس . والراهن : الدائم الثابت . دعاهم لمنافرات فلم ينهضوا ولم يثبتوا سواء منهم التابع أو المتبوع فكلهم يخشون لقاءه .

(٣٥) باطلهم : يقصد الباطل من كلامهــم وكيف رده وأورد من الحجاج عليهم ما تشابهت من أجله حججهم عنده فتحيروا واختلفوا فصاروا جميعا ذا أفانين . والأفانين ج أفنـون وهى الضروب من الكلام .

* * *

عبد الله التطاوى

عـصـرُ داحِـسٍ والغـبراءِ

الطُّفَيْــل الغَنَــوِى

هو طفيل بن عــوف بن خُلَيف من قبيلة غَنِى ينتهى نســبه إلى قيس عيلان من مضر، شاعر جاهلى لقَّبهُ القدماء « بالمحبِّر » لحسن شعره ووصفه، كما « لقّبوه بطفيل الخيل لكثرة وصفه لهــا و براعته فى هذا الوصف .

عاش فى مطلع النصف الثــانى من القرن السادس الميــلادى حتى نهايتــه والأرجح أنه مات قبل الدعوة الإسلامية بقليل. وربما كان ذلك فى سنة ٦١٠ للميلاد .

كان سيدا فى قومه وقائدا لفرسان قبيلته ، كما عُرِف بغناه وثرائه مما ساعده على القيام بدور السفارة بين قبيلته و بين غيرها من القبائل العربية ساعيا فى الصلح وحقن الدماء .

عُرِف طفيل بحكمته وحلمه وســداد رأيه ، كما كَثُرَ إلمــامه بعلم النجوم والأنواء وما أثير حولهــا من قصص ، كما كان على علم واسع ببيطرة الخيل بسبب كثرة ركوبها واقتنائها .

ومن أهم الموضوعات التى وقف عندها فى شعره «الوصف»، خاصة وصف الخيــل والأسلحة والإبل ، حتى جعله صاحب الأغانى أوصف العرب للخيل ، وقد أعجب وصفه لهــا عبد الملك بن مروان فقال : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » . ويكثر فى شعره أيضا الفخر بقبيلته كما يكثر فخره بنفسه، وتتزاوج عنده الشخصية الفردية مع الشخصية القبلية فى اتساق نفسى يرتبط بطبيعة دوره كشاعر فى المجتمع القبلى . وهو واحد من روّاد مدرسة الصنعة الجاهلية شأنه فى ذلك شأن أوس بن حَجَر ، وقد صور ذلك أبو الفرج حين ذكر أن طفيلا كان

أكبر من النابغة وليس في قيس فحل أكبر منه ، وانتهى الأصمعي إلى أن كل الشعراء قد أخذوا من طفيل حتى زهير والنابغة .

على أن هذا كله لا ينفي تأثر الشاعر بغيره من شعراء العصر الجاهلي الذين سبقوه إلى النظم سواء كان هذا التأثر عفوياً أم متعمدا ، فقد تأثر بامرئ القيس وأبي دؤاد الإيادي الذي ذاع صيته أيضا في وصف الخيل .

وفي قصيدته اللامية التي اخترناها له يفتتحها بمقدمة غزلية تقليدية أساسها صور الغزل وما يصاحبها من مشاهد الهجر والقطيعة وتَدَخُّل الوشاة بينه وبين صاحبته لإفساد العلاقة بينهما ، ومن الغزل ينتقل إلى رسم لوحة فنيه متكاملة يُبرِز فيها الملامح الكبرى التي تميز الرجل العربي وأصبحت أهلا لفخره بنفسه وبقومه وبطبيعة الانتماء إليهم وضرورة الولاء لهم . فهو يرى في شخصه ملامح العفة خاصة في تعامله مع نساء جيرانه وهو ما نجد له نظيرا عند غيره من شعراء الجاهلية خاصة عند حاتم الطائي وعنترة بن شداد .

واستكمالا لهذا التصور المثالي يصور ملامح الكرم التي يراها ضرورة بدوية يعتز بها ويفاخر بتوافرها في شخصه وفي بني قومه ، فكأنه يحرص بذلك على أن يسجل مآثر القبيلة في تفاعلها مع مآثره الخاصة ، وإن كانت الشخصية القبلية لا تزال تطغى عليه حين يصر على إكمال الصورة بحديثه عن ارتباطه بقومه وولائه لهم .

وفي الختام يعود الشاعر إلى حديث الافتتاح مرة ثانية ، لكنه هنا يؤثر حديث الحكمة التي يعلقها بالمرأة عامة فيصور موقفه منها وعدم استسلامه لها ، كما يسجل رؤيته الخاصة لطبيعتها وحقيقة مسالكها الاجتماعي .

* * *

(تراجع ترجمته وأخباره في مقدمة ديوانه تحقيق د . محمد عبد القادر أحمد . دار الكتب الجديد ١٩٦٨) .

* * *

عبد الله التطاوي

منهجُ حَياةٍ

* * *

١ هَلْ حبْلُ شمَّاء قبلَ البيْنِ موصولُ أَمْ ليس للصَّرْمِ عن شمَّاءَ معدُولُ
٢ أَمْ ما تُسائِلُ عن شمَّاءَ ما فعلَتْ وما تُحاذِرُ من شمَّاءَ مفْعولُ
٣ إذْ هِيَ أَحْوَى من الرِّبْعِي حاجِبهُ والعَيْن بالإثْمِدِ الحارِيّ مكحُولُ
٤ تَرْعى منابتَ وسميٍّ أَطاعَ له بالجِزْعِ حيثُ عَصَى أصحابَهُ الفيلُ
٥ بانَتْ وكانَتْ إذَا بانَتْ يكونُ لها رَهْنٌ بما أحكمَتْ شمَّاءُ مبتولُ
٦ إن تُمْسِ قدْ سمعت قِيلَ الوُشاة بِنا وكلُّ ما نطَقَ الواشُون تَضْليلُ
٧ فما تجُودُ بِمَوْعودٍ فَتُنْجِزهُ أمْ لا فَيأْسٌ وإعراضٌ وتجْميلُ
٨ فإنَّ قَصْرَكِ قَوْمِي إنْ سألتِهمُ والمَرْءُ مُسْتَنْبَأٌ عنه ومسؤُول

* * *

٩ إنى وإن قَلَّ مالى لا يفارِقُني مِثْلُ النعامة فى أوصالها طُولُ
١٠ تقريبها المَرطَى والجَوْزُ مُعتَدِلٌ كأنها سُبَدٌ بالماءِ مَغْسُول
١١ أو قارِحٌ فى الغُرابِيَّاتِ ذُو نَسَبٍ وفى الجِرَاءِ مسحُّ الشَّدِّ إجْفيل

---

(١) الحبل : الوصل . شماء : اسم جارية . الربعى : ما نتج فى فصل الربيع .

(٤) الفيل : يقصد به فيل « أبرهة » الذى عجز عن التحرك صوب البيت ، شبه به الظبى حين يرعى هذا المكان الذى يصوره .

(٥) بما أحكمت : بما شامت ارتهنته وسيطرت عليه وتحكمت فيه . مبتول : مقطوع .

(٧) الإعراض : الصد والهجر والقطيعة . التجميل : التجمل والصبر والتحمل .

(١٠) المرطى : ضرب من الجرى . السبد : طائر مثل الخطاف .

(١١) القارح : الفرس وقد ألقى أقصى أسنانه . الغراب فحل كان لغنى . الجراء : المجاراة . مسح الشد : يصب الشد صبا . يجفل : يفزع .

١٢ ولا أقولُ لجارِ البيت يتبعُنى ... نَفِّسْ محلّك إن الجوَّ محلُول
١٣ ولا أخالِفُ جارى فى حليلتِـهِ ... ولا ابنُ عمّى غالَتْنى إذًا غُولُ
١٤ ولا أقولُ وجَمُّ الماءِ ذو نفسٍ ... من الحرارةِ إنّ الماءَ مشغُول
١٥ ولا أحدِّدُ أظفارى أقاتلُه ... إن اللِّطامَ وقولُ السُّوءِ محمُول
١٦ ولا أكونُ وِكاءَ الزادِ أحبِسُهُ ... إنّى لأعلَمُ أنّ الزادَ مأكُولُ
١٧ حتى يقالَ وقد عُوليتُ فى حرجٍ ... أين ابنُ عوفٍ أبو قُرّانَ مجهُول
١٨ إنى أُعدُّ لأقوامٍ أفاخرُهم ... إذا تُنوزِعَ عندَ المَشْهَدِ القِيلُ
١٩ ولا أجلِّل قومى خزيةً أبدًا ... فيها القُرودُ رِدافًا والتّنابيل
٢٠ وغارةٍ كجرادِ الرِّيحِ زعزعها ... مِخْراقُ حَرْبٍ كنصْلِ السيفِ بُهلُولِ
٢١ يعلُوبهَا البيدَ ميمونٌ نقيبتُه ... أرْوَعَ قد قلصتْ عنه السَّرابيلُ

(١٢) نفس محلك : نحه قليلا . الجو محلول : أى أن الوادى فيه أناس يقيمون و يستقرون .

(١٣) الحليلة : الزوجة . غالته غول : أصابته داهية أوحلت به كارثة أو مصيبة .

(١٤) جمّ الماء : ما اجتمع منه فى البئر . ذو نفس : ذو فضل ومكانة .

(١٥) أحدد أظفارى : ضرب به مثلا للشتم والأذى . اللطام : الضرب . محمول : منقول فى الناس .

(١٦) الوكاء : الذى يشد به فى حالة الجوع ، ووكاء أى لا أوثق الزاد فإذا منعه فهو وكاء .

(١٧) أبو قُرّان : كنية « طفيل » نفسه . مجهول : حدثت مكانته و برز موقعه .

(١٩) لا أجلل قومى خزية : أى لا آتى أمرا يكون عارا على قومى . القرود هنا إشارة إلى النذالة . ردافا : بعضها على بعض . التنبال : تقال للرجل إذا كان دميما قبيحا .

(٢٠) يعلوبها : يدخل بها و يقودها . كجراد الريح : مثل الجراد يتفرق فى الريح . زعزعها : خلخلها . مخراق : ينخرق فى الحرب . البهلول : الضحاك من الرجال .

(٢١) أروع : عليـه معالم الروعة والجمال والهيبة . قلصت عنه السرابيل : ثيابه مشمرة . فهو مستعد دائما للقتال والمنازلة .

٢٢ شَهِدتُ ثُمّت لم أَحْوِ الركابَ إذا — سوقِطْنَ ذو قَتَبٍ منها ومَرْحُول

٢٣ بساهِــمِ الوَجْه لم تُقْطَع أباجِلُه — يُصَانُ وَهْو ليوم الرَّوْع مبْــذُول

٢٤ كأنّه بَعْــدَ ماصدَّرْنَ من عَرَقٍ — سِــيدٌ تُمطِّرجنحَ الليْــل مبْلُول

٢٥ إن النِّساء كأشْجَــارٍ نَبَتْنَ معــًا — منها المُرارُ وبعضُ المُرِّ مأكولُ

٢٦ إن النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ — فإنّه واجبٌ لا بُــدَّ مَفْعُــولُ

٢٧ لا يَنْثَنين لِرُشْــد إن مُنِينَ لَهُ — وهُنَّ بعْــــدُ مَلُومَاتٌ مَخَــاذِيلُ

(٢٢) لم أحو الركاب : لم تكن همتى الغنم أو الرعى . إذا سوقطن : اذا جعلن يتساقطن واحدا بعد الآخر . ذو قتب : ما كان يرحل عليه أو بواسطته .

(٢٣) ساهم الوجه : قليل لحم الوجه . لم تقطع أباجله : لم يصبه داء يقطعه المتمطر .
الأبجل : عرق فى الرِّجل .

(٢٤) السيد : الذئب . المتمطر فى العدو : أن يذهب فى الأرض مسرعا فى جريه .

* * *

عبد الله التطــاوى

أَوْسُ بنُ حَجَرٍ

* * *

ينتهى نسب أوس بن حَجَر إلى قبيلة تميم ، القبيلةِ العربية الضخمة المتشعبة البطون والعشائر ، التى كانت تنزل فى منطقة الدّهناء الممتـدة امتدادا كبيرا بين نجد والبحرين . وكانت منازل عشيرته — أُسَيِّد بن عمرو بن تميم — منتشرةً بين اليمـامة فى الجنوب الشرقى من نجد ، وبين هَجَر فى جنوبىّ البحـرين . وليس من اليسير — كما هو الشأن مع كل الشعراء الجاهليين — أن نحدد تاريخ مولده ، ولكن يغلب على الظن أنه كان فى مطالع القرن السادس الميـلادى : وربما كان ذلك — كما ترجح دائرة المعارف الإسلامية — سـنة ٥٣٠ . وهو — على كل حال — من شعراء البلاط الحِيرىّ فى عصر الملك عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٦٩) . وكذلك ليس من اليسير تحديد سنة وفاته ، ولكن يبدو أنه عُمِّـر طويلا ، ففى شعره إشاراتٌ لأحداثٍ وقعت فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، ولكنه — من غير شك — لم يدركِ الإسـلام ، وفى أغلب الظن أنه مات مع مطالع القرن السابع ، وربما كان التاريخ الذى حدّده جرجى زيدان — وهو سنة ٦١٠ — قريبا من الحقيقة .

عاش أوس حياة قبيلته كما يعيشها سائر أبنائها ، ولمع فيها شاعرًا دار بشعره فى دائرة عصبيتها القبلية ، يتغنى بأمجادها ومفاخرها ، ويسجل فى شعره انتصاراتها ويهجو أعداءها وخصومها ، ويعيش معها هزائمها ووقائع ثأرها ، ويجعـل من شـعره أبواقا تَنفُخ فى روحها ، وترفع من معنوياتها . ولكنه — مع ذلك — لم

ينفصل عن حياته الخاصة، ولم يُلْغ ذاتيته أو شخصيته ، والرواة القدماء يصفونه بأنه كان « غزلا مغرما بالنساء » . ولكن يبدو أن كثيرا من شعره الذى نظمه فى هذه « الدائرة الذاتية الفردية » قد ضاع وضاعت معه الصورة الخاصة التى كنا نتمنى أن نراها له لنستكمل بها الصورة الكاملة له .

واتصل أوس بالبلاط الحيرى فى عصر الملك عمرو بن هند، ولكنه لم ينقطع إلى هذا البلاط كغيره من شعراء عصره الذين انقطعوا له . ومن هنا لم يكن تأثير البيئة الحضارية عميقا فى حياته أو شعره ، فعاش حياته وفنه بدويا قُحًّا ، وظل شعره يدور فى الدوائر البدوية التقليدية فى موضوعاته ولغته وأسلوبه وصوره ، وظلت البيئة البدوية حيّة فى أعماقه تعكس آثارها على شعره . ولعل هذا هو الذى جعله يبلغ قمة الإبداع فى وصف المطر من ناحية ، وفى وصف مناظر الصيد من ناحية أخرى ، وهما موضوعان يبدو أن شُغِل بهما شعراء البادية منذ أقدم عصور الشعر العربى ، لأنهما يعكسان إحساس البدوى ببيئته الطبيعية التى ترتبط حياته ومشاعره بها ارتباطا مباشرا لا يقف دونه حجاب .

وإلى جانب هذين الموضوعين تتحدث الروايات القديمة عن علاقة ربطته بسيد من سادة بنى أسد ، فَضَالة بن كَلَدة . وهى علاقة يبدو أنها استمرت طويلا ، وأنها أنتجت عددا من مدائحه فيه ، وكثيرا من عطاياه له . ولكن يبدو أن هذه المدائح ضاعت أيضا مع ما ضاع من شعره ، فلم تصل إلينا إلا مقطوعةٌ واحدة فى مدح ابنةٍ له اسمها « حَلِيمة » وأربعُ قصائدَ ومقطوعةٌ واحدة فى رثائه يتجلى فيها جميعا مدى وفائه وإخلاصه له .

ويُعَدّ أوس رائدا من رواد مدرسة الصنعة الجاهلية التى تحوّل العمل الفنى على أيدى شعرائها إلى صنعة متأنية متروية فيها الجهد والعناء ونضح الجبين والتفرغ

الطويل للعمل الفنى لإخراجه وَفقًا لمقاييسَ دقيقة وأصول ثابتة وتقاليد مستقرة . وهو — فى رأى الدكتور طه حسين ومن تابعه من الباحثين — رأس هذه المدرسة ، وهو — فى رأيى ورأى آخرين — رائدا من روادها الأوائل كان دوره فيها بعد الطُّفيل الغَنَوى الذى أراه رأس هذه المدرسة والرائد الأول لها .

وربما كانت أهمية أوس تأتى — من بعض جوانبها — من صلته بزهير بن أبى سُلمَى قمة هذه المدرسة فى العصر الجاهلى ، فقد كان أوس زوج أمه بعد وفاة أبيه مما أتاح لزهير أن يقترب منه بصورة أشدّ من غيره من شعراء هذه المدرسة ، وأن يكون تأثره بمذهبه الفنى أقوى منهم . وفى رأى النقاد القدماء أن ظهور زهير أَخْمَلَ قليلا من منزلة أوس ، وكذلك يَرُدّون جانبا من ذلك إلى ظهور النابغة الذبيانى ، وهو أيضا من قمم هذه المدرسة . وهو رأى يتردد فى أكثر من رواية عن الراوية والناقد الكبير أبى عمرو بن العلاء ، فهو يقول مرة : « كان أوس شاعر مُضَر حتى أسقطه النابغة وزهير » ، ويقول مرة أخرى : « كان أوس بن حجر شاعر بنى تميم فى الجاهلية غير مُدَافَع ، وكان فحل العرب ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه » ، وأن يكن الأصمعى يخالفه فى شطر من حكمه ويتفق معه فى الشطر الآخر ، فيرى أن أوسا أشعرُ من زهير ، ولكن النابغة أشعر منه . ويضعه ابن سلام فى « طبقاته » على رأس الطبقة الثانية من فحول شعراء الجاهلية ، ولكنه يعلّل ذلك تعليلا غريبا حين يذكر أنه أخّره إليها لأنه التزم فى تقسيم طبقاته أن تكون كل طبقة من أربعة شعراء لا تتجاوزهم ، وأن الطبقة الأولى غطاها الأربعة الكبار : امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى .

* * *

يوسف خليف

(١)

رثاءٌ عظيم

أوسُ بن حَجَر من فحول شعراء تميم فى الجاهلية ، بل إن قبيلته تُفَضِّله على سائر شعراء العرب . يضم شعره الكثير من الحكم ووصف مكارم الأخلاق ، كذلك كان وصّافا للحيوان والسلاح ولا سيما القوس . ويمتاز شعره بدقة المعنى وبراعة الصياغة، وتنسب إليه مدرسة التروى والتنقيح التى عُرِفت باسم « عبيد الشعر » ، وقد تخرج زهير بن أبى سُلمى على يديه إذ كان زوج أمه .

وقد نشأت بينه وبين فَضَالة بن كَلَدَة علاقة وثيقة بسبب ما حدث لأوس حين جالت به ناقته فصَرَعته فاندقَّتْ فخذه ، فلما كان الصباح أبصر فتيات الحى يَجْنِين الكَمْأة ، فدعا جارية منهن فقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا حليمة بنت فَضالة بن كلدة،فأعطاها حجرا وقال : اذهبى إلى أبيك فقولى له : ابنُ هذا يُقْرِئكَ السلام ويقول لك : أدركنى فإنى فى حالة عظيمة . فأتت أباها وقصت عليه القصة وأعطته الحجر،فقال : يا بُنَيَّة لقد أتيتِ أباك بمدح طويل أو هجاء طويل. ثم ذهب إلى مكان أوس فأتاه بمن يَجْبُر كَسْرَه، ولم يزل مقيما عنده،وبنته تخدمه، إلى أن برأ ، فمدحه أوس بقصائد عديدة ، ورثاه بعد موته بهذه القصيدة الرائعة التى يُظهِر فيها عاطفته القوية تجاه فضالة، ويعدِّد صفاته العظيمة من كرم وشجاعة وحزم ونجدة وذكاء ، ويركِّز فى رثائه على كرمه وخاصة فى أوقات المجاعة والشدة حين يحرص الناس على ما بأيديهم خوفَ العوَز ، ويُبْرِزعونه للمحتاج الفقير ، وبطولته فى رد عادية المغيرين على قومه . .

ولا شك أن أوسا قد أجاد فى صوره الفنية إجادةً بارعة، وكان وفيا لهذا العربى الكريم الذى قـدَّم له يَدَ العون ، ويكفيه فخرا أن تقال فيه هـذه القصيدة التى تؤكد معانيها أنها قيلت فى « رجل عظيم » .

* * *

١ أيَّتُهـا النفسُ أجْمِـلِي جَزَعَا ... إن الذى تَحْـذَرِينَ قد وقَعَا

٢ إن الذى جَمَّـعَ السَّماحةَ والنَّـ ... ـجْدةَ والحـزمَ والقُـوَى جُمَعَـا

٣ الألمعىُّ الذى يَظُن لكَ الظَّـ ... ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعَـا

٤ والمُخْلِفَ المُتْـلِفَ المُـرَزَّأ لم ... يُمْتَـعْ بضَعْفٍ ولم يَمُتْ طَبَعَـا

٥ والحافظَ النـاسَ فى تَحُوطَ إذا ... لم يُرْسِــلوا تحتَ عائذٍ رُبَعَـا

٦ وازدحمتْ حَلْقَتـا البِطَانِ بأقْـ ... ـوامٍ وطـارتْ نفوسُهُمْ جَـزَعَا

٧ وَعَزَّتِ الشَّمْأَلُ الرياحَ وقـد ... أمسَى كَمِيـعُ الفتـاةِ مُلْتَفِعـا

---

(١) أجملى : اتئدى واعتدلى .

(٢) السماحة : الكرم . النجدة : الشجاعة . القوى : العقل .

(٣) الألمعى : الذكى المتوقد .

(٤) المخلف : الذى يغيث الناس فى وقت الشدة . المتلف : من يجود كثيرا بماله . المرزأ : الذى يهب الأموال الكثيرة ، غير عابىء بتناقص ثروته . لم يمتع : لم يعش . الطبع : أسوأ الطمع .

(٥) الحافظ الناس : الذى يحفظ عليهم حياتهم بكرمه . تحوط ، من أسماء السنة المجدبة . العائذ : الناقة الحديثة النتاج . الربع : الفصيل الذى ينتج فى الربيع ، وكان من عادة العرب أن ينحروا الفصال فى السنة المجدبة لئلا ترضع فتضر بالأمهات . وإلى هذا يشير الشاعر .

(٦) البطان : حزام القتب : والتقاء حلقتيه مثل يضرب للشدة وإصابة المكروه .

(٧) عزت الشمأل الرياح : أى غلبتها وتلك علامة الجدب وعدم نزول الأمطار . الكميع : الضجيع . الملتفع ، الملتفف فى الكساء أو اللحاف . والشاعر يصور شدة البرد بأن الرجل لايستطيع أن ينام مع زوجته بسبب الإجهاد ، ويلتمس الدفء فى الكساء أو اللحاف .

٨ وشُــبَّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ مِنَ الـ ـأقــوام سَــقْبا مُلَبَّسا فَــرَعَا
٩ وكانت الكاعبُ المُمَنَّعَـــة الـ ـحسناءُ فى زادِ أهلِها سَبُعَـا
١٠ أودى، وهل تنفعُ الإشاحةُ مِنْ شيءٍ لمَنْ قـد يحـاولُ البِدَعَا ؟
١١ لِيَبْـكِكَ الشَّرْبُ والمُدامةُ والـ ـفِتْيانُ طُرّاً وطـامعٌ طَمِعا
١٢ وذاتُ هِـــدْم عارٍ نَوَاشِرُها تُصْمِتُ بالمـاءِ تَوْلَبـاً جَدِعَا
١٣ والحىُّ إذ حاذَروا الصَّباحَ وقد خافوا مُغِـــيرا وسـائراً تَلِعَـا

(٨) الهيدب من الأقوام : يعنى الذى يلبس ثيابا ممزقة . العبام : الثقيل اللسان . السقب : ولد الناقة عند ولادته ، وكذلك الفرع وهو يقصد جلد الفــرع . والشاعر يشبه الرجل الملتف بالأسمال البالية بسبب شدة البرد بابن الناقة الذى يلبسونه جلدا آخر.

(٩) الكاعب : الفتاة التى نهد ثدياها . الممنعة : الحرة التى يسترها أهلها . أصبحت كالسبع فى زاد أهلها بعد أن كانت تعاف طيب الطعام .

(١٠) أودى : هلك ، وهذا الفعل خبر إن فى البيت الثانى جاء متأخرا . الإشاحة : الحذر والجد فى الأمر . البدع : الأحداث وعظائم الأمور . والمعنى إن الجد والحذر لا يغنيان عن نزول النوازل لمن يطلب عظائم الأمور .

(١١) الشرب : الشاربون الذين كانوا ينادمونه على الشراب ، الطامع : يقصــد به المؤمل فى كرمه وعطائه .

(١٢) الهدم : الثوب البالى ، وذات الهدم : يعنى الفقيرة البائسة . النواشر : عصب الذراع . التولب : ولد الحمار، ويعنى به طفلها والجدع : السيء الغذاء .

(١٣) الحى : يعنى قومه . يحاذرون الصباح : لأن حروب العرب كانت فى النهار، التلع : المغير.

* * *

محمد مصطفى هدارة

(٢)

لَيْـــلَةٌ مُمْطِـــرَةٌ

* * *

المحور الأساسى الذى تدور عليه هذه القصيدة التى تبلغ سبعة وعشرين بيتا هو وصف المطر . وهى تبـدأ بمقدمة غزلية قصيرة تُثـير فى نفس الشاعر حديثَ الشباب وما فيه من لهو وشراب ، وهو حديث لا يأخذ صورة الحنين إلى ذكرياته البعيدة كما نراه عند أكثر الشعراء الجاهليين ، وإنما يأخذ صورة التفكير فى الحياة والموت ، ويتحول إلى لونٍ من التأملات فى مصيرِ الإنسان فى الحياة ، يخرج منها الشاعرُ إلى التأمل فى الطبيعة من حـوله ، فيقف أمام البرق الذى نَفَى النوم عن عينيه يرصُــدُه ويراقبه ، ويصف السحاب الذى أخذ يتدفق بالمطـر ، ويطيل الوقوف أمام المطر الذى تحولت معه الصحراء إلى رياضٍ مخضرَّة وأودية مُمْرِعة . ثم يختم قصيدته ختاما مفاجئا بوصفِ سريع لناقته ، ودعاءٍ بالسُّقْيا لديارِ سيِّدٍ من بنى عَوْفٍ يشير فى مقدمة قصيدته إلى أنه يقصده ليمدحه .

وحول القصــيدة خلاف بين الرواة ، فبعضهم ينسبها إلى أوس ، وبعضهم ينسبها إلى عَبِيد بن الأبرص ، ولكن أسلوب القصيدة ، والعناية الواضحة بصياغتها ، والحرص على تجويدها وإحكامها ، والاهتمام بالجانب التصويرىّ فيها ، تجعلنا نرجّح نسبتها إلى أوس رأسِ مدرسة الصنعة الجاهلية ، وأحد روادها الأوائل . ويؤكد هـذا الترجيحَ أن الأصمعى الثقة كان يرويها لأوس ، ووافقه على ذلك طائفةٌ من

رواةِ الكوفة، وعلى رأسهم المفضل الضبي، ورواةُ الكوفة أَعْلَمُ رواةِ الشعر العربي بالشعر القديم. وكذلك فعل الجاحظ في كتابه «الحيوان».

* * *

١ وَدِّعْ لَمِيسَ وَدَاعَ الصَّارِمِ اللَّاحِي ... إذْ فَنَّكَتْ في فسادٍ بعد إصلاحِ

٢ إذ تستبيكَ بمصقولٍ عوارضُـهُ ... حَمْشِ اللِّثَاتِ عِذَابٍ غيرِ مِمْلاحِ

٣ وقـد لَهَـوْتُ بمثلِ الرِّئم آنسـةٍ ... تُصْبِي الحليمَ عَرُوبٍ غيرِ مِكْلَاحِ

٤ كأنَّ غرِيقَتَها بعد الكَرَى اغتَبَقَتْ ... مِنْ ماءِ أَصْهَبَ في الحانوتِ نَضَّاحِ

٥ أو مِنْ مُعَتَّقَةٍ وَرْهَـاءَ نَشْوَتُهَا ... أو مِنْ أنَابِيبِ رُمَّانٍ وتُفَّاحِ

(١) الصارم: الجاد في هجره وقطيعته. واللاحي: اللائم. وفنكت: لجت في الهجر وألحت في القطيعة بعد أيام الحب والوصل واللقاء، وهو ما يصفه بأنه فساد بعد إصلاح.

(٢) العوارض: الأسنان، يصف ثغرها. والحمشة: القليلة اللحم، يريد أن شفاهها رقيقة، وكان ذلك من سمات الجمال عند العرب. والعذاب: العذبة الرضاب. وغير مملاح تأكيد لذلك.

(٣) الرئم: الظبي الخالص البياض. والآنسـة: التي تؤنسك بحديثها. وتصبي الحليم: أي تفـتن الرجل العاقل الرزين. والعروب: الضحوك، أو المتحببة إلى صاحبها. والمكلاح: العابسة المقطبة الوجه.

(٤) الريقة: الريق. واغتبقت: شربت الغبوق وهي خمر المساء. والأصهب: الأشقر، وفي رواية أخرى «أدكن» وهو الضارب إلى السواد، وهي أدق، لأنها صفة الزق. والحانوت: الحانة. يشبه ريقها وهي تصحو من النوم بخمر ينضح بها زق أدكن في حانة التقى فيها ندامى الليل.

(٥) الورهاء: الشديدة القوية. والأنابيب هنا: الأغصان. يشـبه ريقها مرة أخرى بخمر معتقة قوية التأثير في شاربيها، كما يشبهه بطعم رمان وتفـاح مازالت أغصانهما تحملهما، فهما محتفظان بنضارتهما وطيبهما.

٦ هَبَّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاَّحِى ... هلاَّ انتظرتِ بهذا اللومِ إصْبَاحِى

٧ قاتَلَها اللهُ تَلْحَانى وقد عَلِمَتْ ... أنِّى لِنفسىَ إفسادِى وإصْلاَحِى

٨ إنْ أَشرَبِ الخمرَ أو أُرزَأْ لها ثَمناً ... فلا مَحالةَ يوماً أنني صَاحِى

٩ ولا مَحالةَ مِنْ قبرٍ بمَحْنِيَةٍ ... وكَفَنٍ كَسَرَاةِ الثَّوْرِ وَضَّاحِ

١٠ دَعِ العَجوزَيْنِ لا تسمعْ لِقيلِهِمَا ... واعْمَدْ إلى سيِّدٍ فى الحىِّ جَحْجَاحِ

١١ كانَ الشبابُ يُلَهِّينا ويُعْجِبُنا ... فما وَهَبْنا ولا بِعْنا بأرباحِ

* * *

١٢ إنِّى أَرِقْتُ ولم تأْرَقْ معى صَاحِ ... لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيْدَ النَّوْمِ لَوَّاحِ

(٦) هبت : قامت بالليل وصحت من نومها . ينكر على صاحبته التى تلومه على لهوه أنها أزعجته بلومها فى الليل ، ولم تنتظر عليه حتى يصبح الصباح ، وكأنه لايجد مبررا لهذا التعجل باللوم .

(٧) يقول : فيم اللوم وأنا مسئول عن خيرى وشرى ، عن فسادى وصلاحى ؟

(٨) قوله « أو أرزأ لها ثمنا » يريد ما يصيبه من خسارة فى ماله بما ينفقه على الشراب . يقول : كل شىء إلى نهاية ، وسوف أصحو فى يوم من الأيام مما أنا فيه من سكر وشراب ، ففيم التعجل باللوم ؟ ولم لا تتركنى أستمتع بشبابى قبل أن يولى ؟

(٩) المحنية : منحنى الوادى أو ما انعطف منه . والسراة : الظهر . والوضاح : الأبيض ، وظهر الثور الوحشى فى الصحراء العربية أبيض . يقول : فيم التعجل باللوم ، والموت فى انتظار الجميع مصيرا محتوما لا مفر منه .

(١٠) العجوزان : الأب والأم . والقيل : القول . والجحجاح : السيد الكريم .

(١١) يقول : إن الشباب شغلنا عن المصير المحتوم الذى ينتظرنا ، فعشنا أيامه نلهو ونلعب مفتونين به ، ولم نفكر فيما وراءه . لقد وهبناه حياتنا ، وبعنا له أيامنا ، ولم نرج من وراء ذلك شيئا . لقد ضيعنا كل شىء ، ولم نأخذ فى مقابل ذلك أى شىء .

(١٢) صاح : أى ياصاحبى ، نداء مرخم . والمستكف : المطر المنهمر . واللواح : الذى يلوح البرق فيه ويلمع من خلاله . ينكر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقه مع البرق والمطر ، وكأنه يعجب من صاحبه أن تفلت منه هذه المتعة الرائعة وهذا المنظر الخلاب .

١٣ قد نِمْتَ عنّى وباتَ البرقُ يُسْهِرُنى	كما استضاءَ يهودىٌّ بمِصْباحِ
١٤ يا مَنْ لِبَرْقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُه	فى عارِضٍ كمُضىءِ الصُّبحِ لمّاحِ
١٥ دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُهُ	يكاد يدفَعُه مَنْ قامَ بالرّاحِ
١٦ كأنَّ رَيِّقَه لمّا علا شَطِبًا	أقرابُ أبلقَ يَنْفِى الخيلَ رمّاحِ
١٧ هَبَّتْ جَنوبٌ بأعلاهُ ومالَ به	أعجازُ مُزْنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلّاحِ
١٨ فالْتَجَّ أعلاهُ ثم ارْتَجَّ أسفَلُهُ	وضاقَ ذَرْعًا بحَمْلِ الماءِ مُنْصاحِ
١٩ كأنما بين أعلاهُ وأسفَلِهِ	رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أو ضوءُ مصباحِ

(١٣) يشبه لمعان البرق بمصباح اليهودى يوقده فى الليل ، يقصد بطبيعة الحال أحبار اليهود وهم يتعبدون بالليل فى معابدهم . وهى صورة مألوفة فى الشعر الجاهلى ، وإن تكن فى أكثر مواضعه تتحدث عن رهبان النصارى ، على نحو ما نرى فى معلقة امرىء القيس « أو مصابيح راهب » .

(١٤) العارض : السحاب يعترض الأفق ، أو السحاب يسبقه برق شديد اللمعان . يشبه البرق وهو يومض فى السحاب بنور الصباح يغمر الأفق بالضياء .

(١٥) مسف : قريب من الأرض . وهيدبه : الخيوط التى تتدلى منـه . والراح : جمع راحة وهى الكف . وفى رأى النقاد القدماء أن هذا البيت أحسن ما وصف به السحاب .

(١٦) ريقـه : ما أشرف منـه . وشطب : اسم جبل فى بلاد تميم . والأقراب : جمع قرب (بفتحتين) وهى الخاصرة . والأبلق : الجـواد فى لونه سواد وبياض . والرماح : الشديد العدو . يقول إن البرق يلمع فيبدو ما أضاءه من السحاب أبيض ، ويظل الباقى أسـود ، فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه ، فيبدو بياض أقرابه ، وباقى جسمه أسود .

(١٧) الجنوب : ريح تهب من الجنوب وتأتى عادة بمطر غزير . والمزن : السحاب الأبيض . والدلاح : المحمل بالماء .

(١٨) التج : أحدث صـوتا عاليـا ، وهو الرعد . والمنصاح : الذى انشق بالماء . يقول إن صوت الرعد بدأ يرتفع فى أعالى السحاب ، وأخذت أدانيه تهتز بالماء الذى انشقت عنه ، فأخذ ينهمر فى غزارة .

(١٩) الريط : جمع ريطة وهى الملاءة إذا كانت من قطعة واحدة . يقول إن السحاب انتشر فى السماء كأنه ملاءات منشورة ، والبرق يلمع من خلاله كأنه ضوء مصباح يتوهج .

٢٠ يَنْزَعُ جِلْدَ الحَصَى أجَشُّ مُبْتَرِكٌ ... كأنه فاحِصٌ أو لاعِبٌ دَاحِى

٢١ فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَن بِمَحْفِلِهِ ... والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يمشِي بِقِرْوَاحِ

٢٢ كأنَّ فيه عِشَارا جِلَّةً شُرُفًا ... شُعْثًا لَهَامِيمَ قد هَمَّتْ بإرشاحِ

٢٣ هُدْلًا مَشَافِرُها بُحًّا حَنَاجِرُهَا ... تُزْجِى مَرَابِيعَهَا فى صَحْصَحٍ ضَاحِى

٢٤ فأصبحَ الروضُ والقِيعَانُ مُمْرِعَةً ... مِنْ بينِ مُرْتَفِقٍ منها ومُنْطَاحِ

* * *

(٢٠) أجش : صفة للرعد . والمبترك : المسرع فى عدوه . والفاحص : الذى يفحص التراب أى يقلب وجهه و ينبشه . والداحى : الذى يلعب بالمدحاة ، وهى خشبة يلعب بها صبيان العرب ، يمرون بها على وجه الأرض فتجرف ما أمامها . يقول إن المطر يجرف كل شىء يعترض طريقه على وجه الأرض .

(٢١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . والمحفل : مستقر الماء فى الأرض . والمستكن : المقيم فى بيته . والقرواح : الأرض المستوية . يقول إن المطر غطى الأرض كلها ، فمن كان فى مرتفع من الأرض أدركه الماء كمن كان فى منخفض منها ، ومن كان فى بيته كمن كان فى العراء .

(٢٢) العشار : النوق التى أتى على حملها عشرة أشهر . والجلة : الإبل المسنة . والشرف : الضخمة . واللهاميم : الغزار اللبن . والإرشاح : أن يقوى فصيل الناقة و يشتد ، فيشتد لذلك حنين أمه إليه . يصف الرعد وما يحدثه من أصوات عالية يشبهها بأصوات نوق ضخمة تحن إلى أولادها .

(٢٣) الهدل : المسترخية . والمشافر : الشفاه . وتزجى : تسوق إلى المرعى . والمرابيع : جمع مرباع وهى الناقة تضع أول أولادها ، و يريد الشاعر هنا أولادها . والصحصح : المكان الظاهر المستوى . والضاحى : المكشوف . يصف النوق التى شبه الرعد بأصواتها بأنها تسوق صغارها نحو المرعى .

(٢٤) القيعان : جمع قاع ، وهو الوادى المطمئن من الأرض . والمرتفق : الماء الراكد . والمنطاح : الماء الجارى . يقول إن الأرض اخضرت بعد المطر ، وأصبحت رياضها وأوديتها ممرعة خصبة ، بعضها استقر فيه الماء وركد ، و بعضها تدفق فيه وانساب .

* * *

يوسف خليف

(٣)

مَنْظَرُ صَيْدٍ

* * *

تعد هـذه القصيدة الطويلة التى تبلغ سبعة وخمسين بيتا من أروع ما وصل إلينا من وصف الصيد فى الشعر الجاهلى . وهى تبدأ بمقدمة طللية يتحدث فيهـا أوس عن ديار صاحبته التى تغيرت بعد رحيلها عنها ، ويستعيد ذكريات شـبابه ولهوه ، ولكنه لا يطيل فيهـا لينتقل انتقالا مفاجئا إلى وصف ناقته القوية التى حملته فى رحلة إلى أعماق الصحراء ، ويطيل فى وصفها إطالةً تشغَلُ من القصيدة ستة عشر بيتا ، ثم يتخذ من تشبيهها بحمار وحشىّ جِسْرًا يعبر عليه من وصفها إلى وصفه ، ليخرج بعد ذلك إلى وصفِ منظرٍ من مناظر الصيد التى تتردد كثيرا فى الشعر الجاهلى ، بين الصيادين الفقراء الخارجين للصيد لكسب رزقهم وردّ غائلة الجوع عنهم وعن أبنائهم الجياع المنتظرين عودتهم ، وبين قطعان الحُمُرِ الوحشية المنتشرة فى أعماق الصحراء ، وهى تسعى فى لهيبها المحرق بحثا عن موارد الميـاه لتطفئ فيها ومنها ظمأها . ويطيل الشاعر فى وصف هـذا المنظر إطالة ملحوظة تمتد واحدا وثلاثين بيتا حتى نهاية القصيدة .

لقد ظهر الحمار فى منطقة صحراوية يسوق أنثاه ويدفعها أمامه بحثا عن مورد من موارد المياه ، وأخذ يمد أذنيه وبصره يستطلع المنطقة من حوله ، ثم تذكر عينا غزيرة المـاء يعرفها من قبـل ، فأسرع إليها مع أنثاه . وهناك كان صياد

فقير هزيل أعجفُ ضامر يتربص به فى مخبأ أعده لنفسه ليتوارى فيـه . ويطيل الشاعر فى وصف الصياد كما أطال من قبـل فى وصف الحمار . وينتظر الصياد الفرصة التى يظنها مواتيةً له حين يَرِدُ الحمار مع أتناه المـاء غافِلَيْنِ — فى فرحتهما بالمـاء البارد بعد رحلة طويلة شاقة فى هجير الصحراء — عن الأخطار التى تتربص بهما . وينتهز الصياد هذه الغفلة ، فيطلق سهمه نحو الحمار ، ولكن السهم يخطئ مقاتله ، فينجو ويفـرُّ هو وأتناه . حتى إذا ما وصل إلى مأمنٍ يطمئن إليه عادت إليه فرحته ، وعاود حياته الهادئة المطمئنة مرة أخرى .

والقصـيدة تمثـل أسلوب أَوْسٍ وصنعته الفنيـة ، وحرصه على تجويدها ، والوقوف الطويل أمام صُوَره يفصِّل فيها ، ويوفِّيها حقها ، ويستقصى جزئياتها وتفاصيلها الدقيقة ، فهو أحد الروّاد المبكرين لمدرسة الصنعة الجاهلية الذين أرسوا أصولها ، وأصّلوا تقاليدها الفنية . وهى — ككل الشعر الجاهلى فى دوائره البدوية الصحراوية — تتمـيز بغرابة لغوية ، وحُوشِيّة لفظية ، تتفقان مع بداوة الموضوع ، وبداوة معجمه اللغوى ومعجمه التصويرى أيضا .

* * *

١ تَنَكَّرَ بَعْدِى من أميمةَ صـائفُ فبِرْكٌ فأعلى تَوْلَبٍ فالمَخَـالِفُ
٢ فَقَوٌ فرَهْبَى فالسَّلِيلُ فعـاذِبٌ مَطافِيلُ عُوذِ الوحشِ فيه عَوَاطِفُ

(١) يبدأ أوس قصيدته بهذه المقدمة الطللية التى يتحدث فيها عن أطلال صاحبته أميمـة . ومعنى تنكر تغير . والأسماء التى وردت فى البيت كلها أسماء مواضع تحدد مكان هذه الأطلال ، وكلها فى ديار تميم قبيلة الشاعر .

(٢) العوذ : الحديثات النتـاج من الظباء . والمطافيل : التى تتبعها أطفالها . والعواطـف : الحانيات على أطفالهن . والأسماء الواردة فى الشطر الأول كلها تكمل تحديد مكان الأطلال .

٣ فبطنُ السُّلَىِّ فالسِّخالُ تَعَذَّرتْ ‍ ‍ فَمَعْقُلَةٌ إلى مُطَار فواحِفُ
٤ كأنَّ جديدَ الدار يُبليكَ عنهمُ ‍ ‍ تَقِيُّ اليمينِ بَعْدَ عهدكَ حالِفُ
٥ بها العِينُ والآرامُ تَرْعَى سِخالُها ‍ ‍ فَطِيمٌ ودانٍ للفِطَام وناصِفُ
٦ وقد سألتْ عنّي الوشاةُ فخُبِّرتْ ‍ ‍ وقد نُشِرَتْ منها لدىَّ صحائفُ
٧ كعهدِكِ لاعهدُ الشبابِ يُضِلُّني ‍ ‍ ولا هَرِمٌ مِمَّنْ تَوَجَّهَ دالِفُ
٨ وقد أنتحِى للجهل يوماً ، وتنتحى ‍ ‍ ظعائنُ لِهَوِي وُدُّهنَّ مُسَاعِفُ
٩ نواعِمُ ما يضحكنَ إلا تبسُّماً ‍ ‍ إلى اللهو قد مالت بهنَّ السَّوالفُ

* * *

---

(٣) تعذرت : درست وتغيرت . والأسماء المذكورة فى البيت أسماء مواضع يواصل الشاعر بها تحديد مكان الأطلال تحديدا دقيقا .

(٤) جديد الأرض : ما كان على فطرته . و يبليك عنهم : أى يخبرك عنهم . وتق اليمين : اليمين الصادقة التى لاحنث فيها . يقول كأن جديد الأرض يحلف لك إنه ماحل بهذه الدار أحد بعد عهدك بها .

(٥) العين : البقر الوحشى . والآرام : الظباء . والسخال : أولادها الصغار . والناصف منها : الذى بين الفطام والدنو منه .

(٦) الضمير فى « منها » يعود على الوشاة . ونشرت الصحف : أى أعلنت . يقول إن الوشاة سألوا عنى ، فأخبروهم خبرى ، وعندى عن كل ما حاولوا إخفاءه صحف منشرة تكشف عن وشاياتهم وكيدهم .

(٧) الدالف : الذى يمشى متقارب الخطوات كما يمشى المقيد . وممن توجه : يريد ممن تقدمت به السن ، يقال توجه الشيخ إذا ولى وأدبر وكبر ، وتوجه العمر إذا تولى . يقول لصاحبته : إنى كعهدك بى ، لا الشباب يضلنى ، ولا الكبر يقعدنى و يضعفنى .

(٨) أنتحى للجهل : أميل ناحيته . ومساعف : أى يسعفنى و يواتينى ولايتأخرعنى . يتذكر الشاعر أيام شبابه ولهوه مع صاحبات له يبادلنه حبا بحب ومودة بمودة .

(٩) السوالف : جمع سالفة وهى صفحة العنق من تحت معلق القرط إلى عظام الترقوة . وقوله « إلى اللهو » متعلق بالفعل « مالت » . واللهو هنا يراد به الأنس إلى الحديث والإعجاب به ، من لهت المرأة إلى حديثه إذا أنست به وأعجبها . وهنا تنتهى المقدمة الطللية ليبدأ الشاعر بعدها حديث الناقة والرحلة والصيد .

١٠ وأدماءَ مثلِ الفَحْلِ يوما عَرَضْتُها لرحلي وفيها جُرأةٌ وتَقَاذُفُ
١١ وعَنْسٍ أَمُونٍ قد تعلَّلتُ مَتْنَها على صِفَةٍ أو لم يَصِفْ لىَ واصفُ
١٢ كُمَيتٍ عَصَاها النَّقْرُ صادقةِ السُّرى إذا قيلَ للحيرانِ : أينَ تُخالِف ؟
١٣ عَلاةٍ كَنَازِ اللحمِ ، ما بين خُفِّها وبين مَقيلِ الرحلِ هَوْلٌ نفانفُ
١٤ عَلاةٍ من النُّوق المَرَاسيلِ وَهْمَةٍ نَجَاةٍ عليها كَبْرةٌ فهى شارفُ
١٥ جُماليَّةٍ ، للرَّحلِ فيها مُقَدَّمٌ ، أَمُونٍ ، ومُلْقٍ للزميل ورادفُ
١٦ يُشَيِّعها فى كلِّ هَضْبٍ ورَمْلةٍ قوائمُ عُوجٌ مُجْمَرَاتٌ مَقَاذِفُ

(١٠) الأدماء : الناقة البيضاء . وقوله « مثل الفحل » يريد أنها قوية صلبة ضخمة . وعرضتها لرحلي أى وضعته عليها . والتقاذف : أن تندفع الناقة فى سيرها فترمى بنفسها أمام الإبل لتسبقها .

(١١) العنس : الناقة القوية الصلبة . والأمون : الناقة الوثيقة الخلق التى يؤمن عثارها . وتعللت متنها : أى استخرجت أقصى ما عندها من السرعة .

(١٢) الكميت : الحمراء التى يخالط حمرتها سواد . وعصاها النقر : أى أنها لا تحتاج لحثها على السير إلى الضرب وإنما يكفى نقرها . صادقة السرى : مجدة فى سراها تبذل فيه كل جهدها ، « أين تخالف » أى إلى أى ناحية تتجه . يقول إن هذه الناقة تعرف وجهتها إذا تحير السارى فى الصحراء فلم يهتد إلى وجهته .

(١٣) العلاة : العالية المشرفة . وكناز اللحم : ممتلئة . ومقيل الرحل : موضعه على ظهرها . والنفانف : جمع نفنف وهو كل مهوى بين جبلين . والصورة تأكيد لارتفاع ناقته ، فما بين أخفافها وظهرها مسافات هائلة .

(١٤) المراسيل : السهلة السير ، مفردها مرسال . والوهمة : الضخمة القوية . والنجاة : السريعة . والشارف : المسنة . يقول إنها صغيرة السن ، ولكنها لضخامتها تبدو كأنها ناقة مسنة .

(١٥) جمالية : تشبه الجمل فى قوتها وصلابتها وضخامتها . والزميل : الرديف على الناقة الذى يركب خلف راكبها . والرادف : التابع . يصفها بأنها طويلة الظهر .

(١٦) يشيعها : يعينها على السير . والقوائم : الأرجل ، وقوائم الإبل توصف عادة بأنها عوج ، لأنها هكذا خلقت . والمجمرات : التى صلبت أخفافها واشتدت واجتمعت . والمقاذف : جمع مقذف ومقذاف وهو مجداف السفينة . يريد أنها سريعة فى حركتها منتظمة الضرب فى الصحراء ، يستوى فى ذلك سيرها فوق الهضاب الوعرة أو فى الرمال السهلة .

١٧ تَـوائِمُ أُلَّافٌ تَوَالٍ لواحـــقٌ . سَـواءٍ لَوَاهٍ مُرْبِذَاتٌ خَوَانِفُ
١٨ يَزِلُّ قُتُـودُ الرَّحلِ عن دَأَياتِها كما زَلَّ عن رأسِ الشَّجِيجِ المحَارِفُ
١٩ إذا ما رِكَابُ القوم زَيَّلَ بينَهَا سُرَى الليلِ منها مُسْتَكِينٌ وصارِفُ
٢٠ علا رأسَها بعد الهِباب وسامحتْ كمحلوج قُطنٍ ترتميـهِ النَّوادِفُ
٢١ وأنحتْ كما أنحَى المَحَالَةَ ماتحٌ على البئرِ أضحى حوضُه وهو ناشِفُ
٢٢ يُخَالِطُ منها لِينَها عَجْرَفِيَّـةٌ إذا لم يكن فى المُقْرِفات عَجَارِفُ

(١٧) توائم ألاف : أى كأن أقدامها توائم متآلفة تنهض معا وتنزل معا : وتوال لواحق : أى تتوالى وتتلاحق فى انتظام وسرعة . وسواه لواه أى لينـة السير خفيفة الحركة لا تتعب راكبها . والمربذات : الخفيفة فى المشى . والخوانف : جمع خنوف وهى التى تميل برأسها نحو راكبها لشدة نشاطها .

(١٨) القتود : جمع قتد وهو خشب الرحل . والدأيات : الفقرات التى توجد بين كتفى الناقة . والشجيج : الذى شج رأسه . والمحارف : جمع محراف وهو المرود الذى تختبر به الجراحات وتدبر به .

(١٩) زيل بينها : فرق بينها . والصارف : الذى يصر على أنيابه ، من الصريف وهو صوت صرير الأنياب ، ويقول اللغويون إن صريف الناقة من التعب والكلال ، وصريف الجمل من الفحولة والنشاط . والمستكين : الصامت الذى لا يحدث صوتا ، عكس الصارف .

(٢٠) الهباب : النشاط . وسامحت : أسرعت . والنوادف : الذين يضربون القطن بالمندفة لتنجيده . والكاف فى « كمحلوج » فاعل « علا » . يصف الزبد الذى يكسو رأس الناقة عند رغائها ، ويشبهه بمحلوج القطن وهو يتطاير فى الهواء عند ندفه .

(٢١) أنحت : اعتمدت فى سيرها على أيسرها . والمحالة : بكرة الدلو . والماتح : الذى يستخرج ماء البئر فيجذب رشاء الدلو فتصوت البكرة .

(٢٢) العجرفية فى سير الإبل : الاندفاع والتهور . والمقرفات : جمع مقرف ، وهو الذى أمه عربية وأبوه غير عربى ، عكس الهجين فهو الذى أمه أجنبية وأبوه عربى . يصف سيرها بأنه مزيج من سير لين سهل وسير متهور مندفع ، وأنها تحسن هذين الضربين من السير ، لأنها ناقة أصيلة عربية الأب والأم ، وليست كالإبل التى ضربت فى عروقها دماء مختلطة .

٢٣ كأنَّ وَنِيَّ خانتْ به مِنْ نِظامِها مَعاقِدُ فارْفَضَّتْ بِهِنَّ الطوائِفُ
٢٤ يُنَفِّرُ طيرَ الماءِ منها صَرِيفُها صريفُ مَحالٍ أَقْلَقَتْهُ الخَطاطِفُ

* * *

٢٥ كأني كسوتُ الرحلَ أَحقبَ قارِبا له بجُنُوبِ الشَّيِّطَيْنِ مَسَاوِفُ
٢٦ يُقلِّب قَيْدُودًا كأن سَرَاتَها صَفًا مُدْهُنٍ قد زَحْلَفَتْه الزَّحالِفُ
٢٧ يقلِّب حقباءَ العَجِيزة سَمْحَجًا بها نَدَبٌ مِن زَرِّهِ ومَنَاسِفُ

(٢٣) الونى : اللؤلؤ ، جمع ونية . والمعاقد : العقود . وارفضت : تناثرت وتفرقت . والطوائف : القطع التي تفرقت إليها العقود . يشبه اندفاع ناقته وسرعتها بحبات لؤلؤ انقطع عقده فانفرطت تتدحرج مسرعة .

(٢٤) الصريف : صوت صرير أنياب الناقة . والمحال : جمع محالة وهي بكرة الدلو . والخطاطف كالخطاطيف جمع خطاف ، وهو الحديدة المعقوفة التي تعقد بها البكرة . يقول ان صريفها الذي يشبه صريف بكرات الدلاء حين تجذبها الخطاطيف ينفر الطير التي ترد الماء لإرواء ظمئها فتفر خائفة مذعورة . وهنا ينتهي وصف الناقة ليبدأ الشاعر وصف منظر من مناظر الصيد ، متخذا من تشبيه ناقته بالحمار الوحش ، جسرا يعبر عليه إلى وصف هذا المنظر .

(٢٥) الأحقب : الحمار الوحشي في بطنه بياض . والقارب : الذي يسرع نحو الماء ليرده . والجنوب : الجوانب . والشيطان : اسم مكان . ومساوف : مواضع يشمها ، من السوف وهو الشم . يشبه ناقته بهذا الحمار الوحشي .

(٢٦) القيدود : الأتان الطويلة . ويقلبها : يوجهها يمينا وشمالا كيف يشاء . والسراة : الظهر . والمدهن : نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . والصفا : الصخر الأملس . والزحالف : جمع زحلوفة وهي المكان المنحدر الأملس الذي يساعد على التزحلف وهو التزحلق . يقول إن هذا المكان المنحدر الأملس زاد من ملاسته كثرة التزحلق فوقه .

(٢٧) حقباء : أي بيضاء . والسمحج : الطويلة . والندب : جمع ندبة وهي أثر الجرح الباقي على الجلد . والزر : العض . والمناسف : جمع منسف — بكسر الميم وفتح السين أو بفتح الميم وكسر السين — وهو فم الحمار ، ويريد بها هنا آثار العض . يصور مطاردة هذا الحمار لأتانه .

٢٨ وأَخلَفَـه مِنْ كلِّ وَقْطٍ ومُدْهُنٍ نِطافٌ فمشروبٌ يَبَابٌ وناشِفُ
٢٩ وحَــلأَّها حتى إذا هي أَحْنَقَتْ وأشرفَ فوقَ الحالبَيْنِ الشَّراسِفُ
٣٠ وخَبَّ سَــفَى قُرْيانِه وتَوَقَّدَتْ عليـه مِنَ الصَّمَّانتَيْنِ الأَصالِفُ
٣١ فأضحَى بقَــارَاتِ السَّتَارِ كأنه رَبِيئةُ جيشٍ فهو ظمآنُ خائفُ
٣٢ يقول له الرَّاءُونَ هَذَاكَ راكِبٌ يُؤَبِّنُ شخصا فوقَ عَلْيَاءَ واقفُ
٣٣ إذا استَقْبلَتْهُ الشمسُ صَدَّ بوَجْهِه كما صَدَّ عن نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ

(٢٨) الوقط : حفرة فى الجبل يجتمع فيها ماء المطر . والمدهن : مر شرحه فى البيت ٢٦ . والنطاف : جمع نطفة وهى الماء القليل . والناشف : الذى جف ماؤه . وأخلفه : أى أخلف ظنه . يقول ان هذا الحمار كان يبحث عن الماء فأخلفت ظنه تلك المياه القليلة التى وجدها فى بعض المستنقعات ، وبعضها لم تبق فيه الا بقية ماء بعد شرب من سبقه إليه ، وبعضها جف ماؤه .

(٢٩) حلأها : طردها . وأحنقت : ضمرت . وأشرف : ظهر وبرز . والشراسف : أطراف الأضلاع . والتعبير كناية عن الضمور والهزال .

(٣٠) السفى : كل شجر له شوك ، الواحدة سفاة . والقريان : مسايل الماء ، جمع قرى (بفتح فكسر فتشديد) . وخب : ارتفع وطال . والصمانتان : اسم موضع . والأصالف : جمع أصلف ، وهى الأرض الصلبة الحجرية التى لا تنبت . يقول إن الوقت فى الصيف ، والمكان فى صحراء الصمان ، وقد توقد الحر ، وطالت أشواك الوديان الجافة .

(٣١) القارات : جمع قارة وهى الجبل الصغير . والستار : اسم موضع . والربيئة : طليعة الجيش التى تتقدمه لتستطلع الأخبار له .

(٣٢) التأبين هنا تتبع الأثر فى الأرض ، ومنه تأبين الميت لأنه تتبع لآثاره فى الدنيا . والعلياء : المكان المرتفع . يقول إن هذا الحمار ارتقى مرتفعات هذه المنطقة وهو ظمآن خائف ، وأخذ يقلب نظره من حوله بحثا عن مورد ماء ، فتراءى كأنه طليعة جيش ترقب الطـريق ، أو واقف فوق مرتفع من الأرض يتتبع ببصره آثار شخص فوق الرمال .

(٣٣) التهويل : لون من الطقوس الوثنيــة الجاهلية كان سدنة بيوت الأصنام يقومون بها إذا أرادوا أن يستحلفوا شخصا ، فيوقدون نارا ليحلف عليها ، ويطرحون فيهـا من حيث لا يشعر ملحا وكبريتا فتقعقع وتفرقع ، يهولون بذلك عليـه ، فإن كان بريئا حلف ، وإن كان مريبـا تردد وتراجع . والمهول هو الكاهن الذى يقوم بهذا العمل .

٣٤ تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ غُمَازَةَ مَاؤُها   لَه حَبَبٌ تَسْتَنُّ فيه الزَّخارِفُ

٣٥ له ثَأَدٌ يَهْتَزُّ جَعْدٌ كأنه   مُخالِطَ أرجاءِ العيونِ القَراطِفُ

٣٦ فأَوْرَدَها التقريبُ والشَّدُّ مَنْهَلاً   قَطاهُ مُعِيدٌ كَرَّةَ الوِرْدِ عاطِفُ

٣٧ فلاقَى عليها مِنْ صُباحَ مُدَمِّرا   لِنامُوسِه مِنَ الصَّفيحِ سَقائِفُ

٣٨ صَدٍ غائرُ العينينِ شَقَّقَ لَحْمَهُ   سَمائمُ قَيْظٍ فَهْوَ أسودُ شاسِفُ

٣٩ أَزَبُّ ظهورِ الساعدَيْنِ، عِظامُه   على قَدَرٍ، شَثْنُ البنانِ، خُنادِفُ

---

(٣٤) غمازة : بئر معروفة فى ديار تميم ، أو هى عين ماء فى منطقة هجر . الحبب : فقاقيع الماء التى تتصاعد فوق سطحه . وتستن : تتحرك وتضطرب . والزخارف : طرائق الماء كأنها زخارف ونقوش تزينه ، وهى أيضا حشرات صغيرة ذوات أربع أرجل تشبه الذباب تطير فوق الماء ، وكلا المعنيين يصلح للصورة التى يرسمها الشاعر لهذا الماء .

(٣٥) الثأد : التراب الندى ، وهو أيضا الجعد . والقراطف : جمع قرطف (بفتح القاف والطاء) ، وهى القطيفة المخملة . ومخالط أرجاء العيون حال ، والقراطف خبر كأن .

(٣٦) التقريب : ضرب من عدو الخيل والحمر ، وهو رفع اليدين معا ووضعهما معا . والشد : العدو السريع ، وهما منصوبان على نزع الخافض أو على الحالية ، أى أوردها بالتقريب والشد ، أو أوردها تقريبا وشدا . والقطا : طائر يكثر فى الصحراء حول عيون الماء ، و يتردد ذكره كثيرا فى الشعر القديم . يصف الشاعر هذا المنهل بأن طير القطا تتردد عليه للشرب ، وتعاود الرجوع إليه مرة بعد مرة . يريد أنه منهل لا ينضب ماؤه ، فهو مورد دائم للقطا .

(٣٧) صباح : اسم قبيلة كانت تنزل فى هذه المنطقة . ومدمرا : يريد صيادا مدمرا يدمر ما يرميه بسهامه من الصيد ، والناموس : البيت الذى يعده الصياد ليختبىء فيه . والصفيح : الحجارة الرقاق العراض يبنى بها الصياد ناموسة . والسقائف . جمع سقيفة وهى كل خشبة عريضة أو حجر يسقف به البيت .

(٣٨) الصدى : العطشان . والسمائم : الرياح الحارة ، جمع سموم . والقيظ : صميم الصيف . والشاسف : الضامر اليابس . يبدأ من هنا وصف الصياد ، والصور التى يرسمها هنا تتردد كثيرا فى الشعر العربى فى وصف الصيادين الذين يحترفون الصيد ، ويتخذون منه وسيلة للرزق ورد غائلة الجوع عنهم وعن أولادهم الفقراء الجياع الذين ينتظرون عودتهم بالطعام إليهم .

(٣٩) الأزب : الكثير الشعر . وقوله « عظامه على قدر » يريد أنه نحيل وليس ضخما . وشثن البنان : خشن الأصابع غليظها . والخنادف : الجافى القصير المجتمع الجسم .

٤٠ أخو قُتَرَاتٍ قد تيقّن أنه إذا لم يُصِبْ لحمًا من الوحش خاسفُ

٤١ مُعَاوِدُ قَتْلِ الهاديات ، شِوَاؤه من اللحم قُصْرَى بادنٍ وطَفَاطِفُ

٤٢ قَصِىُّ مَبِيتِ الليل للصيد مُطْعَمٌ لأسْهُمِهِ غَارٍ وبَارٍ وراصِفُ

٤٣ فيَسَّرَ سهمًا راشَهُ بمَنَاكِب ظُهَارٍ لُؤَامٍ فهو أعجفُ شارِفُ

٤٤ على ضَالَةٍ فَرْعٍ كأنَّ نَذِيرها إذا لم تُخَفِّضْهُ عن الوَحْشِ عازِفُ

٤٥ فأمهَــلَه حتى إذا أَنْ كأنَّهُ مُعَاطِى يَدٍ من جَمَّةِ الماءِ غارِفُ

(٤٠) القترات : جمع قترة (بضم فسكون) وهى بيت الصياد . والخاسف : المهزول الجائع .

(٤١) الهاديات : السابقات من الوحش ، يريد بهـا هنا الأتن الوحشية . والقصرى ، آخر الأضلاع مما يلى البطن ، وهى عادة تكون لينـة طرية . والبادن ، السمين . والطفاطف : أطراف الأضلاع ، أو هى لحم البطن الرخص الطرى ، مفردها طفطفة (بكسر الطاءين) .

(٤٢) قصى مبيت الليل : يريد أنه يبيت بعيدا عن أهله من أجل الصيد . والغارى : الذى يطلى سهامه بالغـراء . والبارى : الذى يبرى السهام . والراصف : الذى يشد الجـلد والعصب على صدور السهام . يصف الصياد بأنه مشغول بإعداد سهامه للصيد .

(٤٣) راشه : ركب فيـه الريش الذى يتيح له الانطلاق . والمناكب : أربع ريشات تثبت فى جوانب السهم . والظهار : الظاهرة الأطراف . واللؤام : الملتئمة المتداخلة الأطراف . والشارف : السهم الدقيق الطويل . يصف فى هذا البيت وفى البيت السابق عملية إعداد السهام .

(٤٤) الضال : شجر السدر تعمل منه السهام والقسى ، ويريد بالضالة هنا القوس . ونذيرها : صوتها . يشبه صوت القوس حين يرمى بها السهام بالعزيف .

(٤٥) الضمير الظاهر فى « أمهـله » يعود على الحمار الوحشى . وأن : اختلف اللغويون فى معناها ، وربما كان أوضح الأقوال أنها بمعنى « اطمأن » ، وكأنها اختصار لها ، وهو قول أبى عبيدة ، ويرى الأصمعى أنهـا بمعنى « كان » . وفى رواية أخرى للبيت « حتى إذا ما كأنه » ، ويرى ابن السكيت أنها على تقدير فعل محذوف بعدها تقديره « حتى إذا ما ورد » ، أو « حتى إذا ما كان » . وقوله « معاطى يد » يريد به من مد يده ليتناول غرفة من المـاء . يقول إن الصياد أمهل الحمار الوحشى حتى ورد المـاء وبدا كأنه شخص يمد يده لينال منه غرفة يروى بها ظمأه .

٤٦ فأرسَلَهُ مُسْتَيْقِنَ الظنِّ أنه ... مُخَالِطُ ما تحتَ الشَّراسِيفِ جَائِفُ

٤٧ فَمَرَّ النَّضِيُّ للذراعِ ونَحْرِهِ ... ولِلْحَيْنِ أحيانا عن النفسِ صَارِفُ

٤٨ فَعَضَّ بإبهامِ اليمينِ ندامةً ... ولَهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وَهْوَ لاهِفُ

٤٩ وجَالَ ولم يَعْكِمْ وشَيَّعَ إلْفَهُ ... بِمُنْقَطَعِ الغَضْرَاءِ شَدٌّ مُؤالِفُ

٥٠ تُواهِقُ رِجْلاها يَدَيْهِ ، ورَأْسُهُ ... لها قَتَبٌ فوقَ الحَقِيبَةِ رادِفُ

٥١ يُصَرِّفُ للأصواتِ والريحِ هادِيًا ... تَمِيمَ النَّضِيِّ كَدَّحَتْهُ المَنَاسِفُ

(٤٦) الضمير الظاهر فى «أرسله» يعود على السهم . والظن هنا بمعنى اليقين . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن . والجائف : الذى يصيب الجوف وينفذ فيه .

(٤٧) النضى : السهم . والحين : الموت . يقول إن السهم مر إلى جانب ذراع الحمار ونحره ، فلم يصبه ونجا من الموت .

(٤٨) عض إبهام يمينه لأن القوس فى يساره . ولهف سرا أمه : أى قال فى سره : يالهف أماه ! تحسرا على إفلات الصيد منه .

(٤٩) لم يعكم : لم ينتظر ، والعكم : الانتظار . وإلفه : أتانه . وشيعها : أعانها على الجرى . والغضراء : الأرض الخصبة الخضراء . وشد مؤالف : أى جرى يجمع بينهما . يقول إن الحمار فر هاربا هو وأتانه التى أعانها على الجرى جريها معه .

(٥٠) تواهق : توافق وتجارى . والقتب : خشب الرحل . والحقيبة : الرفادة التى تشد فى مؤخر الرحل ، وهى قطعة تحشى تحته ليستقر فى مكانه ، ويريد بها هنا مؤخرة الأتان . والرادف : الذى يركب خلف الراكب . يقول إنها انطلقت أمامه وهو يتبعها ، يداه تجاريان رجليها ، ورأسه فوق مؤخرتها .

(٥١) يصرف : يحول من جهة إلى جهة . والهادى : العنق . والتميم : التشديد . والنضى هنا معناه المظلم . يصف عنق الحمار بأنه شديد العظام . وكدحته : خدشته . والمناسف : مر شرحه فى البيت ٢٧ . يصف ما أصاب هذا الحمار من عض الحمر الأخرى فى المنافسة على المرعى أو على الإناث .

٥٢ ورأساً كَدَنِّ التَّجْرِ جَأْبًا كأنما رَمَى حاجِبَيْـهِ بالحجـارة قاذفُ

٥٣ كلا مِنْخَرَيْه سائفا أو مُعَشِّرا بما انْقَضَّ مِنْ ماءِ الخياشيم راعِفُ

* * *

(٥٢) الدن : خابية الخمر . والتجر : التجار ، جمع تاجر . والجأب : الغليظ . يصف ضخامة رأس هذا الحمار ، وما أصابه من جروح بسبب عض الحمر الأخرى له .

(٥٣) سائفا : من السوف وهو الشم . ومعشرا : من التعشير وهو النهيق ، يقال عشر الحمار إذا تابع النهيق عشر نهقات ، ووالى بين عشر ترجيعات فى نهيقه . والراعف : السائل . يصور نجاة الحمار وفرحته بها وانطلاقه بعدها .

* * *

يوسف خليف

عنــترة بن شــداد

هو عنترة بن شداد العبسى، وقيل : ابن عمرو بن شداد، وقيل، ابن معاوية عَلَى رواية صاحب الأغانى ، كانت أُمه أَمةً حبشية اسمهـا زبيبة تملّكها شـداد وأنجبَتْ منـه عنترة . لُقِّب بعنترة « الفَلْحاء » لتشقُّقٍ فى شفته ، وكنى « بأبى المغلّس » للدلالة على شجاعته وجرأته ، كما كنى « بأبى المغايش » « وأبى أَوْفَى» ولكن هاتين الكُنْيتين لم تشيعا كثيرا . عاش عنترة غير مُنْسَّب لأب حتى بانَ بأسُه، وكان من عادة العرب ألا يُلْحِقُوا أولاء الإماء بنسبهم إلا إذا بان لهم فضل يُؤْثَر، وهو ما تحقق لعنترة كما ورد عند أبى الفرج حين قال « وكان سبب ادعاء أبى عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغارت على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم، وعنترة يومئذ فيهم، فقال له أبوه : كُرّ . فقال : العبد لا يحسنُ الكرّ ، إنّمـا يحُسن الحِلَابَ والصَّر . فقال: كرّ وأنت حُرّ، فكرَّ، وهـو يقول : « أنا الهجينُ عنترة » . وقاتل يومئذ قتالا حسنا ، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه .

عاصر عنـترة فيمن عاصر الحُطَيئـة وعمرو بن معد يكرب ، وكلاهما أدرك الإسلام، وقد اختفى اسمه بعد حرب داحس والغبراء، الأمر الذى جعل صاحب « كشف الظنون » يذكر أن وفاته كانت سنة ٦١١ م .

عرف الناس عنترة شاعرا وفارسا حتى أصبح اسمه مادة لسيرة شعبية ذاعت شهرتها ، وربمـا ساعدت بطولتـه ــ بحكم ظروفه الخـاصة ــ على ذيوع تلك

السيرة ، فلم ينته الموقف الاجتماعى عند عنترة إلى كونه شاعرا مُحِبًّا فحسب ، بل كثرت أمامه العراقيل فى سبيل ظفره بمحبوبته عبلة ، وكان أشدَّ منهـا وقعا على نفسه تلك العراقيل الاجتماعية التى حالت دون وصوله إلى طبقة الأحرار من أبناء القبائل بسبب سواد لونه .

وهكذا تبلورت سيرة عنترة حول شاعر فارس ، وبطل حقق لنفسه السيادة بعد عبوديته ، وكانت فروسيته هى الوسيلة الناجعة فى هـذا الانتقال الطبقى من ناحية ، وفى فوزه بمحبوبته « عبلة » ابنة عمه مالك من ناحية أخرى .

وقد تنوعت ملامح حيـاته بين أطوارها المختلفـة ، فغلبت عليهـا العبودية وسادت فى دور النشأة ، وكان عليه كَعَبْـدٍ أن يهتم بأمور الخدمة ورعى المـاشية مثله فى ذلك مثل غيره من طبقة العبيد . حتى إذا كانت حروب داحس والغبراء ظهر أمامه الميـدان الفسيح الذى يظهر فيه فروسيته وشجاعته خاصة بعد أن ذاع اسمه وأصبح واحدا من فرسان القبيلة المعدودين الذين يدافعون عن قبائلهم وعن وجودهم وكيانهم الخاص فى نفس الوقت . وقد اختلفت الروايات حول زواج عنترة من عبلة ، فمن قائل أنه تزوّجها بدليل الخبر الذى أورده السيوطى فى قول عم عنـترة له « إنَّك ابنُ أخى وقد زوجتك ابنتى عبلة »(1) ، ومن قائل أن هـذا الزواج لم يتم ربمـا لأن الفترة الزمنية قد طالت وطال تعلُّق عنترة بها قبل أن ينال حريته ، فربمـا كان تأخره فى نيل حريته سبيلا للآخرين لكى يطالب بعضهم يَدَها أو يتزوج منها .

والثابت فى سيرة عنترة كما يؤكدها شعره قدم علاقته بعبلة واستمرار تعلقه بها ، واتخاذه من فروسيته وسيلة إليها ووسيلة الى تجاوز طبقة العبيد فى آنٍ واحد .

* * *

عبد الله التطاوى

(1) شرح شواهد المغنى ١٦٥ .

(١)

مختارات من المعلقة

هـل غادرَ الشعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ؟ أم هل عرَفْتَ الدار بعد تَوَهُّمِ ؟

* * *

١ أَثْنِى علىَّ بما علمتِ فإننى سهـلٌ مُخَالقتى إذا لم أُظْـلَمَ

٢ فإذا ظُلمتُ فإنَّ ظلمى باسلٌ مرٌّ مذاقتُـه كطَعم العلقَـم

٣ ولقد شربتُ من المُدامة بعد ما ركدَ الهَواجِر بالمشُوف المُعْلَم

٤ بزجاجة صـفراء ذاتِ أسرَّةٍ قُرِنت بأزْهَرَ فى الشمَال مُفَدَّم

٥ فإذا شَربتُ فإننى مُسْتَهْلِكٌ مالى ، وعِرْضِى وافِرٌ لم يُكْلَم

٦ وإذا صَحَوت فما أقصِّرعن نَدى وكما عَلِمْتِ شمائِلى وتَكرُّمى

---

(١) المخالقة : هى المفاعلة من الخـلق ، سهل مخالقتى : أخلاقى وعريكتى لينة . الثناء : هو ذكر الصفات سواء أكانت مدحا أم ذما ، ثم عمم المدح كرادف لذكر الصفات .

(٢) الباسل : الكريه . العلقم : الحنظل ، ويقال لكل مر علقم .

(٣) المدامة : الخمر . ركود الهواجر : سكون الشمس وقت الظهيرة حين يصير كل شىء ظله . المشوف : اختلفت فيه الآراء فقيل إنه الدينار أو الدرهم لأنه مشوف أى مجلو ، ولكن تفسيره هنا بالكأس أرجح . المعلم هو ما عليه كتابة .

(٤) ذات اسرة : ذات خطوط . الأزهر : ابريق من فضة أو رصاص . مفدم : عليه مصفاة يصفى بها .

(٥) مستهلك : منفق . العرض : هو موضع المدح والذم من الرجل . لم يكلم : لم يجرح .

(٦) صحوت : أفقت من سـكرى . الندى : السخاء . الشمائل : الخصال وهى الأخلاق والصفات .

٧ وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجـدَّلا | تمكو فريصتُه كشِدْقِ الأعْلَمَ
٨ سبقَتْ يداىَ لهُ بعاجِلِ ضَرْبةٍ | ورشَاشِ نافذةٍ كلَونِ العَنْـدم
٩ هلاَّ سألْتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك | إنْ كُنتِ جاهلَةً بما لم تَعْلَمِى
١٠ إذْ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ | نهـدٍ ، تَعَاورُهُ الكُمَاةُ مُكلَم
١١ طورا يُجـرَّدُ للطِّعانِ ، وتارةً | يأوى إلى حَصِدِ القِسِىِّ عَرَمْرَم
١٢ يُخبرْكِ من شَهِدَ الوقيعَةَ أننى | أغْشَى الوغَى وأعفُّ عندَ المَغْنَمِ
١٣ ومُدجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَه | لا مُمعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِمِ

(٧) الحليل : الزوج ، ويقال للمرأة حليلة . الغانية : التى استغنت بزوجها ، أو هى المقيمة بمنزلها أو المخدرة ، وفسرت كذلك بأنها الشابة . مجدلا : صريعا . تمكو : تصفر . الفريصة : الموضع الذى يرتعد فى الانسان إذا خاف . الأعلم : من شقت شفته العليا . يصف سعة الطعنة .

(٨) الرشاش : ماتطاير من الدم . النافذة : التى نفذت الى الجوف . العندم : الصبغة الحمراء .

(٩) سألت الخيل : أى سألت أصحاب الخيل . ان كنت جاهلة بما لم تعلمى : معناه ألا تسألين الخيل بما لاتعلمين ان كنت جاهلة ، وفى البيت تقديم وتأخير .

(١٠) الرحالة : سرج يصنع من جلد الشاة ويستخدم للعدو الشديد بالفرس . السابح : هو الفرس الذى يدحو بيديه دحوا . النهد : الغليظ . تعاوره : فى الأصل تتعاوره ، والمراد هنا أنهم يطعنونه مرة ومرات . الكماة : جمع كمى وهو الشجاع ، وسمى بذلك لأنه يقمع عدوه أو لأنه يستر شجاعته حتى تدعو الحاجة الى اظهارها عند النزال فيظهرها ، أو هو التام السلاح .

(١١) يجرد : يهيأ . الحصد : الكثير . القسى : هى الأقواس . عرمرم : كثير .

(١٢) الوقيعة : هى الواقعة أو الالتحام ، والمراد بها مشهد من مشاهد الحرب . الوغى : الجلبة فى الحرب . أعف عند المغنم : لا أستأثر بشىء من الغنيمة وحدى بل أقوم بتوزيعها على رفاقى .

(١٣) المدجج : هو من تغطى واستتر بالسلاح . الكماة : البواسل . النزال : القتال وجها لوجه . لا ممعن هربا : أى ليس مندفعا فى الفرار .

١٤ جادَتْ يداىَ لهُ بعاجِلِ طَعْنَـةٍ ... بمُثقَّفٍ صَـدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ
١٥ برحيبَةِ الفَرْغَيْنِ يهـدِى جَرْسُهـا ... باللَّيـلِ مُعْتَسَ الذئابِ الضُّرَّمِ
١٦ فشككْتُ بالرُّمحِ الأصَمِّ ثِيـابَهُ ... ليسَ الكريمُ على القنَـا بمُحَـرَّمِ
١٧ فتركْتُـه جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَـه ... ما بينَ قُـلَّةِ رأسِـه والمِعْصَمِ

* * *

١٨ لمـا رأيتُ القومَ أقبـلَ جمعُهُمْ ... يتذامَرُونَ كَرَرتُ غيرَ مُذَمَّمِ
١٩ يدعونَ عنـترَ والرِّمَاحُ كأنَّهـا ... أشْـطَانُ بئرٍ فى لَبَانِ الأدْهَمِ
٢٠ ما زِلتُ أرمِيهِـمْ بِغُرةِ وَجْهِـه ... ولَبَانِهِ حتَّى تَسَرْبَلَ بالـدَّمِ

(١٤) عاجل طعنة : عاجلته بالطعن وسبقته إليه . المثقف : هو الرمح المقوم المشذب . صدق : صلب . الكعوب : هى العقد التى توجد فى الرمح .

(١٥) رحيبة : واسعة . الفرغ : هو ما بين العرقوتين والمقصود به هنا مخرج الدم عند الطعن ، وكأن الدم حين خروجه من الجرح يشبه صب الماء من الدلو . الجـرس : الصوت ، ويقصد هنا أن صوت الدم السائل من الطعنة يدل وحوش الفـلاة كى تأتى لتلتهم من لقى مصرعه . المعتس : هو من يطلب أو يبتغى أمرا ليلا . الضرم : جمع ضرم وضارم وهو الجائع .

(١٦) شككت : شققت . الثياب : يقصد البدن أو الجسم المختفى خلف الدرع . القنا : الرماح . محرم : ممتنع . ليس الكريم على القنا بمحرم : يقصد أن الكرام هم أشـد الناس حرصا على الإقـدام وأكثرهم استهجانا للفرار .

(١٧) جزر : جمع جزرة وهى الشاة أو الناقة بعد ذبحها أو نحرها . ينشنه : يقضمنه قضما . قلة الرأس : أعلى الرأس . المعصم : الرسغ أو موضع السوار من الساعد .

(١٨) يتذامرون : أى يحث بعضهم بعضا . غير مذمم : غير مذموم .

(١٩) أشطان : جمع شطن وهو حبل البـئر ، وكانت البـئر العميقة فى العادة تتطلب حبلين للدلو . اللبان : الصدر . الأدهم : فرس عنترة .

(٢٠) غرة وجهه : أول وجهه أو مقدمته ، وفى رواية أخرى « بثغرة نحره » أى هزمة حلقه . تسربل : صار كالسربال وهو القميص ، والمعنى تلطخ بدم غزير .

٢١ فازورّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

٢٢ لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلّمى

٢٣ والخيل تقتحم الخبار عوابساً ... من بين شيظمة وأجرد شيظم

٢٤ ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيلُ الفوارس ويك عنترَ أقدم

٢٥ ذُلُلٌ ركابي حيث شئتُ ، مُشايِعى ... قلبي ، وأحفِزه بأمرٍ مُبرَم

* * *

---

(٢١) ازور : مال . شكا إلى : أى أنه لو كان يعرف الشكاية لاشتكى إلى . تحمحم : صوت متقطع كالنشيج ، ولكنه ليس بالصهيل .

(٢٢) المحاورة : الجواب والمراجعة ، والمعنى هنا التخاطب بوجه عام .

(٢٣) تقتحم : تدخل راكضة مسرعة . الخبار : الأرض اللينة التى يشتد فيها الركض . العوابس : أى التى حال وكلح لونها من فرط ما بذلت من جهد . شيظمة : طويلة . الأجرد : قصير الشعر .

(٢٤) أبرأ : شفى . السقم : العلة أو المرض . ويك : تعبير عن الإعجاب .

(٢٥) ذلل : جمع ذلول ، وتقال للابل وغيرها من الدواب ، ومعناها هنا أنها سهلة السير معتادة عليه . مشايعى : يشايعنى ، أى لا يغيب عنى بل يلازمنى . أحفزه : أدفعه . مبرم : محكم .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

(٢)

عِتَـابٌ ونَفْـــرٌ

* * *

قال عنترة يصف حاله ويعـرض قضيته التى شغلت عليه نفسه ويذكر جور قومه وظلمهم له تلك القصيدة الدالية التى أدارها حول محورين كبيرين : أولهما ذلك الفخر الذى يسجله لنفسه، ويُعْلِم به قومه، ويصر على إشهادهم عليه واعترافهم بفضله ، حتى كاد يَمُنّ عليهم بهـذا الفضل ، وهو يقرن هـذا الفخر باستنكاره موقفهم منه لمجرد سواد لونه . وهو فخر حربى فى جملته ، محكوم بطبيعة المواقف القتالية التى هيأتها الظروف أمام عنترة ليحرز ما أحرزه من تفوق على أقرانه من شعراء الجاهلية وفرسانها . وثانيهما : ذلك الحوار الذى اصطنعه ليضحى بحديث الطلل والغزل فى سبيل حديث الفخر والحرب ، وهو كشاعر فارس يستغل كل المشاهد الغزلية فى خدمة قضيته التى يرددها ممزوجة تارة بتلك الصور ، وترد تارة أخرى تأتى خالصة حيث يكرر الفخر عائدًا إليه ومسهبا فيـه ، وجاعلا منه ختام القصيدة ، يقول :

١ إذا فاضَ دَمْعِي واستهلّ على خَدّى … وجاذَبَنِى شوقى على العَلَمِ السَّعْدِى

٢ أُذَكِّرُ قَوْمِى ظُلْمَهُـم لى وبَغْيَهم … وقلّةَ إنْصَافى على القُرْبِ والبُعْدِ

٣ بَنَيْتُ لَهُمْ بالسَّيْفِ مَجْدًا مُشَيَّدًا … فلما تَنَاهَى مجدُهُمْ هَدَمُوا مَجْدِى

---

(١) استهل الدمع : انصب وانسكب . العلم : الجبل . جاذبه : شدّه .

٤ يَعيبُون لَوْنى بالسَّـواد وإنَّمـا فِعَالُهم بالخُبْثِ أسودَ مِنْ جِلْدِى
٥ فَوَاذُلَّ جِيرانى اذَا غِبْتُ عنهُـم وطالَ المَدَى ماذا يُلَاقُون من بَعْدِى
٦ أتحسب قيسٌ أننى بعد طَرْدِهم أخافُ الأعَادى أو أُذَلُّ من الطَّرْدِ
٧ وكيف يَحُلُّ الذُّلُّ قَلْبِى وصَارِمِى إذا اهتز قلبُ الضدِّ يَخْفِقُ كالرَّعْدِ
٨ متى سُلَّ فى كفى بيومِ كَرِيهَـةٍ فلا فـرقَ ما بينَ المَشَايِخِ والمُرْدِ
٩ وما الفَخْرُ الّا أن تكون عمامتى مُكَوَّرَةَ الأطْرَافِ بالصَّارِمِ الهِنْدِى
١٠ نديمىَّ إمَّا غِبْـتُما بعــد سَـكْرَةٍ فلا تَذْكُرَا أطلالَ سَلْمَى ولاهِنْدِ
١١ ولا تَذْكُرَا لى غَيْرَ خَيْـلٍ مُغيرَةٍ ونَقْعَ غُبَـارٍ حالكِ اللَّوْنِ مُسْوَدِّ
١٢ فإنَّ غُبَـارَ الصَّافِنَاتِ إذَا عَلاَ نَشِقْتُ له رِيحـًا ألَذَّ من النَّـدِّ
١٣ ورَيْحَانَتِى رُمْحِى وكاسَاتُ مَجْلسِى جماجمُ سَادَاتٍ حِرَاصٍ عَلَى المَجْدِ
١٤ ولِى مِنْ حُسَامِى كلَّ يوم عَلَى الثَّرَى نقوشُ دَم تُغْنِى النَّدَامَى عن الوَرْدِ
١٥ وليس يعيبُ السيفَ إخلاقُ غِمْدِهِ إذَا كَانَ فِى يَوْمِ الوَغَى قَاطِعَ الحَدِّ
١٦ فلله دَرِّى كم غُبَـار قَطَعْتُـهُ على ضامِرِ الجَنْبَيْنِ مُعْتَدِلِ القَدِّ

(٧) الضد هنا بمعنى النظير أو المثل يخفق : من شدة الخوف والفزع .

(٨) المرد مفردها : أمرد وهو الشاب الذى لم تنبت لحيته وقد طر شاربه .

(٩) تكوير العمامة : استدارتها ، وتكويرها من معالم العزة والرياسة والسيادة فى القبيلة .

(١٢) الصافن من الخيل الذى يقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة وقد رفعها . نشق : شم . الندّ : العنبر أو الطيب بما يعرف عنه من طيب الرائحة .

(١٥) أخلق غمده : بل جفنه . يوم الوغى : يوم القتال .

(١٦) لله درى : صيغة تعجب تقال فى المدح أى لله عملى ، وتقال فى الذم بالنفى كقولك : لادر درك ، والدر هو العمل من خير أو شر أى قل خيرك .
الغبار : يقصد به غبار الحرب و يكنى به عن شدة القتال وكثرة الكر والفر . القدّ : القامة .

١٧ وطاعَنْتُ عنهُ الخيلَ حتّى تبدَّدتْ هِزَاماً كأسْرَابِ القَطَاءِ إلى الوِرْدِ

١٨ فـزارةُ قـد هَيَّجْتُمُ لَيْثَ غَابَةٍ ولم تفرقوا بين الضَّلالَةِ والرُّشْدِ

١٩ فقولُوا لِحصْنٍ إنْ تعَانَى عَدَاوَتِى يَبِيتُ على نَارٍ من الحُزْنِ والوَجْدِ

(١٧) هزاما : مهزومة . القطا جمع قطاة . الورد : مصدر ترده القطا للشرب منه .

(١٨) ليث الغابة : يقصد به عنترة نفسه هنا . هيجوه : أثاروه .

(١٩) معاناة الشيء : ملابسته ومباشرته .

عبد الله التطاوى

(٣)

بُطُولَةُ فَارِسٍ

اكتملت له فروسيته فى حياته القبلية بتلك المشاكل التى جلبتها عليه العلاقة التى نشأت بينه وبين ابنة عمه عبلة ، إذ كان للوقف الاجتماعى دوره فى إبعاد الشاعر عن صاحبته لأنه عبد أسود غير مُنسَّب فى قومه ، فكانت شجاعته هى المحور الذى يرتكز عليه، وقيثارته التى يتغنى بها . حتى يلفت إليه نظر محبوبته ويكسب ودها . وفى هذه القصيدة الدالية يركز عنترة على تصوير عواطفه نحو عبلة وما عاناه من أشجان وحزن مستغلا عناصر الطبيعة المادية فى صوره المختلفة، ويزداد حزنه حتى يصل إلى ذروته حين يعرض مشهد الوداع وموقفه فى لحظة الفراق . ومن الكآبة والأسى إلى عالم نفسى أكثر رحابة واتساعا يبرز الشاعر الجانب الإيجابى المُشرق فى شخصه حين يقدم إليها نفسه كفارس من أكبر فرسان عصره من خلال تلك الصور الجزئية الدقيقة التى ساعد انسجامها على اكتمال اللوحة الفنية التى تجسدت فيها مشاهد القتال بكل تفاصيلها . وكأن القصيدة — بهذا الشكل — تجمع بين محاور القوة والضعف فى حياة عنترة، فهو موزَّعٌ بين استجابته لعواطفه واستنكاره لموقف القبيلة منه وبين مشاهد القتال التى اشتد حرصه على تصويرها وكانت وسيلته إلى تجاوز طبقته ونيل حريته ، فيقول فى قصيدته المعروفة « بالعقيقة » :

١ بين العقيق وبين بُرقة ثهمد … طلل لعبلة مستهل المعهد

٢ يا مسرح الآرام فى وادى الحمى … هل فيك ذو شجن يروح ويغتدى

٣ فى أيمن العلمين درس معالم … أوهى بها جلدى وبان تجلدى

٤ من كل فاتنة تلفت جيدها … مرحا كسالفة الغزال الأغيد

٥ يا عبل كم يشجى فؤادى بالنوى … ويروعنى صوت الغراب الأسود

٦ كيف السلو وما سمعت حمائما … يندبن إلا كنت أول منشد

٧ ولقد حبست الدمع لا بخلا به … يوم الوداع على رسوم المعهد

٨ وسألت طير الدوح كم مثلى شجا … بأنينه وحنينه المتردد

٩ ناديته ومدامعى منهلة … أين الخلى من الشجى المكمد

١٠ لو كنت مثلى ما لبثت ملاوة … وهتفت فى غصن النقا المتأود

١١ رفعوا القباب على وجوه أشرقت … فيها فغيبت السها فى الفرقد

١٢ واستوكفوا ماء العيون بأعين … مكحولة بالسحر لا بالإثمد

---

(١) العقيق : مواضع بالمدينة وباليمامة وبالطائف وبتهامة وبنجد وبستة مواضع أخر . برقة ثهمد لبنى دارم (اسم موضع) .

(٢) الآرام ج رئم وهو الظبى . الرواح والغدو : الذهاب والمجىء .

(٣) الدرس : العفاء والزوال والامحاء . المعالم : مايستدل به . التجلد : التحمل والصبر . أوهى : ضعف ورق وكل . الأغيد : الذى يتثنى من شدة لينه .

(٤) السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قلب الترقوة .

(٨) الدوح شجر ضخم ج دوحة . شجا : بكى من شدة الحزن والأسى .

(١٠) الملاوة : الفترة ، البرهة . النقا : قطع رملية محدبة .

(١١) السها : كوكب خفى من نبات نعش الصغرى . الفرقد : النجم الذى يهتدى به .

(١٢) استوكفوا : استقطروا . الإثمد : حجر الكحل .

١٣ والشمسُ بَيْنَ مُضَرَّجٍ ومُبَلَّــجٍ والغُصْنُ بين مُوَشَّحٍ ومُقَــلَّدِ
١٤ يطلُعْنَ بين سَوَالِفٍ ومعَاطِفٍ وقلائدٍ من لؤلؤٍ وزبرجدِ
١٥ قالُوا اللِّقَاءَ غداً بمُنْعَرِجِ اللِّوَى واطولَ شوقِ المُسْتَهَامِ إلى غَدِ
١٦ وتَخَالُ أنفَاسِى إذَا ردَّدتُهَـا بين النُّقُوشِ تحتَ نُقُوشَ المِبْرَدِ
١٧ وتَنُـوفَةٍ مجهُولةٍ قدْ خُضْتُهَـا بسِنَانِ رُمْحٍ نارُهُ لَمْ تُخْمَـدِ
١٨ باكَرْتُهَـا فى فِتْيَــةٍ عَبْسِيَّةٍ من كلِّ أرْوعَ فى الكَرِيهَةِ أصْيَدِ
١٩ وترَى بهـا الرَّايَاتِ تَخفقُ والقَنَا وتَرَى العَجَاجَ كمثْلِ بَحْرٍ مُزْبِدِ
٢٠ فهناكَ تنظُر آلُ عَبْسٍ موْقِفِى والخيلُ تَعثُرُ بالوَشِـيجِ الأمْـلَدِ
٢١ وبَوارِقُ البِيضِ الرِّقَاقِ لَوَامِـعٌ فى عَارِضٍ مِثْـلَ الغَمَامِ المُرْعِدِ
٢٢ وذَوَابِلُ السُّـمْرِ الدِّقَاقِ كأنَّهـا تحتَ القَتَامِ نجومُ لَيْلٍ أسْـوَدِ

(١٣) المضرج : المحمر . المبلج : النقى الطـلق . الغصن : القد . مقلد : عليه قلادة وهى العنق .

الموشح : من يرتدى الوشاح وهو أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

(١٥) المنعرج : المنعطف . اللوى : ما التوى من الرمل أو ما استرق منه .

واطول : شكوى من طول اللبث إلى غد لشدة لهفته وشوقه .

(١٧) التنوفة : الصحراء لا ماء بها ولا أنيس وإن كانت معشبة . مجهولة : لصعوبتها وغموضها .

(١٨) الأروع : الشجاع . الكريهة : الحرب . الأصيد : الذى يميل عنقه كبرا ، وهو السيد الشريف . والأصيد : البطل الشجاع المقدام .

(١٩) العجاج : الغبار المثار . مزبد : يرمى بالزبد وهو ما يعلو المـاء فى اصطخابه وعنفه .

(٢٠) الوشيج : شجر الرماح . الأملد : الناعم اللين من الغصون وهو ممـا يستحب فى الرماح .

(٢١) البيض : السيوف . العارض : السحاب الكثير ويقصد به غبار الحرب هنا .

(٢٢) الذوابل : القنا البيض . السمر : الرماح . القتام : غبار الحرب أثناء دورانها .

٢٣ وحوافرُ الخَيْلِ العِتَاقِ على الصَّفَا مثلُ الصَّوَاعِقِ في قِفَارِ الفَدْفَدِ
٢٤ باشَرتُ مَوْكِبَها وخُضْتُ غُبَارَها أَطْفَأْتُ جَمْرَ لَهِيبِها المُتَوَقِّدِ
٢٥ وكَرَرْتُ والأبطَالُ بينَ تَصادُمٍ وتَهَاجُمٍ وتحزُّبٍ وتَشَدُّدِ
٢٦ وفوارِسُ الهَيْجاءِ بينَ مُمَانِعٍ ومُدَافِعٍ ومُخَادِعٍ ومُعرْبِدِ
٢٧ والبِيضُ تَلْمَعُ والرِّمَاحُ عَواسِلٌ والقومُ بين مُجَدَّلٍ ومُقَيَّدِ
٢٨ ومُوَسَّدٍ تحتَ التُّرابِ وغيرُه فوقَ التُّرابِ يَئِنُّ غيرَ مُوَسَّدِ
٢٩ والجوُّ أقْتَمُ والنُّجومُ مُضِيئَةٌ والأُفُقُ مُغْبَرُّ العَنَانِ الأَرْبَدِ
٣٠ أقحَمْتُ مُهْرِي تحتَ ظِلِّ عَجَاجَةٍ بِسِنَانِ رُمْحٍ ذَابِلٍ ومُهَنَّدِ
٣١ رغَمْتُ أَنْفَ الحاسِدِينَ بِسَطْوَتِي فغَدَوا لَهَا مِن راكِعِينَ وسُجَّدِ

---

(٢٣) الصفا: الحجر الصلد الضخم. الفدفد: المكان الغليظ الصلب.

(٢٧) العاسل: الرمح إذا اشتد اهتزازه دلالة على شدة القتال. المجدل: الصريع. المقيد: الأسير.

(٢٩) العنان: السحاب يقصد التراب الذى انتشر فيه كالسحاب. الأربد: المائل إلى الغبرة

(٣٠) المهند: السيف. رغم أنفه: ألصقه بالتراب أى أذله وقهره وحطم كبرياءه.

* * *

عبد الله التطاوى

(٤)

فُروسِــيَّةٌ وحُبٌّ

ولد عنترة لجارية حامية سباها أبوه ، ولم يلحقه به عند ولادته ، واسم أمه زَبيبــة الحبشية ، أما أبوه فهو شــدّاد بن عمرو بن معاوية بن قُرَاد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قَطِيعة بن عبس . وكان العرب لا يلحقون بنسبهم أولاد الإماء إلا إذا بان لهم فضل . وكان سبب ادعاء أبي عنــترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فتبعهم العبسيون فقاتلوهم ، وعنترة يومئذ فيهم ، فقال له أبوه : كر ، فقال : العبد لا يُحْسِن الكَرّ ، إنمــا يحسن الحِلاَب والصَّر ، فقال : كُرّ وأنت حر ، فكر وقاتل قتالا حسنا ، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه .

وطارت شهرة عنترة بوصفه فارسا لا يُبَارى ، وعاشقا تحاك حوله الأساطير في قصة حبــه لعبلة ابنة عمه . وكان له دور كبير في حرب داحس والغــبراء . ويبدو أنه مات أو قتل قبل ظهور الإسلام بسنوات قليلة .

* * *

والأبيات التي اخترناها له يبدؤها بحكمة التجارب والسنين، فيقول إن أمر الله مقدَّر على جميع عباده ، فلا سبيلَ للفرار منه أو الحذر ، وليس الإنسان قادرا على ردّ الموت أو دفع القضاء ، فإذا حُمَّ كان أمرا محتوما لا تخيب طعنته ولا تطيش ضربته . وقد هان الدهر على عنــترة بسبب معرفته حقيقته ولخبرته بمــا تأتي به

مصائب الزمان وأحداثه . ويختم عنترة هــذه المقدمة الحكيمة بقوله إن الأسود ليست كالضــباع فى شجاعتها وهيبتها ، كما أن كل المحــاربين ليسوا مثــل عنترة فى شجاعته وإقدامه . ويبدأ عنــترة بالفخر ببطولاته حتى إنه انتصر على غارات الزمان وكان الموت فيها متربصا به الدوائر، وحقق له عزمُه الجبار هذا الانتصار، حتى إنه لو ضرب بسيف عزيمته البتار ظلام الليل لانقشع وزال ، وليس أمام الشاعر غير سبيلين : إما أن يصل إلى المجد مخاطرا بنفسه أو يموت ، وهو لا يهتم بمـا سوف يأتى به الغد لأن أحدا لم يخبرنا بمـا يكون فى عالم الغيب المجهــول ، والنذير الذى يأتى محــذرا من وقوع الويل والكوارث قد يكون فى الحقيقة بشير سعادة وسرور .

ولا ينسى الشاعر أن يشهد حبيبته عبلة على فروسيته و بطولته الخارقة فيطالبها بأن تشهده فى أثنــاء المعارك وهو يطاعن ويقاتل ويثير بحوافر فرسه الغبار ، وهو يقبل على المعركة ضاحكا لوثوقه بنفسه وقدرته ، وسعيه إلى المجد مستهينا بالموت ، فإذا انقضت المعركة آب وعليه آثارها مشعث الشعر مغبر الوجه ، وهو لا يكف عن قتــال أعدائه إلا حين يصرعهم ويلقى بجماجمهم فى ساحة القتال لتعبث بهــا الرياح الجنوبية ، وبأجسادهم التى تنقضُّ عليها الطيور الكاسرة ولا ترجع عنها إلا حين ترى الوحوش وقد أتت لتنال نصيبها .

* * *

١ إذا كانــ أمرُ الله أمرًا يُقَدَّرُ فكيف يفِرّ المرء منــه ويَحْــذَرُ

٢ ومَنْ ذا يردّ الموتَ أو يدفعُ القضا وضَربتُــه محتــومةٌ ليس تَعْــثُرُ

(٢) القضا : القضاء ، تعثر : تطيش .

٣ لقد هان عندى الدّهرُ لما عرفتُه — وإنّى بما تأتى الملمّاتُ أخبَرُ
٤ وليس سِباعُ البرِّ مثلَ ضِباعه — ولا كلّ مَنْ خاض العَجاجةَ عنترُ
٥ سلوا صَرْفَ هذا الدهر كم شنّ غارةً — ففرّجتها والموتُ فيها مشمّرُ
٦ بصارمِ عزمٍ لو ضربتُ بحدِّه — دُجَى الليل ولّى وهو بالنّجم يعثُرُ
٧ دعونى أُجِدّ السعىَ فى طلب العلا — فأدرِكَ سُؤْلى أو أموتَ فأُعْذَرَ
٨ ولا تختشوا مما يُقدّر فى غد — فما جاءنا من عالِم الغيب مُخْبِرُ
٩ وكم مِنْ نذيرٍ قد أتانا محذِّرا — فكان رسولا فى السرور يُبشِّر
١٠ قفى وانظرى يا عبلَ فعلى وعاينى — طعانى إذا ثار العَجاج المكدّر
١١ ترىْ بطلا يلقى الفوارسَ ضاحكا — ويرجعُ عنهم وهو أشعثُ أغبرُ
١٢ ولا ينثنى حتى يُخلّى جماجمًا — تمرُّ بها ريحُ الجنوب فتَصفِرُ
١٣ وأجسادَ قومٍ يسكنُ الطيرُ حولها — إلى أن يَرَى وَحْشُ الفلاة فينفر

(٣) الملمات : جمع ملمة وهى حوادث الدهر ومصائبه .

(٤) العجاجة : يعنى بها الحرب .

(٥) الصرف : الأحداث ، مشمر : نشيط دائب الحركة .

(٦) الصارم : السيف .

(٧) سؤلى : غايتى ومرادى .

(١٢) يخلى : يترك .

* * *

محمد مصطفى هدارة

زُهَيْر بن ابى سُلْمَى

هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رباح بن قرة بن الحارث ... أحد الثلاثة المقدَّمين فى الجاهلية ، وإن اختلف فى تقديم أحد الثلاثة على صاحبَيْه ، فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبيانى .

شهد له كثيرون بمكانته الشعرية ، فرآه جرير شاعر الجاهلية ، وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لابن عباس: إنه شاعر الشعراء، وقدمه قدامة بن موسى أيضا على سائر الشعراء، وسجّل له الأحنف بن قيس أنه أشعر الشعراء أيضا .

وربما شجّع زهيرا على بلوغ تلك المكانة طبيعة البيئة التى نشأ فيها وكان من أهم أعلامها بشامة (خاله) ، وهو شاعر مجيد ، فكان زهير وكثير من قومه شعراء بالوراثة ، فلم تقف الشاعرية عند خاله وجدّه ، بل كان أبوه شاعرا ، وكذلك كانت أخته سلمى ثم كان ابناه كعب وبجير شاعرين . ولا تخفى مكانة أخته الخنساء فى نظم الشعر، وكذلك حفيده ، المضرب بن كعب بن زهير .

وقد تعددت مجالات نظم الشعر عند زهير ، وكان أكثرها حظا من فنه موضوع المدح ، فقد نظم معلقته فى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف وقد حملا دية هرم بن ضمضم فى مالهما دون أن تكون لهما مشاركة فى الحروب القبلية .

وقد نأى زهير بنفسه وفنه عن محور التكسب أو طلب العطاء، ورفض أن يعيش مأجورا من خلال شعره ، إذ يُرْوَى أن هَرِمًا كان قد حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه فى ملأ قال : عِمُوا صباحا غير هرم، وخيركم استثنيت .

وكما كثر ثناء معاصريه على فنـه كَثُر حوار المتأخرين حول شعره ومكانته فيه ، فأثنى عليه عبد الملك بن مروان وأعجب بفنه .

وامتاز شعر زهير عن شعر عصره فكانت حجة من قدّمه أنه كان أحسنهم شعرا وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ وأكثرهم مبالغة فى المدح وأكثرهم أمثالا وحِكَمًا فى شعره . ويبقى لزهير زعامته لمدرسة فنية متميزة فى فن الشعر وضع أسسها الفنية وأصبح فيها أستاذا وراوية فى آن واحد ، فقد استمد أصولها من أَوْس بن حَجَر ثم تتلمذ عليه فيها من بعده كعب ابنه ، وأخذت طريقها التاريخى عنـد الحُطَيئة وكثيّر عزة وجميـل بثينة وغيرهم من شعراء عصر بنى أمية .

ولا تكاد مدرسة زهير تعكس مكانته فى الجاهلية بقـدر ما تسجل له دوره البارز فى تأصيل صنعة الشعر التى أثّرت فى حركة الأدب، وبها تجاوز عصره حيث ركّز فى فنه على الإجادة ومزاولة مهنة الفنان فى دقة التنقيح ومعاودة النظر فى بنية القصيدة وصورها الجزئية ، ثم اختيار المعجم اللفظى مع شدة الحرص والأناة فى مفرداته وتراكيبه معا بعيدا عن الارتجال أو سرعة التعامل مع الأداة .

على أن مكانة زهير فى زعامة تلك المدرسة لا يقل عنها أهمية وخطورة فى الشعر العربى موقفه من فن المدح الذى كثر توجيه سهام الاتهام إليه من قِبل النقاد والباحثين على أنه كان بابًا واسعًا من أبواب النفاق فى الشعر العربى ، فقد تجاوز زهير هذا المستوى بل نقضه تماما حين أصدر فنه خالصا من منظور الصدق الفنى والاجتماعى معًا،إذ اتسقت نفسه مع موضوعه وراح يترنم بهذا الموقف الحضارى الذى أعجب به حول قضية السلام ، والتغيير من شريعة الغزو التى شقّت سبيلها

عبر نفوس الجاهليين وأصبحت قاعدة عامة فى حياتهم ، فكانت معلقته صورة من إخلاصه لقضية السلام جمّع صورها من خلال المتناقضات فراح بين صيغ التهديد والإقناع يتلمس فنه، وراح يرسم بدقة متناهية أكثر من لوحة فنية لقضية الحرب وقضية السلام كما عاشها واقتنع بها . وفى أثناء هذا كله ينطلق من دقة أستاذيته وتلمذته فى مدرسته الفنية التى رأى النقاد فى أصحابها « عبيدًا للشعر » لكثرة ما وفّروه له من الرويّة والأناة والتنقيح، ورأوها عند زهير — على سبيل المبالغة — فى فن الحوليّة التى تعكس من الرّوية والأناة أروع صورهما .

وتدور معلقة زهير حول مجموعة أفكار تبدو متعددة وإن كانت تجمعها وحدة شعورية وفكرية أساسها إعجابه بقضيته وممدوحَيْه من ناحية ، واتساقه مع نفسه تجاه موضوعه وتفاعله مع مقدماته وخواتيمه من ناحية أخرى ، ولذا يبدو إمكان توزيع لوحات المعلقة إلى حديث يقف فيه مع الطلل والظعينة ، إلى موضوع المدح ورسالته التى يوجهها إلى الأحلاف داعياً إلى السلام ومنفرا من الحرب ، إلى خاتمة حكمية يرسم منها لوحة كاملة من تقاريز تكشف عن طابع حياته وخلاصة رؤيته لها وطبيعة فلسفته فيها .

* * *

عبد الله التطاوى

(١)

المُعَلَّقــــة

١ — بين الطَّلَل والظَّعِينة

١ أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ — بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ
٢ وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا — مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
٣ بِهَا الْعِينُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً — وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ
٤ وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً — فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
٥ أَثَافِيَّ سُفْعًا فى مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ — وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ
٦ فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا — أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ
٧ تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ — تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ ؟

---

(١) الدمنة الآثار . الحومانة : ماغلظ من الأرض . الدراج والمتثلم : موضعان . الوشم : نقش بالإبرة فى الذراع .

(٢) النواشر : عصب الذراع . المعصم : موضع السوار من الذراع .

(٣) العين : بقر الوحش . الآرام : الظباء . المجثم : المربض . الأطلاء ج طلا وهو ولد البقرة الوحشية أو الظبية .

(٤) اللأى : الجهد . الحجة : السنة . التوهم التفرس ودقة التعرف .

(٥) الأثافى : الحجارة توضع عليها القدر . السفع : السود تخالطها حمرة . معرس المرجل : حيث أقام المرجل . النؤى : حاجز يرفع حول البيت يحميه من التراب . جذم الحوض : أصل الحوض . عم صباحا : صيغة دعائية شائعة بين الجاهليين .

(٦) الربع : موضع الدار . الخليل : الصاحب أو الصديق أو الرفيق .

(٧) الظعائن : النساء الراحلات على الإبل . العلياء : موضع . جرثم : ماء لبنى أسد . تحملن : رحلن

٨ عَلَوْنَ بأنْمَاطٍ عِتَاقٍ وكِلَّةٍ ... وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةِ الدَّم

٩ ووَرَّكْنَ في السُّوبَانِ يعلُونَ مَتْنَه ... عليهن دلُّ الناعمِ المُتَنَعِّمِ

١٠ كأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كل منزلٍ ... نزلْنَ به حبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ

١١ وفيهنَّ مَلْهىً للصَّديق ومَنْظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ

١٢ بَكَرْنَ بُكُورًا واستحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فهُنَّ لوادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ

١٣ جَعَلْنَ القَنَانَ عَنْ يَمِينٍ و حَزْنَهُ ... ومَنْ بالقنانِ من مُحِلٍّ مُحْرِمِ

١٤ ظَهَرْنَ من السُّوبانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ ... عَلَى كلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ مُفَأَّمِ

١٥ فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

(٨) علون بأنماط : أي طرحوا على أعلى المتاع أنماطا تفترشها ثم تعتليها الظعائن أثناء الرحيل . المشاكهة : المشابهة . الوراد جمع ورد وهو الأحمر . الكلة : الستر .

(٩) وركن : ملن فيه . المتن : ما غلظ من الأرض وارتفع .

(١٠) العهن : الصوف المصبوغ . الفنا : شجر ثمره حب أحمر وفيه نقط سود . لم يحطم : أي صحيح لأنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة .

(١١) المتوسم : الناظر الذي يتفرس بنظره . ملهى للصديق : بقايا جمال تستحق الغزل .

(١٢) السحرة : السحر . استحرن : خرجن في السحر أو في وقت البكور .
الرس : البئر وهو اسم موضع أيضا .
كاليد للفم : أي قصدن الوادي فلم يخطئنه كما لاتخطىء اليد اذا قصدت الفم .

(١٣) القنان : جبل لبني أسد . المحل : الذي لا عهد له ولاذمة ولاجوار .
المحرم : من له حرمة وذمة من أن يغار عليه . ظهرن : خرجن .

(١٤) السوبان : اسم واد . جزعنه : قطعنه أو تجاوزنه .
قيني : أراد به قينيا منسوبا إلى « بلقين » وهم حي من اليمن تنسب إليهم الرحال وربما قصة جودة صنعته نسبة إلى قين . قشيب : جديد . مفأم : الذي وسع وزيد فيه بنيقتان من جانبيه .

(١٥) زرقا جمامه : أي صاف . الجمة : مجتمع الماء .
الحاضر : من حضر الماء وأقام عليه . المتخيم : الذي اتخذ الخيمة وتأهب للاستقرار .
وضعن عصي الحاضر : أي أقمن على الماء واستقررن في هذا المكان .

ب : وقائع قضية السّلام

١٦ سَعَى ساعِيَا غَيظِ بنِ مُرَّةَ بَعدَما ... تَبَزَّلَ مَا بين العَشِيرَةِ بالدَّمِ
١٧ فأَقسَمتُ بالبيتِ الذى طافَ حَولَه ... رِجالٌ بَنَوهُ من قُرَيشٍ وجُرهُمِ :
١٨ يَمِيناً لَنِعمَ السيِّدانِ وُجِدتُما ... عَلَى كُلِّ حَالٍ من سَحِيلٍ ومُبرَمِ
١٩ تَدارَكتُمَا عَبساً وذُبيانَ بَعدَما ... تَفَانَوا ودَقُّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ
٢٠ وقَد قُلتُمَا : إِنْ تُدرِكِ السِّلمَ وَاسِعاً ... بِمالٍ ومَعرُوفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ
٢١ فأَصبَحتُما مِنهَا عَلى خَيرِ مَوطِنٍ ... بَعِيدَينِ فيها عَنْ عُقُوقٍ ومَأْثَمِ
٢٢ عَظِيمَينِ فى عُليَا مَعَدٍّ وغيرِها ... ومَن يَستَبِحْ كَنزاً من المَجدِ يَعظُمِ
٢٣ فأَصبَحَ يَجرِى فِيهِمُ مِن تِلادِكُم ... مَغَانِمُ شَتَّى مِن إِفَالِ المُزَنَّمِ
٢٤ تُعَفَّى الكُلُومُ بالمِئِينَ فأَصبَحَتْ ... يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيسَ فيها بِمُجْرِمِ
٢٥ يُنَجِّمُها قَومٌ لِقَومٍ غَرَامَةً ... ولَم يُهَرِيقُوا بَينَهُم مِلْءَ مِحْجَمِ

(١٦) غيظ بن مرة : حى من غطفان . تبزل بالدم : تشقق وتمزق بسبب الحرب .

(١٧) أقسمت بالبيت : يقصد الكعبة . جرهم : أمة قديمة كانوا أرباب البيت قبل قريش .

(١٨) السحيل والمبرم : يكنى بهما عن شدة الأمر وسهولته ، والمبرم الخيط المزدوج المفتول ، والسحيل هو الخيط المفرد الضعيف .

(١٩) منشم : امرأة عطارة من خزاعة تشاءم العرب بعطرها وضرب به المثل :

(٢٠) واسعا : مؤكدا . نسلم : أى نسلم من أمر الحرب وزوال أخطارها .

(٢١) على خير موطن : على خير منزلة ورتبة ومكانة . العقوق : قطيعة الرحم .

(٢٢) عليا معد : أشرافها . وأفضل القوم فيها يستبح : يجده مباحا . الكنز يكنى به عن الكثرة . يعظم : يرتفع شأنه بين قومه وترقى درجته ومكانته .

(٢٣) الإفال : صغار الإبل التى كانت تدفع فى الديات . المزنم : الجمال المشهورة . التلاد : المال الموروث (القديم) . والطريف : المال المستحدث (المكتسب) .

(٢٤) تعفى : تمحى . الكلام ج الكلم وهو الجرح .

(٢٥) تنجم : تدفع أقساطا . ملء محجم : أقل كمية يمكن تصورها .

حـ : رسالةٌ إلى الأحْلاف

٢٦ فَمَنْ مُبلِغُ الأحْلافِ عَنّي رِسالَةً   وذُبْيانَ هَلْ أقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ

٢٧ فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نفوسِكُمْ   لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

٢٨ يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ   لِيَومِ الحِسَابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

٢٩ وما الحَرْبُ إلاّ ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمُ   وما هُوَ عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ

٣٠ مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً   وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

٣١ فتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَا بِثِفالِها   وتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تَحْمِلْ فَتُتْئِمِ

٣٢ فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمَ كُلُّهم   كأَحْمَرِ عَادٍ ثم تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

٣٣ فَتُغْلِلْ لكُمْ ما لا تُغِلُّ لأَهْلِهَا   قُرىً بالعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ ودِرْهَمِ

د : عِتَابٌ ومُؤَاخَذَةٌ

٣٤ لَعَمْرِي لَنِعْمَ الحَيُّ جَرَّ عَلَيْهِمُ   بِمَا لا يُواتِيهِمْ حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ

(٢٦) الأحلاف : أسد وغطفان وطيء .

(٢٧) لا تكتمن : لا تضمروا خلاف ما تظهرون .

(٢٩) المرجم : المظنون أو الذي لا يقوم على يقين . ذقتم : جربتم .

(٣٠) تضر إذا ضريتموها : تتعود إذا عودتموها ، وتشتعل إذا أشعلتم نارها .

تعرككم : تهلككم وتقضي عليكم . بثفالها : أي ومعها ثفال وهو الجلدة توضع تحت الرحى إذا أديرت ليقع عليها الدقيق .

(٣١) تلقح كشافا : أي لا تنقطع عنكم ولا بد أن تدرككم . تتئم : تنجب التوائم وهي كثيرة النتاج .

(٣٢) غلمان أشأم : أي غلمان شؤم ونذر شر .

أحمر عاد : ربما قصد به أحمر « ثمود » وهو عاقر ناقة صالح في القصص القرآني .

(٣٣) تغلل : تنتج . القفيز والدرهم : خيرات العراق من محاصيل وأموال .

(٣٤) جرّ عليهم : جنى عليهم . حصين بن ضمضم : من بني مرة انشق على الصلح ولم يدخل فيه وعدا على رجل من عبس فقتله .

٣٥ وكان طوى كشحًا على مستكنة ... فلا هو أبداها ولم يتجمجم
٣٦ وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى ... عدوى بألف من ورائى ملجم
٣٧ فشد ولم تفزع بيوت كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
٣٨ لدى أسد شاكى السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم
٣٩ جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه ... سريعًا وإلا يبد بالظلم يظلم
٤٠ رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا ... غمارا تسيل بالرماح وبالدم
٤١ فقضوا منايا بينهم ثم أوردوا ... إلى كلأ مستوبل متوخم
٤٢ لعمرك ما جرت عليهم رماحهم ... دم ابن نهيك أو قتيل المثلم
٤٣ ولا شاركوا فى القوم فى دم نوفل ... ولا وهب منهم ولا ابن المحزم
٤٤ فكلا أراهم أصبحوا يعقلونهم ... علالة ألف بعد ألف مصتم

(٣٥) طوى كشحا : طوى أمرا فى جانبه فلم يظهره . (الكشح : الجنب أو الخصر) .

(٣٦) سأقضى حاجة : سأدرك ثأرى . أتق عدوى بألف : أجعلهم بينى و بين عدوى . (ألف فارس) .

(٣٧) شد : حمل على الرجل فقتله . تفزع : تعلم بفعلته أو تساعده عليها .
بيوت : أحياء وقبائل . ألقت رحلها : اشتد خطرها واشتعلت نيرانها .

(٣٨) أسد : جيش . أم قشعم : الحرب . شاكى السلاح : سلاحه شائكة حادة وتامة .
أظفاره : سلاحه . الظمء : ما بين الشربتين .

(٤٠) الغمار والغمر الماء الكثير . الورود : الذهاب الى مصادر المياه وعكسه الصدر .

(٤١) قضوا منايا : أيقظوها باشعال الحرب .
أصدروا إلى كلأ : رجعوا إلى أمر مستوبل أو سيء العاقبة . المتوخم (الوخيم) : الذى لا تحمد نتائجه .

(٤٢) المثلم : اسم موضع . ابن نهيك ونوفل ووهب وابن المحزم : أسماء رجال من عبس .

(٤٤) يعقلونهم : يحملون دياتهم و يغرمونها . العلالة : تكرار الشيء بعد الشيء . المصتم : التام .

٤٥ تُسَاقُ إلى قومٍ لقـومٍ غرامةٌ ... صحيحاتِ مالٍ طالعاتٍ بمَخْـرِمِ

٤٦ لحَىٍّ حِلالٍ يعصمُ الناسَ أمرُهم ... إذا طَلعَت إحدى الليالى بمُعْظَمِ

٤٧ كِرامٍ فلا ذو الوِتْرِ يدركُ وِتْرَهُ ... لَدَيْهِم ولا الجَانى عليهم بمُسْلَمِ

هـ : فلسفة حيـاة

٤٨ سئِمتُ تكاليفَ الحيَاةِ ومَنْ يعشْ ... ثمـانينَ حَـوْلاً لا أبَا لكَ يَسْأَمِ

٤٩ رأيتُ المَنايَا خَبطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْـهُ ومَنْ تُخْطِئْ يُعمَّرْ فيهْـرَمِ

٥٠ ومَنْ لا يُصَانِـعْ فى أُمورٍ كَثيـرةٍ ... يُضَرَّسْ بأَنْيَـابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ

٥١ وأعلمُ عِلْمَ اليَـوْمِ والأَمْسِ قَبْـلَهُ ... ولكنَّنِى عَن عِلْمِ ما فِى غَـدٍ عَمِى

٥٢ ومَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضْلِهِ ... عَلَى أهْـلِهِ يُستَغْنَ عَنْـهُ ويُذْمَمِ

٥٣ ومَنْ يجعَلِ المَعْروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِـرْهُ ومن لا يتَّـقِ الشَّتْمَ يُشْتَـمِ

٥٤ ومَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومَنْ لا يَظلِمِ النَّـاسَ يُظْلَمِ

٥٥ ومَنْ هَابَ أَسْبَابَ المنيَّةِ يَلْقَهَـا ... ولَوْ رَامَ أَسْـبَابَ السَّمَاءِ بسُـلَّمِ

---

(٤٥) صحيحات مال : ليس بعـدة ولا مطل . بمخرم : أى طلعت عليهم الإبل من المخـرم وهو الطريق الضيق فى الجبل .

(٤٦) لحى حلال : كثير ، والحلال ج حلة وهى مائة بيت ، وأصل الحلة الموضع ينزل فيه القوم ، وأراد بالحى الحلال حى الساعيين بالصلح بين عبس وذبيان .

(٤٧) لاذو الوتر يدرك وتره : أى أنهم أعزة لايستطيع أحد أن ينتصر عليهم أو يأخذ منهم ثأرا .

(٤٨) تكاليف الحياة : متاعبها ومشقاتها لا أبالك : صيغة دعائية فيها الجفاء والغلظة الجاهلية .

(٥٠) منسم البعير : بمنزلة ظفر الانسان . يضرس : يمضغ بضرس . يصانع : يترفق ويدارى .

(٥١) عمى : جاهل ، يصور جهله بالمستقبل وعلمه بالماضى والحاضر فقط .

(٥٥) أسباب السماء : أبوابها . أسباب المنية : وسائلها وطرقها . والمنية : الموت .

٥٦ وَمَنْ يَعْصِ أطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنَّهُ يُطِيعُ العَوَالِي رُكِّبَتْ كلَّ لِهْـذِمِ
٥٧ ومن يوفِ لا يُذْمَمْ ومن يُفْضِ قَلْبُه إلى مُطْمَئِنِّ البرِ لا يَتَجَمْجَـمِ
٥٨ وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صديقَهُ وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُـكَرَّمِ
٥٩ وَمَهْمَا تكُنْ عند امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وإنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ
٦٠ وَمَنْ لا يزَلْ يستَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُغْنِهَـا يوماً مِنَ الدَّهْرِ يُسْأَمِ

(٥٦) العوالى : صدور الرماح وأعاليها مما يلى السنان . الزجاج : فى أسافل الرماح . لهذم : السنان ، واللهذم : الحاد .

(٥٧) التجمجم : التخاذل أو التردد وترك التقـدم فى الأمر . يفض قلبه : أى يصير . مطمئن البر : خالصه .

(٥٩) الخليقة : الطبيعة أو الصفة الأصلية .

(٦٠) يستحمل الناس : يحملهم أموره و يثقل عليهم من خلالها . أو يحمل الناس على عيبه .

* * *

عبد الله التطاوى

(٢)

مِنْ مَدائِحِ هَرِمٍ

وَقْفَةٌ بالأطلال :

١ قِفْ بالدِّيارِ التى لم يَعْفُها القِـدَمُ — بلَى وغيَّرها الأَرواحُ والدِّيَمُ

٢ لا الدارُ غيَّرها بعدى الأَنيسُ ولا — بالدار لو كلَّمتْ ذا حاجةٍ صَمَـمُ

٣ دار لأَسماءَ بالغَمْـرين ماثِلةٌ — كالوَحْيِ ليس بها من أهلها أَرِمُ

٤ سالتْ بهم قرقرى، بِرْكٌ بأَيْمُنِهم — فالعـالياتُ وعن أيسارِهم خِـيَمُ

٥ عومَ السَّفينِ فلمـا حال دُونَهـمُ — فيـدُ القُرَيَّاتِ فالعِتكَانُ فالكَرَمُ

---

(١) لم يعفها القدم : أى لم يدرسها الزمن . والمعنى أن من يقف على الديار يتوهم أنها كلها عافية ، أى عفى عليها الزمن فبليت ، ولكنه سيجد أن بعضها لم يتطرق إليه البلى . الأرواح : الرياح . الديم : جمع ديمة وهى المطر الذى يدوم فى سكون بلا برق ولا رعد يوما أو بعض يوم ، أو لمدة أكثر من ذلك قد تصل إلى سبعة أيام .

(٢) بعدى الأنيس : أى لم يتزلها من بعدى أنيس فيغيرها أعرف منها . لو كلمت : أى تكلمت بقدر ما يسمع فلم تجب .

(٣) الغمران : موضعان . الماثل : المنتصب ، أو الذاهب الذى لا يرى له شخص . الوحى : الشىء المكتوب ، أو الكتاب . ما بها أرم : ما بها أحد .

(٤) سالت بهم : كثروا بها . قرقرى : موضع بهذا الاسم . برك : مكان بهذا الاسم . بأيمنهم : أى عن يمينهم . عن أيسارهم : على شمالهم . العاليات : مواضع مشرفة قرب برك . خيم : اسم جبل .

(٥) عوم السفين : أى أن سيرهم فى البر كسباحة السفن فى الماء . فيد القريات : موضع بهذا الاسم العتكان والكرم : موضعان آخران .

٦ كأنَّ عينِي وقد سالَ السَّليلُ بهم — وعبرةٌ ما هـمُ لو أنهـم أمَـمُ
٧ غَرْبٌ على بَكْرةٍ أو لؤلؤٌ قَـلِقٌ — في السِّلكِ خانَ به رَبَّاتِه النُّظُـمُ
٨ بلْ قد أراها جَميعـًا غير مُقْوِيةٍ — السِّرُّ منها فَوادِي الجَفْرِ فالهِـدَمُ
٩ ولا لُكَانُ ولا وادِي الغَارِ ولا — شرقِيّ سَلْمى ولا فَيْـدٌ ولا رِهَمُ
١٠ عَهْدِي بهم يومَ بابِ القَرْيتَينِ وقد — زال الهَمَالِيجُ بالفُرسانِ واللُّجُمُ
١١ فَاستبدلتْ بعـدَنَا داراً يمـانِيَةً — ترعَى الخريفَ فأدْنَى دارِها ظَلِمُ

(٦) السليل : واد بهذا الاسم ؛ وسال بهم تعنى أنهم ساروا فيه سيرا سريعا . عبرة ماهم : أى أنهم سبب بكائى وربما يقصد أنهم عبرة له وإن قربوا . لو أنهم أمم : الأمم بين القـريب والبعيد ، والمعنى أنه كان يزورهم لكنهم بعدوا .

(٧) غرب : دلو ضخمة . لؤلؤ قلق : أى لؤلؤ فى سلكه لكنه قلق لم يستقر عندما انقطع الخيط . رباته : صاحبات اللؤلؤ ، وهن اللاتى يقمن بنظمه أى جعله فى خيـط . النظم : مفردها نظام وهو الخيط ؛ وخان النظـم تعنى أن النساء فشلن فى اتقان عملهن فلم يستقر اللؤلؤ فى مكانه على الخيـط . والشاعر هنا يشبه دموعه بما يسيل من الدلو من قطرات الماء ، أو باللؤلؤ الذى انقطع من الخيط وتناثر متفرقا .

(٨) بل قد أراها : يقصد أنه يرى الأراضى التى سيرد ذكرها . مقوية : خاليـة مقفرة . السر والجفر والهدم : أسماء لأماكن ربمـا تكون أودية .

(٩) لكان : اسم لأرض ، والمعنى هنا أنها لم تكن تحـل بلكان . وادى الغار : موضع بهـذا الاسم . سلمى : جبل بهذا الاسم . فيد ورهم : أسماء لمواضع أو لأماكن ، ويقصد الشاعر أن جميع هذه الأماكن قد خلت من أسماء بعد هجرها .

(١٠) باب القـريتين : قرية كانت لطسم وجديس فى طريق مكة . زال : مال عن موضـعه . الهماليج : فسرت على أنها الإبل ، لأن المسافرين كانوا يجنبون الخيـل ويركبون الإبل ؛ وربما تعنى الخيل ، ويقصد أنها مالت بهم لأن اللجم مردودة على الخيل كى تقيمها فى السير .

(١١) اسـتبدلت : يقصد أسماء . يمانيـة : ناحية اليمن . ترعى الخـريف : أى ترعى نبت الخريف . ظلم : اسم لجبل .

وَقفةٌ مع هَرِم :

١٢ إن البخيلَ مَلومٌ حيثُ كانَ ولـ ـكنَّ الجَـوادَ على عِلاَّته هَرِمُ
١٣ هو الجوادُ الذى يُعطيـكَ نائلَه عفْـوًا ويُظْـلَم أحيـانًا فيظَّـلِمُ
١٤ وإنْ أتاهُ خَليـلٌ يومَ مَسْألةٍ يقولُ لا غائبٌ مالى ولا حَرِمُ
١٥ القائدُ الخيـلَ منكوبًا دَوَابِرُهـا منها الشُّنُونُ ومنها الزَّاهِقُ الزَّهِمُ
١٦ كانوا فَرِيقَين يُصْغُونَ الزِّجَاجَ على قُعْسِ الكَواهِلِ فى أكتَافِها شَمَم
١٧ وآخرينَ ترى المَـاذِىَّ عُدَّتَهم من نسج داودَ أو ما أوْرثتْ إِرَم
١٨ هم يضربونَ حَبِيكَ البَيْضِ إذ لَحِقُوا لا يَنْكُلُونَ اذا ما استُلْحِمُوا وحَمُوا

---

(١٢) على علاته : على عسره و يسره .

(١٣) عفوا : أى يعطيك ما سألته سهلا ولا يمن به عليك . يظلم أحيانا : يطلب إليه فى غير موضع الطلب فيحمل ذلك لهم . و يظلم بالتشديد بمعنى يحتمل الظلم ؛ والظلم فى اللغة هو وضع الشىء فى غير محله .

(١٤) الخليل هنا الفقير . مسألة : سؤال أو مطلب . الحرم : الممنوع ، أى أن ماله ليس ممنوعا .

(١٥) منكوبا دوابرها : أى سببت الحجارة الخشنة فى الأرض تآكل دوابرها . الشنون : وسط بين السمين والهزيل . الزاهق : السمين . الزهم : كثير الشحم واللحم ، وهو أسمن من الزاهق .

(١٦) يصغون الزجاج : يميلون الزجاج للطعن ، والزجاج جمع زج وهو الحديدة التى فى أسفل الرمح . قعس الكواهل : مثـل معناه أن كواهلها (جمع كاهـل) مشرفة كأن بها حدبا ؛ وقعس : جمع أقعس وهو الأحدب . شمم : إشراف . يصف الخيل .

(١٧) الماذى : الدروع السهلة اللينة ، وكل لين يقال له ماذى . نسج داود : لأن داود كان أول من صنع الدروع . إرم : أمة قديمة وهى عاد ، والعـرب تنسب كل قـديم إلى عاد . ولا يقصد الشاعر هنا أن إرم هى التى أورثت الدروع ، بل يقصد أنها دروع قديمة متوارثة .

(١٨) حبيك البيض : طرائقه . والبيض : خوذات الحديد . ينكلون : يجبنون . استلحموا : أدركوا . حموا : غضبوا .

١٩ ينظُر فُرسانُهم أمرَ الرئيس وقد شدَّ السرُوجَ على أثباجِها الحُزُمُ
٢٠ يَقْسِم ثم يُسَوِّى القَسْمَ بينهـــمُ معتَدِلُ الحـكم لا هارٍ ولا هَشِمُ
٢١ فضَّـــلَه فوقَ أقوامٍ ومجَّـــدَه مالنْ ينالُوا و إنْ جادُوا و إن كَرُموا
٢٢ قَوْدُ الجيادِ و إصْهارُ الملوكِ وصبْـ ـرٌ فى مواطنَ لو كانوا بها سَئِمُوا
٢٣ يَنزِعُ إمَّـةَ أقوامٍ ذوى حسَبٍ ممــا تَيَسَّرَ أحيـانا له الطُّعَـــمُ
٢٤ ومن ضَريبتِه التقوَى ويعصِمُه من سيِّئِ العَثَراتِ اللهُ والرَّحِـــمُ
٢٥ مورَّثُ المجـدِ لايغتـالُ هِمَّتَـه عن الرياسَـةِ لا عجْـزٌ ولا سأمُ
٢٦ كالهِنـدُوانى لا يُخْزِيكَ مَشْهَدُه وسْطَ السُّيوفِ اذا ما تُضْرَبُ البُهَمُ

---

(١٩) ينظر : ينتظر . شد السروج : يقصد شد الأحزمة السروج . الأثباج : أثباج الخيل هى أوساطها . يريد أنهم أسرجوا خيلهم تأهبا لأمر رئيسهم بالقتال .

(٢٠) هار : هائر ، أى ضعيف لا عقـل له . هشم : سريع الانكسار ، والمعنى أنه يعدل عند تقسيمه للغنائم بين أصحابه .

(٢١) ما لن ينالوا : أى مالن ينالوه من فضله وفعله ؛ والمعنى أنه فاق الجميع بفضله وإن كان الجميع كرماء .

(٢٢) قود : قيادة : إصهار : مصاهرة ؛ والمعنى أنه نال الفضـل لقيادته الجيـاد ومصاهرته للملوك . سئموا : ملوا . فى مواطن : الاشارة هنا إلى مواطن القتال وصبره وحسن بلائه فيها .

(٢٣) إمة أقوام : حالهم الحسنة ؛ والمعنى أنه ينزع نعـم أعدائه فتصبح ملكا له . تيسر : أى الغنائم التى تهيأ له . الطعم : المآكل وكل ما يرزق به الانسان ؛ وقد تعنى الخراج أو الإتاوة .

(٢٤) ضريبته : طبيعته . يعصمه : يمنعه . الرحم : أى صلة الرحم ؛ والمعنى أن هناك أمرين يعصمانه من العثرات والوقوع فى الزلل وهما الله وصلة الرحم .

(٢٥) مورث المجد : أى ليس حديث عهد بالشرف ، بل ورث المجد عن آبائه وأجداده . يغتال : يقطع همته ويجعلها تفتر . السأم : الملل .

(٢٦) الهندوانى : السيف المنسوب إلى الهند . يخزيك : يذلك ويهينك . البهم : الجماعة ؛ ويقال للبطل « بهمة » لأنه لاتدرى جهة قتاله . والمعنى أن الممدوح فى مضائه وحسن تصريفه للامور كالسيف الهندى عندما تتلاحم الجموع فى القتال .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

(٣)

مِنْ مدائحِ هَرِم أيضًا

من الأطلال إلى الناقة :

١ غَشِيتُ الديار بالبَقِيع فثَهْمَدِ دَوارِسَ قد أقوينَ من أُم مَعبَدِ
٢ أَرَبَّتْ بها الأرواحُ كل عشيةٍ فلم يبقَ إلا آلُ خَيْم مُنَضَّدِ
٣ وغيرِ ثلاثٍ كالحمامِ خوالدٍ وهابٍ مُحِيلٍ هامدٍ متلبِّدِ
٤ وقفت بها رَأْدَ الضَّحَاء مطيتِي أسائلُ أعلاما ببيداء قَرْدَدِ
٥ فلما رأيت أنها لا تجيبنى نهضتُ إلى وجناء كالفحل جَلْعَدِ
٦ متى ما أكلِّفها مفازةَ منهلٍ فتُستعفَ أو تُنْهَكْ إليه فتَجْهَدِ

---

(١) غشيت : ارتدت . البقيع وثهمد : موضعان بناحية المدينة . دوارس : مهجورة بالية .

(٢) أربت : أقامت . الأرواح : جمع ريح . خيم : جمع خيمة . منضد : بعضه فوق بعض . الآل : الأعواد التى تبنى عليها الخيام .

(٣) ثلاث : يقصد الأثافى (المواقد) الثلاث ؛ شبه لونها بالحمام لأنها سود تضرب إلى الغبرة . خوالد : مقيمات باقيات . هاب : رماد عليه هبوة أى غبرة مع طول القدم . محيل : أى أتى عليه الحول . هامد : خامد . متلبد : هطلت عليه الأمطار حتى تلبد والتصق بعضه ببعض .

(٤) رأد الضحاء : وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوئها ؛ والضحاء هو ارتفاع النهار الأعلى . قردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض .

(٥) لا تجيبنى : أى أن الديار لا ترد على . وجناء : ناقة ضخمة الوجنات . جلعد : شديدة .

(٦) مفازة منهل : صحراء بها ماء . تستعف : تعطيك ما عندها عفوا ، أو يؤخذ عفو ما عندها (زيادته) من السير من غير كد . تنهك : أى يبالغ فى ضربها لتجتهد . تجهد : تتعب .

٧ نَخنساءَ سَفعاءِ المَلاطم حُـــرَّةٍ مسافرةٍ مَزْؤودةٍ أمِّ فرقَـدِ
٨ غـدتْ بسلاحٍ مثـلُه يُتقى به ويؤمِن جَأش الخـائف المتوقِّدِ
٩ وسامِعتينِ تعرفُ العِتقَ فيهمـا الى جِذْرِ مدلوكِ الكُعوبِ مُحدَدِ
١٠ وناظِـرتينِ تَطْحَران قَذَاهمـا كأنهمـا مكحولتان بإثْمِــدِ
١١ طَباهـا ضَحاء أو خَلاء فخالفتْ إليـه السباعُ فى كِناسٍ ومرقَدِ
١٢ تَبذُّ الأُلى يأتينها من ورائها وإن تتقدَّمهـا السوابقُ تُصْطَدِ
١٣ فأنقذها من غمـرة الموت أنهـا رأت أنها إن تَنْظُر النَّبلَ تُقْصَدِ
١٤ وجَدَّت فألقت بينهن وبينهـا غُبارا كما فارتْ دواخنُ غَرْقَدِ
١٥ كأن دماء المُؤْسَـدَات بنحرِهـا أطِبَّـةُ صِرفٍ فى قَضيمٍ مُسَرَّدِ

---

(٧) خنساء : بقرة وحشية ، سفعاء : سوداء فى حمرة . الملاطم : الخدود . مزؤودة : مذعورة . والفرقد : ولد البقرة ، يشبه ناقته بهذه البقرة الأم .

(٨) بسلاح : يقصد قرنيها ، يتقى به : يحتمى به من العـدو . يؤمن جأش الخائف : يهدىء المشاعر المضطربة . المتوقد : الذى اتقد جوفه من الفزع والخوف .

(٩) سامعتين : أذنين . العتق : الكرم ، جذر : أصل ، مدلوك الكعوب : قرونه مدلوكة أى ملساء ، والكعب هو ما بين العقدتين فى القرن والقناة . محدد : أى محدد الرأس .

(١٠) ناظرتين : عينين . تطحران : ترميان . القذى : ما يخرج من العين . الإثمد : الكحل .

(١١) طباها : دعاها . الضحاء : الرعى عند الضحى . خلاء : خلوة . إليه : يقصد إلى ولدها . خالفت : أتت خلفه . الكناس : بيت الظبي فى الشجر يستتر فيه من الحر والبرد . مرقد : منام .

(١٢) تبذ : تسبق وتغلب . يأتينها من ورائها : أى تأتى الكلاب من خلفها . السوابق : أى الكلاب ، ما سبق منها . تصطد : أى تطعن وتعقر .

(١٣) إن تنظر : إن تنتظر . النبل : أى السهام ، وربما يقصد أصحاب النبال . تقصد : تقتل .

(١٤) جدت : أسرعت . بينهن وبينها : أى بينها وبين الكلاب . دواخن : جمع دخان . الغرقد : شجر له شوك ، وهو كثير الدخان .

(١٥) المؤسدات : المغريات بالصيد ؛ وهنا يشبه الشاعر الدماء التى تلطخ نحرها بطرائق أديم أحمر . أطبة : سيور ، مفردها طبابة ، وهى قطعة من الجلد توضع على طرفى جدار القربة ليحملها السقاء . الصرف : صبغة حمراء تصبغ بها جلود النعال . القضيم : الجلد الأبيض أو الصحيفة . المسردة الخرز فى الأديم .

إلى هَرِم :

١٦ إلى هَرِم تهجيرها ووَسِيجُها تَروَّحُ من ليل التِّمام وتَغْتَدى
١٧ إلى هرم سارت ثلاثا من اللِّوى فنِعْمَ مسيرُ الواثقِ المتعمِّد
١٨ سواءٌ عليه أىَّ حينٍ أتيتَه أساعةَ نَحْسٍ تُتَّقى أم بأَسْعُدِ
١٩ أليس بضرَّابِ الكُماة بسيفه وفكَّاكِ أغلال الأسير المُقَيد
٢٠ كليثٍ أبى شبلَين يحمى عرينَه إذا هو لاقَى نجدةً لم يُعَرِّد
٢١ وثِقْلٌ على الأعداء لا يَضْعَمُونه وحمَّالُ أثقالٍ ومأوَى المُطَرَّد
٢٢ أليسَ بفيَّاضٍ يَداه غَمَامةٌ ثِمَالِ اليتامَى فى السنين مُحمَّدِ
٢٣ كفضلِ جوادِ الخيل يسبقُ عفوُه السِّراعَ وإن يَجْهَدْن يَجْهد ويُبْعِدِ

(١٦) التهجير : السير فى الهاجرة وهى نصف النهار . الوسيج : نوع من سير الإبل السريع : وأول السير الدبيب ثم العنق ثم التزيد ثم الذميل ثم العسج ثم الوسج . ليل التمام : أطول ما يكون من الليل . تروح : تخرج برواح أى تخرج بالعشى ، وموعدها من زوال الشمس إلى الليل .

(١٧) اللوى : ما انقطع من الرمل ، وهو موضع معروف حيث يلتوى الرمل وينقطع . الواثق : الذى يثق بمسيرته إليه . المتعمد : القاصد .

(١٨) سواء عليه : أى لا يتشاءم بشىء سواء أتاه نحس أو سعد .

(١٩) الكماة : مفردها كمى ، وهو المرتدى للسلاح أو الشجاع المقدام ؛ وسمى كميا لأنه يستر نفسه بالدرع أو لأنه يكمى شجاعته أى يكتمها لحين الضرورة .

(٢٠) الشبلان : جروا الأسد . العرين : يقصد الأجمة . نجدة : قتال . لم يعرد : لم يفر .

(٢١) ثقل : ثقيل . لا يضعمونه : لا يستطيعون التخلص منه . حمال أثقال : أى يتحمل من أمر عشيرته ما يثقل عليهم من تبعات ومسئوليات . المطرد : المطرود .

(٢٢) فياض : يفيض عليهم بكرمه . غمامة : سحابة . ثمال اليتامى : الذى يطعم اليتامى وقت الشدة . محمد : محمود .

(٢٣) عفوه : ما جاء منه عفوا ، أى ما زاد عن حاجته . السراع : يقصد السراع من الخيل . يجهدن : يتعبن ، ويقصد هنا الخيل . يبعد : يسبق بعيدا .

٢٤ تـقيٌّ نـقيٌّ لم يكَثِّر غنيمــةً بنَهْـكَةِ ذى قُربى ولا بِحَقَـلَّدِ

٢٥ فلو كان حمدٌ يُخْلِدِ الناس لم يَمُتْ ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمُخْلِدِ

٢٦ ولكنَّ فيــه باقيـاتِ وِرَاثةً فأورِثْ بنيـكَ بعضَهـا وتزوَّدِ

٢٧ تزوَّدْ إلى يوم الممـات فإنه ولو كرِهَتْهُ النفسُ آخرُ موعِدِ

* * *

(٩) لم يكثر غنيمة : أى لم يزد أمواله بظلم قرابته والاستيلاء على مالهم ، ولم يكثر غنائمه بما ينقصه من متاع ذوى قرابته . نهكة : انتقاص . حقلد : بخيل سيء الخلق .

(١٠) يخلد الناس : أى يجعل الناس خالدين ؛ والمعنى أنه لو كان الفعل المحمود يجعل صاحبه خالدا لخلدك فعلك فلم تمت ، ولكنه لا يجعل الانسان خالدا .

(١١) باقيات : ما يذكر به من الشرف مما ورثه عن آبائه . يقــول له : أورث بعض مكارمك ومحامدك بنيك ، وتزود ببعضها لما بعد موتك ، لأن الموت يلزمه الزاد .

(١٢) يقول : إن الموت موعد لابد منه وإن كرهته النفس ، ولذلك ينبغى التزود له .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

(٤)

مِن مدائح هَرِم أيضا

مقـــدمة غزليـــة :

١ هـل فى تذكُّر أيام الصِّبا فَنَـدُ — أم هل لمـا فاتَ من أيامِه رِدَدُ
٢ أم هل يُلامَنَّ باكٍ هـاجَ عَبْرتَه — بالجِجر إذ شـفَّه الوَجْدُ الذى يَجِد
٣ أوفَى على شرفٍ نَشْزٍ فأزعجـه — قلبٌ إلى آل سَلمى تائقٌ كَمِـد
٤ متى تُرى دارُ حَىٍّ عهـدُنا بهـمُ — حيث التقى الغَوْرُ من نَعمانَ والنُّجُد
٥ لهـم هوىً من هوانا ما يُقرِّبنا — ماتت على قُربِه الأحشاءُ والكَبِد
٦ إنى لمـا استودَعتنى يومَ ذى غُدُم — راعٍ إذا طالَ بالمستودَع الأَمَد
٧ إن تُمْسِ دارُهم عنـا مُباعَدة — فمـا الأحبةُ إلا هُم وإن بَعُدُوا
٨ يا صاحبىَّ أنظُرا والغَوْرُ دُونَكما — هل يَبْدُونَّ لنـا فيما نَرى الجُمُـد
٩ هَيْهاتَ هيهات من نَجْدٍ وساكنه — من قـد أتى دُونه البغثاءُ والثَّمَـد

(١) الفند : الخطأ فى القول والرأى . ردد : عودة .

(٢) شفه : أسقمه وأوهنه . الوجد : العشق الشديد . الجر : مكان بهذا الاسم .

(٣) الشرف : المكان العالى . النشز : المرتفع . تائق : مشتاق . كمد : محزون .

(٤) الغور : ما هبط من الأرض . النجد : ما أشرف وارتفع من الأرض .

(٦) ذوغدم : موضع من نواحى المدينة .

(٨) الجمد : جبل فى نجد .

(٩) البغثاء : الأرض ذات الرمل والحجارة . الثمـد : الماء القليل . ويرى الشراح أن البغثاء والثمد اسمان لموضعين بعينهما .

هـــرم وقومـه :

١٠ إلى ابنِ سَلْمى سِنانٍ وابْنِه هَرِمٍ ... تخـو بأقتادها عِيـديَّةٌ تَخِـدُ
١١ عومَ القوادِسِ فِقِيَّ الأردَمُون بها ... إذا ترامى بهـا المُغْلَوْلِبُ الزَّبِدُ
١٢ بِفِتية كسُيوف الهنـد يبعثهـم ... همٌّ فكلهـمُ ذو حاجة يَقِـدُ
١٣ أقولُ للقوم والأنفاسُ قد بلغتْ ... دون اللَّها غيرَ أن لم ينْقُصِ العدَدُ
١٤ سيروا إلى خيرِ قيْسٍ كلِّها حَسَبا ... ومُنْتَهى من يريدُ المجـدَ أو يفِدِ
١٥ فاستمطِرُوا الخيرَ من كفَّيه إنهما ... بسَيْبِه يتروّى منهمـا البُعُــدُ
١٦ مبـاركُ البيتِ ميمونٌ نَقيبتُه ... جَزْلُ المواهبِ مَن يُعطى كمَن يَعِدِ
١٧ فالناس زَوجان في معروفه شَرَعٌ ... فمنهــمُ صـادرٌ أو قاربٌ يَرِدُ
١٨ رَحْبُ الفِناء لو انَّ الناس كلَّهمُ ... حلُّوا إليـه إلى أن ينقضى الأَبَدُ

---

(١٠) تنجو : تسرع . الأقتاد : خشب الرحل أو جميع أدواته . عيدية : منسوبة إلى فحل منجب يقال له « عيد » تنسب إليه كرام النجائب من الإبل . تخد : تسرع بخطى واسعة .

(١١) القوادس : جمع قادس ، وهو السفينة العظيمة ؛ وقيل هو نوع من السفن . الأردمون : جمع أردم وهو المـلاح الحاذق المـاهر . المغلولب : هو النبات الملتف الذى بلغت شدة التفافة شأوا عظيما ؛ ويقال اغلولب القوم أى كثروا . الزبد : المزبد . ويقصد الشاعر هنا أن البحر مزبد متلاطم كثير الأمواج .

(١٢) يقد : يشتعل ويتقد ، أى يمضى الى تحقيق غايته بهمة لا تعرف الكلل .

(١٣) اللها : جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(١٥) السيب : العطاء والمنح . البعد : البعيد أو القاصى .

(١٦) ميمون النقيبة : محمود المختبر مبارك النفس ، ينجح فيما يحاول ويظفر بما يروم .

(١٧) شرع : سواء . الصادر : الراجع عن المـاء المنصرف عنه . القارب : طالب المـاء .

(١٨) رحب الفناء : كناية عن الكرم . وجواب « لو » فى البيت التالى .

١٩ ما زال فى سَيْبه سَجْلٌ يَعُمُّهُمُ ... مادام فى الأرض مِنْ أوتادها وَتِدُ

٢٠ فى الناس للناس أندادٌ وليس لهُ ... فيهم شَبِيه ولا عِـدْلٌ ولا نَدَد

٢١ لو كان يَخْـلُد أقوام بمجدهمُ ... أو ما تقـدَّم من أيامِهم خلدوا

٢٢ أو كان يقعدُ فوقَ الشمس من كرم ... قومٌ بأولهم أو مجـدهم قَعَـدُوا

٢٣ قوم أبوهم سِنانٌ حين تَنْسِبهم ... طابوا وطابَ من الأولاد ماولدُوا

٢٤ إنسٌ إذا أمنوا جنٌّ إذا غضبُوا ... مرزَّءُون بَهَاليلٌ اذا جُهِـدُوا

٢٥ محسَّدُون على ما كان من نِعَـم ... لا ينزِع الله منهـم ماله حُسِدُوا

٢٦ لو يُوزَنُون عِيـارا أو مكايَلةً ... مالوا بِرَضْوَى ولم يَعْدِلهمُ أَحدُ

(١٩) السيب : العطاء ، وأصله الماء الغزير . والسجل : الدلو الضخمة المملوءة بالماء . وأوتاد الأرض : جبالها .

(٢٠) العدل : المثيل والنظير . الندد : المثل والشبيه ، وصيغته الشائعة هى الند لا الندد .

(٢٢) الكرم هنا : مكارم الأخلاق .

(٢٤) مرزءون : كرماء . بهاليل : سادة جامعون لكل خير . جهدوا : بذلوا جهدا ومشقة ، أو أصابهم قحط من قلة المطر فتعبوا تعبا شديدا .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

(٥)

هجائية

رحلة الظعائن :

١ بانَ الخليطُ ولم يأْووا لمن تركوا   وزوَّدوكَ اشتياقاً أيَّةً سلكوا

٢ ردَّ القِيانُ جمالَ الحيِّ فاحتملوا   الى الظهيرةِ أمرٌ بينهم لَبِكُ

٣ ما إنْ يكادُ يُخلّيهم لوجهتهم   تخالجُ الأمرِ إن الأمرَ مشتركُ

٤ وعرَّسوا ساعةً فى كُثْبِ أسنمةٍ   ومنهُم بالقسوميّاتِ معترَك

٥ يغشَى الحُداةُ بهم حُرَّ الكثيبِ كما   يُغْشِى السفائنَ موجَ اللجَّةِ العَرَكُ

---

(١) بان الخليط : أى فارقك مخالطوك فى الدار ، أى من يجاورونك . لم يأووا : لم يرحموا . زودوك : زادوك . أية سلكوا : أى أية جهة سلكوا فأنت مشتاق .

(٢) رد : أى ردون الجمال من المرعى كى يجهزنها استعدادا للرحيل . القيان : جمع قينة وهى الأمة . احتملوا إلى الظهيرة : تأخرت رحلتهم إلى وقت الظهيرة نظرا لاختلاطهم وكثرتهم . لبك : مختلط .

(٣) يخليهم : يتركهم . وجهتهم : طريقهم . تخالج الأمر : الاختلاف فى الرأى . مشترك : أى ليس أمرا واحدا ، لأن كل شخص منهم له رأى .

(٤) عرسوا ساعة : نزلوا ساعة . كثب أسنمة : أكمة معروفة بقرب فلج . القسوميات : موضع يقع على اليمين فى طريق فلج . المعترك : مكان نزولهم ، والمعترك أصلا موضع العراك ، ويقصد هنا أنهم يعتركون عند موضع نزولهم .

(٥) الحداة : من يحدون الإبل . حر الكثيب : الرمل المنبسط لا تراب فيه ، وهو لين تغوص فيه الأقدام . اللجة : لجة الماء أى معظمه . العرك : البحارة أو الملاحون ، مفردها عركى ، كعرب وعربى . والمعنى أن حمل الحداة للابل على اقتحام الرمال الصعبة مثل اقتحام البحارة لجة البحر بالسفن .

٦ ثم استمروا وقالوا إن مَوْعِدَكم ماءٌ بشرقىّ سلمى فَيْدُ أو رَكَكُ

٧ هل تُلحقنّى وأصحابى بهم قُلُصٌ يُزْجى أوائلَها التبغيلُ والرَّتكُ

٨ مُقْوَرَّةٌ تتبارى لا شَوارَ لها إلا القُطُوعُ على الأكوار والوُرُكُ

٩ وقد أرانى أمامَ الحىّ تحملنى جرداءُ لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ

١٠ مرًّا كفاتًا إذا ما الماءُ أسهلها حتى إذا ضُرِبتْ بالسوطِ تَبْتَرِكُ

١١ كأنها من قَطَا الأجْبابِ حانَ لها وِرْدٌ وأفردَ عنها أُختَها الشَّبَكُ

١٢ جُونيّةٌ كحَصاةِ القَسْمِ مرتعُها بالسّىّ ما تُنْبِتُ القَفْعاء والحَسَكُ

(٦) سلمى : أحد جبلى طيء وهما أجأ وسلمى . فيد : نجد قريب من الجبلين المذكورين . ركك اسم لنبع ماء فى هذه الجهة . استمروا : استقام أمرهم فمروا أى ساروا .

(٧) قلص : جمع قلوص وهى الفتية من الابل . يزجى : يسوق . التبغيل : نوع من السير تحسن الدابة فيه السير بسرعة ، مأخوذ من مشى البغال . الرتك . مقاربة الخطى فى سير الدواب .

(٨) مقورة : ضامرة . لا شوار لها : لا متاع عليها ، لأن أصحابها يسرعون كى يلحقوا بالقوم . القطوع : الطنافس التى على الرحل ، وهو ما يوضع على الابل . الأكوار : جمع كور وهو الرحل . الورك : جمع وراك ، وهو ثوب يشد على رحل الدابة ثم يثنى ما يفضل منه كى يدخل تحت الرحل .

(٩) الفحج : تباعد ما بين الفخذين وتقارب صدور القدمين . والصكك : اصطكاك العرقوبين . وهما من عيوب الخيل . يصف فرسه .

(١٠) مرا : مرورا . كفاتا : سريعا . الماء أسهلها : أى تنضح بالماء حينما تعرق . تبترك : تجتهد فى العدو . وهذه من صفات جياد الخيل .

(١١) القطا : طيور . الأجباب : مواضع فيها ماء متجمع . الورد : الماء المورود ، أى الذى يرده الناس . أفرد عنها : جعلها تنفصل عنها لفزعها . الشبك : حبال الصائد .

(١٢) الجونية : نوع من طيور القطا . حصاة القسم : هى حصاة يقدر بها الماء فى القدح ، ويقسمون بواسطتها الماء على الشاربين عندما يكون قليلا . السى : ما استوى من الأرض . القفعاء : نوع من البقول التى تنبت من تلقاء نفسها دون زراعة . الحسك : نوع آخر من البقول ، وهو غير الحسك الشائك لأن شوكة الحسك تقتل القطاة لو أكلتها .

١٣ أهْوَى لها أسْفَعُ الخَدَّين مُطَّرِقٌ ... رِيشَ القَوَادِمِ لم تُنْصَبْ له الشَّرَكُ
١٤ لا شيءَ أجْوَدُ منها وهى طَيِّبةٌ ... نَفْسًا بما سوفَ يُنْجِيها وتَتَّرِكُ
١٥ دُونَ السَّماءِ وفوقَ الأرضِ قَدْرُهما ... عند الذُّنابَى فلا فَوْتٌ ولا دَرَكُ
١٦ حتى إذا ماهَوَتْ كفُّ الغلامِ لها ... طارتْ وفى كفِّه من رِيشِها بِتَكُ
١٧ ثم استمرَّتْ الى الوادِى فألْجَأها ... منه وقد طمِعَ الأظْفارُ والحَنَكُ
١٨ حتى استغاثتْ بماءٍ لا رِشَاءَ له ... من الأباطِحِ فى حافاتِه البُرَكُ

رسالة هجاء :

١٩ هلَّا سألتَ بنِى الصَّيْدَاءِ كلَّهمُ ... بأىِّ حَبلِ جِوارٍ كنتُ أمْتَسِكُ

(١٣) أهوى : هوى أو انقض عليها ، والمعنى أن صقرا أراد أن يفترسها . أسفع الخدين : السفع سواد تعلوه حمرة ، وهو صفة للصقر . مطرق : أى أن ريشه مثبت على بعضه وليس منتشرا . القوادم : قوادم الطير هى مقاديم ريشه ، وهى عشر فى كل جناح ، والقوادم تعنى التى فى المقدمة أو التى نبتت قديما . الشرك : الفخاخ ؛ والمعنى أن الصقر لم يقع فى الشرك ولم يؤخذ فيذلل .

(١٤) أجود منها : أسرع منها طيبة نفسا : واثقة بطيرانها وهى لذلك لا تخرج أقصى ما عندها من سرعة فى الطيران ، مدخرة جهدها لوقت الحاجة . تترك : تدع بعضا من سرعتها لوقت الضرورة . والحديث هنا عن القطاة .

(١٥) دون السماء : أى لم يحلقا فيغيبا فى أجواز الفضاء ولم يصيرا على الأرض ، فهما بين الأرض والسماء . الذنابى : الذنب ؛ والمعنى أن الصقر قاربها حتى صار عند ذنبها . فلا فوت ولا درك : أى أن القطاة لا تفوته ، وهو لا يدركها .

(١٦) بتك : قطع ، ومفردها بتكة . والمعنى أن سرعتها فائقة لا تمكن الغلام من الامساك بها .

(١٧) استمرت إلى الوادى : لجأت إلى الوادى لتحتمى بشجره . الأظفار : المخالب . الحنك : المنقار .

(١٨) ماء لا رشاء له : ماء متدفق يخرج من الأرض ويجرى على وجهها . الأباطح : جمع أبطح وهو مسيل الماء الذى لا عمق له . البرك : طيور بيض ، وهى أيضا الضفادع .

(١٩) بنو الصيداء : قوم من بنى أسد وهم رهط الحارث بن ورقاء ، وكان هذا قد أغار على إبل زهير وأخذ عبده يسارا . حبل جوار : رباط جوار ؛ والمعنى أنى كنت لا أستوثق إلا بحبل متين هو حبل قومك ، وهو عهد لهم هلكوا حينما غدروا به . الجوار : الذمة والعهد . أمتسك : أتمسك .

٢٠ فلن يقولوا بحبل واهن خلق ... لو كان قومك فى أسبابه هلكوا
٢١ يا حار لا أرمين منكم بداهية ... لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك
٢٢ فاردد يسارا ولا تعنف علىّ ولا ... تمعك بعرضك إن الغادر المعك
٢٣ ولا تكونن كأقوام علمتهم ... يلوون ما عندهم حتى إذا نهكوا
٢٤ طابت نفوسهم عن حق خصمهم ... مخافة الشر فارتدوا لما تركوا
٢٥ تعلمن ها لعمر الله ذا قسما ... فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك
٢٦ لئن حللت بجو فى بنى أسد ... فى دين عمرو وحالت بيننا فدك
٢٧ ليأتينك منى منطق قذع ... باق كما دنس القبطية الودك

---

(٢٠) واهن : ضعيف . خلق : ممزق . فى أسبابه : السبب هو الحبل ؛ والمعنى أنه لو تمسك بالحبل الواهن لهلك ، ولكن حبله متين محكم .

(٢١) حار : ترخيم حارث ، وهو الحارث بن ورقاء . سوقة : رعية .

(٢٢) لا تمعك : لا تمطل ، لأنك كلما مطلتنى أهلكت عرضك . المعك : المطول أو المماطل ، ومن كانت هذه شيمته كان غدارا .

(٢٣) يلوون : يكرهون الفعل و يصعب عليهم القيام به . نهكوا : شتموا وانصب عليهم الذم والهجاء .

(٢٤) ارتدوا لما تركوا : أى رجعوا إلى الحق الذى تركوه ومنعوه ، أو ارتدوا إلى إعطاء الحق بعد تركه .

(٢٥) تعلما ها لعمر الله ذا : والمعنى اعلما لعمر الله ذا . اقصد بذرعك : أى قدر خطوك ، والذرع هو مقدار الخطوة ، والمعنى لا تتكلف ما لا تطيق منى . تنسلك : الانسلاك هو الدخول فى الأمر ؛ والمعنى لا تزج بنفسك فيما لا يعنيك .

(٢٦) حللت : نزلت . جو : واد متسع . دين عمرو : طاعته . فدك : قرية بالحجاز بينها و بين المدينة يومان أو ثلاثة بالإبل .

(٢٧) منطق : قول . قذع : قبيح ، وأقذع أى قال قولا قبيحا . باق كما دنس : أى يبقى عليك دنسه كما يبقى فى الثوب الأبيض . القبطية : الثوب الأبيض ، وتطلق على ثياب الشام البيض ، أو هى ثياب بيض رقاق تصنع من كتان مصر .

* * *

محمد حمدى إبراهيم

المُثَقِّبُ العَبْـدِىُّ

* * *

اسمـه عائذ بن مُحْصِن بن وائلة بن عدىّ ... ... من شعراء الجاهلية القدماء زمن عمرو بن هند ، وهو أقدم من النابغة الذبيانى ، وأخباره غامضة ، ولم يترجم له صاحب الأغانى ، على الرغـم من أنه أشهر شعراء قبيلته ، كان سياسيا بارعا استطاع إنهاء الخصام بين المناذرة والعبديين ، وكان شاعرا مشهورا منذ نشأته فى بيئـة شعرية مرموقة ، إذ كانت لأسرته مكانتها بين أسر قبيلة « نُكْرَةَ » التى أنجبت أشهر شعراء العبديين .

وقد أهّلته ظروف النشأة لكى يقوم بدوره السياسى فى الصلح القبلى ، ذلك أن صفاته الحكيمة يمكن أن ترتد — فى بعض جوانبهـا — إلى ما ورثه عن جده المصلح وأسرته العريقـة فى « نكرة » ونسبه الكريم فى عبد القيس . وكما عُرِفَ المثقب بحكمته عُرِفَ أيضا بجوده وكرمه ووفائه بالعهد . ولم يكن المثقب شاعرا غَزِلًا ولم تفرد له فى الغزل قصائد خالصة وإنْ كثُر عنده غزل المقدمات الذى نجد مثالا منه فى القصيدة النونية والتى نحن بصددها والتى يبدو فيهـا ثائرا مهددا بالقطيعة ومصرّحا برفضه الخـداع والتضليل ، وهو لا يقبل ذلك الخـداع بأى حال من الأحوال فـلو أن يده اليسرى — على حد تصويره — خانتـه لأهملها وقطعها وأراح نفسه منها .

وقـد اهتم البعض بتعليل كلمة مثقب التى لُقِّبَ بهـا هذا الشاعر ، فذهب السّيوطى إلى أن السبب هو بيت الشعر الذى ورد فى قصيدته النونية خاصة أن

هناك شعراء آخرين لقبوا ببيت من الشعر منهم الممزّق والمرقّش والمسيّب ، كما أورد الدكتور طه حسين رأيا فى هذه المسألة حين وقف على تحليل معانى مادة (ثقب) التى ركز منها على دلالتها على شخصية المثقب الشاعر فهو زعيم قبيلته وصاحب رأى سديد فيها ، وهو مشهور النسب شديد المروءة ذو فطنة وذكاء ، وجدير بمن يثقب الوصاوص والبراقع أن يلقب بالمثقب . ووطن المثقب هو البحرين حيث ولد فى منازل عبد القيس ، وكانت قبيلته « نكرة » تسكن وسط « القطيف » وما حولها من قرى وأرياف .

وشأن شعراء الجاهلية عامة يبدو تاريخ ميلاد المثقب مجهولا وكذلك تاريخ وفاته ، وإن كان جرجى زيدان قد زعم أن وفاته كانت سنة ٥٢٠ م ، ولكنه عاد بعد ذلك ليحددها بسنة ٥٨٧ م .

وفى نونيته يطلب فى مقدمتها من صاحبته ألا تبخل عليه وأن تمتعه قبل الرحيل ، ويسألها وفاء بعهودها معه ، مسجلا أثناء ذلك قدرته على مجاراة القطيعة بمثلها . وتبدو صاحبته واعدة مماطلة ، ومخادعة كاذبة ، مما لا يشجعه على التهالك على وصلها إنْ هى قطعته .

ثم يقف عند مشهد الظعن ليكشف عن طبيعة تجربة الارتحال التى عايشها واقعًا حقيقيا تنطلق فيها عواطفه وانفعالاته وحماسه ، فيصور طريق الظعائن ويتتبع سيرها فى جوف الصحراء ، ويفصِّل فى تصوير مشهد النساء فى هوادجهن ، ويحرص على تحديد الأماكن ليشير من خلالها إلى ذكرياته فيها ويعرض موقفه منها وارتياح نفسه إليها . ولا يكاد المشهد يكتمل حتى يقف الشاعر عند لوحة رسم فيها صورة الإبل وهى تمايل مسرعة فى سيرها تمايل السفن عبر أمواج البحار ،

كما يشير فى أثناء ذلك إلى الأهداج والرجائز وهى مراكب النساء أيضا وقد زُيِّنت بأكسية فاخرة ملونة ، وغطيت بكلل من ستائر رقيقة لعبته فيهـا يد فنان ماهر .

ويتغزل الشاعر فى الظعائن وغطيت ، وما يرتدين من ثياب وما يتحلين به من ذهب لينتقل من هذا المشهد الحسى إلى عدم الاستسلام الكامل لهن ، فيؤثر الرحيل ويستعير له معشوقته الأخرى ، وهى ناقة أصيلة تسلبه همومه ، ويشتد بها إعجابه فيصور ضخامة جسمها ، وأصالتها وسرعة سيرها ، وهى تقذف بالحجـارة وتصطدم بالحصى الغليظ فتطرده أمامها .

وفى تدوج منطق طريف ينتهى من عرض مشهد الرحيل الحركى المتنقل إلى تصوير طبيعة المعاناة التى ألمت بها ، من كثرة الأهوال من التعريس ليلا إلى الجهد المستمر والإرهاق الذى تعانيه . وهنـا تتداخل ذات الشاعر مع موضـوعه حين يتوحد مع ناقتـه فى مشهد الإرهاق والكلال فكلاهما يشتكى الزمن ، وكلاهما يخضع له راضيا أو غير راض .

ويتخـذ المثقب من رحلته واسـطة انتقال يصل بهـا إلى بلاط الملك عمرو ابن هند ، فيراه — كما يرى المـادحون ممدوحيهم دائما — صاحب نجدة ومروءة ولكنه لا يقف كثيرا عند هـذا المدح حتى يدخل معـه فى حوار أو عتاب يتميز بالقسوة ، يريد من خلاله أن يقف على حقيقة الصداقة والعداوة ، وكأنه يصر على تبين حقيقة موقف الملك من قومه العبديّين . وقبـل الختام يحرص الشاعر على تصوير جهل المرء بما يكنه له القدر على عادة شعراء العصر الجاهلى ومن جاء بعدهم .

* * *

عبد الله التطاوى

(١)

مناجاةٌ وعتابٌ

١ أفاطمَ قبلَ بينِك متّعيني ‌‌ ‌ ومنعُك ما سألتِ كأنْ تبيني
٢ فلا تَعِدى مواعدَ كاذباتٍ ‌‌ ‌ تمرُّ بها رياحُ الصّيفِ دُوني
٣ فإنّى لَوْ تُخالفُنى شِمالِى ‌‌ ‌ خلافَك ما وصلتُ بها يمينى
٤ إذًا لقطعتُها ولقُلتُ بِيْنى ‌‌ ‌ كذلك أجتوى مَنْ يجتوينى
٥ فسلِّ الهمَّ عنكَ بذاتِ لَوْثٍ ‌‌ ‌ عُذافرةٍ كمطرقةِ القُيونِ
٦ بصادقةِ الوَجيفِ كأنّ هِرًّا ‌‌ ‌ يُباريها ويأخُذُ بالوَضينِ
٧ كَساها تامِكًا قَرِدًا عليها ‌‌ ‌ سَوادِىُّ الرَّضيحِ مع اللّجينِ
٨ إذا قلِقتْ أشُدُّ لها سِنافًا ‌‌ ‌ أمامَ الزَّوْرِ من قلَقِ الوَضينِ

---

(٢) رياح الصيف مشهورة بغبارها وعدم جدواها . خلافك : مخالفتك . يجتويه : يستثقله ويبغضه .

(٥) اللوث : الشدة . العذافرة : الشديد القوية . القين : الحداد .

(٦) الوجيف : ضرب من السير السريع . يباريها : يسير معها . الوضين للرحل يساوى الحزام للسرج .

(٧) التامك : المشرف الطويل . القرد : المتلبد . السوادى : النسبة الى سواد العراق . اللجين : ما تلجن أو تلزج من ورق أو علف .

(٨) السناف : خيط أو حبل دقيق من المنحر إلى الحزام .

٩ كأنَّ مَوَاقِـعَ الثَّفِنَاتِ منهـا ... مُعَرَّسُ بَاكِرَاتِ الوِرْدِ جُونِ

١٠ يجـذُّ تَنَفُّسَ الصُّعَداءِ مِنْهَـا ... قُوَى النِّسْعِ المحرَّمِ ذِى المُتُونِ

١١ كأن نَـفِيَّ ما تَنْـفِى يَدَاهـا ... قذافُ غريبـةٍ بيَدَىْ مُعِينِ

١٢ فألقَيْتُ الزِّمامَ لَهَـا فنَـامَتْ ... لعادتهـا من السَّدَفِ المُبِـينِ

١٣ كأنَّ مُنَاخَهَا مُلْقَى لجَـامٍ ... عَلَى مَعْزَائِهـا وعلَى الوَجِـينِ

١٤ كأنَّ الكُورَ والأَنْسَاعَ منهـا ... على قَـرْوَاءَ مَاهِرَةٍ دَهِـينِ

١٥ يَشُقُّ المـاءَ جُؤْجُؤُها ويَعْلُو ... غَوَارِبَ كلِّ ذِى حَدَبٍ بَطِينِ

١٦ غَدَتْ قَـوْداءَ مُنْشَقًّا نَسَاهَا ... تَجَاسَرُ بالنَّخَاعِ وبالوَتِـينِ

١٧ إذا ما قُمْتُ أَرحَلُهَـا بِلَيْـلٍ ... تأوَّهُ آهَـةَ الرَّجُلِ الحَزِيـنِ

---

(٩) معرس : مكان التعريس وهو النزول آخر الليل . الجون : السود ، يصور القطا .

(١٠) يجذ : يقطع . الصعداء : النفس المردود الى الجوف . النسع : سير من الجلد . قواه : طاقاته التى ضفر منها . المحرم : الذى دبغ ولم يلن . ذو المتون : ذو القوى .

(١١) المعين : الأجير .

(١٢) السدف : الليل والسدف النهار أو الضوء . أيضا .

(١٣) المعزاء : الموضع الكثير الحصى . الوجين : ما غلظ من الأرض وكان فيها ارتفاع .

(١٤) كور الرحل : خشبه وأداته . الماهرة : السابحة . القرواء : الطويلة الظهر . الدهين : المدهونة .

(١٥) الجؤجؤ : الصدر . الغوارب : الظهور ، الحدب : ارتفاع الموج . البطن : الواسع يريد الأمواج .

(١٦) القوداء : الطويلة العنق . انشق نساها : إذا امتلأت وسمنت وانفلقت اللحمتان اللتان فى الفخذين فيظهر النسا بينهما . تجاسر : تمضى . سريعة جريئة . الوتين : عرق فى القلب .

(١٧) أرحلها : أضع عليها الرحل . التأوه : إظهار الحزن فى صوت خافت مكتوم .

١٨ تقولُ إذَا دَرأتُ لَهَا وَضِينِي	أهَــذَا دِينُـــهُ أبَــدًا ودِينِي
١٩ أكُلَّ الدَّهْرِ حِلٌّ وارْتِحَالٌ	أمَا يُبْـقِي عَلَيَّ ومَا يَقِيـنِي
٢٠ فأبْقَى بَاطِـلِي والجِـدُّ مِنْهَـا	كدُكَّانِ الدَّرَابِنَـةِ المطِـينِ
٢١ ثَنَيْتُ زِمَامَها ووضَعْتُ رَحْلِي	ونُمْرُقَةً رَفَـدْتُ بِهَـا يَمِيـنِي
٢٢ فَرُحْتُ بِهَـا تُعَارِضُ مُسْبَطِرًّا	عَلَى صَحْصَاحِهِ وعلى المُتُونِ
٢٣ إلى عَمْـرٍو ومِنْ عَمْرٍو أتَتْنِي	أخِي النَّجَدَاتِ والحِلْمِ الرَّصِينِ
٢٤ فإمَّا أنْ تَكُونَ أخِي بِحَقٍّ	فأعرِفُ منـكَ غَثِّي أوْ سَمِينِي
٢٥ وإلا فاطَّرِحْنِي واتَّخِـذْنِي	عَدُوًّا أتَّقِيـكَ وتَتَّقِيـنِي
٢٦ وما أدْرِي إذَا يَمَّمْتُ أمْرًا	أُرِيدُ الخَـيْرَ أيُّهُمـا يَلِينِي
٢٧ أأَلخَـيْرُ الذي أنَا أبْتَغِيـهِ	أمِ الشَّـرُّ الذي هُوَ يَبْتَغِينِي

(١٨) الوضين : يكون بمنزلة الحزام . درأته : مددته وشددت به رحلها . الدين : العادة .

(٢٠) باطلي : سيري وراء اللهو والغزل . جدها : انكماشها في السير . الدكان : دكة مبنية للجلوس عليها . الدرابنة : البوابون . المطين : الذي طلي بالطين .

(٢١) النمرقة : الوسادة . زمامها : الحبل الذي تقاد به . رفدت : وضعتها ومددتها .

(٢٢) المسبطر : الطريق الممتد . الطويل . تعارض : تأخذ في عرضه أو تسير بإزائه . الصحصاح : ما استوى من الأرض . المتن : ما صلب من الأرض .

(٢٣) عمرو : يقصد عمرو بن هند الملك . النجدات . الشجاعة والمروءة .

(٢٥) اطرحني : تجنبني واتركني وشأني .

(٢٦) يمم الأمر : اتجه إليه واتخذ فيه عدته .

* * *

عبد الله التطاوي

(٢)

مُنَاجَاةٌ ومَــدْحٌ

وفى مقــدمة وجدانية أيضا يتحـاور المثقب مع صاحبته « هنـد » مصوّراً إصرارها على الهجر والقطيعة، وإصراره هو الآخر على الرحيل ليجد فى ناقته وسيلة عزاء تتحمل معه وعثـاء السفر ومشقات الطريق ، وكأنه يتفرد بركوبها وتتفرد هى أيضا بقدرتها على مثل هذا الرحيل ، ويستطرد فى تصويرها وتصوير معاناته فى الرحلة مازجاً بين الموقفين، فمن وصف سرعتها ينتقـل إلى وصف قـلة نومه وإرهاقه بمـا يوازيه من شدة عطشها واستمرارها فى السير .

وحين يحسن المثقب رحلته وصولا إلى الممدوح ينتقل فنيا إلى الموضوع حيث يقف عنـد شخص النعمان فيفرده فى كل صفاته ، فيراه قد تجـاوز أفعال أسلافه أو أقرانه فى رقيها وعزتها ، ويكاد يركز عدسته التصويرية على المشهد الحـربى الذى يتميز به ممدوحه ، فيستطرد فى وصف كتائبه بكل أدواتها الحربية ، وكأنه يبرر انتصاراته فى حروبه ، وهى انتصارات لا تخلو — كما صـوّر — من هذا الحس الإنسانى الذى يسيطر عليها ويشيع فيهـا ، فهو يجمع فى بطولاته بين العنف الذى تجسده سيوفه وأسلحته المختلفة، وبين ذلك العفو المعروف عنه فى موقفه من الأسرى وفك وثاقهم بعد اطمئنانه إلى انتصاره وإحساسه بمركز قومه .

وعلى هذا النحو رسم الشاعر صورتين كبيرتين جعل إحداهما خاصة بموقفه من غزله ورحيله ، وأخلص الثـانية لممدوحه وإن كان قـد ظهر من حين إلى

آخر بين أبياتها معانا عن نفسه . ليختمها بالدعاء التقليدى الذى شاع فى قصيدة المدح الجاهلية (*) .

* * *

١ ألا إنّ هندًا رثّ أمس جديدُها وضنّتْ وما كان المتاعُ يؤودها

٢ فلو أنها من قبلُ دامَتْ لبانةً على العهد إذ تصطادُنى وأصيدُها

٣ ولكنّها ممّنْ يَميطُ بودّه بشاشةُ أدنى خُلّةٍ يستفيدُها

٤ أجِدّك ما يُدْرِيك أن رُبَّ بَلْدَةٍ إذا الشمسُ فى الأيام طالَ رُكودُها

٥ وصاحَتْ صوادِيحُ النّهار وأعرضَتْ لوامِعُ يُطوى رَيْطُها وبرُودها

٦ قطعْتُ بفتْلاءِ اليَدَيْنِ ذَرِيعَةٍ يغُولُ البلادَ سَوْمُهَا وبَرِيدُها

(١) رث : أخلق وبلى من شدة قدمه . جديدها : المقصود هنا جديد وصلها . الضن : البخل . المتاع : ما يمنعه من صاحبته من وصلها . يؤودها : يثقلها ويعجزها .

(يصور صاحبته وقد آثرت القطيعة ففارقته بلا وداع ولو أرادت الوصل لفعلت لأنها لم تكن ممنوعة) .

(٢) اللبانة : الحاجة المرتبطة بشدة الرغبة . على العهد : يقصد لبانة معهودة . يتمنى لو أنها دامت على وصلها حيث كانت تفتنه بمحاسنها ويفتنها بشبابه وحيويته ، وهذه هى حاجته منها كما عهدها من قبل .

(٣) يميط : يميل . الود : الوصل . الخلة : الصفة الجيدة .

(٤) أى شىء يعلمك أنه رب بلدة من شأنها ما يحكيه ويبينه وقد قطعها . ركودها : ثبوتها .

(٥) الصوادح : الجنادب . اللوامع : السراب . الريط . الثياب البيض يشبه بها السراب .

(٦) الفتلاء : المفتولة الذراعين المعصوبتهما . الذريعة : الكثيرة الأخذ من الأرض . يغول البلاد : يطويها ويذهب بها فى السير . السوم : السير السريع الدائم . البريد : شدة السير .

* * *

(*) تراجع المفضليات بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون والاستاذ أحمد شاكر .

٧ فبِتُّ وباتَتْ كالنَّعامة نَاقَــتى وباتَتْ عليهـا صَــفْنَتِي وقُتودها
٨ وأغضتْ كما أغضَيْتُ عَيْنِي فعرَّسَتْ على الثَّفِنَاتِ والجِـرَانِ هجودُها
٩ على طُرُقٍ عنْــدَ الأَراكةِ رِبَّةٍ تُوازِى شَرِيمَ البَحْرِ وهو قَعِيدُها
١٠ كأن جَنِيناً عنــد مَقْعَدِ غَرْزِهَا تُزَاوِلُهُ عَنْ نفسه ويُرِيدُها
١١ تهــالَكُ منــه فى الرَّخَاء تهالُكا تهالُكَ إحْدَى الجُون حانَ وُرُودُها
١٢ فنَهْنَهْتُ منهــا والمَنَاسِمُ تَرْتَمِى بمعـزاءَ شتَّى لا يُرَدُّ عَنُــودُها
١٣ وأيْقَنتُ إنْ شَاءَ الإله بأنَّنِى سيُبْلِغُنِى أجلادُها وقَصــيدُها
١٤ فإنَّ أبَا قابوس عنــدى بلاؤُه جزاءً بنُعْمَى لا يَحِــلُّ كُنُودها

---

(٧) القتود : خشب الرحل . (يصور مبيته مع ناقته و يدل على تفرده بركوب الناقة على الرغم من مخاوف الطريق حتى أن راحلته بقيت ليلته مرحولة عليها صفنته وأقتاد رحله) .

(٨) الإغضاء : كسر العين . التعريس : النزول عند الصبح . الهجود : النوم . الجران : باطن عنق البعير .

الثفنات : الركب وما مسَّ الأرض منها إذا بركت . مصور قلة نومه حتى صار أقل القليل) .

(٩) الأراكة : موضع . ربة : مجتمعة . توازى : تحاذى . شريم البحر : شاطئه أو ساحله .

(١٠) كأن جنينا . يقصد هرا مجنونا . تزاوله عن نفسه : أى تريد أخذه المزاولة : المخاتلة والمعالجة . يريدها : يقصدها . يصور سرعة الناقة فى سيرها وكأن هرا يهبشها متريد من سرعتها .

(١١) التهالك : شدة السير . فى الرخاء : يعنى استرخاءها فى سيرها . الجون . القطا . (يشبه ناقته بالقطاة حين ورودها وذلك حين اشتد عطشها فهى لا تألو طيرانا) .

(١٢) نهنهت : كففت . المناسم : ح منسم وهو ظفر الخف . المعزاء : الأرض المليئة بصغار الحصى . العنود : المخالف فى سيرد ، والعنود هنا الغبار يأخذ فى عُرْضٍ .

(١٣) أجلادها : جسمها . قصيدها : مخها . أيقنت : تأكدت .

(١٤) أبو قابوس : كنية النعمان . عندى بلاؤه : اعتراف بفضله . الكنود : الكفور .

١٥ رأيتُ زنادَ الصالحينَ نَمِيْنَهُ قَديماً كما بَذَّ النُّجُومَ سُعودُها
١٦ ولو عَلِمَ اللهُ الجبالَ عَصَيْنَهُ لجاءَ بأمْرَاسِ الجبالِ يقُودُها
١٧ فإن تكُ منا فى عُمَانَ قبيلةٌ تواصتْ بإجْنَابٍ وطالَ عُنودُها
١٨ فقد أدركَتْهَا المُدْرِكاتُ فأصبحتْ إلى خيرِ مَنْ تحت السَّماء وفُودُها
١٩ إلى مَلِكٍ بَزَّ الملوكَ فلمْ يَسَعْ أفاعِيلَهُ حزمُ المُلوك وجُودها
٢٠ وأىُّ أُناسٍ لا أباحَ بِغَارَةٍ يُوازِى كُبَيْدَاتِ السَّماءِ عَمُودُها
٢١ وجَأْوَاءُ فيها كوكبُ الموتِ فَخْمةٌ يقَمِّصُ بالأرضِ الفَضاءِ وئيدُها
٢٢ لها فَرَطٌ يَحْوِى النِّهَابَ كأنَّه لوامِعُ عِقْبانٍ يروعُ طَرِيدُها

(١٥) بذ : سبق . السعود : نجم السعد . يرى أن فعال أسلافه قد رفعت درجته فى المجد والعزة .

(١٦) الأمراس : الحبال . يقودها : يوجهها و يتحكم فيها .

(١٧) الإجناب : المباعدة والمجانبة . العنود : المخالفة والاعتراض .

(١٨) الوفود : ج وفد وهو مأخوذ من الارتفاع ، أو فد على الشىء بمعنى ارتفع عليه .

(يقول إن كان بعض طوائفنا قد فارقت أرضها وهاجرت إلى عمان ، وقد وصت أسلافها إخلافهم بمجانبة عشائرهم فقد ندمت بما فعلت ورجعت إليك) .

(١٩) يبرز مكانة الملك الذى عجز غيره من الملوك عن أفعاله ووقفوا دون درجته وشأنه . بز الملوك : فاتهم وتجاوزهم حزما وكرما .

(٢٠) يوازى : يماثل و يحاذى . كبيدات السماء : معظم السماء . عمودها : ماسطع من غبارها .

(٢١) الجأواء : الكتيبة التى كثر سلاحها . الفخمة : العظيمة . الضخمة وئيدها : شدة وزها . الزّ : الصوت . (يقصد أن الساكن من الأرض يكاد يتزلزل لحركتها وجلبتها) .

(٢٢) الفرط : المتقدمون . يحوى : يجمع . طريد العقبان : ما تطرده العقبان . لوامعها : أجنحتها .

٢٣ وأَمْكَنَ أطراف الأسنَّةِ والقنَا يعاسيبُ قُودٌ كالشِّنانِ خُدودُها
٢٤ تنبّع من أعْضادِها وجُلودِهَا حَمِيمٌ وآضَتْ كالمحاليج سُودُها
٢٥ وطـارَ قُشارِيُّ الحَـديدِ كأنَّهُ نُخالةُ أَقْوَاعٍ يطير حَصِيدُها
٢٦ بكل مُقَصًّى وكلِّ صَفِيحةٍ تَتَابَعُ بعد الحارِشِيِّ خُدودُها
٢٧ فأنعِمْ أَبَيْتَ اللَّعنَ إنك أصبحَتْ لَدَيْكَ لُكَيْزٌ : كَهْلُهَا ووَليدُها
٢٨ وأَطْلِقْهُمُ تَمْشِي النساءُ خلالَهم مُفَكَّكَةً وسطَ الرِّحالِ قُيودُها

(٢٣) اليعاسيب: الخيل • يعسوب الشيء : أفضله وخيره • القود: الطوال الأعناق • كالشنان خدودها : يصور قلة اللحم فى خدودها وهو مستحب فى الفرس • الشن : القربة القديمة • اليعابيب : الكثيرة الجرى • يعابيب قود لاتثنى خدودها : يقصد أنها لا تنصرف عن جهتها ولاترد •

(٢٤) تنبع : سال • آضت : رجعت وعادت • الحميم : العرق • المحاليج : قرون البقر •

(٢٥) قشارى الحديد : ما تقشر منه أو تطاير عنـد المقارسة ، والمقارسة هى وقوع السلاح على السلاح • فى المبارزة والقتال •

الأقواع : الأماكن ليست فيها حجارة ولاحصى ، والقاع: المكان الحُرُّ الطين • يشبه ما تقشر من الحديد من حيث الكثرة بالغبار فى القاع •

(٢٦) مقصًّى : فرس (الفرس المقصوص الذنب) • الصفيحه : السيف •

(٢٧) أنعم : فعل أمر أى مُنَّ عليهم • يقصد عفوه عن الأسرى وفك وثاقهم •

أبيت اللعن : صيغة دعائية أى أبيت أن تأتى من الأخلاق ما يمكن أن تلام عليه أو تلعن بسببه •

* * *

عبد الله التطاوى

عَـديُّ بن زَيـدٍ

* * *

يُنْسب عدى بن زيد إلى « عِبَـاد » الحِيرة ، وهم جماعات من قبائلَ شتى اجتمعوا فى الحيرة واستوطنوها واعتنقوا المسيحية ، فلُقِّبوا بهذا الاسم ، يريدون أنهم عباد الله فى مقابل العرب الوثنيين .

وينتهى نسب الشاعر إلى قبيلة تميم ، وكانت إحدى هذه القبائل التى تألفت منها جماعات « العباد » . وكان جده أيُّوب أول مَنْ نزل من أسرته بالحـيرة ، هرب إليهـا من منازل قبيلته باليمـامة خوفا من دم أصابه فى قومه . واستطاع أن يثبِّت مركزه فى الحيرة ، وأن يصل إلى مكانة مرموقة عند ملوكها .

وُلِد عدىّ بالحيرة ، واستطاع أن يوطِّد صلته بملوكها ، وأن يكون له دور فعال فى البلاط الحيرىّ . واستطاع من خلال ذلك أن ينفذ إلى البلاط الفارسى فى المدائن ، فعمل كاتبا ومترجما عند كسرى ، وارتفعت مكانته عنده ، فبعثه فى سفارة له إلى قيصر الروم « تيباريوس الثانى » بالقسطنطينية . وبعـد عودته استأذن كسرى فى العودة إلى الحيرة ، وهناك مكث سنين قضاها فى الصيد واللهو والشراب ، مع مشاركة فعالة فى الحياة السياسية استطاع من خلالها — بمـا كان له من نفوذ عند كسرى — أن يكون سببا فى ولاية النعمان بن المنذر على الحيرة ، مما أثار عليه عداوة بعض خصومه السياسيين الذين نجحوا بعد فترة فى إثارة النعمان عليه بدسائسَ كادوها له مستغلين غيابه عن الحيرة عند كسرى . واحتال النعمان

حتى أعاده إلى الحيرة ليُلْقِى به فى سجنٍ بقى فيه حتى لقِىَ مصرعه على أيدى رجالِ النعمان عندما أحسَّ أن كسرى يعمل على إطــلاق سراحه . وكان ذلك حوالى سنة ٥٩٠ للميلاد .

وخرج ابنه زيد للثأر له ، واستطاع فى النهاية أن يَشِىَ بالنعمان عند كسرى وشاية انتهت به إلى أن يلقى مصرعه بأمر كسرى تحت أرجل الفيـلة . ويرى المؤرخون أن هــذه الحادثة كانت سـببا فى يوم ذى قار المشهور بين العـرب والفـــرس .

كان عدىّ مثقفا ثقافة تعد بالقياس إلى شعراء عصره شيئا يستحق التسجيل ، ويذكرون عنه أنه ألف كتابا فى تاريخ الروم جَمَع مادته فى أثناء رحلته إلى قيصر ، وأن المسعودى المؤرخ المشهور اعتمد عليه فى تاريخه . ويذكرون أيضا أنه كان يتقن اللغــة الفارسية ممــا أتاح له أن يعمل مترجما لكسرى ، وأن يكون — كما يذكر صاحب الأغانى — أولَ من كتب بالعربية فى ديوان كسرى . وبسبب حياته فى بلاد فارس ، واتصاله بالبلاط الفارسى ، تعلم الرمى بالنُّشَّاب ، واشترك فى كتيبة الأساورة الرُّماة ، كما تعـلم لَعِبَ الفرس بالصَّوَالجة على الخيل ، وعاش حياةً على قدر كبير من التحضر شأنَ أمراء الفرس وأمراء الحيرة .

وقد تركت هذه الحياة الحضارية بصماتها على شعره سواء فى لغته أو فى صوره الفنية ، فلانت لغتــه ، وسَهُل أســلوبه ، ورقَّت عباراته ، ودخلتها مجموعةٌ من الألفاظ الفارسية ، وظهرت فى شــعره صور فنيــة استمد عناصرها من الحيــاة الحضرية التى كان يحياها ، وإنْ لم يمنع هذا من أن يظهر فى شعره التيار البدوى الذى كان ســائدا فى عصره ، والذى لم يكن بمستطيع أن ينفصل عنه . كما يظهر

فى شعره اتجاهاً إلى بعض الأوزان الخفيفة التى يقلّ ظهورها عند شعراء البادية ، كبحر الرّمل وبحر الخفيف ، ويردُّ جرونباوم انتشار بحر الرمل عند شعراء الحيرة إلى مؤثرات فارسية أثّرت فى العروض العربى ، إذ يرى أنهم استعاروا هذا البحر من وزن بهلوىّ ، ثم أدخلوا عليه تعديلات تلائم العروض العربى .

ويدور شعر عدى أساسيا حول محورين ارتبطا بظروف حياته ، ففى المرحلة الأولى قبل سجنه يدور شعره حول وصف الطبيعة والصيد والخمر والغزل ، وفى المرحلة الثانية يفيض شعره بالحزن والأسى والشكوى والعتاب والاعتذار ، ومن حين إلى حين نسمع حنينا إلى ذكريات الماضى السعيد .

ومن بين موضوعات المرحلة الأولى يلمع شعر الخمر الذى نظم فيه أشهر قصائده وأطولها ، وهى « القافيّة » . ويرى بروكلمان أن خمريات عدىّ هى التى وجّهت الوليد بن يزيد إلى ابتكاراته فى هذا الموضوع ، ويسجّل نالينو تشابها بين خمريات عدىّ وخمريات الأعشى . ونظرا لتأخر الأعشى زمنيا فلا شك فى أنه تأثر به فى هذا المجال . وأما موضوعات المرحلة الثانية فيلمع فيها ذلك التفكير فى مصير الإنسان فى الحياة ، وحديث الموت والفناء ، وهو تفكير انتهى به إلى دعوة إلى الزهد فى الدنيا التى لا بقاء لشىء فيها . وفى رأى نالينو أن قصائده فى هذا المجال كانت أساسا لشعر الزهد فى العصور التالية ، ومثَلا احتذاه أبو العتاهية وغيره من الشعراء المتأخرين .

* * *

يوسف خليف

(١)

من قصائد المرحلة الأولى

الخمـريَّة المشهورة

* * *

هذه القصيدة من نتـاج المرحلة الأولى فى حياة الشاعر، وهى تقع فى اثنين وعشرين بيتـا ، وتدور كلها — فى وحدة موضوعية دقيقة — حول الخمـر التى ينفذ إليهـا من خلال تشبيه ثغر صاحبته بها بعـد مقدمة غزلية قصـيرة يربطها بموضوع القصيدة الأساسى استهلالـا بحديث الخمر. فهو يبدؤها بعُذَّال يلومونه على إدمانه الشراب ، و يلومونه على حبه ، ويمضى بعـد ذلك فى وصف جمـال صاحبته ، حتى إذا ما وصل إلى ثغـرها ، وشبهه بالخمر ، انطلق فى حديث الخمر حتى نهاية القصيدة . والقصيدة من بحر الخفيف الذى كثر ظهوره عند شعراء الحيرة كما قلنا من قبل .

* * *

١ بَكَرَ العـاذلون فى وَضَحِ الصبـ ـح يقـولون لى : ألَا تستفيقُ ؟

٢ ويلومون فيـك يا ابنةَ عبـد اللّـ ـه ، والقلبُ عنـدكم موهـوقُ

٣ لستُ أدرى إذ أكثروا العذل عندى أعـدوٌّ يلومُنى أم صـديقُ ؟

---

(١) وضح الصبح : إشراقه وبياضه . وقوله « ألا تستفيق » أى من الشراب .

(٢) الموهوق : المشدود ، من الوهق (بفتحتين) وهو حبل تشد به الإبل حتى لا تند .

٤ أَطْيَبُ الطِّيب طِيبُ أمِّ عليٍّ ... مِسْكُ فأرٍ وعَنْبرٌ مفتوقُ

٥ خَلَطَتْه بزَنْبَقٍ وبَانٍ ... فهو أحْوَى على اليَدَين شَرِيقُ

٦ زانَها واردُ الغدائرِ جَثْلٌ ... وأسيلٌ على الجبين أنيقُ

٧ وثنايا كالأُقحوانِ عِذابٌ ... لا قِصارٌ كُسْرٌ ولا هنَّ رُوقُ

٨ مُشْرِقاتٌ تخالهنَّ إذا ما ... حان مِنْ غائرِ النجوم خُفُوقُ

٩ باكرتهنَّ قَرْقَفٌ كدمِ الجَوْ ... فِ تُرِيكَ القذَى كُميتٌ رحيقُ

(٤) أم علي : صاحبته ، ولعلها المرة الوحيدة التي يرد فيها هذا الاسم في الشعر الجاهلي . والفأر والفارة : نافجة المسك أي وعاؤه . والمفتوق : الذي شق نصفين حتى تنتشر رائحته . يصف طيب صاحبته بأنه مزيج من عطر المسك والعنبر .

(٥) البان : شجر طيب الرائحة . والأحوى : الأسود الضارب إلى خضرة ، أو الأحمر الضارب إلى سواد . والشريق : المشرق الواضح . يستكمل وصف طيب صاحبته بأنها خلطت هذا المزيج من المسك والعنبر بعطور الزنبق والبان ، و يصف لونه وإشراقه على يديها .

(٦) الغدائر : الضفائر ، ووارد الغدائر : طويلها . والجثل : الغزير اللين . والأسيل : المنسدل . يصف خصلى شعرها المنسدل على جبينها . وفي رواية أخرى « عبيق » بدلا من « أنيق » ، والعبيق : المعطر الذي يضوع عطره .

(٧) الثنايا : الأسنان . والأقحوان : زهر أبيض أوراقه مفلجة ، يشبه به الشعراء العرب الأسنان الجميلة . والكسر : المكسرة . والروق : جمع روقاء ، وهي الأسنان التي تطول ثناياها العليا على السفلى .

(٨) مشرقات : ناصعات البياض . وغار النجم إذا انحدر للغيب . وخفوق النجم : غيابه . يصف عذوبة ثغرها في آخر الليل عندما تأخذ النجوم في الانحدار للغيب مؤذنة باقتراب الصباح . وبقية الصورة في البيت التالي .

(٩) القرقف : الخمر الباردة . والقذى : ما يظهر في الشراب من شوائب ، وقوله « تريك القذى » يريد أنها صافية . والكميت : الحمراء الداكنة ، ولذلك يشبهها بلون الدم . والرحيق : المصفاة . تتخيل ثغر صاحبته في آخر الليل كأن خمرا باردة حمراء صافية مصفاة قد خالطته في الصباح الباكر .

١٠ صَانَها التاجرُ اليهوديُّ حَوْلَيْـ ـن فاذكَى مِنْ نَشْرِها التعتيقُ
١١ ثم فَضَّ الختامَ عن حاجبِ الدَّ نِّ وقامتْ لدَى اليهوديِّ سُوقُ
١٢ فسَبَاها منـــه أشمُّ عزيزٌ أَرْيحِىٌّ غَذَاه عيشٌ رقيـقُ
١٣ ثم نادَوْا إلى الصَّبوحِ فقامتْ قَيْنَـةٌ فى يمينهـا إبريقُ
١٤ قَدَّمته على سُلَافٍ كعينِ الدِّ يكِ صَـفَّى سُلافَها الراووقُ
١٥ مُزَّةٌ قبـلَ مَزْجِهـا فإذا ما مُزِجَتْ لَذَّ طعمُهَا مَنْ يذوقُ
١٦ وطفتْ فوقهـا فقاقيعُ كاليـ ـياقوتِ حُمْرٌ يَزِينُها التصفيقُ
١٧ فَتَلَتْـه بسَيْبِ أبيضَ صافٍ طيِّبٍ زانَ مَزْجَه التصفيقُ

(١٠) أذكى : زاد من ذكائها وهو طيب رائحتها . والنشر : الرائحة الطيبة .

(١١) الختام : غطاء الدن الذى أغلقوه به . والدن : زق الخمـر . وقوله « قامت لدى اليهودى سـوق » يعنى أن اليهودى بدأ يمارس نشاطه التجارى المعروف عنـه منذ أقدم العصور ، وكأنما تحولت الحانة إلى سوق يمارس فيها مهارته وبراعته فى شؤون البيع والشراء .

(١٢) سباها هنا : اشتراها . والأشم : المعتز بنفسه المعتد بشخصيته . والأريحى : الكريم . وقوله « غذاه عيش رقيق » يريد أنه رجل متحضر يعيش فى نعمة من العيش .

(١٣) الصبوح : خمر الصباح . والقينة : الجارية المغنية ، ويريد بها هنا الساقية . والإبريق كلمة فارسية معربة .

(١٤) السلاف : الخمر الجيدة . وقوله « كعين الديك » يريد أنها صافية . والراووق : المصفاة ، وهى كلمة فارسية معربة . وقوله « صفى سلافها الراووق » يريد صفى رحيقها أو عصيرها .

(١٥) مزة : لذيذة الطعم ، صفة للخمر . ومزج الخمر : خلطها بالماء .

(١٦) تصفيق الخمر : تحويلها من إناء إلى إناء لتصفو . وفى رواية أخرى « يثيرها التصفيق » أى أن التصفيق يثير هذه الفقاقيع التى تكسو وجه الشراب .

(١٧) السيب : العطاء . والأبيض الصافى هو الماء . وقتل الخمر : مزجها . يقول إنهم مزجوها بالماء ، وأخذوا يحولونها من إناء إلى إناء ليزيدوا من تنقيتها . وفى قافية البيت إيطاء ، وهو تكرار القافية بلفظها ومعناها ، وهو عيب من عيوب القافية فى الشعر العربى ، وظهور هـذا العيب فى الشعر الجاهلى يدل على أن هذا الشعر كان ما يزال فى خطواته الأولى على الطريق الفنى .

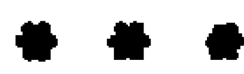
١٨ فوق علياءَ ما يُرام ذُراها   يَلْغَبُ النَّسرُ فوقها والأَنُوقُ
١٩ ثم كان المِزَاجُ ماءَ سحابٍ   لا صِرًى آجِنٌ ولا مطروقُ
٢٠ أَسْفَلٌ حُفَّ بالعِضاهِ وأعلا   هُ صَفًا يُلْغِبُ الوعولَ زَلُوقُ
٢١ مُسْقَطُ الظلِّ مَنْ تَكَنَّفَه الحِقْـ   ـفُ وتَنْفِي قَـذَاه ريحٌ خَرِيقُ

(١٨) العلياء : المكان العالى المرتفع . ويلغب : يتعب . والأنوق : العقاب ، أو جارح آخر يشبه النسر ، و يقول العرب فى أمثالهم « أعز من بيض الأنوق » لأنه لا يضعه إلا فى القمم العالية . يصف الماء الصافى الذى مزجت به الخمر ، و يقول إنه ماء كان بعيدا عن أيدى الناس لأنه كان فوق قمة عالية لا يستطيع أحد أن يصل اليها ، حتى النسر والأنوق يتعبان فى الوصول اليها .

(١٩) الصرى : الماء الراكد . والآجن : المتغير طعمه ولونه والمطروق : الذى خوضته الإبل ولوثته . والبيت استمرار فى وصف صفاء الماء الذى مزجت به الخمر .

(٢٠) العضاه : شجر شوكى من أشجار البادية . والصفا : جمع صفاة وهى الصخرة الملساء . و يلغب : يتعب . والزلوق : الذى تزل فوقه القدم ولا تثبت لملاسته . والبيت استمرار آخر فى وصف صفاء هذا الماء . يقول إنه فى قمة عالية فى صخور ملس تتعب الوعول فى الوصول إليها ، وفى أسفل هذه القمة أشجار شائكة أحاطت به ، وشكلت حاجزا طبيعيا يحول دون اقتراب الناس منه .

(٢١) الحقف : الكثيب من الرمل يمتد فيشكل نصف دائرة . وتكنفه : أحاط به . وتنفى قذاه : أى تلقى القذى بعيدا عنه . والخريق : الشديدة كأنها تخرق كل شىء . والبيت استمرار آخر فى وصف صفاء الماء . يقول إن كثبان الرمال تحيط بهذا الماء من كل جانب فتعمل على حمايته ، وتلقى ظلالها فوقه فتبقى عليه برودته ، والرياح الشديدة تهب عليه ، فتنفى القذى بعيدا عنه ، فتحفظ عليه صفاءه .



يوسف خليف

(٢)

من قصائد المرحلة الثانية

تأملاتٌ فى سجن النعمان

* * *

هذه القصيدة من نتاج المرحلة الثانية فى حياة الشاعر، وهى تقع فى خمسين بيتا، نظمها مدىً وهو فى سجن النعمان بن المنذر، وسجّل فيها طائفة من تأملاته فى الحياة والموت، فالحياة لاتدوم على حال، وكلُّ شىء فيها يتغير ويتحول، والمصيرُ المحتوم فى انتظار الجميع، والموتُ هو نهاية رحلةِ الحياة. وهى تأملاتٌ تبدأ مباشرةً بعد المقدمة التقليدية التى يتحدث فيها عن رحلة الظعائن، ولعلها محاولةٌ للربط بينها وبين رحلة الحياة نحو وادى الموت الذى تنتهى إليه قوافلُ البشر قافلةً فى إثر قافلة، وكأنه يُسْقط مشاعره على هذه المقدمة فيبدؤها بحديث الوداع، ثم ينتقل إلى الحديث عن الشَّيْب، وكأنه يمهد به لحديث الموت بعد ذلك، ثم يستطرد منه إلى وصفِ المطر انطلاقا من تشبيه اشتعالِ الشيب فى الرأس بتوهج البرقِ فى السحاب. ثم يخرج من هذه التأملات الإنسانية العامة المشتركة بين الناس جميعا إلى تأملاتٍ ذاتية فى المحنة التى يمرُّ بها، فيتحدث عنها وعن صبره عليها، ويحاول أن يفلسف التجربة التى يعيشها، حديثاً يمتزج فيه الفخر بنفسه والاعتذار للملك ومدحه، فى محاولة لاسترضائه، وأيضا لتبرئة ساحته من شبهة لا ظل لها من الحقيقة. والقصيدة أيضا من بحر الخفيف الذى كثر تردده فى الشعر الحيرى.

* * *

١ أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أم بُكورُ ... لكَ فاعلمْ لأىِّ حالٍ تصيرُ
٢ إن شُغْل المُصَابِيَات مِنَ الأسـ ... ـتار طَرْفٌ يُصْبِى وفيه فُتُور
٣ زانَهنّ الشُّفوفُ يَنْضَحْن بالـ ... ـمسْك وعيشٌ مُفانِقٌ وحرير
٤ كدُمَى العاج فى المحاريب أو كالـ ... ـبيْض فى الروض زَهْرُه مستنير
٥ لا تواتيكَ إنْ صحوتَ وإنْ أشـ ... ـرقَ فى العارِضَيْن منكَ القتير
٦ وابيضاضُ السوادِ مِنْ نُذُر الـ ... ـشر، وهل بعْده لأُنْسٍ نذيرُ ؟

* * *

٧ أيها الشامتُ المعيِّر بالـ ... ـدهر أأنت المبرَّأ الموفور ؟
٨ أم لديكَ العهدُ الوثيقُ من الـ ... أيام ؟ بل أنت جاهل مغرورُ
٩ مَنْ رأيتَ المنونَ خَلَّدن أم مَنْ ... ذا عليه مِنْ أن يُضام مُجِيرُ ؟

(١) الرواح : الخروج فى وقت المساء، عكس البكور . ومودع : أى مودع فيه صاحبه . وحديث الشاعر فى مطلع قصيدته عن الوداع ، والرحيل الذى لا يعرف موعده ، وتقلب الأحوال ، يعكس إحساسه بمحنته ، و يمهد لحديث المصير الذى سينتقل اليه بعد هذه المقدمة .

(٢) المصابيات : المخادعات اللائى يقلبن الأمور على غير وجوهها . يقول إن شغلهن الشاغل أن يوقعن الرجال فى حبهن بعيون فاترة ينظرن بها من وراء الأستار التى يحتجبن خلفها .

(٣) الشفوف : الثياب الرقيقة الشفافة . والعيش المفانق : المنعم المترف . والبيت يعكس الجو الحضارى المترف الذى كان الشاعر يعيش فيه فى بيئة الحيرة المتحضرة ، وفى ظلال القصر الحيرى المترف .

(٤) البيض هنا هو نبات الكمأة . يشبه صاحباته بتماثيل العاج فى محاريب الكنائس ، وبأزهار نبات الكمأة المتفتحة . والبيت يعكس ظلال المسيحية التى كان الشاعر يدين بها هو وطوائف العباد فى الحيرة .

(٥) العارضان : الخدان . والقتير : الشيب أو أول ما يظهر منه .

(٦) البيت حديث عن الشيب الذى يشير إليه بابيضاض السواد . و بعد ذلك تأتى الأبيات التى يصف فيها البرق والمطر والسحاب (١٢ بيتا) .

(٧) الموفور : الذى توافرت له أسباب الأمن والسلامة من نوائب الدهر . من هنا يبدأ الحديث عن الموت والحياة ، وتبدأ تأملات الشاعر .

(٩) المنون : المنية أو الدهر ، ومن هاتين الدلالتين يجوز تذكير الكلمة وتأنيثها ، كما يجوز معاملتها معاملة المفرد ومعاملة الجمع .

١٠ أينَ كِسْرَى ، كسرى الملوكِ أنو ... شِرْوانَ ، أم أين قبـله سابُورُ ؟
١١ وبَنُو الأصفرِ الملوكُ ، ملوكُ الـ ... ـرُوم لم يَبْـقَ منهـمُ مذكورُ
١٢ وأخو الحَضْرِ إذ بناه ، وإذ دجـ ... ـلةُ تُجْـبَى إليـه والخـابورُ
١٣ شـاده مَرْمَرًا ، وجَلَّلَـه كِلْـ ... ـسًا ، فللطـيرِ فى ذُراه وُكورُ
١٤ لم يَهَبْـه رَيْبُ المَنون فبـادَ الـ ... ـمُلْكُ منـه فبـابُهُ مهجـورُ
١٥ وتأمَّـلْ ربَّ الخورنقِ إذ أشـ ... ـرفَ يـوما وللهُـدى تفكيرُ
١٦ سَـرَّه مالُه وكثرةُ مـا يمْـ ... ـلِكُ والبحرُ مُعْرِضًا والسَّـديرُ

---

(١٠) كسرى أنوشروان : أحد ملوك الفرس (٥٣١—٥٧٩) . وسابور : اسم لعدة ملوك من الفرس ، والمراد به هنا سابور ذو الأكتاف (٣١٠ — ٣٧٩) .

(١١) بنو الأصفر : لقب كان العرب يطلقونه على الروم .

(١٢) الحضر : مدينة قديمة كانت قائمة بأرض الجزيرة ما بين دجلة والفرات ، لا يعرف بالضبط مؤسسها ولا زمن تأسيسها . وقد حكمت فيها أسرة عربية لمدة ثلاثة قرون ، وأول حكامها أمير عربى سماه المؤرخون العرب « الساطرون » . وقد أحاطت بها وبخرابها أساطير كثيرة سجلها المؤرخون العرب فى كتبهم . والخابور : نهر من روافد الفرات .

(١٣) خلله : سد خلاله ، وهى ما بين أحجاره . والكلس : الجير .

(١٥) الخورنق : قصر كان النعمان بن المنذر بالحيرة ، وهى كلمة فارسية معربة أصلها « خرنكاه » أى موضع الشراب .

(١٦) البحر هنا هو نهر الفرات الذى كان قصر الخورنق قائما على ضفافه . ومعرضا : أى متسعا . والسدير : قصر آخر للنعمان فى الحيرة ، وهى أيضا كلمة فارسية معربة عن « سادلى » أى ذا الشعب الثلاث . والخورنق والسدير تردد ذكرهما فى الشعر الجاهلى ، ومن ذلك قول المنخل اليشكرى المشهور :

وإذا سكرت فإننى ... رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإننى ... رب الشويهة والبعير

١٧ فارعوَى قلبُه،وقال : وما غِبْـ ـطةُ حىٍّ إلى المماتِ يصيرُ ؟

١٨ ثم بعدَ الفَـلاحِ والمُـلْك والا إمَّـةِ وارتهـمُ هنـاك القبورُ

١٩ ثم أضحَوْا كأنهـم وَرَقٌ جَفَّ (م) فألـوتْ به الصَّـبا والدَّبورُ

* * *

٢٠ إنْ يُصبنى بعضُ الأذاة فلاوا نٍ ضعيفٌ ولا أَكَبُّ عَثُورُ

٢١ غيرَ أن الأيام يَغْـدِرْنَ بالمـر ءِ ، وفيها الميسورُ والمعسورُ

٢٢ فاصبرِ النفسَ للخطوب فإنَّ (م) الدهرَ يَدْجُو حيناً وحيناً يُنير

٢٣ وأنا الناصرُ الحقيقـةِ إذ أظـ ـلمَ يومٌ تَضِيقُ فيـه الصدورُ

٢٤ يَوم لا ينفعُ الرَّواغُ ، ولا ينـ ـفـعُ إلا المُشيَّعُ النِّحْـريرُ

(١٧) ارعوى قلبه : أقصر عن الجهل والباطل .

(١٨) الفلاح : البقاء . والإمة : النعمة . والحديث فى هـذا البيت وفى البيت التالى عن الملوك السابقين الذين تحدث عنهم قبل حديثه عن النعمان .

(١٩) ألوت به : ذهبت به . والصبا : ريح شرقية . والدبور : ريح غربية .

(٢٠) الأذاة : الأذى اليسير . والوانى : الضعيف . والأكب : الذى يسقط على وجهه . والعثور : الكثير العثار .

(٢١) يقول إنه لا يضعف أمام ما يصيبه به الدهر من أذى ، وإنما يتجلد ويتماسك ولا ينهار ، ولكن ماذا يملك أمام الأيام التى من طبيعتها الغدر، والتى تأتى أحيانا باليسر وأحيانا بالعسر ، والأمر فى الحالين لها .

(٢٢) يدجو : يظلم . يقول إن الدهر لا يدوم على حال ، فمن طبيعته التقلب ، فتارة يظلم وتارة يشرق ويضىء .

(٢٣) الحقيقة : ما يجب على الإنسان أن يحميه ويدافع عنه . يريد به هنا الحق .

(٢٤) الرواغ : الفرار والهرب . والمشيع : الجرىء . والنحرير : الحاذق الماهر المتقن لكل شىء . يريد يوم الحرب والقتال .

٢٥ وتقول العُـداةُ أَوْدَى عَدِىٌّ وعـدِىٌّ بِسُخْطِ رَبٍّ أسـيرُ
٢٦ ظِنَّـةٌ شُبِّهَتْ فأملكَهَا القسْـ ـم فَعَـدَّاه ، والخبـيرُ خبـيرُ
٢٧ وكِلانا بَــرٌّ يُساعِدُه بَــرٌّ (م) ورَبِّى لِمَا أتَى معــذورُ
٢٨ إنَّ ربِّى لولا تَدارُكُه المُلْـ ـكَ بأهـلِ العراقِ ساءَ العَذيرُ
٢٩ مَلِك يَقْسِمُ الخزائنَ ، والذِّمْـ (م) ـةَ قد ردَّها وكادت تبـورُ
٣٠ عالِمٌ بالذى يريد ، نقِىُّ الصَّـ (م) ـدرِ ، عفٌّ ، على جُثاه نَحُورُ

* * *

(٢٥) العداة : الأعداء . وأودى : هلك . والرب هنا هو الملك النعمان .

(٢٦) الظنـة : الشبهة . وشبهت : اختلط الأمر فيها . وأملكها هنا بمعنى أكدها . والقسم : الشك . وعداه : تجاوزه . هو هنا يدافع عن نفسه أمام الملك ، ويدفع التهمة التى اتهم بهـا ، ويعلن أنها مجرد شبهة اختلط الأمر فيها ، وأكدها الشك وسوء الظن ، ولكن الملك تجاوزها بخبرته وتجربته الواسعة .

(٢٧) يريد بقوله «ربى» الملك النعمان ، يحاول أن يلتمس له العذر فيما فعله به .

(٢٨) ساء العذير : أى ساءت الحال . يمـدح الملك بأنه يحسن سياسة مملكته ، فلولا تداركه أمور العراق وأهله لساءت الحال .

(٢٩) الذمة : الأمان والعهد . وتبـور : تهلك . والبيت استمرار فى مدح المـلك ، فهو يحسن التصرف فى أموال الدولة ، ويقسمها بالعدل بين الناس ، وقد رد الذمة لأصحابها بعد أن كادت تضيع .

(٣٠) الجثـا : جمع جثوة بضم الجيم ، وهى تراب كان يجمع ، ويجعل عليه حجارة تنحر عليها القرابين للأصنام . ونحور : صيغة مبالغة من النحر . والبيت استمرار آخر فى مدح الملك ، فهو يعرف أهدافه ويحددها ويتحرك وفق خطة واضحة أمامه ، وهو نقى الصدر ، عفيف النفس ، متدين يؤدى شعائر دينه ولا يقصر فيهـا .

* * *

يوسف خليف

(٣)

مِنْ قصائد المرحلة الثانيـــة

سِهَـامُ الدَّهْرِ

* * *

تدور الأبيات الثمـانية التي تتألف منها هذه المقطوعة حول حديث المصير المحتوم الذى أكثر الشاعر الحديث عنه فى هذه المرحلة الثانية من حياته ، والذى يَعْكِسُ إحساسه الحادّ بالمحنة التي كان يمرُّ بها ، والتي اتجهتْ به إلى الزهد فى الدنيا والتفكير فى الموت . فالموت قَدَرٌ مقدور على الإنسان لا مفرّ منه ، وهو يقف له بالمرصاد مُصَوِّبا إليـه سهامه كأنه صيّاد لاقى غفلةً من صـيد أُتِيحَ له فقتـله . والموتُ يقف بين الإنسان وآماله ، ولا يترك له فرصة لتحقيقها ، ومرورُ الأيام يقـرِّبه منه ، فكلُّ يومٍ يمضى إنما هـو فى الحقيقة خطوة نحو النهاية التي يدفعنا الدهرُ الموكَّل بنا نحوها . والأبيات من بحر الرمل الذى كثر دورانه عند شعراء الحـــيرة .

* * *

١ رُبَّ مأمـولٍ وراجٍ أمَـــلا قد ثَنَاه الدهرُ عن ذاك الأملْ

٢ وفـــتًى مِنْ دَوْلةٍ مُعْجَبـةٍ سُلِبَتْ عنه ، ولِلدَّهرِ دُوَلْ

---

(١) ثناه : صرفه ورده . يقول إن الدهر يقف بين الإنسان وآماله ، فيرده عنها ويحول بينه وبين تحقيقها ، يستوى فى ذلك من يطلب أملا فهو يسعى إليه ، ومن يعلق الناس عليه آمالهم فهم يسعون إليه .

(٢) قوله « وللدهر دول » أى أن الدهر متقلب متحول .

٣ كيف يرجو المـرءُ فوتًا للرَّدى ... وَهْوَ فى الأسبابِ رَهْنٌ مُحْتَبِلْ
٤ كلّمـا خَلَّفَ يومـا فمضى ... زاده ذلك قُـرْباً للأجلْ
٥ فَـوَّقَ الدهرُ إلينـا نَبْـلَهَ ... عَلَلًا يقصِـدُنا بعــد نَهَــلْ
٦ فَهْوَ يرمينـا ولا نُبْصِــرُه ... فِعْـلَ رامٍ رَامَ صـيدًا فَخَتَـلْ
٧ رُزِقَ الصــيدَ ولاقَى غِرَّةً ... فَرَمَى مُسْتمكِنًـا ثم قَتَـلْ
٨ فلِذاكَ الدهرُ مأمورٌ بنـا ... فهو لا يَغْفَـلُ إنْ شىءٌ غَفَـلْ

* * *

(٣) الأسباب : الحبال ، يريد حبال الموت . والمحتبل : الذى وقع فى الحبالة وهى شرك الصياد . يقول : كيف يرجو الإنسان النجاة من الموت وهو رهن فى حباله ، واقع فى حبائله ؟

(٥) فوق نبله : أى صوبه ورمى به . والعلل : الشرب الثانى . والنهل : الشرب الأول ، يريد أن حركة الدهر فى طلب الناس متواصلة لا تتوقف .

(٦) رام صيدا : أى طلبه . وختله : خادعه ليتمكن من صيده .

(٧) رزق الصيد : الضمير المستتر يعود على الرامى . والغرة : الغفلة ، يقول إن هذا الرامى أتيح له صيد ، ووجد غفلة منه ، فرماه مستمكنا منه فقتله . ضرب ذلك مثلا للقدر والإنسان .

(٨) مأمور بنا : موكل بنا ومكلف لا يغفل عنا .

* * *

يوسف خليف

(٤)

مِنْ قصائدِ المرحلةِ الثـانيةِ

مَنْهَـجُ المَنَـايا

* * *

تدور هذه المقطوعة التى تتألف من سبعة أبيات حول حديث المصير المحتوم أيضا الذى دارت حوله المقطوعة السابقة ، ولكن الشاعر ينظر إلى هذا المصير من زاوية أخرى . إنه هنا يتخـذ من التاريخ موضوعا للعظـة والاعتبار ، ومجالا يتحرك فيه ليضرب الأمثال على فناء الحياة الذى بدأ مع بداية الحياة ، فمنـذ نُوحٍ حتى اليوم ومنهجُ المنايا واحدٌ لايختلف ، تسلكه قوافلُ البشر قافلةً فى إثرِ قافلة ، ولكن حركتهـا فوقه لانعرف لهـا قانونا يضبطها ، فالمريض يموت ، وطبيبـه يموت ، وكذلك يموت السليم . ولكن الموت ليس النهـاية ، فوراء الموت حيـاةٌ أخرى فيهـا الوعد وفيها الوعيد . هكذا يَصْدُر الشاعر عن إيمـانٍ عميق بالبعث انطلاقا من نصرانيته ، على عكس ما نراه عند غيره من الشعراء الوثنيين الذين كانت تتراءى لهم فكرة البعث فوق تصـوُّرهم . والأبيات من بحـر الخفيف الذى كثر تردّده عند شعراء الحيرة .

* * *

١ أين أهلُ الديارِ مِنْ قومِ نُوحٍ ؟ ثم عادٌ مِنْ بَعْدهـم وثَمـُود ؟

٢ أين آباؤنا ؟ وأين بَنُوهـمْ ؟ أين آباؤهـمْ ؟ وأين الجُـدودُ ؟

(١) عاد : قوم نبي الله هود . وثمود : قوم نبي الله صالح .

١٠ ولا تفوتُ عِيَـالِى يومَ مَسْـغَبَة ولا بِنَفْسِـكَ فى العَـزَّاء تَكْفِينى
١١ فإن تُرِدْ عَرَضَ الدُّنيا بَمنْقَصَتِى فإنَّ ذلك ممَّـا ليس يَشْجِينى
١٢ ولا يُرَى فىَّ غيرِ الصَّـبرِ منقصَـةٌ وما سِـوَاهُ فإنَّ اللهَ يَكْفِينـى
١٣ لولا أواصرُ قُرْبَى لستَ تَحْفَظُها ورهبـةُ اللهِ فى حَـوْلى يُعَـادِينى
١٤ إذَنْ بَرِيتُـكَ بَرْيًا لا انْجِبَـارَ لَهُ إنى رأيتُـــكَ لا تنفـكُّ تَبْرِينى
١٥ إنِّى لعمــرُك ما بَابِى بِذى غَلَقٍ على الصَّديق ولا خَيْرِى بممنونِ
١٦ عفٌّ يؤوسٌ إذا ما خِفْتُ من بَلَدٍ هُونًا فلستُ بوقَّافٍ على الهُـونِ
١٧ ولا لِسَانِى على الأدْنَى بمُنْطَلِقٍ بالفَاحِشَاتِ ، ولا فَتْكِى بمأمُونِ
١٨ عنِّى إليـكَ فمـا أُمِّى بِرَاعِيَـةٍ تَرْعَى المَخَاضَ ولا رأيِى بمغبونِ
١٩ كلُّ امرىءٍ راجعٌ يومًا لِشيمَتِهِ وإنْ تَخَالقَ أحيانًا إلى حِينِ
٢٠ عِنْدِى خَلائِقُ أقوامٍ ذوِى حَسَبٍ وآخرُون كثيرٌ كلُّهم دُونِى
٢١ يارُبَّ ثَوْبٍ حَوَاشِيهِ كأوْسَطِهِ لا عَيْبَ فى الثوبِ من حُسْنٍ ومن لِينِ

(١٠) المسغبة : المجاعة والجدب . العزّاء : الضيق والشدة .

(١٥) الممنون : المقطوع ، أى لا أقطع فضلى عن سائلى ولا أمنعه منه .

(١٦) عف : كريم النفس لا يطمع فيما ليس له . الهون : المذلة أو الهوان أو الضعف .

(١٨) ما أمى براعية : أى ليست أمة ويقال إنه عرض به وكان ابن أمة ، أى جارية ترعى الغنم .
عنى إليك : أى انصرف عنى ، فقيها ردع وزجر يأمره بأن يضم إليـه أمره ولا يتعامل معه ، فهو ينأى بنفسه عن التحاور معه أو مناقشته لأنه يضيق به .

(١٩) التخلق : الافتعال فى التصرف ، وإظهار الإنسان أمام الناس خلاف ما يبطن .

(٢٠) يصور أن عنده ما يرضى الكرام من طيب أخلاقه ومحاسن صـفاته ، ممـا لا يتحقق لدى الآخرين وكأن الصفات الطيبة كلها لا تلتق إلا فى شخصه .

(٢١) يرى بعض الرواة أنه قصد به السيف ، وسماه ثوبا كما يسمى عند البعض عطافا ورداء لأنه يثوب إليه كل ذى سلاح .

٢٢ يومًا شَدَدْتُ به فرغاءَ فاهقةً   يومًا على الدهرِ تاراتٍ تُمارِيني

٢٣ لِيَ ابنُ عمٍّ لو انّ الناسَ في كَبَدٍ   لظلَّ مُحتجزًا بالنَّبلِ يرميني

٢٤ إنّي أبيٌّ أبيٌّ ذو مُحافظةٍ   وابنُ أبيٍّ أبيٍّ من أبيِّينَ

٢٥ وأنتمُ معشرٌ زيدٌ على مائةٍ   فأجمِعوا أمرَكم كلًّا فكيدوني

٢٦ فإنْ عرفتُمْ سبيلَ الرُّشدِ فانطلقوا   وإن جهلتُمْ سبيلَ الرُّشدِ فائتوني

٢٧ ماذا عليَّ وإنْ كنتُمْ ذوي كَرَمٍ   ألّا أُحبَّكُمُ إذْ لمْ تُحبُّوني ؟

٢٨ اللهُ يعلمُكمْ واللهُ يعلمُني   واللهُ يَجزيكُمُ عنّي ويَجزيني

٢٩ اللهُ يعلمُ أنّي لا أُحبُّكُمُ   ولا أَلومُكُمُ ألّا تُحبُّوني

٣٠ لو تشربونَ دمي لم يَرْوَ شاربُكُمْ   ولا دِماءَكُمُ جَمْعًا تُرَوِّيني

٣١ قد كنتُ أُوليكُمُ مالي وأمنحُكُمْ   وُدِّي على مُثْبَتٍ في الصَّدرِ مَكنونِ

٣٢ لا يُخرِجُ الكُرْهُ منّي غيرَ مَأْبِيَةٍ   ولا أَلينُ لِمَنْ لا يَبتغي لِيني

---

(٢٢) به : يقصد بالثوب . الفرغاء : ضربة واسعة الفرغ وهو الفم . الفاهقة : التي تفهق بالدم وتفيض به . يصور ضربه ذلك الجرى تارة بضربة واسعة يشد عليها ثوب .

(٢٣) الكَبَد : المشقة . محتجزا : شادا حجزته . يصور ضيق ابن عمه به حتى لم يعد يشغله شاغل إلا رشقه بنباله مهما أجهد الناس من البلاء الذي يعمهم حتى يصير لكل منهم شأن يشغله عن شأن غيره .

(٢٥) زيد : يقصد أن عددهم قد تجاوز المائة . أجمعوا : عزموا عليه . كلا : جميعا .

(٢٦) يصور شدة العداوة بينه وبينهم وكيف استحكمت ، وهي باقية وإن تفانوا بينهم وأهلك بعضهم البعض .

(٣٢) مأبية من الإباء (مفعلة) . يصور إباءه وكيف أنه لا يقبل أن يعطى شيئا على قسر أو رغم أنفه فإذا ما أكره على الشيء لم يكن عنده إلا هذا الإباء والشموخ رغبة فيه وكرها في الخير .

يا هند

* * *

١ إنْ كنتِ عاذلتي فسيري ... نحو العراق ولا تَحُوري

٢ لا تسألي عن جُلّ ما ... لي وانظري حَسَبي وخِيري

٣ وإذا الرياح تَكَمَّشَتْ ... بجوانبِ البيتِ الكبيرِ

٤ ألفَيْتِني هَشَّ النَّدى ... بشَريجِ قِدْحي أو شَجيري

* * *

٥ وفوارسٍ كأوارِ حَرِّ النار أحلاسِ الذكور

٦ شدّوا دوابرَ بَيْضِهِمْ ... في كلِّ مُحْكَمَةِ القَتيرِ

٧ واستلأموا وتَلَبَّبوا ... إنّ التَّلَبُّبَ للمُغيرِ

---

(١) لا تحوري : لا ترجعي .

(٢) الخير (بكسر الخاء) : الكرم .

(٣) تكمشت : أسرعت .

(٤) الشريج : أن تشق الخشبة نصفين فيكون أحد الشقين شريج الآخر . الشجير : قدح يكون مع القداح غريبا ، وهو المستعار الذي يتيمن بفوزه . يقول : ألفيتني في هذا الوقت من الشتاء أضرب بقدحي وأستعير قدحا أضرب به في الميسر .

(٥) الأوار : الوهج . الأحلاس : جمع حلس وهو كل شيء ولي ظهر الدابة تحت السرج ونحوه . تقول فلان من أحلاس الخيل أي يلزم ظهورها .

(٦) البيض : قلانس الحديد . دوابرها : مآخيرها . القتير : مسامير الدروع ، وإنما يشدون البيض إلى الدروع خشية سقوطها .

(٧) استلأموا : لبسوا اللأمة ، وهي السلاح أو الدرع . تلببوا : لبسوا السلاح كله .

٨ وعلى الجياد المضمَرا ت فوارسٌ مثلُ الصقور

٩ يخرجن من خَلَل الغبا ر يَجِفْنَ بالنعَم الكثير

* * *

١٠ أقررتُ عيني من أولا ئكَ والفوائحِ بالعبير

١١ يرفُلْنَ فى المسك الذكىّ (م) وصائك كدم النَّحيرِ

١٢ يَعْكُفْنَ مثل أساوِدِ ال تَّنُّوم لم تُعْكَف لِزُورِ

١٣ ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخدرَ فى اليوم المطير

١٤ الكاعبِ الحسناءِ تر فُلُ فى الدِّمقس وفى الحرير

١٥ فَدَفعتُها فتدافعتْ مَشْىَ القَطَاة إلى الغديرِ

١٦ ولثمتُها فتنفسَتْ كتَنَفُّس الظبى البَهِيرِ

١٧ فَدَنَتْ وقالت يا منخّ (م) لُ ما بجسمكَ مِنْ حَرُورِ

١٨ ما شَفَّ جسمى غيرُ حُبِّ (م) كِ فاهدئى عنى وسيرى

١٩ وأحِبُّها وتحبُّنى ويحب ناقتَها بعيرى

* * *

(٩) يجفن : يسرعن ، من الوجيف وهو ضرب سريع من السير . والنعم : الإبل والشاء .

(١٠) العبير : أخلاط من الطيب تجمع بالزعفران . الفوائح : اللاتى يفيح منهن الطيب .

(١١) الصائك : اللازق ، أراد به الطيب . النحير : المنحور .

(١٢) يعكفن : يمشطن شعرهن و يضفرنه . الأساود : الحيات ، جمع أسود شبه بها الضفائر . التنوم : شجر . الزور : الباطل . يريد أنهن عفيفات لا يتزين لريبة .

(١٦) البهير : من «البهر» وهو ما يعترى الإنسان عند السعى الشديد والعدو من النهج وتتابع النفس .

(١٧) الحرور : الحر .

(١٨) شفه : أهزله وأضمره حتى رق .

٢٠ يا رُبَّ يـومٍ للنخـ (م) لِ قـد لهَـا فيـه قصيرِ

٢١ فإذا انتشيتُ فإننى ربُّ الخَورْنقِ والسَّـدِيرِ

٢٢ وإذا صحـوتُ فإنـنى ربُّ الشُّويهـة والبعـــير

٢٣ ولقـد شربتُ من المُـدا مة بالقليـــل و بالكثير

٢٤ ياهنـــدُ مَنْ لِمُتَيَّمٍ ياهندُ للعـانِى الأسـيرِ ؟

---

(٢١) انتشيت : سكرت . الخورنق والسدير : قصران للملك النعمان بالحيرة .

(٢٤) العانى : الأسير .

* * *

سيد حنفى

النَّـابغة الذُّبيـانى

* * *

يعد النابغة الذبيانى أحد الشعراء الأربعة الكبار الذين يتفق الرواة والباحثون على أنهم أكبر شعراء العصر الجاهلى ، وأعمقهم أثرا فى حركة الشعر فيه ، والثلاثة الآخرون هم امرؤ القيس وزهـير والأعشى . ويضعه بعض الرواة بين أصحاب المعلقات العشر .

ويرجع نسبه إلى قبيلة ذبيان الغَطَفانية التى تنتمى إلى مجموعة قبـائل قيس عيلان ، وكانت تنزل فى شمـالى نجد وشرقى يثرب ، وكان النابغة من أشراف ذبيان وبيوتاتهم الكبيرة .

والنابغة لَقَبٌ لُقِّبَ به ، أما اسمه فهو زياد بن معاوية . وقد اختلفت الرواة فى تعليل هذا اللقب ، فقالوا إنه لُقِّب به لقوله فى بعض شعره « فقد نَبَغَتْ لنا منهم شؤونُ » ، وقالوا لأن موهبته الفنية لم تظهر إلا بعـد أن كبر وتقدمت به السن . وفى أغلب الظن أنه لقب به لنبوغه فى الشعر وتفوقه فيه .

وكما هو الشأن مع أكثر شعراء الجاهلية ليس من اليسير أن نحدد تاريخ مولده ووفاته ، ولكن من المعروف أنه كان معاصرا لحروب داحس والغبراء التى دارت رحاها بين قبيلته وقبيلة عبس فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع (٥٦٨ ـــ ٦٠٨) ، وإن يكن من الواضح أنه لم يشهد نهايتها التى شهدها زهير ونظم فيها معلقته المشهورة . ومن هنا نستطيع أن نؤكد أنه مات قبل سـنة ٦٠٨ ، وربما كان التاريخ الذى ذكره جرجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » عن سنة وفاته ـــ وهو سنة ٦٠٤ ـــ قريبا إلى الواقع .

ولا نعرف كثيرا عن نشأة النابغة الأولى وشبابه، وإنما نراه — أول ما نراه — شاعرا كبيرا متصلا ببلاط المناذرة بالحيرة فى أيام حكم النعمان بن المنذر الملقب بأبى قابوس (٥٨٠ — ٦٠٢) اتصالا ارتفع به إلى أن يكون الشـاعر الأول فى بلاطه بين الشعراء الكثيرين الذين كان هذا البلاط يموج بهم . وعاش النابغة فى ظل النعمان يمدحه ويُشِيد به ، والنعمان يجزل له العطايا والصلات، ويبـالغ فى إكرامه وتقريبه إليه حتى أصبح من ندمائه المقربين إليـه فى مجالس شرابه . ولكنه — لسبب من الأسباب — اضطر إلى مغادرة الحيرة موليـا وجهه شطر الملك عمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة بالشام .

وقد اختلف الرواة حول السبب الذى حمل النابغة على مغادرة الحيرة إلى الشام اختـلافا كبيرا ، فقالوا إن ذلك يرجع إلى وشايات ودسائس حاكها منافسـوه ليفسدوا ما بينه وبين النعمان حتى يخلو لهم مكانه، وقالوا إن ذلك يرجع الى غضب النعمان عليه بسبب قصيدةٍ وصف فيها المتجردة زوجة النعمان وصفا أثار غيرة المُنَخَّل اليشكرى الذى كان يهواها، فسعى لدى النعمان حتى أوغر صدره عليه ، ففر النابغة من الحيرة قبل أن يُوقع به الملك .

ولكن المسألة — فى حقيقة أمرها — ترجع إلى أسباب سياسية أكثر مما ترجع إلى أى سبب آخر . فقد حدث أن الملك عمرو بن الحارث ملك الغساسنة أغار على قبيلة ذبيان وحلفائها من بنى أسد ، لأنهم تجرّؤوا على بعض المناطق الخصبة التى كان يَفْرِض عليها حمايته فى ديار غَطَفان ، ورعوها بغير إذنه . وسبى الملك كثيرا من نساء ذبيان وأسد ، ويقال إن إحدى بنات النابغة كانت فى السبايا ، فرأى النابغة أن يتوسط لقومه عند الملك الغسانى . ونجحتْ سِفارة النابغة ، وعفا الملك عن أسرى قومه، ورد عليهم سباياهم، فتوالت مدائح النابغة عليه، وتوالت عطايا

الملك على النابغة . وظل النابغة فى بلاط الغساسنة حتى مات الملك ، فرأى أن يعود إلى الحيرة ولكن النعمان كان غاضبا عليه لتوجهه إلى الغساسنة ومَدْحِهم ، فقد كانت بين الإمارتين خصوماتٌ سياسية قديمة . ولم يجد النابغة بُدًّا من أن يعتذر إلى النعمان ، فأخذ يبعث إليه بقصائده المشهورة فى الأدب العربى بالاعتذاريات ، يوضح فيها موقفه ، ويدافع عن نفسه ، ويرد على وشايات الوشاة وكيد الحاسدين . وأخيرا انتهت الجفوة ، وعاد النابغة الى البلاط الحيرى ، وظل هناك حتى مات الملك بعد قليل .

* * *

والنابغة من أكبر شعراء العصر الجاهلى ، وهو قمة شامخة من قمم مدرسة الصنعة الجاهلية . وقد بلغت منزلته الفنية بين شعراء عصره أن ارتضوه حَكَمًا بينهم فى سوق عكاظ ، حيث كانت تُضْرَب له قبة حمراء متميزة ، ويأتيه الشعراء من شتى القبائل ليعرضوا عليه شعرهم .

وقد نظم النابغة فى كل الموضوعات التى دار فيها الشعر الجاهلى ، ولكن شهرته تقوم أساسيا على موضوعين : المدح والاعتذار . ويجعله النقاد المبتكر الأول لموضوع الاعتذار فى الشعر العربى ، وواضع تقاليده الفنية ، كما يجعلونه الشاعر الذى ارتفع به أيضا إلى قمته الرفيعة التى بلغها فى العصر الجاهلى . ويأتى بعد هذين الموضوعين موضوع الوصف ، فهو الموضوع الثالث الذى برع فيه وسجل تفوقا وامتيازا ، ولكنه لم يكن يفرد له قصائد مستقلة ، وإنما كان يأتى عنده — كما كان يأتى عند غيره من شعراء عصره — فى ثنايا قصائده . ولم يقف النابغة فى وصفه عند الصحراء ومناظرها فحسب ، وإنما كان أحيانا يمده إلى وصف الحياة المتحضرة التى كان متصلا بها فى الحيرة من ناحية ، وفى الشام من ناحية أخرى .

والنابغة — ككل شعراء مدرسة الصنعة — ينظر إلى العمل الفنى على أنه صنعة يفرغ لها كما يَفْرُغ الصانع لعمله ، يجوِّده ويتقنه ، ويظل عاكفا عليه يعيد فيه النظر ، ويطيل فيه التفتيش ، حتى يخرجه على الصورة الدقيقة المحكمة التى يريدها له ، فى أناة شديدة ، وتجويد بالغ ، وحرص واضح على تهذيب عباراته ، وانتقاء ألفاظه، وإحكام صوره . ومع أنه فى لغته كسائر شعراء عصره غرابةً وبداوةً ، فإن اتصاله الطويل بالحياة الحضارية فى الحيرة والشام أكسبه ذوقا رقيقا مرهفا فى انتقاء الألفاظ لعباراته ، واختيار الاوضاع والزوايا لصوره ، كما طَبَع شعره فى غير قليل من جوانبه بطابع حضارى ، ونَشَر فيه غير قليل من الأفكار والصور المسيحية ،وبخاصة فى قصائده التى نظمها فى أمراء الغساسنة الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

* * *

يوسف خليف

(١)

مِن المَدْح الحربىّ

* * *

ومن الصور المدحيــة التى عُرِف بها النــابغة وعُرِفَتْ عنه ما صاغه فى تلك القصيدة البائية التى رسم فيها لوحة فنية أساسها الطابع الحربى فى شخص ممدوحه الحارث الغسانى ، وعلى عادة شعراء المدح ، وهو واحد من المؤسسين لهذا الفن على سبيل الاحتراف والتكسب ، بدأ البائية بحديث باكٍ يشكو فيه إلى أميمة طول ليله الذى لم يعد يشف إلّا عن تلك المعاناة ، وذلك الألم والهم الذى تكاثر عليه ، حتى ضاق به ، وكأن الأمل قد انقطع إزاء انقضاء هذا الليل .

وهو ينتهى من هذا الحديث الوجدانى الذى يسقط من خلاله همومه وآلامه لينطلق إلى ممدوحه ، معترفا بفضله ونعمته عليه ، مؤكدا هذا الاعتراف بصيغ قسمية يصل بهــا بين حديث الاعتراف وحديث المدح الحربى الذى يؤصل فيه لنسب ممدوحه ، وسيادته فى قومه ، ممــا يترتب عليه ثقته المطلقة فى انتصاره على أعدائه ، وهو انتصار لا يتأتى له إلا بقوة جيشه ، من جند يتمتعون بأصالة الانتمــاء التى يتمتع بها ممدوحه ، إلى خيول عربية لا يشك أحد فى أصالتها وصفوة نسبها ، إلى سيوف ورماح دقيقة الصنع كأنها لم تكن إلا لهؤلاء القوم فقط ، وهى ليست جديدة عليهم ، ولكنها عريقة النسب بنفس الصورة التى يضفيها عليهم النابغة ، وقد أثّرت عراقة نسبها فى صلابتها وقوتها ، فهى موروثة عبر أيام طوال لم تشهد فى تلك السيوف عيبا

واحدا إلا ذلك التكسر الذى ينم عن شىء واحد ، هو كثرة كاثرة فيمن أصيب بهـا من أعداء الممدوح ، وحسبها هذا التكسر أصالة ورمزا لقوتها وقوة الممـدوح على السواء .

* * *

١ كِلينِي لِهَــمٍّ يا أُمَيْمةَ نَاصِبِ ... ولَيـلٍ أقَاسِيهِ بطيءِ الكَواكبِ
٢ تطاولَ حتى قلتُ ليس بمُنْقَضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النُّجومَ بآيِبِ
٣ وصدرٍ أراحَ الليـلُ عازِبَ هَمِّه ... تضاعَفَ فيه الحُزْنُ من كلِّ جَانبِ
٤ علىَّ لعمروٍ نِعمةٌ بعــد نعمةٍ ... لوالدِه ليسَتْ بذاتِ عَقَـارِبِ
٥ حلَفْتُ يمينًا غيرَ ذِى مَثْنَوِيَّةٍ ... ولا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بصَاحِبِ
٦ لئِنْ كان للقَبْرَيْنِ : قـبرٍ بجِلِّقٍ ... وقبرٍ بصَيْدَاءَ التى عنـدَ حَارِبِ
٧ وللحـارثِ الجَفْنِىِّ سـيِّدِ قومه ... لَيَلْتَمِسَنْ بالجَيْش دارَ المُحَـارِبِ
٨ وثِقْتُ له بالنَّصر إن قيل قد غَزَتْ ... كتائبُ من غَسَّانَ غيرُ أشَائِبِ

(١) كليني : دعيني واتركيني . ناصب : متعب ومرهق . أقاسيه : أتألم منـه . تطاول : زاد فى طوله نتيجة الحزن والمكابدة .

(٢) منقض : منته . يرعى النجوم : يقصد الصبح (يشبهه براعى الإبل يحثها على السير) .

(٣) أراح : أرجع ورد . عازب : شارد أو بعيد .

(٤) غير ذى مثنوية : يقصد يمينا صادقة لا يشوبها كذب .

(٥) جلق : دمشق . صيداء : مدينة بالشام .

(٦) الحارث الجفنى : هو والد الممدوح نسـبة إلى آل جفنة وهم الغساسنة . دار المحـارب : دار الخصم الذى يحاربه .

(٧) الأشائب : ج أشابة وهم الأخلاط الذين لا يجمعهم نسب أو قرابة . دنيا : يقصد الأقربين .

(٨) عمرو بن عامر : من الأزد وهم أقارب الغساسنة .

٩ بنو عمِّه دُنيا وعمرُو بن عامرٍ — أولئك قومٌ بأسهم غيرُ كاذبِ

١٠ إذا ما غزَوْا بالجيش حلّق فوقهم — عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ

١١ يصاحِبْنَهم حتى يُغِرنَ مُغارَهم — من الضّارياتِ بالدِّماءِ الدّواربِ

١٢ تراهُنَّ خلفَ القومِ خُزْراً عيونُها — جلوسَ الشّيوخِ فى ثيابِ المرانبِ

١٣ جوانحَ قدْ أيقنَّ أنّ قبيلَهُ — إذا ما التقى الجمعانِ أوّلُ غالبِ

١٤ لهُنّ عليهم عادةٌ قدْ عرفْنَها — إذا عُرِّضَ الخطّىُّ فوقَ الكواثِبِ

١٥ على عارفاتٍ للطِّعانِ عوابسٍ — بهنّ كُلومٌ بينَ دامٍ وجالبِ

١٦ إذا استُنزِلوا للطّعنِ عنهنّ أرقَلوا — إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ

---

(٩) العصائب ج عصابة وهى الجماعة . تهتدى : تسير متتابعة تهتدى كل مجموعة بالأخرى التى تسير أمامها .

(١١) الضاريات : المتعودات المولعات . الدوارب : المتدربات المتمرنات .

(١٢) المرانب ج مرنبانى وهو ثوب لونه كلون الأرنب . خزرا : ج خزراء وهى ضيقة العين أو التى تقبض أجفانها لتحدد النظر .

(١٣) جوانح : مائلات للوقوع . قبيلة : جمعه وجيشه . عرض : وضع بالعرض .

(١٤) الخطى : المنسوب إلى بلد الخط فى البحرين وقد اشتهرت بصنع الرماح الجيدة . الكواثب ج كاثبة وهى الجزء الذى يقع أمام السرج من جسم الفرس .

(١٥) عارفات : خيول صابرة قادرة على تحمل طعان الأعداء . الطعان : الضرب بالرماح . عوابس : يبدو على وجهها الغضب . الكلوم : الجروح . الجالب : اليابس الذى نشأت عليه قشرة .

(١٦) استنزلوا : اضطروا الى النزول . أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : الجمال القوية الشديدة . المنية : الموت .

١٧ فهُـــمْ يَتَساقَوْنَ المَنِيَّـةَ بينهـم   بأيديهمُ بِيضٌ رِقَـاقُ المَضَارِبِ
١٨ يطيرُ فِضَاضًا بينَهُمْ كلُّ قَوْنَسٍ   ويَتْبَعُهَا منهُمْ فَرَاشُ الحَوَاجِبِ
١٩ ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم   بهنَّ فُـلُولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ
٢٠ تُوُرِّثْنَ من أزْمَـانِ يومِ حَلِيمَةٍ   إلى اليَوْمِ قد جُرِّبْنَ كلَّ التَّجَارِبِ

(١٧) يتساقون : يسقى بعضهم بعضا . البيض : السيوف . المضارب ج مضرب وهو حد السيف . رقاق المضارب : يكنى بها عن حدة السيوف .

(١٨) فضاضا : متفرقا . القونس : أعلى الخوذة (البيضة) . فراش الحواجب : أراد فراش الجمجمة وهى العظام الرقيقة فى أسفل الجمجمة .

(١٩) الفلول : جمع فل وهو الكسر فى حد السيف . القراع : المضاربة بالسيوف .

(٢٠) يوم حليمة : بين المنذر الثالث ملك الحيرة وبين الحارث بن جبلة ملك الغساسنة والد حليمة التى كان يقال إنها كانت من أجمل نساء العصر الجاهلى .

* * *

عبد الله التطاوى

(٢)

المُتَجَــرِّدَة

* * *

قال يصف المتجرِّدة، وكان فى بعض دخلاته على النعمان قد فاجأتْهُ فسقط نصيفها عنها، فغطَّت وجهها بمعصمها، فقال النابغة وكنى عنها:

١ أَمِنْ آلِ ميَّـةَ رائحٌ أو مُغْتَدِ ... عجـلانَ ذا زادٍ وغـيرَ مزوَّدِ

٢ أَفِـدَ التَّرحُلُ غيرَ أن ركابَنـا ... لمـا تـزُلْ برحالِنا وكأنْ قـدِ

٣ زَعَـمَ الغرابُ بأنَّ رحلَتنا غـدًا ... وبذاك تنعـابُ الغرابِ الأسود

٤ لا مرحبـًا بغـدٍ ولا أهـلاً به ... إن كان تفريقُ الأحبـةِ فى غدِ

٥ حان الرحيـلُ ولم تودِّعْ مَهْـدَدًا ... والصبحُ والإمساءُ منها موعدى

---

(١) يخاطب الشاعر نفسه فيقول: أرائح أنت من آل مية أو مغتد، أى أتروح اليوم أم تغتدى غدا. وقوله: (عجـلان) من العجلة. وقوله: (ذا زاد وغير مزود)، يريد أتروح زودت أم لم تزود، وأراد بالزاد ما كان من تحية ورد سلام ووداع ونحو ذلك.

(٢) (أفد الترحل): أى دنا الرحيل وقرب. (وكأن قد): أى قد زالت لقرب وقت زوالهـا ودنـوه.

(٣) (زعم الغراب): يعنى أن الغـراب نعب فأنذر بالرحيل، وكانوا يتطيرون به، ويسمونه حاتما؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق. والرحلة: الارتحال. والتنعاب والنعيب أن يصوت ويمد عنقه.

(٥) مهـدد: اسم جارية، ويحتمل أن يريد بهـا (مية)، وقـد يسمون المرأة فى أشعارهم باسمين وأكثر من ذلك؛ اتساعا ومجازا. وقوله: (والصبح والإمساء منها موعدى)؛ أى لا موعد بينى وبينها يكون فيه اجتماع إلى آخر الدهر، وكنى بالصبح والإمساء عن مدة الدهر، ولم يرد صبحا معينا ولا إمساء مخصوصا، وهذا كما تقول: موعد اجتماعنا الأبد، والليل والنهار، تريد آخر الدهر.

٦ في إثرِ غانيــةٍ رمتْــكَ بسهمهــا فأصاب قلبَكَ غير أنْ لم تُقصِدِ
٧ غَنِيَتْ بذلك إذ همُ لك جيرةٌ منها بعطف رسالةٍ وتـودُّدِ
٨ ولقد أصـاب فؤادَهُ من حبِّهـا عن ظهرِ مِرنانٍ بسـهمٍ مُصرِدِ
٩ نظـرتْ بمُقـلةِ شادنٍ مُتربِّبٍ أحْـوَى أحَـمِّ المقلتينِ مُقـلَّدِ
١٠ والنظمُ في سِلْكٍ يُزيِّنُ نحرَهـا ذهبٌ توقَّدُ كالشِّهـابِ الموقَدِ

(٦) (في إثر غانية)، أي حان الرحيل بعد أن عرضت لك هـذه الجارية ورمتك بسهمها، أي أودعت قلبك حبها. والغانية: التي غنيت بجمالها. وقوله: (غير أن لم تقصد)، أي لم تهلك حين رمتك فتستريح، يقال: رماه فأقصده، إذا قتله.

(٧) (غنيت بذلك)، أي أقامت وعاشت بما أودعتك من حبها. (إذ هم لك جيرة)، يريد إذ كان حيه وحيها متجاورين في زمن الربيع، فكانت تعرض له، وتعطف عليه الرسائل، وتتودد إليه. وقوله: (بعطف رسالة)، أي أقامت بذلك مع عطف الرسائل. والباء بدل من (مع). وقوله (منها)، أراد بعطف رسالة منها.

(٨) (ولقـد أصاب فؤاده)، يريد ولقـد أصاب ذلك السهم الذي رمتـه به من حبها بسهم مصرد، أي أصابه من نفسه بسهم مصرد نافذ. يقـول: لقد أصابه هـذا الأمر بأمر منكر شديد. والمرنان: مفعال من الرنين، وهو صـوت القوس عند الرمي، يريد رمتنا عن ظهر قوس، يريد عند الرمي؛ لشدة وترها، وذلك أنفذ للسهم. والمصرد: المنفذ. ويقال: صرد السهم، وأصردته أنا، إذا أنفذته.

(٩) الشادن من أولاد الظباء: الذي قـد شدن وقوي على المشي. والمـتربب: المحبوس في البيت، الحزين. والأحوى: الذي به خطتان سوداوان وكذلك الظباء. والمقلد: الذي زين بالحلي وقلائد اللؤلؤ؛ شبه بالغزال ربته الجواري وزينته، بحسن عينيها وسوادهما، وطول عنقها، ووصف الغزال بما يزيد في حسنه من جعل الحلي عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في التشبيه. والأحم: الأسود.

(١٠) (والنظم في سلك)، يصف أنها ذات نعمة وحلي. والنظم: اسم المنظوم. والسلك: خيط النظام. وقوله: (ذهب) تفسير النظم. والشهاب: النار؛ شبه الذهب به، في بريقه.

١١ صفراءُ كالسِّيَراء أُكمِلَ خَلْقُها ... كالغصنِ فى غُلَوائه المتأوِّدِ
١٢ والبطنُ ذو عُكَنٍ لطيفٌ طَيُّهُ ... والنحرُ تَنفُجُه بثَدْيٍ مُقْعَدِ
١٣ مَخطوطةُ المتنين غيرُ مُفاضَةٍ ... ريَّا الروادفِ بضَّةُ المتجرَّدِ
١٤ قامت تَراءَى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ ... كالشمسِ يومَ طُلُوعِها بالأَسْعُدِ
١٥ أو دُرَّةٍ صَدَفيَّةٍ غوَّاصُها ... بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدِ
١٦ أو دُمْيَةٍ من مَرْمَرٍ مرفوعةٍ ... بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشادُ وقَرْمَدِ

(١١) قوله : (صفراء) يعنى أنها تطلى بالزعفران ، وتتطيب به ، وصفها بالنعمة . والسيراء : الحريرة الصفراء ؛ شبهها بها لصفرة الطيب ، ولين بشرتها ولطافتها . والغلواء : ارتفاع الغصن ونماؤه . والمتأود : المتثنى ؛ لطوله ونعمته ، وشبهها به لكمال طولها ونعمتها وتثنيها .

(١٢) (والبطن ذو عكن) ، أى مهفهفة خميصة البطن ، ولو كانت مفاضة عظيمة لم يكن لها عكن . و(النحر تنفجه) ، أى تعليه وترفعه ، و(ثدى مقعد) ، أى ناتىء على النحر أو ناهد لم ينثن بعد .

(١٣) قال الأصمعى : (مخطوطة) ، أى ملساء الظهر غير متقبضة الجلد ؛ لأن الظهر أسرع الجسد تقبضا . والمفاضة : الواسعة البطن . و(الريا) الممتلئة ؛ وأصله من رى الماء . والبضة : الناعمة البيضاء والمتجرد : الجسم المجرد ، أى إذا جردتها رأيتها بضة الجسم ناعمته . والمتنان : لحمتا الظهر عن يمين الفقار وشماله .

(١٤) قوله : (قامت تراءى) ، أى تعرض لنا نفسها وتتظاهر . والسجف : الستر المشقوق الوسط ؛ وشبهها بالشمس لإشراقها وحسنها . وجعل طلوع الشمس بالأسعد (برج الحمل) ليكون ذلك أتم للتشبيه ، وأبلغ فى الوصف .

(١٥) الصدف : المحار ؛ ونسب الدرة إليه . والبهج : الفرح المسرور بهذه الدرة لنفاستها . وقوله : (يهل ويسجد) ، أى يرفع صوته بالحمد لله والثناء ، ويسجد له شكرا لما وهبه منها . وشبه المرأة بالدرة فى صفائها ورقة بشرتها .

(١٦) قوله : (أودمية من مرمر) ، الدمية : التمثال والصورة . والمرمر : الرخام . وقوله : (يشاد) ، يبنى ويرفع بالشيد ، وهو الجص . والقرمد : خزف مطبوخ مثل الآجر ؛ شبه المرأة بصورة رخام لها قاعدة رفعت عليها ؛ وذلك أصون لها ، وأبهى لمنظرها .

١٧ سَـقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتنـاوَلَتْهُ واتَّقَتْنـا باليَـدِ

١٨ بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنـانَهُ عَـنَمٌ على أشجـارِهِ لم يُعْقَـد

١٩ نظرَتْ إليـك بحاجةٍ لم تَقْضِهـا نَظَـرَ السَّقيمِ إلى وجوهِ العـوَّد

٢٠ تَجْـلُو بقـادِمَتَىْ حمـامة أيكةٍ بَرَدًا أُسِفَّ لِثـاتُهُ بالإثمِـد

٢١ كالأُقْحوانِ غَـداةَ غِبِّ سمـائِهِ جَفَّتْ أعاليـه وأسـفلُهُ نَدِى

---

(١٧) النصيف : نصف خمار أو نصف ثوب ؛ يصف أنه فاجأها فسقط نصيفها ، فغطت وجهها بمعصمها .

(١٨) قوله : (بمخضب رخص) ، أى اتقتنا بمعصم مخضب أو بعضو مخضب ، يعنى كفها . والبنان : الأصابع المخضوبة . والعنم : شجر أحمر الثمر ينبت فى جوف السمر (الشجر) أشبه شىء بالأصابع المخضوبة . و (عنم على أشجاره لم يعقد) أى هو لين مرسل غير معقود .

(١٩) يقول : نظرت إليك نظرا ضعيفا لا تقدر معه على الكلام ، أى نظرت نظر خائف مراقب ، وأرادت كلامك — وهو حاجتها — فلم تقـدر على ذلك ، خشية الرقباء ؛ ومثـله قول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتـكلم

وقوله : (لم تقضها) ، يعنى المرأة لم تقـدر على الكلام مخافة أهلها ، فهى كالسقيم الذى ينظر إلى من يعوده بطرف فاتر ضعيف ، ولا يقدر على الكلام .

(٢٠) قوله : (تجلو بقادمتى حمامة) ، يقول : إذا تبسمت كشفت عن أسـنان كأنها برد ؛ لبياضها وصفائها . والقادمتان : الريشتان اللتان فى مقدمى الجناحين ؛ يعنى أن فى شفتيها لعسا وحوة ، وهو سمرة فى الشفتين ، وهما لطيفتان براقتان ؛ فشبههما بالقادمتين لذلك . وأراد بالحمامة القمرية ؛ وخص القادمتين لأنهما أشد سوادا من سائر الريش . وقوله : (أسف لثاته) ، أى ذر الإثمد على لثاتها .

(٢١) الأقحوان : نبت له نور أبيض وسـطه أصفر ؛ فشبه الأسـنان ببياض ورقه . وقوله : (غداة غب سمائه) ، السماء : المطر . وغب الشىء : بعـده . وقوله : (جفت أعاليه) ، أى مطر ليلا فنحى المطر ما عليه من الغبار ، وصفـا لونه ، ثم جف المـاء من أعلاه ؛ فاشتد بياضه وحسن ، وارتوى أصله من ذلك المطر ، فغذى أعلاه فاشتد بياضه .

٢٢ زَعَمَ الهُمامُ بأنَّ فاها باردٌ ... عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شهىُّ المورِدِ
٢٣ زعمَ الهمامُ — ولم أذُقْهُ — أنّهُ ... عذبٌ إذا ما ذُقْتَهُ قلتَ : ازْدَدِ
٢٤ زعمَ الهمامُ — ولم أذقْهُ — أنه ... يُشفَى بِرَيَّا رِيقِها العَطِشُ الصَّدِى
٢٥ أخذَ العذارَى عِقْدَهُ فَنَظَمْنَهُ ... مِن لؤلؤٍ مُتتابِعٍ مُتَسَرِّدِ
٢٦ لو أنها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهبٍ ... عَبَدَ الإلَهَ صَرُورةٍ متعبِّدِ
٢٧ لَرَنَا لِرُؤْيتِها وحُسنِ حديثِها ... ولَخَالَهُ رَشَداً وإن لم يَرْشُدِ
٢٨ بتكلُّمٍ لَو تستطيعُ كلامَهُ ... لَدَنَتْ له أَرْوَى الهِضابِ الصُّخَّدِ
٢٩ وبفاحِمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نَبْتُهُ ... كالكَرْمِ مالَ على الدِّعامِ المُسْنَدِ

(٢٢) قوله : (زعم الهمام) ، يعنى النعمان بن المنذر ؛ لأنه كان يصف امرأته المتجردة . والهمام : السيد ، سمى بذلك لأنه إذا هم بأمر أمضاه ، ويقال : سمى به لبعد همته .

(٢٤) الريا : الريح الطيبة . والصدى : الشديد العطش .

(٢٥) المتسرد : الذى يتبع بعضه بعضا ، يقال : سرد الحديث ، إذا والى بينه وتابعه ، وصف أنها ذات حلى ونعيم ، وأن العذارى يخدمنها .

(٢٦) الأشمط : الأشيب . والصرورة : اللازم لصومعته . وقيل أيضا : الصرورة ها هنا الذى لا يأتى النساء ، وقيل : هو الذى لم يذنب قط .

(٢٧) قوله : (لرنا لرؤيتها) ، أى لو عرضت لهذا الراهب الأشيب الذى لا يعرف النساء لأدام النظر إليها ، ولأعرض عما هو فيه من عبادته ؛ إعجابا بها ، واستعذابا لحسن حديثها ، ولظن ذلك رشدا ، ولم ير فيه حرجا وإن لم يكن فيه رشد .

(٢٨) الأروى : إناث الوعول . والصخد : الملس . صخرة صيخود ، أى ملساء . وقيل : الصخرة المنتصبة .

(٢٩) قوله : (وبفاحم رجل) ، يعنى الشعر . والفاحم : الشديد السواد ؛ مأخوذ من الفحم . والأثيث : الكثير الذى ركب بعضه بعضا . والرجل : المرجل المشوط . وشبه الشعر فى طوله وغزارته بالكرم المائل على الدعائم . والمسند : الذى رفع وأسند بعضه إلى بعض . وواحد الدعام : دعامة .

٣٠ وإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أَجْثَمَ جاثِماً ... مُتَحَيِّزاً بمكانِهِ مِـلْءَ اليَــدِ

٣١ وإذا طعنتَ طعنتَ في مُسْتَهْدِفٍ ... رابي المَجَسَّةِ بالعبيرِ مُقَــرْمَدِ

٣٢ وإذا نزعتَ نزعتَ عن مُسْتَحْصِفٍ ... نَزْعَ الحَزَوَّرِ بالرِّشاءِ المُحْصَـدِ

٣٣ وإذا يَعَضُّ تَشُــدُّهُ أعضــاؤه ... عَضَّ الكبيرِ من الرجالِ الأَدْرَدِ

٣٤ لا واردٌ منهـا يَحُـورُ لِمَصْـدَرٍ ... عنهـا ولا صَــدِرٌ يحورُ لِمَـوْرِدِ

---

(٣٠) الأجثم : العريض في ارتفاع . والجاثم : الذي اتسع موضعه وتمكن ، وأصل الجاثم : الرابض اللاصق بالأرض . وقوله : (متحيزا بمكانه) ، أي قد حاز ما حوله وبرز .

(٣١) المستهدف : المرتفع . والعبير : هو الزعفران . والمقرمد : المطلي بالقرمد؛ يعني أنه مطلي بالزعفران كما يطلى الحوض والبناء بالقرمد . والرابي : المرتفع . والربوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣٢) أصل النزع جذب الدلو من البئر ، فضرب به مثلا . والمستحصف : الشديد ، الضيق ، والقليل البلل . وقوله : (الحزور) ، أي جذبة الدلو بالرشاء ، وهو الحبل . والمحصد : الشديد الفتل . والحزور هنا الغلام القوي .

(٣٤) قوله : (لا وارد منها يحور لمصدر) ، يقول الذي يريد هذه المرأة ، أي ينال منها لا يريد بذلك بدلا ، فيصدر عنها ، وكل الذي يصدر عنها لا يريد أيضا منها بدلا ، فيصدر ليريد غيرها . وأصل الورد والصدر في الماء ، فضرب به مثلا . ومعنى (يحور) : يرجع .

* * *

سعد درويش

(٣)

المُعَلَّقَة

* * *

قال يمدح النعمانَ بنَ المُنذر ، ويعتذر إليه ممّا بلغه عنه فيما وشَى به بنو قُرَيع في أمر المتجرِّدة :

١ يادارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوتْ ، وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

٢ وقفتُ فيها أُصَيلانًا أُسائلُها عيَّتْ جوابًا ، وما بالربعِ مِنْ أحَدِ

٣ إلا الأواريَّ لأيًا ما أُبيِّنُها والنُّؤْيَ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

---

(١) إنما قال : (يادارمية بالعلياء) توجعا منه ؛ لأنه كان معها ، مقيما بها في سرور ونعمة ، زمن مرتبعهم ، ثم انقضى ذلك ؛ فجعل يخاطبها توجعا منه لما رأى من تغيرها ، وتذكرا لما عهده منها . والعلياء : ما ارتفع من الأرض . والسند : سند الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أى يصعد ، وإنما جعل الدار بالعلياء والسند ؛ لأنها إذا كانت في موضع مرتفع لم يضرها السيل ، ولا انهال عليها الرمل . وقوله : (أقوت) ، أى خلت من الناس وأقفرت . والسالف : الماضي . والأبد : الدهر .

(٢) قوله : (وقفت فيها أصيلانا) ، وصف أنه مر بالدار عشيا قصيرا ، فوقف فيها وسألها عن أهلها ؛ توجعا وتذكرا . وأصيلان : تصغير أصيل وهو العشى ؛ وإنما صغره ليدل على قصر الوقت ، وأنه لشدة حزنه وتوجعه لم يمنعه ضيق الوقت وقصره من الوقوف بالدار ، والسؤال عن أهلها . وقوله : (عيت جوابا) ، أى عيت بالجواب فلم تجبنى . والربع : منزل القوم ؛ وكأنه سمى بذلك لإقامتهم فيه زمن الربيع .

(٣) الأوارى : محابس الخيل ومرابطها ، واحدها آرى . والنؤى : حاجز من تراب حول الخباء لئلا يدخله السيل . والمظلومة : الأرض التي لم تمطر فجاءها السيل فملأها . والجلد : الأرض الصلبة . يقول : ليس في الدار شيء إلا محابس الخيل ، قد خفى أثرها ؛ فلا أتبينها إلا بعد بطء وجهد — واللأى : البطء — وليس بها أيضا إلا النؤى ، ثم شبهه بالحوض في استدارته . وإنما جعل النؤى بالمظلومة ؛ لأنها أرض صلبة ، والنؤى والأوتاد أشد ثباتا فيها ، وجعلها جلدا ؛ لأن الحفر فيها ليس بسهل ، فلم يعمق النؤى ، فهو أشبه له بالحوض .

٤ رَدَّتْ عليــه أقاصيه ولَبَّـــدَهُ ضَرْبُ الوَليدةِ بالمِسْحاةِ فى الثَّأَدِ

٥ خَلَّتْ سَــبِيلَ أَتِىٍّ كان يَحْبِسُهُ ورَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَــدِ

٦ أَمستْ خلاءً وأمسى أهلُها احْتَمَلوا أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى على لُبَــدِ

* * *

٧ فَعَدِّ عمــا ترى إذ لا ارتجــاعَ له وانْمِ القُتُودَ على عَيْرانةٍ أُجُــدِ

(٤) قوله : (ردت عليه أقاصيه) أى ردت الأمة على النؤى ما تباعد من ترابه وشــذ منه ؛ لئلا يصل إليهم المــاء . ومعنى (لبده) سكنه بشدة . والوليدة : الأمة الشابة ؛ وإنما خص الوليدة لأنها أشد ضربا للنؤى . والثأد : المكان الندى ، وهو مصدر وضع موضع الصفة .

(٥) الأتى : سيل يأتى من بلد إلى بلد ، والأتى : مجرى المــاء . وقــوله : (خلت سبيل أتى) أى كنسته ونحت ما فيه من مدر وغير ذلك ؛ لئلا يحتبس المــاء فيه فيفسد تراب النؤى الذى حوله . وقوله : (ورفعته إلى السجفين) أى رفعت التراب إلى السجفين ، والسجفان : ستران رقيقان يكونان فى مقدم البيت ، والنضد إلى جانبهما ، وهو أوعيتهم وجلال تمرهم ، ينضد بعضها على بعض . وقوله : (ورفعته) أى بلغت بالحفــر وقدمته إلى موضع السجفين . والمعنى أن المــاء لمــا كثر وعجز النؤى عنــه خافت على بيتها ، فخلت سبيله فى البيت ، وسهلت مسلكه ؛ لينفذ ويتجاوز البيت .

(٦) قــوله : (أمست خلاء) أى أمست الدار خالية من أهلها لمــا احتملوا عنها . وقــوله : (أخنى عليها) أى أفسد عليها الدهر الذى أفسد على لبــد وهرمه وأفناه . ولبد : آخر نسور لقمان بن عاد ، وهو النسر السابع من نسوره ، وكان قد عمر أربعمائة عام ، وهو الذى يضرب به المثل فيقال : (أتى أبد على لبد) .

(٧) القتود : عيدان الرحل ، ولا واحد لها عند أكثر أهل اللغة ، وقال أبو عمرو الشيبانى : واحدها قتد . والعيرانة : ناقة تشبه العير فى القوة والنشاط . والأجد : الموثقة الخلق ، وهى التى عظام فقارها عظم واحد ، يقال : بنيان مؤجد ؛ إذا كان مرصوصا بعضه إلى بعض . يقــول : عد عما ترى من تغــير الدار ، وما أحدث فيها الدهر ؛ إذ أيقنت أنه لا رجعــة له . (وانم القتود) ، أى ارفعها وارفعها على هذه الناقة ؛ وهذا لتسلو عما أنت فيه .

٨ مَقْذُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها ... لهُ صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ

٩ كأنَّ رَحْلِي ، وقد زال النهارُ بنا ... يومَ الجَلِيلِ على مُستأنِسٍ وَحَدِ

١٠ مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مَوشِيٍّ أكارِعُهُ ... طاوي المَصِيرِ ، كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

١١ أَسْرَتْ عليه من الجوزاءِ سارِيَةٌ ... تُزجِي الشَّمالُ عليه جامِدَ البَرَدِ

---

(٨) قوله : (مقذوفة) ، أى لعظم خلقها وتراكب لحمها ، كأنها قد رميت بالحسم رميا . والدخيس : الكثير المتداخل . والنحض : اللحم . والقعو : الذى فيه البكرة إذا كان من خشب ، وإن كان من حديد فهو خطاف . وبازلها : نابها حين بزل اللحم ، أى شقه وخرج ، والصريف صوته . والمسد : الحبل . وقيل : القعو البكرة بعينها . وذكر أهل اللغة أن الصريف فى الفحول من النشاط ، وفى الإناث من الإعياء ، وبيت النابغة لا يحتمل إلا النشاط ، وقد حكى عن أبى زيد أن الناقة تصرف من النشاط والإعياء ، والفحل من النشاط والهياج والإعياء . ونصب (صريف القعو) على تقدير المصدر ؛ كأنه قال : بازلها يصرف صريفا مثل صريف القعو ، والرفع على تقدير : له صريف مثل صريف القعو .

(٩) الجليل : شجر . والمستأنس : ثور يخاف الأنيس . ومعنى (زال النهار بنا) أى انتصف ، فيقول : كأن رحلى على ثور مستأنس منفرد . وقوله : (يوم الجليل) ، أى يوم مرورنا بالجليل ، وإنما وصف الثور بالانفراد لأن ذلك أشد لفزعه .

(١٠) قوله : (من وحش وجرة) ، أى هذا الثور من وحش هذه الفلاة ، ووجرة طرف السى ، وهو مجتمع الوحش ، وهى ستون ميلا ، وماؤها قليل ؛ فبطون وحشها طاوية لقلة شربها الماء . وقوله : (موشى أكارعه) ، أى بقوائمه نقط سود وخطوط . وقوله : (كسيف الصيقل) ، يريد أن الثور أبيض لماع كالسيف . و (الفرد) : المنقطع القرين المنفرد بالجودة ، وقيل : هو الذى أفرد من غمده ، وعند ذلك يبدو بياضه ولمعانه . وقوله : (طاوى المصير) ، أى ضامر ، والمصير : المعى ، وكنى به عن البطن ، وجمعه مصران ، وجمع مصران مصارين .

(١١) يقال : سرى وأسرى ، إذا جاء ليلا ؛ يجمع بين اللغتين ، فقال : (أسرت) ثم قال : (سارية) فأتى بها على (سرت) . والسارية : سحابة تسير ليلا وتمطر . وقوله : (تزجى الشمال) ، أى تسوق وتدفع على الثور مطرا فيه برد جامد .

١٢ فارتاعَ من صوتِ كَلّابٍ فباتَ له طَوْعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ
١٣ فبثّهُنّ عليـــه وَاستمـرّ به صُمْعَ الكُعُوبِ بريئاتٍ من الحَرَدِ
١٤ وكان ضُمْـرانُ منه حيث يُوزِعهُ طَعْنَ المُعـارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ
١٥ شَكَّ الفَريصةَ بالمِدْرَى فأنفذَها طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذ يَشْفِى من العَضَدِ
١٦ كأنّهُ خارجاً من جَنْبِ صَفْحَتِه سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُـوهُ عند مُفْتَأَدِ

(١٢) قوله : (فارتاع) ، أى فزع الثور من صـوت (كلاب) ، وهو الصائد ذو الكلاب . وقوله : (طوع الشوامت) ، أى بات الثور مبيت سوء من برد وجوع . والصرد : شدة البرد .

(١٣) قوله : (فبثهن عليه) ، أى بث الصائد الكلاب على الثـور ، وقوله : (واستمر به) ، أى نهض بالثور قوائم صمع الكعوب ، أى لسن برهلات المفاصل . والحرد : استرخاء فى عصب البعير استعاره للثور ، أى ليس بقوائمه عيب .

(١٤) قوله : (وكان ضمران منه) ، ضمران اسم كلب . و(يوزعه) : يغريه بالثور ويحضه على الدنو منه والأخذ بمقاتله . و(المعارك) : المقـاتل . والمحجر: المدرك . و(النجد): الشجاع ، وهو من نعت (المعارك) . يقول : كان ضمران من الثور بالموضع الذى يغريه به صاحبه ، كما تقول : أنا لك من هذا الأمر حيث تحب . وقوله : (طعن المعارك) أى لمـا أغراه صاحبه به ، ودنا منه ، طعنه طعن المعارك النجد للمحجر .

(١٥) يقول : شك الثور فريصة الكلب بالمـدرى ، أى انتظمها . و(الفريصة) : موضع عقب الفارس ، وقيل : هى بضعة فى مرجع الكتف . و(المدرى) : القرن . و(المبيطر) البيطار . و(العضد) : داء ووجع فى العضد ؛ من ثقل حمل أو غيره . وشبه نفوذ القرن للفريصة ودخولها فيه بطعن البيطار ، إذا داوى الإبل من العضد ؛ وإنمـا خص الفريصة لأنها مقتل .

(١٦) قوله : (كأنه خارجا) ، أى كأن القرن فى حال خروجه من جنب صفحة الكلب إلى الصفحة الأخرى سفود شرب نسوه ، أى تركوه حتى نضج ما فيه . والمفتأد : موضع اشتوائهم اللحم ، يعنى أن الثور طعن الكلب فخرج قرنه من الجنب الآخر ، ثم ذهب به ، فبقى الثور وحده ، وليس معه أحد ؛ فشبه القرن منتظما الكلب بسفود فيه شواء قـد ترك ليس عنـده أحد . والنسيان فى كلام العرب : الترك . و(شرب) : قوم يشربون ، واحدهم شارب ، مثل صاحب وصحب .

١٧ فَظَلَّ يَعْجُمُ أَعْلَى الرَّوقِ مُنْقَبِضاً ... فى حالِكِ اللَّونِ صَدْقٍ غيرِ ذى أَوَدِ

١٨ لمّا رأى واشِقٌ إقعاصَ صاحِبِه ... ولا سبيلَ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ

١٩ قالت له النفسُ: إنى لا أرى طَمَعًا ... وإنَّ مولاكَ لم يَسْلَمْ ولم يَصِدِ

* * *

٢٠ فتلك تُبْلِغُنى النعمانَ ، إنَّ له ... فضلاً على الناسِ فى الأدنَى وفى البَعَدِ

٢١ ولا أَرَى فاعِلاً فى الناسِ يُشْبِهُهُ ... ولا أُحاشِى من الأقوامِ من أَحَدِ

٢٢ إلا سُلَيْمانَ إذْ قال الإلهُ له : ... قُمْ فى البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

---

(١٧) قوله : (فظل يعجم) ، أى ظل الكلب يمضغ أعلى الروق حيث أنفذه به ، فهو يعض فى حالك اللون ، يعنى القرن . والصدق : الصلب . والأود : الاعوجاج . وقوله : (منقبضا) ، أى قد تقبض الكلب واجتمع فى القرن لما يجد من الوجع .

(١٨) قوله : (لما رأى واشق إقعاص صاحبه) ، واشق : اسم كلب آخر . وقوله : (ولا سبيل إلى عقل ولا قود) ، ضرب هذا مثلا ، يعنى أن صاحبه قتل — وهو ضمران — فلم يقتل به ولم يود . والعقل : غرم الدية . والقود : قتل النفس بالنفس .

(١٩) قوله : (قالت له النفس) ، أى حدثت واشقا نفسه باليأس من الثور أو من صاحبه . والمولى : الصاحب ، قتلت كلابه فلم يسلم ولم يصد .

(٢٠) قوله : (فتلك تبلغنى النعمان) ، أى تلك الناقة التى تشبه هذا الثور فى قوته ونشاطه تبلغنى النعمان ، وهو اسم الملك . وقوله : (فى الأدنى وفى البعد) ، أى فى القريب والبعيد .

(٢١) قوله : (ولا أرى فاعلا) ، أى لا أرى أحدا يفعل فعلا كريما يشبهه فى فعله . وقوله : (ولا أحاشى) ، أى لا أستثنى .

(٢٢) قوله : (إلا سليمان) استثناء من القوم المنفى عنهم شبه النعمان . وقوله : (احددها) ، أى امنعها . و (الفند) : الخطأ فى القول والفعل وغير ذلك .

٢٣ وَخَيِّسِ الجنَّ، إِنِّى قد أَذِنْتُ لهم ... يبنونَ تَدْمُرَ بالصُّفّاحِ والعَمَـدِ

٢٤ فَمَنْ أَطـاعَكَ فانفعْه بطاعتِـه ... كما أطاعَكَ ، وَادْلُلْهُ على الرَّشَـدِ

٢٥ وَمَنْ عصاكَ فَعاقِبه مُعاقَبةً ... تَنْهَى الظَّلُومَ ولا تقعُـدْ على ضَمَدِ

٢٦ إلا لِمثْـلِكَ أو مَن أَنت سابِقُه ... سَبْقَ الجواد إذا استولَى على الأَمَدِ

٢٧ أَعْطَى لفـارِهَةٍ حُلْوٍ تَوابِعُهـا ... من المـواهِبِ لا تُعْطَى على نَكَدِ

٢٨ الواهبُ المـائةَ المِعْكاءَ زَيَّنَهـا ... سَعْدانُ تُوضِحَ فى أَوْبارِها اللِّبَدِ

(٢٣) قوله : (وخيس الجن) ، أى ذللهم ، ومنه سمى السجن مخيسا . و (الصفاح) : حجارة كالصفائح عراض . و (تدمر) : مدينـة بالشام ، فيها بنـاء لسليمان بن داود ، عليهما السلام . و (العمد) : أساطين الرخام ، وهى السوارى .

(٢٤) الرَّشَد : الرُّشْد ؛ كما يقال : بخَل وبخْل ، وشغَل وشغْل .

(٢٥) الضمد : الذل والغيظ والحقد ، وقيل : هو الظلم .

(٢٦) حكى عن الأصمعى أنه قال : (إلا لمثـلك) ، أى إلا لرجل فى مثل حالك أو من فضلك عليه ؛ كفضل السابق على المصلى ، أى ليس بينك وبينه فى الفضل إلا يسير ، بمقـدارما بين السابق والمصلى من الخيل . ومعنى استولى عليـه : غلبه . والأمد : الغاية التى يجرى إليها . أراد النابغة حض النعمان على أن يقعد عنه ، ولا يضمر له حقدا ؛ لأنه ليس مثله ولا قريبا منه .

(٢٧) الفارهة : النـاقة الكريمة ، أو العطية الحسـنة . و (توابعها) : ما تبعها من المطايا . والنكد : الضـيق والعسر ، ويروى : (لا تعطى على حسد) ، أى لا تعطى ونفسك تتبـع العطية وترغب فيها .

(٢٨) قـوله : (الواهب المـائة المعكاء) ، يعنى أنه يهب المـائة من الإبـل ، والمعـكاء : السمان الشداد ، وهو اسم لا يثنى ولا يجمع . والسعدان : نبت من أنجع ما ترعاه الإبل ، ومنه قيل : (مرعى ولا كالسعدان) . وتوضح : موضـع بالحمى ، وكانت إبل المـلوك ترعاه ؛ فلذلك ذكره . وقوله : (فى أوبارها اللبد) ، يريد أنها إبل سائمة مهملة فى المرعى ، لا تستعمل ظهورها ؛ فأوبارها متلبدة لذلك . واللبد : جمع لبدة ، التقدير يريد أوبارها ذات اللبد .

٢٩ والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلاً مرافقُها ... مَشْدُودةً برِحالِ الحِيرةِ الجُدُدِ

٣٠ والرَّاكضاتِ ذُيُولَ الرَّيْطِ فانقَها ... بَرْدُ الهَواجِرِ كالغِزلانِ بالجَرَدِ

٣١ والخيلَ تَمْزَعُ غَرْبًا فى أَعِنَّتِها ... كالطَّيرِ تَنجُو من الشُّؤْبوبِ ذى البَرَدِ

* * *

٣٢ احكُمْ كحُكمِ فتاةِ الحيِّ إذ نظرتْ ... إلى حَمامٍ شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ

٣٣ يَحُفُّهُ جانبا نِيقٍ وتُتْبِعُهُ ... مثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمَدِ

(٢٩) الأدم من الإبل : البيض ، ومن النساء : السمر . ومعنى (خيست) : ذللت بالركوب . والفتل : التى بانت مرافقها عن آباطها . والحيرة : مدينة النعمان .

(٣٠) قوله : (والراكضات ذيول الريط) ، يعنى الجوارى يركضن بأرجلهن مآخر الريط ؛ لسبوغه عليهن ، وتبخترهن فيه . والريط : الملاحف البيض . ومعنى (فانقها) : نعم عيشها . وقوله : (برد الهواجر) ، أى هى فى الهواجر فى موضع بارد ؛ فلا يؤذيها وهج الشمس . والجرد : أرض جرداء لا شجر فيها ولا نبات ؛ وإنما خصه لأن الغزلان إذا كانت به بدت محاسنها للناظر ، ولم يحجبها عنه شىء .

(٣١) يقول : هو يهب المائة المعكاء ، ويهب الراكضات ، ويهب الخيل . وقوله : (تمزع) ، أى تسرع فى سيرها . والغرب : الحدة والنشاط . وشبه الخيل فى سرعتها بطير أصابها مطر شديد فيه برد ؛ فهى تنجو وتسرع إلى مواضع تقيها من المطر والبرد . والشؤبوب : دفعة المطر وشدته .

(٣٢) قوله : (احكم) ، أى كن حكيما فى أمرك ، مصيبا فى الرأى ، ولا تقبل ممن سعى إليك ؛ كفتاة الحى إذ أصابت ووضعت الأمر موضعه ، ولم يرد الحكم فى القضاء . والثمد : الماء القليل . والشراع : القاصدة إلى الماء . حكى أن فتاة الحى هى زرقاء اليمامة .

(٣٣) قوله : (يحفه جانبا نيق) ، أى يحيط به من جانبيه . والنيق : الجبل . وقوله : (وتتبعه مثل الزجاجة) ، أى عينها صافية كصفاء الزجاجة . ومعنى قوله : (لم تكحل من الرمد) ، أى لم يصبها رمد فتكحل ، ويحتمل أن يريد أنها كحلت بغير رمد ؛ لزينة أو نحوه .

٣٤ قالتْ : أَلاَ لَيْتَما هذا الحَمامُ لَنــا إلى حمــامَتِنا ونِصــفُهُ فَقَــدِ
٣٥ فَحَسَّــبُوه فأَلْفَــوْه كما حَسَبَتْ تِسعًا وتِسعينَ لَمْ تنقُــصْ ولم تَزِدِ
٣٦ فَكَمَّلَتْ مائةً فيهــا حمامَتُهــا وأسرعتْ حِسْبَةً فى ذلك العَــدَدِ
٣٧ فــلا لَعَمْرُ الذى مسَّحْتُ كعبتَه وما هُرِيقَ على الأَنصابِ من جَسَدِ
٣٨ والمؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها رُكبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّعَدِ
٣٩ ما قلتُ من سيِّئٍ ممــا أُتِيتَ به إذاً فــلا رفعتْ سَوْطِى إلىَّ يَدِى
٤٠ إلا مقــالةَ أقــوامٍ شَقِيتُ بهــا كانتْ مقالتُهــم قَرْعاً على الكَبِدِ

---

(٣٤) قوله : (فقد) ، أى حسبى ؛ موضعه من الإعراب الرفع على المبتدأ .

(٣٥) يقول : حسبوا القطا وضموا إليه نصفه ، فألفوه تسعا وتسعين ، كما حسبت .

(٣٦) قوله : (وأسرعت حسبة) ، أى أسرعت فى حساب القطا مع طيرانه وتراكبه ، فكان ذلك كحكم هذه ؛ إذ صدقت فى عدده على هذه الحال . والحِسبة — بالكسر — مثل الجلسة والركبة ، وهى هيئة الفعل . والحَسبة — بالفتح — المرة الواحدة .

(٣٧) قوله : (مسّحت كعبته) ، أى أتيت بيتــه وطفت به ، والكعبة : كل بيت مربع ؛ وبه سميت الكعبــة . والأنصاب : حجارة كانوا يذبحون عليهــا الذبائح لآلهتــم . والجسد : الدم اللازق (اللاصق) .

(٣٨) العائذات : التى عاذت بالحرم . والشاعر يقسم بالله الذى أمن الطيور العائذة بالحرم أن تهاج أو تصاد . ونصب (الطير) على البدل من العائذات ؛ لأنها مفعولة بالمؤمن . و(الغيل) : الشجر الملتف ، وكذلك (السعد) . وقوله : (يمسحها) ، أى يمرون عليها ، لا يهيجها أحد ولا ينفرها .

(٣٩) قــوله : (ما قلت من سيىء) جواب قوله : (فــلا لعمر الذى مسحت كعبته) . وقوله : (فلا رفعت سوطى إلى يدى) ، يقول : إذاً نشلت يدى حتى لا أطيق رفع السوط .

(٤٠) قوله : (إلا مقالة أقوام) ، نصبها على الاستثناء المنقطع ، والمعــنى : ما قلت شيئا ممــا أتوك به عنى ، لكنهم قالوا مقالة شقيت بهــا عندك . وقوله : (قرعا على الكبد) ، أى اشتدت على مقالتهم ، فكأنها قرعت كبدى بذلك .

٤١ أُنبِئْتُ أنَّ أبا قابوسَ أَوْعَدَني ... ولا قرارَ على زأْرٍ من الأَسَدِ
٤٢ مهلاً فِداءٌ لكَ الأقوامُ كلُّهمُ ... وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ
٤٣ لا تقذفنّي بِرُكنٍ لا كِفاءَ له ... وإنْ تأثَّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ
٤٤ فما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ له ... تَرمي غواربُه العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ
٤٥ يَمُدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيه رُكامٌ من اليَنْبوتِ والخَضَدِ
٤٦ يَظَلُّ من خوفِه المَلّاحُ مُعتصِماً ... بالخَيْزُرانةِ بعدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ

(٤١) أبو قابوس هو النعمان بن المنذر . ومعنى (أوعدنى) هددنى . وزأر الأسد وزئيره : صوته ووعيده . يقول : وعيد النعمان لا تستقر معه نفسى ولا تطمئن ؛ هيبة له ، كما لا تطيق ولا تسكن على زئير الأسد .

(٤٢) قوله : (مهلا فداء لك) ، أى تثبت فى أمرى ولا تعجل على . وقوله : (وما أثمر من مال) ، أى أكثر وأصلح ، يقال : ثمر الله ماله ، أى كثره .

(٤٣) قوله : (لا تقذفنى بركن لا كفاء له) أى لا ترمينى بنفسك ؛ فإنه لا مثل لك ، وإنما ذكر الركن كناية عن الشدة والقوة . وقوله : (تأثفك) ، أى اجتمعوا حولك ، مثل الأثافى ، متعاونين على . و (الرفد) : أن يترافد عليه أعداؤه الذين وشوا به ، أى يتعاونون عليه .

(٤٤) قوله : (فما الفرات) ، يقول : ليس هذا النهر بأجود منك . والغوارب : الأمواج ، وغارب كل جسم : ما ارتفع منه وعلا . وعبرا النهر : جانباه . والزبد : ما يطرحه النهر ، إذا جاش ماؤه ، واضطربت أمواجه .

(٤٥) قوله : (يمده كل واد) ، أى يزيد فيه ويقويه . والمترع : المملوء . واللجب : المصوت ؛ لشدة جريه وقوة سيله . والركام : ما تراكم بعضه على بعض ، أى تراكب . والينبوت والخضد : نبتان ، وقيل : الينبوت شجر الخروب ، وقيل : الخضد : كل ما تكسر من الشجر وغيره .

(٤٦) قوله : (يظل من خوفه) ، أى من خوف الفرات ؛ لاضطراب أمواجه ، وشدة هوله . والمعتصم : المستمسك . والخيزرانة ها هنا : سكان السفينة . والأين : الإعياء . والنجد : العرق والكرب .

٤٧ يوماً بأجودَ منـه سَيْبَ نافِـلَةٍ ولا يَحُولُ عطاءُ اليومِ دُونَ غَـدِ
٤٨ هـذا الثناءُ فإنْ تَسْمَعْ به حسناً فلمْ أُعَرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللعنَ ـ بالصَّفَدِ
٤٩ ها إنَّ ذِى عِذْرَةٌ إلّا تكنْ نفَعَتْ فإنَّ صاحبَهـا مُشارِكُ النَّكَدِ

(٤٧) قوله : (يوما بأجود منـه) متصل بقوله : (فما الفرات) . والسيب : العطاء . والنافلة : الفضل ، وكل شيء ليس بواجب فهو نافلة ؛ وإنما خص النافلة ليبالغ فى المدح ، لأنه إذا أكثر من غير الواجب فهو أجدر أن يكثر من الواجب . وقـوله : (دون غد) ، أى إذا أعطاك اليوم لم يمنعه ذلك من إعطائك غدا عطية أخرى .

(٤٨) قوله : (أبيت اللعن) ، هى تحية كانوا يحيون بها الملوك ، ومعناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تذم به . والصفد : العطاء . فعله : أصفدته إصفادا ، والصفد الاسم . وقوله : (فلم أعرض) ، أى لم أمدحك ؛ تعرضا لمعروفك ، لكن اعتذارا إليك ، وإقرارا بفضلك .

(٤٩) قوله : (ها إن ذى عذرة) ، أى هذه معذرة إليك . والنكد : العسر .

* * *

سـعد درويش

(٤)

اعتذارية

* * *

قال يمدح النعمان و يعتذر إليه :

١ أتانى ـ أبيتَ اللعنَ ـ أنك لُمْتَنى وتلك التى أهْتَمُّ منها وأنْصَبُ
٢ فبِتُّ كأنَّ العائداتِ فرَشْنَنى هَراساً به يُعْلَى فِراشِى و يُقْشَب
٣ حلَفتُ فلم أترُكْ لنفسكَ رِيبَةً وليس وراءَ الله للمرءِ مَذْهَب
٤ لئِنْ كُنتَ قد بُلِّغْتَ عنّى خيانةً لَمُبْلِغُكَ الواشى أغَشُّ وأكْذَب
٥ ولكننى كنتُ امرأً لِىَ جانبٌ من الأرضِ فيه مُسْتَرادٌ ومَذْهَب
٦ ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم أُحَكَّمُ فى أموالهم وأُقَرَّب

---

(١) قوله : (أبيت اللعن) ، أى أبيت أن تأتى أمرا تلعن عليه . وقوله : (وتلك التى أهتم منها وأنصب) ، أى تلك العلامة جعلتنى ذا هم وذا نصب ، أى ذا عناء ومشقة .

(٢) العائدات : الزائرات فى المرض . الهراس : الشوك . يقشب : يجدد و يتعاهد بالشوك .

(٣) الريبة : الشك . وقوله : (وراء الله) ،أى ليس بعد اليمين بالله — عز وجل — للمرء مذهب .

(٤) قوله : (لئن كنت قد بلغت عنى خيانة) ، أى لئن بلغت عنى أنى أخون ودك وأكفر نعمتك ؛ فالذى بلغك ذلك ، ووشى به إليك أغش وأكذب . والواشى : النمام الذى يزين كذبه عندك ، وأصله من الوشى .

(٥) قوله : (لى جانب من الأرض) ، أى متسع وتمكن ؛ وإنما يصف ذهابه إلى الغساسنة ومنزلته فيهم . والمستراد : الإقبال والإدبار . والمذهب : موضع الذهاب . وإنما يصف بهذا سعة حاله وتمكنها .

(٦) قوله : (ملوك وإخوان) ، يعنى الغساسنة ، وكان قد حل بهم حين فر من النعمان فأكرموه وقربوا منزلته .

٧ كَفِعلِكَ في قَوْمٍ أراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فلم تَرَهُمْ في شُكرِ ذلكَ أَذْنَبوا
٨ فلا تَتْرُكَنِّي بالوَعيدِ كأنَّني إلى النَّاسِ مَطْلِيٌّ به القارُ أَجْرَبُ
٩ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ
١٠ فإنَّكَ شَمْسٌ والملوكُ كواكِبُ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنهنَّ كَوْكَبُ
١١ ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟
١٢ فإنْ أَكُ مَظلومًا فعبدٌ ظَلَمْتَهُ وإنْ تَكُ ذا عُتْبَى فمِثلُكَ يُعْتِبُ

(٧) أى فعل بى الغساسنة ما أوجب لهم مدحى وثنائى ، كما فعلت أنت فى قوم اصطنعتهم وأحسنت إليهم ،فينبغى ألا ترانى مذنبا فى شكر ذلك لهم ، كما لا ترى من اصطنعته فيشكرك مذنبا فى شكره لك .

(٨) أى لا تدعنى كأنى بعير أجرب قد طلى بالقار ، وهو القطران ، يتحاماه الناس ويطردونه عن إبلهم ، لئلا يعديها بجربه ، وإنما يريد أنه إن لم يعف عنه تحامته العرب ولم تجره ، خوفا من النعمان . وقوله : (كأنى إلى الناس) ، أى كأنى فى الناس . وقوله : (مطلى به القار) ، أى مطلى بالقار فقلب .

(٩) السورة : المنزلة الرفيعة . وقوله : (يتذبذب) ، أى يضطرب ، وإنما يريد أن منازل الملوك دون منزلته .

(١٠) قوله : (فإنك شمس والملوك كواكب) ، يعنى أن منزلته من الملوك كمنزلة الشمس من الكواكب ، فإذا ذكر ونشرت مآثره لم يذكر غيره معه .

(١١) قوله : (لا تلمه) ، أى لا تصلح من أمره وتجمعه . والشعث : الفساد والتفرق . والمهذب : المنقى من العيوب . يقول للنعمان : إن لم تصبر للأخ والصديق على خصلة غير مرضية تكون فيه لم تبق لنفسك أخا .

(١٢) قوله : (وإن تك ذا عتبى) ، أى ذا رضا ورجوع إلى ما أحب من عفوك فمثلك يعتب ؛ يقال : عتب الرجل إذا سخط ، والاسم منه العتب والعتاب . وأعتب إذا رضى ، والاسم العتبى والمصدر الإعتاب .

* * *

سعد درويش

(٥)

اعتــذاريّة أخرى

* * *

وقال من قصيدة أخرى يمدح فيها النعمان و يعتذر إليه :

١ وَعيدُ أَبِى قابوسَ فى غيرِ كُنْهِهِ ... أتانى ودُونِى راكِسٌ فالضَّواجعُ

٢ فَبِتُّ كأنّى ساوَرَتْنِى ضَئيلَةٌ ... من الرُّقْشِ فى أنيابِها السمُّ ناقِعُ

٣ يُسَهَّدُ من ليلِ التّمامِ سَليمُها ... لحَلْىِ النساءِ فى يديه قَعاقِعُ

٤ تَناذَرَها الرّاقُونَ من سُوءِ سَمِّها ... تُطَلِّقُه طَوْرًا وطَوْرًا تُراجِعُ

---

(١) قوله : (فى غير كنهه) : فى غير حقيقته . أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه ، و يوعدنى من أجله . و(راكس) : واد . و(الضواجع) : جمع ضاجعة ، وهى منحنى الوادى ومنعطفه .

(٢) قوله : (ساورتنى) ، أى واثبتنى . والضئيلة : حية دقيقة قد أتت عليها سنون كثيرة ، فقل لحمها ، واشتد سمها . والرقش : التى فيها نقط ، سواد و بياض . وناقع : ثابت .

(٣) قوله : (يسهد من ليل التمام) ، أى يمنع النوم ، وليل التمام : أطول ليالى الشتاء ، وليل التمام أيضا : الذى يطول على من قاساه وإن قصر . والسليم : الملدوغ ؛ سمى بذلك على التفاؤل له بالسلامة ، كما سميت الفلاة المهلكة مفازة على التفاؤل للقوم بالفوز والنجاة . وقوله : (لحلى النساء فى يديه قعاقع) قال أبو عمرو وغيره : كان العرب يفعلون بالديغ ذلك لئلا ينام فيدب السم فيه . والقعاقع : الحركة والصوت .

(٤) قوله : (تناذرها الراقون من سوء سمها) أى أنذر بعضهم بعضا ؛ لأنها لا تجيب راقيا ؛ لشدتها . وقوله : (تطلقه طورا) ، أى تخفف عنه مرة ، ومرة تشتد عليه ، وكذلك حال اللديغ .

٥ أتانى ـــ أَبيْتَ اللَّعنَ ـــ أنَّكَ لُمتَنِى وتلك التى تَسْتَكُّ منهـا المسامِـع

٦ مقَالَةٌ أنْ قـد قلتَ سوف أنالُه وذلك من تِلقـاءِ مثـلِكَ رائعُ

٧ لَعَمْرِى وما عَمْرِى علىَّ بِهَيِّـنٍ لقد نطقتْ بُطْلاً علىَّ الأَقارِع

٨ أَقارِعُ عَوْفٍ لا أُحاوِلُ غيرَهـا وُجُوهُ قُرُودٍ تَبْتَغِى مَن تُجـادِع

٩ أتاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لىَ بِغْضَةً له من عَدُوٍّ مثـلَ ذلك شافِـع

١٠ أتاكَ بقولٍ هَلْهَـلِ النَّسْجِ كاذِبٍ ولم يأْتِ بالحقِّ الذى هو ناصِع

(٥) قوله : (وتلك التى تستك منها المسامع) ، أى تلك الملامة التى أتتنى عنك أصمت مسامعى . ومعنى (تستك) ، أى تشتد وتضيق فلا تسمع ، وواحد المسامع مسمع ، وهو الأذن .

(٦) قوله : (مقالة) بيان لقوله : (أنك لمتنى) ، و بدل منه ، ويجوز نصبها ورفعها . وقوله : (وذلك) إشارة إلى معنى الجملة ؛ كأنه قال : وذلك القول رائع من تلقاء مثلك .

(٧) قوله : (لعمرى) ، قال بعضهم : لدينى ، والمعروف أن معناه البقاء ، وإنما حلف بها لأنها يمين كثرت فى الاستعمال ، وليس قصده أن يقسم ببقائه . البطل والباطل بمعنى واحد . وأراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وهم من بنى تميم ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان ، وذكروا أنه يصف فى شعره المتجردة .

(٨) قوله : (لا أحاول غيرها) أى لا أريد هجاء غيرهم . ومعنى : (تجادع) تشاتم ، وإنما استعاره من جدع الأنف ، ونصب (وجوه قرود) على الذم ، ويجوز رفعها على القطع .

(٩) قوله : (مستبطن لى بغضة) أى مضمرها . وقوله : (مثل ذلك) ، أى مثل ذلك الرجل المستبطن . والشافع : المعين ، وأصله من الشافع ، وهو الثانى .

(١٠) قوله : (هلهل النسج) ، أى أتاك بقول ضعيف باطل ، بمنزلة الثوب المهلهل ، وهو الذى نسج وخفف ولم يحكم . وقوله (كاذب) ، أى مكذوب فيه . والناصع : الواضح البين ؛ وأصل الناصع : الخالص البياض .

١١ أتاكَ بقولٍ لم أكنْ لأقولَه ولو كُبِلَتْ في ساعديَّ الجوامِع
١٢ حَلَفْتُ فلم أتركْ لنفسِكَ رِيبَةً وهل يأثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهو طائع
١٣ بمُصطحَباتٍ مِن لَصافٍ وثَبْرَةٍ يَزُرْنَ إلالاً سَيْرُهُنَّ التَّدافُعُ
١٤ سَمامًا تُبارِي الرِّيحَ خُوصًا عُيونُها لهنَّ رذايا بالطريق ودائِع
١٥ عليهنَّ شُعْثٌ عامِدُونَ لحَجِّهِم فهُنَّ كأطرافِ الحَنِيِّ خَواضِع

(١١) قوله : (ولو كبلت في ساعدي الجوامع)، أي لو كنت مجنونا حتى أشد بالحديد ما قلت ما بلغك عني . وقوله : (كبلت)، أي جمعت وشددت ؛ من الكبل وهو القيد . والجوامع : الأغلال ، والواحدة جامعة .

(١٢) الريبة : الشك . والأمة والإمة : الدين والطريقة المستقيمة . يقول : حلفت فلم أترك لنفسك شكا في صدق ، وحلفت وأنا لك طائع ذو دين واستقامة .

(١٣) قوله : (بمصطحبات) ، يعني الإبل ؛ وإنما أقسم بها لأنها تصطحب في السير إلى الحج ، فعظمها لذلك وأقسم بها . ولصاف وثبرة : موضعان في بلاد بني تميم . وإلال : جبل عن يمين الحاج إذا وقفت بعرفة . وقيل إلال جبل عرفة نفسه . وقوله : (سيرهن التدافع) ، أي أنهن يتراجعن في السير ويتدافعن لسرعتهن وشدة سيرهن .

(١٤) السمام : طيور تشبه السمانى ، شديدة الطيران ، شبه الإبل بها في سرعتها ، ونصبها على الحال من الضمير في (يزرن) ، أي : يزرن إلالا مسرعات مثل السمام في السرعة . وقوله : (تبارى الريح) ، أي تعارضها لسرعتها ، وقوله : (خوصا عيونها) أي غائرة العيون من الجهد والعناء، ونصبه على الحال من الضمير الذي في (تبارى) . والمعنى أنها تبارى الريح في حال جهدها وغؤور عينيها ، ويقال : إن غؤور عين الناقة من صفات الكرم ، و(خوصا) على هذا من نعت السمام لا حال من الضمير . والرذايا : الساقطة . و(ودائع) : قد استودعت الطريق ، أي تركت فيه لإعيائها .

(١٥) قوله (عليهن شعث) ، أي متغيرون من السفر . وقوله : (كأطراف الحنى) ، يريد أنها ضامرة دقيقة من شدة السير والجهد معوجة ، والحنى : القسي ، واحدتها حنية ؛ سميت بذلك لأنها معطوفة الطرفين . وقوله : (خواضع) أي خواشع من الجهد .

١٦ لَكَلَّفْتَنِى ذنبَ امرئٍ وَتَرَكْتَه كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتِع
١٧ فإنْ كنتُ لا ذُو الضِّغْنِ عنِّى مكذّبٌ ولا حَلِفى على البَرَاءة نافِعُ
١٨ ولا أنا مأمونٌ بشىءٍ أقولُه وأنتَ بأمرٍ لا محالَةَ واقِع
١٩ فإنَّكَ كالليل الذى هو مُدْرِكى وإنْ خلتُ أنَّ المُنْتَأَى عنكَ واسِع
٢٠ خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بها أَيْدٍ إليكَ نَوَازِع
٢١ أَتُوعِدُ عَبْداً لم يَخُنْكَ أمانةً وتترُكُ عبداً ظالماً وهو ضالِع

(١٦) قوله : (لكلفتنى) جواب لقوله : (حلفت) . العـر : داء يصيب الإبل ، فإذا أرادوا أن يعالجوه كووا بعيرا آخر صحيحا ؛ فيبرأ ذلك البعير . هكذا حكى عن فصحاء العـرب ممن حمل عنهم الرواة . وكان أبو عبيدة يقول : هذا لا يكون ، وإنما هذا مثل ، أى أخذتنى بذنب غيرى ، وهذا كما قال الناس : يشرب عجلان ويسكر ميسرة (ولم يكونا شخصين موجودين) .

وكذلك قول الشاعر : « كالثور يضرب لما عافت البقر » ، فقد قال فيه أبو عبيدة : إنما هذا مثل ، وهـذا لا يكون ، وحكى غيره أنه يضرب ليتقدم إلى الماء ؛ فإذا أرادته البقر تقدمت معه فشربت .

(١٧) الضغن : الحقد والعداوة .

(١٨) قوله : (ولا أنا مأمون) متعلق بقوله : (فإن كنت لا ذو الضغن) ، وليس بمستأنف .

(١٩) قوله : (فإنك كالليل)، أى أنا فى قبضتك حيث كنت وإن بعدت عنك ، فأنت كالليل الذى يدركنى ويشملنى بظلامه أينما وجهت . والمنتأى : الموضع الذى يتناءى فيه ، أى يتباعد .

(٢٠) الخطاطيف : جمع خطاف . والحجن : جمع أحجن وهو المعوج . وقوله : (نوازع) ، أى جواذب ، ويقال : نزعت من البئر دلوا أو دلوين، إذا جذبتهما . يقول : ضاقت الدنيا على فكأنى فى بئر ، فأنا أجر بالخطاطيف إليك وأجذب ، وهذا مثل ضربه لقوة سلطانه .

(٢١) قوله : (أتوعد عبدا) من الوعيد . وقوله : (ضالع) ، أى مائل عن الحق جائر ، ويروى : (ظالع) بالظاء ، وهو أيضا الجائر المذنب .

٢٢ وَأَنْتَ رَبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُه   وسيفٌ أُعيرَتْه المَنيِّةُ قاطِعُ

٢٣ أَبَى اللهُ إلا عَـدْلَه ووفـاءَه   فلا النُّكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ

٢٤ وتُسْقَى إذا ما شئتَ غيرَ مُصَرَّدٍ   بزوراءَ في حافاتِها المِسْكُ كانِعُ

---

(٢٢) السيب : العطاء . يقول : أنت سيب لأوليائك تنعشهم ، وسيف على أعدائك تهلكهم .

(٢٣) قوله : (أبى الله إلا عدله ووفاءه) ، يحتمل أن تكون الهاء من قوله (عدله ووفاءه) عائدة على اسم الله جل وعز ، أى أبى الله إلا أن يعدل بين عباده ، و يفى لهم بما وعدهم وأوعدهم به . و يحتمل أن تكون الهاء عائدة على النعمان ، أى أبى الله إلا أن يعدل النعمان و يفى .

(٢٤) قوله : (وتسقى إذا ما شئت غير مصرد) ، هو فى مذهب الدعاء وليس بخبر . وقوله : (غير مصرد) ، أى غير مقلل ، وقيل : غير ممنوع ولا مقطوع عليك . والتصريد : شرب دون الرى . ويروى : (غير مصرد) بكسر الراء ، اسم فاعل : أى غير مقلل الشرب ولا قاطع له . ونصب (غير) فى الرواية الأولى على المفعول الثانى للفعل (تسقى) ، والتقدير : وتسقى شرابا غير مصرد ، ونصبها فى الرواية الثانية على الحال من الضمير فى (تسقى) ، أى تسقى وأنت غير مقلل الشرب . والزوراء : كأس مستطيلة من فضة . وحافاتها : نواحيها . والكانع : الدانى بعضه من بعض .

* * *

سعد درويش

الأَسْـــوَدُ بنُ يَعْفُـــر

* * *

شاعر جاهلي مشهور ، لقب أعْشَى نهشل حيث كُفَّ بصره عندما أسَنَّ ، كان ينادم النعمان بن المنذر ، وكان أخوه حطائط وابنه الجراح شاعرين .

كُنى بأبى نهشل وأبى الجراح ، رآه أبو الفرج شاعرا مقــلا من متقدمى فصحاء الجاهلية ، وسجّله ابن سلام ضمن شعراء الطبقة الخامسة من فحول الجاهلية وأعجب من فنه الشعرى بقصيدة طويلة ألحقها بأجود الشعر الجاهلى .

وفى قصيدته الدالية يبدو الشاعر حزينا منذ مطلعها حيث نام الخلى ليترك له السهر والأرق وقد سيطرت عليه الهموم وسدت عليــه مسالك حياته وكأنها قد تحالفت عليه مع المنية التى راحت تتهدده أينمــا اتجه .

وهو لا يكاد يصمد أمام ظاهرة الفناء على هذا النحو إلا من خلال ما يجده من وسائل العزاء حين يبكى « آل محــرِّق » وغيرهم من أصحاب القصور العريقة وكيف تركوها واستسلموا للزمن ولم يبق أمامهم إلا الانهزام والانسحاب اعترافا بسطوته ممــا يجعل من وسائله هو الآخر أن يسلك نفس السبيل .

ومع لام الواقع التى يصورها مجسدة من خلال الآثار الباليــة ، وأطــلال الأقوام ، تعود به ذاكرته الفاعلة وخياله إلى المــاضى ، ليلتقط من مشاهده ما كانت تنعم به حياتهم من خيرات أسعدتهم ، ورفعت مكانتهم بين بقية الأقوام وميزت حضارتهم عن غيرها من الحضارات .

ويتخذ الشاعر من صور الماضى حين يسندها إلى هؤلاء ومن صور حاضرهم وقد سيطر عليها البلى ، يتخذ منها جميعا — على تناقضها — معادلا موضوعيا يسقط من خلاله آلامه النفسية الحزينة التى التمس لها ما يوازيها ويسهل لها مهمة العزاء والتسلى عن ضغوط الحياة وكثرة همومها .

ومن هنا راح يطرح صور الماضى والحاضر فى حياته كما عاشها بعد أن أطمأن إلى تصويرها من « خلال المعادل الموضوعى » وكأنه استطاع بهذا الشكل أن يطمئن إلى طبيعة المقارنة من ناحية ، ومن ناحية أخرى استطاع أن يهدأ إلى هذا « المعادل » الذى اتخذه وسيلة لتخفيف أحزانه وآلامه .

وعلى هذا طالت صورة الماضى وتعددت جزئياتها كما تعددت صور الحاضر ، والتقى فى خياله الشيب والشباب من خلال ذاته كما التقيا من خلال الأقوام التى اتخذها « معادلا موضوعيا » يتحاور معه ومن خلاله . مسجلا موقفه من الحياة والأحياء .

* * *

عبد الله التطاوى

ذكرياتٌ وعـــزاءٌ

* * *

١ نام الخَـلِيُّ ومَا أُحِسُّ رُقَادِى — والهمُّ مُحْتَضِرٌ لدىَّ وسَـادِى

٢ مِنْ غيرِ ما سَقَم ولكنْ شَفَّنِى — هَــمٌّ أراهُ قد أصابَ فؤادى

٣ ومن الحوادثِ لا أبالكَ أننى — ضُرِبَتْ علىَّ الأرضُ بالأسْدَاد

٤ لا أهتدِى فيها لمَوْضِعِ تَلْعَــةٍ — بين العراق و بين أرضِ مُرَاد

٥ ولقد عِلمْتُ سوىَ الذى نبَّأْتنِى — أن السبيلَ سبيلُ ذِى الأعْوَادِ

٦ إن المنيةَ والحُتوفَ كلاَهُمَــا — يُوفِى المخارمَ يرقُبَانِ سَــوادى

٧ لن يرضَــيَا منى وفاءَ رَهِينَةٍ — من دونِ نفسي طارفِى وتِلادِى

---

(١) الخلى : الذى تجنبته الهموم فتركته هادئا خاليا منها . لاأحسه : لا يعانيه ولا يجد له أثرا أمامه .

(٢) من غيرما سقم : يصور سهره ومهده دون علة واضحة . شفه الوجد . بمعنى أرهقه وأهزله أو أذابه من كثرة ما سيطر عليه .

(٣) الأسداد : السدود (ج سد) (يصور معاناته وقد غمضت أمامه الأمور فلم يعد يهتدى إلى جهة واضحة وكأن المسالك كلها قد سدت أمامه) .

(٤) أرض مراد : يقصد بها بلاد اليمن . التلعة وجمعها تلاع المناطق المنخفضة فى الأودية .

(٥) ذو الأعواد : جد أكثم بن صيفى من بنى أسد بن عمـــرو بن تميم عرف واحد من المعمرين ومن كرام أهل زمانه .

(يصور عزته وغفلة الموت عنه دون بقية الناس ، فلو كان ثمة إنسان يعيش فليكن ذا الأعواد هذا الذى يتحدث عنه) .

(٦) السواد : الشخص . المخارم : الطرق الضيقة بين الجبال مفردها مخرم .

(٧) لن يرضيا : يقصد المنية والحتوف . التالد : الموروث . والطريف : المكتسب أو الجديد .

٨ ماذا أؤمِّلُ بعد آل مُحرِّقٍ تركوا منازلهم ، وبعدَ إيادِ ؟
٩ أهل الخَوَرْنَق والسَّدير وبارقٍ والقصرِ ذى الشُّرُفَاتِ من سِنْدادِ
١٠ أرضًا تخيَّرَها لِطِيبِ مَقِيلِها كعبُ بنُ مامَةَ وابنُ أمِّ دُؤاد
١١ جرت الرياح على محلِّ ديارِهم فكأنَّما كانُوا على مِيعاد
١٢ ولقد غَنُوا فيها بأنعمِ عِيشَةٍ فى ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأَوْتادِ
١٣ نزلُوا بأنْقِرَةٍ يسيلُ عليْهِمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ مِن أَطْواد
١٤ فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى بِهِ يومًا يصيرُ إلى بِلًى ونَفَاد
١٥ فى آلِ غَرْفٍ لو بَغَيْتِ لِيَ الأُسَى لوجدْتِ فيهم إسْوَةَ العُدَّادِ
١٦ ما بعْدَ زَيْدٍ فى فتاةٍ فُرِّقُوا قَتْلاً ونَفْياً بعد حُسْنِ تآدى ؟

---

(٨) الآل : الأهل . تركوا منازلهم : خلت منهم ممالكهم وديارهم . (يضخم الشاعر حزنه حين يفقد الأمل بعد زوال ملوك الأرض ويراهم ممثلين فى آل عمرو بن هند وآل إياد) .

(٩) الخورنق : نهر فى أرض الكوفة ، وقيل هو اسم القصر للنعمان . ومثله قصر السدير . بارق : ماء بالعراق . سنداد : نهر بين الحيرة والأبلة .

(١٠) كعب بن مامة الإيادى : واحد من الأجواد الثلاثة . ابن أم دؤاد : يقصد به أبا دؤاد الإيادى الشاعر المعروف .

(١٢) غنوا : أقاموا . المغنى : المنزل . ثابت الأوتاد : راسخ الأسس .

(١٣) أنقرة : موضع بظهر الكوفة أسفل الخورنق نزلته إياد فى زمن قديم .

(١٤) يستجمع مشهد النعيم الذى ساد عندهم حتى حلت بهم الكوارث التى شغلتهم عنه وصرفتهم منه ليلاقوا المذلة والزوال .

(١٥) الأسى : الأمثال . غرف : هو مالك الأصغر بن حنظلة بن مالك الأكبر . العُدّاد : من يعد أسلافا شريفة . ليجعلها موضع افتخاره .

(١٦) زيد : قبيلة . بعد حسن تآدى : أى بعد تمكنهم وأخذهم آلات الغزو وعُدده .

١٧ فتخيّروا الأرضَ الفضاءَ لِعزِّهم ... ويزيدُ رافدُهُـمْ على الرُّفَّادِ
١٨ إمّا تَرَيْني قد بَلِيتُ وغاضَني ... ما نِيل مَن بَصَري ومِنْ أجْلادي
١٩ وعصيْتُ أصحابَ الصَّبابةِ والصِّبا ... وأطَعْتُ عاذِلَتي ولانَ قِيادي
٢٠ فلقَدْ أروحُ على التِّجار مُرَجِّلاً ... مَـذِلاً بمـالي لَيِّنًا أجْيادي
٢١ ولقــد لَهَــوْتُ وللشباب لَذَاذَةٌ ... بسُلاَفَةٍ مُزِجَتْ بمـاءِ غَوادي
٢٢ من خَمْرِ ذي نَطَفٍ أغَنَّ مُنَطَّقٍ ... وافَى بهـا لدراهـمِ الإسْجَاد
٢٣ يسعى بهـا ذُو تُومَتَيْنِ مُشَمِّرٍ ... قَنَأَتْ أناملُه مِـن الفِرْصَاد
٢٤ والبيضُ تمشي كالبُدور وكالدُّمَى ... ونواعِـمٌ يمشِـين بالأَرْفَاد
٢٥ والبيضُ يَرمِينَ القُلوبَ كأنهـا ... أُدْحِيُّ بين صريمـةٍ وجَمـاد
٢٦ يَنْطِقْنَ معـروفًا وهنَّ نواعـمٌ ... بيضُ الوجوه رقيقـةُ الأَكْبَاد

(١٧) الفضاء : الواسعة . الرفد : العطاء والهبات .

(١٨) بليت : بلغني الشيب ، فغير مني ما بقي من جسمي وأنقصني الكثير من نور بصري .

(١٩) القياد : الزمام . لان : سهل . العاذل : اللائم .

(٢٠) التجار : بيوت الخمارين . مرجل : يرجل شعره و ينظمه و يضفره .

(٢١) السلافة : الخمر ، وقيل هي خالص الشراب . لذاذة الشباب أو بشاشته : طلاقة الوجه .

(٢٢) النطف : القرطة . ذو نطف : يقصد بائع الخمر من العجم ، منطق : في وسطه منطقة

(٢٣) التومتان : اللؤلؤتان ، يصور ساقيا من المجـوس . قنأت : احمـرّت . يشبه حمـرة لون الشراب بحمرة لون الفرصاد .

(٢٤) الدمى : الصور . النواعم : من ذوات النعمة . الأرفاد : العطايا والهبات .

(٢٥) الأدحي : الموضع الذي تدحوه النعامة لتبيض فيه . فهو يشبه النساء ببيض النعام . الصريمة : ما انصرم من الرمل : الجماد : ماصلب من الأرض .

(٢٦) بيض الوجوه : خاليات من العيـوب والمساوئ . الرقة : النعمة وخفض العيش . ورقة الكبد : وفور الحظ من الرحمة والاحسان إلى الناس .

٢٧ ينطِقْنَ مخفوضَ الحديثِ تَهامُسًا   فبلَغْنَ ماحاولْنَ غيرَ تَنادى
٢٨ ولقد غدَوْتُ لعازِبٍ متعاذِرٍ   أَحْوَى المذانبِ مُؤْنِقِ الرُّوَّاد
٢٩ جادَتْ سَوَارِيه وآزرَ نَبْتَهُ   نُفَأٌ من الصَّفراءِ والزُّبَّاد
٣٠ بالجوِّ فالأمَراتِ حول مغامرٍ   فبضارجٍ فقَصيمة الطُّرَّادِ
٣١ بمشمِّرٍ عتَدٍ جهيزٍ شَدُّهُ   قيدِ الأوابدِ والرِّهانِ جَواد
٣٢ يشوي لنا الوحَدَ المُدِلَّ بحُضْرِه   بشريجٍ بين الشَّدِّ والإيراد
٣٣ ولقد تَلَوْتُ الظاعنين بجَسْرةٍ   أُجُدٍ مُهَاجِرَةِ السِّقاب جماد
٣٤ عَيْرَانةٍ سدَّ الربيعُ خَصاصَها   ما يستبِينُ بها مقيلُ قُراد
٣٥ فإذا ، وذلك لا مهاةَ لذِكره   والدهرُ يُعْقِبُ صالحاً بفسَادِ

---

(٢٧) يصور ما يتمتعن به من حياء وخجل فهن يخفضن أصواتهن إذا تكلمن فيصلن إلى ما يردن دون رفع أصواتهن دلالة على نعمتهن أيضا .

(٢٨) العازب : المتنحى ، والعازب : الكلأ . متناذر : يتناذره الناس للخوف منه .
المذانب : مسايل المياه ، الأحوى : شديد الخضرة ، يصور النبت فى المذانب .
المؤنق : المعجب . الرواد : الذين يدورون فى طلب المرعى .

(٢٩) الصفراء والزباد : ضربان من العشب . آزر : عاون . النفأ : نبات له زهرة بيضاء .

(٣٠) الطراد : القناص . الجو : المنطقة من الأرض السهلة .

(٣١) المشمر : الفرس الطويل القوائم . العتد : الذى عنده عدة للجرى . الجهيز : الكثير .
الأوابد : الوحش من الحمير أو البقر . قيد الأوابد : يقيد الوحش فلا تفوته .
الرهان : ما يدور فى السباق . الجواد : الكثير العدو .

(٣٢) الوحد : الثور أو الحمار الذى ليس له من جنسه نظير حيث يفوق نظراءه .
المدل : شديد الفخر والمباهاة . الحضر : العدو . الشريج : الخلط . الإيراد : أشد الشد .

(٣٣) تلاهم : تبعهم . الأجد : الموثقة الخلق . السقب : ولد الناقة . الجماد : القوية .

(٣٤) العيرانة : أنثى الحمار تشبه به فى صلابتها وقوتها وسرعتها . الخصاصة : الجوع . سد الربيع خصاصها : أسمنها الربيع بعد الهزال .

(٣٥) لا مهاة : لا بقاء . يصور ما اقتنع به من شأن الدهر حيث لا يتبع الصلاح إلا بالفساد والخير بالشر ، والبقاء بالنفاد .

* * *

عبد الله التطاوى

سَــلَامَةُ بنُ جَنْــدَل

* * *

هو ســلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث ، شاعر جاهلى قديم ، ويظن بعض الباحثين المحدثين أن تكون وفاته بين سنة ٦٠٢ وسنة ٦١٠ ويرجح لويس شيخو ســنة ٦٠٨ تاريخًا لوفاته . كان من فرسان العــرب المشهورين ، عرف بجودة وصفه للخيــل ومن جيد شعره فيها هذه القصيدة التى بدأها بأسفه على شبابه ويعبر فيها عن رغبته فى العودة السريعة إلى هذا الشباب ، ويصور جود قبيلته مفتخرا بها ، ومفتخرا بجوده أيضا ، كما يبرز اعتزازه بقومه فى حالتى السلم والحرب ، ومن قومه ينتقل إلى تصوير بنى معدّ وإهمامهم بقومه ، ثم يعود مرة ثانية فيفخر بهــم وخاصة الفــرسان منهم ، ويركز فى فخــره على الحسب ونجدة المحتاج فى سنوات الجدب والصبر على الشدائد .

وتظل لمقدمة هذه القصيدة أهميتها الخاصة ، حيث تجمع بين حديث الشيب وحديث الشباب ، وإن كانت مقدمة سريعة قليلة التفاصيل تدور حــول ضياع الشباب وانسحابه أمام الشيب فى حيــاة الشاعر ، وتقف عنــد تصوير طبيعة الصراع الذى يدور بين ماضــيه وحاضره ، وهو صراع ينتهى بانتصار الشيب ، إذ لا يبقى للشاعر إلا التحسُّر على الذكريات ومعها بقية أمنيات فى عودتها ، وهى أمنيات تخرج صاحبها من هذا الجو النفسى الحزين قبل أن يفاجئه المصير المحتوم الذى يترصده .

* * *

تراجع القصيدة فى ديوان سلامة بن جنــدل رواية الأصمعى وأبى عمــرو الشيبانى تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، وفى ديوان المفضليات : المفضلية (٢٢) .

أَوْدَى الشَّبابُ

* * *

١ أَوْدَى الشبابُ حميدًا ذُو التعاجيب — أَوْدَى وذلك شأْوٌ غيرُ مطلوبِ

٢ ولّى حثيثًا وهذا الشيبُ يطلبُه — لو كان يُدرِكُه ركضُ اليعاقيبِ

٣ أَوْدَى الشبابُ الذى مجدٌ عواقبُه — فيه نَلَذُّ ، ولا لذّات للشِّيبِ

٤ يومان : يومُ مَقاماتٍ وأنديةٍ — ويوم سيرٍ إلى الأعداءِ تأويبِ

٥ والعادياتُ أسابِيُّ الدماء بها — كأنّ أعناقَها أنصابُ ترجيبِ

٦ من كلّ حتٍّ إذا ما ابتلّ مُلْبَدُه — ضافِى السَّبيب أسيلِ الخدّ يَعْبُوبِ

٧ ليس بأسْفَى ولا أقْنَى ولا سَغِلٍ — يُعْطَى دواءَ قَفِىِّ السَّكْنِ مربُوبِ

---

(١) شأو غير مطلوب : سبق لا يسهل إدراكه . أودى الشىء بمعنى هلك وزال .

(٢) اليعاقيب : ذكور الحجل . يقول : لو كان ركض اليعاقيب يدرك الشباب لطلبته .

(٤) التأويب : الرجوع ، ومن معانيه الإمعان فى السير السريع . الأندية : المجالس حيث ملتقى القوم .

(٥) العاديات : الخيل . الأسابى : الدم المراق ، أو ألوان الدم . الأنصاب : الحجارة تنصب ليتم الذبح عليها . الترجيب : أن تميل النخلة فى أحد شقيها فيؤتى بحجارة فتدعم بها من الشق المائل .

(٦) الحت : الذى لا يجارى . ملبده : موضع لبده ، محزمه : موضع حزامه . معذره : موضع عذاره . السبيب : شعر الذنب وشعر الناصية . أسيل : سهل طويل . يعبوب : كثير الجرى ، ومنها أيضا كرم الأصل والنسب .

(٧) القنا : حده فى الأنف ، وهو مذموم فى الخيل . الأسفى : خفيف شعر الناصية والذنب وهو السَّفا . سَغِل : مهزول . القفى : الذى يسقى اللبن و يؤثر به دون أهل البيت . الأتى : السيل يأتى من بلد ممطر إلى بلد غير ممطر يشبه به تدفق فرسه فى الجرى . الشؤبوب : الدفعة من المطر . الشد : العدو .

٨ فى كل قائمةٍ منـه إذا اندفعَتْ ... منـه أساوٍ كفرغ الدلوِ أُثْعُوبِ
٩ كأنه يَرْفَئٌّ نام عن غـنمٍ ... مُسْتَنفِرٌ فى سواد الليل مذؤوبِ
١٠ تمٌ الدسيعُ إلى هادٍ له بَتِعٌ ... فى جُؤجُؤٍ كمداك الطيب مخضوبِ
١١ تظاهَر النِّىُّ فيـه فهـو مُحتَفِلٌ ... يُعطى أساهِىَّ من جريٍ وتقريبِ
١٢ يحاضِرُ الجُون مُخْضَرًّا جحافلُها ... ويسبقُ الألفَ عَفوا غيرمضروب
١٣ كم من فقيرٍ بإذن الله قد جَبَرتْ ... وذى غِنىً بَوَّأتْهُ دارَ محروبِ
١٤ ممّا يقدِّمُ فى الهيجا إذا كُرِهَتْ ... عند الطِّعان ويُنْجِى كُلَّ مكروبِ
١٥ همّتْ معدٌّ بنا همّا فنهنهها ... عنّا طِعانٌ وضربٌ غيرُ تذبيبِ
١٦ بالمشرفىِّ ومصقولٍ أسنّتُها ... صُمِّ العوامل، صَدْقاتِ الأنابيبِ

---

(٨) الأساوى : الدفعات من الجرى . فرغ الدلو : إراقة الماء منها . أثعوب : سائل مندفع .

(٩) اليرفئ : الراعى الخائف .

(١٠) الدسيع : العنق . البتع : طول العنق . هادى الشىء : أوله ، والهادى : العنق . جؤجؤه : صدره . المداك : الصلاية ، أراد أنه أملس .

(١١) النى : الشحم . تظاهر النى : أى ركب بعضه بعضا . جرى : عدو شديد . التقريب ضرب من المسير دون الجرى . أساهى : ضروب من الجرى .

(١٢) الجون : حمر ألوانها . مخضرا جحافلها : من أكل الرطب أو عشب الربيع الرطب .

(١٣) بوأه : أنزله . جبرت : أغنته ولمت شعثه . محروب : مسلوب .

(١٥) همت بنا : أرادت بنا سوءا . نهنهها : كفها . ضرب غير تذبيب : ليس ضعيفا تذبهم به عنا ، ولكنه ضرب قاتل .

(١٦) مصقول أسنتها : محددة . صم : مفردها أصم وهو غير الأجوف . المشرفية : السيوف منسوبة إلى قرى المشارف بالشام . عامل الرمح : الثلث الذى يلى السنان . الأنابيب : الكعوب .

١٧ يجلُو أسنّتَها فتيانُ عادِيَةٍ … لا مُقرفين ولا سُودٍ جَعَابِيب

١٨ سوّى الثِّقافُ قَنَاها فهى مُحْكَمَةٌ … قليلةُ الزَّيْغِ من سَنٍّ وتركيب

١٩ كأنَّها بأكُفِّ القومِ إذ لحِقُوا … مواتِحُ البئرِ او أشطانُ مَطْلوبِ

٢٠ كلا الفريقين : أعلاهم وأسفلُهم … شجٍ بأرماحِنا غير التّكاذيب

٢١ إنّى وجَدْتُ بنى سعدٍ يُفَضِّلُهم … كلُّ شهاب على الأعداء مضبُوب

٢٢ إلى تميمٍ ، حُماةِ الثغر ، نسبتُهم … وكلُّ ذِى حسبٍ فى الناس مَنْسُوب

٢٣ قومٌ إذا صَرَّحَتْ كَحْلٌ بيوتُهمُ … عِزُّ الذّليل ومأوى كُلِّ قُرْضُوبِ

٢٤ يُنْجيهمُ من دَوَاهِى الشَّرِّ إنْ أَزَمَتْ … صبرٌ عليها وقَبْضٌ غيرُ محسوب

٢٥ كنا نَحُلُّ إذا هبَّتْ شآمِيَةٌ … بكلِّ وادٍ حَطِيبِ البَطْنِ مَجْدُوب

---

(١٧) المقرف : الذى تكون أمــه عربية وأبوه غير عربى . والهجين : الذى يكون أبوه عربيا وأمه من غير العــرب . الميل . الذين يميلون عن سرجهم ولا يثبتون عليــه (الزيغ) . يجلو الأسنة : يكشف عنها الصدأ . العادية : الحاملة الذين يعدون فى الحرب ويحملون . الجعابيب : الصغاف القصار الذين لا خير عندهم أو هم الأدنياء من الرجال .

(١٨) الثقاف : خشبة يقوم بها القنا . الزيغ : الاعوجاج . السن : التحديد .

(١٩) المواتح : البكرات التى يمتح عليها . الشطن : الحبل مطلوب : ماء معروف ، ومطلوب : بئر لبنى كلاب .

(٢٠) التكذاب : الرمح يكذب صاحبه فى الحملة .

(٢٢) الثغر : أن يكون الوادى خصيب البطن مخلوقا فيتحاماه الناس فيرعاه أهل العز . .

(٢٣) صرحت : بينت ، أى لم يكن فيهــا مطر ولا غيم . الكحل : السنة الشديدة المجــدبة . القراضبة : اللصوص ، ويقال أهل الفقر والحاجة . والقرضوب الصعلوك الفقير .

(٢٤) أزمت : اشتدت . القبض : العدد الكثير .

(٢٥) المجدوب : المذموم المعيب . الشآمية : ريح الشمال من الشام وتتميز بشدة برودتها . حطيب : كثير الحطب .

٢٦ شيبِ المَبارِكِ مدروسٍ مَدافِعُــهُ ... هابِى المَرَاغِ قليلِ الوَدْقِ مَوْظوب
٢٧ كُنّا إذا ما أتانَا صارِخٌ فَزِعٌ ... كان الصُّرَاخُ له قَرْعَ الظنابيب
٢٨ وشَــدَّ كورٍ على وجناءَ ناجيةٍ ... وشدَّ لِبْدٍ على جَرْدَاءَ سُرْحُوبِ
٢٩ يُقال : مُحْبِسُها أدنى لمَرْتَعِهَــا ... ولو تَعَادَى ببكءٍ كلُّ مَحْـلُوب
٣٠ حــتى تُرِكْنَا وما تُثْنَى ظَعَائِنُنا ... يأخُذْنَ بين سَوَادِ الخطِّ فاللُّوب

---

(٢٦) المبارك جمع مبرك وهو جانب الوادى حيث تبرك الإبل لأنها لا تبرك فى مجرى الماء . الودق : المطر . قليل الودق : لم يصبه المطر . مدروس مدافعه : أى أن أوديته التى كانت يكون بها النبت قــد درست أى دقت ووطئت وأ كل نبتها « والهابى : الغبار » والمراغ : التراب (هاب المراغ أى منتفخ التراب لا يتمرغ فيه بعير وقد ترك لخوضــه) موظوب : واظبوا عليه حتى أكل ما فيه .

(٢٧) الصارخ : من الأضداد ومعناها المستغيث أو المغيث . قرع الظنابيب : يكنى به عن العزم على الغوث وتقرع ظنابيب الخيل بالسياط لتركض إلى العدو . والظنبوب : الساق .

(٢٨) واللبد : مايوضع تحت السرج على ظهر الفرس . سرحوب : فرس طويلة ، وجناء : ناقة غليظة . ناجية : سريعة . الكور : الرحل .

(٢٩) البكء : قلة اللبن تثنى : ترد . الخط : موضع .

(٣٠) اللوب جمع لابة ولوب . وهى الحرة .

* * *

عبد الله التطاوى

الأَخْنَسُ بنُ شِهَاب التَّغْلِبيّ

* * *

شاعر جاهلى قديم ، وواحد من فرسان قبيلة تغلب المعدودين ، عرف بأنه « فارس العصا » ، وذاعت مكانته فى الشعر قبل الإسلام بدهر ، وكان ابنه بُكَيْر ابن الأخنس بن شهاب شاعرا إسلاميا . وموضوع القصيدة يدور حول فخر الشاعر بنفسه وبنى قومه ، وهى تبدأ — كالعادة — بوصف ديار صاحبته حيث يقف على أطلالها باكيا ناعتا ما انتشر فيها من حيوانات الصحراء بعد رحيلها ، فيلفت نظره فيها مشهد النعام بصفة خاصة ، ثم يقف بعد ذلك عند عرض ذكريات شبابه فيصورها من خلال عرض موقفه النفسى تجاهها .

ويسجل الشاعر فى القصيدة كثيرا من مواطن العرب والأماكن التى أقاموا فيها ، وهو يستغل هذا التسجيل فى هدفه من موضوع القصيدة إذ يقف عند التغلبيين ليثبت لهم موطنهم العام الذى يمتد فى أنحاء الجزيرة ، وهم ليسوا كغيرهم من ضعاف القبائل التى تلتزم بدورها وأماكنها ، وإنما ينتشرون فى الأرض بحكم قوتهم وسيطرتهم على غيرهم من القبائل ، فهم يسيرون فى الصحراء خلف سُبُل الحياة من أمطار وأعشاب لايخشون أحدا ولا يعترض سبيلهم عدوٌّ ، بل يحسون العزة فى أنفسهم ، وهم يسعدون بحماية خيلهم لهم وهى ترود حول بيوتهم جيئة وذهابا ، وكأنها ترفض الحبس أو الاستقرار هى الأخرى ، ومن الخيل ينتقل

الأخنس إلى تصوير فرسان قومه أبطالا تلتق فى عناصرهم الشجاعة ، لا تراهـم إلا فى مواقف القتال ومقارعة الأبطـال صراعا من أجل سـيادتهم ونشر رايتهم دائمـا بين القبائل .

* * *

(راجع المفضليات بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون والأستاذ أحمد شاكر)

عبد الله التطاوى

سَيَادَةٌ مُطْلَقَةٌ

* * *

١ لابْنَةِ حِطَّانَ بن عَوْفٍ مَنَازِلٌ ... كما رقَّشَ العُنْوَانَ فى الرِّقِّ كَاتِبُ
٢ ظَلِلْتُ بها أُعْرَى وأُشْعِرُ سُخْنَةً ... كما اعتادَ مَحْمُوماً بِخَيْبَرَ صَالِبُ
٣ تظَلُّ بها رُبْدُ النَّعامِ كأنَّها ... إماءٌ تُزَجَّى بالعَشِيِّ حَوَاطِبُ
٤ خليلاى : هَوْجَاءُ النَّجَاءِ شِمِلَّةٌ ... وذُو شُطَبٍ لايَجْتَوِيهِ المُصَاحِبُ
٥ وقد عِشْتُ دَهْرًا والغُوَاةُ صَحَابَتِي ... أولئك خُلْصَانى الذين أُصَاحِبُ
٦ رَفِيقًا لِمَنْ أَعْيَا وقُلِّدَ حَبْلَهُ ... وحاذَرَ جَرَّاهُ الصَّدِيقُ الأَقَارِبُ

---

(١) يلجأ الشاعر إلى التشبيه ليصور ما بقى من آثار الديار بعد دروسها إذ بقى بعضها وعفت كثير من معالمها ، وصارت أشبه ببقايا الكتابة فى الرق . العنوان : العلامة . الترقيش : التحسين والتزيين .

(٢) أعرى : من العُرَوَاء وهى الرعدة المصاحبة للحمى أو الرعشة المرتبطة بها . وقد خص «خيبر» لأن حُمَّاها أشد الحمى . وهو يلجأ الى التصوير أيضا فيعرض وقع ما أصابه من الوقوف على الديار وما بان من دروسها فكان أشد مما اعتاد بالمحموم بخيبر . الصالب : الحمى المصحوبة بالصداع .

(٣) الربداء : النعام ، والربدة : غبرة تضرب إلى السواد وتشير إلى اللون القاتم .

وهو يشبه النعام وقد عرفت بأنها أنفر الوحوش فى سكونها فى مرعاها ورفقتها فى مشيها ينفسها بإماء تساق محتطبات مثقلات بما جمعت من الحطب وقد أصابهن التعب والإرهاق فى عودتهن بالعشى إلى الحى .

(٤) الهوجاء : التى تركب رأسها فى السير . النجاء : السرعة . الشملة : السريعة الخفيفة .

الشطب : على هيئة الخطوط فى السيف . الاجتواء : الاستثقال والكراهة . المصاحب : صاحب السيف . فهو لصرامته وثقته لايكرهه من كان له .

(٥) الغواة : المجان وأصحاب الضلالة والفساد من الناس . خلصانى : صفوتى وأصدقائى .

(٦) رفيقا لمن أعيا : يقصد من أتعب عذاله . قلد حبله : أى ألقى زمامه على غاربه بعد اليأس من إصلاحه وتقويمه ، فترك فى سومه لايقاد ولا يساق . جراه : جريرته أو جنايته .

٧ فَأَدَّيْتُ عَنّى ما استَعَرْتُ مِنَ الصِّبا ... ولِلمالِ عندى اليومَ راعٍ وكاسِبُ

٨ لِكلِّ أُنَاسٍ مِن مَعَدٍّ عِمارَةٌ ... عَرُوضٌ إليها يَلْجَؤُون وجانِبُ

٩ لُكَيْزٌ لها البَحْرانِ والسِّيفُ كُلُّهُ ... وإنْ يأْتِها بَأْسٌ من الهند كارِبُ

١٠ تطايَرُ عن أعْجازِ حُوشٍ كأنَّها ... جَهامٌ أراقَ ماءَهُ فَهْوَ آئِبُ

١١ وبَكْرٌ لها ظَهْرُ العِراقِ وإنْ تَشَأْ ... يَحُلْ دُونَها مِنَ اليَمامَةِ حاجِبُ

١٢ وصارَتْ تَميمٌ بينَ قُفٍّ ورَمْلَةٍ ... لَها مِنْ حِبالٍ مُنْتَأًى ومَذاهِبُ

١٣ وكَلْبٌ لها خَبْتٌ فَرَمْلَةُ عالِجٍ ... إلى الحَرَّةِ الرَّجْلاءِ حيثُ تُحارِبُ

١٤ وغَسّانُ حَيٌّ عِزُّهُمْ فى سِواهُمُ ... يُجالِدُ عنهُمْ مِقْنَبٌ وكَتائِبُ

---

(٧) سلكت سبيل الهداية والرشاد ، فالمال منى حافظ رد ما كان عليه من الغواية والضلال .

(٨) العمارة : الحى العظيم وقيل أنها البطن من القبيلة . العروض : الحى العظيم الكبير والطريق فى عرض الجبل وعروض الجبل شعبة من الجبل .

وهو يصور لكل طائفة من طوائف معد جهة يأدون إليها وهضبة عز يتحصنون بها .

(٩) السِّيف : ضفة البحر . الكرب : شدة الأمر وكربت الحبل أى سددت فتله .

(١٠) الحوش : إبل حوشية . يصورهم فى سباقهم فى الشر والحـرب وهم أصحاب إبل لا خيل لهم فتى دعوا إلى الحرب أجابوا سراعا .

(١١) يصور الشاعر الحاجب من أهل اليمـامة . فيقول إن تشأ تجعل بينها وبين اليمامة مانعا .

(١٢) القف : ما غلظ من الأرض وخشن وصلب الحبـال : حبال الرمل . المنتأى : البعيـد (من النأى) .

(١٣) خبت : منازل لكلب . الحرة الرجلاء : الغليظة الصلبة .

(١٤) غسان : ماء ، ويقال أنه سمى ولد جفنة غسان بماء نزلوه فمن شرب هذا المـاء سمى غسانيا . واسم المـاء غسان . المقنب : الجماعة . يصورهم ملوكا قليلين وكانت الروم توليهم وتقاتل عنهم فعزهم فى غيرهم ، وإنما كانوا نزولا مع قوم من العرب .

١٥ وبهراءُ حَىٌّ قَدْ عَلِمنَا مَكَانَهُمْ ... لهُمْ شَرَكٌ حَوْلَ الرُّصَافَةِ لَاحِبُ
١٦ وغارَتْ إِيادٌ فى السَّوَادِ ودُونَها ... بَرَازِيقُ، عُجْمٌ، تَبْتَغِى مَنْ تُضَارِبُ
١٧ ولَخْمٌ مُلوكُ الناس يُجْبى إِلَيْهِمُ ... إِذَا قَال منهم قائِلٌ فَهْوَ وَاجِبُ
١٨ ونحن أناسٌ لا حِجَازَ بأرْضِنَا ... مع الغَيْثِ ما نُلْقِى وَمَنْ هُوَ غَالِبُ
١٩ ترى رَائِداتِ الخَيْلِ حولَ بُيُوتِنا ... كَمِعْزَى الحِجاز أعجَزَتْها الزَّرَائِبُ
٢٠ فَيُغْبَقْنَ أَحْلَاباً ويُصْبَحْنَ مِثْلَها ... فَهُنَّ من التَّعْدَاءِ قُبٌّ شَوَازِبُ
٢١ فَوَارِسُها من تَغْلِبَ ابنَةِ وائِلٍ ... حُمَاةٌ كُمَاةٌ لَيس فيها أشَائِبُ

---

(١٥) الشرك : الموارد والآثار ويقصد به موردهم من ناحيـة الرصافة ، وهو موطن هشام بن عبد الملك . اللاحب : الواضح . المذلل : المعبد يصورهم مجاورين له آمنين أعداءهم .

مكانهم : ديارهم ومحلتهم وربما قصد مكانتهم المعنوية فى العز والإباء والشرف .

(١٦) غارت : دخلت . البرازيق : جماعات المواكب يصورهم يخالطون الناس من أهل الحضر ويشاركونهم فى قراهم ومرافقهم ويطلبون من يجاذبهم لحرصهم على القتال والدفاع .

(١٧) يصور سيطرتهم ونفاذ أمرهم من خلال مكانتهم كملوك يتبعهم الناس ويخضعون لهم ويقفون عند أمرهم ونهيهم . خاضعين مطيعين .

(١٨) مع الغيث ما نلق : يصور رحيلهم إلى كل بلد وقع فيه المطر وتنقلهم المستمر ، لينشروا سيطرتهم على أهله ، فهم لا يخشون أحدا مطلقا .

(١٩) الزرائب : حظائر الغنم . الرائدات : المختلفات فى جوانب البيوت لا مجالس لها .

يصور رائدات الخيل بمعزى الحجاز وكيف ضاقت عنها الزرائب لكثرتها ، فهى تختلف كيف شاءت لكونها مخلاة لا يخافون عليها طمع طامع أو سلب سالب .

(٢٠) التعداء : من العدو . القب : الضوامر الخواصر . الشوازب : الضوامر . الأحلاب : يريد بها حلبات العدو .

(٢١) حماة : يذودون عن حماهم ويدفعون عنه أعداءهم . الأشائب : الأخلاط من الناس .

٢٢ هُمُ يضربُونَ الكَبْشَ يبرُقُ بَيضُهُ — على وَجْهِهِ منَ الدِّمَاءِ سَبَاسِبُ
٢٣ بجَأوَاءَ ينفى وِرْدَهَا سَرَعَانَهَا — كأنَّ وضيحَ البَيْضِ فيها الكَوَاكِبُ
٢٤ وإن قَصُرَتْ أسيافُنَا كانَ وصْلُهَا — خُطَانَا إلى القوم الذين نُضَارِبُ
٢٥ فللَّه قَومٌ مِثْلُ قَومِي سُوقَةً — إذا اجتَمَعَتْ عندَ المُلُوكِ العَصَائِبُ
٢٦ أرَى كلَّ قَومٍ ينظُرونَ إليهِمُ — وتقصُرُ عمَّا يفعلُونَ الذَّوَائِبُ
٢٧ أرَى كلَّ قومٍ قاربُوا قَيْدَ فَحْلِهِم — ونحنُ خَلَعنَا قَيْدَهُ فهوَ سَارِبُ

(٢٢) الكبش : سيد القوم وحاميهم ورئيسهم . وقد يقصد به المتقدمون من الجيش . السبائب : الطرائق . (مفردها سبيبة) .

(٢٣) الجأواء : الكتيبة التي كثرت دروعها وعتادها وطال أمدها في الغزو . الوبيض : البريق . السرعان : يقصد تصويرهم في إسراعهم ومبادرتهم إلى حياض الموت . وضيح البيض : ما وضح منه وظهر .

(٢٥) السوقة : من هم دون السادة . العصائب : الجماعات .

(٢٦) الذوائب : المتقدمون . الذنائب : المتأخرون . يصورهم متقدمين عند السلاطين وبقية الناس تبع لهم . وهم ينتظرون فصلهم في قضاياهم ، وتنجزهم حاجاتهم وحاجات الآخرين . ويزيد من تعميق الصورة بتصوير السادة ، وإن عزوا في أفقهم إلا أنهم يعجزون تماما عن بلوغ مكانهم أو حتى التطلع إلى شأوهم .

(٢٧) يصور إبلهم وكيف تركوها تسرب حيث شاءت ، وهم لا يفعلون معها كما يفعل الآخرون من قيدها ، فهم يثقون من قدرتها وقدرتهم على حمايتها فيتركوها ترعى أينما سارت .

* * *

عبد الله التطاوى

الشَّـــنْفَرَى

* * *

شاعر من الصعاليك ، يختلف الرواة اختلافا كبيرا حول اسمه ولقبه ونسبه . وأخبار نشأته الأولى غامضة إلى درجة بعيدة ، ولكننا من خلال هذا الاختلاف ، ومن وراء هـذا الغموض ، نستطيع أن نقول إنه من قبيلة الأزد اليمنيين ، و إن الشنفرى لقب أُطْلق عليـه ، وإن أباه كان فى موضع من قومه ، ولكنه كان فى قلة من المـال ، و إن أمه كانت سَبِيَّة ، ومن هنا جاءه هذا اللقب الذى يدل لغويا على غِلَظ الشفتين ، وراثةً عن أمه التى كانت — فى أغلب الظن — من أصل زنجى . و يرجّح ذلك مايذكره الرواة من أنه كان من « أغربة العرب » ، أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم .

نشأ الشنفرى فى قبيلته كما ينشأ أولاد الإماء تحت وطأة العنصرية العربية الجاهلية من أب عربى أنجبه ثم لم يعترف به . ثم فى ظروف لم يتفق الرواة عليهـا انتقل إلى قبيلة فَهْـم التى كانت تنزل فى جبال الحجـاز الوعرة جنوبى مكة ، وهى قبيلة فقيرة متمردة مشهورة بكثرة لصوصها وقُطّاع الطرق فيها . وهناك اتصل بتأبّط شرا أحد عُتَاة الصعاليك فى هذه المنطقة ، فوجد فيـه تلميذا ممتازا ، فلقّنه دروس الصعلكة الأولى حتى صار لايقام لسبيله . ومضى الاثنـان فى الطريق الصعب الذى اختـاره الصعاليك لأنفسهم . و رأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته التى تخلت عنه ذات يوم ، وألقت به فى قبيلة غريبة ، قد سنحت له ،

فأخذ يصب عليها كل غزواته ، ووهب حياته للانتقام منها ، وآلى على نفسه أن يقتل منها مائة رجل .

وركب الشنفرى الموجة العالية العاتية ، وانطلق مع صعاليك العرب يثيرون الفزع فى أرجاء الصحراء ، يغيرون و ينهبون و يسلبون ، و يهاجمون أغنياء القبائل ، ويقطعون طـرق القوافل التجارية التى تسيل بهـا شعاب هذه المنطقة المواجة بالنشاط الاقتصادى ، ولا يترددون عن قتل من يعترض طريقهم ، رافعين راية التمرد على المجتمع القَبَلى وما تعارف عليه من نظم اجتماعية واقتصادية . وأعانه على ذلك حقدٌ أسود على المجتمع المتعصب للجنس الأبيض ، و إيمانٌ قوى يصل إلى درجة الهَوَس بالحركة التى يعمل من خلالها ، وجرأةٌ متطرفة تصل إلى حد التهور والاستهانة بالحياة ، ثم سرعةٌ غير عادية فى العَدْو ضُربت بها الأمثال .

وعاش الشنفرى حياة تختلط فيها الحقيقــة بالخيال ، والواقع بالأسطورة ، ويذكر الرواة أنه وفى بعهــده الذى أخذه على نفسه ، فقتل تسعة وتسعين رجلا من قبيلته . ثم كانت النهاية ، فاحتالوا عليه ، وقبضوا عليه بمساعدة أحد عدّائيهم المشهورين — أُسَيْد بن جابر — ثم قتلوه ، وفصلوا رأسه عن جسده ، وألقوا به فى الصحراء . ويشاء القدر أن يمر به رجل منهم ، فيضرب جمجمته بقدمه ، فتدخل فيها شظية منها ، فيموت و يتم القتلى مائة ، وفاءً من القــدر بالعهد الذى قطعه الشنفرى على نفسه .

* * *

وشعر الشنفرى الذى وصــل إلينا قليل ، وكأنمـا ضاع أكثره فى تشرده فى أعماق الصحراء . ويدور القسم الأكبر منه حول هذا الصراع الرهيب بينه وبين قومه ، والجزء الباقى حول أحاديث تصعلكه وفقــره وتشرده وغاراته وتمرده على

المجتمع الذى انفصل عنه منذ وقت مبكر من حياته . ولكنْ من أعماق هذه الموسيقا الرهيبة العنيفة التى تُطلقها أبواقُ الحقـد والانتقام ، ينطلق نغم رقيق هادئ فى مقدمته الطويلة التى يستهل بها تائيته المفضّلية « ألَا أمُّ عمرو أزمعتْ فاستقلّتِ » ، ليرسم صورة رائعـة ممتازة لزوجته الحييّة المثالية ، صورة نادرة فى الشعر الجاهلى لا نكاد نظفر فيه بصورة تمـاثلها .

ومن أروع ما نُسِبَ إليـه لاميّته المشهورة الذائعة الصيت المعروفة بلامية العرب ، وإن يكن كثير من الرواة القدماء والباحثين المحدثين يشكون فى صحـة نسبتها إليـه ، ولكن القضـية ما تزال موضـع خلاف كبير وجدل شـديد بين البـاحثين .

وأخصّ ما يميز أسـلوبَ الشنفرى الفنى تلك الخشونةُ اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل، ثم تلك الصلابةُ التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوبا محكما قويا لا رخاوة فيه انعكاساً لقوة شخصيته ، وقسوة الحياة التى يحياها . هـذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التعبير عن الواقع ، والصراحة التى لا حدود لها فى النقل عن الحياة .

* * *

يوسف خليف

(١)

التـائيَّـــة المفضَّليَّـــة

* * *

كان الشنفرى قد أُخذ أسيرا فداءً فى بنى سَلَامان بن مُفْرِج وهو غلام صغير، فنشأ فيهم ، فلما أساءوا إليه وعلم بأمره غضب ، وتوعَّدهم أن يقتل منهم مائة رجل ، فقتل تسعة وتسعين ، وكان ممن قَتَل منهم رجلٌ يقال له حَرَام بن جابر ، قتله بمنًى حين أُخْبر أنه قاتل أبيه، وأشار إلى مقتله فى البيت ٢٨ من هذه القصيدة . بدأ الشنفرى قصيدته بالغزل والتشبيب ، وأبدع فى وصف مشية صاحبته والتنويه بمحاسنها ، ثم نعت قوته وشدة بأسه ، ونوّه بصديقه تأبط شرا ، ووصف السيف ، ثم أشار إلى ثأره من قاتل أبيه ، وفخر باستهانته بالحياة ، ومجازاته الخير والشر بمثلهما .

* * *

١ أَلَا أمُّ عمرو أَجمعتْ فاستقلَّتِ ... وما ودَّعتْ جيرانها إذ تولَّتِ

٢ وقد سَبَقتنا أمُّ عمـرو بأمرها ... وكانت بأعناق المطيِّ أَظَلَّتِ

٣ بِعينيَّ ما أمستْ فباتت فأصبحتْ ... فقضَّت أمورا فاستقلَّتْ فولَّتِ

---

(١) أجمعت : عزمت أمرها . استقلت : ارتحلت .

(٢) سبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به . وكانت بأعناق المطى أظلت : أى ألجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها

(٣) بعينى : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له معه .

٤ فوا كبدَا على أميمةَ بعدما ... طَمِعتُ، فهَبْها نعمةَ العيش زلّتِ
٥ فيا جارتى وأنتِ غيرُ مُليمةٍ ... إذا ذُكِرتْ، ولا بذاتِ تَقَلّتِ
٦ لقد أعجبتنى لا سَقُوطا قناعُها ... إذا ما مشتْ، ولا بذات تلفُّتِ
٧ تبيتُ بُعَيد النوم تُهْدى غَبوقَها ... لجارتها إذا الهَدِيَّةُ قلَّتِ
٨ تَحُلّ بمنجاةٍ من اللّوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمّة حُلَّتِ
٩ كأنّ لها فى الأرض نِسْيا تَقُصُّه ... على أَمِّها، وإنْ تكلّمكَ تَبْلَتِ
١٠ أميمةُ لا يُخْزِى نَثَاها حَلِيلَها ... إذا ذُكِر النِّسوانُ عَفّت وجلّتِ
١١ إذا هو أمسى آبَ قُرّةَ عينه ... مآبَ السعيد لم يَسَلْ أين ظَلّتِ
١٢ فَدَقّتْ وجَلّت واسبَكَرّتْ وأُكملتْ ... فلو جُنَّ إنسان من الحسن جُنَّتِ
١٣ فبتنا كأن البيت حُجِّرَ فوقَنا ... بريحانةٍ رِيحَتْ عشاءً وطُلَّتِ
١٤ بريحانةٍ من بطن حَلْيَةَ نَوَّرتْ ... لها أَرَجٌ، ما حولها غيرُ مُسْنِتِ

* * *

(٤) زلت : ذهبت .

(٥) مليمة : من قولهم « ألام » إذا أتى ما يلام عليه . تقلت : تبغضت .

(٦) يقول : لا يسقط قناعها لشدة حيائها ، ولا تكثر التلفت فإنه من فعل أهل الريبة .

(٧) الغبوق : ما يشرب بالعشى . تهديه لجارتها : أى تؤثرها به لكرمها . إذا الهدية قلت : أى فى وقت الجدب .

(٨) المنجاة : مفعلة من النجوة وهى الارتفاع . يريد أنها بعيدة عن اللوم .

(٩) النسى : الشىء المفقود المنسى . تبلت : تنقطع فى كلامها ولا تطيله .

(١٠) النثا : ما أخبرت به عن شخص من حسن أو سىء ، يقال : نثا الحديث والخبر : حدث به وأشاعه . حليلها : زوجها .

(١١) آب : رجع . لم يسأل أين ظلت : لأنها لم تبرح بيتها . قال الأصمعى : هذه الأبيات أحسن ما قيل فى خفر النساء وعفتهن .

(١٢) اسبكرت : طالت وامتدت .

(١٣) حجر : أحيط . ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها . طلت : أصابها الطل وهو الندى .

(١٤) حلية : واد بتهامة . الأرج : توهج الريح وتفرقها فى كل جانب . المسنت : المجدب .

١٥ وباضـعةٍ حُمْـرِ القِسيِّ بعثتُهـا ومَنْ يَغْـزُ يغـنَمْ مرة ويُشَمَّتِ
١٦ خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَل وبين الجَبَاهيهاتَ أنشأتُ سُرْبَتى
١٧ أمشِّى على الأرض التى لن تضرُّنى لأنكِىَ قـوما أو أصادفَ حُمَّتى
١٨ أمشِّى على أيْنِ الغَـزَاة وبُعْـدِها يقرِّبنى منهـا رَوَاحى وغُـدْوتى
١٩ وأمِّ عيالٍ قـد شهدتُ تَقُوتهـم إذا أطعَمَتْهـم أوتَحَتْ وأقلَّتِ
٢٠ تخاف علينا العَيْل إن هى أكثرتْ ونحن جياعٌ ، أىَّ آلٍ تَأَلَّتِ !
٢١ وما إنْ بهـا ضِنٌّ بمـا فى وعائها ولكنها من خِيفَةِ الجوع ابقتِ
٢٢ مُصَعْلِكَة لا يَقْصُر السِّتر دونهـا ولا تُرْتجى للبيت إنْ لم تُبَيِّتِ

---

(١٥) الباضعة : القاطعة ، يعنى قوما غزاة . حمر القسى : غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم الشمس والمطر . بعثتها : غزوت بها . يشمت : من قولهم «شمته الله» أى خيبه الله ، «والشمات» بكسر الشين وتخفيف الميم : الخيبة .

(١٦) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . وأنشأت سربتى : أى أظهرتهم من مكان بعيد . يصف بعد مذهبه فى الأرض طلبا للغنيمة .

(١٧) لن تضرنى : لن أخاف أحدا بها . لأنكى : يقال نكى العدو ينكيه نكاية أى أصاب منه . الحمة : المنية .

(١٨) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه شأن أكثر الصعاليك . على أين الغزاة : على ما يصيبنى من تعب الغزوة .

(١٩) أراد بأم عيال تأبط شرا لأنهم حين غزوا جعلوا زادهم إليه . أوتحت : أعطت قليلا مثل أقلت . كان تأبط شرا يقتر على رفاقه خوفا من أن تطول الغزوة فيموتوا جوعا .

(٢٠) العيل والعيلة : الفقر . أى آل تألت : أى سياسة ساست .

(٢١) الضن : البخل .

(٢٢) مصعلكة : صاحبة صعاليك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها . ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت : أى لا ترتجى أن تكون مقيمة إلا إذا أرادت ذلك .

٢٣ لها وَفْضَة فيها ثلاثون سَيْحَفا — إذا آنستْ أولَى العَدِىِّ اقشعرّت

٢٤ وتأتى العَدِىَّ بارزا نصفُ ساقها — تجول كعَيْرِ العانة المُتَلَفِّتِ

٢٥ إذا فَزِعوا طارت بأبيضَ صارم — ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سلَّت

٢٦ حسام كلون الملح صافٍ حديدُه — جُرَازٍ كأقطاع الغدير المنعَّتِ

٢٧ تراها كأذناب الحَسِيل صوادرا — وقد نَهِلَتْ من الدماء وعَلَّت

٢٨ قتلنا قتيلا مُهْدِيا بمُلَبِّد — جِمارَ مِنًى وَسْطَ الحجيج المصوِّت

٢٩ جزينا سلامانَ بن مُفْرِجَ قَرْضَها — بما قَدَّمت أيديهمُ وأزلَّت

٣٠ وهُنِّئَ بى قوم وما إنْ هَنَأتُهم — وأصبحتُ فى قوم وليسوا بمُنْيَتى

٣١ شَفَيْنا بعبد الله بعضَ غليلنا — وعوفٍ لَدَى المَعْدَى أوانَ استهلَّت

* * *

(٢٣) الوفضة : جعبة السهام . السيحف : السهم . اقشعرت : تهيأت للهجوم .

(٢٤) بارزا نصف ساقها : يريد أنه مشمر جاد . العير : حمار الوحش . العانة : القطيع من حمر الوحش ، وإنما شبهه بعير العانة لأن الحمار أغير ما يكون ، فهو يتلفت إلى الحمير يطردها عن أتنه .

(٢٥) الأبيض : السيف . الصارم : القاطع . الجفر : كنانة السهام . يعنى أنه يرمى بما فى كنانته ثم يحارب بسيفه .

(٢٦) الجراز : السيف القاطع . أقطاع : جمع قطع بكسر وسكون كالقطعة ، والمراد بأقطاع الغدير أجزاء الماء يضربها الهواء فتتقطع ويبدو بريقها . المنعت : مبالغة من النعت وهو الوصف بالحسن .

(٢٧) الحسيل : جمع حسيلة وهى أولاد البقر . شبه السيوف بأذناب الحسيل إذا رأت أمهاتها حركت أذنابها . النهل والعلل : أول الشرب وآخره ، وهو هنا للسيوف .

(٢٨) مهديا : محرما ساق الهدى . بملبد : بمحرم لبد رأسه وهو أن يجعل فى رأسه شيئا من الصمغ ليتلبد شعره . يريد : قتلنا محرما برجل محرم . جمار منى : أى عند الجمار . المصوت : الملبى . ومن المعروف أن رمى الجمار والتلبية كانت من شعائر الحج فى الجاهلية .

(٢٩) سلامان بن مفرج : هم الذين أسروه فداء . أزلت : قدمت .

(٣٠) يريد : هنىء بى بنو سلامان حين أخذونى فى الفدية وما انتفعوا بى . ليسوا بمنيتى : أى ليس هؤلاء القوم ممن أحب وأتمنى .

(٣١) عبد الله وعوف : من بنى سلامان . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة القتال . أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

٣٢ إذا ما أتتــنى ميتتى لم أبالهـا ولم تذرُ خالاتى الدموعَ وعَمَّتى
٣٣ ولو لم أرِمْ فى أهـل بيتىَ قاعدا إذن جاءنى بين العَمُودين حُمَّتى
٣٤ ألَا لا تعُذْنى إن تشكَّيتُ ، خُلَّتى شفانى بأعلى ذى البُرَيقيْنِ عَدْوَتى
٣٥ وإنى لحلوٌ إن أُريدتْ حلاوتى ومُرٌّ إذا نفسُ العَزُوفِ استمرَّتِ
٣٦ أبىٌّ لمـا آبىَ سريعٌ مبَـاءتى إلى كلِّ نفس تنتحِى فى مَسَرّتى

* * *

(٣٣) لم أرم : لم أبرح . العمودان : لعله أراد عمودى الخباء . حمتى : منيتى .

(٣٤) الخلة : الخليل . ذو البريقين : موضع . عدوتى : المرة من العدو . يريد أن سرعة عدوه سلاح يشتفى به كرا وفرا .

(٣٥) العزوف : المنصرف عن الشيء . استمرت : من المـرارة . يقول : أنا سهل لمن ساهانى ، مر على من عادانى .

(٣٦) المباءة : الرجوع . تنتحى فى مسرتى : تقصد إلى ما يسرنى .

* * *

سـيد حنـفى

(٢)

المَرْقَبَـــة

* * *

يكثر فى شعر الصعاليك حديثهم عن « المَرَاقِب » ، وهى المرتفعات العالية التى كانوا يصعدون إليها ليتربصوا فوقها بضحاياهم ، ويرتقبوا الفرصة السانحة لمهاجمتهم . وهى أحاديث تشكل موضوعا متميزا من موضوعات شعرهم يصح أن نطلق عليه « شِعْر المراقب » ، ولا يكاد شعر أى شاعر منهم يخلو من حديث عنها . وهو موضوع يبـدو فى موقع طبيعى فى شعرهم لارتباطه بواقع حياتهم التى تعتمد على التربص والترقب والمباغتة ، وهى العناصر التى تشكل « التكتيك » الهجومى فى حركاتهم القتالية .

وفى هذه الأبيات يرسم الشنفرى صورة للرقبة التى صعد إليها لمراقبة الطريق من فوقها ، فهى مرقبة مرتفعة يعجز غيره عن ارتقائها ، وقد صـعد إليها وقد اقترب الليـل بظلامه الذى يساعده على التخفّى ، وانتظـر فوقها يتربص بضحية تلوح له على الطريق الذى تُشْرِف عليه ، وليس معـه إلا سلاحه وثيابه الباليـة . وفوقها وعلى امتـداد الوقت الذى قضاه فى التربص راح يستعيد بعض ذكريات تصعلكه وتشرده ، مفتخرا بجـرأته على اقتحام الصحراء الرهيبـة ، والتوغل فى وديانها الموحشة حيث لا أثر للحياة إلا الأسود الضارية والجن المعربدة فى أعماق المجهـول .

* * *

١ ومَرْقَبــةٍ عَيْطــاءَ يَقْصُرُ دونَهــا   أخو الضَّروةِ الرَّجْلُ الحفيفُ المُشَفَّفُ
٢ نَمَيْتُ إلى أعلى ذُراها وقــد دنا   من الليلِ مُلْتَفُّ الحديقــةِ أَسْدَفُ
٣ فبِتُّ على حَدِّ الذراعين مُحْــدِبًا   كما يَتَطَوَّى الأرقشُ المتقصِّفُ
٤ قليلٌ جَهــازِي غيرَ نعلين أَسْحَقَتْ   صُــدُورهما مخصُــورةٌ لا تُخَصَّفُ
٥ ومِلْحَفةٍ دَرْسٍ، وجَرْدٍ مُــلاءةٍ   إذا أَنْهَجَتْ من جانبٍ لا تَكَفَّفُ
٦ وأبيضُ من ماءِ الحــديدِ مهنَّــدٌ   مُجِــذٌّ لأطرافِ الســواعدِ مِقْطَفُ

(١) العيطاء: العالية المرتفعة، أو الأبية الممتنعة. وأخو الضروة: الصياد معــه كلاب ضراها للصيد، ويحتمل أن يكون المعنى الرجل يستخفى عن الناس، من ضرا يضرو بمعنى استخفى. والرجل: الراجل، عكس الراكب. والمشفف: النحيل. وفى رواية أخرى «ومرقبــة عنقاء» و«الخفى المخفف».

(٢) نميت: صعدت. والأسدف: المظلم، من السدفة وهى اختلاط الضوء والظلام. ويريد بقوله «ملتف الحديقــة» تمثيل الليل المظلم بالأشجار الملتفة المتكاثفة. يقول إنه صعد إلى هذه المرقبة العالية مع دخول المساء، وقد أخذ الظلام المختلط بالنور يتكاثف ويحجب الأرض.

(٣) محــدبا: منحنيا، من أحدب إذا انحنى. يتطوى: يلتف. والأرقش: الثعبان. والمتقصف: المتكسر الذى تداخل بعضه فى بعض. وفى رواية أخرى «أحدبا» و«الأرقم المتعطف».

(٤) الجهاز: المتاع. وأسحقت: بليت. ومخصورة: دقيقة الوسط، حال من «صدورهما». ولا تخصف: لا تقبل الخرز لشدة قدمها وبلاها وتمزقها. يصف نعليه بأنهما قديمتان باليتان لا تقبلان خرزا ولا ترقيعا.

(٥) الملحفة: ما يلبس فوق الثياب من دثار البرد ونحوه. والدرس: الدارسة البالية. والجرد: الثوب الخلق البالى. وأنهجت: تفتقت، وفى رواية أخرى «أنهجت» أى بليت. ولا تكفف: أصلها لا تتكفف أى أنها تستعصى على الترقيع. ويروى الشــطر الأول فى رواية أخرى «وضنية جرد وأخلاق ريطة»، والمعنى على الروايتين واحد. والبيتان نقل صادق عن واقع الحياة التى يعيشها هؤلاء الصعاليك الفقراء.

(٦) الأبيض: السيف، ورفعه على تقدير «ومعى أبيض»، والمهند: الجيد الصنع، نسبة إلى الهند التى كانت مصدرا من مصادر السلاح عنــد العرب الجاهليين. ومجذ: قاطع شــديد القطع، وكذلك مقطف.

٧ وصفراءُ من نَبْع أبيٍّ ظَهيرة ... تَرِنُّ كإرنانِ الشجيِّ وتهتِفُ

٨ إذا طال فيها النَّزْعُ تأبَى بعَجْسِها ... وتَرمِي بذَرْوَيها بهنّ فتقذِفُ

٩ كأن حفيفَ النَّبل من فوقِ عَجْسِها ... عوازبُ نحلٍ أخطأ الغارَ مُطْنِفُ

* * *

١٠ نأتْ أمُّ قيسَ المَرْبَعينِ كليهما ... وتحذَر أن ينأى بها المُتصيَّفُ

١١ وإنكِ لو تدرين أنْ رُبَّ مَشْرَبٍ ... مَخُوفٍ كداءِ البطن أو هو أخْوَفُ

(٧) الصفراء : القوس ، وفي رواية أخرى « وحمراء » ، والعرب يصفون القوس بأنها صفراء إذا كانت جديدة ، وحمراء إذا كانت قديمة مستعملة لكثرة تعرضها للشمس . والنبع : شجر تتخذ منه الأقواس والرماح . والأبي : المستعصي على الكسر . والظهيرة : القوية المتينة . والإرنان : الإعوال . والشجي : الحزين . يشبه صوت قوسه حين يشدّ وترها للرمي بأنين الشجي أثقلته همومه وأحزانه .

(٨) النزع : شد وتر القوس عند الرمي . والعجس : مقبض القوس ، مثلثة العين . والذروان : الطرفان . والضمير في « بهن » يعود على السهام المفهومة من السياق .

(٩) العوازب : الضالة التي أخطأت طريقها ، من عزب البعير إذا ضل . والمطنف : الذي يعلو الطنف وهو رأس الجبل . يشبه حفيف السهام حين تنطلق من القوس بصوت نحل ضل طريقه نحو الغار الذي اتخذه بيتا له فوق قمة جبل ، فهو يبحث عن منفذ إلى داخله في حركة دائبة ودوي متصل .

(١٠) أم قيس : صاحبته ، وفي أغلب الظن أنها زوجته ، بدلالة سياق الأبيات ، وأكثر حديث الشعراء الصعاليك عن زوجاتهم . وحذف التنوين في « أم قيس » للضرورة ، أو لعله عامل الكلمتين معا معاملة الاسم الواحد ، فنعه من الصرف للعلمية والتأنيث . والمربع : منزل القبيلة في الربيع ، ويريد بالمربعين منازلها في الربيع والشتاء ، من باب التغليب . والمتصيف : مكان نزولها في الصيف . يقول إن زوجته مثله لا يستقر بها مكان . وعبارة البيت تشعر بأنها غير راضية عن هذا الاضطراب في حياتها ، وكأنها تنكر عليه حياته القلقة التي لا تعرف الاستقرار .

(١١) يصف مكان الماء الذي يرده بأنه بعيد في أعماق الصحراء المجهولة المخيفة حيث لا يجرؤ أحد على الوصول إليه ، ويشبه الخوف الذي يكتنفه بالخوف من داء البطن ، وهي صورة تعكس ما يدور في نفوس هؤلاء الصعاليك الذين كانوا يفتخرون بأنهم ضامرو البطون ، قد نشزت أضلاعهم ، والتصقت أمعاؤهم ، لشدة صبرهم على الجوع ، وإيثارهم غيرهم بالزاد ، فن الطبيعي أن يكون أشد ما يخشونه أمراض البطن التي يصاب بها الأغنياء المتخمون ، والتي تعد بالنسبة لهم اتهاما صارخا بالتنكر لرسالتهم وخيانة لمبادئهم .

١٢ وردتُ بمأثورٍ يمانٍ وضَالَةٍ تخيَّرتُها مما أَريشُ وأرصُفُ
١٣ أُركّبها فى كلّ أحمـرَ غائرٍ وأقـذِفُ منهن الذى هو مُقْرِفُ
١٤ وتابعتُ فيه البرىَ حتى تركتُـه يَزِفُّ إذا أنفـذْتُه ويُزَفْـزِفُ
١٥ بكفّىَ منها للبَغيض عُرَاضَـةٌ إذا بعتُ خِلًّا ماله مُتعـرَّفُ

* * *

١٦ ووادٍ بعيد العَمْق ضَنْكٍ جِمَاعُه بواطنُه للجنّ والأُسْد مَألَفُ

---

(١٢) المأثور : السيف . واليمانى : نسـبة إلى اليمن ، وكانت مصدرا آخر من مصادر السلاح عند عرب الجاهلية . والضالة : السهام . وراش السهم : ركب عليه ريشا ليكون أسرع فى انطلاقه . ورصفه : شـد على رأس نصله عقدة من الوتر ليكون أشد تثبيتا له . وفى رواية أخرى للبيت « بمأثور ونبل وضالة » .

(١٣) الأحمر هنا السهم . والغائر : الذى اختلطت حمـرته بالشهبة . وفى رواية أخرى « عاتر » بمعنى شـديد . والمقرف هنا : المعيب المتهم أو الذى ليس أصـيلا . والضمير فى « منهن » للسهام . يقول إنه يركب من سهامه الجيـد الشديد ، ويستغنى عما يظن فيه عيبا أو ما يكون عنده موضع اتهام فى أصالته . وفى رواية أخرى « وأنسج للولدان ما هو مقرف » .

(١٤) يزف : يسبح فى الفضاء كما يفعل الطائر . ويزفزف : يحـدث صوتا كصوت الريح فى النبات الجاف . وفى رواية أخرى « إذا أنزفته » ، وأظنها تحريفا .

(١٥) العراضة : الهدية . والخـل : الصديق . وماله متعرف : أى لا أستطيع أن أتعرف على حقيقة أمره . وفى رواية أخرى « ماله متخوف » . يقول إنى أعد هـذه السهام القاتلة هـدية لمن أبغضه ممن يلتوى على ، ويخون عهدى ، فأبيعه غير آسف عليه .

(١٦) الضنك : الضيق . وجماع الشىء : جمعـه أو مجموعه . يقول إن هـذا الوادى بعيد فى أعماق الصحراء ، تلتق عنده مجموعة من الأودية الضيقة ، وتتخذه الجن والأسود مكانا تألفه وتأوى إليـه .

١٧ تعسَّفتُ منه بعدما سَقَط الندى غماليـلَ يخشَى غِيلَها المتعسِّفُ

١٨ وإنى إذا خامَ الجبانُ عن الردى فلى حيثُ يخشَى أن يجاوِزَ مِخْشَفُ

* * *

(١٧) تعسف : سار على غير هدى . والغماليل : الروابى . والغيـل : الشجر الكثيف الملتف . يفتخر بأنه استطاع بجرأته أن يخترق هذا الوادى .

(١٨) خام : ضعف وجبن . والمخشف : المدخل . وفى رواية أخرى « مخسف » من خسف الطريق إذا ذلله وقطعه . يفتخر بجرأته على اقتحام المهالك التى يتراجع عنها الجبناء .

* * *

يوسف خليف

(٣)

وَصِـــيَّة الصُّـــعلوك

* * *

فى اللحظات الأخيرة من حياة الشنفرى، وقد أوشك السِّراج أن تنطفئ آخر ومضة منـه ، وخصومه ملتفون حوله بعـد أن وقع فى أسرهم، والشماتة ملء عيونهم ، والحقد الذى ظل دفينا فى صدورهم طيـلة حياته ينطلق كالمـارد من القُمْقُم الذى طال حبسُه فيه ، سألوه أين يدفنون جسده بعد مقتله . ولم يقبل الشنفرى أن يعطيهـم الفرصة لمـزيدٍ من الشماتة ، ولم يَرْضَ لنفســه أن تضعف أمامهم ، ولم يُبْـدِ حرصا على الحياة أو تشبثا بها ، فقال هذه الأبيـات مستهينا بالحياة وبالموت أيضا . وما الذى يبكى عليه ؟ وما الذى ينتظره بعـد الموت ؟ إن حياته بعد الموت لن تكون خيرا من حياته قبله ، وإن جرائره التى ارتكبها فى حياته ستظل تطارده بعد موته . وفى هذه اللحظات — وهو على البرزخ الفاصل بين شاطئ الحياة وشاطئ الموت— لم ينس رفاق تشرده ، وحشَ الصحراء الذين اتخذ منهم فى حياته رفاقا له يأنس إليهم ويطمئن لهم ويثق فيهم . ومن بينهم تطل عليه صورة الضَّبُع الجائعة ، فيوُصى بجسده بعد موته وليمـةً لها تسد به جوعها ، وكأنه يريد ألا يودّع الحياة إلا بعد أن يقدّم آخر وَجْبة يملكها لآخرِ جائع تتراءى صورته أمام عينيه اللتين يوشـك الموت أن يلقى عليهما غطاءه الأبدى ، إيمـانا برسالة الصعلوك التى عاش حيـاته لها ، ولا يتردد فى أن يقدمها قربانا على مذبح هذا الإيمـان .

* * *

١ لا تَقْبُرونى إنَّ قبرى مُحَرَّم عليكم، ولكنْ أَبْشِرى أمَّ عامرِ
٢ إذا احتَمَلوا رأسى وفى الرأسِ أكثرى وغُودِر عنـد الملتَقَى ثَمّ سائرى
٣ هنالكَ لا أرجو حيـاةً تَسُرُّنِى سَجِيسَ الليـالِى مُبْسَلًا بالجرائرِ

* * *

(١) أم عامر : كنية الضبع عند العرب .

(٢) وفى الرأس أكثرى : يريد أن الرأس أهم ما فى جسم الإنسان ، فإذا احتمله قاتلوه ومضوا به إملاتا عن مصرعه فما قيمـة سائر الجسد ؟ وفى رواية أخرى « احتملت » والضمير فيهـا يعود على الضـبع .

(٣) سجيس الليالى : أبد الدهر . ومبسلا بالجرائر : مسلما لهـا ، مرهونا بها ، مسئولا عنها . وفى رواية أخرى « سمير الليالى » أى طول الليالى .

* * *

يوسف خليف

تَأبَّطَ شَرًّا

* * *

شاعر من أشهر الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، ينتهى نسبه إلى قبيلة فَهْم التى كانت تنزل فى منطقة الحجاز الجبلية ، والتى كانت معروفة بكثرة لصوصها واسمه ثابت بن جابر ، وهو يصرِّح بهذا الاسم فى قافيته المشهورة « ياعيدُ مالكَ مِنْ شوق وإيراق » ، وأما تأبط شرا فهو لقب عُرِف به . وتختلف الروايات حول الظروف التى أحاطت بهذا اللقب ، فمن قائل إنه تأبط سيفا وخرج به فلما سئلت أمه عنه قالت : « تأبط شرا وخرج » . ومن قائل إنه عاد إلى أمه وقد تأبط جرابا به مجموعة من الأفاعى صادها ، فقال نسوةٌ من الحى لأمه : « لقد تأبط شرا » . ومن قائل إنه رأى كبشا فى الصحراء فحمله تحت إبطه ، حتى إذا ما اقترب من الحى تبين له أنها الغول ، فقال له قومه : « لقد تأبطتَ شرا » . ومن قائل إنه لقى الغول فى ليلة مظلمة ، فاعترضت طريقه ، فلم يزل بها حتى قتلها ، ثم حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : « لقد تأبطتَ شرا » . ومن قائل إنه لُقِّب به لبيتٍ من الشعر قاله يصف فيه نفسه بأنه تأبط شرا ثم انطلق فى غزواته :

تأبَّط شرا ثم راح أو اغتَدَى ... يُوَائم غُنْمًا أو يُشِيفُ على ذَحْلِ (١)

وفى ظنى أن هذه الرواية هى أقرب الروايات إلى الحقيقة ، وما سواها أوهام من الرواة تعكس الجو الأسطورى الغامضِ الذى عاش فيه هذا الشاعر ، وأن

---

(١) يوائم : يوافق . ويشيف عليه : يشرف . والذحل . الثأر .

شهرته بهذا اللقب ليست إلا تعبيرا شعبيا عن حياة الشرّ التي كان يحياها ، والتي كان مجتمعه يستشعر أمامها جوًّا من الرهبة والفزع وتوقع الشر منه كلما ظهر فيه . وهي — على كل حال — ليست غريبة على تلك الألقاب العجيبة التي لُقِّب بها إخوته الأربعة الآخرون : رِيش بِلَغْبٍ ، وريشُ نَسْرٍ ، وكَعْبُ جُدرٍ ، ولا بَوَاكِيَ له ، وهي ألقاب تعكس صورة لهوان المنزلة الاجتماعية لأسرته .

وتأبط شرا من تلك الطائفة من العبيد التي كان المجتمع الجاهلي يطلق عليها « الأغربة » ، وهم أولاد آباءٍ من العرب من أمهاتٍ من الإماء السود سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، وكانوا يمدون حركة الصعلكة الجاهلية بأعداد كبيرة من الصعاليك المتمردين على العبودية ، تعبيرا عن موقف الرفض والاحتجاج من طبقة العبيد على هذا المجتمع المؤمن بعنصرية جنسية متأصلة في دمائه .

وهب تأبط شرا حياته لحركة الصعلكة الجاهلية ، وعاش في أعماق الشعب العربي أسطورةً شعبية تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، ويختلط فيها الواقع بالوهم ، وتلتحم فيها شخصية العبد الأسود المتمرد ، الثائر على وضعه الاجتماعي ، الطامح إلى حقه في الحرية والمساواة ، بشخصية قاطع الطريق الرهيب الذي لا يرى إلا الغزو والغارة والسلب والنهب وسفك الدماء طريقا للحياة ، وأيضا للانتقام من الحياة .

وتأبط شرا هو أحد العدّائين المشهورين بين العرب الذين ضَرَبوا بهم المثل في سرعة العدو ، وقد وصفوه بأنه « كان أعدَى ذي رِجلين وذي ساقين وذي عينين » ، وأنه كان يسبق الظباء ويسبق الخيل . ومن أعماق هذه الميزة التي كان يمتاز بها كان قَسَمه المفضَّل « والذي أعدو بطيره » ، تأكيدا للصلة التي تربط بينه وبينها في السرعة ، وكأنه يريد أن يقول إنه يعدو بأجنحتها . وتتردد في أخباره أحاديث كثيرة عن لقائه الغول في ليالي الصحراء المظلمة الموحشة ، وما يدور بينه وبينها من صراع ينتهي دائما بقتلها .

عاش تأبط شرا حياته كلها فزَعًا رهيبا فى مجتمعه ، يتردد حوله جوٌّ أسطورى غامض يثير الرعب فى نفوس كلِّ من يسوقه قَدَرُه إلى طريقه ، حتى لقى مصرعه فى بعض غاراته على يد غلام تربص به ثم رماه بسهم اخترق قلبه فأرداه صريعا ، ثم ألقوا به فى الصحراء وخلّفوه وراءهم . وتذهب الأسطورة إلى أن جسده « لم يأكل منه سَبُعٌ ولا طائر إلا مات » ، وكأنما قد تحول إلى سُمٍّ زُعَاف ليواصل بعد موته رسالته الرهيبة القاتلة التى عاش حياته لها ، وكأنها ترجمة شعبية لأبيات من شعره تغنّى بها فى حياته ، يتنبأ فيها بمصرعه ، وبأنه سيكون وليمة لضوارى السباع وجوارح الطير ، ولكنها وليمة مسمومة قاتلة ، لحمها مُرٌّ كريه :

ولقــد علمتُ لَتَعْــدُوَنَّ (م) علىَّ شُــتُمٌ كالحَسَا كِلْ
يأكُلْنَ أوصـالا ولحـ ـمًا كالشُّكاعَى غيرَ جاذِلْ
ياطيرُ كُلْنَ ، فإنـنى سُمٌّ لَكُنَّ وذو دَغَاوِلْ (١)

---

(١) الشتّم : جمع شتيم وهو الأسد العبوس . والحسا كل : جمع حسكل وهو ما تطاير من شرر الحديد المحمى . والشكاعى : ما دق من النبات ، ويقال للهزول كأنه عود الشكاعى ، والجاذل : ما عظم من أصول الشجر ، يريد أن جسده نحيف ضامر غير سمين . والدغاول : الدواهى ، يريد أن لحمه قاتل .

* * *

يوسف خليف

(١)

القَافِيَّــة المُفَضَّلِيَّــة

* * *

تأبط شرا هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عَدِىّ بن كعب بن حرب بن تيم ابن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر . وسمى « تأبط شرا » لأنه تأبط سيفا وخرج ، فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شرا وخرج . وهى الرواية المشهورة عن تسمية بذلك . وكان أحد صعاليك العرب المشهورين ، قرينا للشنفرى وعمرو بن براق ، وكانوا ثلاثتهم من العدّائين الذين يعدون على أرجلهم فلا يدركهم الطلب ؛ بل كانوا أعدى العدائين فى العرب ، ويزعمون أن الخيل ما كانت تلحقهم .

وهناك دراسات جيدة عن الشعراء الصعاليك[١] يمكن الرجوع إليها لمعرفة طبيعة هؤلاء الشعراء وقيمة شعرهم .

يصف الشاعر فى هذه القصيدة المختارة الطيفَ ، ويذكر حادث هربه من قبيلة بَجِيلة حين أرصدوا له كمينا على ماء ، فأخذوه وكتفوه بوتر ، ثم دبر حيلة بارعة هو وعمرو بن براق والشنفرى ، تمكن بها الثلاثة من النجاة عدوا على الأقدام . والقصيدة فيها تصوير جيد لقوة جريه وشدة عدوه ، ثم وصف للرجل

---

(١) انظر الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف ط دار المعارف .

* * *

السيد الذى يركن إليه ، ثم فخـر بتجشمه الأخطار ، وإشادة بكرمه ، منددا بمن يلومه على إنفاق ماله . والقصيدة مروية بالمفضليات أولَ قصيدة منها .

* * *

١ يا عيـدُ مالك من شوق وإيراق ومَرِّ طَيْفٍ على الأهوالِ طَرَّاقِ

٢ يسرى على الأيْنِ والحيّاتِ مُحْتفيا نفسى فـداؤكَ مِنْ سارٍ على ساقِ

٣ إنِّى إذا خُـلَّةٌ ضنَّتْ بِنائِلِهـا وأمسكَتْ بضعيفِ الوصلِ أَحذاقِ

٤ نجوتُ منها نَجائى من بَجيـلةَ إذْ أَلقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أَرواقى

٥ ليلةَ صاحوا وأغْرَوْا بى سِراعَهمُ بالعَيْكَتَيْنِ لدَى مَعْدَى ابن برَّاقِ

٦ كأنَّمـا حَثْحَثُوا حُصًّا قَـوادِمُهُ أو أُمَّ خِشْفٍ بِذى شَثٍّ وطُبَّاقِ

---

(١) العيد : ما اعتاد من حزن وشوق . الإيراق : مصدر « آرقه » من الأرق . طراق : يقصد أنه يطرق ليلا فى موضع البعد والمخافة .

(٢) يسرى : يسير ليلا . الأين : نوع من الحيات أو هو الإعياء . محتفيا : حافيا .

(٣) الخـلة : الصداقة . النائل : ما ينـال . ضعيف الوصل : بحبـل ضعيف . الأحذاق : المنقطع .

(٤) بجيلة : القبيلة التى أسرته . الخبت : اللين من الأرض . الرهط هنا : اسم موضع . ألقيت أرواقى : استفرغت مجهودى فى العدو .

(٥) العيكتان : موضع . معـدى : مصدر ميمى أو اسم مكان . ابن براق : هو عمـرو صعلوك من أصدقاء تأبط شرا وكان معه والشنفرى ليلة هرب به من بجيلة .

(٦) حثحثوا : حركوا من الحث . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر ويعنى بذلك الظليم وهو ذكر النعام . القوادم : ما ولى الرأس من ريش الجناح . الخشف : ولد الظبيـة . الشث والطباق : نبتان طيبا المرعى يضمران راعيهما ويشدان لحمهما .

٧ لا شيءَ أسرعُ منّي ليس ذا عُذَرٍ وذا جناحٍ بجَنْبِ الرَّيْدِ خَفّاقِ
٨ حتى نجوتُ ولما يَنْزِعُوا سلبي بِوَالِهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْدَاقِ

* * *

٩ ولا أقول إذا ما خُـلَّةٌ صَرَمَتْ يا ويحَ نفسيَ من شوقٍ وإشفاقِ
١٠ لكنّما عَـوَلي إن كنتُ ذا عَوَلٍ على بصيرٍ بِكَسْبِ الحمـدِ سبّاقِ
١١ سبّاقِ غاياتِ مجْـدٍ في عشيرته مُرَجِّعِ الصَّوْتِ هَدًّا بين أَرْفَاقِ
١٢ عاري الظَّنابِيبِ، مُمْتَدٍّ نواشِرُهُ مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهي المـاءِ غَسّاقِ
١٣ حَمّـالِ ألويةٍ، شَهّادِ أَنْدِيَةٍ قَوّالِ مُحْـكَمَةٍ، جَـوّابِ آفاقِ
١٤ فذاك همّي وغَزْوي أستغيثُ به إذا استغثتُ بِضَافي الرأسِ نَغّاقِ

---

(٧) العذر: جمع عذرة وهي ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس. الريد: قمة الجبل. يقول: لا شيء أسرع مني إلا الفرس و إلا الطائر الجارح الذي يأوي إلى قمة الجبل.

(٨) السلب: ما يسلب في الحرب. الواله: الذاهب العقل. الشد القبيض: الجري السريع. الغيداق: الكبير الواسع، من الغدق وهو المطر الكثير.

(٩) صرمت: قطعت.

(١٠) العول: بفتح العين وكسرها وفتح الواو: مصدر من العويل. بدأ في وصف الرجل الكامل يبكي فقد صداقته أو الذي يعول عليه.

(١١) مرجع الصوت: يصيح آمرا ناهيا لأنه رئيس القوم. الأرفاق: الرفاق.

(١٢) الظنابيب: جمع ظنبوب وهو حرف عظم الساق، جعلها عارية لهزالها، والعرب تمدح الهزال وتهجو السمن. النواشر: عروق ظاهر الذراع. مدلاج: كثير السفر في الليل. الأدهم: الليل. واهي الماء: مطر شديد أو سحابة لا تمسك ماءها. الغساق: الشديد الظلمة.

(١٣) المحكمة: الكلمة الفاصلة. جواب آفاق: صاحب أسفار وغزو.

(١٤) غزوي: مقصدي من الغزو. ضافي الرأس: كثير الشعر، نغاق ونعاق بمعنى واحد.

١٥ كالحِقْفِ حَدَّأَه النَّامون قلتُ له : ذو ثَلَّتَيْنِ وذو بَهْـمٍ وأَرْباقِ

* * *

١٦ وقُـلَّةٍ كَسِـنان الرُّمح بارزةٍ ضَحْيانَةٍ فى شهور الصيف مِحْراقِ

١٧ بادرتُ قُنَّتَها صحبي وماكَسِلُوا حتى نَمَيْتُ إليهـا بعـد إشْراقِ

١٨ لا شيءَ فِي رَيْدِها إلا نعامتُهـا مِنها هزيمٌ ومنهـا قائمٌ باقِ

١٩ بِشَرْثَةٍ خَلَقٍ يُوقَى البَنانُ بِهـا شَدَدْتُ فيها سَرِيحًا بعد إطراقِ

* * *

٢٠ بل مَنْ لِعَـذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ حَرَّق باللَّومِ جِلْدِى أىَّ تَحْـرَاقِ

٢١ يقول أهلكتَ مالاً لو قَنِعتَ به من ثَوْبِ صدق ومن بَزٍّ وأَعْلاَقِ

---

(١٥) الحقف : ما اعوج من الرمل . حدأه النامون : أى صلبوه بدوسهم إياه وصعودهم عليه . والنامون من « نمى » أى صعد وارتفع . الثلة : القطعة من الغنم . البهم : أولاد الشاء . الأرباق : جمع « ربق » بكسر فسكون هو حبل يجعل كالحلقة يشد به صغار الغنم لئلا ترضع . شبه تلبد شعر الراعى النعاق بالحقف الذى لبده النامون عليه . ثم يقول له : أنت ذو ثلتـين مالك ولحـرب ؟ يحقره بذلك ويريد أن يستغيث بمن وصف من قبل إذا استغاث غيره بمثل هذا الراعى .

(١٦) القلة : أعلى الجبل . ضحيانة : بارزة للشمس . محراق : تحرق من فيها .

(١٧) نميت إليها : ارتفعت .

(١٨) الريد : أعلى الجبل . النعامة : خشبات يأوى إليها الربيئـة أو الراصد وتكون فى أعلى الجبل . هزيم : منكسر .

(١٩) بشرثة خلق : بنعل ممزقة . السريح : السيور تشد بها النعل . الإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلهـا .

(٢٠) العذالة : الكثيرة العذل . الخذالة : الكثيرة خذلان صاحبها . الأشب : المعترض .

(٢١) ثوب صدق : مقابل ثوب سوء ، يعنى به الجيد . البز : الملابس أو السلاح . الأعلاق : كرائم الأموال ، يريد أنه يأمره بالبخل وإمساك ماله .

٢٢ عاذلتى إن بعض اللوم معنفةٌ وهل متاعٌ وإن أبقيته باقِ
٢٣ إنى زعيمٌ لئن لم تتركوا عَذَلى أنْ يسأل الحىُّ عنى أهلَ آفاقِ
٢٤ أن يسأل القومُ عنى أهلَ معرفةٍ فلا يُخبّرهم عن ثابتٍ لاقِ
٢٥ سَدّدْ خلالَك من مالٍ تُجمّعه حتى تلاقى الذى كلُّ امرئٍ لاقِ
٢٦ لَتَقْرَعَنَّ علىّ السنَّ من ندم إذا تذكّرتَ يوما بعض أخلاقى

(٢٢) معنفة : عنف .

(٢٣) زعيم : كفيل وضمين .

(٢٤) ثابت : هو تأبط شرا .

(٢٥) الخلال : جمع خلة وهى الحاجة والفقر . ويجوز أن يكون هذا البيت بعد البيت « ٢١ » ليكون من تحريض العاذلة له أن يسد بماله فقره حتى يلاقى الموت . ويؤيد ذلك رواية ابن قتيبة فى الشعر والشعراء .

(٢٦) لتقرعن ، خطاب للرجل العاذلة موجه من تأبط شرا .

* * *

سيد حنفى

(٢)

أليفُ الوَحْش

* * *

يقولون إن تأبط شرا خطب امرأة من هُذَيل ، فحذرها قومها من أن تقبله زوجا لها ، لأنه يعيش حياته مغامرا يحمل رأسه على كفيه ، وأنه معرّض للموت فى كل لحظة ، وإنْ هى إلا غارةٌ قريبة حتى يلقى مصرعه وتذوق مرارة الترمل بعده . فقال هذه الأبيات التى يرسم فيها صورة لحياته تستمد خطوطها من الواقع الذى يعيشه صعلوكا مغامرا متشرِّدا فى أعماق الصحراء حتى أَلِفَتْه وحوشُها ، وفَزَعا رهيبا لطبقة المَالَة الأغنياء من أصحاب الإبل ، ويسجل فى نهايتها أنه لا يخشى الموت لأنه يدرك أنه المصير المحتوم الذى لا مفرّ منه ، وأن القتل هو النهاية التى لا بد أن ينتهى إليها كلُّ مغامر مثله وهب حياته لهذا الصراع المسلح الذى يعيش فى أعماقه هو ورفاقه الصعاليك .

* * *

١ وقالوا لها : لا تَنْكِحِيه فإنه — لأوّلِ نَصْلٍ أنْ يلاقىَ مَجْمَعَا

٢ فلم ترَ مِنْ رأيٍ فَتيلًا وحاذرتْ — تأيُّمَها مِنْ لابسِ الليلِ أَرْوَعا

---

(١) لا تنكحيه : لا تتزوجيه . ولأول نصل : أى أنه معرض للقتل لأول ضربة نصل . ومجمعا : أى جمعا من أعدائه تجمعوا لقائه .

(٢) الرأى الفتيل : الضعيف . والتأيم : الترمل . ولابس الليل : أى أنه من « أبناء الليل » الذين يتخذون منه مسرحا لمغامراتهم . والأروع : الشجاع .

٣ قليلِ غِرارِ النوم أكبرُ همِّه | دمُ الثأر أو يلقى كَمِيًّا مُقَنَّعا
٤ قليلِ ادِّخارِ الزاد إلا تَعِلَّةً | فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والتصقَ المِعَى
٥ يبيت بمَغْنَى الوحشِ حتى أَلِفْنَه | ويُصبح لا يَحمِى لها الدهرَ مَرْتَعا
٦ رأيْنَ فتًى لا صيدُ وحشٍ يهمُّه | فلو صافحتْ إنسا لَصافَحْنه مَعَا
٧ ولكنَّ أربابَ المَخَاض يَشُقُّهم | إذا افتقَدوه أو رأَوْه مُشيَّعا
٨ وإنِّى — ولا عِلْمٌ — لأَعلم أنني | سأَلقَى سنانَ الموت يَرْشُقُ أَضلُعَا

(٣) غرار النوم : أى النوم الخفيف . والكمى : البطل فى كامل سلاحه . والمقنع : الملثم . يصف نفسه بأنه قليل النوم لأنه مشغول بمعركة الثأر من مجتمعه التى وهب حياته لها كما وهبها لها رفاقه الصعاليك ، وفى شعر عمرو بن براقة رفيقه فى أكثر غزواته :

ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم | قليل إذا نام الخلى المسالم

(٤) التعلة : الاكتفاء بما يتعلل به من أقل الزاد . ونشز : برز . والشرسوف : الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن . والمعى : مفرد الأمعاء . يقول إنه ضامر نحيل لقلة ما يبقيه لنفسه من طعام لأنه يؤثر غيره من الفقراء الجياع به .

(٥) المغنى : المقام أى حيث تقيم الوحش فى أعماق الصحراء . وقوله « لا يحمى لها الدهر مرتعا » يريد به أنه لا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه . وقد أخطأ محققو كتاب الأغانى فى شرح البيت (٢١ / ١٤٦ طبعة الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣) .

(٦) البيت استمرار فى الصورة التى رسمها فى البيت السابق ، يقول إن الوحش ألفته واطمأنت إليه ، وأدركت أنه لم يتزل معها فى مراعيها لصيدها ، فأنست إليه حتى لو أنها صافحت أحدا من البشر لصافحته .

(٧) أرباب المخاض : أصحاب النوق العشار . ويشقهم : يؤرقهم ويسبب لهم العناء والمشقة فى المحافظة على إبلهم . وقوله « إذا افتقدوه أو رأوه مشيعا » يعنى أنهم يخشونه فى غيابه وحضوره ، وأنه فزع دائم لهم . والمشيع : الذى معه أصحابه . وفى رواية أخرى « يشفهم » أى يهزلهم ويكد عيشهم . وفيها « إذا افتقروه واحدا أومشيعا » أى إذا تتبعوا أثره فرادى أو جماعات ، أو تتبعوا أثره وحيدا أو مع رفاقه .

(٨) ولا علم : أى أنى لا أعلم الغيب ولا أدرى متى يحين أجلى . يرشق أضلعا : أى يرمى ضلوعه ، كناية عن الموت . وفى رواية أخرى « وإنى وإن عمرت » ، وفيها « يبرق أصلعا » يريد أن سنان الموت مصقول مجلو لامع ، فهو دائما مهيأ للعمل .

٩ على غِرَّةٍ أو جَهْــرةٍ مِنْ مُكاثِرٍ أطال نِزَالَ الموت حتى تَسَعْسَعا

١٠ وكنتُ أظنُّ الموتَ فى الحىِّ أو أرى أَلَدَّ وأَكْرَى أو أموتَ مُقَنَّعـا

١١ ولستُ أبيتُ الدهرَ إلا على فتًى أسـلِّبه أو أُذْعِرُ السِّرب أجمعا

١٢ ومَنْ يَضْرِبُ الأبطـال لا بدَّ أنه سيلقَى بهم مِنْ مصرعِ الموتِ مَصْرَعا

* * *

---

(٩) المكاثر : الذى يكاثر بغاراته ، أى كثير الغارات ، يريد نفسه . وتسعسع : فنى وذهب . يؤكد أن الموت سيلقاه على حين غرة منه وغفلة عنه ، أو سيلقاه مواجهة صريحة ، ولا يرى فى ذلك غرابة لأنه وهب حياته للموت ، وعاش عمره فى صراع معه ، حتى انتهت حياته ، وأدركه الفناء .

(١٠) ألد : أخاصم ، من اللدد وهو الخصومة العنيدة التى لا تلين ولا ترجع إلى الحق ، وقد قرأها محققو الأغانى «ألذ» بالذال ، وأظنه خطأ . وأكرى : أعدو عدوا شديدا ، من كرى (كرضى) بمعنى جرى جريا شديدا ، وقد ضبطها محققو الأغانى بضم الهمزة والبناء للمجهول ، وشرحوها بمعنى أزيد ، وأظنه خطأ أيضا . وقد ترتب على الخطأين خطأ فى فهمهم معنى البيت . والمعنى — عندى — أنه يقول : إننى أرى الموت الحقيق فى البقاء فى الحى ذليلا ، لا فى الخروج للغارة والعدو المتصل حتى الموت فى ساحة الكفاح بطلا مسلحا فى سبيل مبادئى وأهدافى . إنه لا يريد أن ينتظر أجله وهو قانع بحياة الذل والهوان على هامش القبيلة ، وإنما يريد أن يخرج إليه ليلقاه فى ساحة الكفاح المسلح من أجل الحرية والكرامة ، وما مات من مات فى سبيل مبادئه وأهدافه .

(١١) يقول إنه لا يهـدأ ولا يستقر حتى يحقق أهدافه فى الغزو والغارة على الأفراد والجماعات للسلب والنهب وقطع الطريق . وخطأ ما ذهب إليه محققو الأغانى فى شرح البيت من أنه يقضى حياته « بين صيد وقنص » ، لأنه يتعارض مع جو الأبيات ، ويتناقض مع ما قدمه فى بدايتها من حديث عن إلفه الوحش وعدم خوفها منه ، وأنه لا يفزعها فى مراتعها .

(١٢) يقول إن من يجعل حياته صراعا مستمرا لا بد أن يلاقى فى ساحة الصراع مصرعا من مصارع الموت المتعددة . « ومن » فى البيت موصولة لا شرطية . وفى رواية أخرى للبيت «ومن يغر بالأعداء» وتكون « من » هنا شرطية لا موصولة ، وهى رواية جيدة .

* * *

يوسف خليف

(٣)

رَفيــقُ الغُــول

* * *

فى شــعر تأبط شرا أكثر من قصــيدة يتحدث فيها عن لقائه الغول فى ليــالى الصحراء الموحشــة ، وما يدور بينه و بينهــا من صراع . وهى صورة — و إن تكن مغلَّفة بجو أسطورى غامض — تصوّر ما كان يخيِّله الوهمُ لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيدِ الآفاق فى الليالى المظلمة بين أرجاء الصحراء الرهيبة ، حيث تجسِّم الرؤَى أشباحا مخيفة ، وتختلط الأصوات التى تتراءَى من هنا ومن هناك فى مَعْزوفة غامضة رهيبة . ومع ذلك فقــد يكون ما يقصده تأبط شرا من الغيلان تلك الفصيلة من الحيوان المعــروفة باسم « الغوريلا » ، وكانت معروفةً فى بعض المناطق الجنوبيــة من اليمن ، وفى « القاموس المحيــط » أن من معانيها « دابة رأتهــا العرب وعرفتها وقتلها تأبط شرا » . ولكن هــذا — على كل حال — لا يَنْفِى أن صورتها عنده محاطة بهــذا الإطار الأسطورىّ الذى نراه واضحا فى كل أحاديثه عنهــا .

وفى هذه القصيدة نرى صورةً من هذه الأحاديث ، يصوّر فيها لقاءه لها ، بعد أن يمهــد لذلك بالحديث عن الليل المظلم الذى ظهرتْ له فيه ، وهو فى طــريقه إلى بعض مغامراته فى أعماق الصحراء ، ثم يصفها ، ويسجل مادار بينه و بينها ، ثم ينتهى الموقف — كما ينتهى عنده دائمــا — بقتلها .

* * *

١ تقـــول سُلَيْمى لجاراتهـا : أرَى ثابتًا يَفَنًا حَوْقَـــلَا

٢ لهـا الويلُ ! ما وجدتْ ثابتـا ألَفَّ اليـــدين ولا زُمَّـلا

٣ ولا رَعِشَ الساق عنـد الجِـرَاء إذا بادرَ الحمـــلةَ الهَيْضَـــلا

٤ يفـوتُ الجيـادَ بتقريبـــه ويكســو هواديَهـا القَسْـطَلا

* * *

٥ وأدهَـــمَ قـــد جُبْتُ جلبـابه كما اجتـابتِ الكاعبُ الخَيْعَـلا

٦ إلى أنْ حدَا الصبحُ أثنـاءَهُ ومزّق جِلبـابَه الأَلْيَـــلا

٧ على شَـــيْمِ نارٍ تنوَّرتُهـا فبتُّ لهـا مُدْبرا مُقْبِـــلا

---

(١) سليمى : زوجته . وثابت هو تأبط شرا . واليفن : الشيخ الكبير، والحوقل : الذى يقارب من خطواته إعياء وضعفا . والمطلع يدل على أن القصيدة نظمت فى أخريات حياته ، وأن حديث الغول كان ذكرى من ذكرياته .

(٢) ألف اليدين : كناية عن الشيخوخة والضعف . والزمل : الضعيف المتخاذل .

(٣) رعش الساق : مثل ألف اليـــدين كناية عن الشيخوخة والضعف . والجـــراء : الجرى ، مصدر من مصادر « جرى » . والحملة : الكرة فى القتال . والهيضل : الجماعة المتسلحة الكثيرة العدد .

(٤) التقريب : ضرب من العـــدو . والهوادى : الأعناق . والقسطل : الغبار . يصف نفسه بسرعة العدو، وأنه يستطيع أن يسبق الخيل فيكسو أعناقها المتقدمة بالغبار الذى يثيره بقدميه عند العدو .

(٥) الأدهم : الأسود ، يريد الليل . جبت : قطعت . وجلباب الليل : ظلامه . واجتابت : لبست . والكاعب : الفتاة التى نهد ثدياها . والخيعل : ثوب تلبسه المرأة كالقميص ، أو هو قميص بلا كمين . يصور كيف شق ظلمات الليل التى تلف الصحراء بثيابها السود .

(٦) حدا : ساق . والضمير فى « أثناءه » يعود على الليل ، وأثناء الليل : طبقات ظلماته المتكاثفة بعضها فوق بعض . والأليل : الشديد السواد . يصف ظهور الصباح ، وكيف أخذ يسوق ظلام الليل أمامه ، ويمزق ثيابه السود التى توشح الصحراء .

(٧) الشيم : النظر من بعيد . وتنورتها : أبصرتها . يقول إنه رأى نارا تراءت له من بعيد ، فبات يتربص بأهلها ليأخذهم على غرة حين تسنح له الفرصة .

٨ فأصبحتُ والغـولُ لى جارةٌ فيا جَارتَا أنتِ ما أهْـوَلا !
٩ وطالبتُها بُضْعَها فالتـوتْ بوجهٍ تَغَـوَّلَ فاسْـتَغْوَلا
١٠ فقلت لها : يا انظُرى كى تَرَىْ فولَّتْ فكنتُ لهـا أَغْـوَلا
١١ فطـار بِقِحْفِ ابنـةِ الجنِّ ذو سَـفَاسِقَ قـد أَخْلَقَ المِحْمَـلا
١٢ إذا كلَّ أمهيتُـهُ بالصَّفَـا فَحَـدَّ ، ولم أرهِ صَـيْقَلا
١٣ عَظَايَةُ قَفْـرٍ لهـا حُلَّتَا نِ مِنْ ورق الطَّلح لم تُغـزَلَا

---

(٨) فى رواية أخرى :

فأصبحت الغول لى جارة فيا جارتا لك ما أهـولا

وفى رواية غيرها « ما أغولا » .

(٩) البضع : الجماع . وقوله « بوجه تغول فاستغولا » يريد به أنه تشكل أشكالا قبيحة مخيفة . وفى رواية أخرى « ... فالتوت على وحاولت أن أفعلا » .

(١٠) يا انظرى : نداء والمنادى محذوف تقديره « يا هـذه » ، ومثل هذا الأسلوب شائع فى الشعر العربى القديم . وكنت لها أغولا : أى أنه كان أشد وحشية منها . يذكر فى هذا البيت أنه أفلح فى خداعها ، فأدارت وجهها ومضت ، فانقض عليها فى وحشية أشد من وحشيتها .

(١١) القحف : العظـم الذى فوق الدماغ . وذو سـفاسق : يريد السيف ، والسفاسق : طرائقه التى تظهر عليـه لشدة صقله . وأخلق : أبلى . والمحمل : علاقة السيف . يذكر هنا أنه قتلها بضربة من سيفه المصقول الذى لا يفارقه فوق رأسها فطار به .

(١٢) أمهى السيف : أحده . والصفا : الصخر . والصيقل : من يصقل السيوف ويحـدها . يقول فى واقعية صريحة إنه يحد سيفه إذا كل على الصخور ولا يدفع به إلى صيقل ليحده له .

(١٣) العظاية : دويبة من فصـيلة الزواحف كسام أبرص تعيش فى الصحراء . والطلـح : شجر عظام من شجر البـادية . صورة غريبة يرسمها تأبط شرا للغول تتراءى معها كأنها حيـوان أسطورى من عصور ما قبل التـاريخ .

١٤ فمَنْ سَالَ : أين ثوتْ جارتى ؟ فإنَّ لهـا باللِّـــوى منزلا

١٥ وكنتُ إذا ما هَمَمْتُ اعترمتُ وأَحْرِ إذا قلتُ أنْ أفعــلا

* * *

(١٤) اللوى : ما التوى من كثبان الرمال . يذكر أنه قتل الغول وجعل من الرمال قبرا لها . وفى رواية أخرى « فمن كان يسأل عن جارتى » .

(١٥) اعترمت : صممت . وفى رواية أخرى « فعلت » بدلا من « اعترمت » .

* * *

يوسف خليف

عَصْرُ ذِي قَارٍ

دُرَيْد بن الصِّمَّة

* * *

هو دريد بن الصمة — واسم الصمة معاوية — بن الحارث بن معاوية بن بكر ابن علقمة بن جداعة بن غَزِيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن . وأمه ريحانة بنت معدى كرب ، أخت عمرو بن معدى كرب .

ودريد شاعر فحل من شعراء الجاهلية ، فضّله الأصمعى على النابغة الذبيانى فى بعض شعره ، وجعله ابن سلام أول الشعراء الفرسان ، فهو أحد الشجعان المشهورين وذوى الرأى فى الجاهلية . وكان سيد بنى جُشَم وفارسهم وقائدهم . وكان مظفرا فى حروبه ، ويقال إنه غزا نحو مائة غزوة لم يخفق فى واحدة منها . وأدرك الاسلام ولم يسلم . قال خاله عمرو بن معدى كرب — وهو فارس من فرسان الجاهلية والإسلام — « لوطفت بظعينة أحياء العرب ما خفت عليها ، ما لم ألق عبديها وحُرَّيها » ، يعنى بالعبدين : عنترة بن شداد والسُّلَيك بن السُّلَكة وهو من الصعاليك ، وبالحرين : دريد بن الصمة وربيعة بن مُكَدَّم .

ودريد أحد المعمرين من الرجال والشعراء حتى لقد بالغ بعض الرواة فوصل بعمره إلى مائتين من السنين .

والقصيدة المختارة يرثى فيها دريد أخاه عبد الله بن الصمة . وذلك أنه كان قد خرج هو وأخوه فأغارا على غطفان ، فأصابا إبلا عظيمة فاستاقاها ، فلما كانا ببعض الطريق نزل عبد الله بن الصمة ليستريح ويقسم المال بين أصحابه ، فنهاه

دريد خشية المتابعة . فبينا هما كذلك إذ رأيا غبرة ، وإذا فرسان قبيلة فزارة تتبعهما ، وقُتِل عبد الله بمكان يقال له اللوى وجُرح دريد .

وقد بدأ مرثيته لأخيه بنسيب يلائم الرثاء وهو خُلْف الحبيبة وفراقها له ، ثم أعرب عن فداحة رزئه ، وذكر ما كان من نصيحته وإنذاره قومه بأعدائهم وعصيانهم أمره ، ثم تناول مقتل أخيه ووله لذلك ، ووصف أخاه بالشجاعة والجود والمضاء والصبر وحزم الشيوخ ، وذكر أن مما هوّن وجده عليه أن دريدا كان لا يكذب له أمرا ولا يَضِنّ عليه بما يملك . ثم صور مصرع أخيه وجزعه عند ذلك ، وذكر أنه لم يتركه دون أن يناضل عنه أصدق نضال . ثم فخر بشجاعة نفسه ، ونعت فرسه فى بيتين أوجز فيهما وجمع كثيرا .

* * *

رثاءُ بَطَلٍ

* * *

١ أرثَّ جديدُ الحَبْلِ من أُمِّ معبدِ ... بعاقبةٍ وأَخْلَفَتْ كلَّ مَوْعِدِ

٢ وبانتْ ولم أُحْمِدْ إليكَ جِوَارَهَا ... ولم تَرْجُ فينا ردَّةَ اليومِ أوْغَدِ

٣ أَعاذِلَ إنّ الرُّزْءَ فى مثلِ خالدٍ ... ولا رُزْءَ فيما أَهْلَكَ المرءُ عَنْ يَدِ

(١) أرث : أخلق وبلى . بعاقبة : بآخرة .

(٢) بانت : فارقت . الردة : الرجوع . وفى الأغانى : أن أم معبد التى ذكرها دريد فى شعره كانت امرأته ، وحين رأته شديد الجزع على أخيه عاتبته فى ذلك وصغرت شأن أخيه وسبته فطلقها .

(٣) خالد : هو إما أخوه خالد بن الصمة الذى قتله بنو الحرث بن الحرث بن كعب ، وإما عمه خالد بن الحرث الذى قتله بنو أحمس وهم بطن من شنوءة . يقول : أن الرزء إنما هو فى فقد الرجال وليس فى إهلاك المال .

٤ وقلتُ لعرّاضٍ وأصحابِ عارضٍ ورَهْطِ بنى السّوداءِ والقومُ شُهّدى
٥ عَلانيــةً : ظُنّوا بألْفَىْ مُـدَجَّجٍ سراتُهــمُ فى الفــارسىِّ المُسَرَّدِ
٦ أمرتُهــمُ أمْرى بمنعرجِ اللّــوى فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَــدِ
٧ فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهــم وأنّنى غــيرُ مُهتَــدِ
٨ وما أنا إلّا من غَزِيّةَ إن غَــوَتْ غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزِيّةُ أَرْشُدِ
٩ وإنْ تُعْقِب الأيامُ والدّهرُ تَعلَموا بنى قاربٍ أنّا غِضَــابٌ بمَعْبَــدِ
١٠ تنادَوْا فقالوا أَرْدَتْ الخيلُ فارسًا فقلتُ أَعَبْــدُ الله ذلــكُمُ الرَّدِى ؟
١١ وإن يكُ عبــدُ الله خَلّى مكانَهُ فمــا كان وقّافًا ولا طائشَ اليَــدِ

---

(٤) عراض : قوم من بنى جشم كان دريد قد نهاهم عن النزول حيث نزلوا فعصوه . ورهط بنى السوداء منهم . شهدى : شهودى .

(٥) علانيــة : أى قلت لهم علانيــة . ظنوا : أيقنوا . أو معناه : ما ظنكم بألفى مدجج . المدجج : التام السلاح . سراتهم : أشرافهم ورؤساؤهم . الفارسى : الدرع الذى يصنع فى فارس . المسرد : المحكم النسج أو دقيق الثقب .

(٦) منعرج اللوى : موضع كانت به الوقعة التى قتل فيها أخوه عبد الله بن الصمة .

(٧) يقول : إنهم رغم عصيانهم لأمره فقد وافقهم على رأيهم حتى لا يكون بينهم خلاف مع علمه بأن رأيه هو الأصوب . وقد جعل أبو هــلال العسكرى فى ديوان المعانى هذا البيت « أبلغ ما قيل فى مساعدة الرجل أخاه وأجوده » .

(٨) غزية (بفتح الغين وكسر الزاى) أحد أجداد دريد بن الصمة « غزية بن جشم » .

(٩) تعقب الأيام : تمر وتأتى أعقابها . ومعبد هنا : يقصد به أخاه عبد الله .

(١٠) الردى : الهــالك ، من الردى وهو الهلاك .

(١١) خلى مكانه : يقصد أنه مات . الوقاف : المحجم عن القتال .

١٢ ولا بَرَمًا إذا الرياح تناوحت … بِرَطْبِ العِضَاهِ والضَّرِيعِ المُعَضَّدِ
١٣ كَمِيشُ الإِزَارِ خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ … صَبُورٍ على العزّاءِ طلّاعُ أَنْجُدِ
١٤ رئيسُ حروبٍ لا يزالُ رَبِيئَةً … مُشِيحًا على مُحْقَوْقِفِ الصُّلْبِ مُلْبِدِ
١٥ صبورٌ على رُزْءِ المصائبِ حافظٌ … من اليوم أدبارَ الأحاديثِ في غد
١٦ صَبَا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسَه … فلما علاه قال للباطل : ابعُدِ
١٧ وهَوَّنَ وجدي أنني لم أقُلْ له … كذبتَ ، ولم أَبْخَلْ بما ملكت يدي
١٨ وكنتُ كأنِّي واثقٌ بمُصَدَّرٍ … يُمَشِّي بأَكْنَافِ الحبيبِ فَمَخْتِدِ

---

(١٢) البرم : بفتح الراء : الذي لا يدخل مع القوم في الميسر . تناوحت : تقابلت في المهب وذلك إذا اشتد هبوبها . العضاه : ماعظم من شجر الشوك وطال وامتد شوكه ، الواحدة عضاهة . الضريع : نبت بالحجاز له شوك كبار . المعضد : يقال « عضد الشجرة » إذا نثر ورقها لإبله ، أو قطع فروعها بالمعضد .

(١٣) الكميش : الماضي العزم في اتخاذ قراراته ، وأضاف السرعة إلى الإزار على المجاز . وفي اللسان « رجل كميش الازار : مشمره » . العزاء : الشدة . طلاع أنجد : ركاب لصعاب الأمور .

(١٤) الربيئة : الطليعة ، وهو الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل . المشيح : الجاد . المحقوقف : المعوج . الملبد : الفرس شد عليه لبد السرج .

(١٥) رواية الحماسة والأغاني لصدر البيت « قليل التشكي للمصيبات حافظ » والمعنى : أنه لا يتألم للنوائب تنزل بساحته ، وأنه يحفظ من يومه ما يتعقب أفعاله من أحاديث الناس في غده .

(١٦) صبا : من الصبوة وهي الفتوة واللهو .

(١٧) ليس القصد أنه لم يقل له كذبت فقط ، وإنما المراد أنه لم يجفه أدنى جفاء .

(١٨) المصدر : السابق من الخيل . الأكناف : النواحي . الحبيب وفي رواية الجبيب تصغير « جب » موضع . مختد : موضع .

١٩ غـــداةَ دعانى والرماحُ يَنُشْنَهُ ... كوقعِ الصَّياصِى فى النَّسيجِ المُمَدَّدِ
٢٠ وكنتُ كذاتِ البَوِّ رِيعتْ فأقبلَتْ ... إلى جِذَمٍ من مَسْكِ سَقْبٍ مُجَلَّدِ
٢١ فطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تبدَّدَتْ ... وحتى علانى حالكُ اللَّونِ أسْوَدُ
٢٢ طِعَـانَ امرئٍ آسى أخاه بنفسه ... وأَعلَمُ أنَّ المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ
٢٣ وهَـوَّنَ وجدى أنما هو فَارِطٌ ... أمامى ، وأنِّى واردُ اليومَ أوْ غَدِ
٢٤ وغارةِ بين اليومِ والليـلِ فَلْتَةٍ ... تداركتُها رَكْضًا بِسِيدٍ عَمَرَّدِ
٢٥ سَليمِ الشَّظَا عَبْلِ الشَّوَى شَنِجِ النَّسَا ... طويلِ القَرَا نَهْدٍ أَسيلِ المُقَلَّدِ

(١٩) ينشنه : يتناولنه . الصياصى : جمع « صيصية » بكسر الصادين وفتح الياء الثانية مخففة وهى شوكة الحائك التى يسوى بها السداة واللحمة . يريد أن أخاه دعاه والرماح تتناوله ولها خشخشة ووقع كوقع صياصى الحائك فى ثوب أو نسيج .

(٢٠) البو : ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبنا لتعطف عليه أمه وترأمه فتدر اللبن ولا ينقطع . ريعت : فزعت . الجذم ، بكسر الجيم وفتح الذال : جمع جذمة بسكون الذال وهى القطعة . المسك : بفتح الميم : الجلد . السقب : ولد الناقة . المجلد : المسلوخ .

(٢١) أسود ، بضم الدال : إقواء . ويقصد بحالك اللون غبار المعركة .

(٢٣) الفارط : المتقدم السابق .

(٢٤) اليوم : النهار فقط . فلتة : كان العرب فى الجاهلية ساعة يقال لها الفلتة يغيرون فيها . وهى آخر ساعة من آخر يوم من أيام جمادى الآخرة ، يغيرون تلك الساعة وإن كان هلال رجب قد طلع تلك الساعة من آخر جمادى الآخرة ما لم تغب الشمس . السيد : الذئب . العمرد : الطويل . شبه فرسه بالذئب .

(٢٥) الشظا : أحد عظام الذراع . عبل الشوى : غليظ القوائم . النسا : قال الأصمعى « عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر » . الشنج : المتقبض ، وهو مدح له لأنه إذا تقبض نساه لم تسترخ رجلاه . القرا : الظهر . النهد : الجسيم المشرف . الأسيل : الطويل الأملس المستوى . المقلد : موضع القلادة .

٢٦ ويخرجُ منه صَرَّةُ القَوْمِ مَصْدَقًا وطُولُ السُّرى دُرِّيُّ عَضْبٍ مُهَنَّدِ

* * *

(٢٦) صرة القوم : ضجتهم وصراخهم . المصدق بفتح الميم والدال : مصدر ميمى ، أى صدق الجرى . والمصدق أيضا الجد والصلابة . يعنى : أنه إذا صاح به القوم ظهر منه الجد فى الجرى لإغاثتهم . السرى : السير بالليل . العضب : السيف القاطع . ودرّيه : تلألؤه وإشراقه كأنه منسوب إلى الدر لصفائه ونقائه .

* * *

سيد حنفى

سَـاعِدة بن جُـؤَيَّة

* * *

ساعدة بن جؤية أحد شـعراء قبيلة هذيل ، ويعـد مع أبى ذؤيب الهذلى — وهو شاعر مخضرم — من أشعر شعراء هذه القبيلة ، وكان أبو ذؤيب راوية لساعدة . وهو يتحدث فى هذا الجزء من القصيدة عن صيد الوعول والبقر الوحشىّ بعد أن يبدأها بالشكوى من الشيب والهرم والضعف الذى يعترى كبار السن .

* * *

تأمُّلات فى الشيبِ والموتِ

١ ياليت شعرى ألا مَنْجَى من الهَرَمِ ... أَم هل على العيش بعد الشَّيْب من نَدَمِ ؟

٢ والشَّيْبُ داء نَجِيسٌ لا دواءَ له ... للمرء كان صحيحا صـائبَ القُحَـمِ

٣ وَسْنَانُ ليس بِقَـاضٍ نَوْمَةً أَبدًا ... لولا غداةُ يسيرُ النـاسُ لم يَقُـمِ

٤ فى مَنْكِبَيْهِ وفى الأَصْلاب واهنةٌ ... وفى مفاصله غَمْزٌ من العَسَمِ

٥ إن تأْته فى نَهَـار الصَّيْف لا تَرَهُ ... إلَّا يُجَمِّـعُ ما يَصْلَى من الجُحَـمِ

٦ حتى يُقالَ وراء البيت مُنْتَبِذًا : ... قُمْ لا أبَا لكَ سار الناسُ فَاحْتَزِمِ

---

(٢) النجيس والناجس : هو الذى لايكاد يبرأ منه من الأدواء . صائب القحم : أى أنه إذا اقتحم فى أمر أصاب وقصد فى اقتحامه .

(٣) يقول : لا تراه أبدا إلا كأنه وسنان مسترخ كأنه نائم من الضعف وليس بنائم .

(٤) العسم : اليبس ، يريد أن مفاصله قد يبست . والواهنة : الوجع .

(٥) ما يصلى : ما يصطلى به فى الشتاء . الجحم : جمع جحمة ، وهى حر النار .

(٦) المعنى : حتى يقـال له وهو وراء البيت والدار يحدث نفسـه : قم فقد سار الحى فاحتزم : أى شد وسطك .

٧ فقـام تُرْعَـدُ كَفّـاهُ بِمِحْجَنِـهِ قد عاد رَهْباً رَذِياً طائشَ القَدَمِ

* * *

٨ تا لله يبـقى على الأيام ذو حِيَـدٍ أَدْفَى صَلُودٌ من الأَوعالِ ذو خَدَمِ

٩ يأوى إلى مُشْمَخِرّاتٍ مُصَعَّدَةٍ شُمٍّ بِهِنَّ فروعُ القانِ والنَّشَمِ

١٠ من فوقـه شَعَفٌ قَـرٌّ وأَسْـفَلُهُ جِيٌّ تَنَطَّقَ بالظَّيّـانِ والعَـتَمِ

١١ مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَنْظُرُهَا من المغاربِ مَخْطُوفُ الحَشَا زَرِمُ

١٢ حـتى أُتيـح له رامٍ بمُحْـدَلَةٍ جَشْءٍ وبِيضٍ نواحيهنَّ كالسَّجَمِ

١٣ فَظَـلَّ يرقُبُـه حـتى إذا دَمَسَتْ ذاتُ العِشاءِ بأَسْدافٍ من الغَسَمِ

---

(٧) أى قام بمحجنه الذى يتوكأ عليه وكفاه ترتعـدان . الرهب : الرقيق والضعيف . الرذى : المعيى المطروح .

(٨) الحيد فى القرن ، وقرن ذو حيـد أى ذو أنابيب ملتوية . الأدفى : الذى فى قرنه دفى وهو الحدب وهو الذى تحنّى قرناه إلى ظهره . الصلود : الذى يصلد برجله أى يضرب بها على الصخرة فتسمع لها صوتا . ذو خدم : أى أعصم ، والأعصم من الوعول ما فى يديه بياض أو فى إحداهما .

(٩) مشمخرات : مرتفعات . القان والنشم : شجرتان تتخذ منهما القسى العربية .

(١٠) شعف الجبال : رؤوسها . قر : بارد . جى : جمع جية وهى مناقع الماء . الظيان والعتم : شجرتان .

(١١) الشدوف : الشخوص . الصوم : شجر على شكل الإنسان . يرقبه : يخشى أن يكون ناسا . مخطوف الحشا : فزع . المغارب : كل مكان يتوارى فيه . الزرم : يقال أزرمه : إذا قطع عليه البول أو الحاجة قبـل أن يتمـه ، أو هو الذى لا يثبت فى مكان . وقوله موكل : كأنه وكل بها يفرق أن تكون ناسا . وفى البيت إقواء .

(١٢) المحـدلة : القوس . الجشء : القضيب الخفيف . البيض : السهام . السجم : شجر له ورق مثل ورق الزيتون ، يريد أن نصال السهام تشبه هذا الورق .

(١٣) دمست : التبست . وذات العشاء : أى ساعة العشاء . أسداف : جمع سدف (بفتحتين وهو الظلمة . الغسم : اختلاط الظلمة بالضوء .

١٤ ثم ينُوشُ إذا آد النهارُ لَهُ بعد التَّرقُّبِ مِنْ نِيمٍ ومن كَتَمِ
١٥ دلَّى يَدَيْهِ له سَيْرًا فَألْزَمَهُ نَفَّاحةً غَيْرَ إنْباءٍ ولا شَرَمِ
١٦ فَرَاغَ منه بجَنْبِ الرَّيْدِ ثُمَّ كَبَا على نَضِيٍّ خلالَ الصَّدْرِ مُنْحَطِمِ

* * *

١٧ ولا صُوَارٌ مُذَرَّاةٌ مناسِجُها مثلُ الفَرِيدِ الذي يجرى من النُّظُمِ
١٨ ظَلَّتْ صَوَافِنَ بالأَرْزَانِ صادِيَةً فى مَاحِقٍ من نهار الصَّيفِ مُحْتَدِمِ
١٩ قد أُوبِيَتْ كُلَّ ماءٍ فهى طاوِيَةٌ مهما تُصِبْ أُفُقًا من بَارِقٍ تَشِمِ
٢٠ حتى شَآها كَلِيلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ بَاتَتْ طِرابًا وبات الليلَ لم يَنَمِ
٢١ كأن ما يَتَجلَّى عن غَوَارِبِه بعد الهُدوءِ تَمَشِّى النارِ فى الضَّرَمِ

(١٤) ينوش : يتناول . آد النهار : مال للزوال . النيم والكتم : شجرتان .

(١٥) دلى يديه : رماه بسهامه . نفاحة : تنفح بالدم . غير إنباء : يقول : لم ينب سهمه حين رماه . ولا شرم : أى لم يشرم ، أى لم يصب جلده فيشقه ولكنه نفذ حتى خرج من الشق الآخر .

(١٦) يقول : راغ منه بناحية ريد الجبل روغة ثم عثر والسهم فيه . النضى : سهم بغير ريش . خلال الصدر : أى دخل بين أطباق الضلوع .

(١٧) الصوار : قطيع البقر . ومنسج الدابة ما بين مغرز العنق إلى منقطع الحارك فى الصلب . يقول كأن مناسجها ذريت بالمذرى أى ضربتها الريح كما يذرى الشعير بالمذارى . مثل الفريد : أى كأنها فريد من فضة فى بياضها . النظم : جمع نظام وهو الخيط الذى ينظم فيه العقد .

(١٨) الصوافن : القائمة على ثلاث قوائم ثانية سنبك يدها الرابعة . الأرزان : الأمكنة الصلبة ، واحدها رزن . الصادى : الذابل .

(١٩) أوبيت كل ماء : منعت كل ماء . طاوية : ضامرة . تشم : تقدر أين موقعه .

(٢٠) شآها : شاقها فاشتاقت . كليل : برق ضعيف . موهنا : بعد وهن من الليل . باتت طرابا : يقصد البقر . بات الليل لم ينم : أى بات البرق يبرق ليلته .

(٢١) يتجلى : يظهر . عن غواربه : أى عن أعاليه ويقصد السحاب . الضرم : ما دق من الحطب ليس بالجزل ولا بالغليظ .

٢٢ حيرانُ يركَبُ أعلاه أسافِلَهُ ... يُخفِى جديدَ ترابِ الأرض منهزِمُ
٢٣ فأسْأدتْ دَلجًا تُحيِي لموقعِهِ ... لم تنْتَشِبْ بوُعُوثِ الأرضِ والظُّلَمَ
٢٤ حتى إذا ما تجلّى ليلُها فزِعَتْ ... من فارسٍ وحليفِ الغَرْبِ ملتَئِمِ
٢٥ فافتنَّها فى فضاءِ الأرض يأفِرُها ... وأصحرتْ عن قِفافٍ ذاتِ معتَصَمِ
٢٦ أنحى عليها شُراعيًّا فغادرها ... لدى المَزاحِفِ تَلًّا فى نُضُوحِ دَمِ
٢٧ فكان حَتْفًا بمقدارٍ وأدركها ... طولُ النهار وليلٌ غير منصَرِمِ
٢٨ هل اقتنَى حَدثانُ الدهرِ من أنَسٍ ... كانوا بمَعْيَطَ لا وَخْشٍ ولا قَزَمِ
٢٩ كيدًا وجمعًا بآناسٍ كأنهمُ ... أفنادُ كبكبَ ذاتِ الشَّثِّ والخَزَمِ

(٢٢) يقول : هذا السحاب حيران لا يأخذ جهة واحدة . منهزم : متفجر بالمياه .

(٢٣) الإسئاد : سير الليل . الدلج : الليل كله . تحيي لموقعه : أحيت ليلتها لتبلغ ذلك المطر . لم تنتشب : لم تحتبس ولم يتعبها الوعث والظلمة .

(٢٤) الغرب : غرب كل شيء حده . والحليف : السنان أى الحديد . ملتئم : مشتبه غير مختلف ، وهو من صفة قناة الرمح . وقوله : حليف الغرب : أى حديد الحد .

(٢٥) افتنها : اشتق بها . يأفرها : يتزو بها نزوا . القفاف : غلظ فى الأرض لا تجرى فيه الخيل . يقول : فلما أصحرت عن القفاف أدركتها الخيل .

(٢٦) أنحى عليها : حمل عليها . شراعيا : رمحا طويلا . تلى : تركه تليلا أى صريعا . وقوله لدى المزاحف : أى عند المزاحف .

(٢٧) فكان حتفا بمقدار : أى فكان ما أصابها بمقدار .

(٢٨) « هل اقتنى حدثان الدهر من أنس » جواب مطلع القصيدة : « ياليت شعرى ألا منجى من الهرم » ، أى هل اقتنى الموت أحدا . يقول : لو كان الزمان مقتنيا أحدا أبقى هذا الوحش . معيط : موضع ببلاد هذيل . الوخش : الأنذال . القزم : اللئام .

(٢٩) آناس : جمع أنس وهم الكثير . الفند (بكسر فسكون) : الأنف من الجبل . كبكب : جبل . يقول لو كانت لهم كتائب وجيوش كأنها أفناد جبل لأدركهم الموت . الشث : شجر طيب الريح مر الطعم يدبغ به . والخزم : شجر يؤخذ قشره فتفتل منه الحبال .

* * *

سيد حنفى

عبدُ يَغُوث بن وَقّاص الحَارثىّ

* * *

هو ربيعة بن كعب الأرتّ بن ربيعة بن كعب بن الحارث من شعراء الجاهلية وفرسانها ، كان سيدا فى قومه بنى الحـارث بن كعب ، وكان قائدهم فى يوم الكُلَاب الثانى إلى بنى تميم ، وفى ذلك اليوم أُسِر ثم قتِل .

من أهل بيت عريق فى الشعر فى الجاهلية والإسلام منهم الْجِلاج الحارثى وهو طُفَيل بن يزيد بن عبد يغوث ومُسْهِر بن يزيد بن عبد يغوث وهو فارس شاعر ، وهو الذى طعن عامر بن الطفيل فأذهب عينه يوم « فَيْف الرِّيح » ، ومنهم ممن أدرك الاسلام جعفر بن عُلْبَة بن ربيعة بن الحارث وكان فارسا شاعرا صعلوكا ، أُخِذ فى دم ، فحبس بالمدينة ، ثم قُتِلَ صبرا .

وخلاصة ما فصّـله صاحب الأغانى(١) فى روايتـه أن هذه القصيدة من شـعر عبد يغوث قـد قيلت فى يوم الكلاب الثانى وهو اليوم الذى جمع فيه قومه وغزا بنى تميم ، فظفرت به بنو تميم وأسروه وقتل يومئذ .

وقصيدته اليائيـة التى نحن بصددها تُعَـدُّ فريدة فى موضوعها وإن كانت ظروفها قـد هيئت لكثير من الجاهليين ، ولكن يبدو أن هـذا الشاعر كان

---

(١) يراجع نسب الشاعر ومنزلته فى قومه وشاعريته وشعره فى يوم الكلاب وحديث يوم الكلاب فى كتاب الأغانى ، الجزء السادس عشر ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

أكثرهم حساسيةً برزت فى قدرته على اختيار شريحة من تلك الظروف ليسيطر عليها ويصورها تفصيلا على هذا النحو .

وقع عبد يغوث أسيرا وكان قائدًا لقومه مذحج ، وأراد أن يفدى نفسه فأبت بنو تميم إلا أن تقتله بالنعمان بن جساس ، ولم يكن عبد يغوث قاتله ، ولكن تميا قالت : قُتِل فارسنا ولم يُقْتَل لكم فارس مشهور . وكانوا قد شدُّوا لسانه حتى لا يستطيع أن يهجوهم ؛ فلما يئس من الفرار من القتل طلب إليهم أن يطلقوا لسانه ليذم أصحابه وينوح على نفسه ، وأن يقتلوه قتلة كريمة ، فأجابوه ، وسقوه الخمر ، وقطعوه له عرقا يقال له الأكحل ، وتركوه ينزف حتى مات .

وعلى هذا نظم قصيدته فى تلك التجربة القاسية التى عاشها بما فيها من مرارة ، وقد أنشدها حين جُهِّز للقتل ، فبدأها رافضًا لوم صاحبيه ، وناهيا إياهما عن هذا اللوم الذى لا ينفعه شيئا ، وهو يأسى من تصور انقطاع أمله فى لقاء أصحابه ، فيبلغهم استحالة هذا اللقاء ، حتى إذا ما تذكر قومه بدا هاجيًا لهم ، يلومهم على هزيمتهم ومسجلا موقفه بينهم ، فلو أراد النجاة لنفسه لفرّ هاربا ، ولكنه ظل ثابتا قويا حريصا على أن يحمى ذماره . ومن تسجيل حقيقة موقفه إلى عرض واقعه الأليم راح الشاعر يحكى فى قصة حزينة ما حدث له من الأسر وشدّ لسانه وما لقيه من سخرية نساء تميم منه . وهو لا يكاد يستسلم لآلامه ، فقد آثر أن يمزجها بشىء من مفاخره ركّز فيها على عرض شجاعته وكرمه وبراعته فى القتال ، وشهامته فى مواقف الجد ، ولكنه فخرٌ يشوبه حزنه وألمه خاصة حين يتذكر ما كان له من لذّة فى ماضيه القريب .

(تراجع القصيدة فى الأغانى ج ١٦ ص ٣٢٣ ، وفى ديوان المفضليات تحت رقم ٣٠ بتحقيق الأستاذين : عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر) .

* * *

عبد الله التطاوى

تجـربةٌ قاسـيةٌ

* * *

١ أَلَا لا تَلُومَانِى كَفَى اللَّوْمَ مَا بِيَا ... وما لَكُمَا فى اللَّوْمِ خَيْرٌ ولَا لِيَـا

٢ أَلَمْ تَعْلَمَا أنَّ المَلَامَـةَ نَفْعُها ... قليلٌ وما لَوْمِى أَخِى مِنْ شِمَـالِيا

٣ فيارَاكِبـاً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدامَاىَ من نَجْـرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

٤ أَبَا كَرِبٍ والأَيْهَمَـيْنِ كِلَيْهِمَـا ... وقيساً بأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ اليَمَـانِيَا

٥ جَزَى اللهُ قومى بالكُلَابِ مَلَامَةً ... صَرِيحَهُـمُ والآخَرِينَ المَوَالِيَـا

٦ ولو شِئْتُ نَجَّتْنِى من الخَيْلِ نَهْدَةٌ ... تَرَى خَلْفَهَـا الحُوَّ الجِيَادَ تَوَالِيَا

٧ ولكنَّـنِى أَحْمِى ذِمَارَ أَبِيـكُمُ ... وكانَ الرِّمَاحُ يَخْتَطِفْنَ المُحَامِيَا

٨ أقولُ وقَدْ شَدُّوا لِسَانِى بِنِسْعَةٍ : ... أَمَعْشَرَ تَـيْمٍ أَطْلِقُوا عن لِسَانِيَـا

---

(٢) الشمال جمعها شمائل ، والشمال : الخلق .

(٣) عرض : أتى العروض وهو موضع يقال أنه مكة والمدينة وما حولهما ، وعرضت : أى أتيت العروض أو مررت بها .

(٤) أبو كرب : هو بشر بن علقمة بن الحارث . الأيهمان : هما الأسود بن علقمة بن الحارث والعاقب وهو عبد المسيح بن الأبيض .

(٥) الكلاب : يوم الكلاب الثانى ، كلاب أهل اليمن وتميم ، وفيه أسر عبد يغوث .
صريحهم : الصريح الخالص النسب . الموالى : الحلفاء .

(٦) النهدة : المرتفعة . الحوة : الخضرة ، والأحوى : المائل إلى الاخضرار .

(٧) الذمار : الحمى الذى تجب على الانسان حمايته .

(٨) النسعة : سير منسوج من الجلد وقد شد به لسانه حقيقة .

٩ أمعشرَ تيمٍ قد ملكتم فاسجحوا   فإنّ أخاكم لم يكنْ من بوائيا
١٠ فإنْ تقتلوني تقتلوا بيَ سيِّدًا   وإن تُطلقوني تحربوني بماليا
١١ أحقًّا عبادَ الله أن لستُ سامعًا   نَشيدَ الرِّعاء المعْزِبينَ المتاليا
١٢ وتضحكُ منّي شيخةٌ عبشميّةٌ   كأنْ لم ترى قبلي أسيرًا يمانيا
١٣ وظلَّ نساءُ الحيِّ حولي رُكَّدًا   يراودْنَ منّي ما تُريدُ نِسائيا
١٤ وقد علمتْ عِرسي مُليكةُ أنني   أنا اللّيثُ معْدُوًّا عليَّ وعاديا
١٥ وقد كُنتُ نحّارَ الجَزورِ ومُعمِلَ الـ   ـمطيِّ وأمضي حيثُ لا حيَّ ماضيا
١٦ وأنحرُ للشَّرْبِ الكِرامِ مطيَّتي   وأصدعُ بين القينتين ردائيا
١٧ وكنتُ إذا ما الخيلُ شمَّصها القنا   لَبيقًا بتصريفِ القناةِ بنانيا
١٨ وعاديةٍ سومَ الجرادِ وزعتُها   بكفّي وقد أنحوا إليَّ العواليا
١٩ كأنّيَ لم أركبْ جوادًا ولم أقلْ   لخيليَ كُرّي نفِّسي عن رِجاليا
٢٠ ولمْ أسبأ الزِّقَّ الرَّويَّ ولم أقلْ   لأيسارِ صِدقٍ: أعظِمُوا ضوءَ ناريا

(٩) اسجحوا : سهلوا لى الأمر . أخاكم : يقصد النعمان بن جساس . البواء : القتل والثأر ، والبواء : السواء أو النظير .

(١٠) تحربوني : تسلبوني وتغلبوني ، وتتركوني بلا عدة ولا نصير .

(١١) المعزب : الذي يتنحى بإبله . المتالى : التي تتبعها أولادها ، المفرد متلية .

(١٢) عبشمية : نسبة إلى « عبد شمس » إذ يقال في النسبة إليها « عبشمى » .

(١٦) الشرب : جمع شارب . يصدع : يشق . القينة : المغنية خاصة من الإماء .

(١٧) شمصها : نفرها . اللبق : الحذق والرفق . نفس : توسع .

(١٨) العادية : القوم يركضون . سوم الجراد : انتشاره في المرعى ، الرعاء : الرعاة . أنحوا الرماح : أمالوها وقصدوا بها . العالية من الرمح : أعلاه . وزعتها : كففتها ومنعتها . أنحوا إلى : وجهوا إلىّ .

(٢٠) يسبأ الزق : يشتريه للشرب لا للبيع . السباء : شراء الخمر . الروى : الممتلىء . الأيسار : الذين يضربون القداح (مفردها ياسر) .

* * *

عبد الله التطاوى

الحارثُ بنُ وَعْلَةَ الجَرْمِيُّ

* * *

الحارث وأبوه وعلة شاعران قحطانيان قضاعيان ، من بني جرم بن ربّان ابن عمران بن قضاعة . وهما جاهليان ، وإذا صح أن يوم يوم الكُلاب الثاني قد وقع بعد الإسلام ترتب على ذلك إدراك الحارث وأبيه الإسلام فكانا مخضرَمْين .

والقصيدة التي نحن بصددها جاهلية في نمطها ومحتواها ، وقد قيل إنها لوعلة ابن عبد الله بن الحارث في يوم الكُلاب الثاني ، وقد حضره فنجا على رجليه شدًّا وقد عقِرَ به ، وقيل أيضا أنها لعابس بن الحصين أحد بني قدامة بن جرم . والصحيح نسبتها للحارث بن وعلة الجرمي عند أكثر الرواة .

وهي قصيدة تبدو فيها من ملامح الغرابة ما يفتخر به الشاعر من هروب قومه ، ونجاتهم من المعركة ، على غير عادة شعراء العصر الجاهلي ، وهي ترد بلا مقدمات إلا ما يشير إلى سرعة عدوه ، وما يتناسب معه بعد هذا من ذكر المواضع ، والاستطراد في الصور التي تلائم سرعته كما صنع في صورة العقاب .

وفيها أيضا يبدو حرص الشاعر على ذكر أسماء القبائل ، وأكثر ما يكون تركيزه على سرعة جريه وهربه مخافة الأسر أو أن يقع فريسة في يد أعدائه . وهو يسجل حرصه على صلات ذوي القربى ويظهر فيها فارساً بطلاً على الرغم من فراره الذي أشار إليه في الأبيات الثلاثة الأولى . كما أشار الى نداء قيس آل مقاعس في البيتين السادس والسابع ، ومقاعس هو الحارث بن كعب بن سعد ، وقد سمع الصوت وعلة الجرمي وكان صاحب لواء أهل اليمن يومئذ ، فطرحه ، وكان أول منهزم

من قومه ، وحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم ، ولما أكثرت تميم القتل فى أهل اليمن أمرهم قيس بن عاصم بالكف عن القتل ، وأن يحزُّوا عراقيبهم ، وكأن وعلة يبرر فراره إذا كان الموقف بمثل هذه الخطورة .

ثم إن وعلة لحق به رجل من بنى نهد اسمه سليط بن قتب، فقال له الهندى : أردفنى خلفك فإنى أتخوف القتل ، فأراد أن يردفه كما أشار إلى ذلك فى البيتين التاسع والعاشر من القصيدة (*) .

* * *

فِــرَارٌ وافتخـارٌ

١ فِـدًى لكُما رِجْـلَىَّ أمِّى وخَالَتِى ... غَداةَ الكُلَابِ إذْ تُحَـزُّ الدَّوَابِرُ

٢ نَجَوْتُ نَجاءً لم يَرَ النـاسُ مِثْـلَهُ ... كأنِّى عُقَـابٌ عندَ تَيْمَنَ كَاسِرُ

٣ لهـا ناهِضٌ فى الوَكْرِ قد مَهَّدَتْ له ... كما مهَّدَتْ للبَعْـلِ حَسْنَاءُ عَاقِرُ

٤ خُدَارِيَّةٌ سَفْعَاءُ لَبَّـــدَ رِيشَهـا ... من الطَّلِّ يومٌ ذُو أهَاضِيبَ مَاطِرُ

(١) فدى : صيغة دعائية افتتح بها الأبيات . يحز الدوابر : يقطع أصله وجذوره .

(٢) تيمن : من بلاد اليمن . النجاء : يمد و يقصر وهو العدو السريع . الكاسر : للذكر والمؤنث . و يبدو أن الشاعر يوم هربه كان ينزل مرة فيعود و يركب فرسه حينا آخر ، ولذلك قال فـدى لكما قاصدا الدعاء لرجليه .

(٤) السفعاء : من السفعة وهو السواد يضرب إلى الحمرة . الخدارية : التى يضرب لونها إلى السواد أيضا . الأهاضيب : دفعات المطر . يشبه سرعته فى عدوه بسرعة طيران عقاب أسرعت فى طيرانها حين أصابها المطر فازدادت سرعتها أملا فى النجاة منه .

(*) راجع المفضليات بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون والأستاذ أحمد شاكر .

٥ كأنّا وقد حالت حُذُنّةُ دوننا ... نَعامٌ تلاهُ فارسٌ متواترُ

٦ فمن يكُ يرجو فى تميمٍ هوادةً ... فليس لجرمٍ فى تميمٍ أواصرُ

٧ ولما رأيتُ الخيلَ تدعو مُقاعساً ... تطالعنى من ثُغرةِ النحرِ جائرُ

٨ فإن أستطعْ لا تلتبسْ بى مُقاعِسٌ ... ولا يرنى مبداهُمُ والمحاضرُ

٩ ولا تكُ لى حدّادةٌ مُضَرِيّةٌ ... إذا ماغدت قوتَ العيالِ تُبادرُ

١٠ يقولُ لىَ النهدىُّ: هل أنت مُردِفى؟ ... وكيف رِدافُ الفَلِّ أُمُّك عابرُ

١١ يُذَكّرنى بالرَّحِمِ بينى وبينه ... وقد كان فى نهدٍ وجَرْمٍ تدابرُ

١٢ ولما رأيتُ الخيلَ تَترَى أثائجاً ... علمتُ بأنّ اليومَ أحمسُ فاجرُ

(٥) حذنة : موضع . يشبه أنفسهم فى مشهد الهرب بالنعام المتواتر حين يخاف فارسا يتلوه .

(٦) الهوادة : الرفق والرقة واللين . الأواصر : العواطف (مفردها آصرة) .

(٧) الجائر : الحر يؤذى الجوف عند الخلاء (قيل يقصد القىء) وهو يصور بذلك حال المنهزم إذا خاف القتل جاءه القىء . تطالعنى : طلع منى وارتفع من شدة الفزع والخوف . ثغرة النحر : الهزمة التى على الصدر .

(٨) المحاضر : ج محضر ، يصور شجاعته وكيف لا ينوى عدوا أو هربا مخافة الوقوع فى الأسر ، لئلا يراه منهم من بدا ومن حضر .

(٩) الحداد : البواب . قوت العيال تبادر : أى إذا غدت فإنما همها قوت عيالها ، فكيف تكون حالى إذا كان من أسرنى هذه حاله من الضيق .

(١٠) الفلّ : المنهزم (والفل أصلا الكسر)، العابر: العبرى . وحواره مع النهدى قبل أن يعقر فرسه .

(١٢) تترى : يتبع بعضها بعضا ، تتوالى . أثائج : جماعات . الأحمس : الشديد .

* * *

عبد الله التطاوى

حَاتِمٌ الطَّـائِىُّ

* * *

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحَشْرَج ، ويكنى حاتم أبا سَفَّانة وأبا عدىّ ، كُنى بذلك بابنته سفانة وهى أكبر ولده، وبابنه عدى .

أمه غَنِيَّة بنت عفيف ، وكانت ذات يسار ، وكانت من أكثر النـاس سخاءً وأقراهم للضيف ، وكانت لا تُليق شيئا تملكه ، وبلغ من سخائها أن حَجَر عليهـا إخوتُهـا .

وكانت ابنته سفَّانة من أجود نساء العرب أيضا . أما حاتم فكان من شعرائهم الكبار وكان جوادا يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، فلم يكن يأكل إلا إذا وجد من يأكلُ معه .

وقد أطلق حاتم قومه من أسر الحارث بن عمرو ، كما أقام مكان أسير فى قيده وأطلقه بعد أن مكث مكانه .

ويقال إن ماويَّة زوجته قد حدَّثت كثيرا عن عجائب حاتم، ولذا كثُر توجيه خطابه إليها فى افتتاحيات قصائده . ويروى صاحب الأغانى أن فزارة غزت طيِّئا وعليهم حصين بن حذيفة ، وخرجت طيىء فى طلب القوم فلحق حاتم رجلا من بدر فطعنه ثم مضى ، فقال : إن مر بك أحد فقـل له : أنا أسير حاتم ، فمر به أبو حنبل ، فقال : من أنت ؟ ، قال : أنا أسيرُ حاتم ، فقال له : إنه يقتلك ، فإن زعمت لحاتم أو لمن سالك أنى أسرتك ، ثم صرت فى يدى خلَّيت سبيلك ،

فلما رجعوا قال حاتم : يا أبا حنبل خلِّ سبيل أسيرى ، فقال أبو حنبــل : أنا أسرته فقال حاتم : قد رضيت بقوله ، فقال : أسرنى أبو حنبل فقال حاتم :

إن أباك الجَـوْن لم يكُ غادرا ألَا من بنى بدر أتتْك الغَـوَائِلُ

وقد ضربت الأمثال بكرم حاتم فى جاهلية العـرب وما بعدها ، وقد وصفته ابنته بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه « كان يَفُكُّ العانى ، ويحمى الذمار، ويقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط » . وقد رد النبى صلى الله عليه وسلم بأن هذه صفة المؤمن ، وقال : إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وهو حكم يؤكد سـلامة المسلك الاجتماعى الذى سلكه حاتم متسقا مع نفسـه ومع مجتمعه وعقده القبلى .

والقصيدة كغيرها من شـعر حاتم تصور طبيعة هذا المسلك وترسم الصورة المثالية للرجل العـربى ، وهى تحكى شخصـه ، وتصور ما اقتنع به فى فلسفة حياته الخاصة، وبمـا حفلت به من اعتزاز بالسخاء والبذل والعفة والوفاء وحماية الجار والصدق فى القول والفعل معا .

* * *

عبد الله التطاوى

(تراجع ترجمته وأخباره فى ديوانه بتحقيق الدكتور عادل سليمان) .

(١)

رُؤْيَةٌ حاتميَّـــةٌ

١ سَـلِي الأقـوَام يا ماوىّ عَنِّى ... وإنْ لم تَسْألِيهم فاسْألِينى
٢ يخـبِّرك المُعَاشِرُ والمُصَافى ... وذُو الرَّحم الذى قَـدْ يجتدينى
٣ بأنّى لا يهـرُّ الكلبُ ضَـيْفى ... ولا تُقْضَى نَجِىٌّ القَـوْمِ دُونِى
٤ ولا أعتـلُّ من فَنَعٍ بمَنْـعٍ ... إذَا نابَتْ نوائبُ تَعْـتَرِينى
٥ وإنّى قَـدْ عَلِمْتُ إزاءَ طىٍّ ... وتأبى طَـيِّئٌ أنْ تَسْتَطِينى
٦ ومَا مِنْ شِيمَتِى شَـتْمُ ابن عَمِّى ... وما أنَا مُخْلِفٌ مَنْ يرتَجِينِى
٧ سأمنحُه على العَـلاَّت حَـتَّى ... أرَى مَاوِىَّ ألاَّ يَشْـتَكِينِى

(٢) العشـير : القريب ، والصديق ، والزوج . صفى الأنسان : أخوه الذى يصافيه الإخاء . يجتديني : يسألنى الجدا وهو العطاء .

(٣) هرير الكلب : صوته دون نباحه ، ومعنى لايهر الكلب ضيفه أنه لا ينبح الطراق لأنه تعودهم لكثرة غشيانهم لبيت صاحبه . لا تقضى نجى القوم دونى : أى لا يتناجون فى أمر من أمورهم دون أن أشهده معهم .

(٤) الفنع : الخير والكرم والفضل وحُسْن الذكر والسمعة الطيبة والشهرة . النائبـة : المصيبة . تعتريه : تصيبه .

(٥) إزاء طيء : القائم بأمرها . تستطينى : أى تجدنى وطيئا ذليلا أو حقير المكانة .

(٦) الشيمة : الطبيعة والصفة الخلق ، مخلف : مخيب ظنه ، يرتجينى : يطمع فى كرمى وجداى .

(٧) على العلات : أى على كل حال ، يشتكينى : يضيق بى أو يشتكونى .

٨ إذا أنا لم أرَ ابن العَـمّ فوقى فإنّى لا أرَى ابنَ العَـمّ دُونى
٩ ومِنْ كَرَمٍ يجـورُ علىَّ قَـوْمِى وأىُّ الدّهرِ ذُو لم يَحْسُدُونِى
١٠ وكلمـةِ حاسِـدٍ مِنْ غيرِ جُرْم سمعتُ فقُلْتُ : مُرّى فانْفُذِينى
١١ وعابُوهـا علىَّ فَـلَمْ تَعِبْـنِى ولَمْ يعـرَقْ لهـا يومًا جَبِينى
١٢ وذِى وجْهَـيْنِ يَلْقـانى طَلِيقـًا وليسَ إذا تغيَّبَ يأتَسِـينى
١٣ نظـرتُ بعينـهِ فكفَفْتُ عنـهُ محافظـةً علىَ حَسَـبى ودِينى
١٤ فـلُومِينى إذا لم أَقْـرِ ضَيْفِى وأُكْرِمْ مُكْرِمِى وأُهِنْ مُهِينِى

---

(٩) يجـور : يظلم ويعتسف . ذو : اسم موصـول بمعنى الذى فى لغـة طيء خاصة وتسمى « ذو » الطائية .

(١٠) تنفذه : تتيه وتخلصه .

(١٢) ذو الوجهين : المنافق الذى يبدو خلاف ما يبطن . طليقا ؛ طلق الوجه وطليقه إذا كان مشرقه ضاحكه . يأتسينى ؛ يتخـذ فى أسوة يقتدى بى (إذا غبت عن ذى الوجهين وغاب عنى لا يقصر فى انتقاصى وذمى) .

(١٣) الحسب : مآثر الآباء والأجداد . مقياس الأصالة بحكم مراقة الانتماء إليهم . دينى : عادتى وخلقى .

* * *

عبد الله التطاوى

(٢)

تأصيلُ الرؤية الحاتميّــة

* * *

هــذه القصيدة الرائية تدور فى جملتها حول تأصيل صفة الكرمُ الّتى عدت من المعالم الأساسية الكبرى فى العقد الاجتماعى للقبيلة ، وهى هنا تحتل موقعا هاما يختلف فى طبيعته النوعية عن قصائد المدح التى تنتهى — فى معظمها — إلى قدر من المبالغة فى تضخيم صور الممدوحين بمـا فيها من زيف أو افتعال .

ويظهر حاتم فى هذه القصيدة متسقا على نفسه ، مقتنعا بمـا هو بصدده من تقرير أو تصوير ، متفقا مع القبيلة فى طبيعة المسلك ، مختلفا مع لائميه الذين درجوا على مهاجمة إسرافه وإنفاقه فى سبيل الكرم ، يقول مفلسفا موقفه ومصورا أبعاد علاقاته الاجتماعية من خلال حسه القبلى والغيبى معا ، ومن خلال تجربة حيـاته مع قومه وما تعلقت به نفســه من حس حضارى يتجـاوز به خشونة الجاهليـة ومسلك شباب العصر ، وقد قال مؤصلا مسلكه ومعتزًّا به قصيدته الرائية هذه .

* * *

١ أماوىَّ قَــدْ طَالَ التجنُّبُ والهَجْرُ ... وقَــدْ عَذَرَتْنِي فى طِلَابِكُمُ العُــذْرُ
٢ أماوىَّ إنَّ المـالَ غادٍ ورائحٌ ... ويبقَى من المـال الأحاديثُ والذِّكْرُ
٣ أماوىَّ إمَّا مانِـعٌ فَمُبَــيِّنٌ ... وإمَّا عطَـاءٌ لا يُنَهْنِهُه الزَّجْرُ

---

(١) الطلاب : طلب صاحبته وسعيه باحثا عنها ، حريصا على الحصول عليها .

العذر : هنا الأعذار . « وهى المبررات التى يراها مانعا لاستمرار سعيه بحثا عن ماوية » .

٤ أماوِيَّ إنِّي لا أقـولُ لسَـائِلٍ … إذا جاءَ يومًا : حلَّ في مَالِنـا نَزْرُ
٥ أماوِيَّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عنِ الفَـتَى … إذَا حشرجت يومًا وضاقَ بِهَا الصَّدْرُ
٦ إذَا أنَا دلَّانِي الذين أحبُّهـــم … لملحُودَةٍ زَلْجٍ جوَانِبُهـا غُـــبْرُ
٧ وراحُوا عِجَـالًا ينفُضُونَ أكفَّهمْ … يقُولون : قد دمَّى أنَامِلَنَـا الحَفْرُ
٨ أماوِيَّ إنْ يُصْبِحْ صَـدَايَ بقَفْرَةٍ … مِنَ الأرْضِ لا ماءٌ لَدَيَّ ولَا خَمْرُ ؛
٩ تَرَىْ أنَّ ما أهْلَكْتُ لم يَكُ ضَرَّنِي … وأَنَّ يدَي مِمَّـا بخِلْتُ به صِـفْرُ
١٠ أماوِيَّ إنِّي رُبَّ واحِـدِ أُمِّـه … أجَرْتُ فلَا قَتْـلٌ عَلَيْـه ولا أَسْرُ
١١ وقَدْ عَلِمَ الأقْوامُ لو أنَّ حاتِمًـا … أرادَ ثراءَ المَـالِ كانَ له وَفْرُ
١٢ وأنِّيَ لا آلُو بمَـالٍ صَنِيعَةً … فأوَّلُه زادٌ وآخِـرُهُ ذُخْـــرُ
١٣ يُفَكُّ به العَـانِي ويُؤْكَلُ طيِّبـًا … وما إنْ تُعَرِّيه القِدَاحُ ولاَ الخَمْرُ
١٤ ولا أَظْلِمُ ابْنَ العَمِّ إنْ كَانَ إخْوتِي … شُهُودًا ، وقد أوْدَى بإخوتِه الدَّهْرُ
١٥ غَنِينَـا زمانًا بالتَّصعلُكِ والغِـنَى … كما الدَّهْرُ في أيامِه العُسْرُ واليُسْرُ

---

(٥) حشرجت : يقصد حشرجة الروح عند الموت .

(٦) الملحودة : القبر وهـو الرمس أيضا أو الضير . الزلج : الملساء التي لا تثبت فيها القدم . الغبر ج أغبر والغبراء هي التي غبرها التراب .

(٧) دمى : أسال الدماء من أيديهم نتيجة كثرة الحفر .

(١٠) واحد أمه : وحيدها . الذى يفتقد العصبية القبلية ويصبح فى حاجة إلى الحماية .

(١١) الوفر : المـال الكثير الذى يشهد القبائل بوجوده لديه ولدى قومه منذ القدم .

(١٣) العانى : الأسير والعبد . صفر : خالية فارغة . تعريه : تفنيه . القداح : سهام الميسر .

(١٥) التصعلك هنا بمعنى الفقر .

١٦ لَبِسْنَا صُروفَ الدَّهْرِ لِيناً و غِلْظَةً ... وكُلًّا سَقَاناهُ بكأسيهما الدَّهْرُ
١٧ فما زادنَا بغْيًا على ذِي قَرَابَةٍ ... غِنَانا ولا أزْرَى بأحسابِنا الفقر
١٨ فقِدْماً عَصَيْتُ العاذلاتِ وسُلِّطتْ ... علَى مُصْطَفَى مالِي أنامِلَ العَشْرُ
١٩ وما ضرَّ جاراً يا ابنةَ العمِّ فاعْلَمِي ... يُجَاوِرُنِي ألا يَكُونَ لهُ سِتْرُ
٢٠ بعينِيَ عن جاراتِ قَوْمِي غَفْلَةٌ ... وفي السَّمعِ مني عن حديثهِمُ وَقْرُ

(١٧) البغي : الظلم أو العدوان . أزرى : أهان وأذل .

(١٨) العاذلات : من يلمنه على كرمه و يعذلنه عليه و يؤاخذنه على الإسراف فيه .

(٢٠) الوقر : ثقل السمع . والغفلة هنا غض النظر عمدا عما يمكن أن يراه .

* * *

عبد الله التطاوي

عُرْوَة بن الوَرْد

* * *

ينتهى نسبه إلى قبيلة عَبْس الذائعة الصيت التى كانت تنزل فى الشمال الغربى من نجد الممتد حتى منطقة يثرب . وكانت قبيلته تتشاءم بأبيه لأنه هو الذى أوقع الحرب بينها وبين فَزارة فى أيام داحس والغبراء . وأما أمه فكانت من قبيلة أقل شرفاً من قبيلة أبيه ، وهى قبيلة نَهْد ، ومن هنا كان عروة دائم السخط على الصلة التى ربطت بين أبيه وأمه ، وكان لا يفتأ يهجو أخواله هجاء مرا . وكان أبوه يسىء معاملته وهو صغير ، ويُؤْثِر أخاه الأكبر عليه . وهكذا نشأ عروة فى ظروف نفسية معقدة اتجهت به بعد ذلك إلى التمرد على أوضاع مجتمعه الاجتماعية والاقتصادية ، والإحساس بالظلم الذى تعانى منه الطبقة المستضعفة فى هذا المجتمع من الفقراء والعبيد ، وانتهت به إلى زعامة جماعاتٍ من الصعاليك التفّت حوله ، وانطلقت معه خلف الأغنياء ، وخاصةً البخلاء منهم ، يسلبون وينهبون ، ويوزّعون ما يغنمونه بينهم بالتساوى ، ويُشْرِكون معهم فى الغنيمة الفقراء الضعاف والمرضى الذين عجزوا عن الخروج معهم ، فى محاولة ثورية عنيفة لتحقيق صورة من العدالة الاجتماعية ، ولون من التوازن الاقتصادى ، فى مجتمعهم الذى اختلت فى نظرهم مقاييسه الاجتماعية ، واضطربت موازينه الاقتصادية . وقد عَرَف هؤلاء المستضعفون فى الأرض فى عروة هذه النزعة الإنسانية التى تعمل من أجلهم ، واعترفوا بزعامته لهم ، ولقّبوه « أبا الصعاليك » ، ومضى هو — من ناحيته — يحاول أن يكون عند حسن ظنهم بهذه « الأبوة » ، فلم يكن يُؤْثِر

نفسه بشىء عليهم ، و إنما عاش صعلوكا فقيرا مثلهم ، وكان يحلو له دائما أن يسميهم « عِيَاله » .

وأساس فلسفة عروة الثورية أن الغزو والإغارة للسلب والنهب السبيلُ الوحيد لتحقيق أهدافه التى تتلخص فى استرداد ما آمن بأنه حق له ولصعاليكه من أموال الأغنياء ، وبخاصة البخلاء ، لإعادة توزيعه بالعدل والتساوى على الفقراء ، حتى يتساوى الجميع فى ميزان العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادى . ولكنه لا يريد من وراء ذلك أن يتساووا فى الفقر ، وإنما يريد أن يتساووا فى قدر معقول من الحياة المادية التى تضمن لهم قَدْرًا مشتركا من الحقوق والواجبات .

* * *

وشعر عروة يمتاز بسهولة اللفظ ووضوح المعنى ، إذا قسناه بشعراء عصره ، فهو يخلو من تلك الألفاظ الغريبة الوعرة التى تنتشر فى شعرهم ، كما يخلو من ذلك التركيز فى عرض المعنى الذى كان سِمَةً من سمات الشعر الجاهلى ، والذى كان يفتح الباب أمام كثير من الاحتمالات والتأويلات . وهى ظواهر تبدو طبيعية فى شعر عروة ، لأنها — فى حقيقة أمرها — انعكاس لإحساسه بأنه يقوم فى حركة الصعلكة بدور الداعية المذهبى أو الزعيم الشعبى الذى يحرص على استمالة الجماهير إليه و إقناعهم بدعوته . ومن هنا تميز أسلوبه بهذه « الشعبية » التى تظهر فى أكثر قصائده .

و يدور شعر عروة حول الدعوة إلى مذهبه، والحديث عن آرائه الاجتماعية والاقتصادية، وأهداف حركته التى يعمل لها ، ووصف مغامراته هو وصعاليكه من أجل تحقيقها . وتحتل مشكلة الفقر والغنى حيزا ملحوظا فى شعره ، وهى

ظاهرة طبيعية لأن هــذه المشكلة الاقتصادية كانت هى المحـور الأساسى الذى دارت حوله فلسفته فى حركة الصعاليـك الجاهليين . ومن الطبيعى أيضا أن يخلو شعره من تلك الموضوعات التقليدية التى دار فيها الشعر الجاهلى، وشُغِل بها الشعراء الجاهليون سواء منهم شعراء القبائل أو الشعراء الذاتيون ، حتى المقدمات التقليدية فقد تخلص منها ، واستبدل بهـا مقدماتٍ فروسيةٍ تدور حول « حواء الخالدة » التى كانت محور كل المقــدمات فى الشعر العربى ، ولكنها ليست حواء المحبوبة التى نعرفها عند الشعراء ، وإنمـا هى حواء المحبة الحريصة على فارسها التى تدعوه دائمـا إلى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هى ، والتى يقف أمامها دائمـا مغامرا بحياته مستهينا بهـا من أجل توفير قَــدْر من الحيـاة الكريمة لها ولأمثالها من أولئك المستضعفين فى الأرض الذين خرج هو ورفاقه من أجلهـم .

* * *

عاش عروة حياته كلها يعمل لتحقيق أهدافه وإرساء مبادئه وتأصيل فلسفة الصعلكة فى نفوس أصحابه ، ولم يكفّ عن الحـركة المتصلة حتى آخر يوم من حيـاته ، حيث لقى مصرعه فى بعض غاراته على يد رجل من طُهَيَّـة . ويذكر بعض الباحثين المحدثين (اسكندر أبكاريوس فى روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب) أنه عُمِّـر حتى بلغ ثمـانين سنة، وليس فى الروايات القديمة ما يؤيد ذلك . وليس من اليســير تحــديد تاريخ وفاته ولا مــولده ، شـأنه فى ذلك شأن ســائر الشعراء الجاهليين، ولكن يظن الزركلى فى « الأعلام » أن وفاته كانت سنة ٥٩٤ للميلاد قبل ظهور الإسلام بسنوات قليلة ، وهو تحديد لا يقوم عليه دليل .

* * *

يوسف خليف

(١)

صُعْلوكٌ . . وصُعلوكٌ

* * *

عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هَرِم بن لُدَيم بن عَوْذ بن غالب بن قَطِيعة بن عَبْس بن بَغيض بن رَيْث بن غطفان، شاعر جاهلي، وفارس من فرسان العرب، وصعلوك من صعاليكها المقدَّمين الأجواد . كان يُدعى « عروة الصعاليك » لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مَغْزَى . ولم تكن العلاقة بين عروة وأخواله من بنى نَهْد من قُضَاعة جيدة، ولذلك فقد هجاهم هجاء مرا وكان دائم السخط على تلك الصلة التى ربطت بين أبيه العبسى وأمه النهدية .

والقصيدة المختارة يوجّه فيها عروة الخطابَ إلى امرأته سلمى، وكانت تلومه على الخِطَار بنفسه، وإدمانه الغزوات والغارات فى أحياء العرب، فردَّ عليها قولها بأنه إنما يبغى بذلك المجد وجمع المال لها ليكفيها بعد موته . ثم يرسم سياسة للصعاليك . فهو لا يُرضيه الصعلوكُ الخامل الذى لا يسعى لالتماس المال، وإنما يريده أن يكون غازيا جريئا يخشاه الناس فى المَحْضَر والمغيب لا يأمنون غزوه . ثم يحتج لسياسته التى جرى عليها بأنه يريد أن يكفى قبيلتى « مُعْتَمّ » و « زَيْد » ويسُدّ حاجتهما، ويعلن أنه سيواصل الغارات مترعما لأصحابه لكى يُشبع رغبة الجود والبذل الذى أخذ نفسه به .

* * *

١ أقلِّى علىَّ اللــومَ يا ابنــةَ مُنْــذِرٍ ونامى، فإنْ لم تشتهى النومَ فاسهرى
٢ ذَرِينى ونَفْسِى أمَّ حَسَّانَ إننى بها قبلَ أنْ لا أملكَ البيعَ مشترى
٣ أحاديثَ تبقَى والفــتى غيرُ خالدٍ إذا هو أمسَى هامــةً تحت صَيِّرِ
٤ تُجاوِبُ أحجار الكِنَاس وتشتكى الى كلِّ معــروفٍ تراه ومُنْكَرِ
٥ ذرينى أطوِّفْ فى البــلاد لعلَّنى أخلِّيك أو أُغنيك عن سوءِ مَحْضَرِ
٦ فإنْ فاز سهمٌ للمنيَّـــة لم أكنْ جَزُوعًا، وهل عن ذاكَ مِنْ متأخَّرٍ ؟
٧ وإنْ فاز سهمى كَفَّكم عن مقاعدٍ لكم خلف أدبارِ البيوتِ ومَنْظرِ
٨ تقول: لكَ الويلاتُ هل أنتَ تاركٌ ضُــبُوءا برَجْــلٍ تارة وبمَنْسِرِ ؟

(١) ابنة منذر : امرأته ، وهى سلمى التى سباها من كنانة وأعتقها وأولدها أولاده .

(٢) أم حسان : كنية امرأته سلمى . يقول : ذرينى أشترى وأبتنى بمالى مجدا وذكرا فى حياتى، ذرينى أبادرها قبل أن يحول الموت بينى وبينها فلا أملك شراء .

(٣) الهامة : كانت العــرب تعتقد أن روح القتيــل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة فتصيح عند قبره وتقول : اسقونى اسقونى ، فإذا أدرك بثأره طارت . الصير : القبر .

(٤) الكناس : موضع . يريد أن الهامة إذا صوتت أجابتها أحجار الكناس بالصــدى ، فهى تصوت فى كل حال إذا رأت من تعرف أو من تنكر .

(٥) التخلية : الطلاق . كنى بها عن مقاله . أغنيك أى أصيب حاجتى من الغــزو فأغنيك عن أن تحضرى محضرا سيئا وهى المسألة .

(٦، ٧) جعل من سهام الميسر مثلا له فى مقارعة الموت . وفوز السهم : خروجه أولا . أدبار البيوت : ظهور البيوت بعيدا عن صدورها حيث يجلس السادة .

(٨) الضبوء : اللصوق بالأرض والاستتار ليختل الصيد . الرجل : (بفتح الراء وسكون الجيم) : الرجالة الذين يغيرون على أرجلهم . المنسر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين الى الأربعين، وإنما سمى منسرا لأنه مثل منسر الطائر يختلس اختلاسا ثم يرجع . تقول له : هل أنت تارك أن تغزو مرة بقوم على أرجلهم ومرة بفرسان على خيلهم ؟

٩ ومُسْتَثْبِتٌ فى مالكَ العامَ إننى أراكَ على أقتادِ صرماءَ مُذْكِرِ

١٠ فَجُوعٍ بها للصالحين مَزَلّةٍ مَخُوفٍ رَدَاها أنْ تصيبَكَ فاحذرِ

١١ أبَى الخَفْضَ مَنْ يغشاكِ من ذى قرابة ومن كلِّ سوداءِ المعاصمِ تَعْتَرى

١٢ ومُسْتَهْنِئٍ زيدٌ أبوه فلا أرى له مَدْفَعاً ، فاقنى حياءكِ واصبرى

* * *

١٣ لحى الله صعلوكاً إذا جَنَّ ليلُه مضى فى المُشَاش آلفًا كلَّ مَجْزَرِ

١٤ يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دهره كلَّ ليلةٍ أصاب قِرَاها مِنْ صديقٍ مُيَسَّرِ

---

(٩) الأقتاد : جمع قتد وهى أخشاب الرحل . الصرماء : القليلة اللبن . المذكر : التى تلد الذكور من الإبل وهى مما يكره العرب . تقول : هل أنت مستثبت هذا العام فى مالك ، فإنى أخاف عليك إذا خرجت إلى هذا الغزو أن لاترجع . وجعل من هذه الناقة مثلا للداهية والشر .

(١٠) فجوع : تفجيع الناس وهى من صفة هذه الناقة التى يتشاءم بها . الصالحون : الرجال الذين يطلبون معالى الأمور أو ذوو المعروف . مزلة : تزل بأهلها .

(١١) الخفض : الدعة ولين العيش . سوداء المعاصم : من جهدت من الجدب والهزال أو من شدة الجوع والبرد وحضور النيران للاصطلاء . يقول : أبى الذى تريدين من الخفض والدعة ، ودفعنى إلى طلب المغنم فى الغارات من يطرقك من ذى قرابة ومن يأتى إليك من الفقراء .

(١٢) المستهنئ : طالب الهنء بكسر الهاء وهو العطاء . زيد أبوه : يعنى رجلا من قومه يجمعه وإياه زيد وهو جد عروة . يقول : إن مما يحمله على الغارة خوفه أن يطرقه قريبه فلا يجد عنده ما كان عوده من صلة ، ولا يستطيع رده لقرابته . فاقنى حياءك : احفظيه وأمسكيه عليك .

(١٣) لحاه الله : قبحه ولعنه . المشاش : رؤوس العظام اللينة التى يمكن مضغها . المجزر : موضع الجزر والذبح .

(١٤) الميسر (بكسر السين) : الذى سهلت ولادة إبله وغنمه ولم يعطب منها شىء . يريد أن هذا الصعلوك اذا ملأ بطنه يعد نفسه غنيا ولم يبال بعد ذلك بالغزو والغارة .

١٥ قليلَ التمـاسِ المـالِ إلّا لنفسه إذا هو أضحَى كالعَريش المجَـوَّرِ
١٦ ينام عِشاءً ثم يُصْبح قاعدا يحُتُّ الحصى عن جَنْبه المتعفِّـرِ
١٧ يُعِـين نسـاءَ الحى ما يَسْتَعِنَّه فيُضْحِى طَلِيحا كالبعير المُحَسَّرِ
١٨ ولله صعلوكٌ صـفيحةُ وجهـه كضوءِ شهابِ القابس المتنـوِّرِ
١٩ مُطِـلًّا على أعدائه يَزْجُرونه بساحتهم زَجْرَ المَنِيـحِ المُشَهَّـرِ
٢٠ وإنْ بَعُـدوا لا يأمنون اقترابه تَشَوُّفَ أهلِ الغـائب المتنظَّـرِ
٢١ فذلكَ إنْ يَلْقَ المنيَّـةَ يَلْقَهـا حميدا، وإن يَسْتَغْنِ يوما فأَجْدِرِ

* * *

٢٢ أيهلِكُ مُعْـتَمٌّ وزيدٌ ولم أَقُـمْ على نَدَبٍ يوماً ولى نفسٌ مُخْطِرِ ؟
٢٣ سيُفْزِع بعد اليأس مَنْ لايخافنا كَوَاسِـعُ فى أخرى السَّوَام المنفَّرِ

---

(١٥) العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط . يقول : إذا شبع هذا الصعلوك الخامل الذليل وملأ بطنه ألقى نفسه كأنه عرش قد انهار .

(١٦) يقصد أنه ليس صاحب غارة أو غزو ، ولكنه خامل كسول متخاذل .

(١٧) الطليح والمحسر ؛ الذى أعيى وكل وتعب .

(١٨) صفيحة الوجه : بشرة جلده . القابس : الذى يقبس النار أى يأخذها . المتنور : المضىء .

(١٩) مطلا على أعدائه : مشرفا عليهم ، يغزوهم أبدا فهو دائما متربص بهم . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح . قدح مستعار سريع الخروج والفوز ، يستعار فيضرب ثم يرد إلى صاحبه . المشهر : المشهور .

(٢٠) يقصد أن أعداءه لا يأمنون من غزوه ، فهم ينتظرونه فى كل ساعة كما ينتظر أهل الغائب غائبهم .

(٢٢) معتم وزيد ، بطنان من عبس . الندب (بفتحتين) : الخطر . يقول : أيهلك فى حياتى هؤلاء ولم أقم نادبا لنفسي فأخاطر حتى أغنيهم ولى نفس أخاطر بها دونهم .

(٢٣) كواسع : خيول تطرد إبلا تكسعها فى آثارها . السوام : الإبل السائمة . أخراها : آخرها . المنفر : المذعور .

٢٤ نُطاعِنُ عنها أولَ القوم بالقَنا ... وبيضٍ خِفَافٍ وَقْعُهنَّ مُشَهَّرُ

٢٥ ويوما على غارات نجدٍ وأهلِه ... ويوما بأرضٍ ذاتِ شَثٍّ وعَرْعَرِ

٢٦ يُنَاقِلْنَ بالشُّمْطِ الكرام أولى النهى ... نِقَابَ الحجازِ فى السَّريحِ المُسَيَّرِ

٢٧ يُرِيحُ علىَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ ... كريم ، ومالى سارحا مالُ مُقْتِرِ

* * *

(٢٤) البيض : السيوف . « مشهر » بالرفع خبر « وقعهن » وفيه إقواء ، وفى رواية أخرى « ذات لون مشهر » وعليها فليس فيه إقواء .

(٢٥) الشث والعرعر : نوعان من أشجار الجبال .

(٢٦) المناقلة : حسن نقل القوائم فى سرعة السير . الشمط : جمع أشمط وهو الذى خالط سواد شعره بياض ، أراد بهم الفرسان ذوى السن والتجربة . النقاب : جمع نقب وهو الطريق الضيق فى الجبل . السريح : السيور تشد بها النعال . المسير : الذى جعل سيورا . عنى بالسريح المسير نعال الخيل .

(٢٧) يريح : يرد . ماجد يقصد نفسه . مالى : إبلى . المقتر : الفقير المقل .

* * *

سيد حنفى

(٢)

حوَارٌ حول البُخْل والكَرَم

* * *

فى هذه القصيدة القصيرة يرسم عروة صورة لكرمه الذى عُرِف به حتى قُورِن بحاتم الطائى المَثَلِ الأعلى للكرم عند العرب، فقد قال عنه الخليفة الأموى عبدالملك ابن مروان : « مَنْ زعــم أن حاتمــا أسمحُ الناس فقد ظَلَمَ عروة بن الورد » . وكأسلوبه فى أكثر قصائده يدير حوارا بينه وبين زوجته ، فهى تنكر عليه كرمه، وهو يدافع عنه ، ويبيّن مذهبه فيه ، ويعلن أنه لايرضى لنفسه أن يبيت شبعان وجارُهُ جائع ، ولكنه ــ انطلاقًا من زعامته لحركة الصعاليك ، وإحساسه بأنه داعيتهم المذهبي ــ لايرضى « لأبنائه » الصعاليك أن يعيشوا حياتهــم عالةً على الأغنياء ، ينتظرون فَضْلةَ عطائهم وإحسانهم عليهم، وإنمــا يريد لهم أن يخرجوا مطالبين بحقهم على مجتمعهم ، ويعلنها صيحة عاليةً مدوِّية توقظهــم من نومهم الذليل خلف أدبار البيوت فى انتظار مايجودون عليهم به : أيها الصعاليك ، إما أن تنالوا حقكم وإما أن تموتوا فى سبيله ، وحَسْبُكم ــ على الحالين ــ إحساسكم بالحرية والكرامة .

* * *

١ أفى نابٍ مَنَحْناها فقيراً | له بِطِنَابِنا طُنُبٌ مُصيتُ
٢ وفَضْلَةِ سَمْنَةٍ ذهبتْ إليه | وأكثرُ حقِّه مالا يقُوتُ
٣ تَبِيتُ على المرافقِ أمُّ وَهْبٍ | وقد نام العيونُ لها كَتِيتُ ؟
٤ فإنَّ حَمِيتَنا أبداً حرامٌ | وليس لجارِ منزلنا حَمِيتُ
٥ ورُبَّتَ شُبْعَةٍ آثرتُ فيها | يدًا جاءتْ تَعِيرُ لها هَتِيتُ
٦ يقول : الحقُّ مَطْلبه جميلٌ | وقد طَلَبوا إليكَ فلم يُقِيتوا

(١) الناب : الناقة الكبيرة السن . والطناب : جمع طنب وهو الحبل تشد به الخيمة . والمصيت : الذى يسمع صوته . والشطر الثانى رمز لصلة الجوار التى تجمع بينه و بين الفقير ، والتى تفرض عليه حقوقا لا يملك أن يتنكر لها . ووصف طنب هذا الجار بأنه مصيت تصوير لنداء جاره الفقير له ، ورفع صوته ليشعره بوجوده إلى جواره ، و بأن له عليه حقا ، وكأن إعلان عن نفسه وعن حقه عليه . يقول إنه أعطاه ناقة مسنة ، ولعلها كل ما كان يملكه .

(٢) يقوت : يكفى لمجرد قوته الذى يحفظ عليه حياته ، يريد أن حق جاره عليه أكثر من أن يكون لمجرد القوت ، وأن مامنحه له أقل مما يجب له عليه . لقد أعطاه بقية سمن كانت عنده ، وآثره على نفسه بها وهو فى حاجة إليها .

(٣) الكتيت ، صوت يجيش فى الصدر من شدة الغيظ كصوت غليان القدر . وأم وهب : زوجته . يتساءل : أفى هذا العطاء اليسير مايجعل زوجته تبيت ليلها ساهرة وقد أسندت رأسها إلى مرفقيها وهى تميز من الغيظ ؟

(٤) الحميت : طعام كان العرب يعدونه من سقاء ورب وسمن ، والرب ما يتبقى من الثمرة بعد عصرها . يقول إن طعامى حرام على لا أقربه مادام جارى جائعا لا طعام عنده .

(٥) الشبعة : ما يشعر المرء بالشبع من أقل قدر من الطعام . وتعير : من عار الشىء يعوره و يعيره إذا أخذه وذهب به . والهتيت : الإكثار من الكلام . يقول إنه يؤثر على نفسه بما عنده من طعام مهما يكن قليلا كل من يتردد عليه فى طلبه ليأخذه و يذهب به ليسد به رمقه .

(٦) لم يقيتوا : لم ينالوا قوتهم ، من أقاته إذا أعطاه قوته . يصور هنا إيمانه بحق هؤلاء الفقراء الجياع الذين يقصدونه للسؤال ، ولكنه يعلن أنه فقير مثلهم لا يملك مايرد غائلة الجوع عنهم .

٧ فقلتُ له : ألا احْىَ وأنتَ حُرٌّ ستَشْبعُ فى حيـاتكَ أو تموتُ

٨ إذا ما فاتنى لم أسْـتَقِلْهُ حيـاتى ، والمَـلائمُ لا تفُوتُ

٩ وقـد علمتْ سُـليمَى أنَّ رأيى ورأىَ البخـل مختلفٌ شَتِيتُ

١٠ وأنى لا يُرِينِى البخـلَ رأىٌ سواءٌ إنْ عطِشتُ وإنْ رَوِيتُ

١١ وأنى حين تشْـتَجِرُ العَـوَالِى حُـوَالِى اللُّبِّ ذو رأى زَمِيتُ

١٢ وأُكْفَى ما علمتُ بفضلِ علم وأسـألُ ذا البيانِ إذا عَمِيتُ

(٧) ينكر على هؤلاء الفقراء الذين يعتمدون على السؤال والإلحاح عليـه أن يسلكوا هذا السبيل الذليل ، ويهيب بهم أن يعيشوا أحرارا كرماء على نفوسهم ، وأن ينتزعوا حقهم من الأغنياء بالقوة ، فإما أن يشبعوا وإما أن يموتوا فى سبيل حريتهم وكرامتهم .

(٨) إذا فاتنى : أى الحق . ولم أستقله : أى لم أقدر على رده . والملائم : اللوم ، جمع ملامة . يقول إذا فاتنى الوفاء بحقوق الفقـراء على ، ندمت طول حياتى على ضياع هذه الفرصة من بين يدى ، ولن أنجو فى هذه الحالة من لوم من يلومنى على ذلك ، وكأنه يشير إلى حرصه على ألا يفعـل شيئا يلام عليه ، فكل حرصه على أن يكسب ذكرا حسنا يتردد على ألسنة الناس .

(٩) سليمى هى أم وهب التى ذكرها فى بداية قصيدته ، وهى زوجته . ينـكر عليها اعتراضها على كرمه ، وهى تعرف موقفـه من قضية الكرم والبخل ، فرأيه ورأى البخل مختلفان اختلافا بعيـدا ، وبينه وبين البخل علاقة مفقودة .

(١٠) روى : ضد عطش . والعطش والرى هنا رمزان الفقـر والغنى . والبيت استمرار فى بيان موقفه من القضية التى شغلت زوجته ، فهو كريم على الحالين : كريم فى غناه وكريم فى فقره .

(١١) العوالى : الرماح ، واشتجارها اختلاطها فى أثناء القتال . والحوالى (بفتح الحاء وضمها وتشديد الياء) : الشديد الاحتيال ، وتخفيف التشديد هنا من أجل الوزن . والزميت : الوقور . يفتخر بشجاعته ، وسعة حيلته ، وسداد رأيه ، وبعده عن النزق والطيش .

(١٢) يصف نفسه بأن خبير بالحياة ، وأنه يعرف من شئونها مايهديه إليه عقله ، وما يرشـده إليه علمه ، ولكنه — مع ذلك — لايتردد فى أن يستشير من عنده علم مالا يعـرفه إذا اشتبهت عليه الأمور ، وعميت عليه المشكلات ، وتاهت منه سبل الهداية . إنه يعـرف الحياة ، ولكن علم الحياة لاينتهى . إن الحياة خبرة شخصية ، ولكنها أيضا استفادة من خبرة الآخرين .

* * *

يوسف خليف

(٣)

دَعْوةٌ نظريَّة وتطبيقٌ عَمَلِيٌّ

* * *

فى هذه الأبيات يحدد عروة بعض أهداف حركته ، و يعلنها صيحةً مدوِّية صريحة يوجِّهها إلى رفاقه الصعاليك : إن عدوكم الأول إنما هم أولئك الأغنياء البخلاء الذين مدَّت الحياةُ لهم أسبابَ الثراء ، ولكنهم بخلوا بها ، وتنكَّروا لحقوق مجتمعهم عليهم ، وحَرموكم حقَّكم المشروع فى أن تنالوا مثلهم نصيبكم فى الحياة ، فشُدُّوا عزائمكم ، وشمِّروا عن سواعدكم ، واتَّخذوا من القوة سبيلاً لانتزاع حقكم منهم ، فالحق للقوة ، والضعيفُ ضائعٌ حقُّه فى هذا المجتمع ، فانتهزوا أيام شبابكم ، ولا تنتظروا حتى تحل بكم أيام الشيخوخة والضعف ، واجْمَعوا فرسانكم و رَجَّالتكم ، وأَحْكِموا خططكم ، تُحَقِّقوا أهدافكم أو تموتوا فى سبيلها ، فالمـوتُ خيرٌ من حياةِ الذل والفقر والجوع والهُزَال .

* * *

١ أليس ورائى أن أَدِبَّ على العصا فَيَشْمَتَ أعدائى ويَسْأَمَنى أهلِى

٢ رَهِينَةَ قَعْـرِ البيت كلَّ عشـيـةٍ يُطِيف بىَ الوِلدانُ أَهْدِجُ كالرَّألِ

---

(١) أليس ورائى : أى وراء قعودى حتى الشيخوخة ، و يجـوز أن تكون « ورائى » بمعنى « أمامى » على التضاد ، أى أمامى إن امتدت بى الحياة وسـلمت من المـوت . والدبيب على العصا رمز للشيخوخة المتقدمة . وفى رواية أخرى « فيأمن أعدائى » .

(٢) أهدج : من الهدج والهدجان وهو اضطراب الخطى من الكبر ، هدج يهدج . والرأل : ولد النعام . وفى رواية أخرى « يلاعبنى الولدان » . يصف فى البيتين ماسوف تئول إليه حاله حين تتقدم به السن و يعجز عن الغزو والغارة ، وكأنه يحس نفسه — وأيضا رفاقه — على استغلال أيام الشباب فى العمل والكفاح .

٣ أقيموا بني لُبْنَى صــدورَ ركابكم فكلُّ منايا النفس خيرٌ من الهَزْلِ

٤ فإنكم لن تَبْلُغــوا كلَّ همّتى ولا أرَبى حتى تَرَوْا مَنْبِتَ النَّخْلِ

٥ فلو كنتُ مثلوجَ الفؤاد إذا بَدَتْ بلادُ الأعادى لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي

٦ رَجَعْتُ على حَرْسَيْنِ إذ قالَ مالكٌ هَلَكْتَ ، وهل يُلْحَى على بُغْيَةٍ مِثْلِي ؟

٧ لعلّ انطلاقى فى البلاد ورِحْلَتى وشَدِّى حيازِيمَ المَطِيَّـةِ بالرَّحْلِ

٨ سـيدفعُني يوماً إلى رَبِّ هَجْمَةٍ يُدَافِـعُ عنها بالعُقُـوق و بالبُخْلِ

(٣) بنو لبنى : حى من الفقراء ، أو لعلهـم رمز لعياله الفقراء ، كما كان يسميهم . والهزل : الهزال . و إقامة صدور الركاب كناية عن الاستعداد للخروج للغزو والغارة . وفى رواية أخرى « صدور مطيكم فإن منايا القوم » ؛ وفى رواية غيرها « فكل منايا القوم » . يقول لرفاقه الصعاليك : استعدوا للكفاح فالموت خير من حياة الفقر والجوع والهزال .

(٤) منبت النخل هى منطقة يثرب وما يجاورها من شمالى الجزيرة العربيـة ، وهى المنطقة التى تركز فيها نشاط عروة وصعاليكه . وفى رواية أخرى « منبت الأثل » وهى جبال الحجـاز ، والأثل شجر ضخم ينبت فى الجبال .

(٥) مثلوج الفؤاد : ليس فى قلبه حرارة ولا حماسة ، كناية عن ضعف الهمة ووهن العزيمة . ولا أمر ولا أحلى : أى لا أضر ولا أنفع ، لا شر عندى ولا خير .

(٦) الحرسان : جبلان . ومالك هو مالك بن حمار الفزارى وكان قد حذره عواقب مغامراته ؛ وطلب إليه أن يرجع عنها ليقيم معه فى دياره عند هذين الجبلين . و يلحى : يلام . ومعنى البيتين أنه لو كان ضعيف الهمة ، بارد القلب ؛ لا يضر ولا ينفع ، سلبيا فى حياته ، لرجع عن انطلاقه نحو بلاد أعدائه ، ولاستجاب إلى نصح مالك له وعاد معه إلى بلاده ، ولكنه رجل مؤمن برسالته ، مصمم على أهدافه ، فهل يلام على ذلك ؟

(٧) الحيازيم : جوانب الصدر ، جمع حيزوم . وفى رواية أخرى « ارتيادى . . وبغيتى » ، وفى رواية غيرها « وحيلتى » أى احتيالى .

(٨) الهجمة : القطيع من الإبل فوق الأربعين إلى غير عدد محدد ، أو ما بين السبعين إلى المائة . ومعنى البيتين أنه يتمنى أن تدفعه مغامراته فى أرجاء الصحراء إلى بعض الأغنياء البخلاء الذين تنكروا لحقوق مجتمعهم عليهم ، وعقوا إخوانهم فى الإنسانية من الفقراء المحرومين .

٩ قليــلٌ تَواليهـا وطالبُ وِتْرِهَا إذا صِحْتُ فيها بالفوارسِ والرَّجْلِ
١٠ إذا ما هَبطْنَا مَنْهَـلاً فى مَخُـوفَةٍ بَعَثْنَا رَبِيئاً فى المَرَابِئِ كالجِذْلِ
١١ يُقلِّبُ فى الأرضِ الفَضَاءِ بطَرْفِهِ وهُنَّ مُنَاخَاتٌ ومِرْجَلُنَا يَغْـلِى

* * *

(٩) قليل تواليها : أى أن من يتبعها ليخلصها من أيدى الصعاليك قليل عددهم لايخشى أمرهم . والوتر : الثأر . والرجل : الرجالة الذين يغزون على أرجلهم ، عكس الفرسان الذين يغزون على الخيل .

(١٠) المنهل : مورد المـاء . والمخوفة : الأرض التى يخافها من ينزلها . والربيء : الحارس يراقب لهم الطريق . والمرابئ : أماكن المراقبة ، وهى المراقب التى يتردد ذكرها فى شعر الصعاليك جمع مربأ ومربأة . والجـذل : جذع الشجرة . يصور نفسه قائدا حذرا يعـد لكل أمر عدته ، ويحسب لكل خطوة حسابها ، فإذا ما انتهت الغارة ، وأخذ رفاقه الصعاليك طريق العودة بغنائمهم ، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا مما نهبوه ، وينالوا حظهم من الطعام والراحة ، بعث ربيئا منهم فوق مرقبة عالية ؛ يراقب لهم الطريق حتى لا يفجأهم عدو وهـم غافلون ، فيقف فوقها ثابتا منتصبا لا يبرح مكانه كأنه شجرة أصلها ثابت فى الأرض .

(١١) الضمير « هن » يعود على الإبل التى نهبها الصعاليك ، والمفهومة من سـياق الأبيات . يصف نهاية الغزوة وقد نزل الصعاليك بغنائمهم ، والربيء يرمى ببصره فى كل اتجاه على امتداد الفضاء من حوله ، والإبل التى نهبوها مناخات إلى جوارهم ، ومرجل الطعام يغلى باللحم الذى نحروه وفرغوا لإعداده فوق النار لطعامهم .

* * *

يوسف خليف

(٤)

صُوَرٌ إنسانيّةٌ من فَلْسَفته

* * *

الغَنِىُّ والفَقِيرُ

* * *

يسجّل عروة فى هذه الأبيات القليلة خلاصة رأيه فى قضية الفقر والغنى ، وهى القضية التى كانت المحور الأساسى الذى دارت حوله فلسفته الاقتصادية . وهو فيها لا يطيل ولا يفصّل ، وإنما يحدّد رؤوس المسائل الكبرى التى تقوم عليها هذه القضية . ومع أن القضية قضية فكرية فى المقام الأول ، فإنه لا يُغْفِل الجانب العاطفى فيها الذى نراه فى تلك اللمسات المؤثرة التى تخاطب الوجدان ، وتحاول استثارة مشاعر الجماهير بهذا النغم البسيط الفِطْرىّ الذى تمتزج فيه السخرية بالحسرة ، والتهكم بالألم ، والذى يصدر عن القلب ليتجه مباشرة وفى غير التواء إلى القلب . فالفقير شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأَهْوَنهم عليهم مهما يكن له من فضل ، يُجَافيه أهله ، وتزدريه زوجته ، حتى الصغير يستطيع أن يُذِله . أما الغنىّ فمهما يَفْعلْ يُقْبَلْ منه ، ومهما يخطئ يُغْفَرْ له ، فللغَنِى رَبٌّ يغفر الذنوب جميعا ، وكأنه يقول للناس : هذا هو مجتمعكم العجيب ، يحتقر الفقير لا لشىء إلا لأنه فقير ، ويقدِّر الغنىّ لا لشىء إلا لأنه غنى ، ولا يهتم إلا بالمظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه ، فماذا أنتم فاعلون ؟ . ولعل هذه البساطة الفِطْرية التى نلمسها

في عرض الشاعر لأفكاره ذلك العرضَ السهل الذي لا يثير جدلا ولا يقبل معارضة ، والذي ينفذ إلى النفس من أقرب السبل ، والذي يصح أن نُطلق عليه « عرضا شعبيا » ، هو الذي جَعَل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب إلى مُعَلِّم أولاده ألا يَرْويهم هذه القصيدةَ ، ويقول له : « إن هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم » .

* * *

١ ذَرِيني للغِنَى أسعَى ، فإني ... رأيتُ الناسَ شَرُّهمُ الفقيرُ
٢ وأدناهُمْ وأهونُهمْ عليهمْ ... وإنْ أمسَى له حَسَبٌ وخِيرُ
٣ يُباعدُه القريبُ ، وتَزْدَريه ... حليلتُه ، ويَنْهَرُه الصغيرُ
٤ ويُلْقَى ذو الغِنَى وله جَلالٌ ... يكاد فؤادُ لاقيه يَطيرُ
٥ قليلٌ ذنبُه ، والذنبُ جَمٌّ ، ... ولكنْ لِلغِنَى رَبٌّ غَفُورُ

* * *

(١) في رواية أخرى « دعيني » بدلا من « ذريني » .

(٢) في رواية « وأحقرهم » بدلا من « وأدناهم » . وفي رواية أخرى « وأبعدهم » . وفي الشطر الثاني في رواية أخرى « كرم » بدلا من « حسب » . والخير بالكسر : الكرم .

(٣) في رواية أخرى « ويقهره » بدلا من « وينهره » .

(٤) في رواية أخرى « ويلفى » بالفاء والبناء للمجهول . وفي رواية غيرها « وتلفى ذا الغنى » بالفاء والبناء للعلوم . وفي رواية « فؤاد صاحبه » .

* * *

يوسف خليف

القِطَط السِّمَان

* * *

ترسم هـذه المقطوعة القصـيرة صورة للنزعة الإنسانية التى كانت تملأ على عروة أرجاء نفسـه ، أو — اذا استعرنا المصطلح الحديث — صـورة لنزعة اشتراكية مبكرة خالصة من تعقيدات المذهب وعقلانية الفلسفة ، فهو يوازن فيها بين نفسه و بين رجل من الأغنياء البخلاء ، أو — كما يقال الآن — بينه و بين واحد من « القِطَط السِّمان » الذين أتخمهم الغِنىَ والبخل ، والذين أكلوا حقوق مجتمعهم عليهم فاكتست أجسامُهم شحما ولحما ، و يعلن — فى اعتزازٍ بموقفه — أنه فخور بهزاله لأنه يُؤْثِر غيره من الفقراء الجياع على نفسه ، بل إنه — فى الحقيقة — يقسِّم جسمه فى جسومهم ، فهو لا يعيش لنفسه و إنما يعيش لهم .

* * *

١ إنى امرُؤٌ عافِى إنائىَ شِرْكةٌ وأنتَ امرؤ عافى إنائكَ واحدُ

٢ أتهزأ مِنىّ أنْ سَمِنْتَ وأنْ تَرَى بجسمىَ مَسَّ الحقِّ، والحقُّ جاهدُ ؟

٣ أقسِّمُ جسمى فى جسوم كثيرةٍ وأحسُو قَرَاحَ المـاءِ، والمـاءُ باردُ

---

(١) العافى : الضيف وكل طالب فضل أو رزق ، والمقصود بعافى الإناء من يقصده من الضيوف أو من الفقراء المحتاجين . يقول إن إناءك لنفسك وحدك ، وأما إنائى فإنه شركة لكل من يقصدنى .

(٢) الحق هنا هو حق مجتمعه عليه . والحق جاهد أى أنه يجهده و يتعبه و يرهقه . وفى رواية أخرى « وقد ترى بوجهى شحوب الحق » .

(٣) قراح الماء : يريد الماء الخالص الذى لم يخالطه اللبن . والماء البارد : رمز للشتاء الذى تشتد فيه حاجة الإنسان إلى الطعام . يقول إنه فى ليالى الشتاء الباردة حيث تشتد حاجة الإنسان إلى الطعام يكتفى هو بالماء الخالص و يؤثر غيره من الفقراء الجياع بطعامه . وفى رواية أخرى « أفرق جسمى » .

* * *

يوسف خليف

تَصميمٌ وإصرارٌ

* * *

فى هـذه المقطوعة يدير عروة حوارا بينـه وبين زوجته — كما هو الحال فى كثير من شعره — يحدّد لها فيه هدفا آخر من أهـداف حركته، ويعرض جانبا آخر من جوانب نزعته الإنسانية. إنه مصمّم على المغامرة، وإنه لا يخشى الموت من ورائها، فقد يدركه الموتُ وهو مقيم بين أهله، لأن الموت هو المصير المحتوم الذى لا مفر منـه. وهو يفعل ذلك لا من أجل مطلب شخصى له، وإنمـا من أجل حقوق الفقراء المحتاجين المستضعفين فى الأرض عليه. إنه من أجلهم يبذل كل ما جمعه من مال، وكل ما حققـه من غنًى فى مغامراته، وإنه لن يتوقف فى منتصف الطريق، ولن يقنع بأنصاف الحلول، فالهـدفُ واضح أمامه، ولن يثنيه شىء عنه، فإما أن يحققه، وإما أن يُرضِىَ نفسه بالمحاولة، وحَسْبه — فى هذه الحالة — أن يجد لنفسه عذرا عن إخفاقه فى تحقيقه، « ومُبْلِـغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ » — كما يقول فى قصيدة أخرى.

* * *

١ أرَى أمَّ حسانَ الغَـداةَ تلومنى تخوِّفنى الأعداءَ، والنفسُ أخْوَفُ

٢ تقـول سُلَيمَى : لو أقمتَ لَسَرَّنا ولم تَدْرِ أنى للمُقَـام أطَـوِّفُ

---

(١) أم حسان : زوجته. وقوله « والنفس أخـوف » يريد به أنه يدرك مدى الخطـر الذى يتعرض له فى مغامراته، ولا يجهل أنه مقدم على مخاطر هو أشد خوفا منها، ولكنه — مع ذلك — مصمم عليها.

(٢) يقول إن زوجته تغريه بالبقاء إلى جانبها لتتحقق لها السعادة بإقامته معها، ولكن غاب عنها أنه بخروجه وتطوافه فى الأرض إنمـا يعمل على استقراره بعد ذلك عندما تتحقق أهدافه ويتم رسالته.

٣ لعــل الذى خَوَّفتِنا مِنْ وَرائنـا يُصادِفُه فى أهــلِه المتخلِّفُ

٤ إذا قلتُ : قدجاء الغنَى، حالَدُونَه أبو صِبْيَة يشكو المَفَـاقرَ أعجَفُ

٥ له خَلَّةٌ لا يدخُلُ الحـقُّ دونَهـا كريمٌ أصابتْهُ خطوبٌ تُجَـرِّفُ

٦ فإنى لَمُستاف البـلادِ بِسُرْبَةٍ فَمُبْلِـغُ نفسٍ عُذْرَها أو مُطَوِّفُ

٧ رأيتُ بنى لُبْنَى عليهـمْ غَضاضةٌ بيوتهمُ وسْطَ الحُـلُولِ التَّكَنُّفُ

---

(٣) المتخلف : المقيم مع أهله الذى تخلف عن مشاركة رفاقه فى الغزو . ومن ورائنا : أى من وراء خروجنا للغــزو والغارة . وفى رواية أخرى « من أمامنا » . يقول إن الموت الذى تخوفه منه زوجته فى غزواته قد يصادفه وهو مقيم معها ، ففيم الخوف إذن ؟

(٤) المفاقر : جمع مفقرة وهى الفقر . وأعجف : هزيل جف عوده من الفقر والجوع والحاجة . يقول إن إحساسه بمســئوليته أمام الفقراء الجياع المهزولين الذين يكدحون لســد رمق أبنائهم الصغار، يجعــله لا يبقى لنفسه شيئا مما يغنمه فى غزواته من أموال تكفى لتحقق له الغنى . إنه قادر على أن يكون غنيا ، ولكن إيمانه بمذهبه الاشتراكى ونزعته الإنسانيــة يحول دون ذلك ، وهو — مع ذلك — لا يأسف على مال جمعه ثم أنفقه فى سبيل مبدئه .

(٥) الخلة : الفقر والحاجة . وقوله « لا يدخل الحق دونها » يعنى أن مجتمعه تنكر لحقوقه المشروعة عليه فلم يقف معه ليدفع عنه فقره وحاجته . وتجرف : أى تجرف ماله وتذهب به ولا تبقى منه شيئا ، وكأنه يقول — كما نقول الآن — إنه عزيز قوم ذل . وفى رواية أخرى « حوادث تجرف » .

(٦) مستاف : أى أقطع المسافات البعيدة . والسربة : جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين . يقول إنه لن يكف عن مغامراته مع فرسان الصعاليك لتحقيق أهداف حركته الإنسانية النبيلة حتى يــتم له تحقيقها ، أو تحول الظروف القاهرة دون ذلك فيجد لنفسه عذرا فى التوقف الاضطرارى .

(٧) بنو لبنى : حى من الفقــراء ، أو لعلهــم رمز لمن كان يسميهم « عيــاله » من الفقــراء . والغضاضة : الذلة التى تدفعهم إلى أن يغضوا من أبصارهم حياء من الناس ، ورد فعل لإحساسهم بالهوان . والحلول : الأحياء المقيمة فى منازلها ، ويريد بها قبائلهم . والتكنف : النزول فى أكناف من الشجر لأنهم ليست لهــم بيوت يقيمون بها . وأكناف الشجر : المواضع التى يكتنفها الشجر ويحيط بها ، وكأنها ما نطلق عليــه فى الريف المصرى « الأخصاص » . يختم الأبيات بهــذه الصورة المهينة لفئة مطحونة — كما يقال الآن — من مجتمعه .

* * *

يوسف خليف

حُقـوقُ المجتمِـعِ

* * *

في هذه المقطوعة القصيرة يرسم عروة صورة لجانب آخر من نزعته الإنسانية التي وهب حياته لتحقيقها ، ويحدد هدفا آخر من أهداف حركته الاجتماعية . إنه يريد أن ينطـلق في آفاق الأرض الواسـعة بحثا عن الغنَى الذى استأثرت به لنفسها طبقَةُ المَـالَة لتتحكم به في توجيه حياة المجتمع كيف تشاء ، وليكون بين يديها وسيلةً لتحقيق مراكز قوة لها فيه ، ولتفرضَ نفسها عليـه وتصبحَ اليد العليا فيه . ولكنه لايطالب الغـنى لشيء من ذلك ، وإنمـا يطلبه ليكون عنصرا مؤثرا في حياته الاجتماعية ، وعاملا لتحقيق أهدافه الإنسانية التي يعمل لها ، من الوفاء بحقوق مجتمعه عليه ، والدفاع عن سلامته الاجتماعية ، ونصرة الضعفاء والمظلومين والمعذَّبين من إخوانه في الإنسانية . وهو يبدأ هـذا كله بحديث مع زوجتـه التي تحاول أن ترده عن مغامراته خوفا منها على حياته ، وهي صورة نراها تتردد كثيرا في مطالع قصائد الصعاليك ومقطوعاتهم .

* * *

١ دعيني أطـوِّفْ في البـلاد لعلني أُفِيدُ غِنًى فيـه لذى الحقِّ مَحْمَـلُ

---

(١) فيه لذى الحق محمل : أى فيه ما يحمـل عن أصحاب الحقوق أعباءهم ، و ييسر لهم الحصول على حقوقهم المشروعة .

٢ أليس عظيما أنْ تُلِمَّ مُلِمَّــةٌ وليس علينـا فى الحقوق مُعَوَّلُ ؟
٣ فإنْ نحن لم نَملِكْ دفاعا بحـادثٍ تُـلِمُّ به الأيامُ فالمـوتُ أجْمَـلُ

(٢) الملمة : الأمر الشديد ينزل بالإنسان . والمعول : مصدر ميمى من عول عليه بمعنى اعتمد . يستنكر أن يقف من مشكلات مجتمعه وحقوق أبنائه المشروعة موقفا سلبيا . إنه يريد أن يكُون عاملا إيجابيا فيه ، يخوض أعماق مشكلاته ، ولا يقف على هامشها متفرجا لا رأى له .

(٣) يقول إن الموت خير له من أن يقف هــذا الموقف السلبي ، وإذا كنا نقف عاجزين عن المشاركة فى الدفاع عن حقوقنا فما قيمة الحياة ؟

* * *

يوسف خليف

(٥)

تُرَاثُ الصُّعلوكِ

* * *

فى هـذه المقطوعة القصيرة التى تقع فى ثلاثة أبيات يسجِّل عروة ما سوف يخلِّفه من بعده لمن ينتظرون ميراثه . وما الذى يخلِّفه صعلوكٌ عاش فقيرا ، ومات فقـيرا ، ووزّع ما بين حياته وموته كلَّ ماغَنِمه من غاراته وغزواته التى ضحّى فى سبيلها بحيـاته على رفاقه الصعاليك من شاركوه فيهـا ، ومن لم يشاركوه لضعفهم ومرضهم ؟ إنها أسلحته ، وهى الشىء الوحيد الذى حَرِص عليـه طول حياته ، وضَنّ به على غيره من الناس . إنهـا دِرعه ومِغفَـره وسيفه ورمحـه وجواده ، ثم لا شىء غير ذلك .

* * *

١ وَذِى أَمَلٍ يَرجُو تُرَاثِى ، وإنَّ مَا ... يصيرُ له منـه غدًا لَقليـلُ

٢ وما لِىَ مالٌ غيرَ دِرْعٍ ، ومِغفَـرٌ ... وأبيضُ مِنْ مَاءِ الحَدِيدِ صَقِيلُ

٣ وأسمَـرُ خَـطِّىُّ القناةِ مُثقّفٌ ... وأجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طويلُ

(٢) المغفر : زرد ينسج ويلبس تحت غطاء الرأس فى أثناء القتال ، والرفـع فى إعرابه للعطف على محل « درع » وهو الرفع ، لأن المعنى « ومالى إلا درع ومغفـر » ، أو يكون فى الأبيـات إقواء . والأبيض : السيف .

(٣) الأسمر : الرمح . وخطى القناة : نسبة إلى إقليم الخط بالبحرين ، وكان مشهورا بصناعة الرماح . والمثقف : الذى صقله صانعه وسوى كعوبه . والأجرد : الحصان . والسراة : الظهر . وعريان السراة : ليس على ظهره سرج ، رمزا لفقر الشاعر .

* * *

يوسف خليف

بِشر بن أبى خَازِم

* * *

بِشْر بن أبى خازم شاعر جاهلى من بنى أسد ، عاش فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى قبيل ظهور الإسلام .

وأبرز ما فى حياته وشعره اشتراكُهُ فى وقائع قومه بنى أسـد ، ونعنى بصورة خاصة يومى النِّسَار والجِفَـار ، فنراه يصور المعارك تصويرا دقيقا ، ويشيد بذكر أبطال قومه ، ويفتخر بشجاعته وفروسيته ، ويهجو الأعداء .

وقد وضعه محمد بن سلام الجمحىّ فى الطبقة الثانية من فحول شعراء الجاهلية مع أوس بن حَجَر ، وكعب بن زهـير ، والحطيئة ، واختار له المفضَّل الضبىّ أربع قصائد فى المفضليات دلالةً على تقـدُّمه عنده ، ووضَع صاحب « جمهرة أشـعار العرب » قصيدةً لبشر فى المُجَمْهَرات التى تلى المعلقات أهميـةً فى رأيه ، واختار له هِبَة الله بن الشَّجَرى ست قصائد فى ديوانه ، كما اختار له محمد بن المبارك صاحب « منتهى الطلب من أشعار العرب » تسع قصائد .

وقد كانت نهاية بشر بن أبى خازم نهاية درامية حين أغار فى جماعة من قومه على الأبناء من بنى صَعْصَعة بن معاوية ، فلما كانوا بموضع يقال له الرِّدْه من بلاد قيس ، مَرّ بِشْرٌ بغلام من بنى وائلة من الأبناء تختلف المصادر فى اسمه ، فأراد بشر أن يأسر الغلام ، فرماه بسهم أصابه بالقرب من قلبه ، فاعتنق بِشرٌ فرسه وهو جريح ، وأخذ الغلام فأوثقه ، فلما جَنَّ الليل تيقَّن بشر أنه ميت ، فأطلق الغلام

الوائليّ من وثاقه ، وقال له : أَعْلِمْ قومَكَ أنك قتلتَ بشرا . ثم اجتمع أصحابه إليه فسألوه الوصية ، فقال هذه القصيدة التي يرثي فيها نفسه مخاطبا ابنة له اسمها عُمَيرة يبدو أنها كانت لاتزال صغيرة تمنّي نفسها بعودة أبيها الفارس البطل وهو يحمل إليها — كما عوّدها من قبل — الغنائم والأسلاب ، وهو يتخيل قلقها لغيابه ، وتعرُّفَها أخباره من القوافل الآتية من أرض المعركة ، وهي لن تلبث إلا قليلا حتى تعرف نبأ موته على يد الغلام الوائلي ، وتلك نهاية كلِّ حيٍّ . ونراه يفخر في تلك المرثية بشجاعته وصلابته ، ويبدي أسفه على تلك النهاية العاجلة التي لم تمكّنه من أعداء آخرين كان يريد النَّيْل منهم .

* * *

مَـوْتُ بَطَـلٍ

* * *

١ أسائلةٌ عُمَيْرَةُ عن أبيها ... خِلالَ الجيش تَعْتَرِفُ الرِّكابا

٢ تُؤَمِّلُ أنْ أؤوبَ لها بنَهْبٍ ... ولم تَعْلَمْ بأنَّ السَّهمَ صابا

٣ فإن أباكِ قد لاقَى غلاما ... من الأبناءَ يَلْتَهِبُ الْتِهابا

٤ وإن الوائليَّ أصابَ قلبي ... بسهمٍ لم يكن يُكْسَى لُغَابا

٥ فَرَجِّي الخيرَ وانتظري إيابي ... إذا ما القارِظُ العَنَزِيُّ آبا

(١) تعترف : تسأل عن خبره . الركاب : الإبل التي تحمل القوم ويريد بها القوم أنفسهم .

(٢) النهب : الغنيمة . صاب : أصاب .

(٣) الأبناء : بنو صعصعة بن معاوية إلا عامر بن صعصعة يدعون الأبناء وهم : وائلة ، ومرة ، ومازن ، وغاضرة ، وسلول . يلتهب التهابا : يحترق غضبا .

(٤) اللغاب : الريش الرديء يكسى به السهم فلا يذهب بعيدا ولا يصيب .

(٥) القارظ : الذي يجني القرظ وهو شجر يدبغ بورقه وثمره ، وكان رجل من عنزة خرج يطلب القرظ فمات ولم يرجع فأضحى مثلا لليأس من العودة .

٦ فمن يكُ سـائلا عن بيتِ بِشْرٍ ... فإنّ له بجَنْبِ الرَّدْهِ بابا
٧ ثَوى فى مُلْحَـد لا بدَّ منـه ... كَفَى بالمـوت نأياً واغترابا
٨ رهينَ بِلىً ، وكلُّ فتىً سيَبْلَى ... فأذْرِى الدمعَ وانتحِبى انتحـابا
٩ مضَى قَصْـدَ السبيلِ وكُلُّ حَىٍّ ... إذا يُدْعَى لِميتَتِه أجابا
١٠ فإنّ أهلكَ عُمَـيْرٌ فربُّ زَحْـفٍ ... يُشَبِّه نَقْعَـه عَدْوًا ضَـبابا
١١ سمـوتُ له لِأَلْبِسَـه بزَحْـفٍ ... كما لَفَّتْ شآمِيَـةٌ سحـابا
١٢ على رَبِـذ قوائمُـهُ إذا ما ... شَـأَتْه الخيـلُ ينْسَربُ انسرابا
١٣ شـديدِ الأَسْرِ يَحْمِـلُ أريحيًّا ... أخا ثقـةٍ إذا الحدَثانُ نابا
١٤ صـبورا عنـد مُخْتَلَفِ العَـوالِى ... إذا ما الحـربُ أبرَزَتِ الكَعَابا
١٥ وطـال تشاجُرُ الأبطـالِ فيها ... وأبدتْ ناجِذًا منهـا ونابا

(٦) البيت هنا بمعنى القبر . الرده : موضع فى بلاد قيس وصل إليه الشاعر وهو يجود بنفسه .

(٧) الملحد : القبر . النأى : البعد .

(٨) أذرى : اسكبى .

(٩) قصد السبيل ، الطريق المستقيم الواضح .

(١٠) الزحف : المقاتلون . النقع : الغبار الذى تثيره الخيل فى أثناء القتال عندما تجرى .

(١١) سموت : نهضت . الشآمية : يقصد الريح الآتية من الشام .

(١٢) ربذ قوائمـه : أى فرس خفيف القوائم فى أثناء العـدو ؛ شأته : سبقتـه . ينسرب : يشتد فى عدوه .

(١٣) الأسر : الخلق والبنيان . الأريحى : الكريم الذى يرتاح لعمل الخير ، الحدثان : مصائب الزمان . ناب : وقع .

(١٤) العوالى : الرماح . مختلف : يعنى حركة الرماح عند الطعن يمينا و يسارا وصعودا وهبوطا . الكعاب : الفتاة التى كعب ثديها أى نهد و برز . أبرزت : أخرجت من الستر لشدة الحرب .

(١٥) التشاجر : الصراع والاشتباك ، الناجذ : أقصى الضروس ، وظهور النواجذ والأنياب كناية عن هول الحرب .

١٦ فعزّ عليَّ أنْ عَجِلَ المنايا ولمّا ألقَ كَعْبا أو كِلابا

١٧ ولمّا ألقَ خيلا مِنْ نُمَيْر تَضِبُّ لِثَاتُها ترجو النِّهابا

١٨ ولمّا تلتبِسْ خيلٌ بخيل فيَطَّعِنوا ويَضْطربوا اضطرابا

١٩ فيا لَلنّاسِ إنَّ قناة قومى أبَتْ بِثِقافِها إلّا انقلابا

٢٠ هُمُ جَدَعوا الأنوفَ فأوعَبُوها وهمْ تَرَكوا بنى سعدٍ يبابا

(١٦) عجل المنايا : جاء الموت متعجلا . كعب وكلاب : من أحياء بنى عامر ، وكان بين بنى أسد قوم الشاعر وبين بنى عامر حروب متصلة .

(١٧) نمير : من أحياء بنى عامر . اللثات : جمع لثة وهى مغارز الأسنان ويريد بها الأفواه . وضبت اللثة : تحلب ريقها ، ويضرب مثلا للنهم الحريص على الأمر ، وهو هنا يصف الخيل بشدة شهوتها للقاء ويعنى أصحابها . النهاب : جمع نهب وهى الغنيمة .

(١٨) تلتبس : تختلط . خيل بخيل : يقصد المقاتلين . يطعنون : يقاتلون بالرماح . يضطربون : يقاتلون بالسيوف .

(١٩) الثقاف : آلة من خشب فيها ثقب تسوى بها الرماح . يصف قومه بالصلابة .

(٢٠) جدعوا : صدعوا ، أوعبوها : استأصلوها . بنو سعد : سعد بن زيد مناة من أحياء تميم وحلفاء بنى عامر . اليباب : الخراب .

* * *

محمد مصطفى هدارة

قَيْس بن الخَطِيم

* * *

أبو يزيد قيس بن الخطيم بن عَدِيّ بن عمرو بن سَوَاد بن ظفر بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة ، فقيس من الأوس ومن بنى ظفر خاصة ، فهو من شعراء المدينة . وقد قُتِل جده عدىّ ثم قُتِـل أبوه الخطيم قبل أن يُدْرِك بثأر عدى ، وكان قيس حين قتل أبوه الخطيم صغيرا ، والذى قَتَل جدّه رجلٌ من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك ، والذى قتل أباه رجل من عبد القيس ممن يسكن هَجَر . وخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك ، فعَمَدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم فوضعت عليها أحجارا ، وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك . فلما اشتد ساعده عيَّره أحد أصحابه بتركه ثأر أبيـه وجده ، فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثدييه ، وقال لأمه : أخبرينى من قتـل أبى وجدى ، قالت : ماتا كما يموت الناس وهذان قبراهما بالفناء ، فقال : والله لتخبريننى من قتلهما أو لأ تحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . فأخبرته الحقيقة وطلبت منه أن يستعين بخِدَاش بن زهير لأن قاتل جده من قومه ، فذهب إليه ودله على قاتل جده فقتله قيس ، ثم صَحِب خداشٌ قيسا ليدله على قاتل أبيه . ومَكّنه من إدراك ثأره ، فقد طعن قيس غريمـه بالحربة فى خاصرته فأنفـذها من الجـانب الآخر حتى مات مكانه .

وأدرك قيس الإسلام ولم يسلم، وقُتِل قبل الهجرة ، قتله الخزرج. وكان من أحسن الناس وجها ، بل إنه ممن كانوا يتعممون مخافةَ النساء على أنفسهم من جمالهم .

* * *

وشعر قيس يأتى فى المرتبة الأولى من بين أشعار أهل المدينة ، بل يفضله بعض العلماء على شعر حسان بن ثابت ، وكان حسان بن ثابت نفسه يقول : إنَّا إذا نافرتنا العربُ فأردنا أن نخرج الحَبِرات (برود يمنية موشّاة مخططة ويعنى بها روائع الشعر) من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم . ويقول الشريف المرتضَى فى أماليه : وقد قال الناس فى الطيف والخيال فأكثروا ، وقد سَبَق فى ذلك قيسُ بن الخطيم إلى معنًى كلُّ الناسِ فيه عيالٌ عليه .

وهو يبدأ قصيدته التى نقدمها بالنسيب وكان متقدما فيه ، فيشبب بليلى ويذكر حسنها وصفاء بشرتها وأنها فارقته فلا يستطيع لقاءها ، ثم يفخر بتأثيره فى النساء وأنه كثيرا ما استمال الغانيات ، ويفخر فى الوقت ذاته بأخلاقه العربية القويمة ، فهو لا يستميل قلب قرينة له كامرأة الابن أو الأخ أو قلب جارة يحفظ عليها حياءها .

كذلك يفخر — كعادة الجاهلى — بشربه الخمر للدلالة على فتوته ، ويشير إلى كرمه فى حال الصحو والسكر .

ثم يبدأ فى الحديث عن الموضوع الأصلى فى القصيدة وهو إدراكه الثأر من قاتلى أبيه وجده ، وصَوَّر نقمته على قاتل أبيه خاصةً بهذا التصوير الأخاذ للطعنة التى قتل بها ابن عبد القيس، حتى إن الأواسى اللائى تعودن على مناظر الجراح البشعة لم يستطعن النظر فى جرح هذا الرجل لبشاعته .

وبعد أن فخر قيس بإدراكه الثأر فخر بشجاعته فى المعارك ، وبذله النفس رخيصة لإدراك المجد ، وبين أنه سوف يلقى الموت حين يأتيه هانئا مطمئنا بعد إدراكه الثأر ، وفخر بقومه من الأوس وبدورهم العظيم فى يوم بُعَاث .

* * *

إدراكُ ثأر

* * *

١ تَذَكَّرَ ليلَى حسنَها وصَفَاءها — وبانتْ فأمسَى ما يَنَال لقاءها

٢ ومثلكِ قد أصْبَيْتُ ليستْ بِكَنَّة — ولا جارة أفضَتْ إلىَّ حياءها

٣ إذا ما اصطبحتُ أربعا خَطَّ مئزرى — وأتبعتُ دلْوى فى السَّخاء رِشَاءها

٤ ثأرتُ عَدِيًّا والخَطِيمَ فلم أُضِعْ — وِلايةَ أشياءٍ جُعِلْتُ إزاءها

٥ ضَرَبتُ بذى الزِّرَّين رِبْقَةَ مالكٍ — فأُبْتُ بنفسٍ قد أَصَبتُ شِفاءها

٦ وساَمحَنى فيها ابنُ عمرِو بنِ عامرٍ — خِدَاشٌ فأدَّى نِعمةً وأفاءها

---

(١) بانت : فارقت وبعدت .

(٢) أصبيت : استملت ، الكنة : امرأة الابن أو الأخ ، أفضت إلى حياءها : رفعت الستر بينى وبينها .

(٣) اصطبحت : شربت الخمر فى وقت الصباح ، أربعا : يعنى كؤوسا أربعا ، خط مئزرى : جررت ثوبى من الخيلاء ، السخاء : الكرم ، أتبع الدلو رشاءها : مثل يضرب لمن يقضى معظم الحاجة ويبق منها بقية ، ويعنى الشاعر هنا أنه يقوم بواجب الكرم فى حال الصحو ويتممه فى حال السكر .

(٤) عدى هو جد الشاعر ، والخطيم أبوه ، ثأرت : أدركت ثأرهما ، ولاية الشىء : القيام عليه ، جعلت إزاءها : جعلت القيم بها .

(٥) ذو الزرين : اسم سيف ، وزر السيف حده ، ربقة : يريد موضع الربقة من عنقه .

(٦) سامحنى : تابعنى ، خداش : هو الشاعر المشهور خداش بن زهير من بنى عامر بن صعصعة وقد ساعد قيسا فى الأخذ بثأر أبيه وجده ، أدى : أعاد نعمة أخذت منهم ، أفاءها : جعلها فيئا أى غنيمة ، أو أرجعها .

٧ طَعَنتُ ابنَ عبد القيس طعنةَ ثائرٍ لهـا نفَـذٌ لولا الشُّعاع أضاءها

٨ مَلَكتُ بهـا كفِّى فأنهرتُ فتقها يَرَى قائمـا مِنْ خَلفِها ما وراءها

٩ يهُـون علىّ أنْ تَرُدَّ جراحَهُ عيونَ الأَواسى إذ حَمِدْتُ بلاءها

١٠ وكنتُ امرءاً لا أسمع الدهرَ سُبَّةً أُسَبُّ بها إلا كَشَفتُ غِطاءها

١١ وإنّى فى الحرب الضَّرُوس مُوَكَّلٌ بإقدامِ نفسٍ ما أُرِيدُ بقاءهـا

١٢ إذا سَقِمَتْ نفسى إلى ذى عداوةٍ فإنى بنصلِ السيف باغٍ دَوَاءها

١٣ متى يأتِ هذا الموتُ لا تَبْقَ حاجةٌ لنفسىَ إلا قـد قَضَيْتُ قَضَاءها

١٤ وكانت شَجًا فى الحَلْق ما لم أَبُؤْ بها فأُبْتُ بنفسٍ قد أَصَبْتُ دَوَاءها

(٧) ابن عبد القيس رجل من قبيلة عبد القيس كان الحطيم قد قتل أباه فأخذ ثأره منه، وهو نفسه الذى ثأر منه قيس، لهـا نفذ: أى نفذت، الشعاع بالضم: حمرة الدم، وإذا جعلت الشعاع بالفتح: كان معناها انتشار الدم، أضاءها: أبصر ما وراءها لاتساع الطعنة وعمقها.

(٨) ملكت: شـددت، أنهرت: أجريت الدم، ومعنى البيت: شـددت بهذه الطعنة كفى ووسعت خرقها، حتى يرى القائم من دونها الشىء الذى وراءها.

(٩) الأواسى: النساء المداويات للجراح، وهن يرددن عيونهن عن هذه الطعنة لفظاعتها، وبلاءها: شدتها وفظاعتها.

(١٠) سبة: عار ومنقصة، كشف غطاءها: منعها بإزالتها.

(١١) الضروس: الشـديدة، الإقدام: الشجاعة وبذل النفس، ما أريد بقاءها: يريد أنه ليس حريصا على الحياة.

(١٢) سقمت: مرضت وهى هنا بمعنى كرهت، ويطلب دواءها بنصـل السيف أى بقتل عدوه الذى يبغضه.

(١٣) قضيت قضاءها: شفيت كل ما بنفسى من رغبات ويعنى ثأره.

(١٤) الشجا: الغصص والحزن، لم أبؤ بهـا: لم أحتملها وأقض ثأرى. أبت: عدت بعد قضاء الثأر.

١٥ وقد جَرَّبَتْ مِنِّي لدىَ كلِّ مَأقِطٍ دُحَىٌّ إذا ما الحربُ ألقتْ رِدَاءها
١٦ وإنّا إذا ماممُتَرُو الحربِ بَلَّحوا نُقيم بأَسبادِ العَرِينِ لواءها
١٧ ونُلقِحها مبسورةً ضَرْزَنِيَّةً بأسيافنا حتى نُذِلَّ إباءها
١٨ وإنّا مَنَعنا فى بُعاثٍ نساءنا وما مَنَعتْ مِ الْمُخْزِيات نِسَاءها

(١٥) المأقط : المأزق وخاصة فى الحرب ، دحى : اسم قبيلة ، ألقت رداءها : تجردت ، كناية عن شدة الحرب .

(١٦) ممترو الحرب : الذين يستدرونها ، يقال : مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدر ، بلحوا : أعيوا ، الأسباد : جمع سبد (بكسر السين وسكون الباء) وهو الذئب والداهية ، وهو يعنى هنا بأسباد العرين : الأسود من فرسان قبيلته .

(١٧) مبسورة : من بسر الفحل الناقة أى ضربها على غير شهوة منها ، الضرزنية : العاصية ، وهو يعنى قدرتهم العظيمة فى القتال وسيادتهم على أعدائهم .

(١٨) يوم بعاث من أيام العرب المشهورة فى الجاهلية وكان بين الأوس والخزرج .

* * *

محمد مصطفى هدارة

الحَـادرَة

* * *

الحادرة هو قُطْبَة بن أوس بن مِحْصَن ، من بنى ثَعْلبة بن سـعد بن ذبيان ثم من غَطَفان بن سـعد ، ويُنْسَب إلى غطفان أو إلى ذبيان ، وكانت منازل قومه فى الحجـاز .

عاش الحـادرة فى آخر العصر الجاهلى قريبا من الإسـلام ، وربمـا أدرك الإسـلام ولكنه لم يسلم . وقد جعله محمـد بن سلام فى الطبقة التاسعة من فحول شعراء الجاهلية . وأهم أغراض شعر الحادرة الغـزل وقد اشتهر بمحبوبته سُمَيَّة ، وكذلك الهجاء . ويمتـاز شعره بسماحة اللفظ وإحكام السبك ، ولولا قلة شـعره الذى وصل إلى علمائنا الأقدمين لقُدِّم على كثير من الشعراء الجاهليين .

وقد بدأ قصيدته التى اخترناها بالتغـزل فى محبوبته سميـة التى قَطَعت حبل الود بينها وبينه وابتعدت عنه ، وعَرَضَتْ أحداثٌ صَرَفته عن زيارتها ، وشُغِل كل منهما عن الآخر ، وتمنى لو أتيح له أن يراها فى يوم الدَّوَّار ، ولكنه كان على يقين من أنه لن يراها بعد رحيلها . وحين يصل إلى هذا اليأس يقول لها : اذهبى عنى فأنا رجل أصيل ذو حسب ، ويأخذ فى تعداد صفاته السامية النبيلة ، وهى لا تنطبق عليـه وحده ، بل هى فى الحقيقة مُثُل عربية عليا يفخر بهـا الإنسان العربى ، وتنحصر فى البعد عن الفواحش ، والتزام العفة ، وتجنب العيب ، والصبر على الشدائد والمكروه ، والتجمل عند الرزيئة ، والكرم فى وقت الشدة ، وتقديم العون للضعيف ، ونجدة الملهوف ، والشجاعة الفائقة فى وقت القتال .

* * *

مُثُلٌ عربيّةٌ عُليـا

* * *

١ أمستْ سُمَيّـةُ صَرَّمَتْ حَبْـلى ... ونأتْ وخالفَ شَكلَها شَـكْلى

٢ وعدا العَوادِى عن زيارتهـا ... إلا تلاقِينَـا على شُـغْلِ

٣ ورَجَاهُـمُ يوم الدَّوَار كما ... يرجـو المقامِرُ نَيْـلَ الخَصْلِ

٤ ولقد عرفتُ لئن نأتْ وتباعدتْ ... ألا تُلاقِيَهـا سِـنِي الحِسْـلِ

٥ فِيـئى إليـكِ فإننى رَجُـلٌ ... لم يُخْـزِنى حَسَبِى ولا أصـلى

٦ أَدَعُ الفواحش أن أَسَبَّ بهـا ... وشَرِيكَهـا فكليهما أَقْـلى

٧ ووجدتُ آبائى لهـمْ خُـلُقٌ ... عَفُّ الشمائلِ غيرُ ذى دَخَـلِ

٨ لـو تَصْـدُقِين لَقُلْتِ إنهـمُ ... صُـبُرٌ على النَّجَدات والأَزْلِ

٩ وعلى الرزيّةِ مِن نفوسهـمُ ... وتَلاتِلِ اللَّـزَبات والقَتْـلِ

---

(١) صرمت حبلى : قطعت وصالى .

(٢) عدا العوادى : صرفت الصوارف .

(٣) الدوار : نسك كان لأهل الجاهلية يطوفون حوله . والمعنى رجا أن يلقاهم يوم الدوار حين يطوفون بالنسك . الخصل : الاتفاق على شىء معلوم فى القمار .

(٤) الحسل : الضب الصغير ، وفى المثل : لا آتيك سن الحسل ، أى أبدا لأن سنه لا تسقط أبدا حتى يموت .

(٥) فيئى إليك : تباعدى عنى .

(٦) أقلى : أكره .

(٧) الدخل : العيب .

(٨) النجدة : القتال والشدة . الأزل : الضيق .

(٩) الرزية : المصاب فى النفس والمـال . التلاتل : الزلازل . اللزبات : الأزمنة الشديدة والجـوع .

١٠ هــلّا سألت إذا هــمُ احتمــلوا فتحوّلوا لخطيطــةٍ محْــلِ
١١ يُعْــيِي الرِّعاء بهــا مَسَارِحَهُــمْ وجَفَت مراتِعُهــا عن البُزْل
١٢ إذ لا يُدَنِّسنا الشــتاءُ ولا نَطَــأُ الضــعيفَ إرادةَ الأكْل
١٣ ويُنَفِّسون عن المُضاف إذا نَظَــرَ الفوارسُ عورةَ الرَّجْل
١٤ المُقْبِلــين نُحُــورَ خيلهــمُ حَدَّ الرماح وغَبْيَــةَ النَّبْــلِ

---

(١٠) احتملوا : رحلوا . الخطيطــة : الأرض بين أرضين مطيرتين وقد أخطأها المطــر . المحل : الجدب .

(١١) يعيي الرعاء بها مسارحهم : لايجدون بها مسرحا أى مرعى لإبلهــم لشدة جدبها . البزل : الإبــل .

(١٢) يدنسنا : يشيننا لأنهم لايبخلون فيه على المحتاج .

(١٣) المضاف : اللاجىء . الرجل : الرجالة .

(١٤) الغبية : الدفعة الشديدة من المطر، وهى هنا الدفعة الشديدة من النبال فى وقت الحرب .

* * *

محمد مصطفى هدارة

الأَعْشَـــى

* * *

يعد الأعشى أحد الشعراء الأربعة الكبار الذين أجمع الرواة والنقاد على أنهم أكبر شعراء العصر الجاهلى ، والثلاثة الآخرون هم امرؤ القيس وزهير والنابغة . ويضعه بعض الرواة بين أصحاب المعلقات العشر .

ويرجع نسب الأعشى إلى قبيـلة بكر بن وائل التى دارت بينهـا وبين أختها تغلب حرب البَسُوس المشهورة فى بداية العصر الجاهلى الأدبى . وكانت بكر تنزل فى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على امتداد ما بين وادى الفرات واليمامة فى الجنوب الشرقى من نجـد . وينتسب الأعشى إلى قيس بن ثَعْلبة ، أحد الفروع التى تفرَّعت إليها قبيلة بكر الكبيرة ، وكانت قيس تنزل فى إقليم اليمامة . وقد ظهر فيها شعراء كثيرون معروفون قاموا بدور ملحوظ فى حركة الشعر فى العصر الجاهلى ، كالمرقِّش الأكبر والمرقِّش الأصغر والمتلمِّس وابن أختـه طرفة الشاعر المعروف صاحب المعلقة المشهورة .

والأعشى لَقَب لُقِّب به لضعف بصره ، ولهـذا يُكْنَى أحيانا بأبى بَصِيرٍ . أما اسمه فهو ميمون بن قيس .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة الأعشى الأولى وشبابه ، شأنه فى ذلك شأن أكثر الشعراء الجاهليين . وكل ما نعرفه عن هذه المرحلة المبكرة من حياته أنه وُلِد بقرية من قرى اليمـامة اسمها « مَنْفُوحة » ، فى تاريخ لم يحدده الرواة ، ولكنه — بدون شك — كان فى أواخر العصر الجـاهلى ، فمن الثابت أنه أدرك

الإسلام ، وفكر فى اعتناقه ، وشدَّ رحاله نحو المدينة المنورة ليلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلن إسلامه ، لولا أن قريشا صدته عنه ، فعاد أدراجه إلى ديار قومه حيث لقى مصرعه بعد أن نفرت به ناقته فأردته صريعا وهو على مشارف اليمامة ، وفى مسقط رأسه بقرية منفوحة وُورِىَ مثواه الأخير . ويذكر الرواة أن فتيان قومه كانوا يقصدون قبره هناك حيث يشربون الخمر ويصبون عليه نصيبه منها مشاركةً منهم فى شرابهم . ومن هنا ربما كان التاريخ الذى يذكره جرجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » لسنة وفاته — وهو سنة ٦٢٩ للميلاد — قريبا من الواقع ، وهو تاريخ يوافق السنة السادسة للهجرة .

وفى ضوء ما بين أيدينا من أخباره وشعره يبدو الأعشى كأنه كان دائما على سَفَر ، فهو كثير التنقل والرحلة بين أرجاء الجزيرة العربية ، بل إننا نراه يمُدّ رحلاته إلى الحيرة والعراق واليمن وحضرموت ، بل يذهب بعض الرواة إلى أن رحلاته امتدت إلى بلاد فارس والشام وأيضا إلى بلاد الحبشة ، مستشهدين على ذلك بقوله فى بعض شعره :

وقد طُفْتُ للمالِ آفاقَهُ ... عُمَانَ فحِمْصَ فأورِيشَلِمْ
أتيتُ النجاشىَّ فى أرضه ... وأرض النَّبيط وأرض العَجَمْ
فنَجْرانَ فالسَّرْوَ من حِمْيَرٍ ... فأىَّ مَرَام له لم أَرُمْ
ومن بعد ذاكَ إلى حَضْرَموت ... فأوفيتُ همِّى وحينا أهُمّْ

ولم تكن رحلات الأعشى هذه من أجل الرحلة ، وإنما كانت من أجل الملوك والسادة والأشراف الذين كان يقصدهم لمدحهم ونيل عطاياهم وجوائزهم . ولهذا يجعله الرواة القدماء أحد الذين غَضَّ الشعرُ منهم ، لأنه اتخذ منه وسيلة للسؤال .

ولهذا أيضا يجعله الباحثون المحدثون أهم شاعر حوّل المدح فى الشعر الجاهلى إلى احتراف خالص من أجل التكسب والعيش . وهو بهذا يعـد نقطة تحول ضخمة فى تاريخ شعر المدح ، ومَعْلَما بارزا فى حركة الشعر الجاهلى وتطوره .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأعشى كان نصرانيا ، ويميل بروكلمـان فى كتابه « تاريخ الأدب العـربى » إلى ذلك ، ولكنـه يراه قليـل التعمق فى النصرانية . وأما الدكتور شوقى ضيف فيذهب فى كتابه « العصر الجاهلى » إلى أنه كان وثنيا مُغْرِقا فى وثنيته ، وأما العناصر النصرانية التى تظهر فى شعره فربمـا جاءته من راويته النصرانى يحيى بن مَتّى . وفى رأيى أنه كان وثنيا ، وأن هـذه العناصر تسرّبت إلى شعره من تطوافه الواسع فى أرجاء الجزيرة العربية وما حولها، وتردده على البيئات المسيحية فى اليمن والشام والحيرة .

وحياة الأعشى الخُلُقية صـورة أخرى من حياة امرئ القيس فى خلاعتـه ومجونه ، بل لعـله أشد فجورا وتهتكا منه ، ففى شعره أحاديث كثيرة عن طائفة من الجوارى والقيان اللائى كان يتردد عليهن ، ويتصل بهن ، ويصف ما يدور بينه وبينهن . ومن بين هذه الأحاديث تتردد اعترافاتٌ صريحة عن علاقات غير مشروعة مع طائفة من بنـات الهوى من أصحاب « الرايات الحُمْر » اللائى كنّ يتاجرن فى أعراضهن فى بعض القرى العربية وفى البلاد الأجنبية التى كان يرحل إليها . وفى شعره أيضا إلحـاح على ذكر الميسر ، وإلحـاح أشدّ على ذكر الخمر ، والتصريح بشربها ، ووصف ما يدور فى مجالسها من عربدة وتهتك . وهو لهذا يعـد أهم شاعر جاهلى شُغِل بالحديث عن الخمـر ، واستطاع أن ينهض بوصفها نهضة تجعله يقترب اقترابا واضحا من ذوق الشعراء العباسيين الذين تخصصوا للخمر

كأبي نُوَاس وأضرابه . وقديما جعله النقاد العرب أشعر الشعراء إذا طَرِب ، يريدون بذلك أنه أشعر شعراء الجاهلية حين يصف الخمر .

ومن أهم ما يلاحظ على أسلوب الأعشى في شعره سهولة ألفاظه بالنسبة إلى شعراء عصره . ومن الواضح أن هذه السهولة أثر للحياة المتحضرة التي كان كثير التردد عليها والاتصال بها . وهو في هذا التأثر الحضاري يفوق النابغة بمراحل بعيدة . والسهولة في شعره لا تقف عند لغته فحسب ، ولكنها تمتد أيضا إلى معانيه وأفكاره . وأهم من هذا كله أنها تمتد إلى موسيقاه العروضية ، فهو كثير التنويع فيها مع ميل إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة في طائفة من قصائده . وقد أضفى ذلك على شعره طابعا موسيقيا لفت أنظار الرواة القدماء فأطلقوا عليه « صَنَّاجة العرب » ، اعترافا منهم بهذه الطاقة الموسيقية الضخمة التي كان يمتاز بها ، والتي استطاع أن يوفّرها لكل ما نظمه من شعر .

ولاحظ النقاد عليه أيضا ولوعه بالألفاظ الأجنبية ، وخاصة الفارسية ، التي كان يُكثِر منها في شعره . وهي ظاهرة جاءته — بطبيعة الحال — نتيجة لتردده المتصل على البلاد الأجنبية التي كان يتردد على ملوكها وأمرائها من أجل بيع شعره في أسواق المدح الرائجة بها ، لينفق ما يجمعه منها على خمره ولهوه ولذته . وقد حاول المرزباني في كتابه « الموشَّح » أن يخرجه بسببها من دائرة الفحول ، ولكن أكثر الرواة والنقاد القدماء على أنه واحد من أولئك الأربعة الكبار الذين يعدون فحول الشعراء في العصر الجاهلي .

* * *

يوسف خليف

(١)

المُعَلَّقــــة

* * *

يجعل بعض الرواة هذه القصيدة بين القصائد الثـلاث التى ضموها للعلقات السبع التى اختارها حماد الراوية من روائع الشعر الجاهلى. وهى تبدأ بمقدمة غزلية فى صاحبية له اسمها « هُرَيرة » يقال إنها كانت من القيان المغنيات . ولعل هذا هو الذى طَبّــع غزله فيهــا بطابع حسى صريح يركز تركيزا واضحــا على جمالهــا الجسدى ، و ينتهى — فى صراحه مكشوفة — بإعلان خلاعته وفتكه ومخالسته الأزواجَ من أجل الوصول إلى زوجاتهن . ثم ينتقل بعــد هذا إلى وصف مجلس شراب مع رفاق له فى إحدى الحانات التى تحترف بيع الخمر، وما دار فيه من شرب ولهو وغناء وموسيقا . ثم يخرج من هذا الجو اللاهى بين حانات الخمر وجواريها وسقاتها إلى الصحراء ليصف رحلة فيها فى ليــلة ممطرة بات يرقب فيهــا البرق والسحاب والمطر ، و يتتبع مواقع السيل وهو يتدفق فى أرجاء الصحراء من موضع إلى موضع . ثم ينتقل إلى القسم الأخير من المعلقة ، فيوجّه تهديدا إلى بعض أعداء قبيلتــه الذين كانوا يوقعون بينها و بين القبائل الأخرى ، ويحاولون إشعال نيران الفتنــة بينها و بينهــم . ويختم المعلقة بفخر قَبَلى عريض يفتخر فيه بشجاعة قومه و بطولتهم ، وخبرتهم بفنون القتال ، وقــدرتهم على انتزاع النصر من بين أنياب أعدائهم ، والإطاحة بأبطالهم أشلاءً متناثرةً فوق أسنة الرماح .

وهذه المعلقة — كأكثر قصائد الأعشى — طويلة ، فهى تقع فى أربعة وستين بيتا ، تشغل المقدمة الغزلية منها أربعة وعشرين بيتا ، وهو امتداد يجعلنا نخرجها من أن تكون مقدمة تقليدية إلى أن تكون قِسْما أساسيا من أقسام القصيدة. وهى — ككل شعر الأعشى — غنية بأنغامها الموسيقية التى استطاع الأعشى بأُذُنِه الشديدة الحساسية أن يُرَاوح فيها بين الرقة والنعومة والنَّغَم الراقص فى حديث الحب والخمر، وبين العنف والشدة والنغم الثائر الصاخب فى وصف المطر والسيل وحديث الهجاء والتهديد والفخر ، لحقق لها ذلك التوازن الصوتى الرائع الذى كان الأعشى خير من يُحْسِنه بين شعراء العصر الجاهلى .

* * *

١ وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الركب مُرْتَحِلُ ... وهل تُطيق وَداعا أيها الرجلُ ؟

٢ غَرَّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها ... تمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِى الوَحِلُ

٣ كأن مِشْيتها مِنْ بيت جارتها ... مَرُّ السحابة لارَيْثٌ ولا عَجَلُ

٤ تسمع للحَلْى وَسْواسا إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

(١) هريرة : اسم صاحبته ، ويقال إنها كانت قينة من الجوارى المغنيات اللائى كان الأعشى على صلة بهن . يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدمة الغزلية التى يستهلها بحديث الرحيل والوداع .

(٢) الغراء : البيضاء الجبين . والفرعاء : الطويلة الشعر . والعوارض : الأسنان . والوجى : الفرس يمشى متأنيا بسبب حفى أصاب حافره . والوحل : الذى يمشى فى الوحل ، فهو يتحرك فى حذر شديد . يصف صاحبته بأنها لا تسرع فى مشيتها ، وكان العرب يرون فى ذلك مظهرا من مظاهر الأنوثة الناعمة الرقيقة . يقول إن جسمها الممتلىء يجعل خطواتها بطيئة متقاربة .

(٣) الريث : البطء . والعجل : الإسراع . يصف خطواتها بأنها وسط بين الإبطاء والإسراع ، ويشبهها بحركة السحابة فى انسيابها الهادئ الرقيق .

(٤) الوسواس : صوت خشخشة الحلى . والعشرق : شجيرة صغيرة تخرج أكماما تضم حبا صغيرا إذا جف وحركته الريح أحدث صوتا كالخشخشة . والزجل : الذى يرفع صوته بالغناء . يشبه الشاعر صوت حلى صاحبته بصوت هذا الحب حين تحركه الريح ، ويصف هذا الصوت بأنه غناء يردده صاحبه ويرفع صوته به .

٥ ليستْ كمن يكره الجيرانُ طَلْعتهـا ولا تراها لِسرِّ الجار تَخْتَتِـلُ

٦ يكاد يَصْرَعهـا لولا تَشَـدُّدها إذا تقوم إلى جاراتها الكَسَلُ

٧ إذا تُلاعب قِرْنًا ساعةً فَـتَرتْ واهتزَّ منها ذَنُوب المتنِ والكَفَلُ

٨ صِفْرُ الوِشاح ومِلْءُ الدِّرع بَهْكَنَة إذا تأتَّى يكاد الخَصْرُ يَنْخَـزِلُ

٩ نِعْمَ الضجيعُ غداةَ الدَّجْن يَصْرَعُها لِلَذَّةِ المـرءِ لا جافٍ ولا تَفِـلُ

١٠ هِرْكَولة فُنُقٌ دُرْمٌ مَرافقُهـا كأن أَخْمَصَهـا بالشوك مُنْتَعَلُ

١١ إذا تقوم يَضُوعُ المسكُ أَصْوِرَةً والزنبقُ الوَرْدُ من أردانها شَمِـلُ

(٥) تختتل : تسترق السمع . يصف صاحبته بجمال الخلق والخلق ، فهى جميلة تسر من ينظر إليها ، وهى كريمة الخلق لا تتصنت على أسرار جيرانها .

(٦) لولا تشددها : لولا تماسكها . يقول إن خصرها الضامر النحيـل يكاد لثقل أردافها ينقطع كلما همت بالقيام لولا أنها تماسك وتحامل على نفسها .

(٧) القرن : القرين . وفترت : ضعفت وتهالكت . والمتن : الظهر ، وذنوب المتن : لحمه الممتلىء . والكفل : الأرداف . يصفها بأنها أنثى ضعيفة متهالكة ، لينة اللحم ، ممتلئة الجسد .

(٨) الوشاح : حزام عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين كتفها وخصرها ، وصفر الوشاح أى ضامرة الخصر . والدرع : القميص ، وملء الدرع أى ممتلئة الجسد . والبهكنة : الشابة الغضة ، وتأتى : أصلها تتأتى ، أى تتهيأ القيام . وينخزل : يتثنى حتى يكاد ينقطع .

(٩) الدجن : الغيم : يريد اليوم البارد الممطر . والجافى : الغليظ . والتفل : الكريه الرائحة الذى لا يتطيب . يقول إنها نعم الأنثى التى يتمناها الرجل الذى يحسن معاملة المرأة لمتعته ولذته فى أيام الشتاء الباردة .

(١٠) الهركولة : الممتلئة الوركين . والفنق : الفتية الشباب المنعمة . ودرم مرافقها أى ملفوفة الساقين والذراعين . والأخمص : باطن القدم . وقوله « كأن أخمصها بالشوك منتعل » يريد أنها متقاربة الخطى .

(١١) يضوع . ينتشر ويفوح عطره . والأصورة : جمع صوار وهو وعاء المسك ، وهى كلمة فارسية . والورد : الأحمر ، ويقال إن أجود الزنبق ما كان لونه ضاربا إلى الحمرة . وفى رواية أخرى « والعنبر الورد » . والأردان : أطراف الأكمام ، مفردها ردن . وشمل : شامل منتشر . يصف طيب رائحتها التى تنتشر منها ومن ثيابها فتملأ كل ما حولها برائحة المسك والعنبر والزنبق .

١٢ ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبة خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
١٣ يُضاحِك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّر بعميم النبت مكتهِلُ
١٤ يوما بأطيبَ منها نَشْر رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ
١٥ عُلِّقْتُها عَرَضا ، وعُلِّقَتْ رجلا غيري ، وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجلُ
١٦ وعُلِّقَتْه فتاةٌ ما يحاولها ومن بني عمها مَيْتٌ بها وَهِلُ
١٧ وعُلِّقَتْني أُخَيْرَى ما تلائمني فاجتمع الحُبُّ ، حُبٌّ كله تَبِلُ
١٨ فكلُّنا مُغْرَم يَهْذِي بصاحبه ناءٍ ودانٍ ومَحْبولٌ ومُحْتَبِلُ

---

(١٢) الحزن : الأرض المرتفعة ؛ ورياضها أحسن وأجود من رياض الوهاد المنخفضة . والمسبل الهطل : المطر الذي يسقط فوقها وتهطل مياهه .

(١٣) الكوكب هنا الزهر . والشرق : الريان الممتلئ ماء ونضارة . ومؤزر : ملتف . والعميم : التام النضج . والمكتهل : الذي اكتمل طوله إلى غايته وظهرت أزهاره . وقوله « يضاحك الشمس » أي يدور معها حيثما دارت .

(١٤) النشر : الرائحة الطيبة . والأصل ، جمع أصيل وهو وقت المساء من العصر إلى العشاء . يرسم الشاعر في هذه الأبيات الثلاثة منظرا لهــذه الروضة الخضراء التي تنتشر فيها الأزهار العطرة ليشبه بها طيب رائحة صاحبته .

(١٥) علقتها : أي أحببتها . وعرضا : أي على غير تعمد ، وإنما كانت مصادفة .

(١٦) ما يحاولها : أي لا يريدها ولا يطلبها . والوهل : الذاهب العقل . وفي رواية أخرى « خبل » .

(١٧) أخيرى : أي فتاة أخرى صغيرة . والتبل : الذاهب العقل أيضا . يقول إن هذا الحب المتشابك كله جنون في جنون . وواضح أن الأبيات الثلاثة كلها تهريج في تهريج ، وعبث من الأعشى كأنه عبث السكارى وعربدة المخمورين .

(١٨) المحبول : الذي وقع في حبالة الصياد وهي الشرك الذي ينصبه للصيد . والمحتبل : هو الصياد الذي ينصب الحبالة . يقول إن المسألة كلها محاولات للصيد ونصب الشباك . وفي رواية أخرى يخطئها الأصمعي ويرفضها « مخبول ومختبل » بالخاء في الكلمتين .

١٩ صَـدَّتْ هريرةُ عنـا ما تُكلِّمنـا جَهْلاً بأمِّ خُلَيْدٍ ! حَبْلَ مَنْ تَصِلُ ؟
٢٠ أأن رأتْ رجـلا أعشَى أضرَّ به رَيْبُ المنون ، ودهرٌ مُفْنِدٌ خَبِل ؟
٢١ قالت هريرةُ لمـا جئتُ زائرها : وَيْلِي عليـكَ وويلى منكَ يارجلُ !!
٢٢ إمَّا تَرَيْنا حفـاةً لا نِعَـالَ لنـا إنَّا كذلكَ ما نَحْفَى ونَنْتَعِـلُ
٢٣ وقد أخالس ربَّ البيت غفلتَهُ وقـد يُحاذِرُ مِـنِّى ثم ما يَئِـلِ
٢٤ وقـد أقود الصِّـبا يوما فيتْبَعنى وقـد يُصاحِبُنى ذو الشِّرَّة الغَزِلُ

* * *

(١٩) أم خليد هى هريرة . وقوله « جهلا بأم خليد » تعجب من جهلها لشأنه ، يريد أن صدها عنه كان جهلا منها . وقوله « حبل من تصل ؟ » يعنى أى حبل تصله إذا لم تصلنا ؟ وأى رجل تحبه إذا لم تحبنا ؟ .

(٢٠) الأعشى : الذى لا يبصر بالليل . وريب المنون : خشية الموت . والمفند : المفسد ، روى بها البيت فى رواية أخرى . والخبل : الفاسـد . وقوله « أأن رأت » تقديره « أمن أن رأت » ، أى أمن أجل أنها رأت .

(٢١) تعبيرات نسائية خالصـة يحكيها فى الشطر الثانى ، وكان الأعشى — كامرئ القيس من قبله — يجيد حكاية لغة النساء . وقد قال النقاد القدماء عن هذا البيت إنه أخنث بيت قالته العـرب .

(٢٢) « ما » فى الشطر الثانى زائدة للتوكيد . يقول إن هـذه سبيلى فى الحياة المتقلبة التى لا تستقر على حال ، أجاريها فى تقلبها ولا أبالى بشىء .

(٢٣) يئل : ينجو ، والماضى منه وأل ، ومنها الموئل . وفى رواية أخرى « وقد أراقب » . والبيت تصوير لاستهتاره واحتياله من أجل الوصول إلى معشوقاته المتزوجات فى غفلة من أزواجهن الذين لا يقدرون على النجاة من فتكه ودبيبه مهما يبالغوا فى الحذر منه .

(٢٤) الشرة : الحدة والنشاط ؛ ويريد بذى الشرة أمثاله من الخلعاء الذين ينطلقون خلف لذتهم فى اندفاع لا يهدأ ، وحدة لا يفتر نشاطها . وفى رواية أخرى « ذو الشارة » ، والشارة : الهيئة الحسنة ، يريد الشباب الجميل المتأنق الساعى خلف الحب والغزل .

٢٥ وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يتْبَعنى	شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ
٢٦ فى فتيةٍ كسيوفِ الهند قد علموا	أنْ هالكٌ كلُّ مَنْ يَحْفَى ويَنتعِل
٢٧ نازعتُهم قُضُبَ الريحانِ متّكئاً	وقهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِل
٢٨ لا يَستفيقون منها ، وَهْىَ راهنةٌ ،	إلّا بهاتِ ، وإنْ عَلّوا وإنْ نَهِلوا
٢٩ يَسْعى بها ذو زُجاجاتٍ ، له نُطَفٌ	مُقَلِّص أسفلَ السِّربالِ مُعْتَمِل
٣٠ ومستجيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يُسْمِعه	إذا تُرَجِّع فيه القَيْنةُ الفُضُل

(٢٥) الحانوت : الحانة . والشاوى : الذى يشوى اللحم . والمشل والشلول والشلشل والشول كلها ألفاظ مشتركة فى حروفها ومعانيها ، وهى تدل على الخفة والحركة والنشاط . وفى رواية أخرى « شاو مشل نشول شلشل شمل » . من هنا يبدأ الأعشى حديث الخمر .

(٢٦) يصف رفاقه الذين غدا معهم إلى الحانة بأنهم فتيان فى نضرة الشباب ووضاءته وقوة عزيمته وحدة نشاطه ، وهذا ما دل عليه تشبيهه لهم بالسيوف . وأنهم حريصون على الاستمتاع بالحياة حتى النهاية ، ما دامت النهاية محتومة لا مفر منها .

(٢٧) نازعتهم : أى تبادلت معهم . والقهوة : الخمر . والمزة : التى فيها مزازة . والراووق : المصفاة . والخضل : الدائم الندى .

(٢٨) الراهنة : التى أعدت لهم ، فهى دائما رهن إشارتهم وتحت طلبهم . وقوله « إلا بهات » يريد به قولهم للساق « هات » . يقول إنهم لا يكادون يفيقون من سكرهم حتى يطالبوا الساق بالمزيد . وإن علوا وإن نهلوا أى وإن شربوا مرة بعد مرة ، وأفرطوا فى شربهم ، من العلل وهو الشرب مرة بعد مرة ، والنهل وهو أول الشرب .

(٢٩) النطف : أقراط اللؤلؤ الصافى ، مفردها نطفة بفتح النون والطاء ، وفيها لغة أخرى بضم النون وفتح الطاء فى الجمع والمفرد . ومقلص : مشمر . والسربال : القميص . وتقليص السربال كناية عن النشاط والحركة . ومعتمل : أى دائب الحركة والنشاط . يصف الساقى الذى يدور عليهم بزجاجات الخمر .

(٣٠) المستجيب هنا هو العود كأن الصنج دعاه فاستجاب له . والصنج : « الصاجات » . والقينة : الجارية ، ويريد بها هنا المغنية . والفضل : التى تلبس ثوبا واحدا لا يكاد يستر جسدها . وترجع : أى تردد العزف عليه .

٣١ والسَّاحباتِ ذيولَ الرَّيْـطِ آونةً — والرافـلاتِ على أعجازها العِجَلُ

٣٢ مِنْ كلِّ ذلك يومٌ قـد لهوتُ به — وفى التجارب طولُ اللهوِ والغَزَلُ

* * *

٣٣ وبلدةٍ مثلِ ظَهْرِ التُّرْسِ موحشةٍ — للجنِّ بالليـلِ فى حافَاتها زَجَلُ

٣٤ لا يَتَنَمَّى لهـا بالقيظ يَرْكبها — إلا الذين لهـم فيما أتوا مَهَـلُ

٣٥ جاوزتُهـا بطَليـحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ — فى مِرْفقيها إذا استعرضتَها فَتَلُ

٣٦ بل هل تَرَى عارِضًا قدبتُّ أرمُقُه — كأنمـا البرقُ فى حافَاته شُـعَلُ

(٣١) الرَّيط : الثياب الرقيقة ، جمع ريطة . وفى رواية أخرى « ذيول الخز » وهو الحرير . والرافلات : اللائى يجررن ثيابهن الطويلة فى زهو وخيلاء ودلال . والعجل : جمع عجلة وهى قربة الماء ، يشبه أردافهن الثقيلة الممتلئة بها .

(٣٢) يقول : هذه هى حياتى ، وهـذه هى خلاصة تجربتى فيها : اللهو والغزل . وبهـذا البيت يختم هذا القسم اللاهى من معلقته ، أو هذا الجانب من جوانب تجربته فى الحياة ، ليبـدأ الحديث عن الجانب الجاد منها ، وهو الرحلة فى الصحراء ، تعبيرا عن جانب آخر من جوانب الفتوة الجاهلية .

(٣٣) مثل ظهر الترس فى وعورتها وخشونتها وعدم استوائها . والزجل : الغناء .

(٣٤) يتنمى : يصعد ويرتفع . والقيظ : شدة الحر . والمهل : الاستعداد للامر قبل الإقدام عليه . يقول إن هـذه البلدة الوعرة الموحشة لايستطيع أحد أن يرتفع إليها إلا الذين لهم خبرة ودراية ومعرفة بوسائل الاستعداد لها .

(٣٥) الطليح : الناقة التى أعياها السفر وأرهقتها الرحلة . والجسرة : الجريئة الماضية فى طريقها دون تردد أو توقف . والسرح : اللينة السير التى تنساب فوق الرمال فى غير مشقة أو تعثر . والفتل : تباعد مرفقى الناقة عن جنبيها ، وهى صفة محمودة فى الإبل لأنها تعينها على الحركة اللينة السريعة . يصف ناقته التى ركبها فى اختراقه هذه الصحراء الوعرة الرهيبة .

(٣٦) ينتقل هنا إلى وصف البرق الذى لاح له فى ليل الصحراء فى أثناء رحلته . العارض : السحابة تعترض الأفق . وأرمقه : أنظر إليـه وأتأمله ، وفى رواية أخرى « أرقبه » . يشبه البرق وهو يلمع فى حافات السحاب بشعل النار التى تتوهج فى الظلام .

٣٧ له رِدافٌ وجَوزٌ مُفْأمٌ عَمِلٌ   مُنَطَّقٌ بِسِجالِ الماءِ مُتَّصِلُ
٣٨ لم يُلْهِنِى اللهوُ عنه حين أرقُبُه   ولا اللَّذاذةُ من كأسٍ ولا شُغُلُ
٣٩ فقلتُ للشَّرْبِ فى دُرْنا وقد ثَمِلوا: شِيمُوا، وكيف يَشِيمُ الشاربُ الثَّمِلُ ؟
٤٠ قالوا: نُمارٌ فبطنُ الخالِ جادَهما   فالعَسْجديَّةُ فالأَبْلاءُ فالرِّجَلُ
٤١ فالسفحُ يَجْرِى فخِنْزِيرٌ فبُرْقتُه   حتى تَدافَعَ منه الرَّبْوُ فالجَبَلُ
٤٢ حتى تَحَمَّلَ منه الماءَ تَكْلِفةً   رَوْضُ القطا فكَثيبُ الغِينةِ السَّهِلُ
٤٣ يَسْقِى ديارا لها قدأصبحتْ غَرَضاً   زُوراً تَجانَفَ عنها القَوْدُ والرَّسَلُ

* * *

(٣٧) الرداف : سحاب يتقدم من خلف سحاب كأنه رديف له . والجوز : الوسط . والمفأم : العظيم الواسع . والعمل : الدائم البرق . والسجال : جمع سجل وهو الدلو الكبيرة . ومنطق بسجال الماء أى أن الماء يحيط به من كل جانب .

(٣٨) البيت يعكس فتنته بالطبيعة التى لم يشغله عنها لهوه ولا لذته .

(٣٩) الشرب : ندامى الشراب . ودرنا : اسم مكان بأرض اليمامة . وشيموا : أى انظروا إلى البرق وقدروا أين يسقط مطره . والثمل : السكران .

(٤٠) جادهما : أى سقاهما . والأسماء المذكورة فى البيت كلها أسماء مواضع .

(٤١) تدافع منه : فاض منه ، والضمير فى « منه » يعود على السيل . والأسماء المذكورة فى البيت كلها أسماء مواضع أيضا . وهو فى البيتين يحدد أسماء المواضع فى المنطقة الواسعة الممتدة بينها التى أصابها السيل .

(٤٢) الأسماء المذكورة فى الشطر الثانى أسماء مواضع أيضا . وتحمل تكلفة : أى تحمل ما لا يطيق إلا على مشقة ، وهى منصوبة على الحال . يقول ان هذه المواضع تحملت من السيل مياها غزيرة لا تكاد تطيقها . وفى رواية أخرى « حتى تضمن عنه الماء » .

(٤٣) الغرض : الهدف ، يقول إن هذه الديار أصبحت هدفا للأمطار التى أصابتها . وزورا : أى ازور عنها الناس لعزة أهلها ومنعتهم . وتجانف : تجنب وتباعد . والقود : الخيل . والرسل : الإبل . يريد أنهم أعزاء لا يجرؤ أحد على غزوهم ، ولذلك تجنبت أرضهم خيل الغزاة وإبلهم . وبهذا البيت ينتهى القسم الثانى من المعلقة .

٤٤ أَبلغْ يزيدَ بنى شَيبانَ مَألُكَةً : أَبا ثُبَيْتٍ أما تنفكُّ تأْتَكِلُ ؟

٤٥ ألستَ منتهيا عن نحتِ أَثْلتِنا ؟ ولستَ ضائرَها ما أَطَّت الإبلُ

٤٦ كناطحٍ صخرةً يوما ليُفْلِقَها فلم يَضِرْها وأوهَى قرنَه الوعِلُ

٤٧ تُغْرِى بنا رَهطَ مسعودٍ وإخوتِه عندَ اللقاءِ فتُرْدِى ثم تعتزِل

٤٨ لا تقعُدَنَّ وقد أكَّلتَها حَطَبا تعوذُ من شرِّها يوما وتبتهِل

٤٩ إنى لَعَمْرُ الذى حَطَّت مَناسِمُها تخدِى وسِيقَ إليها الباقرُ الغُيُلُ

---

(٤٤) من هنا يبدأ القسم الثالث من المعلقة ، وهو الهجاء الذى يصبه على يزيد بنى شيبان ، والوعيد الذى يوجهه إليه . المألكة : الرسالة . وأبو ثبيت كنية يزيد . وتأتكل : تأكل نفسك من الغيظ ، من ائتكل الرجل إذا غضب وهاج وكأنه يأكل بعضه بعضا .

(٤٥) الأثلة : شجرة الأثل ، ضربها مثلا لعزة قومه وعراقة أصلهم وثبات مجدهم . وأطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا ، يريد مدى الدهر . ويريد بنحت الأثلة : التشهير بهم ، ومحاولة الإساءة إليهم ، والتهوين من شأنهم .

(٤٦) الوعل : تيس الجبل . وفى رواية أخرى « ليوهنها » .

(٤٧) تردى : تهلك ، من الردى وهو الهلاك . وتعتزل : أى تعتزل القتال . يقول له إنك توقع بيننا وبين القبائل ، وتثير نيران الفتنة المدمرة المهلكة ، حتى إذا ما اشتعلت اعتزلت القتال وتركت القبائل تتقاتل .

(٤٨) أكلتها : أججتها . وتبتهل أى تدعو الله بأن ينجيك من شرها . والبيت تأكيد لمعنى البيت السابق : إشعال الفتنة ثم التهرب منها .

(٤٩) حطت : أسرعت ، ويرى الأصمعى أن هذه الرواية لا معنى لها هنا ، وأن صوابها « خطت » (بالخاء) أى هيجت التراب بمناسمها ، وهى أطراف أخفافها . وتخدى : تسير سيرا شديدا فيه اضطراب لشدته . والباقر : البقر ، أو هو جمع البقر . الغيل : جمع غيل (بفتح فسكون) وهو الكثير . وفى رواية أخرى « حطت مناسمها له وسيق إليه الباقر العثل » ، والعثل (بضمتين) : الجماعة الكبيرة . يقسم بالإبل التى تحمل الحجيج إلى الكعبة وهم يسوقون أمامهم الهدى قطعانا كبيرة من البقر .

٥٠ لئن قتلتم عميدا لم يكن صددا ... لنقتلن مثله منكم فنمتثل

٥١ لا تنتهون ولن ينهى ذوى شطط ... كالطعن يهلك فيه الزيت والفتل

٥٢ حتى يظل عميد القوم مرتفقا ... يدفع بالراح عنه نسوة عجل

٥٣ أصابه هندوانى فأقصده ... أو ذابل من رماح الخط معتدل

٥٤ كلا ، زعمتم بأنا لا نقاتلكم ... إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

٥٥ نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية ... جنبى فطيمة لا ميل ولا عزل

---

(٥٠) العميد : السيد الذى يعتمد عليه . ولم يكن صددا : أى لم يكن مماثلا أو نظيرا لمن قتلناه منكم . ونمتثل : نقتل الأمثل فالأمثل . يتوعدهم بالثأر والانتقام .

(٥١) كالطعن : أى مثل الطعن فاعل للفعل « ينهى » . يهلك فيه : أى يذهب فيه لاتساعه . والفتل : جمع فتيل . يتوعدهم بطعنات تصيبهم بجراح غائرة يذهب فيها الزيت والفتائل التى تتخذ لعلاجها .

(٥٢) مرتفقا : متكئا على مرفقيه لسقوطه على أرض المعركة . والراح : جمع راحة وهى بطن الكف . والعجل : جمع عجول وهى الثكلى الحزينة . يصف نهاية المعركة وقد سقط سيد القبيلة على الأرض ، ولقى رجالها مصارعهم ، ولم يبق إلا نساؤها الثكالى يحاولن الدفاع عن سيدها وحمايته . ويحتمل أن يكون المعنى أن سيد القوم قد قتل وسقط صريعا ، ونساء القبيلة يدفعن عنه أن تطأه أقدام المقاتلين .

(٥٣) الهندوانى : السيف . وأقصده : أصابه . والذابل من الرماح : الصلب المقوم . والخط : مدينة على ساحل الخليج بالبحرين كانت مشهورة بصناعة الرماح .

(٥٤) كلا : أداة ردع وزجر . وقتل : جمع قتول ، صيغة مبالغة . يفتخر بشجاعة قومه ، ويزجر خصومهم عن أن يظنوا فيهم ضعفا أو تخاذلا .

(٥٥) يوم الحنو : يوم من أيام قبيلته التى انتصرت فيها . وضاحية : علانية ، يقال فعل هذا الشىء ضاحية . فطيمة : اسم مكان . والميل : جمع أميل ، وهو الذى لا يثبت فى القتال . والعزل : جمع أعزل ، وهو الذى لا يحمل سلاحا فيضطر إلى اعتزال الحرب .

٥٦ قالوا: الطِّرَادُ، فقلنا: تلك عادتُنا أو تَنْزِلون فإنَّا معشرٌ نُــزُلُ

٥٧ قد نَخْضِبُ العَيْرَ في مكنونِ فائِلِهِ وقد يَشِيطُ على أرماحنا البَطَــلُ

* * *

(٥٦) الطراد : المطاردة بالرماح . وتنزلون : أى تنزلون عن ظهور الخيـل للمجالدة بالسيوف . وفى رواية أخرى للشطر الأول « إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا » .

(٥٧) العـير : الحمار الوحشى . والفائل : عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ ، ويشـيط : يهلك ، أو يرتفع صريعا على أسنة الرماح . وافتخاره فى الشطر الأول بإصابة العير فى مكنون فائله رمز لخبرتهم ومهارتهم فى إصابة المقاتل ، وهى المواضع القاتلة فى جسم الإنسان .

* * *

يوسف خليف

(٢)

لاميَّـــة عُكَاظ

* * *

تعد هذه اللامية الطويلة التى تبلغ خمسة وسبعين بيتا من روائع شعر الأعشى، ويضمها بعض الرواة بين المعلقات العشر بدلا من لاميته الأخرى المشهورة « وَدِّعْ هُرَيرة » ، ويقولون إنها القصيدة التى أنشدها بين يدَى النابغة فى سوق عكاظ ، فأعجبته وحكم بتفضيلها على قصيدة حسان بن ثابت، ممـا أثار اعتراضه وغضبه . وموضوع القصيدة الأساسى المدح ، مدحُ الأَسْود بن المنذر أحد أمراء الحيرة . وهى تبدأ بمقدمة الأطلال التقليدية التى يقف بها الشاعر وقد تقدّمت به السن، فينكر وقوفَه بها وسؤاله الذى لاترده عليه . ثم يمضى إلى حديث صاحبته ورحلتها ، وبُعْدِ ما بينه وبينها من صحراء مترامية الأطراف بعيدة الآفاق ، ويستعيد ذكراها البعيدة ، ويتغنى بجمالها ، ثم يعود فيتذكر شيبه الذى باعد بينه وبين لهو الشباب، فينصرف عن ذكرياته إلى الصحراء يصف رحلته فيها وراحلته التى حملته، ويشبهها بحمار وحشى ، ثم ينتقل — على جسرٍ أقامه من حديثٍ يوجِّهه إلى ناقتـه — إلى ممدوحه فيطيل فى مدحه إطالة ملحوظة تمتد تسعة وثلاثين بيتا حتى نهاية القصيدة، يمدحه فينوه بأصله العريق ، وسجاياه الحميدة، وعطاياه الكثيرة ، ويصف جيشه وقوته وعُدَّته وعتاده، ويسجّل بعض انتصاراته ، ثم يختم مدحه بدعاء له ولأسرته بدوام النصر ودوام الخلود .

والقصيدة — كبدائع الأعشى الطويلة — تمتاز بالفخامة والضخامة والجزالة والإطالة الملحوظة فى وصف النـاقة وفى حديث المـدح ، وهمـا — مع حديث الخمر — يمثلان المحاور الثلاثة الأساسية التى يدور حولهـا أكثر شـعر الأعشى : الخمر والناقة والمدح . وشعره فى هذه الموضوعات الثلاثة يعكس صورة دقيقة للدور الكبير الذى قام به الأعشى فى حركة الشـعر فى العصر الجاهلى ، والذى ارتقى به — عن جدارة — إلى تلك القمة الشامخة التى احتلها بين شعراء الجاهلية الأربعة الكبار .

والقصيدة — ككل شعر الأعشى — غنية بالنغم الموسيقى الذى يحرص فيه على الملاءمة الصوتية بين الألفاظ والمعانى ، وتحقيق أكبر قدر من الانسجام بين الشكل والمضمون . ويظهر فيها ذلك الحس الحضارى المرهف فى اختيار عناصر الصورة — وبخاصة فى مجال المدح ومجال الخمر — وفى ظهور بعض الألفـاظ الأجنبية الفارسية فى بنائها اللغوى .

* * *

١ ما بكاءُ الكبيرِ بالأطـلالِ ؟ وسُـؤَالى ؟ فهـل تَرُدُّ سؤالى ؟
٢ دِمْنَـة قَفْـرة تعَـاوَرَها الصيـ ـفُ برِيحَيْنِ من صَبـاً وشَمَـالِ
٣ لاتَ هنّـا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ أو مَنْ جاء منهـا بطائِفِ الأهـوالِ

(٢) تعاورها الصيف : أى تبادل عليها مرة بريح الصبا الشرقية ، ومرة بريح الشمال . والبيت يذكرنا ببيت امرئ القيس المشهور :

فتوضح فالمقـراة لم يعف رسمهـا لمـا نسجتها من جنوب وشمال

(٣) لات بمعنى ليس ، وأصلها « لا » والتاء فيها تاء التأنيث ، وهنا (بالتشديد) : لغة فى هنا ، ومعنى هذا التعبير ليس الآن وقت ذكرها . وجبيرة : اسم صاحبته . والطائف : الطيف ، وأضافه إلى الأهوال لأنه اخترق أهوال الصحراء فى زيارته له . وهو يذكرنا بقول تأبط شرا فى مطلع قافيته المفضلية : « ومر طيف على الأهوال طراق » .

٤ حَلَّ أهلي بطنَ الغميس فَبادَوْ لَى ، وحَلَّتْ عُلْوِيَّةً بالسِّخالِ
٥ تَرْتَعِي السفحَ فالكثيبَ فذا قا رٍ فروضَ القَطَا فذاتَ الرِّئالِ
٦ رُبَّ خَرْقٍ مِنْ دونها يُخْرِسُ السَّفْـ ـرَ ، وميلٍ يُفْضِي إلى أَمْيالِ
٧ وسِقاءٍ يُوكَى على تَأَقِ المَلْ ءِ ، وسَيْرٍ ، ومُسْتَقًى أوشالِ
٨ وادِّلاجٍ بعد المَنَام ، وتهجيـ ـرٍ ، وقُفٍّ وسَبْسَبٍ ورمالِ
٩ وقَلِيبٍ أَجْنٍ كأنَّ مِنَ الرِّيـ ـشِ بأرجائه لُقُوطَ نِصالِ

(٤) علوية : أى فى عالية نجد ، حال من «حلت» . والأسماء المذكورة فى البيت أسماء مواضع ، وكذلك الأسماء المذكورة فى البيت التالى . يذكر فى البيتين منازل أهله ومنازل أهلها ، ليؤكد تباعد ديارهما ، وكأنه يقول ما جدوى البكاء وما جدوى الذكريات بعد أن باعدت الحياة بيننا ؟

(٦) الخرق : الصحراء المترامية الأطراف كأن الرياح تخرقها . والضمير فى « دونها » يعود على صاحبته . والسفر : المسافرون . وضمير الفاعل فى « يخرس » يعود على الخرق ، وقوله «يخرس السفر» كناية عن اتساع هذه الصحراء ، وامتداد طرقها ، وما يعانيه المسافرون من جهد فى اختراقها ، حتى تنقطع حبال الأحاديث بينهم . والميل : المسافة البعيدة . يؤكد مرة أخرى بعد ما بينه وبين صاحبته ، وتباعد ما بين دياره وديارها .

(٧) السقاء : قربة الماء . ويوكى : يربط ، من الوكاء ، وهو ما يشد به عنق السقاء . والتأق : الامتلاء . وتأق الملء : أى نهاية امتلاء السقاء بالماء . والأوشال : المياه القليلة فوق سطح الأرض ، مفردها وشل (بفتحتين) . يستمر الشاعر فى تأكيد بعد المسافة بينه وبين صاحبته وتباعد ما بين ديارهما . المسافة بعيدة تحتاج من المسافرين إلى ملء قربهم بالماء حتى نهايتها وربطها حتى لا يتسرب منها الماء ، وتحتاج إلى سير طويل شاق ، واستقاء للماء من الأوشال المتناثرة على امتداد الطريق .

(٨) الإدلاج : السير طول الليل . والتهجير : السير فى الهاجرة وهى وقت الظهيرة . والقف : الأرض الغليظة الوعرة . والسبسب : الأرض المستوية الممتدة مسافات طويلة .

(٩) القليب : البئر . والأجن : الذى تغير ماؤه لونا وطعما . واللقوط : ما يلتقط مما تناثر على الأرض ، جمع لقط (بفتحتين) . يشبه ريش الطيور المتناثر حول الماء الذى تجمع حوله لإطفاء ظمئها من لهيب الصحراء بقطع النصال المتناثرة فوق الأرض . وصورة تناثر ريش الطير حول مناهل المياه البعيدة فى أعماق الصحراء تتردد كثيرا فى الشعر العربى القديم . وهذه الطير عادة هى القطا لأنها أصبر الطير على جو الصحراء وأبعدها طيرانا وإبعادا فى الصحراء .

١٠ فلئن شـط بى المزار لقـد أغـ ـدو قليـل الهموم ناعـم بال
١١ إذ هى الهمّ والحديثُ ، وإذ تعـ ـصى إلىَّ الأمـيرَ ذا الأقـوال
١٢ ظبيةٌ من ظبـاء وجرة أدمـا ءُ تسفُّ الكباث تحت الهـدال
١٣ حُـرَّةٌ طفلةُ الأنامل ترتبُّ (م) سُخَـامًا تكُفُّـه بخِـلال
١٤ وكأن السُّموط عكّفها السِّـ ـلكُ بِعِطفَى جيـداءَ أمِّ غزال
١٥ وكأن الخمـرَ العتيقَ من الإسفنـ ـط ممـزوجةً بمـاءٍ زُلال
١٦ باكرتهـا الأغرابُ فى سِنَةِ النو م فتجرى خلالَ شـوك السَّيال

(١٠) يستعيد الشاعر هنا ذكريات ماضيه مع صاحبته قبل بعدها عنه .

(١١) الهم : الشاغل الذى يشغله . « وإلى » أى من أجلى . والأمير : يريد به ولى أمرها ، وهو — فى أغلب الظن — زوجها . وذكر المرأة المتزوجة يتردد كثيرا فى غزل الأعشى .

(١٢) وجرة : منطقة فى الجزيرة العربية مشهورة بظبائها ، يتردد ذكرها كثيرا فى الشعر القديم . والأدماء : البيضاء . والكباث : ثمر الأراك . والهدال : الغصون المتهدلة . يشبه صاحبته بهذه الظبية فى وضع من أجمل أوضاعها ، وهى تمد عنقها فى ظلال شجر الأراك لتتناول ثمره .

(١٣) الطفـلة : الناعمة اللينة . وترتب : تعنى به وتنميه . والسخام : السواد ، يريد شـعرها الأسود . والخلال : المشط ، لأنه يتخلل الشعر . وتكفه : تجمعه وتضمه .

(١٤) السموط : العقود ، جمع سمـط . وعكفها : ثناها فالتفت حوله . والجيداء : الطويلة العنق . واختار للصورة الظبية الأم لأنها حين ترفع رأسها لتعامس على صغيرها يبدو جيدها الطويل فى أجمل أوضـاعه .

(١٥) الإسفنط : كلمة فارسية معربة ويراد بها أجود أنواع الخمر المتخذة من أجود العنب .

(١٦) الأغراب : جمع غرب (بفتح فسكون) ، وهى الكأس أو جام الفضة ، ويجوز أن يكون معناها كثرة الريق . والسيال : نبات صحراوى له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن ، والعرب يشبهون به الأسنان فى بياضها وصفائها . يصف عذوبة ثغر صاحبته وطيب ريقه ، ويتخيل أن خمرا معتقة ممزوجة بالماء العذب خالطته فهى تجرى بين أسنانها الجميلة البيضاء الصافية ، ويتخير لذلك وقت الصباح الباكر ، وهى بين اليقظة والنوم ، وكأنه يقول إنها فى هذا الوقت الذى تتغير فيه الأفواه تكون أطيب رائحة وألذ طعما .

١٧ فاذهبي ما إليكِ ، أدركني الحلـ ـمُ ، عدانِي عن ذكرِكم أشغالي

* * *

١٨ وعسيرٍ أدماءَ حادرةِ العيْـ ـنِ خَنُوفٍ عيْرانةٍ شِمْلالِ
١٩ مِنْ سَرَاةِ الهجانِ صلّبها العُضُّ (م) ورَعْيُ الحمى وطولُ الحِيالِ
٢٠ لم تَعطَّف على حُوارٍ ، ولم يقْـ ـطع عُبَيْدٌ عُروقَها مِنْ نُحالِ
٢١ قد تعلَّلْتُها على نَكَظِ المَيْـ ـطِ ، وقد خَبَّ لامعاتُ الآلِ
٢٢ فوق ديْمومةٍ تَغَوَّلُ بالسَّفْـ ـرِ قِفارٍ إلا مِنَ الآجالِ

---

(١٧) ما إليك : أى ما سبيلى إليك . وعدانى : صرفنى . يقول لها : لقد انتهى عهد الشباب والتصابى ، وأدركنى الشيب والتعقل ، وشغلتنى عن ذكرك شواغل الحياة . و إلى هنا تنتهى مقدمة القصيدة ، ليبدأ حديث الرحلة والناقة والصيد .

(١٨) العسير : الناقة ترفع ذنبها فى عدوها أو الناقة لم تحمل فى عامها . والأدماء : البيضاء ، و يقول اللغويون إن الأدمة فى الإبل والظباء البياض ، وفى الإنسان السمرة . وحادرة العين : صلبة العين . والخنوف : النشيطة التى تميل برأسها نحو راكبها . والعيرانة : التى تشبه العير وهو الحمار الوحشى . والشملال : السريعة .

(١٩) من سراة الهجان : أى من خيار الإبل الكريمة . والعض (بالضم) : علف الإبل . والحيال : عدم الحمل . يقول إنها ناقة من أكرم الإبل قوى عودها وشد متنه علفها الجيد ، ورعيها فى حمى القبيلة كيف تشاء ، وعدم حملها .

(٢٠) الحوار : ولد الناقة أول ولادته . ولم تعطف : أصلها لم تتعطف ، حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وعبيد : تصغير عبد . والنحال : داء يصيب قوائم الإبل . والبيت استمرار فى تصوير قوة هذه الناقة ونشاطها وفتائها .

(٢١) تعللتها : استخرجت أقصى ما عندها من السير . والنكظ : الجهد وشدة الحال فى السفر . والميط : البعد . وقوله « على نكظ الميط » : أى على شدة البعد . وخب : ارتفع أو أسرع ، والكلمة هنا تحتمل المعنيين . والآل : السراب .

(٢٢) الديمومة : الصحراء المترامية الأطراف . وتغول : أصلها تتغول ، حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، بمعنى تضل وتهلك . والآجال : قطعان البقر الوحشى ، جمع إجل .

٢٣ وإذا ما الضَّلال خِيفَ وكان الـ .ـوِرْد خِمْساً يَرْجُونه عن لَيَال

٢٤ واستُحِثَّ المُغَــيِّرون مِنَ القو م، وكان النِّطَافُ ما فى العَزَالى

٢٥ مَرِحَتْ حُرَّةٌ كقَنْطَـرةِ الرومىِّ (م) تَفْـرِى الهجــيرَ بالإرقالِ

٢٦ تَقْطَع الأمْعَـزَ المُكَوْكِبَ وَخْداً بِنَـواجٍ ســـريعةِ الإيغـالِ

٢٧ عَنْتَرِيسٍ تعدو إذا مَسَّهـا السَّو ط كعَـدوِ المُصَلْصِلِ الجوَّالِ

(٢٣) الورد : ورود الإبل الماء للشرب، وعكسه الصدر وهو رجوعها عنه بعد الشرب. والخمس : ورود الإبل الماء بعد خمسة أيام من إعطاشها، والعرب يفعلون ذلك أحيانا عندما يشح الماء. يصف الصحراء بأنها مترامية الآفاق، متشابهة المعالم، يخشى فيها الضلال، وأنها مقفرة قليلة الماء، لا تشرب فيها الإبل إلا كل خمس ليال.

(٢٤) المغيرون : الذين يغيرون رواحلهم ويستبدلون بها غيرها عند إحساسها بالتعب. والنطاف : جمع نطفة وهى بقيــة الماء. والعزالى : قرب المــاء، مفردها عزلاء. يصف بعد الرحلة ومشقتها وقلة الماء بين أيدى المسافرين.

(٢٥) مرحت حرة : أى أسرعت منطلقة لا يقف فى طريقها شىء، والضمير فيها يعود على الناقة. ووجه الشبه فى تشبيه ناقته بقنطرة الرومى العلو والضخامة، وهو تشبيه سبقه اليه طرفة فى معلقته :

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقــرمد

وتفرى : تقطع وتشق. والهجير : الهاجرة عندما يشتد الحر فى الصحراء فى وقت الظهيرة. والإرقال : الإسراع، وهو ضرب من عدو الإبل.

(٢٦) الأمعز : الأرض الغليظة الوعرة. والمكوكب : المتوقد من الحر. والوخد : ضرب من السير السريع الواسع الخطوات. والنواجى : القوائم، جمع ناجيــة. والإيغــال : المبالغة فى السرعة والاندفاع فى السير والإبعاد فيه.

(٢٧) العنتريس : الصلبة القوية المتينة البنيان. والمصلصــل الجوال : يريد به الحمار الوحشى. المصلصل : الذى يرن صوته لشدة نهيقه. والجــوال : الدائب الحركة الذى لا يستقر فى مكان. يشبه ناقته بحمار من حمر الوحش.

٢٨ لاحَه الصيفُ والصِّيالُ وإشفا قُ على صَعْدَةٍ كقوسِ الضَّالِ

٢٩ مُلْمِعٍ لاعَةِ الفــؤادِ إلى جَحْـ ـشٍ فَلَاه عنهـا فبِئْسَ الفـالى

٣٠ ذو أَذَاةٍ على الخَلِيط، خبيثُ الـ ـنفسِ، يَرْمى مَرَاغَه بالنُّسَالِ

٣١ غادرَ الجحشَ فى الغُبـار، وعَدَّا ها حثيثاً لِصُــوَّةِ الأدْحالِ

٣٢ ذاك شَبَّهتُ ناقتى عن يمينِ الـ ـرَّعْنِ بعــدَ الكَلالِ والإعمـالِ

٣٣ وتراها تشـكو إلىَّ، وقـد آ لتْ طليحاً تُحْذَى صدورَ النِّعالِ

(٢٨) لاحه: غيره وأضمره. والصيال: المصاولة، يريد مصاولة غيره من الحمر الوحشية. والصعدة: الأتان. والضال: شجر من أشجار البادية يتخذون منه القسى.

(٢٩) الملمع: الحامل، من ألمعت إذا رفعت ذنبها ليعلم أنها قد لقحت. واللاعة: الجزوع. وفلاه: أبعده وعزله: يقول إن هذه الأتان ملتاعة القلب إلى صغيرها الذى أبعده عنها زوجها ليخلو له الجو معها، أو لأنه يغار عليها منه، وكلتا الصورتين تتردد فى الشعر القديم.

(٣٠) الخليط: قطيع الحمر المجتمع فى هذه المنطقة. المراغ: المكان الذى يتمرغ فيه. والنسال: ما تساقط من شعره أثناء تمرغه. ووصف الحمار بأنه «خبيث النفس» لأنه عزل عن أتانه صغيرها وتركها تعانى أسفها عليه وحزنها ولوعتها. ووصفه بأنه «ذو أذاة على الخليط» لأنه لا يكف عن مصاولة غيره من الحمر، وعضه لها، ليطردها بعيدا عن أتانه التى يريد أن يستأثر بها لنفسه.

(٣١) عداها: طاردها وأبعدها. والصوة: حجر يكون علامة فى الطريق، أو ما غلظ من الأرض وارتفع. والأدحال: جمع دحل (بفتح فسكون) وهو نقب ضيق أعلاه، متسع أسفله، يسمح بالمشى فيه، أو هو حفرة فى الأرض تتجمع فيها المياه.

(٣٢) الرعن: النتوء البارز فى جنب الجبل. والكلال: التعب والإعياء. والإعمال: السير السريع. يشبه ناقته فى قوتها وصلابتها وتحملها مشاق الرحلة بهذا الحمار الوحشى، ويقول — فى شىء من المبالغة — إنها تشبهه لا فى حالة نشاطها، ولكن فى حالة تعبها وإرهاقها وإعيائها.

(٣٣) آلت: تحولت. وطليحا: متعبة مرهقة. «وتحذى صدور النعال» أى أنهم ألبسوها أخفافا من الجلد تحمى أقدامها من وعورة الأرض وطول الرحلة. وكان العرب يفعلون ذلك بإبلهم فى أسفارهم الطويلة.

٣٤ نَقَبَ الخُفُّ للسُّرى ، فتَرى الأنـ ـساعَ مِنْ حِلٍّ ساعةٍ وارتحالِ

٣٥ أثَّرتْ فى جَناجِنٍ كإرانِ الـ ـمَيْتِ عُولِينَ فوق عُوجٍ رِسَالِ

٣٦ لا تَشَكَّىْ إلىَّ مِنْ ألم النِّسْـ ـعِ ، ولا من حَفىً ولامن كَلالِ

٣٧ لا تَشَكَّىْ إلىَّ ، وانتجِعِى الأسْـ ـودَ أهلَ النَّدَى وأهلَ الفَعال

* * *

٣٨ فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فى غُصُنِ المجـ ـدِ ، غزيرُ النَّدى ، شديدُ المِحَالِ

٣٩ عنده الحَزمُ والتُّقَى وأَسَا الصَّدْ عِ ، وحَمْلٌ لِمُضْلِعِ الأثقالِ

٤٠ وصِلاتُ الأرحامِ ، قد علِم النا سُ ، وفكُّ الأسرَى مِنَ الأغلالِ

---

(٣٤) نقب الخف : تشققه وتآكله لكثرة السير ووعورة الأرض ، وهو مفعول به للفعل « تشكو » فى البيت السابق . والأنساع : جمع نسع (بكسر فسكون) وهو حزام تشد به الأحمال فوق ظهور الإبل . والحل : النزول ، عكس الارتحال .

(٣٥) الجناجن : عظام الصدر . والإران : التابوت يوضع فيه الميت ، والتشبيه فى الصلابة والقوة ، وهو تشبيه ورد فى معلقة طرفة « أمون كألواح الإران » . وعولين : ارتفعن . والعوج : صفة للقوائم . والرسال : المهلة السير . والضمير فى « أثرت » يعود على الأنساع فى البيت السابق ، يقول إن هذه الإنساع لكثرة ما شدت وحلت مع النزول والارتحال أثرت فى عظام صدر الناقة القوية .

(٣٦) لا تشكى : أى لا تتشكى ، خففت إحدى التاءين ، والخطاب للناقة تمهيدا لعبور الشاعر من حديث الرحلة إلى حديث المدح الذى سيبدأ مع البيت التالى .

(٣٧) الأسود بن المنذر اللخمى من سادة الغساسنة الذين كان الأعشى يتردد عليهم لمدحهم . والندى : الكرم . والفعال (بالفتح) : المآثر الطيبة .

(٣٨) النبع : شجر تتخذ منه القسى ، يضربون به المثل فى الصلابة والاستواء . والمحال : القوة .

(٣٩) التقى هنا بمفهومه الجاهلى يراد به الحذر والاتقاء . والأسا : الدواء . والصدع : الشق . يريد أنه يعمل على إصلاح ما بين الناس من تصدع . وفى الديوان « الصرع » وهو تحريف . والمضلع : الذى يرهق الضلوع ، ويريد بمضلع الأثقال الأعباء الثقيلة التى يقصده الناس لتخفيفها عنهم .

٤١ وهوانُ النفسِ العزيزةِ للذِّكـ ـرِ إذا ما التقتْ صدورُ العَوالي
٤٢ وعطاءٌ إذا سألتَ إذا العِذْ رَةُ كانت عَطيَّةَ البُخّالِ
٤٣ ووفاءٌ إذا أجَرْتَ ، فما غُرَّ (م) تْ حِبالٌ وَصَلْتَها بحِبالِ
٤٤ أرْيحيٌّ صَلْتٌ يظَلُّ له القو مُ رُكُودًا قيامَهُمْ للهِلالِ
٤٥ إنْ يُعاقِبْ يكنْ غَراما، وإنْ يُعْـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يُبالي
٤٦ يَهَبُ الجِلَّةَ الجَراجِرَ كالبُسْـ ـتانِ تَحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفالِ
٤٧ والبغايا يَرْكُضْنَ أكسيةَ الإضْـ ـريجِ والشَّرْعَبيَّ ذا الأذيالِ

---

(٤١) العوالى : الرماح ، والتقاء صدورها كناية عن الحرب . ومعنى البيت أن هذا الممدوح لا يبالى بما يصيبه فى غمرات الحرب من أجل حرصه على الذكر الطيب والسمعة الحسنة .

(٤٢) العذرة : الاعتذار . يقول إنه يعطى إذا سئل ، فى الوقت الذى يكون فيه الاعتذار هو عطاء البخلاء .

(٤٣) غرت : ضعفت . يقول إنه وفى لمن يستجير به ، لا يتخلى عنه ، ولا تنقطع حبال العهد التى وصلها بحباله .

(٤٤) الأريحى : الكريم الذى يرتاح للكرم . والصلت : الماضى إلى هدفه فى غير تردد . والركود : الذين لا يتحركون . يمدحه بالكرم الذى يصدر عن نفس راضية ، والعزيمة الماضية التى لا تتردد ، ويصف وقوف الناس له فى صمت وخشوع كقيامهم للهلال يرقبون ظهوره .

(٤٥) الغرام هنا بمعنى الهلاك والعذاب والشر الدائم . وفى القرآن الكريم فى صفة جهنم « إن عذابها كان غراما » (الفرقان ٦٥) .

(٤٦) الجلة : الإبل الكبيرة . والجراجر : الضخام . والبستان : النخل ، فارسى معرب . والدردق : الصغار . يمدحه بأنه يعطى النوق الضخام ومعها فصلانها الصغار .

(٤٧) البغايا هنا بمعنى الجوارى والإماء . ويركضن هنا بمعنى يجررن وراءهن . والإضريج : الحرير الأصفر . والشرعبى : الحرير الأحمر . يمدحه بأنه يعطى أيضا الجوارى الجميلات المختالات فى ثياب الحرير السابغة الملونة .

٤٨ وجيادًا كأنها قُضُب الشَّوْ حَـطِ تعدو بشِكَّةِ الأبطالِ

٤٩ والمَكَاكِيكَ والصِّحَاف من الفضَّ (م) ـةِ والضَّامزاتِ تحتَ الرِّحالِ

٥٠ رُبَّ حيٍّ أشقاهمُ آخرَ الدهـ ـر ، وحيٍّ سقَّاهمُ بسِجَالِ

٥١ فأرَى مَنْ عصاكَ أصبحَ مخذو لا ، وكَعْبُ الذى يُطيعكَ عالى

٥٢ أنتَ خيرٌ مِن ألْفِ ألفٍ مِنَ القو م إذا ما كَبَتْ وجوهُ الرِّجال

٥٣ جُنْدُكَ التالدُ العتيقُ من الـ ـساداتِ أهل القِبَابِ والآكالِ

٥٤ غيرُ مِيلٍ ولا عَـوَاوِيرَ فى الهيـ ـجا ولا عُزَّلٍ ولا أكْفَالِ

(٤٨) الشوحط : شجر صحراوى تتخذ منه القسى كشجر النبع . والشكة : السلاح . يمدحه بأنه يعطى فوق هذا كله الخيل القوية الصلبة التى هيئت للقتال .

(٤٩) المكاكيك : جمع مكوك وهو طاس يشربون به . والصحاف : الأطباق جمع صحفة . والضامزات : النوق الوديعة التى لا ترغو ولا تجتر .

(٥٠) السجال : جمع سجل (بفتح فسكون) وهو الدلو العظيمة . يريد أنه يشقى قوما ويسعد آخرين . وقوله « آخر الدهر » يعنى حتى آخر الدهر .

(٥١) « وكعب الذى يطيعك عال » : كناية عن الرفعة . يريد أنه يخفض من عصاه ، ويرفع من أطاعه .

(٥٢) كبت الوجوه : اغبرت وتغيرت من الخوف والفزع .

(٥٣) التالد : القديم . والعتيق : الأصيل ، وأهل القباب كناية عن الشرف والسيادة . والآكال : قطائع كان الملوك فى الجاهلية يعطونها للأشراف .

(٥٤) الميل : جمع أميل وهو الذى لا يثبت على ظهر جواده لقلة خبرته بركوب الخيل . والعواوير : جمع عوار (بالتشديد) وهو الجبان الذى لا يستطيع أن يحمى موقعه . والعزل : جمع أعزل وهو الذى لا يحمل سلاحا . والأكفال : جمع كفل (بكسر فسكون) وهو الذى يكون فى آخر صفوف المقاتلين لجبنه .

٥٥ ودروعٌ من نسجِ داوودَ فى الحر ـبِ وسُوقٌ يحمِلْنَ فوقَ الجِمالِ

٥٦ لم يُيسَّرن للصديقِ ، ولكنْ لقتالِ العدوِّ يومَ القتالِ

٥٧ كلَّ عامٍ يقودُ خيلاً إلى خيـ ـلٍ دِفاقًا غداةَ غِبِّ الصِّقال

٥٨ هو دانَ الرِّبابَ إذ كرِهوا الد (م) ـدِّينَ دِراكًا بغزوةٍ وصِيال

٥٩ ثم أسقاهمُ على نَفَدِ العيـ ـشِ فأروَى ذَنوبَ رِفْدٍ مُحالِ

٦٠ فَخمةٌ يَلْجأ المُضافُ إليها ورِعالاً موصولةً برِعَال

٦١ تُخرِجُ الشيخَ مِنْ بَنِيه وتُلْوِى بلَبُونِ المِعْزَابةِ المِعْزَال

---

(٥٥) داوود النبي الذى علمه الله صناعة الدروع من الحديد ، كما ورد فى القرآن الكريم « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (الأنبياء ٨٠) ، يريد أنها دروع جيدة الصنع من خير الدروع . والوسوق : الأحمال ، جمع وسق (بفتح فسكون) وهو الحمل .

(٥٧) دفاقا : متدفقة بعضها فى إثر بعض . والصقال : التأديب بالعصا ، وغب الصقال : أى ما بعده .

(٥٨) الرباب : مجموعة من القبائل كانت تنزل فى شرقى الجزيرة . ودانها : أذلها وأجبرها على الطاعة . والدين : الطاعة . ودراكا : أى متتابعة متلاحقة .

(٥٩) الذنوب : الدلو المملوءة ماء . والرفد : العطاء . والمحال : المصبوب ، من أحال عليه الماء إذا أفرغه عليه وصبه . ضرب ذلك مثلا للوت الذى أنزله ممدوحه بأعدائه .

(٦٠) فخمة : صفة لكتيبة ، أى كتيبة ضخمة كبيرة . والمضاف : الذى أحيط به فى الحرب فلم يعرف سبيلا للنجاة أو ملجأ يلجأ إليه . والرعال : جماعات الخيل ، جمع رعلة (بفتح فسكون) . يصف جيش الممدوح وكتائبه وفرسانه ، وأنه يحمى من يستجير به ويلجأ إليه .

(٦١) تلوى : تذهب . واللبون : الناقة ذات اللبن . والمعزابة : الراعى الذى يبعد فى المرعى بإبله . والمعزال : الذى ينأى عن الناس ويعتزلهم ولا يخالطهم . يقول إن كتائب الممدوح تذهل الشيخ عن بنيه ، وتشرد الإبل التى أبعد بها راعيها فى أعماق الصحراء ، واعتزل الناس فى آفاقها البعيدة النائية .

٦٢ رُبَّ رِفْـدٍ هَرَقْتَه ذلك اليو ... مَ وأَسْرَى مِن مَعْشَرٍ أَقْتَـالِ

٦٣ وشيوخٍ حَرْبَى بِشَطَّىْ أَرِيكٍ ... ونسـاءٍ كأنهنّ السَّعَالِى

٦٤ وشَرِيكَيْنِ فى كثيرٍ من المـا ... لِ ، وكانا مُخَـالِفَىْ إقْـلالِ

٦٥ قَسَمَا الطارفَ التليـدَ مِنَ الغُنْـ ... ـمِ ، فآبا كلاهمـا ذو مالِ

٦٦ لن تَزَالوا كذلكمْ ، ثم لا زِلْـ ... ـتَ لهـمْ خالدًا خلودَ الجبالِ

* * *

(٦٢) الرفد : القدح الضخم . وهراقه : أراقـه وصبه . وهراقة الرفد كناية عن الموت الذى صبه ممدوحه على أعدائه . والأقتال : جمع قتل (بكسر فسكون) وهو العدو المطالب بثأره .

(٦٣) حربى : جمع حريب وهو من حرب ماله أى سلبه وحرم منه وأخرج عنه . وأريك : موضع . والسعالى : جمع سعلاة وهى أنثى الغول .

(٦٤) يريد بالشريكين جنديين من جنوده اشـتركا فى الغنيمة الضخمة التى غنماها ، فاستغنيا بعد فقـــر .

(٦٥) الطارف : الجديد المستحدث . والتليد : القديم الموروث . يريد أن هذه الغنائم كانت قديمة موروثة عند أصحابها ، ثم أصبحت جديدة مستحدثة عند من غنموها .

(٦٦) لن تزالوا كذلكم : دعاء لقوم الممدوح بدوام النصر . والضمير فى « لهـم » يعود عليهم ، يدعو لممدوحه بأن يبقى لقومه خالدا فيهم خلود الجبال الراسية الثابتة .

* * *

يوسف خليف

(٣)

صُورةٌ مِنْ غَزَلِيَّاتِه

* * *

تقع هذه القصيدة فى سبعة وأربعين بيتا ، وهى تنقسم إلى قسمين : القسم الأول وهو أطولهما ، إذ يمتـد أربعة وثلاثين بيتـا ، يحكى الأعشى فيـه قصة مغامرة من مغامراته المـاجنة مع فتاة صغيرة يصفها بأنها « غُرَيرة » ، بعث إليها رسولا بارعا ظل يحتال عليها حتى استجابت لرغبته ، فزارها وقضى معها ليلة ممتعة كان ختامها الخمر والغناء ممـا يرجِّح أن تكون هذه الفتاة قَيْنةً من قيان الحانات . وفى القسم الثانى الذى لا يتجاوز ثلاثة عشر بيتـا يتحدث عن رحلة له فى الصحراء على ناقة نشيطة طَوَتْ شعابَها مسرعة عائدة به إلى قومه ، فيرسم صورة لحياتهم ، ويتحدث عن عبيـدهم وقبابهم وأصنامهم ، ثم تكون النهـاية — كما كانت فى القسم الأول — عودةً خاطفة إلى حديث الخمر .

والقصيدة — ككل شعر الأعشى — مَوّاجة بأنغامها الموسـيقية التى كان يجيد اختيارها وتوزيعها بحيث تتـلاءم مع موضوعات قصائده ، والتى كان يوفر لها قيما صوتية رنانة سواء من حيث ألفاظها أو من حيث أوزانها وقوافيها . وهى قيم كانت تتيحها له أذُنُهُ الحسَّاسة المرهفـة لجَرْس الكلمات وموسـيقا الأوزان العروضية . وقد اختار الأعشى لهذه القصيدة التى تحكى قصةً عابثة مع مُراهِقة صغيرة من فتيات الحانات ذلك الوزنَ الراقص المرح ، مجزوء الكامل ، كما اختار

لهـا ذلك الروىّ الخفيف المنطلق المتحرر بالهـاء الممدودة وحرف التأسيس الممدود قبلها، فتراءت ألف التأسيس وألف الإطلاق كأنهما دقّات « ضابط الإيقاع » التى تحدّد تقاسيمَ النغم، وتضبط توزيعات اللحن .

* * *

١ أَوَصَلْتَ صَرْمَ الحبلِ مِنْ سَـلمى لِطُـول جِنَابِهـا

٢ ورَجَعْتَ بعدَ الشَّيب تَبْـ ـغِى وُدَّهـا بِطِلابِهـا

٣ أَقْصِرْ، فإنكَ طـالمـا أَوْضَعتَ فى إعجـابِهـا

٤ ولقـد غَبَنْتُ الكاعبـا تِ أُحَـظُّ مِن تَخْبابِهـا

٥ وأخـونُ غفـلةَ قومهـا يَمْشُون حـول قِبابِهـا

٦ حَذرًا عليهـا أنْ تُرَى أو أنْ يُطافَ بِبابِهـا

٧ فبَعَثْتُ جِنِّيـا لنـا يأتى بِرَجْـعِ جَوابِهـا

٨ فمَشَى ولم يَخْـشَ الأنيـ ـسَ فزارها وخَـــلَا بهـا

٩ عَضْبُ اللسانِ مُتَقَّنٌ فَطِنٌ لِمَـا يُعْـنَى بهـا

---

(١) الصرم : القطيعة . وصرم الحبل كناية عن الهجر . والجناب : الاجتناب .

(٢) طلابها : السعى خلفها . يقول إنه بعد الشيب رجع إلى تصابيه ، فعاد يسعى خلفها ويطلبها .

(٣) أقصر : أى ارجع عن غيك . وأوضعت : أى أسرعت وألححت وراءها .

(٤) غبنت : خدعت . وأحظ : أى أنال حظى . والتخباب : الخـداع . يقول إنه طالمـا خدع الجميلات ، ونال حظه منهن بخداعه . وهو يبدأ من هنا قصة مغامرته المـاجنة .

(٦) حذرا عليها : مفعول لأجله متعلق بالفعل « يمشون » فى البيت السابق .

(٧) الجنى هنـا يريد به الرسول المـاكر الخبيث الذى أرسـله إليها لتضرب له موعدا لزيارتها ، ويعود إليه بجواب رسالته . يصفه بأنه شيطان رجيم .

(٩) العضب : السيف الحاد القاطع ، ويريد بعضب اللسان أنه قوى الحجـة ، قادر على إقناعها وحسم الجدل معها . ومتقن : شديد الحذق والدراية . وفطن لمـا يعنى بها : أى أنه يعـرف بفطنته ما يعنيها ويشغلها .

١٠ صَنِـعٌ بِلِـينِ حديثِهـا فدَنَتْ عُرَى أسبابِهـا
١١ قالت : قَضَيْتَ قضيَّةً عَدْلا لنـا يُرْضَى بهـا
١٢ فأرادَها كيف الدُّخو لُ ، وكيف ما يُؤْتَى بهـا
١٣ فى قُبَّـة حمـراءَ زَيَّـ(م) نَهـا ائتلاقُ طِبَابِهـا
١٤ ودنا تَسَـمُّعُهُ إلى ما قال إذ أَوْصَى بهـا :
١٥ إنَّ الفتـاةَ صغيرةٌ غِرٌّ ، فلا يُسْدَى بهـا
١٦ واعـلمْ بأنى لم أُكَلِّـ(م) ـمْ مِثْلَهـا بِصِعَابِهـا
١٧ إنى أخافُ الصَّرْمَ منـ ـهـا أو شَحِيجَ غُرَابِهـا
١٨ فَدَخَلْتُ إذ نام الرقيـ ـبُ ، فبِتُّ دُونَ ثيابِهـا

(١٠) الصنع : الخبير الواسع الخبرة بصنعته . والعرى : جمع عروة ، ويريد بقوله « دنت عرى أسبابها » أنها استجابت له ، وتقارب ما بينهما ، وتم الاتفاق .

(١١) يقول إنها اقتنعت بمنطق هذا الرسول ، ورضيت بحكمه العادل فى القضية التى جاء من أجلها .

(١٢) يبدأ هنا الحديث معها عن تفاصيل الزيارة والإعداد لها : كيف يدخل إليها ؟ وكيف يظفر بها ؟

(١٣) القبة الحمراء إشارة إلى أنها بيت من بيوت بنات الهوى . والطباب : شارات عريضة كانت توضع على واجهات هذه البيوت .

(١٤) عاد الرسول إليه يحمل أنباء هذه الفتاة ، وأخذ يوصيه بما يراه بشأنها .

(١٥) فلا يسدى بها : أى لا يتصل بها ، من أسدى الثوب إذا مد خيوطه ليلاحم بينها وبين الخيوط التى تعترضها ، ومنه السدى (بفتح السين والدال) واللحمة (بضم اللام) وهى الخيوط الرأسية والأفقية التى ينسج منها الثوب . هذه هى بداية الوصية .

(١٦) يقول له — استمرارا فى وصيته — إن هذه الفتاة ليست سهلة المنال .

(١٧) الصرم : الهجر والقطيعة . وشحيج الغراب : صوته ، كناية عن الفراق .

(١٨) من هنا يبدأ الأعشى مغامرته الماجنة مع الفتاة .

١٩ حتى إذا ما اسْتَرْسَلَتْ مِنْ شِـدَّة لِلِعَابِهـا
٢٠ قَسَّمْتُهـا قِسمَيْن كُلُّ (م) مُوَجَّـــهٍ يُرْمَى بهـا
٢١ فَثَنيتُ جِيـدَ غَرِيرةٍ ولَمَسْتُ بطْنَ حِقَابِهـا
٢٢ كالحُقَّـةِ الصفراءِ صـا كَ عَبِـيرَها بمَلَابِهـا
٢٣ وإذا لنـا تامُــورَةٌ مرفُــوعةٌ لِشَرابِهـا
٢٤ وتظلُّ تَجْـرِي بيننـا ومُقَـدَّمٌ يَسْـعَى بهـا
٢٥ هَزِجٌ عليـــه التُّومَتَا نِ إذا تَشَـاءُ عَدَا بهـا

* * *

(١٩) استرسلت من شدة : أى استسلمت بعد عناد ، واسترخت أعصابها بعد أن كانت مشدودة متوترة . واللعاب : الملاعبة .

(٢٠) يرسم صورة للهوه بها . وقـوله « كل موجه يرمى بهـا » يريد به أنها كانت مستسلمة له يوجهها أى وجهة يريدها منها .

(٢١) الحقاب : حزام تعلق به المرأة حليها وتشده فى وسطها .

(٢٢) الحقة الصفراء يريد بها حقـة الطيب ، وهى صفراء إما لأنها من الذهب ، وإما لأن الطيب صبغها بلونه . وصاك : التصق . والعبير والملاب : نوعان من الطيب ، العبير أخلاط من الطيب ، والملاب هو الزعفران . يشبه هذه الفتاة بحقة الطيب التى اختلطت فيها أنواع من الطيوب المختلفة .

(٢٣) التامورة : أصلها التأمورة سهل همزتها ليزيد من انسيابية موسيقا البيت ؛ وهى وعاء تحفظ فيه الخمر لتكون معدة للشراب عند كل طلب .

(٢٤) المقدم : الذى وضع الفدام على فمه ، والفـدام : قطعة من القماش كان سقاة الخمر الفرس يشدونها على أفواههم عند سقى الخمر حرصا منهم على نقائها وعدم تلوثها . يقول إن هذه الجارية تجرى بيننا بالخمر ، ومعها ساق فارسى نظيف يسعى بها .

(٢٥) هزج : أى مغن يترنم بغنائه وهو يطوف عليهـم بالشراب ة والتومتان : مثنى تومة وهى اللؤلؤة أو القرط فيه حبة كبيرة من اللؤلؤ . هنا ينتهى الأعشى من رسم هذه اللوحة الحضارية لمجلس الشراب ، ليبدأ رسم لوحته البدوية للصحراء .

٢٦ ووَدِيقَةٍ شهباءَ رُدِّ (م) ىَ أُكْمُها بِسَرابها

٢٧ رَكَدَتْ عليها يومَها شمسٌ يحَرُّ شِهابها

٢٨ حتى إذا ما أوقدَتْ فالجَمْرُ مِثْلُ تُرابها

٢٩ كَلَّفتُ عانِسَةً أَمو نًا فى نشاطِ هِبَابها

٣٠ أكْلَلْتُها بعد المِرا حِ ، فآلَ مِنْ أصلابها

٣١ فشَكَتْ إلىَّ كَلَالها والجَهْدَ مِنْ إتعابها

٣٢ وكأنها محمومُ خَيْـ ـبَرَ بَلَّ مِنْ أوصابها

(٢٦) الوديقة : الصحراء الشديدة الحر . والشهباء : المجدبة الخالية من النبات . والأكم : الآكام وهى التلال المرتفعة . وردى : ألبس ، يصف السراب كأنه ثياب لبستها آكام الصحراء .

(٢٧) ركدت : سكنت وأقامت دون حراك . وشهاب الشمس : يريد به شعلة نارها الساطعة المتقدة . يقول إن الشمس أقامت فوق هذه الصحراء ساكنة لا تتحرك ، وراحت ترميها بشهب من نارها الحامية .

(٢٨) أوقدت : يريد الصحراء التى يشبه ترابها تشبيها مقلوبا الجمر المتوقد .

(٢٩) العانسة : الناقة الصلبة القوية القادرة على مشقات الرحلة والسفر . والأمون : المأمونة التى لايخشى عثارها . والهباب : السرعة .

(٣٠) أكللتها : أتعبتها وأرهقتها . والمراح : النشاط والخفة . وآل : يريد آل لحمها أى ذهب من مشقة الرحلة فضمرت . والأصلاب : فقرات الظهر . يقول إنه أرهق ناقته فى رحلته حتى هزلت وضمرت ، وهى صورة تتردد كثيرا فى وصف الرحلة فى الشعر العربى القديم .

(٣١) الكلال : التعب والإرهاق . والجهد : المشقة . والإتعاب : الإرهاق ، مصدر أتعب .

(٣٢) خيبر : مدينة فى شمالى يثرب كان اليهود ينزلون بها فى العصر الجاهلى ، وكانت معروفة بانتشار الحمى فيها ، ولعلها حمى الملاريا ، حتى ضرب بها العرب المثل فقالوا « حمى خيبر » . وبل : شفى . والأوصاب : الأوجاع .

٣٣ لعِبَتْ به الحُمَّى سِنِيـ ـنَ ، وكان مِنْ أصحابِهـا
٣٤ وردتْ على سـعدِ بن قيـ ـس ناقتى ، ولِمـا بهـا
٣٥ فإذا عُبَيـدٌ عُكَّفٌ مُسُـكٌ على أنْصابهـا
٣٦ وجميعُ ثعْلَبَـةَ بنِ سعـ ـدٍ بَعْـدُ حوْلَ قِبَابهـا
٣٧ مِنْ شُرْبِهـا المُزَّاءَ ما اسْـ ـتَبطنْتُ مِنْ إشرابِهـا
٣٨ وعلمتُ أنَّ اللهَ عَمْـ ـدًا حَسَّها وأَرَى بهـا

* * *

(٣٣) لعبت به الحمى : أى ظلت تعاوده مرة بعد أخرى وكأنها تلعب به ، ولعل فى هذا ما يرجح أنها الملاريا .

(٣٤) قيس بن ثعلبة هم قوم الأعشى ، وسعد بن قيس فرع من فروعها بدلالة قوله « ولما بها » فالضمير فيها يعود على القبيلة . يريد أن هذه الرحلة كانت من أجل العودة إلى قبيلته وما بها من خمر جيدة ، وهى الخمر التى سيصرح بها فى نهاية قصيدة . وفى كثير من شعر الأعشى ترتبط الرحلة بطلب الخمر والسعى وراءها .

(٣٥) عكف : عاكفون . ومسك : محبوسون على خدمتها . والأنصاب : الحجارة المنصوبة أمام بيوت الأصنام لتذبح عليها القرابين . يقول إنهم وثنيون متمسكون بوثنيتهم ، وإنهم حبسوا عبيدهم على خدمة أصنامهم وبيوتها .

(٣٦) الضمير فى « قبابها » يعود على الأنصاب ، ويريد بها بيوت الأصنام . وهو يؤكد هنا مرة أخرى أنهم قوم متمسكون بدينهم .

(٣٧) المزاء : الخمر اللذيذة الطعم . واستبطن الأمر : وقف على دخيلته . وإشرابها : أى حبه لها ، من أشرب قلبه حبها إذا تغلغل فى شغافه حتى أصبحت كأنها قطعة منه . يقول إنه أدرك سر الخمر الخفى الذى جعله يتعلق بشربها من شرب قومه لخمرهم اللذيذة . والبيت يشير أيضا إلى جودة خمرهم .

(٣٨) حسها : أحرقها . وأرى بها : أى أرى الناس بها العذاب والهلاك . يقول إن الله سلط عليها النار لتحرقها ، ولتكون سببا فى عذاب الناس وهلاكهم . والبيت يعكس تعمده وإصراره على شربها ، وكأنه يقول إنه لن يكف عن شربها حتى بعد أن علم سرها ، فهو راض بها وبعذابها .

* * *

يوسف خليف

(٤)

صُــورَةٌ مِنْ خَمْــرِيَّاتِه

* * *

يتجه الأعشى بهذه القصيدة إلى أحد ممدوحيه من سادات العرب الذين كان ينتجعهم للعطاء ، ولكنه لايديرها حول المدح ، ولا يمثّل المدحُ قسما متميزا فيها ، وإنمـا تدور حول الموضوعين اللذين لا يَمَلُّ الأعشى الحديث منهما : المرأة والخمر. ومن هنا تنقسم القصيدة إلى قسمين أساسيين : غزل فى إحدى صاحباته « هند » يشغل اثنى عشر بيتا منها ، يتغنّى فيه بجمالها وبحبه لهـا دون انحـدارٍ إلى سفوح الجنس التى نراه فى أكثر شـعره دائمَ الانحدار إليها . والقسم الثانى حديث عن الخمر ، ووصف لمجلس من مجالسها التى كان مشغولا بها أيضا فى أكثر شعره ، وهو حديث يَشْغَل من القصيدة عشرة أبيات ، يصل بعـدها إلى ممدوحه ليوجّه إليه فى خمسة أبيات تحيةً سريعة خاطفة ، ينوّه فيها بعطاياه الكثيرة التى وهبهـا له ، وبها يختم قصيدته .

والقصيدة — ككل شـعر الأعشى — تمتاز بالأناقة اللفظية ، والرقة الحضارية ، وسهولة اللغة ، وظهور بعض الألفاظ الفارسية فيها ، وتَحْفِل بنغم موسيقىّ راقص يتلاءم مع جوها العـام ، ويحقّقه لهـا بحرُ الرَّمَل الرقيـق الذى اختاره لها ، وحرفُ النون الساكنةِ الذى اختاره رَوِيًّا لهـا ، والذى يُشيع فى قوافيها رنينا عاليـا يتردد بانتظام فى نهـايةِ كلّ بيت من أبياتها ، ليضبط إيقاعها الموسيقى الرنان .

* * *

١ خالطَ القلبَ همـــومٌ وحَزَنْ ... وادِّكارٌ بعـدَ ماكانَ اطمأنّْ
٢ فهْـوَ مشغوفٌ بهنـــدٍ هائمٌ ... يرْعَوِى حِينًا ، وأحيـانًا يَحِنّْ
٣ بِلَعُــوبٍ طَيِّبٍ أردانُهـا ... رَخْصَةِ الأطرافِ كالرِّئم الأغَنّْ
٤ وَهْيَ إنْ تقعُـدْ نَقًـا مِنْ عالِجٍ ... وإذا قامتْ نِيَـافًا كالشَّطَنْ
٥ ينتهِى منهـا الوِشَـاحانِ إلى ... حُبْـلَةٍ ، وهى بمَـتْنٍ كالرَّسَنْ
٦ خُلِقتْ هنـــدٌ لقلـبي فتنـةً ... هــكذا تَعرِضُ للنـاس الفِتَنْ
٧ لا أراهـا فى خَـلاءٍ مرةً ... وَهْيَ فى ذاكَ حَيَـاءً لم تُزَنّْ
٨ ثم أرســـاتُ إليهـا أننى ... مُعْـــذِرٌ عُـذْرِى فسوِّديه بأَنْ

(٢) يرعوى : يرجع عن غيه وضلاله .

(٣) الأردان : الأكمام . والرخصة : اللينة الناعمة . والرئم : الظبي الخالص البياض . والأغن : الرخيم الصوت .

(٤) النقا : الكثيب . وعالج : منطقة رملية يتردد ذكرها كثيرا فى الشعر القـديم ينسبون إليها أجمل الظباء . والنياف : الطويلة الممشوقة القوام . والشطن : الحبل . يصف ثقـل أردافها ورشاقة خصرها ، فهى إن تقعد تراءت كأنهـا كثيب من الرمال الناعمة ، وإذا قامت تراءت كأنهـا حبل مفتول .

(٥) الحبلة : نوع من الحلى يعلق فى القلائد . والمتن : الظهر . والرسن : الحبل . يصف رشاقة خصرها ، واعتدال قوامها ، وحرصها على أناقتها وزينتها .

(٧) قوله « لا أراها فى خلاء مرة » يريد به أنها تنأى بنفسها عن مواطن الريب والشبهات . ولم تزن : أى لم تتهم بأى ريبة أو شبهة . صورة غير مألوفة فى غزل الأعشى الذى يشيع فيه عادة جو صريح مكشوف من الخلاعة والمجون والتهتك .

(٨) قوله « معـــذر عذرى » يعنى أنه مقدم عذره إليها لتصفح عنـه . والضمير فى « رديه » يعود على الرسول الذى يشير إليه فى الشطر الأول ، أو على كلمـة « عذرى » ، أى اقبلى عذرى ورديه إلى بالموافقة . وقوله « بأن » اختصار لمـا يريده منها ، أى رديه بأن توافق على زيارتك ، وتصلى ما انقطع بيننا من أسباب المودة .

٩ وبَدَرْتُ القولَ أنْ حَيَّيتُها ثم أنشأتُ أفَدِّى وأُهَنّْ
١٠ وأَرَجِّيها وأخشَى ذُعرَها مِثلَ ما يَفعَل بالقَوْدِ السَّنَنْ
١١ رُبَّ يومٍ قد تَجُودين لنا بعطايا لم تُكَدِّرْها المِنَنْ
١٢ أنتِ، سَلْمَى، هَمُّ نفسي فاذكرى سَلْمَ، لا يُوجَد للنفسِ ثَمَنْ

* * *

١٣ وعَلالٍ وظِلالٍ بارِدٍ وفَلِيجِ المِسْكِ والشَّاهِسْفَرَنْ
١٤ وطِلاءٍ خُسْرُوَانِيٍّ إذا ذاقه الشيخُ تغنَّى وارجَحَنّْ
١٥ وطَنَابِيرَ حِسانٍ صوتُها عند صَنْجٍ كلما مُسَّ أَرَنّْ
١٦ وإذا المُسْمِعُ أَفْنَى صوتَه عَزَفَ الصَّنْجُ فنادَى صوتَ وَنّْ

(٩) أفدى : أى أقول لها إنى فداؤك . وأهن : أصلها « أهنئ » وسهل همزتها ، أى أتمنى لها حياة هنيئة ناعمة . ويحتمل أن تكون « أهن » (بفتح الهمزة وكسر الهاء) بمعنى أبكى ، من هن يهن (على وزن حن يحن) إذا حن وبكى .

(١٠) القود : الخيل . والسنن هنا يريد به حسن رعاية الخيل وسياستها . يقول إنه أخذ يترضاها فى رفق وحذر وسياسة حتى لا يثير خوفها منه ، كما يفعل الفارس بفرسه حتى لا تنفر منه .

(١١) سلمى هنا هى هند التى يذكرها فى بداية القصيدة . وتعدد أسماء المحبوبات فى الشعر العربى القديم ظاهرة مألوفة ، فكلهن حواء . وسلم فى الشطر الثانى ترخيم لسلمى .

(١٣) العلالى : جمع علية وهى الغرفة العالية يفضلونها لشرابهم لطيب هوائها . والفليج : المفتت . والشاهسفرن : الريحان ، كلمة فارسية . يبدأ الأعشى من هنا القسم الثانى من قصيدته فى وصف مجلس من مجالس الشراب ، ويذكر هنا أن هذا المجلس كان فى غرفة عالية ظليلة تنتشر فيها الزهور والعطور .

(١٤) الطلاء : الخمر . والخسروانى : نسبة إلى خسرو أنوشروان أحد ملوك الفرس . وارجحن : اهتز وتمايل .

(١٥) الطنابير : جمع طنبور وهو آلة موسيقية تشبه العود أو الجيتار . والصنج : «الصاجات» . وأرن : أحدث رنينا موسيقيا .

(١٦) المسمع : المغنى . وأفنى صوته : انتهى من غنائه . والون : آلة موسيقية تشبه الصنج .

١٧ وإذا ما غُضَّ مِن صـوتيهما وأطاع اللحنُ غنّانا مُغَنْ
١٨ وإذا الدَّنُّ شرِبْنـا صفوَه أمَرُوا عَمْـراً فناجوْه بِدَنّْ
١٩ بمَتَـالِيفَ أهـانوا مالَهُـمْ لغنـاءٍ ولِلِعْبٍ وأَذَنْ
٢٠ فـترى إبريقَهـمْ مُسْـترْعِفا بشَمُولٍ صُفِّقتْ مِن ماءِ شَنّْ
٢١ غُـدْوةً حتى يَميـلوا أُصُـلاً مثلمـا مِيـلَ بأصحابِ الوَسَنْ
٢٢ ثم راحوا مَغرِبَ الشمسِ إلى قُطُفِ المشيِ قليلاتِ الحَزَنْ

* * *

(١٧) غض : أى خفض . والضمير فى صوتيهما يعود على الصنج والون . وأطاع اللحن : أى سمح اللحن الموسيقى بغناء المغنى .

(١٨) الدن : زق الخمر العظيم . وصفوه : خمره الصافية . وعمرو : هو الساقى الذى كان يقدم لهم الشراب . ودن الثانية : الصوت الذى لا يفهم كالدندنة ، يريد بها همهمة السكارى حين تعقد الخمر ألسنتهم .

(١٩) المتاليف : جمع متلاف وهو الكريم الذى يتلف ما له . وأهانوا ما لهم : أنفقوه ولم يحافظوا عليه . والأذن : السماع .

(٢٠) مسترعفا : أى دفاقا بالخمر . والشمول : الخمر الباردة . وتصفيق الخمر : مزجها بالماء . والشن : القربة البالية لكثرة استعمالها فهى ترشح فيبرد ماؤها .

(٢١) غدوة : أى صباحا . والأصل : جمع أصيل . والوسن : النوم الخفيف . يقول إنهم ظلوا فى شراب وغناء وموسيقا من الصباح حتى الأصيل .

(٢٢) القطف : جمع قطوف وهى المرأة التى تقارب من خطواتها ، وهى صفة محمودة كان العرب يحبونها من النساء . والحزن : الحزن ، يريد أنهن مرحات ينشرن البهجة من حولهن . يقول إنهم مع دخول المساء بدأوا لونا آخر من ألوان لهوهم ، فضوا إلى هؤلاء النساء الجميلات يقضون الليل معهن . وبهذا ينتهى القسم الثانى من القصيدة .

٢٣ عَدِّ هذا فى قريضٍ غيرِهِ ... واذكُرَنْ فى الشعرِ دهقانَ اليَمَنْ

٢٤ بأبى الأشعثِ قيسٍ ، إنه ... يشترى الحمدَ بمنفوسِ الثمنْ

٢٥ جئتُه يوما فأدنَى مجلسى ... وحَبانى بِلَجُوجٍ فى السَّنَنْ

٢٦ وثمانينَ عِشارٍ ، كلُّها ... آرِكاتٌ فى بَرِيمٍ وحَضَنْ

٢٧ وغلامٍ قائمٍ ذى عَدْوَةٍ ... وذَلُولٍ جَسْرةٍ مثلِ الفَدَنْ

* * *

(٢٣) عد هذا : أى اترك هذا الحديث إلى حديث غيره ، وهو أسلوب من أساليب الانتقال فى القصيدة الجاهلية من موضوع إلى موضوع . والدهقان : رئيس الإقليم ، كلمة فارسية ، ويريد به قيس بن معد يكرب الذى يبدأ من هنا مدحه ، والذى يصرح باسمه فى البيت التالى .

(٢٤) منفوس الثمن : أى الثمن الغالى النفيس الذى يحسده الناس عليه .

(٢٥) اللجوج : الفرس التى تلج فى سيرها أى تسرع . والسنن : الطريق .

(٢٦) العشار : النوق الحوامل . والآركات : التى ترعى شجر الأراك . وبريم وحضن : موضعان فى بلاد اليمن .

(٢٧) « وغلام قائم ذى عدوة » يريد غلاما قائما على خدمته ، وهنا لإشارته ، لا يتأخر عن تلبية مطالبه ، بل يعدو لها عدوا . والذلول : الناقة الطيعة يعتمدون عليها فى أسفارهم ورحلاتهم . والجسرة : الجريئة على السير فى الصحراء . والفدن : القصر ، يريد أنها ضخمة قوية البنية موثقة الخلق .

* * *

يوسف خليف

(٥)

نَصْـرُ ذى قَـار

* * *

يفتخر الأعشى فى هذه القصيدة بالنصر الذى أحرزته قبيلته « بكر » على الفرس ومَنْ شايعهم من القبائل العربية فى يوم ذى قار . وهى تبدأ بمقدمة تبدو غريبة بين المقدمات المألوفة فى الشعر الجاهلى ، فهى مزيج غير متوازن من حديث سريع لا حرارةَ فيه ولا عاطفة عن رحيل هُرَيرة ووداعها ، ثم انتقالٍ مفاجئ إلى حديث آخر لا صلة له بهريرة ، يدور حول وصية لأبيه يُوصِى فيها بنيه بإكرام الضيف وحقوق الجار وقتال الفرس . ثم ينتقل بعد ذلك إلى نصر ذى قار ، فيفتخر به ، ويرسم صورة مُنْصِفَة للمعركة التى انتصرتْ فيها قبيلته ، ويأسف لتخاذل القبائل العربية الأخرى عن الاشتراك معها فى القتال ، ويعلن أنها لو وقفت إلى جانبها لأحرز العربُ نصرا مؤزَّرا حاسما على الفرس ، ولكنها — مع ذلك — استطاعت وحدها أن تسجِّل — لأول مرة فى التاريخ — نصرا عربيا على الدولة الفارسية .

* * *

١ كانت وَصَاةٌ وحاجاتٌ لنا كَفَفُ ... لو أنَّ صحبكَ إذ ناديتَهُـمْ وَقَفوا

٢ على هُرَيرةَ إذ قامتْ تُوَدِّعنـا ... وقد أتَى من إطارٍ دُونَهـا شَرَفُ

---

(١) كانت هنا تامة لا تعمل عمـل كان الناقصة . والكفف : الكفاف وهو ما أغناك عن الناس وكفك عنهم . كأنه يقول لم يعد لى فى الحياة ما أحرص عليه إلا هذه الوصية التى أوصانى بها أبى ، وإلا هذه المطالب اليسيرة التى أسعى وراءها فى الحياة لتغنينى عن الناس .

(٢) على هريرة : متعلق بوقفوا فى البيت السابق . والشرف هنـا المرتفع من الأرض . وإطـار الشىء : كل ما يحيط به . يقول إن هريرة رحلت ، وحال بينى وبينهـا على اتساع المنطقة التى تشق طريقها فيها مرتفع من الأرض حجبها عنى .

٣ أَحْبِب بها خُلَّةً لو أنها وَقَفَتْ — وقد تُزِيل الحبيبَ النيّةُ القَذَفُ

٤ إنّ الأَعزّ أبانا كان قال لنا : — أُوصِيكُمُ بثلاثٍ ، إننى تَلِفُ

٥ الضيفَ ، أُوصِيكمُ بالضيف ، إن له — حقًّا علىَّ فأُعطِيه وأَعْتَرِفُ

٦ والجارَ ، أُوصِيكمُ بالجار ، إنَّ له — يوماً من الدهر يَثْنِيهِ فيَنْصرِفُ

٧ وقاتِلوا القومَ ، إنّ القتل مَكرُمةٌ — إذا تَلَوَّى بكفّ المُعْصِم العُرُفُ

* * *

٨ إن الرِّبَاب وحيًّا من بنى أسد — منهم بَقِيرٌ ومنهم ساربٌ سَلَفُ

٩ قد صادفوا عُصْبةً مِنّا وسَيّدَنا — كلٌّ يؤمِّل قُنْيَاناً ويَطَّرِفُ

---

(٣) الخلة : الصديقة المحبوبة . والنية : النوى والبعد . والقذف : البعيدة التى تقذف بصاحبها إلى مكان بعيد .

(٤) تلف : هالك . يقول إنها وصية أوصاهم بها حين أحس اقتراب أجله .

(٥) أعترف : أى أعترف به ولا أنكره ... هذه هى الوصية الأولى .

(٦) يثنيه فينصرف : أى يدفعه إلى الانتقال إلى منزل آخر ... وهذه هى الوصية الثانية .

(٧) العرف : عرف الفرس . والمعصم : الذى يمسك به خوفا من سقوطه عن ظهره لشدة عدوه . والقوم هنا يريد بهم — كما يدل سياق القصيدة — الفرس الذين كانوا يفرضون نفوذهم على هذه المنطقة الشرقية من جزيرة العرب . والبيت يعكس مشاعر الضيق بهذا النفوذ الأجنبى الذى كان كل جيل يورثه للجيل الذى يأتى بعده حتى يتم تحرير المنطقة العربية منه ... وهذه هى الوصية الثالثة .

(٨) الرباب وبنو أسد من القبائل العربية التى انضمت إلى الجيش الفارسى تحارب معه . والبقير : القتيل الذى بقر بطنه . والسارب : الهارب . والسلف : الذاهب على وجهه فرارا من المعركة .

(٩) القنيان : ما يقتنيه المرء ويجمعه ، يريد به الغنائم . ويطرف : يصيب ما هو طريف من غنائم المعركة .

١٠ قلنا: الصِّلاحَ، فقالوا: لا نُصَالِحُكم ... أهلَ النُّبُوكِ وعِيرٍ فوقها الخَصَفُ

١١ لسنا بِعِيرٍ — وبيتِ الله — مائرةٍ ... إلا عليها دروعُ القوم والزَّغَفُ

١٢ لما التقينا كَشَفنا عن جَمَاجِمِنا ... ليَعْلَمـوا أننا بَكْرٌ فينصرفوا

١٣ قالوا: البقيةَ، والهنديُّ يحصُدهم ... ولا بقيةَ إلا السيفُ فانكشفوا

١٤ هل سَرَّ حنْقطَ أن القوم صالحهم ... أبو شُرَيْحٍ ولم يُوجَدْ له خَلَفُ؟

١٥ قد آبَ جارتَها الحسناءَ قَيِّمُها ... رَكْضًا، وآبَ إليها الثُّكْلُ والتَّلَفُ

* * *

(١٠) الصلاح: الصلح. والنبوك: التلال الصغيرة، مفردها نبكة بتحريك الباء وسكونها. والعير: الإبل التي تستخدم في التجارة. والخصف: جمع خصفة وهي قفة تعمل من الخوص لوضع التمر فيها. يقول إنهم عرضوا عليهم الصلح فرفضوا، وعيروهم بأنهم سكان وهاد منخفضة وتجار تمر.

(١١) المائرة: التي تتحرك في سهولة ولين. والزغف: الدروع المحكمة السلاسل. يقول لهم مؤكدا قوله بالقسم بالكعبة إنهم ليسوا أصحاب إبل أعدت للتجارة وحمل البضائع، ولكنهم أصحاب إبل أعدت للحرب وحمل السلاح.

(١٢) يبدأ من هنا وصف المعركة، فيقول إنهم كشفوا عن رؤوسهم ليعرف العدو أنهم قبيلة بكر أبناء عمومتهم وجيرانهم في المنطقة، وليعرفوا أنهم عرب مثلهم فيرجعوا عن قتالهم.

(١٣) قالوا البقية: أي توسلوا إلينا أن نبقى عليهم ولا نستأصلهم. والهندي: السيف. ومعنى الشطر الثاني أننا لم نستمع إلى توسلهم، واستمرت سيوفنا تحصدهم حتى تمت هزيمتهم وانكشفت صفوفهم.

(١٤) أبو شريح: سيد من سادة القبائل العربية التي كانت تحارب مع الفرس. وحنقط: زوجته. والقوم هنا الفرس. يتساءل في سخرية: هل سر زوجة هذا السيد انضمامه إلى الفرس بعد أن لقي مصرعه في المعركة ولم يخلف من بعده خلفا له؟

(١٥) القيم: الزوج. وجارتها منصوب على نزع الخافض. أي آب زوج هذه الجارة إليها وهو يعدو فرارا من المعركة، أما حنقط فقد آب إليها الثكل والتلف. وهنا ينتهي الأعشى من وصف المعركة التي دارت بين قومه والقبائل العربية الموالية للفرس، لينتقل بعد ذلك إلى وصف المعركة الفاصلة مع الجيش الفارسي.

١٦ وجُندُ كسرى غداةَ الحِنْوِ صبَّحهم ... مناغطاريفُ تُزْجِي الموتَ فانصرَفوا

١٧ جحاجحٌ وبنو مُلْكٍ غطارفةٌ ... من الأعاجم في آذانها النُّطَفُ

١٨ إذا أمالوا إلى النُّشّاب أيديَهمْ ... مِلْنا ببِيضٍ فظلّ الهامُ يُختَطَفُ

١٩ وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تَطْحنهم ... حتى تولّوا وكاد اليومُ ينتصِفُ

٢٠ لَقُوا مُلَمْلَمَةً شهباءَ يقدُمُها ... للموتِ لا عاجزٌ فيها ولا خرِفُ

٢١ فيها فوارسُ محمودٌ لقاؤهمُ ... مثلُ الأسنّة لا مِيلٌ ولا كُشُفُ

(١٦) الحنو في أصل معناه اللغوي منحنى الوادي ، ويريد به هنا حنو ذي قار الذي دارت فيه رحى المعركة . والغطاريف : السادة ، جمع غطريف .

(١٧) الجحاجح : السادة ، جمع جحجح وجحجاح . والغطارفة : جمع آخر لغطريف . والنطف : اللآلىء ، جمع نطفة ، يصف الفرس بأنهم كانوا يلبسون أقراطا من اللؤلؤ .

(١٨) النشاب : النبال . والبيض : السيوف . والهام : الرؤوس . وفي رواية أخرى « يقتطف » . يصف حركة القتال ، فالفرس يعتمدون على النبال يرمون بها من بعيد ، والعرب يقدمون عليهم بسيوفهم التي تختطف رؤوسهم وتقطفها .

(١٩) تطحنهم : تدوسهم وتدق عظامهم وتمزق أجسادهم ، كأنها رحى دائرة لا تنفك تطحنهم طحنا .

(٢٠) الململة : الكتيبة التي صفت صفوفا متراصة متماسكة . والشهباء : التي يختلط فيها البياض بالسواد ، بياض السيوف بسواد الرماح . والخرف : الضعيف العقل ، الفاسد الرأي . يصف الكتيبة العربية — كتيبة قومه — وقائدها ، فهي كتيبة ضخمة تامة السلاح يتقدمها قائد شجاع سديد الرأي قادر على إدارة المعركة بشجاعته وحكمته ودقة تخطيطه لها .

(٢١) الميل : جمع أميل وهو من لا يستطيع أن يثبت على ظهر جواده لقلة خبرته بالفروسية ، أو هو المجرد من أسلحة الهجوم . والكشف : جمع أكشف وهو المجرد من أسلحة الدفاع . يصف فرسان قومه بأنهم فرسان يجيدون الفروسية ، مسلحون تسليحا كاملا ، وأنهم قادرون على حسم المعركة كالأسنة الحادة المسنونة .

٢٢ بِيضُ الوجوهِ غداةَ الرَّوْعِ تحسَبُهم — جِنَّانَ عَيْنٍ عليها البَيْضُ والزَّغَفُ

٢٣ لو أن كُلَّ مَعَــدٍّ كان شارَكَنـا — في يومِ ذي قارَ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ

* * *

(٢٢) بيض الوجوه : كناية عن كرم الأصل ، ودلالة على أن وجوههم لا تتغير عندما تشتد المعركة ويحتدم القتال . والروع : الفزع ، يريد الحرب . والجنان : الجن ، جمع جان . والعين : عين الماء ، وكان العرب يعتقدون أن الجن تخرج أحيانا من عيون الماء . والبيض : جمع بيضة وهى خوذة المقاتل . والزغف : الدروع المحكمة السلاسل .

(٢٣) كل معد : أى كل القبائل العربية ، ومعد هو معد بن عدنان أبو العرب الشماليين . يأسف على تخاذل بعض القبائل العربية عن الوقوف مع قبيلته فى هــذه الحرب ، ولو أنهم كانوا شاركوهم القتال فى هــذا اليوم الحاسم لنالوا شرفا كبيرا فى معركة الكرامة والحرية وتحرير الأرض العربيــة من النفوذ الأجنبى .

* * *

يوسف خليف

أميَّــة بن أبى الصَّلت

* * *

وُلِد أميةُ بن أبى الصلت فى بيت يجمع بين العز والشرف، ويتميز بحب الأدب والشعر . وكان أبوه أبو الصلت بن أبى ربيعة سيدا فى قومه ، وأمه هى رُقَيَّــة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وهى من شريفات قريش . ويقال إن أباه كان شاعرا يُنْسَب إليه شىء ممــا نُسِب إلى أمية نفسه .

ولكننا لا نعلم متى ولد ، ولا كيف نشأ وتدرَّج ، كما أننا لا نعلم علم اليقين متى وكيف مات ، ولا سيما أن كتب الأدب والتاريخ على خلافٍ فى خبر وفاته . ولكن يمكن أن نستنبط بعض الحقــائق عن حياته من شــعره . ذلك أن أول ما نلاحظه فى شعره ، أن ثمة اختلافا شاسعا بين شعره فى شبابه وشعره عندما بلغ الكهولة والشيخوخة . ففى الشــباب نرى فى شــعره زينب ولُبَيْنى ، كما يزخر بالاندفاع والفخر والتبجح أحيانا ، أما فى سنى الكهولة والشيخوخة فيجنح شعره إلى وداعة الروح ، وروحانية المتعبِّد المتوحِّد ، ووصفِ ما وراء الطبيعة المــادية الملموســـة .

ولا بد أن يكون أميــة قد عانى كثيرا من التدرج فى مراحل حياته وتجاربه وثقافته حتى بلغ هــذا الحد من الحكمة والتصوف . وهــذا يدل على أنه كان من المعمَّرين . كذلك فإن كتَّاب الأدب والسيرة والتاريخ قــد أجمعوا على أنه كان يطمح إلى النبوة التى لا يُحْتَمل أن يطمع فيهــا شاب يريد أن ينهل من متع الحياة

أولا . وكان انتظار أمية للنبوة وطمعه فيها قد شاع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزة .

ولم يتفق الرواة على سـنة وفاته ، لكنها تراوحت بين السنة الثانيـة للهجرة فى أعقابِ غزوة بدر وبين السنة الثامنة أو التاسعة . ولكن قد نجد فى غياب أمية عن وصفِ أحداثِ الجزيرة منذ معركة بدر فى السنة الثانية دليلا على أنه لم يعش إلى ما بعد هذه السنة التى قال فيها قصيدته فى رثاء قتلى قريش فى هذه المعركة . وعلى هـذا الأساس يمكن تقدير ميلاده بين سنة ٥٣٤ وسنة ٥٤٤ م ووفاته حوالى ٦٢٤ م ، أى أن عمره تراوح بين ثمـانين وتسعين سنة .

* * *

وإذا كنا لا نعرف شيئا عن نشأته وشبابه ، فإن شعره يَنِمّ عن شبابِ فتًى لم يكن ماجنا ، كالذى نراه عنـد طرفة بن العبد وامرئ القيس مثلا ، ومـع ذلك فهو يقاسى من مكابدة شـوقه وهواه بليلى وديار ليـلى ثم زينب ولبنى . ولسـنا متأكدين إذا كانت هـذه الأسماء أو هـذه الشخصيات حقيقية ، لكنها تنم — فى حقيقة أمرها — عن أثرٍ ضئيل لمجون الشباب ، نتيجةً لتعففه منذ أن كان حَدَثا صغيرا . وكان شعره فى شبابه مزيجا من الغزل والمدح والاندفاع والفخر ، ثم الحكمة والتصوف فى كهولته وشيخوخته . بل إنه لبس المُسُوح وتعبَّد ، وصَدَفَ عما كان فى عصره من عادات جاهليـة كالأوثان والخمـر ، وطَلَبَ الدِّينَ ودارسَ أهـلَ الكتاب لدرجة أنه طمع فى النبوة .

أما عن حياته العملية فقـد اشتهر بين الباحثين المحدثين بأنه ذلك التاجر الذى يعمـل بين الشام واليمن . وهـذا تناقض عجيب بين حيـاة التجارة بكل مهارتها وماديتها البحتة وبين الشعر الذى نجده فيه رجلا يهيم بخياله بين الأنبياء والملائكة ،

وتجيش خواطره بأنباء من خلا من الأمم . ولعل هذا التناقض يفسر لنا عدم نجاحه في التجارة بدليل أنه لم يكن واسع الثراء ، ولو كان ثريا فعلا لما أقدم على المديح في شعره ، ولما سعى إلى التكسب عن هذا السبيل و إراقة ماء وجهه .

أما عن عقيدته فكان ينتمي إلى من اسمُوا « بالحنفاء » الذين تركوا مفاسد الجاهلية قبيل الاسلام ، ونبذوا عبادة الأصنام ، واتجهوا إلى التوحيد الخالص ، وبحثوا عن دين إبراهيم . كذلك اتصل بثقافة الأديان التي كانت تحيط به ، وإن كانت جميع الروايات قد أجمعت على عدم إسلامه بعد بزوغ فجر الإسلام ، وهو ما هبط بقيمته عند الرواة .

* * *

لكن شعر أمية لا تكاد قصيدةٌ من قصائده الدينية تخلو من معاني التوحيد ، أو ذكر الحساب والقيامة ، أو ذكر الأنبياء والرسل . ثم إن شعره يكاد يزخر بمناظر الطبيعة ، وما فيها من مخلوقات تدل على حكمة الله وقدرته ، ففي السماء يرى الشمس والقمر ، والأفلاك والنجوم ، وفي الأرض يرى الحَرْثَ والنبات ، والعيون والأنهار ، والطير والحيوان ، بالإضافة إلى صور كثيرة ومتتابعة لما وراء الطبيعة . ولكن المشكلة الكبرى في شعر أمية أن أكثر شعره الديني متهم بالوضع والانتحال بصورة جعلت كثيرا من الباحثين يشكون فيه كله . ولكن ليس من الطبيعي أن نرفضه كله ، وبخاصة لأن شهرة أمية إنما قامت أولا وأخيرا على هذه النزعة الدينية في حياته وفي شعره على السواء .

وكانت شخصيته متقلبةً حائرة بين واقعه ونفسه . لكن شخصيته بكل ما فيها من عبقرية وشاعرية كانت نتاجا لعناصرَ متعددة عملت على تكوينها وبلورتها . وفي مقدمة هذه العناصر بيئة أمية ، وما أحيط به من بيت شاعري ، ثم ما حظي

به من ثقافة ، وما قام به من رحلات داخل الجزيرة وخارجها ، ثم ما كان من أحداث تولدت عنها نهضة فكرية واجتماعية قبل الإسلام . وقد تركت الطائف التى عاش فيها بصمات واضحةً فى شعره ، وهى المدينة الجميلة التى تشبه الفردوس الأرضىّ . وكان أمية قد فُطِر على التأمل فيما حوله من عجائب الطبيعة ، ومن هنا كان تفاعل عبقرية الشاعر بعبقرية المكان .

* * *

وهناك أخبار كثيرة حول وفاة أمية ، وكلها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع ، ولذلك فنحن لا نسلم بها على عِلّاتها ، فقد كانت نتيجة طبيعية لشخصية هذا المتألّه الجاهلى المحيِّر المتقلب الذى جعل منه الرواةُ بطلا من أبطال الأساطير .

* * *

نبيـل راغب

(١)

الطّوفان

* * *

فى هذه القصيدة يقدم أمية بن أبى الصلت صورة فنية رائعة تجسد قصة نوح والطوفان :

١ جَزَى الله الأجلُّ المرءَ نُوحًا ... جزاءَ البرِّ ليس له كِذّابُ

٢ بما حَمَلَتْ سفينتُه وأنجتْ ... غداةَ أتاهمُ الموتُ القُلَابُ

٣ وفيها مِنْ أَرُومتِه عُراةٌ ... لديه ، لا الظَّماءُ ولا السِّغابُ

٤ وإذْ هم لا لَبوسَ لهم تَقيهمْ ... وإذ صخرُ السِّلامِ لهم رِطابُ

٥ عشيةَ أُرسِلَ الطُّوفانُ تجرى ... وفاضَ الماءُ ليس له جِرابُ

٦ على أمواجِ أخضرَ ذى حَبيكٍ ... كأنَّ سُعارَ زاخرِهِ الهِضابُ

(١) الكذاب : مصدر كالكذب .

(٢) القلاب : داء يصيب قلب البعير فيموت من يومه ، وهو هنا : الموت الأكيد المحقق .

(٣) الأرومة ، الأصل . والسغاب : الجياع . وقوله « لا الظماء ولا السغاب » حذف الخبر ، فكأنه قال : لا الظماء ولا السغاب بحاجة إلى وصف حالهم لأنه معروف متوقع .

(٤) اللبوس : الثياب . السلام : الحجارة ، المفرد سلمة (بفتح فكسر) ، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة فى قديم الزمن .

(٥) الجراب : جوف البئر من أعلاها إلى أسفلها . يريد أن الماء لم تكن له حدود تحده لكثرته واتساعه . وقوله « تجرى » يريد السفينة المفهومة من السياق .

(٦) الحبيك : مفردها حبيكة ، وهى ما يرى على الماء من طرائق إذا مرت به الريح . والسعار : فى الأصل حر النار ، ثم استعاره لشدة الموج .

٧ بآيةٍ قـام يَنطِـقُ كلُّ شيء — وخانَ أمانةَ الديكِ الغُـرابُ

٨ وأُرسِلَت الحمامةُ بعـد سَبْع — تَـدلُّ على المهالِك لا تَهَـابُ

٩ تَلَمَّسُ هل تَرى في الأرض عَيْنا — وغايتُهـا مِنَ المـاء العُبَـابُ

١٠ فجاءت بعدما رَكَضَتْ بِقِطْف — عليه الثَّـأطُ والطِّينُ الكُبابُ

١١ فلمـا فَرَّسوا الآياتِ صـاغوا — لهـا طَـوْقًا كما عُقِدَ السِّخَابُ

١٢ إذا ماتتْ تُـوَرِّثه بَنيهـا — وإنْ تُقتَلْ فليس لهـا استِلابُ

١٣ كذِى الأفعَى تَرَبَّبَهـا لـديه — وذِى الجِـنِّيِّ أَرسَلَها تُسَـابُ

---

(٧) الآية : العلامة . ويقول الجاحظ : « في كثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب ، وأنهما شربا الخمر عند الخمار ، ولم يعطياه شيئا ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شربا ، ورهن الديك ، فخاس به ، فبقي محبوسا » . ومعنى خاس غدر .

(٨) تدل على المهالك : أي تجرأ عليها . وفي رواية أخرى « تزل » أي تنزلق .

(٩) عباب الماء : أوله ومعظمه ، والمعنى أنها إذا بلغت أول الماء بلغت بذلك الشاطىء واليابسة وهو ما تبحث عنه . والتمس الشيء وتلمسه : طلبه . والعين هنا : الناحية ، وأراد بها ناحية لا ماء فيها .

(١٠) ركض الطائر : أسرع في طيرانه ، والقطف : ما قطف من ثمار وسواها . والثأط : الطين الأسود المنتن . والكباب : الطين اللازب .

(١١) فرسوا الآيات : تثبتوا منها وتأكدوا . والسخاب . القلادة .

(١٢) الاستلاب : الاختلاس .

(١٣) ذو الأفعى : لعله يريد به آدم عليه السلام . وتربيها : رباها . والأفعى : الحية التي كلم إبليس آدم من جوفها . وذو الجني : إبليس . وسابت الحية وانسابت : جرت ، وأراد بذلك زحفها على الأرض . يشير إلى أسطورة الحية التي مسخت على صورتها بعد أن كانت في هيئة الجمل عقابا لها على استجابتها لإبليس .

١٤ فلا ربٌّ المنيّة يأمنها ولا الجنيُّ أصبح يستتاب

١٥ بإذنِ الله فاشتدّت قُواهم على مَلَكَيْنِ وَهْيَ لهمْ وِثَابُ

١٦ وفيها مِنْ عبادِ الله قومٌ ملائكُ ذُلّلوا وَهُمُ صِعَابُ

* * *

(١٥) الوثاب : الفراش ، وهي هنا المقاعد ، يعني أن السماء مقاعد للملائكة .

* * *

نبيل راغب

(٢)

صُوَرٌ مِنَ القَصَصِ الدينيِّ

* * *

فى هذه القصيدة يقدم أمية بن أبى الصلت مفهومه للخلق ممزوجا بطائفة من القَصَص الدينى كقصة فرعون وقصة ثمود . ويبدو أن القصيدة كانت فى الأصل طويلة ، وضاعت ، ولم تصل إلينا منها إلا هذه القطع المتفرقة .

المجـــدُ لله :

١ مَجِّـدوا الله فهو للمجدِ أَهْـلٌ ... ربُّنـا فى السماء أمسَى قـديرا
٢ ذلك المُنشِئُ الحِجـارةَ والمو ... تَى وأحياهُمُ وكان قديرا
٣ بالبِناءِ الأعلى الذى سَبَقَ النَّـا ... سَ وسَوَّى فوق السماء سَرِيرا
٤ شَرْجَعـاً لا يَنَـالُه بَصَرُ العيـ ... نِ تَرَى دُونَه الملائكَ صُورا
٥ هو أبدَى مِنْ كلِّ ما يَأْثُرُ النا ... سُ أماثيلَ باقيـاتٍ سُفُورا
٦ خَلَقَ النخلَ مُصْعِداتٍ تراها ... تَقْصِفُ اليابساتِ واليَخْضُورا

---

(١) المجد هنا : الثناء والتعظيم ، ومجده : عظمه وأثنى عليه .

(٢) المنشىء : الخالق أو الباعث . وأحياهم : الضمير للموتى . والمعنى إما أنه أحياهم قبل موتهم ، وإما أنه سيحييهم بعد موتهم ، وبذلك يكون قد عبر بالماضى عن المستقبل .

(٣) البناء الأعلى : السماء . وسبق الناس : تقدمهم فلم يستطيعوا بناء ما يجاريه ارتفاعا . والسرير : العرش ، يريد عرش الله .

(٤) الشرجع : العالى المنيف ، يريد سرير العرش . والصور ، مفردها أصور ، وهو المائل العنق .

(٥) أثر الحديث يأثره (بضم الثاء وكسرها) : نقله وحدث به . والأماثيل : مفردها أمثولة ، وهو ما يتمثل به من الأقوال السائرة بين الناس . وسفورا : ظاهرة لا حجاب عليها .

(٦) مصعدات : مرتفعات . وتقصف ، هنا : تلق . واليخضور : الأخضر .

٧ والتماسيح والثياتل والإيـ (م) ـل شتى والريم واليعفورا
٨ وصوارا من النواشط عينا ونعاما خواضبا وحميرا
٩ وأسودا عواديا وفيولا وذئابا والوحش والخنزيرا
١٠ وديوكا تدعو الغراب لصلح وإوزين أخرجت وصقورا

غرق فرعون :

١١ ولفرعون إذ تشاق له الما ء ، فهلا لله كان شكورا
١٢ قال : إنى أنا المجير على النا س ولا رب لى على مجيرا
١٣ فمحاه الإله من درجات ناميات، ولم يكن مقهورا
١٤ سلب الذكر فى الحياة جزاء وأراه العذاب والتدميرا
١٥ وتداعى عليهم البحر حتى صار موجا وراءه مستطيرا

(٧) الثياتل : مفردها ثيتل ، وهو الذكر المسن من الوعول . والإيل : مفـردها أيل (بفتح فكسر وتشديد) ، وهو ذكر الأوعال . والريم والرئم : الظبى الخالص البياض . واليعفور (بفتح الياء وضمها) : الظبى الذى لونه كلون العفر ، وهو التراب .

(٨) الصوار (بكسر الصاد وضمها) : القطيع من البقر الوحشى . والنواشط : التى تخرج من أرض إلى أرض للرعى . والعين : مفردها عيناء ، وهى الواسعة العين ، يريد البقر الوحشى . والخواضب : مفردها خاضب ، وهو من النعام ما كان أحمر الساقين .

(١٠) الإوزين : مفردها إوزة وهو من نادر الجمع . وأشار فى صدر البيت الى أسطورة شرب الديك والغراب عند الخمار .

(١١) تشاق : انشق وانفرج . ولفرعون : متعلقان بمحذوف : « انظر لفرعون » .

(١٣) الدرجات : مفردها درجة : وهى المنزلة . وناميات : عاليات .

(١٤) الذكر : المراد به الذكر الحسن . والضمير فى « لم يكن » لله تعالى .

(١٥) تداعى عليهم : أقبل من كل جانب كأنما يدعو بعضه بعضا . والضمير فى « عليهم » يعود على فرعون وجنوده . والمستطير : المنتشر .

١٦ فدعـا اللهَ دعـوةً لا يُهَنّـا   بعـدَ طُغيانه فصـار مُشيـرا

تِيـهُ بنى إسرائيلَ :

١٧ فـــرأى اللهُ أنهـم بِمَضِيع   لا بذى مَزْرَعٍ ولا معمورا

١٨ فنَسَاها عليهـمُ غاديـاتٍ   ومَرَى مُزْنهـم خَلايَا وخُـورَا

١٩ عَسَـــلا ناطِفـاً ومـاءً فُـراتا   وحَلِيبا ذا بَهْجَـةٍ مَثْمُـورا

آلُ فرعونَ :

٢٠ أرْسَـلَ الذَّرَّ والجرادَ عليهـم   وسنينًا فأهلكَتْهـمْ ومُـورَا

٢١ ذَكَرُ الذَّرِّ إنه يَفْعَـلُ الشرَّ   وإنّ الجَـرادَ كانَ ثُبُورا

٢٢ رَكَبتْ بَيْضةُ البَيَـاتِ عليهـمْ   لم يُحِسّوا منهـا سِـــواها نَذِيرا

(١٦) لايهنأ : لايظفر من دعوته بخير . والمشير : الملوح باليد .

(١٧) المضيع : مكان الضياع ، وأراد به الصحراء التى تاهوا فيها . والمزرع : مصدر ميمى من زرع ؛ أى ليس بذى زرع والمعمور : الآهل بالسكان . والضمير فى « أنهم » يعود على بنى إسرائيل .

(١٨) نسأها : الهاء للسحاب أو الغيوم ، أى ساقها عليهـم . والغاديات : مفردها غادية ، وهى السحابة . ومرى الناقة : مسح ضرعها لتدر . والمزن : مفردها مزنة ، وهى السحابة ذات المطر . والخلايا : مفردها خلية ، وهى الناقة التى خليت للحلب لكرمها وغزارة لبنها . والخوارة : الناقة أو الشاة الغزيرة اللبن .

(١٩) الثمير والثميرة : اللبن الذى ظهر زبده وتحبب ، ومنه « المثمور » بنفس المعنى . الناطف : القاطر . والفرات : أشد الماء عذوبة .

(٢٠) السنين : مفردها سنة ، وهى عند الإطلاق السنة المجدبة . والمور : التراب تثيره الرياح ، وضمير الجمع فى البيت يعود على آل فرعون .

(٢١) الثبور : الهلاك .

(٢٢) البيضة هنا : الشدة . والبيات : الاسم من قولهـم بيت القـوم ، اذا أوقع بهم ليـلا وأخذهم بغتة .

ثَمُودُ والنّاقة :

٢٣ كثمود التي تفتّكت الدّيـ ... ـن عتيّاً وأمّ سقبٍ عقيرا

٢٤ ناقةُ الإله تسرح في الأر ... ض وتنتابُ حول ماءٍ مديرا

٢٥ فأتاها أُحَيْمِرٌ كأخي السّهـ ... ـم بعَضْبٍ فقال كوني عقيرا

٢٦ فأبتّ العُرقوبَ والساقَ منها ... ومضى في صميمه مكسورا

٢٧ فرأى السّقْبُ أمّه فارقته ... بعد إلْفٍ حنيّةً وظَئُورا

٢٨ فأتى صخرةً فقام عليها ... صَعْقةً في السماء تعلو الصّخورا

٢٩ فرغا رغوةً فكانت عليهم ... رغوةُ السّقْبِ دُمّروا تدميرا

---

(٢٣) تفتكت هنا بمعنى فتكت . والعتى . مجاوزة الحد في التكبر والمعصية . والسقب : ولد الناقة .

(٢٤) سرحت الماشية : خرجت إلى المرعى . وتنتابه : تقصده مرة بعد أخرى . والمدير : المدور ، وهو الحوض يسد ما بين حجارته بالطين .

(٢٥) أحيمر : تصغير أحمر ، وهو لقب قدار بن سالف عاقر الناقة . كأخي السهم : أي سريع كالسهم . والعضب : السيف القاطع .

(٢٦) بته وأبته : قطعه قطعا مستأصلا . والعرقوب : من رجل الدابة بمنزلة الركبة في يدها ، وهو العصب الذي يضم ملتقى الوظيفين والساقين . والصميم : العظم الذي به قوام العضو ، كصميم الوظيف وصميم الساق .

(٢٧) الإلف كالألفة : الصداقة والمؤانسة . وناقة حنية : حانية ، وهي البرة بولدها . والظئور : الناقة الملازمة لولدها .

(٢٨) قام : وقف . الصعقة : الصاعقة .

(٢٩) رغا البعير : صوت ، والرغوة : المرة من الرغاء .

٣٠ فأُصِيبوا إلا الذَّرِيعَةَ فاتَتْ ... من جَوَارِيهِمُ وكانت جَرُورا

٣١ سِنْفَةٌ أُرسِلتْ تُخَبِّر عنهم ... أهلَ قَرْحٍ بها قَدَ امسَوْا ثُغورا

٣٢ فسَقَوْها بعدَ الحديثِ فماتتْ ... فانتهى دِينُها فوافتْ حَفِيرا

* * *

(٣٠) فاتت : نجت . والجرور ، هنا : المعاندة ، من قولهم جمل جرور ، وهو الذى لاينقاد ولايكاد يتبع صاحبه . والذريعة : امرأة من ثمود يقال إنها هى التى نجت من العذاب الذى نزل بها .

(٣١) السنفة : وعاء كل ثمر ، وأراد ذلك على التشبيه . وقرح : سوق وادى القرى ، وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد . وثغورا : متفرقين جافلين .

(٣٢) الحفير : القبر . يشير هنا إلى نهاية الذريعة بعد نجاتها من العذاب ، إذ يقال إنها سقيت بعد أن حدثوها بأخبار العذاب شرابا مسموما فماتت .

* * *

نبيــل راغب

(٣)

أصحابُ الفيل

* * *

فى هذه القصيدة يبلور أمية بن أبى الصلت مفهومه للخلق والكون، ويتحدث عن قدرة الله كما رأى مَثَلا لها فى قصة أصحاب الفيل :

١ إنّ آياتِ ربّنا ثاقباتٌ ما يُمارِى فيهنّ إلا الكفورُ

٢ خَلَقَ الليلَ والنهار فكلٌّ مستبِينٌ حسابُهُ مَقْدورُ

٣ ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم بمَهاةٍ شُعاعُها منشورُ

٤ حَبَسَ الفيلَ بالمُغَمَّس حتى ظلّ يَحْبُو كأنه مَعْقورُ

٥ لازمًا حَلْقَةَ الجِرَانِ كما قُطِّـ(م) ـرَ من صخرِ كَبْكَبٍ مَحْدورُ

---

(١) الثاقب : المضىء . ويمارى : يجادل أو يشك .

(٢) المستبين : الواضح الظاهر . المقدور : المقدر المحسوب بحساب دقيق .

(٣) المهاة : الشمس . والمنشور : المنتشر .

(٤) المغمس : موضع فى طريق الطائف قرب عرفات ربض فيه الفيل حين جاء به أبرهة ، ومات فيه أبو رغال ، وقبره يرجم هناك ، وكان أبو رغال دليل صاحب الفيل إلى مكة وحبا : برك فلم يتحرك . والعقر : أن تقطع إحدى قوائم البعير قبل نحره كيلا يشرد عند النحر .

(٥) الجران : باطن العنق ، فإذا برك البعير ومدى عنقه على الأرض ، قيل ألقى جرانه بالأرض . وقطر : ألقى من علو على قطره ، أى جانبه . وكبكب : جبل بمكة خلف عرفات . والمحدور : الذى ألقى من علو إلى أسفل ، وأراد « حجرا محدورا » فأقام الصفة مكان الموصوف بعد حذفه .

٦ حوله مِنْ ملوكِ كِنْدَةَ أبطا لُ مَلَاوِيثُ فى الحروبِ صُقورُ
٧ خَلّفوه ثم ابذَعَرُّوا جميعًا كلُّهـم عَظْمُ ساقِهِ مكسورُ
٨ كلُّ دينٍ يومَ القيامةِ عند اللّـ ـهِ إلا دينَ الحنيفةِ بُورُ

* * *

(٦) الملاويث : الأشداء ، مفردها ملاث (بفتح الميم) أو ملوث (بكسرها) .

(٧) ابذعروا : تفرقوا . وفى رواية أخرى « غادروه وقد تولوا سراعا » .

(٨) البور : الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . وفى رواية أخرى « زور » ، والزور : الكذب أو الباطل . ودين الحنيفة : دين إبراهيم عليه السلام .

* * *

نبيل راغب

(٤)

مَوْعِظَـــةٌ دِينيَّـــة

* * *

فى هذه القصيدة يبرز لنـا أمية بن أبى الصلت مفهومه للحياة والموت والجنة والنـار ، وفيها يركز على الجـانب الأخلاقى والوعظى . وتتردد فى بعض أبياتهـا بعض الصور والعبارات القرآنية ، وكأنها منقولة عن القرآن نقلا ، ممـا يرجح أن تكون هذه الأبيات منحولة على أمية بعد الإسلام .

١ اقتربَ الوَعْدُ ، والقلوبُ إلى الـ ... ـلهوِ ، وحُبُّ الحياةِ سائقُهـا

٢ باتتْ همومى تَسْرِى طَوَارِقُهـا ... أَكُفُّ عَيْـنِى والدمعُ سابِقُهـا

٣ ممـا أتانى مِنَ اليقينِ ولم ... أُوتَ بَـــراءةً يَقُصُّ ناطِقُهـا

٤ ما رَغْبـةُ النفسِ فى الحياة وإنْ ... عاشتْ طويلا فالموتُ لاَحِقُها

٥ يَقودُهـا قـائدٌ إليـه ويَحْـ ... ـدُوهـا حثيثًا إليـه قائدُهـا

٦ قد أُنْبِئَتْ أنهـا تعـودُ كما ... كان بَـدِيًّا بالأمسِ خالِقُهـا

٧ وأنَّ ما جَمَّعتْ وأعجبَهـا ... مِنْ عيشهـا مَرَّةً مُفارِقُهـا

---

(١) الوعد : يوم القيامة . و « إلى اللهو » : متعلقان بخبر محـذوف ، والتقدير : والقلوب ماضية إلى اللهو . (٢) الطوارق : مفردها طارقة ، وهى التى تأتى ليلا .

(٣) اليقين : المـراد به العلم بالبعث والحساب . والبراءة : المراد بها البراءة ، أى لم يعط براءة تخفف من همومه ، لأنه واحد من الناس ، وعليه ما عليهم يوم الحساب .

(٦) قـوله « كما كان بديًّا بالأمس خالقها » أى كما كان قـد خلقها الله من قبـل الموت . وفى القرآن الكريم « كما بدأكم تعودون » (الأعراف ٢٩) ، وفيه أيضا « كما بدأنا أول خلق نعيده » (الأنبياء ١٠٤) .

٨ يُوشِـكُ مَنْ فَـرَّ مِن مَنِيَّتِـه — فى بعض غِرَّاتِـه يُوافِقُهـا

٩ مَنْ لم يَمُتْ عَبْطَـةً يمت هَرَما — الموتُ كأسٌ والمـرءُ ذائقُهـا

١٠ تَعَـاهَدت هـذه القـلوبُ إذا — هَمَّتْ بخـيرٍ عاقتْ عَوَائقُهـا

١١ وصَـدَّها للشَّـقاء عن طَلَب الـ — ـجَنَّـة دُنْيَـا الإلـهُ مَاحِقُهـا

١٢ عَبْـدٌ دعـا نَفْسَـه فعاتَبَهـا — يَعـلَمُ أنَّ البصـيرَ رامِقُهـا

١٣ أم مَنْ تلظَّى عليـه واقـدةُ النـ — ـارِ مُحِيـطٌ بهـمْ سُرَادِقُهـا

١٤ أم أُسْكِنَ الجنَّـةَ التى وُعِدَ الـ — أبرارُ مصـفوفةً نَمَـارِقُهـا

١٥ لا يستـوى المَـنزِلانِ ثَمَّ ولا الـ — أعمـالُ لا تستوِى طرائقُهـا

---

(٨) « فى بعض غراته » أى فى بعض غفلاته عنها .

(٩) مات عبطة : مات شابا .

(١٠) تعاهـدت : تحالفت وتعاقدت ، يريد أن ذلك أصبح عادة لها . وعاقت عوائقها : أى وقفت العقبات فى طريقها .

(١١) محق الشىء : أبطله ومحاه .

(١٢) الرامق : فاعل من رمقه ببصره ، إذا أتبعه بصره ينظر إليه ويراقبه .

(١٣) السرادق : ما أحاط بالبناء ونحوه . وخبر « من » محذوف ، والتقدير : أم من يحترق بالنار ويحيط به العذاب كمن يسكن الجنة ؟ وفى القرآن الكريم « إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » (الكهف ٢٩) .

(١٤) النمرقة : الوسادة والجمع نمارق . وفى القرآن الكريم « ونمارق مصفوفة » (الغاشية ١٥) .

(١٥) المنزلان : الجنة والنار . والطرائق : الطرق ، مفردها طريقة .

١٦ هما فريقانِ : فرقةٌ تدخُل الـ ـجنةَ حَفَّتْ بهـم حَدَائقُها
١٧ وفرقـةٌ منهـمُ قـدُ أدخِلَتِ النّـ(م) ـارَ فساءتهـمُ مَرَافقها

* * *

(١٦) حفت : أحاطت . وفى البيت — على هذه الرواية — كسر فى الوزن ، وربما يصحح وزنه أن نستبدل بكلمة « هما » كلمة « بل » .

(١٧) يروى البيتان ١٦ ، ١٧ رواية أخرى :

هما فريقان : فائز دخل الـ ـجنة حفت به حدائقها
وفرقة فى الجحيم مع فرق الشيـ ـطان يشق بها مرافقها

وهى رواية جيدة ، وإن يكن بها نفس الكسر العروضى .

* * *

نبيل راغب

القسم الثاني

كتاب النثر

(١)

الخَطابة

* * *

(أ) الخطابة الاجتماعيــة

* * *

(١) إصلاح مَرْثَد الخَيْر بين سُبَيْع بن الحارث ومَيْثَم بن مُثَوِّب : (*)

كان مَرْثَدُ الخير بن يَنْكَف قَيْلا ، وكان حَدِباً على عشيرته ، محبا لصلاحهم ، وكان سُبَيْعُ بن الحارث ، وَمَيْثَمُ بن مُثَوَّب بن ذى رُعَيْن تنازعا الشرف حتى تشاحنا ، وخِيفَ أن يقــع بين حييهمــا شر ، فيتفانى جِذْماهما (١) ، فبعث إليهمــا مَرْثَد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما :

إن التَّخَبُّطَ وامتطاءَ الهَجاج (٢) ، واستحقابَ اللَّجَاج (٣) ، سَيَقِفُكُمَا على شَفَا هُوَّة ، فى تَوَرُّدِها (٤) بوارُ الأُصيلة (٥) ، وانقطاعُ الوسيلة ، فَتَلَافَيَا أَمْرَكُما قبل انتكاثِ (٦) العهد ، وانحلالِ العَقْد ، وتَشَتُّتِ الأُلفة ، وتباينِ السُّهْمَة (٧) ، وأنتما فى فُسْحَةٍ رَافهة ، وَقَدَمٍ

(*) الأمالى ١ / ٧٣ .

(١) الجذم : الأصل .

(٢) الهجاج : تمسك الإنسان برأيه والتعصب له .

(٣) استحقب الشيء أى جعله فى حقيبته .

(٤) التورد : الإشراف على الماء .

(٥) الأصيلة : الأصل .

(٦) الانتكاث : الانتقاض .

(٧) السهمة : القرابة .

واطدة، والمودّة مُثْرِية، والبُقْيا مُعْرِضة (١). فقد عرفتم أنْباء مَنْ كان قبلكم من العرب، مِمَّنْ عَصَى النَّصيح، وخالف الرشيد، وأصْغَى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقبُ سوء سَعْيهم، وكيف كان صَيُّور (٢) أُمورِهم، فَتَلافَوْا القُرْحة (٣) قبل تَفَاقُمِ الثَّأْى (٤)، واستفحالِ الداء، وإعْوَازِ الدواء، فإنه إذا سُفِكَتْ الدماء، استحكمت الشَّحْنَاء، وإذا استحكمت الشحناء تَقَضَّبَتْ (٥) عُرَى الإِبْقَاء، وشَمِل البلاء.

فقال سُبَيْع بن الحَارِث:

أيها الملك، إنّ مداوة بني العَلَّات (٦)، لا تُبرئها الأساة (٧)، ولا تَشْفيها الرُّقاة، ولا تَسْتَقِلُّ بها الكُفَاة، والحسدُ الكامِنُ، هو الداءُ الباطن، وقد علم بنو أبينا هؤلاء أنّالهم رِدْءٌ (٨) إذا رَهِبوا، وغَيْثٌ إذا أجْدَبوا، وعَضُدٌ إذا حاربوا، ومَفْزَعٌ إذا نُكِبُوا، وأنّا وإيّاهم كما قال الأول:

إذا ما عَلَوْا قالوا أبُونا وأُمُّنا ... وليس لهم عَالِين أمٌّ ولا أبُ

---

(١) معرضة: ممكنة، أي أمكنت من ناحيتها.

(٢) صيور: عاقبة.

(٣) القرحة: الجرح.

(٤) الثأى: الإفساد والجراح والقتل ونحوه.

(٥) تقضبت: تقطعت.

(٦) العلة: الضرة، وبنو العلات هم بنو أمهات شتى من رجل واحد.

(٧) الأساة: الأطباء جمع آس.

(٨) رده: عون وحماية.

فقال ميثم بن مثوب :

أيهـا الملك ، إن من نفس على ابن أخيـه الزعامة ، وجدبه (١) فى المقامـة (٢) ، واستكثر له قليل الكرامة ، كان قرنا (٣) بالملامة ، ومؤنبا على ترك الاستقامة ، وإنا والله ما نعتـد لهم بيـد إلا وقد نالهم منا كفاؤها ، ولا نذكر لهم حسنة إلا وقد تطلع منا إليهم جزاؤها ، ولا يتفيأ لهم علينا ظل نعمة إلا وقد قوبلوا بشرواها (٤) ، ونحن بنو فحل مقرم (٥) ، لم تقعـد بنا الأمهات ولا بهم ، ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم ، فعلام مط الخـدود ، وخزر العيـون (٦) والجخيف (٧) والتصعر ، والبـأو والتكبر ؟ ألكثرة عدد ، أم لفضل جلد ، أم لطـول معتقد (٨) ، وإنا وإياهم لكما قال الأول :

لاه ابن عمك ، لا أفضلت فى حسب عـنى ، ولا أنت ديانى (٩) فتخـزونى

ومقاطع الأمور ثلاثة : حرب مبيرة (١٠) ، أو سلم قريرة ، أو مداجاة وغفيرة (١١) .

(١) جدبه : عابه .
(٢) المقامه : المجلس .
(٣) قرنا : خليقا .
(٤) شرواها : مثلها .
(٥) مقرم : سيد .
(٦) خزر العيون : النظر بمؤخر العين .
(٧) الجخيف : التكبر وكذلك البأو .
(٨) اعتقد مالا أوضيعة : اقتناهما .
(٩) الديان : القائم بالأمر . تخزونى : تسوسنى .
(١٠) مبيرة : مهلكة .
(١١) مداجاة وغفيرة : مساترة وغفران .

فقال مَرْثَدُ الخير :

لا تُنشِطوا عُقُلَ الشّوارد ، ولا تُلقِحوا العُونَ(٢) القواعد ، ولا تُورِّثوا(٣) نيرانَ(١) الأحقاد ، ففيها المتلفةُ المستأصِلة ، والجائحةُ والأَليلةُ(٤) ، وعفُّوا بالحِلم ، أبلادَ(٥) الكَلْم ، وأنيبوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأقصد، فإن الحرب تُقبِل بزِبرِج(٦) الغرور ، وتُدبِر بالويل والثبور . ثم قال :

ألا هل أتى الأقوامَ بَذْلى نصيحةً ... حَبَوْتُ بها منى سُبَيْعاً وميثَما

وقلت اعلما أن التدابُرَ غادرت ... عواقبه للذُّل والقُلِّ جُرْهُما

فلا تقدحا زَنْدَ العقوق وأبقيا ... على العِزَّة القَعْساءِ أن تتهدَّما

ولا تجنيا حَرْباً تجُرُّ عليكما ... عواقبها يوماً من الشر أشأَما

فإن جُناةَ الحرب للحَيْن عُرْضَةٌ ... تفوقُهُم(٧) منها الذُّعاف المقشَّما

حذارِ فلا تَسْتَنْبِثوها ، فإنها ... تغادر ذا الأنْفِ الأشَمِّ مُكَشَّما(٨)

(١) أنشط العقدة : حلها . والعقل : جمع عقال وهو الحبل .

(٢) العون : جمع عوان وهى الثيب . يقال لحرب عوان إذا كان قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٣) تورثوا : تذكوا وتشعلوا .

(٤) الجائحة : المستأصلة . الأليلة : الثكل .

(٥) أبلاد : آثار جمع بلد .

(٦) الزبرج : السحاب الذى تسفره الريح .

(٧) تفوقهم : تسقيهم الفواق : وهو ما بين الحلبتين . الزعاف : السم . المقشم : المخلوط .

(٨) لا تستنبثوها : لا تخرجوا نبيثتها وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت . يريد : لا تثيروا الحرب . مكشما : مقطوعا .

فقالا : لا ، أيها الملك ، بل نَقْبَلُ نُصْحَك ، ونطيع أمرَك ، ونطفىء النائرة (١) ، ونَحُلّ الضغائن ، ونثوب إلى السِّلم .

* * *

(٢) ما تخاطب به المنذر بن النعمان الأكبر وعامر بن جُوَيْن الطائى :

وفد عامر بن جُوين الطائى على المنذر بن النعمان الأكبر جد النعمان بن المنذر ، وذلك بعد انقضاء ملك كندة ، ورجوع الملك إلى لَخْم ، وكان عامر بن جوين قد أجار امرأ القيس بن حُجر أيام كان مقيما بأرض طىء بين الجبلين أجا وسلمى ، وقال قصيدته التى يقول فيها :

هنالك لا أُعطى مليكا ظُلامةً ولا سُوقةً حتى يثوب ابن مَنْدَلَةْ (٢)

وكان المنذر ضَغِنا عليه ، فلما دخل عليه قال له : يا عام ، لَسَاءَ مَثْوَى أَثْوَيْتَهُ ربَّك وثَوِيّك (٣) ، حين حاولتَ إِصْبَاءَ طَلّته (٤) ، ومخالفته إلى عشيره ، أما والله لو كنتَ كريما لأَثْوَيْتَهُ مُكَرّمًا مُوَقّرًا ، ولجَانَبْتَه مُسَلّما . فقال له : أَبَيْتَ اللّعن (٥) ، لقد علمتْ أبناء أُدَدَ (٦) إنى لأعزُّها جاراً ، وأكرمُها جِوارا ، وأمنعُها دارا . ولقد أقام

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

(٢) ابن منذله : رجل من سادات العرب ، يقال انه استاق مال حجر بن الحارث والد امرىء القيس وأخذ امرأته « هند الهنود » وهرب بها إلى الشام ، غير أن حجرا استطاع أن يناله ويقتله ويقتل امرأته أيضا .

(٣) ثوى المكان وبه : نزل ، وأثواه : أضافه . والثوى هنا : الضيف .

(٤) الطلة : العجوز ، وصبا الرجل : مال إلى الجهـل والفتوة ، وأصبته المرأة . والمراد حاولت رد عزه السالف إليه .

(٥) أبيت اللعن : تحية جاهلية أى أبيت أن تأتى ما تلعن به .

(٦) أبناء أدد : هم قبائل مذحج وطىء والأشعر .

وافرًا ، وزال شاكرًا : فقال له المنذر : يا عام ، وإنك لتخال هُضَيبات أَجَأ ذات الوِبار[(١)] ، وأَفْنيات سلمى ذات الأغفار[(٢)] ، مَا نعَاتك من المجْـر[(٣)] الجرّار ، ذى العدد الكُثار والحُصُن والمهار[(٤)] ، والرماح الحِرار[(٥)] ، وكلّ ماضى الغِرار[(٦)] ، بيد كل مِسْعَرٍ كريم النِّجار[(٧)] ؟ قال عامر : أبيتَ اللعن ، إن بين تلك الهُضَيْبات والرِّعان[(٨)] ، والشِّعاب والمُصْدان[(٩)] ، لفتيانا أبطالا ، وكهولا أزوالا[(١٠)] ، يضربون القَوانِس[(١١)] ، ويستنزلون الفوارس ، بالرماح المداعس[(١٢)] ، لم يتَّبعوا الرعاء[(١٣)] ، ولم ترشّحهم[(١٤)] الإماء ، فقال الملك : يا عام ، لو قد تجاوبت الخيل فى تلك الشعاب صهيلا ، كانت الأصوات قعقعة[(١٥)] وصليلا ، وفَغَر الموت[(١٦)] ، وأعجزَ الفَوْتُ ، فتقارشت

---

(١) الوبار : شجرة حامضة شائكة .

(٢) الأغفار : جمع غفر ، والغفر بالتحريك : صغار الكلأ .

(٣) المجر : الجيش العظيم .

(٤) الحصن : جمع حصان ، والمهر : جمع مهر وهو ولد الفرس .

(٥) الحرار والأحرار : جمع حر وهو خيار كل شىء .

(٦) الغرار : حد الرمح والسهم والسيف .

(٧) يقال : مسعر حرب أى موقد نارها كأنه آلة لإيقاد الحرب . والنجار : الأصل .

(٨) الرعان : جمع رعن (كشمس) وهو أنف يتقدم الجبل .

(٩) المصدان : جمع مصد وهو الهضبة العالية .

(١٠) أزوال : جمع زول وهو الشجاع .

(١١) القوانس : جمع قونس (كجعفر) والقونس والقونوس : أعلى بيضة الحديد .

(١٢) المداعس : جمع مدعس وهو الرمح الذى لا ينثنى .

(١٣) الرعاء ، هم الرعاة : جمع راع .

(١٤) الترشيح : التربية .

(١٥) القعقعة : صوت السلاح .

(١٦) فغر الموت فاه : فتحه .

الرماح[1] ، وحمى السلاح ، لتَسَاقَى قومُك كأسًا لاصحو بعدها ، فقال : مهلا أبيت اللعن : إن شرابنا وبيل ، وحدّنا أليـل[2] ، ومَعْجَمَنا صَليب[3] ، ولقاءنا مهيب . فقال له : يا عام ، إنه لقليلٌ بقاءُ الصخرة الصَّمَّاء[4] ، على وَقْع الملاطيس[5] ، فقال : أبيت اللعن ، إن صَفَاتنا عِبْرُ المراديس[6] ، فقال : لأُوقِظَنَّ قومَك من سِنَة الغفلة ، ثم لأُعْقِبَنَّهم بعدها رقدةً لا يَهُبُّ راقدُها ، ولا يستيقظ هَاجِدُها ، فقال له عامر : إن البَغْيَ أباد عمرا[7] ، وصرع حُجرا[8] ، وكانا أعزَّ منك سُلطانا ، وأعظمَ شانا ، وإن لقيتنا لم تلق أَنكَاسًا ولا أَغْسَاسا[9] ، فَهَبِّش وضائعك وصنائعك[10] ، وهَلُمَّ إذا بدا لك ، فنحن الأُلى قَسَطوا على الأملاك قبلك . ثم أتى راحلته فركبها وأنشأ يقول :

---

(١) تقارشت الرماح : تداخلت فى الحرب .

(٢) أليل : محدد ، ألله تأليلا ، حدده .

(٣) المعجم : العود الصلب .

(٤) الصخرة الصماء : الصماء .

(٥) الملطس : (كمنبر) ، والملطاس : المعول الغليظ لكسر الحجارة .

(٦) الصفاة : الحجر العلد الضخم . والمراديس : جمع مرداس وهو شيء صلب عريض تدك به الأرض . ومعنى العبارة أن صفاتنا تحتمل دك المراديس فلا تحطم تحتها . كناية عن شدتهم وصلابتهم .

(٧) عمرو : يقصد عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة .

(٨) حجر بن الحارث : والد امرىء القيس .

(٩) الأنكاس : جمع نكس وهو الضعيف . والأغساس : جمع غس بالضم وهو الضعيف أيضا .

(١٠) هبش : جمع . الوضائع : جمع وضيعة وهى أثقال القوم وما يأخذه السلطان من الخراج والعشور . والصنائع : جمع صنيعة ، يقال هو صنيعة فلان إذا اصطنعه وأدبه . والمعنى : تجهز للحرب ، واجمع الأموال اللازمة لذلك ، واحشد رجالك المدربين على القتال .

تَعَلَّمْ — أبيتَ اللعن — أن قناتنا ... تُزِيد على غَمْزِ الثِّقاف (١) تَصَعُّبا

أتُوعِدنا بالحرب ؟ أمُّك هابلٌ ... رويدك برقًا، لا أبًا لك، خُلَّبَا (٢)

إذا خطرتْ دونى جديلةُ بالقَنا ... وحامتْ رجالُ الغَوْثِ دونى تَحَدُّبا (٣)

أبيتُ التى تهوى، وأعطيتُك التى ... تسوق إليك الموتَ أخرَجَ أكْهَبا (٤)

فإنْ شئتَ أن تزدارنا فَأْتِ تَعْتَرِفْ ... رجالاً يُذِيلون الحديد المُعَقْرَبا (٥)

وإنك لو أبصرتَهُمْ فى مجالهم ... رأيتَ لهم جمعًا كثيفًا وكوكبا (٦)

وذكَّرَكَ العيشَ الرَّخِىَّ جلادُهم ... ومَلْهًى بأكْنَاف السَّدير ومَشْربا (٧)

فأَغْضِ على غَيْظٍ ولا تَرُم التى ... تُحكِّم فيك الزَّاعبىَّ المُحَرَّبا (٨)

* * *

(٣) من خطب العرب أمام كسرى مفاخرين بأنفسهم وبألسنتهم :

قال أكثم بن صَيْفىّ :

إن أفضلَ الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكُها ، وأفضلَ الملوك أعمُّها نفعًا ، وخيرَ الأزمنة أخصبُها ، وأفضلَ الخطباء أصدقُها ، الصدقُ منجاة ،

(١) الثقاف : آلة كانت تسوّى بها الرماح .

(٢) هبلته أمه : فقدته . البرق الخلب : المطمع المخلف .

(٣) خطر الرجل بسيفه ورمحه ، رفعه مرة ووضعه أخرى . وجديلة الغوث فرعان من قبيلة طيء وتحدب عليه : تعطف به .

(٤) الخرج (كسبب) لونان من بياض وسواد . والكهبة : الدهمة أو السواد .

(٥) ازداره : زاره . أذال الثوب : أطاله . الحديد : الدروع . شىء معقرب : أى معوج معطوف ، يريد أنها دروع مزرودة .

(٦) الكوكبة : الجماعة من الناس أو الخيل .

(٧) السدير والخورنق : قصران بناهما الملك النعمان الأكبر بالحيرة .

(٨) الرمح الزاعبى : هو الذى إذا هز كأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض للبونته . والمحرب : المحدد .

والكذب مَهْـواة ، والشَّر لجَاجة(١) ، والحزمُ مركَبٌ صَعْب ، والعجزُ مركَبٌ وَطِيءٌ ، آفةُ الرأى الهـوى ، والعجزُ مِفْتاحُ الفَقْر ، وخيرُ الأمور الصبر ، حسنُ الظنِّ ورطة ، وسوءُ الظن عِصْمَةٌ ، إصلاحُ فساد الرعيـة خيرٌ من إصلاح فساد الراعى ، من فسدتْ بِطانتُه كان كالغاصِّ بالمـاء ، شرُّ البلاد بلاد لا أميرَ بها ، شرُّ الملوك من خافه البرىء ، المرء يَعْجِزُ لا المحـالَة(٢) ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرتُه ، يكفيك من الزَّاد ما بلَّغك المحلَّ ، حَسْبُك من شرٍّ سمـاعُه ، الصَّمتُ حُكْمٌ(٣) وقليـلٌ فاعلُه ، البلاغةُ الايجاز ، من شدَّد نفَّر ، ومن تراخى تألَّف .

فتعجب كسرى من كلامه وقال : ويحك(٤) يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك ! لولا وضعك كلامك فى غير موضعه . قال أكثم : الصدقُ ينبىء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم : رُبَّ قول ، أنفـذُ من صَوْل .

ثم قال حاجب بن زُرَارة التميمى :

وَرِىَ زَنْدُك(٥) ، وعلَتْ يدُك ، وهِيبَ سُلطانُك ، إن العربَ أمةٌ قـد غَلُظَتْ أكبـادها ، واستُحْصِدَتْ مِرَّتُها(٦) ، ومُنِعَتْ دِرَّتُها(٧) ، وهى لك وامِقـةٌ ما تألَّفتَها ،

---

(١) اللجاجة : تماحك الخصمين وتماديهما .
(٢) المحالة : الحيلة .
(٣) الحكم : الحكمة (وآتيناه الحكم صبيا) .
(٤) الويح : الرحمة ، والويل : العذاب .
(٥) ورى الزند : خروج النار منه ، وهو حجران يحك أحدهما بالآخر .
(٦) استحصد الحبل : استحكم شدة .
(٧) الدرة : اللبن .

مُسْتَرْسِلَةٌ ما لايَنْتَها، سامعةٌ ما سامَحْتَها ، وهى العَلْقَمُ مَرارةً ، والصابُ(١) غَضاضةً ، والعسلُ حلاوةً ، والماءُ الزُّلالُ سَلاسةً ، نحن وفودُها إليكَ ، وألسِنَتُها لَدَيْكَ ، ذِمَّتُنا محفوظةٌ ، وأحسابُنا ممنوعةٌ ، وعشائرنا فينا سامعةٌ مُطيعةٌ ، إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا ، فلك بذلك عمومُ مَحْمَدَتِنَا ، وإن نَذُمَّ فلم نُخَصَّ بالذَّمِّ دونها .

وقال الحارث بن عُبَاد البكرى :

دامتْ لك المملكةُ باستكمال جَزِيلِ حظِّها ، وعلوِّ سَنائها ، من طال رِشاؤُه(٢) كَثُرَ مَتْحُهُ(٣) ، ومن ذهب مالُه قَلَّ مَنْحُهُ ، تناقلُ الأقاويلِ يُعَـرِّفُ اللُّبَّ ، وهذا مقامٌ سيُوجِفُ(٤) بما ينطق به الرَّكْبُ ، وتعرف به كُنْهَ حاله العجمُ والعـرب ، ونحن جيرانُك الأدنَوْن ، وأعوانُك المعينون ، خيولُنـا جَمَّـةٌ ، وجيوشنا فخمـة ، إن استَنْجدْتَنا فغيرُ رُبُضٍ(٥) ، وإن استطرقْتَنا(٦) فغيرُ جُهُضٍ(٧) ، وإن طَلَبْتَنا فغيرُ غُمُضٍ(٨) ، لا ننثنى لذُعْرٍ ، ولا نتنكَّرُ لدهرٍ ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار .

قال كسرى : أنفسٌ عزيزة ، وأمةٌ ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك ، وأنَّى يكون لضعيف عزة ، أو لصغير مِرَّة .

---

(١) الصاب : شجر مر .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) المتح : نزع الماء من البئر .

(٤) وجف البعير والفرس إذا عدا ، وأوجفته : أعديته .

(٥) رجل ربض عن الحاجات لا ينهض فيها .

(٦) استطرقه فحلا : طلبه منه ليضرب فى ابله ، هذا هو الأصل ، والمراد استعنت بنا .

(٧) أجهضت الناقة والمرأة ولدها : أسقطته ناقص الخلق .

(٨) غير غمض : غير نائمين عن نصرتك .

قال كسرى : لو قَصُرَ عُمُرُك ، لم تستول على لسانك نَفْسُك . قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارسَ إذا حمل نَفْسَه على الكتيبة مُغَــرِّرًا بنفسه على الموت ، فهى مَنِيَّةٌ استقبلها ، وجِنَانٌ استدبرها ، والعــرب تعلم أنى أبعثُ الحرب قُدُمًا ، وأحبسها وهى تَصَرَّفُ بها ، حتى إذا جاشت نارُها ، وسَعَرَت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادَها رمحى ، وبرقَها سيفى ، ورعدَها زئيرى ، ولم أُقصِّر عن خوض خَضْخَاضها[1] ، حتى أنغمس فى غَمَرَاتِ لُجَجِها ، وأكون فُلْكا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كَبْشِها[2] ، فأَسْتَمْطِرُها دمًا ، وأترك حُماتها جَزَرَ[3] السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم[4] .

قال كسرى لمن حضره من العــرب أكذلك هو ؟ قالوا : فعــاله أنطق من لسانه . قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد .

وقال خالد بن جعفر الكلابى :

أحضر اللهُ الملكَ إسعادا ، وأرشده إشادا ، إن لِكُلِّ منطقٍ فُرصة ، ولكل حاجة غُصَّة ، وعِىُّ المنطق أشدُّ من عِىِّ السُّكوت ، وعِثار القول أنكأ[5] من عِثار الوَعْث[6] ، وما فرصةُ المنطقِ عندنا إلا بمــا نَهْوَى ، وغُصَّةُ المنطق بمــا لا نهوى غير مُستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ، ويُعْلَم من سمعى أننى له مطيق ، أحبّ إلىَّ من تكلُّفى

(١) الخضخاض : نفط أسود رقيق تهنأ به الإبل الجرب . والخضخاض : كثير الماء .

(٢) الكبش : سيد القوم وقائدهم .

(٣) جزرا : أى قطعا .

(٤) القشعم : المسن .

(٥) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح ، وأنكأ : أشد نكاية وقهرا .

(٦) الوعث : المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام .

ما أتخوَّفُ و يُتَخَوَّفُ منى، وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو من خير الأعوان، ونعم حاملُ المعروف والإحسان ، أنفسُنا بالطاعةِ لك بَاخِعةٌ[1] ، ورقابنا بالنصيحة خاضعةٌ ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال كسرى : نطقت بعقل ، وسَمَوت بِفَضْل ، وعلوت بِنُبْل .

وقال عَلْقَمة بن عُلَاثة العامرى :

نَهَجَتْ[2] لك سبلُ الرشاد ، وخضعتْ لك رقابُ العباد ، إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مَوَالج[3]، وللعويص مخارج، وخير القول أَصْدَقُه ، وأفضلُ الطَّلب أَنْجَحُه، إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا، والوفادة قرَّبتنا ، فليس من حَضَرَ منّا بأفضلَ ممن عَزَب عنك، بل لو قِسْتَ كلَّ رجلٍ منهم ، وعلمت منهم ما علمنا، لوجدتَ له فى آبائه دنيا ، أندادًا وأكفاء، كلهم إلى الفضل مَنْسُوب ، وبالشَّرف والسُّؤدُدِ موصوف، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه، ويُروى ندماه، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره . أيها الملك : من يَبْلُ العرب يعرفْ فضلَهم ، فاصْطَنِع العرب، فإنها الجبالُ الرواسى عِزًّا ، والبحور الزواخر طَمِيًّا[4] ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عددا ، فإن تَعْرِفْ لهم فضلَهم يُعِزُّوك، وإن تستصرخهم[5] لا يخذلوك .

---

(١) بخع بالحق : أقر به وخضع له .

(٢) نهجت : وضحت .

(٣) موالج : مداخل جمع مولج .

(٤) طميا : طمى الماء يطمى طميا : علا .

(٥) تستصرخهم : تستنجد بهم .

قال كسرى ، وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط به : حسبك ، أبلغتَ وأحسنْتَ .

وقال عَمْرو بن مَعْدِ يكرِب الزّبيدى :

إنما المرء بأصْغَرَيْهِ : قلبِه ولسانِه، فبلاغُ المنطق الصوابُ، ومِلاكُ النُّجْعَة (١) الارتياد ، وعَفْوُ الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيفُ الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فَاجْتَبِذْ (٢) طاعَتَنا بِلَفْظِك ، واكْتَظِمْ بادرتنا بحلمك ، وَأَلِنْ لنا كَنَفَك يَسْلَس لك قيادُنا ، فإنا أناس لم يُوَقَّس (٣) صَفَاتَنا (٤) قِراعُ مناقيرِ (٥) من أراد لنا قَضْما ، ولكن مَنَعْنا حمانا من كلِّ من رام لنا هَضْما .

* * *

(٤) خطباء العرب تُعزِّى سلامة ذا فائش فى ابن له مات :

خطبة المُلَبَّب بن عوف :

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلُب ، وتُعطى لتأخُذ ، وتَجمع لتُشَتِّت ، وتُحلى لِتُمِرّ ، وتزرع الأحزان فى القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تَخَطَّأَتْكَ جَلَل (٦) ، ما لم تُدْنِ الأَجَل ، وتَقْطَع الأمل . وإن حادثا أَلَمَّ بك ، فَاسْتَبَدَّ (٧) بأقلِّك ، وصفَح عن أَكْثَرِكَ ، لمن أجلِّ النعمَ عليك ، وقد تناهت إليك

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

(٢) اجتبذ : اجتذب .

(٣) الوقس : انتشار الجرب فى البدن . والتوقيس : الإجراب .

(٤) الصفاة : الحجر الأملس .

(٥) مناقير : جمع منقار ، وهو حديدة كالفأس ينقر بها .

(٦) الجلل : العظيم والحقير ، واللفظ هنا بالمعنى الثانى .

(٧) استبد : البدة بالضم : النصيب ، واستبد به : جعله نصيبه .

أنبـاءُ من رُزِىءَ فَصَبر وأُصيب فَاغتَفَر ، إذا كان شَـوًى(١) فيما يُرتقب و يُحـذَر ، فاستشعر اليأس ممـا فات ، إذا كان ارتجاعه مُمْتَنِعًا ، ومرامُه مُسْتَصْعَبًا ، فلشيء ما ضُربت الأُسَى ، وفزع أولى الألباب إلى حسن العزاء .

خطبة جُعَادة بن أفلح :

أيها الملك ، لا تُشْعِر قلبك الجزع على ما فات ، فيَغْفُلَ ذهنُك عن الاستعداد لمـا يأتى ، ونَاضِلْ عوارضَ الحزنِ بالأَنَفَةِ عن مُضَاهَاة(٢) أفعالِ أَهْلِ وَهْى(٣) العُقُول ، فإن العزاءَ لحُزَمَاءِ الرِّجال ، والجَزَعَ لربَّات الحِجَـال(٤) ، ولو كان الجزع يَرُدُّ فائتا ، أو يُحيِى تالفا ، لكان فعلا دنيئا ، فكيف وهو مُجانبٌ لأخلاق ذوى الألباب . فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت فيـه الأرذلون ، وَصُنْ قدرَك عما يركبه المخسوسون ، وكُن على ثقـةٍ أن طعمك فيما استبدت به الأيام ، ضِـلَّةٌ كأحلام النيـام .

* * *

(٥) أكثم بن صَيْفِىّ يعزّى ملك الحيرة عمرو بن هند عن أخيه :

إن أهل هذه الدار سَفْرٌ لا يحلُّون عقد الرِّحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن(٥) عنك

(١) الشوى : الهين اليسير ورذال المـال .

(٢) مضاهاة : مشاكلة .

(٣) وهى : ضعف .

(٤) الحجال : جمع حجلة (بفتحتين) وهى القبة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس .

(٥) يظعن : يرحل .

ويدعك . واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة ، وشاهدُ عَدْل ، فجعك بنفسه ، وأبقى لك وعليك حكمته ، واليوم غنيمةٌ ، وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغدٌ لاتدرى مَنْ أهلُه ، وسيأتيك إن وجدك . فما أحسن الشكر للنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ؟ وأعلم أن أعظمَ من المصيبة سوءُ الخَلَف منها ، وخيرٌ من الخير مُعْطِيه ، وشرٌّ من الشر فاعله .

* * *

(٦) خطبة أبي طالب فى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة :

الحمد لله الذى جعلنا مِنْ زَرْع ابراهيم ، وذرِّية اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكّام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخى مَنْ لايُوازَن به فتى مِنْ قريش إلا رَجَحَ عليه : بِرًّا وفَضْلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونُبلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ ، فإنما المال ظِلٌ زائل ، وعاريةٌ مُسترجَعَة . وله فى خديجةَ بنت خويلد رغبةٌ ، ولها فيه مِثْلُ ذلك ، وما أحببتم من الصَّداق فَعَلَيّ .

* * *

(٧) خطبة هانىء بن قبيصة الشيبانى يحرض قومه يوم ذى قار :

يا معشر بكر ، هالكٌ معذور ، خير من نَاجٍ فَرور ، إن الحذر لا يُنجى من القدر ، وإن الصبرَ من أسباب الظفر ، المنيّة ولا الدنيّة ، استقبال الموتِ خيرٌ من استدباره ، الطعن فى ثُغَر النُّحور ، أكرم منه فى الأَعْجازِ والظُّهور ، يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بدّ .

* * *

(ب) الخطابة الدينية وسجع الكهان

* * *

(١) قُسّ بن سَاعدة الإيادىّ يَخْطُب فى سوق عُكَاظ :

أيها الناس : اسمعوا وَعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليلٌ داج[1] ، ونهارٌ ساج[2] ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ، ونجومٌ تَزْهَر ، وبحار تَزْخر ، وجبالٌ مُرْسَاة ، وأرضٌ مُدحاة[3] ، وأنهارٌ مُجْراه ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لَعِبرًا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضُوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا؟ يُقْسِمُ قسٌّ بالله قسما لا إثم فيه : إن لله دينًا هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرا .

* * *

(٢) الكاهن الخزاعى ينفِّر هاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس :

وَلِىَ هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السِّقاية والرِّفادة ، فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رئاسته وإطعامه ، وكان ذا مال ، فتكلف أن يصنع صنيعَ هاشم ، فعجز عنه ، فَشَمتت به ناسٌ من قريش ، فغضب ونال منْ هاشم ، ودعاه إلى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنِّه وقدره ، فلم تَدَعْهُ قريش

---

(١) داج : مظلم .

(٢) ساج : مضىء متلألئ .

(٣) مدحوة : أى مبسوطة ، وإنما قال مدحاة لمراعاة السجع .

حتى نافره على خمسين ناقة سُودِ الحدَق ينحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشرَ سنين ، فرَضي بذلك أميّة ، وجعـلا بينهما الكاهنَ الخـزاعى ومنزلَه بعُسْفان (١) ، وكان مع أمية هَمْهَمَـةُ بن عبـد العُزّى الفِهْرى ، وكانت ابنته عنـد أميّة . فقال الكاهن : والقمرِ الباهر، والكوكبِ الزاهر، والغَمامِ المـاطر، وما بالجوِّ من طائر، وما اهتدى بِعَلَم مسافر، مِنْ مُنْجِدٍ وغَائر، لقد سبق هاشمُ أُميّةَ إلى المآثر، أولٌ منه وآخر، وأبو همهمةَ بذلك خَابِر .

فقضى لهـاشم بالغلبة ، وأخذ هاشم الإبل ، فنحرها وأطعمها ، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين : فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

* * *

(٣) عوف بن ربيعة الأسدى يتكهّن بمقتل حُجْر بن الحارث :

كان حُجْر بن الحارث (أبو امرئ القيس) ملك بنى أسد ، وكان له عليهم إتاوةٌ كل سـنة لمـا يحتاج إليه ، فبقى كذلك دهرا ، ثم بعث إليهـم من يَجْبِي ذلك منهم ، وحُجر يومئـذ بتهامة ، فطردوا رسلَه وضربوهم ، فبلغ ذلك حُجرا ، فسار إليهم ، فأخذ سَرَوَاتهـم وخيارَهم ، وجعـل يقتلهم بالعصا (فسموا عبيد العصا) وأباح الأموال ، وصيّرهم إلى تهامة ، وحبس جماعةً من أشرافهم، منهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، فقال شعرا يستعطفه فيه ، ومنه قوله :

أنتَ المليـك عليهـمُ وهم العبيدُ إلى القيامه

فرقَّ لهم وعفا عنهـم ، وردَّهم إلى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة، تَكَهَّن كاهنهم وهو عوف بن ربيعـة بن عامر الأسـدى ، فقال لهم :

---

(١) موضع على مرحلتين من مكة .

يا عبادى ، قالوا : لبيـكَ ربّنا ، فقـال : مَن الملكُ الصّلْهَبُ[١] ، الغـلاّبُ غير المُغلّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرَبُ[٢] ، لا يُقلِق رأسَه الصّخَب ، هذا دمه يَنْثعب[٣] ، وهو غدًا أولُ من يُسْتَلَب . قالوا : ومن هو رَبّنـا ؟ قال : لولا تَجَيُّش[٤] نَفْس جاشية ، لأخبرتُكم أنه حُجْر ضاحية[٥] .

فركبوا كلّ صعب وذلول ، حتى بلغوا عسكر حُجر ، فهجموا عليـه فى قُبّته فقتـلوه .

* * *

(حـ) الوصـايا والأمثال

* * *

(١) وصية زهير بن جناب الكلبي لبنيـه :

يا بَنِيّ : قد كبرت سنى ، وبلغت حَرْسًا[٦] من دهرى ، فأحكمتنى التجارب ، والأمور تجـربة واختبار ، فاحفظوا عنى ما أقول وعُوه ، إياكم والخَـوَرَ عنـد المصائب ، والتواكلَ عند النّوائب ، فإن ذلك داعية للغَمّ ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب . وإياكم أن تكونوا بالأحداث مُغترّين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتُلُوا ، ولكن توقّعوها ، فإنمـا الإنسان فى الدنيا غرضٌ[٧] تَعاوَرُه الرماة ، فمُقَصِّر دونه ، ومُجاوِزٌ لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد أنه مُصيبُه .

* * *

(١) الصلهب : الشديد الصلب .
(٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش . (٣) ينثعب : يتفجر .
(٤) جاشت النفس وتجيشت : ارتفعت من حزن أو فزع .
(٥) ضاحية : علانية .
(٦) الحرس من الدهر : الطويل . (٧) الغرض : الهدف .

(٢) وصية حصن بن حُذَيفة بن بدر الفزارى لبنى بدر :

اسمعوا منى ما أوصيكم به : لا يتكل آخرُكم على أوّلِكم ، فإنما يُدرك الآخرُ ما أدركه الأول ، وأَنكحوا الكُفءَ الغريب ، فإنه عِزٌّ حادث ، وإذا حضركم أمران فخـذوا بخيرهما صَدَرا ، فإن كل مَوْرِدٍ معروف ، واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم ، ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه ، فإن الخلافَ يُزْرِى بالرئيس المطاع ، وإذا حادثتم فَارْبَعُوا (١) ثم قولوا الصدق، فإنه لا خير فى الكذب ، وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال ، وأطيلوا الرِّماح فإنها قرونُ الخيل ، وأعزُّوا الكبير بالكِبر، فإنى بذلك كنت أَغْلِبُ الناس، ولا تغزوا إلا بالعيون ، ولا تُسرِّحوا حتى تأمنوا الصباح، وأعطوا على حسب المـال ، وأعجِلوا الضيف بالقِرَى، فإن خيره أعجلُه ، واتّقوا فضيحات البَغْى وفَلَتاتِ المزاح، ولا تجيروا على الملوك ، فإن أيديهم أطولُ من أيديكم .

* * *

(٣) وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس :

لمـا حُملت أم إياس إلى زوجها قالت لهـا أمها :

أَىْ بُنَيّة : إن الوصيّة لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لِغنَى أَبَوَيْها ، وشـدة حاجتهما إليها ، كنتِ أغنى النـاس عنه ، ولكنّ النساء للرجال خُلِقن ، ولهنّ خُلِق الرجالُ .

(١) ربع الحبل : فتله من أربع طاقات ، والمعنى تمهلوا أو أحكموا القول .

أي بنيـة : إنك فارقت الجـوّ الذي منه خرجت، وخلّفت العُشّ الذي فيه درَجت ، إلى وكْر لم تعرفيه ،وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكوني له أمَةً يكُنْ لك عبدا وشيكا .

يا بنيـة : احملي عني عشر خصال تكن لك ذُخرا وذكرا : الصحبةُ بالقناعة ، والمعاشرةُ بحسن السمع والطاعة ، والتعهّد لموقع عَيْنه ، والتفقّد لموضع أنفه ، فلا تقع عُينه منكِ على قبيح ،ولا يَشَمُّ منك إلا أَطْيَبَ ريح ، والكُحْل أحسنُ الحُسْنِ ، والمـاء أطيبُ الطِّيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوّ عنه عند منامه ، فإن حرارة الجـوع مَلْهَبة ، وتنغيصَ النـوم مَغْضَبة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله ،فإن الاحتفاظ بالمـال حسن التقدير، والارعاء على العيال والحشم جميل حَسَن التدبير ، ولا تُفْشي له سرا ، ولا تَعْصِي له أمرا ، فإنك إن أفشيتِ سرّه ، لم تأمني غَدْرَه ، وإن عصيتِ أمره ، أوغرتِ صدره ، ثم اتّقي من ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا ، والإكتئابَ عنـده إن كان فَرِحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشـد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشـدّ ما يكون لك إكراما ، وأشـدّ ما تكونين له موافقة ، يكن أطولَ ما تكونين له مُرَافقةً ، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببتِ وكرهتِ ، والله يَخِيرُ لك .

* * *

(٤) وصية لأَكْثَم بن صيفيّ :

كتب النعمان بن حَمِيصَة البـارقي إلى أكثم بن صيفيّ : « مَثّـل لنـا مثالا نأخذ به » فقال :

قد حلبت الدهر أشطُره(١)، فعرفتُ حلوَه ومرَّه ، عيْنٌ عرفتْ فذرفتْ ، إن أمامى ما لا أُسامى . رُبَّ سامع بخَبَرى لم يسمع بعــذرى . كلُّ زمان لمن فيه . فى كل يوم ما يُكْره ، كلُّ ذى نُصْرةٍ سيُخْذَل . تَبارُّوا فإن البَرَّ يَنْمى عليه العدد . وكفوا ألسنتكم فإن مقتلَ الرجل بين فكيْه . إن قول الحــق لم يَدَعْ لى صديقا . لاينفع من الجزع التَّبَقِّى ، ولا ينفع ممــا هو واقع التَّوقِّى . ستساق إلى ما أنت لاقٍ . فى طلب المعــالى يكون العَناء . الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام . من لم يأس على ما فاته وَدُعَ بدنُه ، ومن قنع بمــا هو فيه قرت عينه . التقدُّم قبل التندُّم . أُصْبِحُ عند رأس الأمر أحبُّ إلىَّ من أن أُصْبِحَ عند ذَنَبِه . لم يهْلِك من مالك ما وَعَظَك . ويل لعــالِمٍ أَمِرٍ من جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل ، فإذا أدبر عرفه الكيِّسُ والأَحْمق . الوحشة ذهاب الأعلام . البَطَرُ عند الرجاء حُمْقٌ والعَجْزُ عند البلاء أَفَنٌ . لا تغضبوا من اليسير فربمــا جنى الكثير . لا تُجيبوا فيما لم تُسألوا عنه ، ولاتضحكوا ممــا لا يُضحك منه . حيلةُ مَنْ لا حِيلةَ له الصبر . كونوا جميعا فإن الجمع غالب . تثبَّتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الرَّكين . رُبَّ عجلةٍ تَهَبُ رَيْثــاً . ادَّرِعُوا الَّليل واتخذُوه جملا ، فإن الليــل أَخْفَى للويل . ولا جماعة لمن اختلف . تنــاءوا فى الديار ولا تَباغَضوا ، فإنه من يجتمع يَتَقَعْقَعْ عَمَدُه(٢) . أَلْزِمُوا النِّساء المهابة . نِعْم لَهْــو الغُرَّة(٣) المِغْزَل . إن تَعِشْ تَرَ ما لم تَرَه . قد أَقَر صامت . المِكْثار كحاطب

(١) للناقة شــطران : قادمان وآخران ، فكل خلف من أخلافها شــطر . والمعنى أنه اختبر شطرى الدهر خيره وشره .

(٢) تقعقع : اضطرب وتحرك .

(٣) الغرة : الشريفة .

نَيْـل . من أكْثَرَ أَسْقَط . لا تجعلوا سِرًّا إلى أَمَة . لا تَفَـرَّقُوا فى القبـائل فإن الغريب بكل مكان مظلوم . عاقدوا الثَّروة وإياكم والوَشائِظ(١) فإن مع القِلَّة الذِّلَّة . لو سُئلت العارية قالت أبغى لأهلى ذُلًّا . الرسـول مُبلِّغٌ غيرُ مَلُوم . من فسدت بطانتُه غُصَّ بالمـاء . أساء سمعًا فأساء جابَةً . الدَّال على الخير كفاعله . إن المسألة من أضعف المَسْكَنة ، قد تجوع الحُرَّة ولا تأكل بِثَدْيَيْها . لم يَجُـرْ سالكُ القصد ، ولم يَعْمَ قاصدُ الحق . من شدَّد نَفَّر ، ومن تراخى تألَّف . أوفى القول أوجَزُه . أصوبُ الأمور تَرْكُ الفضول . التَّغرير مفتـاح البؤس . التَّوانى والعجزُ ينتِجان الهَلَكة ، لكلِّ شىء ضَراوة . أحوجُ الناسِ إلى الغـنَى من لا يصلحه إلا الغنَى ، وهـم المـلوك . حُبُّ المـدح رأس الضياع . رضا النـاس غاية لا تُبْـلَغ . لا تَكْرَه سُخْط مَنْ رضاه الجَـوْر . معالجـةُ العفاف مَشَقَّة فتعوذ بالصـبر . اقصر لسانك على الخير وأخِّر الغضب فإن القدرة مِن ورائك . من قَدَر أزمع . أَمَرُّ أعمال المقتدرين الانتقام . جَازِ بالحسنة ولا تُكافِئ بالسِّيئة . أغنى النـاس عن الحقد من عَظُم عن المجازاة . من حَسَد من دونه قَلَّ عُذرُه ، مَنْ جعل لحسن الظَّنِّ نصيبا رَوَّح عن قلبه . عِيُّ الصمت أحمد من عِيِّ المنطق . الناس رجلان مُحْتَرِسٌ ومُحْتَرَسٌ منه . كثير النُّصح يهجم على كثير الظِّنَّة . من أَلَحَّ فى المسألة أَبْرَم . خير السخاء ما وافق الحاجة . الصمت يُكسِبُ المحبة . لن يَغْلِبَ الكذبُ شيئا إلا غلَبَ عليه الصدق . القلبُ قد يُتَّهم وإن صَدَقَ اللِّسان . الانقباضُ عن الناس مكسبة للعداوة ، وتقريبهم مَكْسَبةَ لقرين السوء ، فَكُنْ من الناس بين القرب والبعد ، فإن خير الأمور أَوْساطُها . فُسُولةُ(٢) الوزراء أَضَرُّ من بُغْض الأعداء . خير القـرناء

(١) الوشائظ : يقال هم وشيظة فى قومهم أى حشو فيهم .

(٢) فسل فسولة فهو فسل أى رذل لامروءة له . والوزراء : جمع وزير وهو النصير والظهير .

المرأةُ الصّالحة، وعند الخوف حُسْن العمل . من لم يكن له من نفسه زاجر لم يكن له من غـيره واعظ وتمكّن منه عدُوه على أسوأ عمله . لن يَهْلك امرؤٌ حتى يَمَـلَّ الناسُ عتيد فعله ، ويشتدُّ على قومه ، ويُعْجَبُ بمـا ظهر من مروءته ، ويَغْترُّ بقومه ، والأمر يأتيه من فوقه . ليس للخْتال من حسن الثناء نصيب ، لا نَمَـاء مع العدم . العِيُّ أن تتكلم فوق ما تسدُّ به حاجتك ، لا ينبغى لعاقل أن يثق بإخاء من تَضْطره إلى إخائه حاجةٌ ، أقل الناس راحةً الحقودُ . من تعمد الذنب لا تحل رحمته دون عقوبته ، فإن الأدب رفق ، والرفق يُمْن .

* * *

(٢)

الرَّسـائل

* * *

(١) كتاب التحالف بين عبد المطّلب بن هاشم وبين خُزاعة :

باسمك اللهم ، هـذا ما تحالف عليه عبـد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو ابن ربيعـة من خزاعة : تحالفوا على التّناصر والمواساة ، مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً[1] ، حلفا جامعا غير مُفَرِّق ، الأشياخُ على الأشياخ ، والأصاغرُ على الأصاغر ، والشاهدُ على الغائب ، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد ، لا يُنتقض ولا يُنكَث ، ما أشرقَتْ شمسٌ على ثَبِـير ، وَحَنَّ بفلاة بعير ، وما أقام الأخشـبان[2] ، واعتمر بمكة إنسان ، حِلفَ أَبَدٍ لطول أَمَد ، يزيده طلوعُ الشمس شَدًّا ، وظلامُ الليل

(١) صوف البحر : نبات يجرى على شكل الصوف وقد يقصد به الإسفنج .

(٢) الأخشبان : جبلان قريبان من مكة .

مدّا ، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجالَ خُزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون . فَعَلَى عبد المطلب النُّصرة لهم بمن تابعه على كلِّ طالب ، وعلى خُزاعةَ النُّصرةُ لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب فى شرق أوغرب ، أوحَزْنٍ أو سَهْل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى بالله جميلا .

* * *

(٢) كتاب أكثم بن صيفيّ إلى طيِّئ :

روى أبو الفضل الميدانى فى مجمع الأمثال أن أكثم بن صيفى كتب إلى طيِّئ يقول :

أُوصيكم بتقوى الله وصلةِ الرَّحم ، وإياكم ونكاحَ الحمقاء ، فإن نكاحَها غَرَرٌ وولدها ضياع ، وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حصونُ العرب ، ولا تَضَعُوا رقابَ الإبل فى غير حَقِّها ، فإن فيها ثمن الكريمة[1] ورَقُوءَ[2] الدم ، وبألبانها يُتْحَفُ الكبير ويغذَّى الصغير ، ولو أن الإبل كُلِّفت الطَّحن لَطَحَنَتْ . ولن يهلك امرؤٌ عرف قَدْرَه ، والعدَمُ عَدَمُ العقل لا عَدَمُ المال ، ولرجلٌ خيرٌ من ألف رجل . ومن عَتَبَ على الدهر طالت مَعْتَبَتُه ، ومن رضى بالقَسْمِ[3] طابت معيشته . وآفة الرأى الهوى ، والعادة أَمْلَكُ ، والحاجةُ مع المحبة خير من البُغْض مع الغنى . والدنيا دُوَلٌ : فما كان لك أتاك على ضَعْفِك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك ، والحسد داء ليس له دواء ، والشماتة تُعْقِب ، ومن يَرَ يوما يُرَ به . قبل الرِّماء[4] تُملأ الكنائن .

---

(١) يريد مهرها .

(٢) رقأ الدم : جف وسكن . والرقوء كصبور : ما يوضع على الجرح ليتوقف من النزف .

(٣) القسم : القدر .

(٤) الرماء : مصدر رامى . والكنائن : جمع كنانة وهى جعبة السهام .

الندامة مع السّفاهة. دعامة العقل الحلم. خَيْرُ الأمور مَغَبّة الصّبر. بقاء المودة عدل التعاهد. من يَزُرْ غِبًّا يَزْدَدْ حُبًّا. التّغرير مفتاح البؤس. من التّوانى والعجز نتجت الهلكة. لكل شئ ضراوة(١) فَضَرّ لسانك بالخير. عِيُّ الصّمت أحسن من عِيِّ المنطق: الحزم حفظ ما كُلِّفْتَ وتركُ ما كُفِيتَ. كثير التّنصح يهجم على كثير الظِّنّة. من أَلْحَف فى المسألة ثَقُل. من سأل فوق حَقِّه استحق الحرمان. الرفق يُمْنٌ، والخرق شؤم. خير السّخاء ما وافق الحاجة. خير العَفْوِ ما كان بعد القدرة.

(١) الضراوة: التعود.

* * *

سيد حنفى

وَبَعْــدُ

فهذه هى المجموعة الأولى من « الروائع » نقدِّمها ونقــدِّم معها هذا التصوُّر الجــديد لحركة الشعر فى العصر الجاهلى على امتــداد عصورٍ أدبيــة ثلاثة شهدتْ ثلاثَ مدارسَ فنية . ولسنا ندَّعى أننا وضعنا الصورة النهائية لحركة هذا الشعر ، أو أننا حدَّدنا خُطُوات منهجٍ مثالىٍّ لدراســةِ تطوره الفنى ، وإنمــا كل ما نملكه أن نقول إنهــا محاولة ، وكلُّ ما نتمناه أن نكون قد وُفِّقنا فيهــا ، وأن نرى بعــد ذلك دراسةً للشعر الجاهلى على أساسِ هذا التصوُّرِ الجديد .

ولم تبق لنــا بعد ذلك إلا كلمتان : كلمةُ تصحيحٍ ، وكلمةُ توضيحٍ .

أما الكلمة الأولى فتصحيحٌ لموضع الشاعر أبى دُؤادٍ الإيادىِّ من شعراء عصر البَسُوس ، فموضعه الصحيح تاريخيا قبــل امرئ القيس . والرواة يذكرون أن امرأ القيس كان يَرْوِى شعره ، ويتوكَّأ عليــه ، وأنه أخَذَ عنه وصفَ الخيل . وهــو — على كل حال — من شعراء عصر المُنْــذِر بن ماءِ السماء أمير الحــيرة (٥١٢ — ٥٥٤) ، والعــدو التقليدى لإمارةِ كنــدة من عصر حُجْــر أبى امرئ القيس .

وأما الكلمــة الأخرى فتوضيــحٌ لموقفنا من النصوص الجاهليــة للشعراء المخضرمين ، فقد رأينا أن نؤجِّلها إلى المجموعة الثانيــة من هذه « الروائع » التى سنُفْرِدها للعصر الإسلامى الذى ينتهى — فى تقسيمنا — بقيام الدولة الأموية ،

وذلك حتى لا تتوزّع صورتهم الفنيـة بين المجموعتين ، ولا ينقطع خط حركتهم الفنيـة بينهما . ومن أجل ذلك لم نقـف — مثـلا — عند لبيـد مع أنه من ألمـع شعراء العصر الجـاهلي ، ولا عنـد معلقته وهي من أروع قصائد الشـعر الجـاهلي .

والحمـدُ للهِ ربِّ العـالمين .

* * *

عن اللجنـة

يوسف خليف

الفهـــــرس

* * *

صـــفحة

عصر داحس والغبراء

٢٧٧

* * *

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٧٣٥ / ٢٠٠١

الغلاف/عبد العزيز السماحي